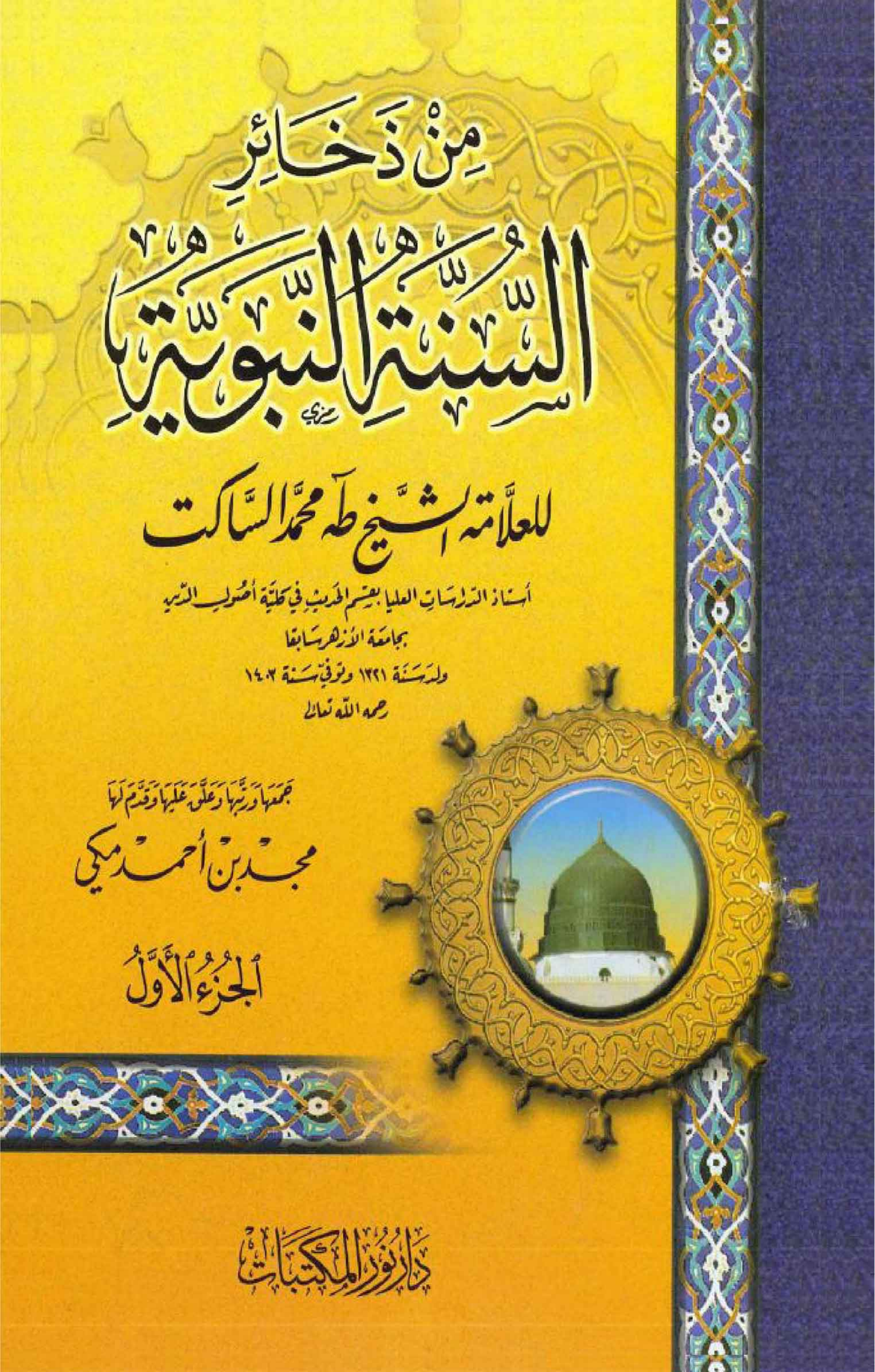


من ذخائر
السنة النبوية
للعلامة الشيخ طه محمد الساكت
أستاذ الدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقاً
ولد سنة ١٣٢١ وتوفي سنة ١٤٠٣
رحمه الله تعالى
جمعها ورتبها وعلق عليها وقدم لها
مجد بن أحمد مكي
الجزء الأول
دار نور المكتبات

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار نور المكتبات

السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي

هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١ - ص.ب: ٤٠٣٧٤ - الرمز البريدي: ٢١٤٩٩

مِنْ ذَخائِرِ

السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

(١)

مِنْ ذَخَائِرِ

السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

للعلامة الشيخ طه محمد الساكت

أستاذ الدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين

بجامعة الأزهر سابقا

ولد سنة ١٣٢١ هـ وتوفي سنة ١٤٠٣ هـ

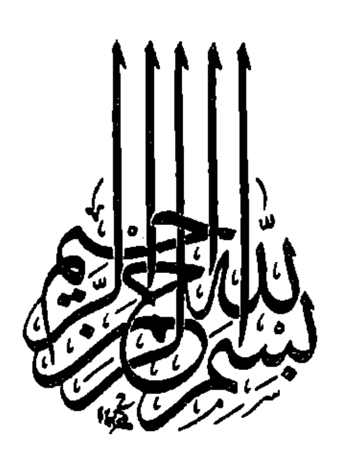
رحمه الله تعالى

جمعها ورتبها وعلق عليها وقدم لها

مجد أحمد مكي

الجزء الأول

دار نور المكتبات


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرِّ الميامين، وبعد:

فهذه طاقة[1] عطرة من رياض السنة النبويَّة، وهي مجموع الأحاديث النبويَّة التي قام بشرحها فضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت رحمه الله تعالى في مجلة الأزهر، ويَعود سماعي بفضيلة الشيخ، وتعرُّفي على اسمه لأوَّل مرة، عند إعدادي لرسالتي الماجستير في الحديث النبويِّ: " أقوال الحافظ الذهبي النَّقدية في علوم الحديث من كتابه سير أعلام النبلاء" سنة ١٤٠٩ حين قراءتي لتعليقات الأستاذ العلامة المحقِّق الشيخ شعيب أرناؤوط جزاه الله خير الجزاء، عند قول الذهبي في ترجمة عبدالله بن أُبيّ الخوارزمي: " فقول البخاري في "الصحيح": حدَّثنا عبد الله، حدثنا سليمان...فذكر حديثاً[2] فهو عبد الله بن أُبي ".

---

(١) يقولون: باقة من الزهر. والصواب: طاقة من الزَّهْر. والجمع: طاقات. أما الباقة فهي الحُزْمة من البقْل. كما في "معجم الأخطاء الشائعة" ص ٤٥.

(٢) ساق فضيلة الشيخ شعيب الحديثَ الذي أبهمه الإمام الذهبي عن أبي الدرداء ﷺ: كان بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مُغْضَباً، فاتَّبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: " أما صاحبكم هذا فقد غامر " =

قال الأستاذ شعيب: " قلت: أذكر أني قرأت شرحاً قديماً بمجلة الأزهر للشيخ طه الساكت، وقد جعل عنوانه: خصومة الأكابر. وقد وُفِّق لهذا العنوان أيما توفيق "[١].

وعَلَق في ذاكرتي منذ ذلك الحين اسمُ المؤلف وعنوانُ المقالة، وقمت بمراجعة مجلة الأزهر، واستخراج دفائن كنوزها في التفسير والحديث والفقه... ووقفت على تلك المقالة التي أشار إليها فضيلة الشيخ شُعيب حفظه الله تعالى، وجمعت سائر ما كتبه الشيخ الساكت في ركن السنة النبويَّة، وبقيت مجموعة لديَّ مع كثير من المجاميع المنتخبة من مجلات إسلامية كثيرة...

وفي لقاء إيمانيٍّ علميٍّ مع الداعية الخطيب الأديب الشيخ جمال الدين سيروان، تكلَّم فيه عن أدب الخلاف، ونقل عن شيخه العلامة المربي الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله تعالى أنه كان يُوصي تلاميذه بمراعاة أدب الخلاف، ويقول لهم: إذا كان لا بد من الخصومة فلتكن كخصومة الأكابر... فقلت للأستاذ: إنَّ هذا المعنى الذي يدعو إليه فضيلة الشيخ عبد الكريم كتب فيه فضيلة الأستاذ طه الساكت مقالات ضافيات في مجلة "الأزهر" تحت هذا العنوان، فَسُرَّ الأستاذ الشيخ جمال الدين بهذا التوافق؛ وذلك ممَّا شجَّعني لأعود إلى تلك المقالات، وأعزم على ترتيبها وخدمتها ونشرها.

قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلَّم، وجلس إلى النبيِّ ﷺ، وقصَّ على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: "والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم "، فقال رسول الله ﷺ: " هل أنتم تاركو لي صاحبي، هل أنتم تاركو لي صاحبي. إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت " أخرجه البخاري. وانظر شرحه في هذا الكتاب ص.

(١) سير أعلام النبلاء ١٣: ٥٠٣، وانظر - أيها القارئ - كم لتعليقة صغيرة من أثر ونفع ودعوة إلى خير ودلالة عليه، وكم من تعليقة صغيرة أو كبيرة، من ضُرٍّ ومنعٍ عن خيرٍ وصدٍّ عنه، يُرسلها من لا يحاسب نفسه، ولا يراقب لسانه وقلمه.

ولم تتوفَّر لديَّ آنذاك معلومات عن فضيلة الشيخ الساكت، ولم أقف له على ترجمة في المجلات ولا سيما مجلة "الأزهر" التي استمرَّ يكتب فيها قرابة ستة عشر عاماً منذ سنة ١٣٦٢ حتى سنة ١٣٧٨، وقدَّر الله عزَّ وجلَّ أن أتعرَّف على كبرى بناته السيِّدة الفاضلة أُمامة التي تُدرِّس في إحدى ثانويات جُدَّة، واتَّصلت بها، وأعلمتها بعزمي على نشر مقالات والدها في السُّنَّة النبويَّة، ففرحت واستَبْشرت، وأمدَّتني بما توفَّر لديها من معلومات عنه، ثم اتَّصل بي الأخ الأستاذ السيد يحيى بن طه الساكت من القاهرة، وشجَّعني على المُضيِّ في هذا العمل، وأرسل لي بعض الأوراق والرسائل والمذكِّرات التي تفيدني في ترجمة والده رحمه الله تعالى.

وبقي هذا الكتاب من جملة الأعمال العلميَّة التي أعزم على نشرها، حتى سَنَحت لي الفرصة، وقويَ العَزْم، فقمت بقراءة الأحاديث وترقيمها والتعليق عليها، ثمَّ ترجمت للمؤلف، وعرَّفت بمقالاته، ثم بيَّنت جوانب خدمتي لها.

وممَّا شجَّعني على إنجاز هذا العمل، ووفَّر لي الأسباب لإخراج هذا الكتاب على هذا الوجه، الأخ الدكتور الشيخ عبد الله بصْفر الأمين العام للهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم؛ ليكون مرجعاً لمدرِّسي المعاهد القرآنية التابعة للهيئة، جزاه الله خير الجزاء.

أسأل الله سبحانه أن يتقبَّل مني هذا العمل، وأن يعظم الأجر لصاحبه ومؤلِّفه، وأن ينفع به مَنْ قرأه ودعا لمؤلِّفه وجامعه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلوات الله وسلامه على نبيِّه خاتم المرسلين.

وكتبه

محمد مكي

الاثنين في ٢٨ محرم سنة ١٤٢٤

ترجمة الشيخ طه محمد الساكت
١٣٢١ – ١٤٠٣هـ
١٩٠٣ – ١٩٨٣م

عندما قرأت مقالات الشيخ في السنَّة النبويَّة، أحببتُه وأكبرتُ علمَهُ وفَضْلَهُ، ولمست إخلاصه وصدقه وتحرِّيه وأمانته... ولم أجد لفضيلته ترجمةً منشورة لأحد تلاميذه وأصحابه، وما أكثرهم!! ثمَّ أكرمني نجله الكريم السيد يحيى طه الساكت وفقه الله ورعاه بأوراق ومذكَّرات، رتبتُها ونظرتُ فيها، واستخلصت منها الترجمة التي بين يدي القارئ.

وأهمُّ ما يتعلَّق بترجمته ورقات كتبها في نسبه ومولده ونشأته، ثم ورقة أخرى في موجز حياته العلميَّة، أبتدئ الترجمة بإيرادهما كما كتبهما بقلمه. قال رحمه الله تعالى:

نسبي: طه بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد البر - وعبد البر، لَهُ ضريحٌ يُزار بمسجدٍ تابعٍ لوزارة الأوقاف ببلدتي ومسقط رأسي "ميت عفيف" التابعة لمركز منوف بمديرية المنوفية - ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفي - صاحب المقام الشهير بمسجده بقرافة المجاورين بمصر - وينتهي نَسَب العفيفي إلى الحسن سِبْط رسول الله ﷺ [1].

---

(١) اقتُطف هذا من النسبة الموجودة لدى ابن عمِّي الشيخ محمد عبد البر (طه).

وفي شهادة نسب مصوَّرة عندي صادرة من نقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربيه لابنة الشيخ السيدة عائشة برقم ٢٩٣٥ بتاريخ ١٩٩٩/٧/٤م وأنها من ذريَّة الإمام الحسن عليه السلام، فهي الشريفة عائشة بنت طه بن محمد "الساكت" بن محمد بن إبراهيم
=

وأمُّه : شريفة بنت عبد السلام بن يوسف بن محمد بن عبد الرزاق بن محمد شقيق الشيخ العفيفي.

مَسْقط رأسي : بلدة " ميت عفيف " التابعة لمركز منوف، مديرية المنوفية.

ولدتُ في ٢٥ من ربيع الأول ١٣٢١ هجرية، الموافق ٢١ من شهر إبريل ١٩٠٣ ميلادية، ولأمر قدَّره الله رَحَلت الأسرة إلى جهة كفر الدوار بحيرة، ولم أُتَمِّم في رضاعي وقتئذ شهرين، ولأسباب المعيشة انتقلت بي الأسرة إلى القصعي بمحطة الرمل الميري برمل الإسكندرية، وفي هذه البلدة حفظت القرآن وسنِّي تبلغ الثانية عشرة، ثم اشتغلت بالمعيشة بضْعَ سنين مَعَ تعهُّدي للقرآن ومخالطة أهل العلم.

ولمَّا اتَّصلت بصاحب الفَضْل عليَّ أستاذي الأول الشيخ سيِّد رمضان اشتدَّ شوقي للعلم، ورأى مني ذلك، فزاده إلهاباً، وطالع لي علوم السنتين الأوليَيْن، وجاهد معي، حتى التحقت بالسنة الثالثة بالمعهد الإسكندري، مضحّياً في سبيل هذه النعمة كلَّ مُرْتَخَصٍ وغالٍ، وكان ذلك في سنة ١٣٣٩هجرية، ١٩٢١ ميلادية.

ولانقلابٍ سياسيٍّ أُلغيت هذه السَّنَة على طلاب الأزهر وفروعه، وبالمعهد المذكور نلْتُ الشهادة الأوليَّة مُنْتَسباً، ثم الشهادة الثانوية متطوِّعاً، والتحقت بالقسم العالي بالأزهر مُنْتَسباً" انتهى.

وبعد كتابة ما تقدم وقفت على أوراق أخرى فيها زيادة تفصيلٍ عن نشأته الأولى، وقد كُتبت هذه الأوراق بخطه بتاريخ ١٧ محرم ١٣٤٢ الموافق ٣٠

ابن محمد من ذريّة الشريف عمر المرزوقي العفيفي بن مرزوق الكفافي بن أحمد بن عيسى بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى بن يحيى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السِّبط بن الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء بنت سيِّدنا محمد رسول الله ﷺ.

أغسطس ١٩٢٣ وهو في العشرين من عمره، وهذه الأوراق هي موضوع تعبير كتب فيه جواباً مفصَّلاً عن سؤالٍ يطلب فيه مدرس المادة أن يذكر تاريخ حياته منذ منشئه إلى اليوم، فقال بعد مقدِّمة:

" كيف أذكر تاريخاً حافلاً حَوَى قَصَصاً شتَّى، وجمع آثاراً عظمى... لا أقدر على ذلك مهما استفرغت الجهد. نعم أقدر على ذكره مُجْملاً فيما ينبغي الإجمال فيه، ومفصَّلاً فيما يحسن فيه التفصيل، وها أنا في ذلك شادٍ بلا بأو (أو) مغالاة، ولا عُجْبٍ أو مباهاة، فأقول: أما مَسْقط رأسي فبلدة مائة عفيف[١]، بلدة من بلدانٍ المنوفية، مركزها منوف، مديريتها شبين الكوم، يُضرب بِهَا المثل في جودة أرضها وخصوبتها.

وأما والدي فهو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد - لُقِّب بالسَّاكت؛ لطول سكوته، ومَيْله للعزلة - ابن عبد الوهاب - صاحب مقام بأكبر مساجد البلدة[٢]– ابن العفيفي – صاحب مقام عظيم تجاه سيدي عبد الله المنوفي بقرافة

---

(١) هكذا رسمها بخطِّه، وتقدم أن أسماها: ميت عفيف.

(٢) لا يجيز الشيخ رحمه الله تعالى بناء المساجد على القبور، والتوجُّه إليها في الصلاة، بل حذَّر من ذلك في رسالة رأيت مسودتها بخطه عندما كان مدرساً بمعهد القاهرة الثانوي، وجَّهها إلى وزيرِ الأوقاف آنذاك، وقال فيها: "في مصر -يا معالي الوزير- مساجد كثيرة، يستقبل فيها المصلُّون أضرحةً منْصوبةً، إن لم تُلْهِهم عن ذكر الله فلا مناصَ من أن تأخذ جانباً من خشوعهم وضراعتهم ونُسكهم وعبادتهم في أعقل معاقل الإيمان، وأعظم أركان الإسلام، وهي الصلاة، تلك البقية الباقية للمسلمين – يا معالي الوزير – والتي شرَّفكم وأعزَّكم وحاطكم ورعاكم؛ إذ جعلكم قوَّامين عليها في بيوتٍ أَذنَ الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وإذ ندبكم للعناية بهذه البيوت، فانتدبتم لإنهاضها والعمل على أن تكون لله وحده نظيفة طيبة كريمة محبَّبة زاكية.

فهل لمعالي الوزير أن يضيف حسنةً إلى حسناته الكثيرة، ويداً إلى أياديه البيضاء الناصعة برفع هذه الأضرحة إلى محالِّها اللائقة، حتى تخلُص للمسلمين عبادتهم، وتزكو عند =

مصر، وقد زُرْته منذ عامين -.

تزوَّج والدي بأثيلةٍ[١] في المجد، عريقة في النَّسب، بينها وبينه وشيجة رَحِم، غير أنَّ عِشرتهما لم تطل، ووَصَالهما لم يأْتلف، وجَدَّهُما[٢] لم يَدُم، وتلك حكمةٌ عالية أبى الله إلا أن تكون، ولا مناص ممَّا حُمَّ، ولا بد ممَّا كُتب.

بعد وضعي بأيام قلائل اقْتضَت إرادة الله أن تتزوَّج والدتي بوليٍّ أمري الآن، وهو رجل من جرثومة[٣] طيِّبة، وسلالةٍ شريفة اسمه: محمد بن محمد إسماعيل روتان، لَقبُ عائلةٍ مشهورةٍ ببلدة دسوق وكَفْر الدوَّار.

ما الذي فعل معي هذا الرجل؟ فعل مالا يفعله الأبُ الرحيم، والوالد

الله ضراعتهم، ويتمَّ لله إخلاصهم، وحتى يذكركم الله كما أخلصتم له الذكر. وحسبكم من سعادة الدنيا والآخرة أن يذكركم الله عز وجل.

ولست أذهب مذاهب الغالين ولا المتنطِّعين الذين يُكفِّرون الناس أو يؤثِّمونهم بصلاتهم في مساجد الأضرحة، ولست كذلك - عياذاً بالله تعالى - ممن يرغبون في إثارة الجدل الديني والخصومة بين الناس... وكيف ومَثَلي الأعلى الذي عاهدتُ الله تعالى عليه حتى ألقاه هو أن أكون من الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؟

إنما الذي أذهب إليه وأرجوه، وأناشدكم الله تعالى أن تحقِّقوه هو أن تُستدبر هذه الأضرحة ولا تُستقبل، فإذا نُقلت إلى مقبرة عامة أو خاصَّة فذلك أبْعد للرِّيبة وأقرب إلى الخير، أما منع إنارتها والمغالاة في تزيينها والإسراف في النفقات عليها حين زيارتها، فله نظرتكم الموفقة، ورأيكم المسدد..

هذه أمنيتي - يا معالي الوزير - صبرتُ عليها طويلاً حتى هيَّأ لها فرصتها المباركة، فوضعتها بين أيديكم، ضارعاً إلى الله أن يُكرمكم كما أكرمتم بيوته، وأن يذكركم كما ذكرتموه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) أي: أصيلة.

(٢) أي: حظهما الدنيوي أي البخت.

(٣) الجُرْثومة: الأصل.

الشَّفيق مع ولده!!

بالغ في إكرامي، ورحَّب بي، وأحبَّ والدتي لأجلي، وعظَّم من شأن عائلتي، ورفع من قدر المُعْتَزين إليَّ، بل والمنتسبين إلى من انتمى إليَّ. فكنا في ذلك الوقت قاطنين ببلدة (العكريشة) في رَغَد في العيش، وسَعَةٍ منه، ثمَّ رأى وليُّ أمري النُّقلة إلى بلدة القصعي بالرَّمْل، فظعن بنا حينئذٍ إلى تلك البلدة، وقد بلغت أربعة أعوام من العمر. واختار بعد مجيئه إليها أن يكون بستانياً بعد أن كان صياداً.

ما الذي أصابه بعد قدومه القَصْعي؟ ماتَ له طفل بلغ الأولى من عمره بعد بنت بلغت الثالثة من عمرها أيضاً، فما تأثَّر بهذا وما عَبَأ به، بل احتزم بنطاق العزيمة، وتَسَرْبَلَ بلباس الصبر والتقوى ضارعاً إلى الله أن يبقيني له.

وبعد عُدُونَنا [١] بهذه البلدة عاماً سلَّمني إلى صاحب مكتب ماهر، قد اشتهر بتحديق[٢] الصِّبيان وترقيتهم، وقال له: رَبِّهِ مُحْسناً تعليمه، مُهذِّباً نفسه، مُقيماً أوَدَه[٣]، ودونَكَ ما طلبت. فرحَّب بي المعلم، وأخذ في تدريبْي على القراءة والكتابة، وترقيتي في مدارج التعليم إلى أن حفظت القرآن الكريم جيِّداً، وتعلَّمت مبادئ الحساب وقواعد الإملاء متَّبعاً ذلك بالتجويد، وعمري إذْ ذاك اثنا عشرة سنة.

بعد هذا أراد وليُّ أمري دَرْجي ضمنَ المعاهد الدينيَّة، فَصَرَف عنايته في استخراج شهادة ميلادي أو تطعيمي حيث ضاعتا ريثما نُقلنا من بلدتنا الأصلية،

(١) أي: إقامتنا.

(٢) أي: الإحاطة بهم وتشديد النظر إليهم.

(٣) أي: اعوجاجه.

ولما أنْ جاءت إحدى الورقتين بعد كبير العناء، وطويل الاستقراء، كتب الله أن لا ننال طِلْبتنا في هذا العام، وأن لا نقضي إرْبنا [١] في تلك السنة، وما ذلك إلا لحكمةٍ أراد الله إظهارها.

فقد خبَّرني كاتبُ المعهد بعد أن امتُحنت في القرآن، وأُتيح لي الدَّرْج في المعهد عامئذ بأنَّ ورقة التطعيم مرفوضة لِدَدٍ [٢] أُلفي بها، ووَضَرٍ [٣] وُجد فيها، فحاولت الانتساب فما أمكن، وأجْهدتُ النفس في إخراج صورة شهادة الميلاد فلم أتمكَّن.

هنالك يَئِسْتُ من البحث عليها، وقَنطتُ من التحاقي بالمعهد، ورجعت بخُفي حنين، وصار ما تجشَّمته أثراً بعد عَيْن.

ما حصل بعد اليأس وما كان بعد القنوط؟ اقتعدت الدار بُرهةً من الدهر، أنتظر أمراً يُقضى، وأتربَّصُ حكماً يُبْرم، وأتمثَّل بقول الحكيم الشاعر:

إنَّ الأمور إذ اشتدَّت مسالكها ... فالصَّبر يفتح كلَّ ما رتَجا

لا تَيْأسن وإنْ طالت مطالبه ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

وكنت أُصيبُ تلاوة القرآن، وأُديمُ مطالعة ما يروقني من الكتب فَضْلاً عن قضاء المصالح وأداء الواجبات، ولما خفت ذهاب المعلومات، ونسيان القرآن، التحقتُ بمدرسةٍ أوَّليَّة بالقرب من بلدتنا بعد استشارة وليٍّ أمري في ذلك، وما زلت مُجِداًّ في الحفظ، ومجتهداً في الدروس إلى أن تعرَّفت برجلٍ حميد السَّجايا، كريمِ الخصال، حازمِ الرأي، ولمَّا تَوَطَّدت الإلفة، واتَّصلت

(١) أي: بُغيتنا.

(٢) الدَّدُ: اللهو واللعب.

(٣) أي: وسخ.

المَقَةُ [١]، قال لي ذات يوم: إني تاجرٌ أحتاج لأمين مثلك يكتب لي الصَّادر، ويُثبت لي الوَارِد، حتى أكون على بصيرة من أمري، فإن رغبتَ في أن تكون لي ظهيراً فَنِعْم الظَّهير، وإن عَزَفْتَ عمَّا قلت، فلست لك من القالين [٢]، فاستَشَرت في ذلك وليَّ أمري، فقال: لتكتب له على أن لا يُلهيك عن دروسك، ويمنعك عن مذاكرتك، ثم مازلت أرعى المصلحة، وألاحظ المهنة حتى أراد الله نوالي البُغْية، وحصولي على الأمنيَّة، وإذا أراد الله نفاذ أمرٍ هيَّأ أسبابه.

نقلي إلى دور آخر:

ثمَّ بعد أن قضَيْتُ عامين ونصفاً عند ذلك التاجر، أُولعت بطلب العلم لما رأيت فيه من المآثر العظيمة، والمفاخر الجليلة، فعرضت هذا على صاحبي، فما كان جوابه إلا أن قال: أنا أوَّل مُعْضد لك على طلب العلم، ومُؤازرٍ لك على عُلوِّ المكانة، وارتفاع الشَّأن، فشكرتُ له على ما أبداه، وامتدحْته على ما أظهره.

وفي عامٍ فارقته سافرتُ للبحث عن شهادة ميلادي، وللتعارف بيني وبين أسرتي، فوصلت لبلدتي، وأقمت فيها أياماً، وذهبت مع والدي لزيارة أهل البيت، ولم يكن الوالد حفظه الله قد رآني إلا مرَّةً واحدة قبل هذه، ولذلك كاد يُغْشى عليه عندما لمحني، ثم قال: يا ولدي ماهذه الفرقة؟ وما هذا الجَفَاء!! غير أني أقول: لا تَثْريب [٣] عليك اليوم، يغفر الله لك، وهو أرحم الراحمين.

وما زال يدعو لي بالتوفيق إلى أن فارقتُه بمصر بعد أنْ جاسَ معي

---

(١) المقةُ: المحبَّةُ. وقد ومِقَ يَمِقُ مِقةً. والهاء فيه عوضٌ من الواو المحذوفة، وبابه الواو. كما في "النهاية" ٤ : ٣٤٨.

(٢) أي: المبغضين.

(٣) أي: لا لوْم.

ثَبَجها[١]، وجَابَ معي معظم أرجائها، وقد كان بودِّه أن أنتسب للأزهر فلم ينل ما ودَّه، لما رأى ما عندي من الحيْدَة[٢] عن ذلك.

وبعد أن قضَيْت نَهْمتي[٣] من الزيارة، وحصلت على ضالَّتي من المديرية، قدمتُ محلَّ إقامتي، وهمَمْتُ بإرسالها للمعهد كي تخوِّل لي السلوك ضمنه، فمنَّ الله عليَّ باتِّصالي بأحد أجلَّة العلماء وأفاضل النُّبهاء، يدعى بالسيِّد، وهو سيِّد. فما كان من هذا السيِّد الهمام، والعالم الإمام الذي أعجزُ مدى الدهر عن شكره، ولن أقوم حياتي بواجبه، إلاَّ أنْ سَلَك بي مسالك الرجال، فطَوْراً يُرشدني للهدى، وتارة يُهدِّدني عن الخَطَل بالأذى، بيْنا تراه ملاطفاً إذا هو معاتب، وبينما تراه عاطفاً إذا هو معاقب، فللَّه دَرُّه من مُهَذِّب، ولله أبوه من مُنقذ، فلقد أنقذني من ظلمات الجهل إلى معالم السَّعادة. قرأتُ عليه في نصف سنة ما قُرِّر في عامين، وانتسبتُ للمعهد بواسطته منذ سنتين، وألحقتُ بالسنة الثالثة بعد امتحاني فيما طلب، وقيامي بما وَجَب، فحمداً لك اللهمَّ على ما أوْليْتَ، وشكراً لك على ما أسْدَيْت، وغفراناً منك على ما زَلَّ به اللسان أو اجتلبه[٤] الجَنَان.

بعد انتسابي في المعهد ولحوقي به :

انتسبتُ للمعهد عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف، فكنتُ أجدني دائماً فرحاً مُستبشراً بما فَلَجْت[٥]، قريرَ العين، مُثْلج الصَّدر بما ظَفِرتُ،

---

(١) أي: وسطها.

(٢) الحيْدة: الميْل والانصراف.

(٣) النَّهمة: الحاجة، والشهوة في الشيء.

(٤) أي: خدشه.

(٥) الفُلْجة: الظفر والفوز بالمحبوب.

وكنت سالكاً طريقاً وسطاً، وخطة حسنه في المذاكرة والمدارسة، ولا أُفرِط ولا أُفرِّط، وكنت ليِّنَ العريكة مع إخواني، منشرحَ الصَّدر لكلٍّ منهم، وممَّن أُولعتُ بحبِّه أخي محمد زكي المغربي، فكنتُ مُصَاحباً له، ومُجالساً، فكان أدامه الله يراعيني بنصائحه، ويُرشدني بتقواه، وما زلنا في جِدٍّ واجتهاد حتى دالت الأيام، وانقلبت الأحوال، وبُدِّل السُّرور بالأحزان، حيث أُلغي امتحان تلك السنة المشؤومة لاضطراب سياسيٍّ، وتَرَجْرج حالي، ووقعت حوادث مُؤْلمة تجعل الولدان شيباً.

بعد أنْ زالت تلك المفازع، وهاتيك الكوارث، وَهَدَأَ الحال، وعمَّ الاطمئنان، رَجَعَ الطلاب إلى معاهدهم عَقِبَ السنة المشؤومة، وقضوا فيها إرْبَهُم من دروس العلوم وإتقان الفنون، ومازالوا كذلك إلى أن تقرَّر امتحانهم، وآن إبَّان اختبارهم، فَنَجَح الجمُّ الغفير، وظفر كلٌّ بانتقاله إلى السنة التي بعدها، ألا وهي السنة الرابعة الدراسية سنة الجِدِّ والاجتهاد، والمثابرة على العمل، وطرح الرُّقاد، وقد كنت في مقدِّمة ناجحي السنة الثالثة بعناية أساتذة نبغاء، ومدرِّسين حُكماء، ومربِّين أجلاء سلكوا بنا جادَّة الطريق، واصْطَفَوْا لنا لُباب كلِّ عميق، فأنْعِمْ بهم من فطاحل عظماء، وأكرم بهم من رجال أتقياء، زرعوا فَحَصَدوا، وعملوا لله فوجدوا، فما أحسن غرسَهُم، وما أجلَّ عملهم.

أسأل الله أن لا يحرمنا رضاهم، وأن لا يخزينا فيهم، وأن لا يقطعنا عنهم، إنه أكرم مسؤول، وأعظم مأمول " انتهى.

وكلُّ ما تقدم ذكره ممَّا كتبه بقلمه في صفحات متفرِّقات تحدَّث فيها عن نشأته وبداية طلبه للعلم، ثم وقفتُ على صفحة واحدة كتب فيها تعريفاً مُوجَزاً بحياته العلميَّة ومراحله الوظيفيَّة قال فيها:

موجز حياته العلميَّة :

في عام ١٩٣٤ نال شهادةَ التخصُّص القديم في التفسير والحديث، وكان أول فرقته. وشهادة التخصُّص القديم تعادل

الدكتوراه، وتُسوِّغ لحاملها التدريس بالجامعات.

في عام ١٩٣٥ كان أول المتسابقين في امتحان الوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف.

من عام ١٩٣٥ - ١٩٣٩ عُيِّن واعظاً عاماً بالفيوم ثم بالإسكندرية.

من عام ١٩٣٩ - ١٩٤٨ عُيِّن مدرِّساً بمعهد القاهرة الثانوي.

من عام ١٩٤٩ - ١٩٥١ بُعث مُدرِّساً بكليَّة الشَّريعة بمكة المكرمة.

من عام ١٩٥٢ - ١٩٥٣ عاد مُدرِّساً بمعهد القاهرة الثانوي.

من عام ١٩٥٣ - ١٩٦٧ عُيِّن مفتشاً للعلوم الدينية والعربية، ثم مفتِّشاً عاماً للعلوم الدينية.

في عام ١٩٦٧ نُدب للدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر.

من عام ١٩٦٨ - ١٩٧٠ نُدب مدرِّساً للتفسير والحديث بالجامعة الإسلامية بليبيا.

في عام ١٩٧١ نُدب مدرِّساً للحديث في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر.

في عام ١٩٧٢ نُدب مدرِّساً للحديث وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في أسيوط.

من عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤ نُدب مدرِّساً للحديث وعلومه في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان.

من عام ١٩٧٥ - ١٩٧٦ نُدب مدرِّساً للحديث وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

في ١٢ من شهر رمضان المعظَّم عام ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م رغبت المملكة المغربية في إيفاد عالم من كلٍّ قطر عربي لإحياء هذا الشهر الكريم بالدراسات الحديثيَّة وغيرها، فكان هو المندوب الوحيد الذي اختاره الأزهر ممثِّلاً لمصر والأزهر.

وله بحوثٌ ودراساتٌ ومذكِّرات في الحديث وعلومه لا تزال مخطوطة، والله المستعانُ على جَمْعها وطبعها، ولا حَول ولا قوَّة إلا بالله " انتهى.

فهذه الأسطر السابقة ممَّا كتبه عن نفسه العلامة المحدِّث الشيخ طه بن محمد الساكت، والتي تُقدِّم صورة مجملة، وتعريفاً عاماً عن أسرته ونشأته، ومراحل حياته العلميَّة والوظيفيَّة.

وهذه شَذَرات أُخرى تُلقي بعض الضوء على حياته من خلال كتابه "درجات الناس عند الملوك"؛ إذْ كتب فيه بعض خواطره وذكرياته، تُظهر بعض الجوانب من حياته:

حجته الأولى والثانية وانتدابه للتدريس بمكة المكرمة :

" حجَّ أبو أمامة [(١)] رئيساً لبعثة الأزهر عام ١٣٥٩، ويقال: إنها كانت بعثة نموذجية [(٢)]، ثم حجَّ مستقلاً عام ١٣٦٧ مع والدته وزَوْجه الأولى، وزار فيمن

---

(١) وهي كنيته رحمه الله تعالى، تكنَّى بِهَا نسبةً إلى الصحابي الجليل أبي أمامة الباهلي صُدَيّ بن عَجْلان، من بقايا الصحابة بحمص، توفي سنة ٨٦ رضي الله عنه، وهو اسم ابنته الكبرى السيدة أمامة وفقها الله ورعاها.

(٢) وقد كتب الشيخ الساكت عن حَجَّته الأولى عدة مقالات في مجلة (الإسلام) في الأعداد ١٧ و ٢٠ و ٢١ و ٢٣ من السنة العاشرة (١٣٦٠ = ١٩٤١) بعنوان: " من ذكريات الحج " تحدَّث فيها عن أمور أربعة أثَّرت في نفسه تأثيراً عميقاً، واحد مؤلم، ومناظر ثلاثة سارة، أما المنظر المؤلم فهو كثرة المحتاجين والسائلين والمُلْحفين، أما المناظر السارَّة، فأولها اتِّحاد الجامعتين الأزهرية والمصرية اتحاداً وثيقاً، وثانيها: إكرام المصريين والحفاوة =

زار بعوث التدريس، فلم يجد أكثرهم على ما يتمنَّاه من التعاون والتآزر، وما يحبُّ لنفسه من معاني الخلال!

شكا بثَّه وحزنه إلى الله، ووَدَّ لو يُبعث فيعمل أول ما يعمل على إحلال الصَّفاء محل الجفاء، وعلى تجميل بعثة أمِّ القرى حتى تكون زينة البعوث في الإسلام... وحقَّق الله أمنيته، فنُدب عام ١٣٦٨=١٩٤٩ مدرساً بالبلد الحرام.

سَعْيُه في الإصلاح في بعوث التدريس بمكة المكرمة :

لما استقرَّ أبو أمامة، وقرَّ عيناً بمكة، خلص نجياً هو والأستاذ الجليل الدكتور عزَّام بك [١]، وزيرُنا المفوَّض بالمملكة العربية السعودية إذْ ذاك...

بهم، وبذل العناية في توفير راحتهم، وثالثها: اعتدال علماء نجد في محادثتهم ومعاملتهم للحجَّاج، وذكر في المقال الثاني: لقاءه مع شيخ علماء المدينة المنورة عبد الله بن جاسر، وهو لقاءٌ كلُّه مُحَاسَنَة وملاطفة ورفق واعتدال. ثم تحدَّث عن أسباب نجاح البعثة الأزهرية، وأرجع أسباب النجاح بعد توفيق الله تعالى إلى أمور ثلاثة هي: سدُّ أبواب الجدل، والأناة والاحتمال، واللين والتواضع.

كما كتب في مجلة (الرابطة العربية) في العدد (٢٦٧) من السنة السادسة (١٣٦٠ = ١٩٤١) مقالة بعنوان: " من ذكريات الحجاز" تحدَّث فيها عن مدرسة العلوم الشرعية، ومكتبة الحرم المكي، ومكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة.

(١) الدكتور عبد الوهاب عزَّام المولود سنة ١٣١٢ والمتوفَّى سنة ١٣٧٨، العالم الأديب، تخرج من مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، ودرس في الجامعة المصرية، ونال شهادة الآداب والفلسفة، ثم التحق بجامعة لندن ونال منها درجة الدكتوراه في الآداب الفارسية، وعُيِّن عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية، ثم عيِّن وزيراً مفوضاً لمصر في المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٨، ونقل إلى الباكستان، وأعيد إلى السعودية سفيراً سنة ١٣٥٤، وأنشأ جامعة الملك سعود في الرياض، وتوفي بالسكتة القلبية فجأة بمنزله في الرياض، ونقل بالطائرة إلى مصر ودُفن في حلوان، رحمه الله تعالى " كما في "الأعلام" ٤: ١٨٧.

وَرَجا منه أن يكون رئيساً للجنة الإصلاح. واشترط للعضوية الدائمة أن يتحلَّى العضو بهذه الخِلال الثلاث: الحكمة، والبذل، والحِلم، يريد بِهَا ألا يكون رجل الإصلاح في حاجةٍ يوماً إلى الإصلاح.

وأما العضو المندوب فاشترط فيه أن يكون أعرف بالخَصْمَيْن، وأرجى للنجاح "[١].

ومن خلال بحثي في بعض أوراقه التي أطْلَعَني عليها نَجْلُه الكريم السيِّد يحيى الساكت، تظهر معالم أخرى من شخصيَّته، وكذلك من خلال المقالات الكثيرة التي نشرها في كثير من المجلات الإسلامية الذائعة الصِّيت الواسعة الانتشار في عصره لمن أراد أن يستقصيَ جوانب حياته ومجالات عطائه.

* * * * *

(١) درجات الناس ص ١٥.

نشاطه العلمي والدعوي

الوعظ والتذكير:

من أبرز أعمال فضيلة الشيخ طه: قيامه بالوعظ والإرشاد والتذكير والدعوة إلى الله عزَّ وجل، حيث كان أوَّل المتسابقين في امتحان الوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف سنة ١٩٣٥، وعُيِّن واعظاً عاماً بالفيوم، ثم بالإسكندرية.

واستمرَّ من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٣٩، حيث تمَّ بعد ذلك تعيينه مُدرِّساً بمعهد القاهرة في أول إبريل ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٨.

وقد ذكر بعض مواقفه في الدعوة والتذكير، وطريقته في الدعوة العامة، وقضائه على كثير من البدع والمنكرات الشائعة بينهم آنذاك.

كتب في مجلة الإيمان في العدد الثاني عشر من السنة الثانية ١٣٥٤ تحت عنوان:

حديث عيان: واعظ يقضي على خرافتين شائعتين:

لست أريد أن أحدِّثك عن الخرافات والدجل في مصر وفي غير مصر، فقد شاع أمرهما وذاع حتى خُدع بِهما بعض من لا تظن بأساً بِلُبِّه ولا دَخَلاً [١] بفطنته: وإنما أروي لك قصتين واقعيَّتين كانتا لأعظم وسيلة في تقويض خرافتين ملأتا أدمغة العامة وأشباه العامة في بلدتنا منذ عهد بعيد أولاهما: الإنفاق من تحت "السجادة"، وأُخراهما: طَيران الميت وزيارته الأولياء رغم حامليه.

١- فاجأنا بمجلس عمدة القرية رجل ممتلئ قوةً وصحةً بصوت قوي

---

(١) أي: فساداً وعيباً.

جهير، وعمامة كبيرة حمراء، في عنقه سبحة ضخمة، وفي يده عصا غليظة، قد رُصِّعت بالمسامير، دخل يُهلِّل ويكبِّر من غير استئذان ولا سلام، فأول ما وقع في قلبي أنه مُخادع كذاب، فانْبَريت له دون الجالسين، فقلت: من الرجل؟ فقال: فلان. وما عملك؟ فقال: من المتوكلين، فقلت: كيف تعيش؟ فقال: من عند الكريم. فلم أزل أستدرجه حتى صارحني في غير حياء: أنه مكث أعواماً ستة ينفق من تحت السجادة، وأقل ما كان يجد كل صباح عشرون قرشاً، ثم لمّا حسده أقاربه على هذا الرزق أُفشي السِّر، فانقطع عنه، وكان من العابدين القانتين. فقلت: ياللعجب! تشكر ربَّك وتعبده فيقطع عنك رزقه ومعونته، وهو الذي يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والله إنك لمفتر كذَّاب، فعلاه خِزْي، ولم يستطع أن يجيب شيئاً، ثم استَبَان من خلال حديثه أنه تارك بلدته وزوجه وأولاده، وعاقٌّ لأمه، وأنه يرحل من قرية إلى قرية، يدخل على النساء ويجالسهنَّ. وذكر بعض الجالسين كثيراً من معايبه ومخازيه، فَشَرحتُ للناس فضْل الكسب وعمل اليد، وبيَّنتُ لهم أن نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده، وأن عمر ﷺ كان يعظِّم الرجل ويُكبره، فإذا علم أن لا عمل له أسقطه وازدراه، وأنه لو كانت السماء تمطر ذهباً أو الأرض تفجَّر فضة، لفسد النظام واختلَّ العمران، ولكان الأنبياء والأولياء أوْلى بهذا المغنم الفيَّاض.

فآمن الناس بالحقِّ، وكفروا بالباطل، وخرج الدَّجال مذموماً، ولم يعثر عليه أحدٌ بعد على أثر.

القضاء على خرافة طيران الميت وزيارته الأولياء رغم حامليه:

٢- اعترضني جمع في الطريق سائلين: ألم تر الجنازة التي طارت لزيارة الأولياء؟!! (لا) وما كان لجنازة أن تطير، وقد انتقلت من عالم إلى عالم، وإنَّ لها عن الطيران لشغلاً شاغلاً.

فقالوا: إن هنا أسرة شريفة يموت أحد أفرادها فيحتِّم على حامليه أن يزيروه الأولياء. ثم يتَّجه اتِّجاها خاصًّا لا يحيد عنه إلى مقْبرته، وهو من أجل هذا يتعب

الناس ويشقُّ عليهم، وهاهي ذي الجنازة ستراها قادمة من الزيارة إلى حيث تريد.

قلت: قد آن للحقِّ أن يجيء، وللباطل أن يذهب إلى حيث لا يعود، وما هي إلا دقائق حتى جاء الموكب حافلاً بمئات من الرجال والنساء والولدان بين تَهْليل وتكبير وزغردة وصياح بالبشر والسرور.

استوقفت الجنازة، وسألت بعض الحاملين: ماذا رأيت؟ أجاب بأنَّ النَّعش أخذه على الرُّغم منه، ودار به مراراً حتى قضى إرْبه، وهاهو ذا الآن ذاهب إلى المقبرة لا يلوي على شيء، فاتَّفقت معهم على أني سأعتزل هؤلاء الحَمَلة، وأختار غيرهم، وأوجِّه الميِّت إلى ما أُريد لا إلى ما يُريد، فإن أبى وطار بحامليه، فإني أول المؤمنين، وإن أطاع ورضي فَلْنَنْزع هذه الخرافة من رؤوسنا، ولنعلن عليها الحرب العَوان[1]، ثم تخيَّرت أربعة ممَّن أثق بهم، وأمرتهم أن يسيروا بالجنازة إلى المركز، وفي ساحته بين الجموع الحاشدة ألقيت عليهم محاضرة ضافية مُبيِّناً أخطار الخرافات وآثارها في العقل والدين والأمة والتربية، ثم شيَّعت الجنازة إلى مقرِّها الأخير، وفي المقبرة ألقيتُ محاضرةً ثانية أقنعت الناس فيها، بأن فعلهم هذا من عمل الشيطان، وأنه عدوٌّ مُضلٌّ مبين، وأنَّ بركة هذه الأسرة الشريفة في رفض هذه الخزعبلات لا في الانتساب إليها، ولم أزل بهم حتى تبرَّؤوا من هذه الخرافة وأشباهها، واعترف بعض الدعاة لهذه الأسرة بحقيقة الأمر قال: إننا أحياناً نتفق على أن يحمل النعش فلان وفلان، فيسيروا به إلى جهات خاصَّة، وأحياناً يدفع أحدنا بقية الحَمَلة، فيظنُّوا أنَّ الميت يَزُجُّ بهم إلى حيث يريد، وبتكرار هذه العادة صَدَّق بِهَا السُّذج من الناس، ثم قلَّدهم الجمُّ الغفير، ولكنك قد هدمت في ساعة واحدة ما بنيناه في مئات السنين.

---

(١) أي الحربُ التي يقاتل فيها مرةً بعد مرةٍ، جمع عُون.

قلت: هكذا الباطل ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(١).

وكتب في مجلة "نور الإسلام" في العدد الثالث من السنة الثانية ١٣٥٥ تحت عنوان:

شجرة تُعبد - الدعوة إلى الوعظ العملي:

سأل سائلٌ: إنه تُجاورنا شجرة أثل مُعمَّرة، نتبرَّك بِهَا ونزورها، ونُقدِّم لها القرابين والنُّذور، ونعتقد أنَّ تحتها أربعين ولياً! وهاهي تي تَشْغَل جانباً عظيماً من الأرض الخِصْبة، ولا يجرؤ أحد أن يمسَّها بسوء؟

قلت: ومن أين لها هذه البركة؟ وأيُّ فرق بينها وبين الأشجار الأخرى؟

قال: قد تبرَّك بِهَا آباؤنا من قبل، وَوَرَّثونا هذه العقيدة التي خالطتنا لحماً ودماً، وكم شَفَتْ مريضاً، وقضت حاجة، وفضحت سارقاً... قلت: وامصيبتاه! قد نَصَبَ الشيطان لكم فخَّ الشِّرك، وأرداكم في الهاوية، ودعاكم، فاستجبتم له حتى رَجَع بكم إلى الوثنيَّة الأولى، فَعَبدتم الأصنام وتقرَّبتم إليها، ثم لم تكن حُجَّتكم إلا أن قلتم ما قال المشركون من قبل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (٢).

إنكم لن تعودوا إلى الإيمان إلا إذا اقْتلعتم هذه "العُزَّى"، وأخلصتم لله دينكم وعبادتكم... وكان أمراً غريباً مُضْحكاً مبكياً ردُّهم جميعاً: إننا نخافها. أتريد أن يصيبنا ما أصاب فلاناً وفلاناً؟.

وفي صبيحة تلك الليلة صَحِبْتُ فريقاً منهم إلى وِكْر الشيطان، وكانت أعجوبة أن أخذت أقطع من أغصانها المترامية، وأُلقي بالحبل والشعور المعلَّقة

---

(١) اقتباس من الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٢) سورة الزخرف: ٢٣.

بها، وأنا أناشدهم الله أن يجْتثُّوها ليؤمنوا بالله وحده، ثم لينتفعوا بخشبها، وبالأرض التي تُعطِّلها.

وأمهلتهم خمسة عشر يوماً، فلم يحدثوا بِهَا حَدَثاً، وكلُّهم خائفٌ أن يَقْربها حتى النجَّارون. ماذا أصنع إذاً؟ إنَّ خير القول ما اقْترن بالعمل. وإنه لَحتْم أنْ أتولَّى أنا قطعها حتى أُزحِزحهم عن عقيدتهم الفاسدة.

ولقد كان ذلك، ففي ذات جمعة استَصْحَبْتُ أربعة نَفَر، منهم نجَّاران، وذهبنا إلى القرية، وجمعنا أهلها، وبدأت أقطع مع النجَّارين على مرأىً منهم، ولما حانَ وقتُ الصَّلاة ألقيتُ الخطبة والدرس في الأصنام والخرافات والجهل، ودعوتُهم إلى مساعدتنا في قطع رأس الصنم، فنفر فريق وَاثَّاقل فريق، ولم نَزَل نعمل ونقطع حتى جعلنا عاليَها سافلَها، ولم نُبْق إلا الأصول المتشعِّبة التي تحتاج إلى معاودة الجهاد أياماً، واتَّفقنا مع أهل البلد على اجْتثاثها واجْتثاث أُخرى بالقُرب منها.

وبعد؛ فهذا مثالٌ من أمثلةٍ كثيرة للخرافات المتفشية في الجَهَلة والعامة، ولا يفيد في محوها مجرَّد القول والتذكير، بل لا بدَّ من القول المقْترن بالعمل، والحكم المقفَّى بالتنفيذ، ورحم الله عثمان ورضي عنه إذ يقول: " إن الله ليزع بالسُّلطان مالا يَزَع بالقرآن" وإنَّ للواعظ قوةً ومظهراً لو أحسن سياستهما لكان الظَّفرُ حليفَهُ في كلِّ حين.

ألا حبَّذا لو دَعَا الواعظ إلى الله بفعله قبل قوله، وبحكمته قبل عمله، مُستَمِداً النصر والمعونة من عند الله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [1].

وقد تكلَّم عن تجربته في الوعظ والدعوة إلى الله بعدما نقل من الفيُّوم إلى الإسكندرية، وذكر تحت عنوان " **جَوْلَة في عالم الروح** " في جريدة "بحر

---

(١) اقتباس من الآية ٤٥ من سورة النساء.

يوسف" في العددين (٥٩٨) و (٥٩٩) من السنة (١٣) بتاريخ ٢٧ رمضان ١٣٦١ الموافق ٨ أكتوبر ١٩٤٢ بعض مواقفه في دعوة العلماء والحكام، فقال متحدِّثاً عن نفسه بأسلوب الغائب:

" عُيِّن واعظاً بالفيوم على أثر مسابقة أُجريت للمتخصِّصين الأزهريين، وقضى بِهَا عشرة أشهر كاملة حارب في خلالها بدعاً فاشيةً، وخرافاتٍ طاغية، واجتثَّ شجرةً (بالقاسمية) كانت تُعبد من دون الله، وأبطل طَيَران الأولياء، بَلْه الدَّجاجلة والمشعوذين، وقضى على خرافة "الإنفاق من تحت السجادة "، وحاربَ النساء اللاتي كُنَّ يَصِحْنَ ويُوَلْوِلْنَ طائفاتٍ بالقُرى، وكان يُؤْثر العمل على القول، والشِّدَّة على اللين ما وَجَد على القضاء على المنكر سبيلا.

وما أن فُتِحَ باب الوعظ في الإسكندريَّة حتى اختير أحد الوُعَّاظ بها، وهي مَنْشؤه ومَرْباه، فهو بِهَا أعرف، وهي له أطْوَع، وإليه أَقْرب، رأى بعد بضْعة أشهر أن يُقَسِّم الناس إلى طوائف: هذه طائفة القرَّاء، وتلك طائفة المتصوِّفين، وثالثة طائفة التجار، ورابعة طائفة العمال، وأولئك فتيان في المقاهي والمنتزهات، وأولاء نسوة في السُّرادقات أو الطرقات، ولكلٍّ وقتٌ معلوم، ودرس ملائم، أبلى بلاء حسناً، وجاهد جهاداً كبيراً، ولكنه لم يظفر بعد بالثمرة التي يرجوها، والبُغْيةِ التي ينشدها.

على أنَّ أمامه صنفين من الناس لم يَدْعُهما، وهما اللذان إذا صَلَحا صَلَحَ الناس، وإذا فَسَدا فسد الناس: العلماء والأمراء.

وقد أعطى الله العهدَ والميثاقَ ألا يدع طائفةً دون أن يدعوَها مهما كلَّفه ذلك من ثمن.

ربِّ إنَّ الهدى هداك، ماذا أصنع في هذه الطوائف المختلفة، والنفوس الجامحة، والأهواء الشَّاردة، آتِ نفسي تَقْواها، وزكِّها أنت خيرُ مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

هكذا أخذ يَضْرع إلى الله تعالى أن يُعينه على هداية هذا الطوائف، وأن

يُثبِّته أمام الطائفتَيْن الأخيرتَيْن اللتين لم تألفا أن يعظهما أحدٌ في جمعٍ حاشد أو في مكان مشهود.

اللهمَّ إنَّ الخلوة والرياضة: تزكية النفس، وتطهير الروح، وثبات الجَنَان، وقضاء الطِّلَبة، وتحقيق الرَّجاوة، وكذلك فَعَل... راضَ نفسه حتى كان يكتفي بالتمرات في إفطاره، وباللُّقيمات في سحوره، واعتزل الناس حتى ثَقُل عليه كلامهم وجلوسهم، وطاب له الأُنْس بالله حتى لا يجد به الدنيا بديلاً، وهانَتْ نفسُه أمام فَيْض ربِّه ورحمته، فباعها له وهو جِدُّ مُغْتبطٌ بأنه باع قليلاً صغيراً، واشترى كثيراً خطيراً.

من آثار الخلوة وتزكية النفس :

وَجَدَ قُرَّة عينه في الصَّلاة، وفي تلاوة كتاب الله، فإذا ركَع لا يكاد يرفع، وإذا رَفَع لا يكاد يسجد، وإذا سَجَد فلا تَسَلْ عن حلاوة المناجاة، وكُشفت له أمور غريبة، وظهرت له مَعَانٍ عجيبةٌ، وفُتِحَت له أبوابٌ من الأسرار والكشف كان يحلُّ بِهَا المشكلات، ويوضِّح بِهَا كثيراً من المعضلات، وإنه لَكذلك إذْ تهيَّأ له جَمْعٌ عَظيم من العلماء والسُّراة، وعلى رأسهم شيخ معهد الإسكندرية ووكيله في بيت أحد وجهاء المدينة، وهنا وَجَد الفرصة سانحةً في دعوتهم إلى الله، وتعاونهم على إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وليكن ما أراد له أن يكون.

كانت الدعوةُ شديدةً، واللهجة قاسيةً على غير ما اعتاد من الحكمة والموعظة واللين في القول. وللخلوة شجاعةٌ وقوةٌ لا تبالي بمَنْ في الأرض جميعاً.

ومن الإنصاف أن نقول: لا يصلح للدعوة إلى الله مَنْ كان في خلوة أو رياضة؛ لأنه في عالم آخر غير عالم الشهادة، وهاهو ذاك رسول الله ﷺ وهو المؤيَّد المعصوم ؛ لم يَدْعُ قومَه إلا بعد أن مضى على خلوته في غار حراء رَدْح من الزمن.

وها هو ذا شهر رمضان، وهاهو ذا العشر الأخير منه قد أشرف، وكان

النبيُّ ﷺ إذا دخل العشر جدَّ وشدَّ المئزر، وأحيا ليله، وأيقظ أهله، وقد بقي على تحلُّلِكَ من العهود والميثاق، دعوة الطائفة الكبرى، طائفة الأمراء والحكام.

وهاهي ذي مُمَثَّلة في مليك البلاد وحاكمها الأكبر، وفي وزرائه وخاصَّته، وفيمن يحضرون صلاة الجمعة معه، وهو - أيَّد الله به الدين وأعلى به كلمة المسلمين - سَيُصَلِّي في مسجد يحيى باشا بالرمل، فلتكن الدعوة عَقِبَ الصلاة. وليكن هذا سراً بينك وبين الله حتى إذا كانت مخالفة أو محاكمة، فلتكن تَبِعَتُها عليك وحدك، وليقْضِ الله ما أراد.

بهذا الحديث أخذ يُناجي نفسَهُ، فعاود الخَلْوة، وأمْعن في الرياضة، وعَزَم على إنجاز مهمته مهما يكن من أمر، والله المستعان.

ما أحلى الخلوة، وما ألذَّ حديثَها، وما أسطع نُورَها، وما أشْجَعَ صاحبَها، لو وقفت الدنيا وأهلها في صفٍّ، وهو وحده في صفٍّ، لكان هو الغالب المنصور، أليس مع الله؟! وهل يغلب اللهَ غالبٌ؟!

نصيحته للحاكم ودعوته إلى تحكيم كتاب الله :

بهذه الرُّوح قام على أثر سلام الإمام يدعو إلى الله، وكلُّه ثباتٌ واطمئنان.

استهلَّ العظة بالدعاء للمليك والإخلاص له، وسار مُسرعاً نحو الملك يُقدِّم إليه كتابَ الله، ويَرْتجي منه أن يُصدر أمراً كريماً بالعناية والحكم على طريقه المستقيم ونهجه القويم.

حالَ بينه وبين ما يَبْتغي الحاشية والجند، وسيقَ للتحقيق، وسُئِلَ عن مخالفته النظام و(البروتوكول)، فقصَّ عليهم قصَّة إبراهيم الخليل ﷺ، وبيَّن لهم أنَّ الدعوة إلى الله تعالى فوق كلِّ نظام، وأبدى استعداداً لكلِّ ما يصنعون.

عَرَفوا منه حُسْن النيَّة، فأطلقوا سراحه، وحذَّروه أن يعود لمثلها، فأجابهم إلى ذلك، وهو فَرِحٌ مسرور، لا بأنهم أطلقوه، ولكن بأنه وفَّى بعهد الله.

ذهب إلى مَنْزله فوجد حَشْداً من الإخوان والزملاء، منهم اللائم والعاتب،

ومنهم الخوين والمنكدر، ومنهم السائل والمستفسر، وقد اتَّفقت كلمتهم على أنَّ أقلَّ عقوبة للإدارة هو النقل إلى حدود القطر إن لم يكن الفصل، ثم أجمعوا على أن يذهب إلى فضيلة الأستاذ الأكبر يترضَّاه.

فما كان جوابه عن كلِّ هذا الضَّجيج إلا أن قال: إنْ كانت هذه القَوْمةُ لله مخلصةً فسيدافع الله عني، وإن كانت غير ذلك فجزائي ما يحلُّ بكلِّ مُراءٍ كذَّاب، وكأن له مع الله ﴿ولله المثل الأعلى﴾ دلالاً إذْ قال: " أما شيخ الأزهر فلن أذهب إليه، بل الله يسوقه إليَّ " أو كلمة كان ينطق بِهَا عن صادق نية الإلهام، فقابله شيخ الأزهر على غير ميعاد، ويقول له:

أأنت الشيخ الساكت؟ أأنت الشيخ الساكت؟

- نعم.

- لقد عملت يوم الجمعة عملاً لا ينبغي لواعظ!!

- حقاً يا مولاي.

- ولم هذا؟

- على أثر رياضة روحيَّة.

- ولكنَّ الرياضة تُصفِّي الروح، وتُهذِّبها حقاً، ولكن تعجَّلت.

انتهى الحديث، وانصرف الشيخ، وقد قَضَى عَجَباً من ملامح وجه شاحب، وشخص ناحل.

الانتقال إلى التدريس في معهد القاهرة:

كان هو وزميلان له حاولوا غير مرة أن ينتقلوا إلى التدريس بالمعاهد، مُحتجِّين بأنهم تخصَّصوا في شُعَبِ التدريس لا الوعظ، وبأنَّهم أوائل شُعبهم، وبأنَّ مسابقة الوعظ جاءت عَرَضاً، فإذا قُبِلَ في التدريس مَنْ يليهم في مجموعاتهم ـ ممَّن لم يَنْجحوا في المسابقة ـ فلا أقلَّ من مساواتهم بإخوانهم، ولا يعقل أن يكون تبْريزهم في مسابقة الوعظ عائقاً لهم عن حقٍّ أصيل.

حُجَجٌ قوية، ولكن لم تأخذ بِهَا الإدارة، ورأتْ أخيراً أن يدخلوا مسابقة التدريس، إنْ كانت لهم فيه رغبة.

دخلها أخواه، ولم يرضَ هو أن يترك الدعوة إلى الله حتى يجيء الإذن، وعلامة الإذن التيسير، ووقع في قلبه أنه منتقلٌ إلى التدريس بإذن الله من غير مُسابقة، وكان ولا يزال يعاود الخلوة والرياضة كلَّما سَنَحت فرصة على الرُّغم من تحذير إخوانه له..

أشفق عليه شيخ الأزهر، ورأى رأيَ العين أنَّ الوعظَ أنْهَكَ قُواهُ، وأنه حمَّل نفسه مالا يحتمل، فأمر أن يهدأ ويستريح، وأنه في فترة سكونه وطمأنينته إذا هو يقرأ كتاباً بأنا قد نَدَبناك مدرِّساً بمعهد القاهرة " انتهى.

الشيخ محمد بن عبد العزيز الخولي :

وممَّن تأثَّر بمنهجهم في الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الله، الشيخ محمد عبد العزيز الخولي أستاذ الوعظ والإرشاد، ومدرِّس الشريعة الإسلامية بمدرسة القضاء الشرعي ثم بدار العلوم وبتخصُّص الأزهر الشريف المتوفى في ٢٦ من ذي القعدة ١٣٤٩ رحمه الله – وقد قال في كلمته في تأبينه بعنوان: " **فقيد العلم والهداية** " التي ألقاها بجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في ٦ من ذي الحجة ١٣٤٩ الموافق ٢٤ من إبريل ١٩٣١ قال فيها: " قدمتُ مصر من بضْع سنين، وكنتُ شَغوفاً أن أرى عظماء الرجال، وأن أجلس إليهم ما استطعت، وأنْ آخذ منهم الحكم والإرشاد، والحكمة ضالة المؤمن. فما إن قَرَع سمعي ذكر الواعظ البليغ، والمربِّي المخلص – مَنْ فقدناه بالأمس – حتى ترقَّبت الفرص للاجتماع عليه، وما هي إلا أيام حتى أعلنت جمعيتنا هذه " جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية " محاضرة للراحل الكريم، عنوانها: "**كيف نعظ**"؟ بيَّن فيها رحمه الله شروط الواعظ، وما يجب أن يتحلَّى به من حميد الخصال، وشريف الخلال، كما بيَّن فيها طريق الواعظ الناجع والنصح المثمر، بياناً لا مزيدَ لأحد بعده،...

إلى أن قال: كانت تلك الموعظة الصَّادقة والمحاضرة الخالدة أوَّلَ حلقةٍ من حلقات صلتي القلبيَّة به، ولم يزل من بعد ذلك يؤيِّد قولَه فعلُه، ويشهد عملُه بصدقه في الله، وخالص رغبته في رضاه. ولم أزل من بعد ذلك أزدادُ له حباً وإجلالاً، وأغبطه كما يغبطه الكثير... ".

إصلاح طرق الوعظ :

وقد كتب في وقت مبكِّر يدعو إلى إصلاح طُرق الوعظ، وممَّا كتبه في ذلك سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٦ حَوْل نظام العمل في الوعظ بعد تعيينه واعظاً عاماً بالفيوم لعامٍ واحد:

" يبلغ عَدَد الوعَّاظ في الوجْهَيْن البَحْري والقِبْلي اثنين وسبعين واعظاً، وأكثرهم في الوجْه البحري، ويُراد عَمل مسابقة في هذه الأيام لتعيين عشرين واعظاً يمثِّلون المراكز الخالية، لمَّا أحسَّ به المديرون وولاة الأمور من ثمرة الوعظ وجليل آثاره.

وفي الحق أنَّ الواعظ إذا رُزق التوفيق، وأُلهم النشاط والجِد، كان خير معوان على الدعوة إلى الله، وعلى تثبيت الأمن وإقرار السلام والطمأنينة، والسَّيْر بالأمة إلى مَهْيَع الفلاح والسعادة.

نظام العمل في الوعظ :

ويقضي نظام العمل أن يلقي الواعظ خمس محاضرات في الأسبوع، ويختار لنفسه يوم راحة – إذا شاء – على شريطة أن يكون الجمعة يوم عمل؛ لأنه أهم الأيام في الوعظ والاجتماع، وقد يختار الواعظ درساً أسبوعياً لبلد المركز، وينتقل إلى البلاد الأخرى لإلقاء الدروس الأربعة.

الشيخ عبد ربه مفتاح :

ورئيس إدارة الوعظ ومفتِّشه العام هو فضيلة الأستاذ الشيخ عبد ربه مفتاح، ويرسل إليه الوعاظ شهرياً برنامج العمل، وبيان الدروس التي يراد إلقاؤها، والبلاد التي ستلقى فيها. ويمرُّ سنوياً على الوعاظ جميعاً ليقف على مبلغ

تقدُّمهم وليرشدهم عند الحاجة.

ومن ميزات هذا الرجل أنَّ واعظاً واحداً لا يشعر في وقت ما أنَّ عليه رئيساً لا في حديث ولا في مخاطبة ولا في مراسلة ولا في إرشاد، وما هو إلا أبٌ رحيمٌ لأبناء بَرَرَة، أو صديقٌ حميمٌ لإخوان مخلصين [١].

على أنَّ الواعظ لا رقيب عليه إلا الله وحده، ففي مكنته أن يجدَّ ويكدَّ ويرحل لينفع وينتفع، ويأكل حلالاً طيباً، وفي استطاعته أن يلهو ويلعب ويخادع ويوارب. ولا يربي النفسَ والوجدان والخلق شيءٌ أعظم من مراقبة الله وخشيته.

وعاظ الفيوم:

في الفيوم الآن أربعة مراكز: البندر، وسنورس، وابشواى، وإطسا، وأكثرها بلاداً مركز "إطسا" ففيه سبع وأربعون بلدة ما عدا الغرب طبعاً، ووعاظه ثلاثة، ويراد تعيين رابع بالبندر. والجهلُ في هذه البلاد، والفقر كلٌّ قد أخذ بحظٍّ وافر إلا نَزْراً منها يسيراً لا يذكر.

ترى البلدة تبلغ سبعة آلاف أو الثمانية، وليس فيها عالم لا رسمي ولا غير رسمي، وإن قدِّر لها أن تحب عالماً غادرها إلى المدينة، ولذا ترى الناس في شدَّة الحاجة إلى فتح جديد وتعليم لمبادئ الدين، ومن أجل ذلك لا ينتفع الواعظ كثيراً إلا بمطالعته الخاصَّة، أما هذه الدروس الأولية ولا بد منها لهؤلاء السُذَّج فإنها لا تغنيه شيئاً.

ومرجع فقرهم إلى انتشار الربا الذي أتى عليهم فأهلكهم، والمواصلات على العموم رديئة ويقال: إنها خير من غيرها في الوجْه القبلي. وجزى الله أهل

---

(١) توفي الشيخ عبد ربه مفتاح في شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٧، وللشيخ طه الساكت كلمة صغيرة في رثائه نشرها في مجلة "نور الإسلام" العدد (٥) من السنة الرابعة.

الإدارة خيراً، فإنهم يقومون بمعاونتي في بعض الأحيان على جانب منها ذي أهمية.

برنامجه الخاص :

نظراً لإقامتي بـ "إطسا" وهي بلد المركز، خصَّصت لها درسين أسبوعيين في مسجديها؛ (أحدهما تطوُّع) عدا دروسٍ للشرطة وللعَسَس "الخفراء" أحياناً، وعدا ما تدعو إليه الطوارئ والمفاجآت.

وجعلت أربعةً لبقية البلاد، وأسال الله المعونة على ما أُلاقي من صعوبة. والناس عامة يقبلون على الوعظ، ويستمعون للواعظ، متى علموا به، والمعتاد أن يُبلّغ العمدة بقدوم الواعظ في وقتٍ معيَّن ليجمع الناس عليه.

وهنا ملاحظة جديرة بالنظر، وهي أنَّ الواعظ لا يمكنه أن يؤدِّي لكلٍّ بلد من بلاد المركز أكثر من درس واحد في كلٍّ شهرين أو ثلاثة على حسب كثرة البلاد وقلَّتها.

وماذا يغني هؤلاء المساكين المحرومين درس واحد في كلٍّ ثلاثة شهور، والنفوس الخيِّرة في حاجة إلى الدروس والعظات كل أسبوع على الأقل، فضلاً عن النفوس الشريرة.

هي محاولة وجهاد على كلٍّ حالٍ، ولهذا التباعد أقترح على الوعاظ أن يجعلوا معظم دروسهم مليئة بأصول الدين وفروعه ومكارم الأخلاق كي يكون كل درس برنامجاً عاماً يستضيئون به، ويسترشدون بهديه.

موازنة بين الوعظ والتدريس :

لا يجهل أحدٌ ما لكلٍّ من الوعظ والتدريس من مَحَاسن ومتاعب، وسأحاول إن شاء الله أن أكون منصفاً في هذه الموازنة، بعيداً عن التأثُّر بأيٍّ أمر مهما كان نوعه، مُوجزاً مع هذا كله ما استطعت.

وأُريد أن أغضَّ الطرف في هذه الموازنة عن أمرين قد يراهما غيري على

شيءٍ من الأهمية؛ هما: المادة والمظهر؛ ذلك أنَّ المادة لا تقاس بكثرتها، وإنما تقاس عندي بالبركة فيها وبالتوفيق والسَّداد، فَرُبَّ صاحب خمسة أهنأ بالاً، وأحسن عيشاً، وأكرم نفساً من صاحب الخمسين والمائة.

ترى الأول صحيحَ الجسم، قليلَ الترف، معتدلَ السَّيْر، بينما ترى الآخر معتلاً سقيماً، ينفق ربع مرتبه على الأطباء والأدوية، وثلاثة الأرباع الباقية في الشهوات المختلفة والشؤون الوضيعة التي لا وزن لها في الشرف والحكمة والمروءة.

وأما المظهر فيرجع إلى تقوى الله أولاً، وإلى المروءة وكرامة النفس ثانياً.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقَّـها هواناً بِهَا كانت على الناس أهونا

فنفسك أكرمها وإنْ ضاق مسكن عليك بِهَا فاطلب لنفسك مسكنا

فلا ترفع الوظيفة امرءاً، ولا تخفض الصناعة عاملاً، وإنما يرفعه أدبه، ويحطُّه تهاونه وابتذاله.

على أنَّ مظهر الوعَّاظ - بحمد الله - من أجمل المظاهر، فهم محترمون أينما كانوا، مُكرَّمون أينما حلُّوا، وأما المستقبل فبيد الله سبحانه، يُعزُّ مَنْ يشاء، ويُذلُّ مَنْ يشاء، ويرفع مَنْ يشاء، ويضع مَنْ يشاء.

فانحصر الكلام إذاً في النفع والأثر والسعادة النفسية:

يرى المنصف أن نفع التدريس قاصرٌ على طلبة محصورين لا يعدوهم إلى غيرهم، بينما يرى نفع الوعظ وأثره أبعد مدى وأعم نشراً، ثم يرى في التدريس ملقاً ومداهنة وجهلاً وأموراً كثيرة أقرب إلى الصناعة والفن منها إلى الدعوة والإخلاص.

وقد يُكره المدرس إكراهاً على تدريس مادة لا يرغبها فيعيش منغَّصاً حَرِجَ الصَّدر، محزونَ الفؤاد، ثم هو مسجونٌ في دائرةٍ ضيِّقة من الاطِّلاع والبحث، ومختلط برؤساء مختلفي المشارب والمناحي، ومُضْطرٌ لأن يجامل كُلاً، ويسايره على هواه، وجالس – ولا بد – في مجالس لا تخلو من اللغو واللغط

وذكر مالا ينبغي ذكره، إلى غير ذلك ممَّا هو مرئيٌّ رأيَ العين، فإما أن يداهن ويحابي، ويعيش عيشة التقلُّب والنفاق، وإما أن يعتزل ويعتكف، ويعيش عيشة الوحدة والوحشة. أمران ما أمرَّهما وأشدَّهما على النفس.

لكن الواعظ في بُعْدٍ ومَنْجاةٍ عن هذا كلِّه. وإن اختلط به العامة فهم أقل من أن يلغوا ويلغطوا في مجلسه، وهو أكبر من أن ينفِّرهم من الغيبة أمس، ثم يشاركهم فيها اليوم. وإن جالس الخاصَّة - وقليل ما هم- فمجالسةُ علمٍ وإرشاد وبحث في حدود الأدب والإجلال، وإن رأى منهم ما يريبه تلطَّف في نصحهم وكفِّهم، فإن انتهوا وإلا اعتزلهم معتزاً بنفسه، مصوناً دينه وعرضه، لا شأن لهم به ولا حاجة له إليهم، وهم لا يأتون بما يستنكره الشرع أمامه أدباً منهم أو مجاملة له على الأقل.

وهو لا يكثر من الاختلاط بهم، حتى لا يبتذل أمامهم أو يشعروا بأنه محتاج إليهم، ويوحي إليهم من طرف خفي وعند المناسبات بما تتطلَّبه الدعوة إلى الله من حُسْن السيرة والتعاون على البرِّ والتقوى، وأنهم شركاؤه في هذه الدعوة، فلا يتوجَّهون إلا إلى خير، ولا يتكلَّمون في مجلسه إلا في نفع، وأين المدرس من هذا كله؟

معاناة الوعاظ :

غير أنه لا يجهل أحد أيضاً أن الواعظ يقاسي من أخلاق الشاذِّين وجهلهم شدّةً، ويلاقي في انتقاله من بلد إلى بلد صعوبة.

وربما اضطر إلى المبيت، فلا تكتحل عينه بنوم، لا سيما إذا لم يتربَّ تربيةً ريفيَّة مثلي – وإن كنت لم أَبِتْ ليلةً واحدة خارج منْزلي الآن، لكنني لا أضمن العاقبة مع رداءة المواصلات –.

نعم كل ذلك يكون، ولكنه جهاد في سبيل الله خصوصاً مع النية الحسنة، ووراثة للنبوة، واقتداء بسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه.

ألم يكن ﷺ ينتقل من جهة إلى جهة، ويعرض نفسه على القبائل؟ ألم

يهاجر من مكة مولده وموطنه إلى المدينة المنورة في سبيل نُصرة الله وإعزاز دينه؟ ألم يلاقِ من الأذى والشدَّة ألواناً لا يلاقي الواعظ الآن معشارها ولا معشار معشارها.

وأين مَنْ يكرمونه ويجلُّونه ويخضعون له ممَّن كانوا يَسْعَون في قتله والمكر به؟ البَوْن شاسع والفارق بعيد.

وفي الانتقال رياضة وصحة ومتعة للجسم والروح معاً، وكم كانت الحياة الجلوسية منشأ أمراض وأسقام " انتهى.

قرار مشيخة الأزهر ابتعاثه إلى اليابان :

ولبروزه في مَيْدان الواعظ والتذكير قرَّرت مَشْيخة الأزهر ابتعاثه للدعوة إلى الله، ونشر الإسلام في اليابان، وفي خطاب أرسله الشيخ طه الساكت بتاريخ صفر من سنة ١٣٥٤ = مايو ١٩٣٥ إلى شيخ الأزهر كَتَب فيه: " حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد أرسلتْ إليَّ الإدارة خطاباً تطلب فيه أن أستعدَّ للسفر إلى بلاد اليابان في وقت قريب؛ لنشر الثقافة الإسلامية حتى يوافيني خطاب آخر بتسليم الاستمارات وما يتبعها. وقد أُرِّخ بتاريخ ١٩٣٥/٢/٢٨ إلا أنه لم يصل إليَّ إلا في ١٥إبريل ١٩٣٥. فلم أجد بداً أن أستعد. وكان من استعدادي أن قابلت المسيو "تامورا" أحد القائمين بأعمال القنصلية، وحادثته – وهو يعرف العربية – في شؤونٍ شتَّى، وانتهى بنا الحديث إلى أن تطوَّع لي بدروس في مبادئ اللغة اليابانية محادثةً وقراءةً، وقد أكملت حتى الآن أربعة عشر درساً.

وقد رأيتُ أن أكتب إلى فضيلتكم راجياً أن تتفضَّلوا بالنظر في هذا الأمر، فإما واصلت السَّير في الاستعداد، وإما وجَّهت عنايتي إلى أمر آخر، ولفضيلتكم الرأي الأعلى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته "

وقد كتب الشيخ على مذكِّرة كتبها في ١٢ من المحرم سنة ١٣٥٤ بمناسبة عزم مشيخة الأزهر على بعثته إلى اليابان، وما يحتاج إلى اسْتصحابه في هذه

الرحلة، كتب على حاشية تلك الصفحة: "دالت دولة الأزهر، فاستقال الشيخ الأحمدي الظواهري، وخَلَفه الشيخ المراغي، ثم رأى العدول عن سفري، واستقدم مبعوثي الصين في ٢٤ من رمضان ١٣٦٠ ".

ومن نشاطاته العلميَّة والدعويَّة :

مشاركته في الجمعيات الإسلامية، ولا سيما جمعية الهداية الإسلامية التي كان يرأسها الإمام محمد الخَضِر حسين، وكانت تربطه به صلة تلمَذة وثيقة ومحبة أكيدة.

وكذلك مشاركته في المحاضرات والنشاطات في الجمعية العامة للمحافظة على القرآن، وجمعية الشُّبَّان المسلمين، ومكارم الأخلاق، وجمعية منع المسكرات، وشباب محمد، والعشيرة المحمدية، وجماعة الوعظ والدعوة الإسلامية، ثم محاضراته في علوم السنة بمعهد تدريب الأئمة.

جماعة الأزهر للنشر والتأليف :

وتربطه صلة بجبهة علماء الأزهر التي كان يرأسها الشيخ محمد الشَّربيني، وكان عضواً في جماعة الأزهر للنشر والتأليف التي يرأسها الدكتور محمد يوسف موسى، ووكيله الأول محمد النجار، والثاني محمود خليفة، وكان الشيخ طه عضواً فيها مع: أبو زيد شلبي، وصادق عرجون، ومصطفى الطير، وجابر إسماعيل، ومحمد أبو العيون.

وشارك في لجنة النظر في مناهج الدراسة بالأزهر في عهد مشيخة الإمام محمد الخضر حسين، وكانت اللجنة مكوَّنة من أصحاب الفضيلة: محمد عبد الله دراز، وعبد الرحمن تاج، وعبد اللطيف السبكي، ومحمود شلتوت، واجتمعت في شهر ذي القعدة ١٣٧٢ = ١٩٥٣.

ومن نشاطاته العلميَّة: مشاركته في لجنة الموسوعة المفهرسة للأحاديث النبويَّة [(١)] في مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٨٧، ثم انتخابه عضواً في لجنة تحقيق "جمع الجوامع" المعروف بـ"الجامع الكبير" [(٢)] للإمام السيوطي من قبل مَجْمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف في ١٩٧٢/٦/٧.

كما تمَّ ضمُّه لعضوية لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في ١٨/٣/١٩٨٠.

وعضويته قبل ذلك في لجنة التفسير الوسيط، ولجنة الحديث في مجمع البحوث الإسلامية، ورئاسته لمجلس إدارة جمعية عمر بن عبد العزيز وما يتبعها من المعهد الأزهري لتحفيظ القرآن [(٣)].

---

(١) وأعضاء اللجنة: محمد علي السَّايس، ومحمد الزفزاف، وعلي حسب الله، وعبد الرحيم الجندي، وطه الساكت، وحافظ الليثي، وعبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الغني حامد سلمان. وقد تقرَّر قيام لجنة الموسوعة الحديثيَّة بفهرسة الكتب السبعة: الموطأ بروايتيه، والصحيحين، وكتب السنن الأربعة. وتشمل على فهرس الموضوعات عامة، يتناول الكتب والأبواب مرتَّبة على حروف المعجم، وفهرس الأحاديث القولية والعملية مرتَّبة على الحروف كذلك، وفهرس الشمائل المحمدية والصفات النبويَّة، وفهرس الرواة الذين انتهى إليهم إسناد الحديث، وفهرس الآيات القرآنية التي جاءت في أحاديث الأصل، أو سيقت مساق الأدلة والشواهد.

(٢) وأعضاء اللجنة: مصطفى الحديدي الطير، وطه الساكت، ومختار الهايج، ومحمد حافظ الدسوقي، وعبد الحميد نَدَا، وحسن عبد الظاهر، برئاسة الشيخ عبد الجليل عيسى.

(٣) ولكثرة هذه الأعباء اعتذر عن المشاركة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ففي رسالة كتبها للأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المشد بتاريخ ٦ جمادى الأولى عام ١٤٠٠هـ معتذراً له عن دعوته للمشاركة في المجلس المذكور: " أما بعد ؛ فقد كان يُشرِّفني العمل بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لولا أعباء مسؤولياتي الجسام نحو: مسجد عمر بن عبد العزيز الذي بنيناه بعون الله تعالى، ثم بالمجهود الذاتي، وجمعية عمر بن عبد العزيز، ومحاضراتي في علوم السنة بمعهد تدريب الأئمة، وعضويتي بلجنة التفسير والحديث بمجمع =

أصدقاؤه وأقرانه :

١- فضيلة الأستاذ الشيخ علي حسن البولاقي الذي كان يُسمَّى الشافعي الصغير، لتمكُّنه في فقه الإمام الشافعي.

٢- فضيلة الأستاذ الشيخ محمود خليفة الأستاذ بكلية الشريعة في الجامع الأزهر، والأمين العام لجبهة علماء الأزهر.

٣- فضيلة الشيخ عبد الرحيم الجندي، وكان يُسمَّى فلاح العِلْم.

٤- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الطيِّب النجَّار، مدير جامعة الأزهر سابقاً.

٥- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد المدني، عميد كلية الشريعة والقانون سابقاً.

٦- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، أستاذ التفسير والحديث، وممثِّل جامعة الأزهر في المؤتمرات الدولية [١].

٧- فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، أستاذ الشريعة ورئيس قسمها في جامعة القاهرة سابقاً.

٨- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف الشيخ، أستاذ الفلسفة بكلية

البحوث الإسلامية...وهي أعباء مرهقة – كما تَرَوْن – لا تَدَع لي وقتاً خالصاً للمجلس الأعلى ولا لغيره، ولا شكَّ في أنكم إذ تتفضَّلون بقَبول عذري، تدعون الله أن يُعينني على احتمال هذه الأعباء!!.

كتبه أخوكم المعتذر الآسف : طه محمد الساكت "

(١) وهو من طبقة شيوخه ويَصِفُه في شرح حديث " بلوغ الدعوة المحمدية" بقوله في حكم من بلغتهم الدعوة الإسلامية مشوَّهة بالأباطيل، وأن هؤلاء –كما قال جمع من الفضلاء المعاصرين – في حكم من لم تبلغهم: ومنهم أستاذنا الكبير محمد عبد الله دراز في كتابه : «المختار من تيسير الوصول "، وقد انتفعنا به في شرح هذا الحديث.

أصول الدين بالأزهر.

٩- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار، شيخ الأزهر سابقاً.

١٠- فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى الحديدي الطير، الأستاذ بكلية أصول الدين سابقاً.

١١- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى مجاهد، الأستاذ بكلية الشريعة سابقاً.

١٢- فضيلة الأستاذ الشيخ حافظ الليثي الموظف بإدارة الأزهر.

١٣- فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر.

١٤- فضيلة الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر، وكيل الأزهر سابقاً.

١٥- فضيلة الأستاذ الشيخ منشاوي عبود الخولي، عضو مجمع البحوث الإسلامية.

١٦- فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة، الأستاذ بكلية أصول الدين في الأزهر، وبقسم الدراسات العليا في جامعة أم القرى سابقاً.

١٧- فضيلة الأستاذ الشيخ محمد متولِّي الشَّعراوي، المفسِّر المشهور، والداعية الإسلامي.

تلاميذه: كثيرون في شتى بلاد العالم الإسلامي، ومنهم:

١- الدكتور موسى لاشين شاهين، وكيل جامعة الأزهر سابقاً.

٢- أستاذنا الدكتور الشيخ محمود أحمد ميرة، أستاذ الحديث النبويِّ للدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الإمام محمد بن سعود سابقاً.

٣- الدكتور الشيخ محمود الطحان، أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الكويت.

٤- الدكتور عزة علي عطية، أستاذ الحديث بجامعة الأزهر.

٥- الدكتور مصطفى غلوش، الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر.

٦- الشيخ محمد عبد المقصود جاب الله، الأستاذ بكلية بنات الإسكندرية.

٧- الشيخ أحمد جاد، عضو مجمع البحوث الإسلامية سابقاً.

أسرته :

لفضيلة الشيخ طه الساكت ستة أولاد: أربع إناث، وذكران، وأسْرد أسماءهم حسب ولادتهم كما أفادتني ابنته السيدة رقيَّة حفظها الله تعالى:

١- السيِّدة أُمامة، ولدت في ٢٠/ ٦/ ١٩٤٧ وتخرَّجت في كلية المعلمين في عين شمس، وتعمل بالتدريس منذ سنوات في ثانويات جُدَّة.

٢- السيِّدة عائشة، ولدت في ١٩٤٨/١١/١٩ وحصلت على الثانوية العامة.

٣- السيِّدة أسماء، ولدت في ١٩٥١/٢/١٨ وتخرَّجت في كلية الزراعة في مشتهر، وتعمل مهندسة زراعية.

٤- السيد محمد عبد الوهاب، ولد في ١٩٥٣/٣/٢٣ وتخرَّج في كلية علوم الأزهر، ويعمل جيولوجي بالطاقة النووية.

٥- الدكتور يحيى، ولد في ١٩٥٤/١٢/١٩ وتخرَّج في كلية الصيدلة بجامعة القاهرة، ويعمل بالأعمال الحرة.

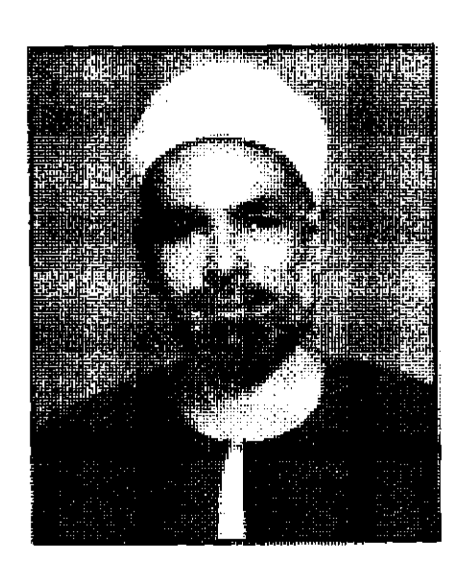
٦- السيدة رقية، ولدت في ١٩٥٧/٦/١٩ وتخرَّجت في كلية بنات عين شمس، وتعمل بالتدريس في الأزهر.

وفاته :

تُوفيَ رحمه الله بمنْزله الكائن بمدينة نَصْر ١٦ شارع الشهيد مصطفى رجب، خلف كلية بنات عين شمس في ٢٢ شعبان من عام ١٤٠٣ الموافق ١٩٨٣/٦/٤ عن ثلاثة وثمانين عاماً، أمضاها في الدعوة إلى الله عز وجل،

ونشر العلم، والدفاع عن السنة النبويَّة، وكان على الرُّغم من أعراض شيخوخته ممتَّعاً بقواه ومداركه، وذلك لاتِّباعه المنهج النبويِّ في حياته كلِّها، في طعامه وشرابه، ونومه واستيقاظه، وفي تعامله مع أهله وأحبابه، وإشفاقه على القريب والبعيد.

ودُفن بمدافن جمعية ميت عفيف الخيرية بمدينة نصر بالقاهرة رحمه الله تعالى.



هدية تقدير وإخلاص للدكتور الفاضل
العالم الفذ الأستاذ محمد جعفر نفع الله به
طه مدرس الكتب المفتشة بالأزهر
في رجب ١٢٧٧ يناير ١٩٥٨

صورة المؤلف رحمه الله تعالى ونموذج من خطّه

آثاره العلميَّة

لم يتَّجه الأستاذ الساكت إلى التأليف، على الرُّغم من أهليَّته وتوفُّر الأسباب لديه، بل كان يكره ذلك، لأنه كما قال: " يكره أن يشغل الناس بالحديث عنه، فما أُتي الدين إلا من هذا الباب، فتحه المتَّبعون للأتباع والأشياع، وشَغَلوهم بأنفسهم وكلامهم عن الكتاب والسنة "

وقال أيضاً عن نفسه: " وهذا هو سرُّ كراهيته الشديدة للتأليف. وإذا حسبتَ التهذيب نصف التأليف، فقد هذَّب هو وأخوه البولاقي [١] رابع الأجزاء فقط من " صَفْوة البخاري " مع شيخنا المؤلف [٢]. فنصيبه إذاً من تأليف الكتب سدس جزء أو قيراط من ٢٤، ولقد همَّا أن يهملا اسميهما، لولا معارضة جماعة الأزهر للنشر والتأليف... ولولا أنَّ هذا الكتاب – أي " **درجات الناس** " شهادة لم يؤدِّها غيره ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [٣] لما خطَّ فيه حرفاً واحداً " [٤].

وتمتاز كتاباته بالإيجاز الشديد، لكراهته البليغة للثرثرة وأهلها، وإعجابه بجوامع الكلم، ولكنها -كما يقول الشيخ طه –: " مِنْحةٌ اختصَّ الله بِهَا سيِّدَ

---

(١) هو فضيلة العلامة الفقيه الشيخ علي حسن البولاقي رحمه الله تعالى.

(٢) هو الشيخ عبد الجليل عيسى المولود سنة ١٨٨٨ والمتوفى في أول رمضان سنة ١٤٠١ الموافق ١٩٨١. وكتاب " صفوة البخاري " في أربعة أجزاء، تتضمَّن صفوةً من أحاديث صحيح البخاري، وعددها ٧٠٠ حديث مع الشرح الواضح، وعلى هذا الكتاب نشأت أجيال عدة من طلبة المرحلة الثانوية للأزهر، وَصَدر منه عدَّة طبعات آخرها سنة ١٩٥٣. كما في ترجمته في " مجلة الأزهر " الجزء الأول، السنة السابعة والستون ١٤١٥.

(٣) اقتباس من الآية ٢٨٣ من سورة البقرة.

(٤) درجات الناس ص ٢٠.

الفصحاء صلوات الله وسلامه عليه. والإيجاز البليغ أصْعَبُ قيادةً من الإطناب، وحَسْبُكَ أنه امتحان الجَنَان، وعنوان البيان "[(١)]

وسأتحدث عن كتابه "درجات الناس" وأقتبس منه بعض الفوائد:

درجات الناس عند الملوك :

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في المحرم من سنة ١٣٧٠ بمطبعة أمين عبد الرحمن في ١٦٠ صفحة بعنوان: "درجات الناس عند الملوك " ابتدأه بمناجاةٍ إلى ملك الملوك، ثم وجَّه خطاباً إلى السادة الملوك، وإلى الرعايا، وتكلَّم عن حقوق الملك على رعيَّته، وعن أخلاق الملوك، ثم اقْتَبَس شذراتٍ من الصُّحف فيها صورة مُصغَّرة للرعيَّة بما وُصفوا به من أحوالهم، اختارها الشيخ الساكت وصفاً لحاضر أمَّته، وشهادةً لها أو عليها بأقلام جمهرة من مختلف طبقات الكُتَّاب والصحفيين والمؤلفين والمربِّين والشيوخ والنوَّاب وغيرهم ممَّن يُعتمد عليهم في كشف الغطاء عن أحوال الأمم، وبيان أصدق صورة لها.

ثم تكلَّم عن مقياس الدرجات وتفاوتها على مراتب كثيرة، الذي ينتظم في سلك هذه الآية الكريمة: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [(٢)] وأنَّ أساس الدرجات عند الله عزَّ وجل: العبودية لله، وأعظم مظهر لعبودية العبد: ولايته لربِّه، وإخلاصه، ثم ذكر الآيات التي ذكرت فيها الدرجات في القرآن الكريم، ثم تحدَّث عن الغش وضروبه وحُجبه المختلفة كثافة وسخافة.

المؤلَّفات المستحقَّة للذِّكْر :

ثم انتقل للحديث عن المؤلَّفات المُسْتحقَّة للذكر، ونَقَل عن ابن حزم

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٢.

رحمه الله في مؤلفات أهل الأندلس قولـه: " وإنما ذكرنـا المؤلفـات المسـتحقَّة للذكر، والتي تدخل تحت الأقسـام السـبعة الـتي لا يؤلِّـف عاقـل عـالم إلا في أحدها وهي: إمَّا شيءٌ يخترعه لم يُسبق إليه، أو شـيء نـاقص يتمُّـه، أو شـيءٌ مُسْتغلق يشرحه، أو شيءٌ طويل يختصره دون أن يُخـلَّ بشـيء مـن معانيـه، أو شيءٌ متفرِّق يجمعه، أو شيءٌ مختلطٌ يرتِّبه، أو شيءٌ أخطأ فيه صاحبه يُصـلحه. وأما التآليف المقصِّرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها، وهي عندنا مـن تآليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها.

وماذا كَانَ يقول أبو محمد – ابن حـزم - لَـوْ قُـدِّر لَـهُ أن يشـاهد بمصـرنا خفافيش المؤلِّفين، من الطبَّاعين والـورَّاقين، والمجتـدين والمـأجورين، ومـن محترفي الوعظ والإرشاد، وذوي الثَّرثرة في كـلِّ نـاد ؛ إلى آخـرين اسـتعجلوا المجْد، فتزبَّبوا قبل أن يَتَحَصْرموا، وعلَّموا قبل أن يتعلَّمـوا؟!! وحبَّـذا النـار، تأكل الأقذار والأوزار.

ومن الإنصاف - الَّذِي نرجو أن يكون عماد كتابنـا هَـذَا - أن نُنـوِّه بكتـب حديثة لَهَا في الجامعة الثقافية مكان، ونرجو أن يكون لَهَـا موضـع في الميـزان. ومن آيِ التنويه بِهَا، أن ننبِّه على نقدها. وكفى بِهَا تنويها، أن تُعدَّ مساويها.

أ- في " **فجر الإسلام** " للأستاذ أحمد أمين مدير الإدارة الثقافيـة بالجامعـة العربية ط ٥ ص ٢١٧ مَا نصُّه: (ولم نظفر منهم في هَذَا الباب "نقد المتن" بعشر معشار مَا عُنُوا بِهِ من جرح الرجال وتعديلهم، حتى نرى البخـاري نفسـه علـى جليل قدره ودقيـق بحثـه يُثبـت أحاديـث دلَّـت الحـوادث الزمنيَّـة والمشـاهدة التجريبيَّة على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال، كحديث: " لا يبقى على ظهر الأرض بَعْدَ مائة سنة نفس منفوسة "؛ وحديث: " من اصْطَبَح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سمٌّ ولا سحر ذَلِكَ اليوم إلى الليل ").

ونحن نيابة عن البخاري - رحمه الله - نضع بين يدي القاضي الأمين [١] هَذِهِ المقدِّمات الصحيحة، ثم نترك لَهُ الحكم وإعادة النظر في قضية هذين الحَدِيثَيْن المظلومَيْن، المتَّفق عليهما بين الشيخَيْن.

في إحدى روايات البخاري للحديث الأول عن ابن عمر نفسه راوي الحديث: " فوهل الناس [٢]".. وَإِنَّمَا قَالَ النبيُّ ﷺ: " لا يبقى ممَّن هُوَ اليوم على ظهر الأرض " يريد بذلك أنها تخرم ذَلِكَ القرن. قَالَ الشُّرَّاح: وهَذِهِ إحدى معجزاته ﷺ فقد ظهر بالاستقراء أنه لم يعش أحد أكثر من مائة سنة ممن كَانَ على ظهر الأرض منذ تِلْكَ الليلة [٣]. وَقَدْ روى الأستاذ الحديث أو روي لَهُ من موضع واحد فقط، ولعله رُوي بالمعنى، لأنا لم نجد هَذَا اللفظ للبخاري. **ولا يحكم باحث على الحديث ولا سيما حديث الشيخين أو أحدهما إِلاَّ بَعْدَ تَتَبُّع الروايات والتثبُّت من معناها، فَإِنَّهَا يكمل بعضها بعضاً.**

وأكبر الظنِّ أنه اعتمد في سَوْق هذا الحديث على ذاكرته التي غاب عنها أن الذاكرة لا يُعوَّل عليها في هذا الشأن، اللهمَّ إلا أنَّ تُقَارِبَ ذاكرةَ أمير المحدثين – غير مدافع – أبي عبد الله البخاري.

والمراد بالتمر: تمر المدينة كَمَا في صحيح مسلم وغيره، وعدمُ الإصابة، لدعائه ﷺ لهذا التمر، لا لذاته وطبيعته. وَلَيْسَ المقصود التحدِّي والتجربة،

---

(١) لبث في القضاء الشرعي بضع سنين قبل أن ينقلب إلى المناصب العلميَّة الكبرى (طه).

(٢) فزعوا أو غلطوا في فهم الحديث، إذْ فهموا منه فناء العالم بعد مائة سنة، كما فهم من لم يطَّلع على هذه الرواية كبعض المستشرقين الذين نعتزُّ بهم كثيراً، ونتَّخذهم في البحث إماماً (طه).

(٣) في قوله ﷺ: " أرأيتكم ليلتكم هَذِهِ "؟

فإنَّ العبد لا يمتحن رَبَّه كَمَا نقلنا عن المسيح عَلَيْهِ السلام [١]، بل المقصود أنَّ فاطر السَّموات والأرض - إِذَا ألهم عبده أن يفطر على هَذِهِ التمرات السَّبع [٢] حفظه من السُّم والسِّحر، وكَانَ الإيذاء بهما شائعاً عند أعداء العالم كُلّه، وكانوا جيران النبيِّ ﷺ وأنصاره. ولم يثبت في حادثةٍ مَا أنَّ أحداً تَصبَّح بهذه السَّبع فأصيب في يومه بسمّ أو سحر. فمتى وأين كانت التجربة؟ وإذا كَانَ لدعاء العامَّة أثرٌ لا يُنكر، فما بالك بمن أعطاه الله الكوثر؟

على أنه لا مانع أن يُودِعَ الله بعضَ الأشياء خاصَّة تدفع الأذى والضَّرر مادياً كان أو روحياً ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [٣]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

وبعد، فمثل الأستاذ مَنْ يُقدِّر فضيلَة الرجوع إلى الحقِّ، ويُصحِّح هَذَا الخطأ ونحوه فيما يجدُّ من طبعات لكتبه النافعة.

ب- صريح الكتاب والسنة وعقيدة المسلمين كافَّة أنَّ البعث بالرُّوح والجسم معاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [٥] وأنَّ العذاب روحانيٌّ وجسمانيٌّ كذلك، على أتمّ ما يكون "الشخص" قوةً وحساً ووعياً، خلافاً لكفرة الفلاسفة الذين ذهبوا إلى أنَّ البعث بالرُّوح فقط.

---

(١) ص ٢٤ من "درجات الناس" قال: ظهر إبليس لعيسى ابن مريم عليهما السلام، فقال له: ألست تقول: إنه لن يُصيبَكَ إلا ما كتبَ الله لك؟ قال: نعم، قال: فارْمِ بنفسك من ذِرْوة الجبل، فإنه إنْ يقدِّر لك السَّلامة تَسْلَم، فقال له: يا عدوَّ الله، إنَّ للهِ أن يختبر عبدَهُ، وليس للعبد أن يختبرَ ربَّه.

(٢) في الإيتار قولاً وعملاً تقوية للتوحيد حتى يختلط باللحم والدم، وَقد بيَّنا ذلك في مجلة الأزهر م ١٦ ص ٣٧٣ (طه) وانظره: في دعاء الله بأسمائه، ص٣٦٤.

(٣) اقتباس من الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.

(٤) اقتباس من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٥) اقتباس من الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء.

بَيْد أننا نقرأ في "**الفلسفة القرآنية**" [١] تأييداً لهذا المذهب، مع تأويل لآيٍ من القرآن العربي المبين يجعلها إلى الخيال أقرب!

ولسنا بحاجة إلى الردّ على المؤلِّف الكبير بعد أن كفانا مؤونة الردّ عليه عالِمٌ جليل [٢] وسنكشف له الحقائق ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٣].

ولكننا بحاجة إلى أن ننصف الإمام المفسِّر الذي اجْتَذبه المؤلف إلى مذهبه اجتذاباً، [فأبْرَزَ لنا شاهداً من كلام الإمام تناوله الإمام نفسه بالتجريح، وأغْفَلَ شاهداً تناوله بالتزكية والترجيح].

ولو كان مؤلفنا كاتباً عادياً لضَرَبْنا عنه صَفْحاً أو احتلنا لهفوته عذراً.

ولكنَّا لا نجد لصاحب "**العبقريات**" معذرة... اللهمَّ إلا أن يضرب لقُرَّائه المَثَلَ في أمانة النقل والرجوع إلى الحق، وله بالفاروق رضْوان الله عليه أسوة.

وإليكم ما أخذ من كلام الإمام وما تَرك حرفاً بحرف، ولكم التعليق والحكم:

قال المؤلف في ص ١٧٤: " فالإمامُ فخر الدين الرازي مثلاً يقول في تفسير الاتِّكاء على السُّرر الموضونة: " معناه أنَّ كلَّ أحدٍ يُقابل كلَّ أحد في زمانٍ واحد، ولا يفهم هذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات. وعلى هذا فيكون معنى الكلام: أنهم أرواحٌ ليس لهم أدبار وظهور. فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح نورانية: جميع جهاتهم وَجْه. كالنُّور الذي يقابل كل

---

(١) للكاتب العَلَم الأستاذ عباس محمود العقاد (الساكت).

(٢) صديقنا الفهَّامة محمد يوسف الشيخ أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين، وهو صاحب الفضل والسَّبق في الرد على المؤلف في مجلة الأزهر م١٩ ج ٧-٨ ومن كلامه ما بين هاتين القوسين [ ] (الساكت).

(٣) اقتباس من الآية ٦ من سورة المطففين.

شيء". وهذا فهم فيلسوف باحث في الجواهر والأعراض، وفي مطالب الأرواح والأجسام.

ونـص كـلام الإمـام قبـل هـذا: " وقولـه تعـالى: ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ فيـه وجهـان: أحدهما: أنَّ أحداً لا يستدبر أحداً، وثانيهما: أنَّ أحداً من السابقين لا يرى غيره فوقه، وهذا أقرب لأنَّ قـول متقـابلين علـى الوجْـه الأول يحتـاج إلى أن يقـال مُتقابلين: معناه أنَّ كلَّ أحد.. الخ ".

بقي أن يكون المؤلف قد تعجَّـل في النقـل عَجَلـتي حينمـا حكمـتُ علـى حديث صحيح بالوضع في بحثٍ دعوتُ فيه إلى تحرِّي الأحاديـث الصـحيحة، وإيثارها في الوعظ والكتابة، ففيها غُنْيةٌ عن الموضـوعة والضـعيفة، ولكـن مـا لبثتُ أن أعلنت خطئي ورجوعي إلى الحقِّ بعدما تبيَّن (١).

وإلى القرَّاء سبب الخطأ فقد يكون فيه نفعٌ وعظة:

في أول صفحة ٢٠٤ من "تذكرة الموضوعات" للفتَّني ما نصُّه:

"اخبر تقله" كلُّ طرقه ضعيفة، نعم شهد لـه ما اتَّفق عليه الشيخان مرفوعاً: " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة " الصَّغاني هو موضوع، وكذا "الناس كأسنان المشط".

اختطفت السطر الثاني مُتعجِّلاً، فأضَفْت إلى الزَّلل أنْ قوَّلت الصَّغاني مـالم يقل؛ إذ هو يريد الحديث الأول بلا رَيْب. ومعناه: أخبر من شئت فإنـك لا بـدَّ قاليه ومُبْغضه لما يتكشَّف لك من معايبـه! ومـن هنـا أُمرنـا أن نُحسـن الظـن، ونأخذ بالظاهر، والله يتولَّى السرائر.

---

(١) والذي نبَّهني مشكوراً أستاذنا الشيخ منصور ناصف صاحب كتاب "التاج الجامع لأصول الحديث" ونشر البحث مصحَّحاً مع الدعوة إلى الأناة في الحكم بمجلة "الهداية" ج١٠ م٨ (طه).

ج- في الصــفحات الأولى، ثم في صــفحتي ١٢٩-١٣٠ مــن "**الرســالة الخالدة**"[١] شبهتان[٢] وَجَدتا في هذا العصر – عصر الدعاوى والتأويـل والفـرار من التَّبِعَات – سُوقاً رائجة:

شبهة أنَّ الإيمان بالله واليوم الآخر مع العمل الصالح كافيـان في الإسـلام، ولو لم يقْترنا بالإيمان بخاتم النبيِّين صلوات الله وسـلامه علـيهم. وهـذه عقيـدةُ الجَهَلَة بأصول الدين، ومنهم كثير من الذين ثقفوا ثقافة أوربية.

ومن البَدَهيِّ أنَّ الإيمان بمحمد ﷺ جزءٌ من الإيمان بالله وكتابـه، وأنـه لا يتصوَّر إيمان بالله تعالى مع تكذيب كتابه، أو التفريق بين أحدٍ من رسله.

وشبهةُ أنَّ للإمام وأهل الشورى أن يجتهدوا بعقولهم وآرائهـم مـتى بَـدَت لهم المصلحة، ولو لم يستندوا في اجتهادهم إلى قانون الشريعة العام وأصـولها الثابتة.

وأكبرُ الظَّنِّ أنَّ هذا من قبيل الغموض العـارض الـذي يحتـاج إلى إيضـاح وتجْلية؛ أو من آثار العَجَلة في البحث والدرس كما قلنا آنفاً.

والكتاب العظيم كالدَّوْحة العظيمة لا ينقصها أن يذبل بعـض وريقاتهـا، أو أن يلتوي على نفسه أو على غيره غُصنٌ من أغصانها.

وأكبر الظنِّ أن هَذَا من الغموض العارض الَّذِي يحتاج إلى إيضاح وتجْلية، أو من آثار العَجَلة في البحث والدرس.

د- وأما الكاتبون في **اجتهاد النبيِّ ﷺ وسيرته وشمائله ومعجزاته**، وكلِّ مَـا

---

(١) للكاتب الكبير والسياسي المحنَّك عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية (طه).

(٢) أزحنا هاتين الشبهتين، واعتذرنا عن المؤلف في الجزأين ٧ و ٨ من المجلد التاسع عشر من مجلة " الهداية الإسلامية" (طه).

يتَّصلُ بِهِ، فلا وَزْنَ لما كتبوا في امتحان الملك إلاَّ من بَعْدَ أن يتأدَّبوا بأدبه.

سُئل بعض المحبين عن كتابٍ في اجتهاده ﷺ، فَتَلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾(١).

وسُئل عن كتاب آخر نسيَ صاحبُه أن يَبْدأه بالبسملة - أو اجتهد فتعمَّد تركها - فأجاب: لَوْ طبعت هَذَا الكتاب لا سْتَحييت أن أنشرَه، وَقَدْ أنساني الشيطان اسم ربِّي أن أذكره!

ونُنَبِّه هنا على إحدى الكُبَر من آفات التأليف الشَّائعة، وهي انتصار المؤلف لرأيه بحُجَج وأحاديث تُؤيِّده، على حين يردُّ مثلها أو أحسنَ منها إذَا كانت تُعارضه! وهكذا يضيع الحق بين قَالَ وقيل، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ (٢).

ومن إحقاق الحق أن نذكر " **رسائل الإصلاح** " (٣) نموذجاً لكتب يُؤْتَمُّ بِهَا في التصنيف رُشْداً وهدايةً، وأمانةً وكفاية.

وجملة القول: أنَّ الكتب كالناس. و " إِنَّمَا الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فِيهَا راحلة " (٤).

ولو أنَّ الأزهر والجامعة ولجان التأليف على اختلافها - تُعنى بالتصحيح

---

(١) سورة الحجرات: ٣.

(٢) اقتباس من الآية ٩ من سورة النحل.

(٣) لأستاذنا الكبير السيد محمد الخَضِر حسين صاحب الردود الرفيعة القاصمة على كثير من أعلام هذا العصر كالأستاذ علي عبد الرازق باشا في كتابه "الإسلام وأصول الحكم"، والدكتور طه حسين باشا في كتابه "الشعر الجاهلي" ومن دَرَس مؤلفات أستاذنا فهنيئاً له الفضل والنُّبل وأدب الخطاب (طه).

(٤) انظر تخريجه وشرحه لهذا الحديث في هذا الكتاب بعنوان: "عزَّة الكمال في الناس" ص٤٥٣.

عنايتها بالتصنيف، إذاً لقدَّمت للأمة خيراً يثقل بِهِ ميزانها، وترتفع درجتها "[(١)].

وبعد، فهذه لمحات موجزات، وقَبسات مضيئات اخترتها للقارئ من كتاب المؤلف " درجات الناس عند الملوك " الذي صدرت طبعته الأولى في المحرم من سنة ١٣٧٠.

ثم صدرت الطبعة الثانية في غُرَّة رجب ١٣٧٠، ثم الثالثة في غُرَّة رمضان ١٣٧٠ بعنوان "**دَرَجات الناس**" في ١٢٧ صفحة، وقد اقتصر المؤلف في عنوان الكتاب على "درجات الناس" دون "عند الملوك"، وأجرى تعديلات وإضافات كثيرات، ودعا في مقدمته إلى أهمية التناصح والتواصي بين الراعي والرعية، والحاكم والمحكوم.. وتأثير صلاح الراعي في الرعيَّة، وتأثير الرعيَّة في الراعي.. وأنَّ المقصود الأول من كتابه هو: إشاعة التناصح بين عليا الطبقات ودُنياها، وكشف الغطاء عن هذه الحلقة المفقودة التي قطعنا بفقدها ما أمر الله به أن يُوصل، ثم تكلَّم عن دَرَجات الأفراد، واختلاف الناس في تقدير الكمال، ودرجات الأمم، وبيَّن أنَّ المثل العليا لأمم الأرض قاطبة هم المسلمون الأوَّلون في عهودهم الثلاثة الأولى، وتكلَّم عن منْزلة الصحابة، وحُكم ما وقع بينهم، ومنازلهم المختلفة، ومراتبهم المتفاوتة، ثم انتقل للحديث عن حاضر الأمم، وحكم مَنْ يفصل الدنيا عن الدين، وأورد نماذج من عظات العلماء للملوك، واستعرض بعض المؤلفات في نصح الملوك [(٢)].

ثم تكلَّم عن العلماء العاملين، والنُّصحاء المخلصين، وَرَثَة الأنبياء، وقال عنهم- نفعنا الله بهم -:

---

(١) ص ١٥١ – ١٥٤ من الطبعة الأولى، وص ١١٨ –١٢٤ من الطبعة الثانية، وفيها إضافات.

(٢) وكلُّ ما ذكرته هنا ممَّا أضافه في الطبعة الثانية للكتاب الذي اختصر عنوانه، وعدَّل الكثير من محتواه.

وَرَثة الأنبياء :

" هؤلاء العالِمون العاملون، النَّاصحون المُخْلصون هم وَرَثة الأنبياء حقاً، يهتدون بهديهم، ويُجدِّدون للناس أمر دينهم، ويستغْنون بالغنيّ الحميد عمَّا في أيديهم، ولولا بقيةٌ منهم لهلك العالم أجمع!

هؤلاء هم مصابيح الظلام، وهُداة الأنام؛ يَبْنون الأمم، ويُحيون الهمم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ (١).

لا جَرم أنَّ حياة العالم بهؤلاء فوق حياته بالماء والشَّمس والهواء، لأنَّ حياته بتلك الثلاثة عاجلة فانية، وحياتهُ بالأنبياء والمجدِّدين دائمةٌ باقية، وَشتَّان ما بين باقٍ وفان.

وَحَذارِ أن تَعدَّ منهم أربابَ المناصب والشَّهادات، مالم يكونوا أسْبَقَ الناس إلى الخيرات، وإنْ أُوتوا علم الأوَّلين والآخرين؛ فإنَّ إبليس مُنْفرداً أعلم منهم أجمعين.

عبَّاد الدنيا :

إنَّ الذين يقولون مالا يفعلون ليسوا من الأنبياء، ولا ورثتهم في شيء، إنْ هم إلا فتنة الله في الأرض، يُضلُّ بِهَا مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاء ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ (٢).

ولا تُسمِّ هؤلاء علماء الدنيا، لأنهم لا يعلمون ظاهراً منها – كما يعلم المخترعون والمُسْتكشفون – ولكن سمِّهم عُبَّادها، لأنهم أحرصُ الناس عليها، وأشدُّهم خشوعاً لها. وحَسْبهم من مقْت الله لهم، أنْ صَرَف القلوبَ عنهم، لما انصرفت عن الله قلوبهم! وهم يوم القيامة أشدُّ مَقْتاً وخِزْياً، يوم يدورون في

(١) اقتباس من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

(٢) اقتباس من الآية ٦٨ من سورة القصص.

النار كما يدور الحمار في الرَّحى[1]! وإنْ شئتَ فسمِّهم كما يسمِّيهم الناس قديماً وحديثاً:

علماء السوء: لأنهم أساؤوا إلى أُممهم فغشوهم! وإلى أنفسهم فضيَّعوها! وإلى دُستورهم الذي استُحفِظوه فلم يرعوه حقَّ رعايته.. حتى غزته في أعماق الديار ووضح النهار؛ قوانينُ أرضيَّة أتت عليه إلا بقية هزيلة نحيلة سَمَّوها "الأحوال الشخصيَّة" وهي في طريق اللحاق به، بفضلِ الدعاة إلى توحيد القضاء، في أمم دينها الإسلام، ونبيُّها رسول العدل والرحمة والسلام، ودُستورها منهاج الحقِّ والجمال والخير العام!

وإذا عَذَرنا بعض العُذر مَنْ يَنْصر دستوره الذي نُشِّئ عليه، وأُشربه وهو يجهل أنَّ فيه شقاوته، فكيف نعذر مَنْ يخذل دستوره الذي استُودعه، وهو يعلم أنَّ فيه مَجْدَه وسعادته؟!

أما بعد، فإنَّ "علماء الكلام" [2] ليعلِّمون ويقرِّرون أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، وأنَّ مَنْ دَعَا إلى خير وَجَبَ أن يكون مثالاً فيه، وإلا فهم سُخْرة الساخرين، وضحكة الهازئين، وقلَّما يستجيب الناس لمن يسخرون منه؛ ومن أجل ذلك ذمَّ الله اليهود وأمثالهم، لأنهم يأمرون الناس بالبر، ويَنْسَوْن أنفسهم، ويحبُّون أن يُحْمَدوا بمالم يفعلوا، وإذا نهيتهم عمَّا فعلوا تنصَّلوا وتأوَّلوا ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [3].

ألا إنَّ هذه موعظة من الله في دينهم، وإنها نعمة من الله سيقَت إليهم، فإنْ قبلوها بشكرٍ، وإلا كانت حُجَّةً من الله عليهم؛ ليزدادوا بِهَا إثماً، ويزداد الله

---

(١) إشارة إلى حديث الصحيحين [البخاري ٣٢٦٧، ومسلم ٢٩٨٩]، وألف الرحا دائرة بين أصليها: الياء والواو (طه).

(٢) تسمية ثالثة لأشباه العلماء، وهم حريُّون بِهَا لكثرة كلامهم وقلة عملهم (طه).

(٣) اقتباس من الآية ٤٤ من سورة النساء.

عليهم بِهَا سَخَطاً " [١] انتهى.

تقريظ مجلة الأزهر للكتاب :

هذا وقد قرَّظت مجلة الأزهر في تعريفها بالكتب التي تصلها، الكتابَ المذكور، وممَّا جاء في تقريظها للطبعة الثانية والثالثة: " هو كتابٌ نفيسٌ لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت، وهو أعرف من أن نُعرِّفه إلى قُرَّاء مجلة الأزهر، لأنه من أركان تحريرها من سنين كثيرة، وهو يتَّصل بقرَّائها في كلِّ شهرٍ حَوْل سنَّة رسول الله ﷺ، فإذا ألَّف كتاباً ليتكلَّم فيه على دَرَجات الناس، فإنَّ أول ما ينظر به إلى درجاتهم، المقاييس التي قرَّرتها سُنَنُ الإسلام، وعمل بِهَا أهله الأوَّلون من الصحابة والتابعين.

والمؤلف: يرى أنَّ سببَ مصائب المسلمين، أنهم فقدوا قاعدة التناصح والتواصي بين الراعي والرعية، إلا رسوماً ومظاهر لا تُغني فتيلاً، وقد ضرب الأمثلة لذلك من التاريخ، وقرر قاعدة الإسلام ": كما تكونون يُوَلَّى عليكم ".

وقال في درجات الأفراد ما قالته فيهم السنة المحمديَّة: " الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة " وَوَصَفَ المثل الكامل الذي رسمه الإسلام، وقال: إنَّ الكمال درجات، والأمم أيضاً درجات، كما أنَّ الأفراد درجات، وذكر فضل الصحابة والأدب معهم، ونوَّه بمقام التابعين وأتباعهم.

ولو شئنا أن نمضي في كلٍّ ما تعرَّض له المؤلف ممَّا به صلاح الراعي والرعية لاحتجنا إلى نشر كتابه كلِّه، ولكننا نُحيل القارئ عليه، وننصح له

---

(١) اقتباس من حديث رواه ابن عساكر عن عطية بن قيس، وأوله: " أيما عبدٍ جاءته موعظةٌ من الله في دينه ..." الخ قال شارح الجامع الصغير: وهو حديثٌ حَسَن (طه). والحديث رواه البيهقي في "الشعب"، وابن أبي الدنيا في "مواعظ الخلفاء". قال الحافظ العراقي في " تخريج أحاديث الإحياء " ٢: ٣٤٨: وفيه أحمد بن عبيد بن ناصح، قال ابن عدي: يحدّث بمناكير، وهو عندي من أهل الصدق.

بإطالة التأمُّل فيه " انتهى.

مقالات الأستاذ طه الساكت :

لفضيلة الشيخ طه مقالاتٌ كثيرة منشورة في المجلات الإسلامية الشهيرة التي كانت تصدر بمصر، ولاسيما مجلة " الإسلام " لصاحبها أمين عبد الرحمن[١]، ومجلة " الفتح " لصاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب، ومجلة " الهداية الإسلامية " التي كان يرأس تحريرها الإمام محمد الخضر حسين، ومجلة " الأزهر " في شرح الأحاديث النبويَّة، والتي سيأتي الحديث عنها بعون الله عزَّ وجل.

ولو تمَّ جمع مقالاته في مجلات "الإسلام"، و"الهداية الإسلامية"،

---

(١) ابتدأ صدور هذه المجلة سنة ١٣٥١ = ١٩٣٣، واستمرَّت أكثر من أربعين سنة، وكتب فيها عدد كبير من الأعلام كمفتي مصر الأسبق العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي، ومحمد زاهد الكوثري، ومصطفى الحمامي، ويوسف الدجوي، وعبد الله بن الصِّدِّيق، وعبد العزيز بن الصِّدِّيق، والأشقاء الثلاثة: عبد الفتاح وعبد الرحمن ومحمود خليفة، رحم الله الجميع.

وكنت أرسلت رسالةً لشيخنا العلامة المحدِّث الأصولي السيد عبد الله بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى أقترح عليه جمع مقالاته وبحوثه في مجلة "الإسلام"، وأسأله عن تلك المجلة وصاحبها، فأجابني بتاريخ ١٦/شوال/١٤١١: "... وأمين عبد الرحمن كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان عنده مطبعة يطبع عليها الدفاتر والأوراق وغيرها. وأرشده بعض الموظفين عنده إلى إنشاء مجلة دينيه، وأنها تدرُّ عليه ربحاً كثيراً كثيراً، وشجَّعه، وتقدَّم هذا الموظف بطلب باسمه لإنشاء "مجلة الإسلام "، ونجحت إذ لم يكن غيرها، وكان نجاحها كبيراً، ولا سيما وقد اتَّجه إليها كتَّاب ممتازون، وهم نخبة من علماء الأزهر، وتولَّى الإشراف عليها الأستاذان الجليلان الشيخ عبد الرحمن خليفة، وشقيقه الشيخ محمود خليفة، وعاش أمين عبد الرحمن أمياً لا يدري شيئاً عن المجلة، وما يُكتب فيها، وكان الشيخ محمد أمين هلال من علماء الأزهر، يكتب كلمة باسم صاحب المجلة في بعض المناسبات... ".

و"الفتح" والمجلات الأخرى لخرجت في مجلدين كبيرين.

مقالاته في مجلة "الإسلام" :

وهذه عناوين بعض مقالاته في مجلة " **الإسلام** " رأيت بعضها مخطوطة بخطِّه، وأشار فيها إلى تاريخ نشرها بالمجلة المذكورة:

خطوةٌ مباركةٌ، حول تعليم النِّساء وتفقيههنَّ، ضَيْفٌ كريم، ليالي رمضان، في الأعداد ٣٣ و٣٥ و٣٨ من السنة الخامسة (١٣٥٥).

أشباه الوعَّاظ، إهانةٌ وتَهَاون وإلى متى؟ أدبُ الحِجَاج، في الأعداد ٧ و٩ و٢٦ من السنة السادسة (١٣٥٦).

من عجائب الخلوة، أصلحوا العامة أولاً، الله أكبر، في الأعداد ٤٢ و٤٣ من السنة السابعة (١٣٥٧).

من أعلام النبوة: هل تعقل الجمادات، أضلالٌ أم تَضْليل؟ فتنة الحديث، في الأعداد ١٨ و٣٠ و٤٨ من السنة الثامنة (١٣٥٨ = ١٩٣٩).

اتقوا الله في علمائكم، التكرار وفضله وحكمته، أدب البحث، هجرة في سبيل الله، في الأعداد ١٥ و١٩ و٢٣ من السنة التاسعة (١٣٥٩ = ١٩٤٠).

العقوبة بالمال، من ذكريات الحج في أربع حلقات، طعن في غير مطعن (رد على الأستاذ فريد وجدي)، دعوة إلى الوعظ العملي: القدوة الحسنة، والخطة العمليَّة والسياسة الرشيدة، في الأعداد ١٦ و١٧ و٢٠ و٢١ و٢٣ و٣٣ و٣٤ و٤٣ من السنة العاشرة (١٣٦٠ = ١٩٤١).

دعوة إلى الوعظ العملي: الخطة العمليِّة، خطوات الوعظ، التعاون في الحج في الأعداد ٤ و١١ و٤١ من السنة الحادية عشرة (١٣٦١ = ١٩٤٢).

من أدب النقد، عبرة الموت، في العددين ١٠ و ٢٤ من السنة الثانية عشرة (١٣٦٢= ١٩٤٣).

فَوضْى الكرامات، أثر الحج في تربية الأفراد والجماعات، في العددين ١٨

و٣٤ من السنة الثالثة عشرة (١٣٦٣ = ١٩٤٤).

كما أجاب عن بعض الفتاوى التي نُشرت في مجلة "الإسلام"، ومنها:

حول التعاون في الفتوى في العدد ٣٧ من السنة التاسعة (١٣٥٩)، إرضاع اليائس والقرعة في العدد ٢٨ من السنة العاشرة (١٣٦٠)، فصل في مسائل، حقيقة الحرير، حقيقة الذكر، في الأعداد ١٥ و١٨ و١٩ من السنة الحادية عشرة (١٣٦١)، و"منثورات" وهي مجموعة فتاوى في حكم المسح على العِمَامة والجَوْرب، وإجابة المؤذِّن، والصلاة بالنعال، والمسافة التي تبيح الفطر، والجمع في السفر، وإرضاع اليائس، والقرآن والإلهام، واسم ملك الموت، في الأعداد ٢٠ و٢١ و٢٢ و٣٧ من السنة الثانية عشرة (١٣٦٢ = ١٩٤٣)، والثالثة عشرة (١٣٦٣ = ١٩٤٤).

ثم أُسندت إليه الفتوى في مجلة "الإسلام"، وقال في مقدمة هذا الركن من المجلة: " بين يدي الآن طوائف شتَّى من رسائل الاستفتاء إلى مجلة (الإسلام) الغرَّاء: طائفة منها حديثيَّة، وأخرى تفسيريَّة، وثالثة فقهيَّة في العبادات والمعاملات، ورابعة في الأحول الشخصيَّة، في النكاح والطلاق والميراث.

تراكمت هذه الرسائل نظراً إلى سفر فضيلة الأخ الأستاذ الكبير العلامة الشيخ علي حسن البولاقي مفتي المجلة؛ سافر إلى دولة الكويت للعمل في الموسوعة الفقهية هناك [١]، والله يوفِّقه ويُسدِّده، وينفع به البلاد والعباد أينما حلَّ وارتحل.

بعد سفر الأستاذ رأت إدارة المجلة أن تُحوِّل على شخصي الضعيف الإجابة عن هذه الرسائل المتراكمة، ظناً منها أني أقوم مقام أخي الأستاذ الكبير.

---

(١) عمل في "الموسوعة الفقهية" في الكويت بصحبة أستاذنا الفقيه الكبير العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، وكان شيخنا كثير الثناء عليه؛ شديدَ الإعجاب به، رحمهما الله تعالى.

وهذا ظنٌّ ما أراني أهلاً له، ولكني أستعين بالله جلَّت قدرته على القيام بهذا العبء العظيم، ثم بصفوةٍ من العلماء والأماثل، والزملاء الأفاضل، وفي مقدِّمتهم لجنة الفتوى من كبار العلماء، ومفتشو العلوم الشرعيَّة، وأساتذة الدراسات العليا بالأزهر المعمور. ولن نضلَّ الطريق أبداً ما دمنا متعاونين على البرِّ والتقوى، مُبْتغين الحقَّ وحدَه، راجعين إن نسينا أو أخطأنا، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

مقالاته في مجلة "الإيمان" و "نور الإسلام" و "الرسالة" :

ومن مقالاته المنشورة في مجلة "**الإيمان**": إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، العزَّة الخلقية الإسلامية، حديث عيان، في الأعداد ٩ و١١ و١٢ من السنة الثانية (١٣٥٤).

يوم مشهود، في العدد ٣ من السنة الثالثة (١٣٥٥).

ومن مقالاته في مجلة "**نور الإسلام**": اعترافٌ بالجميل: من تلميذ إلى أستاذه، في العدد ٨ من السنة الرابعة (١٣٥٧)، تخلَّقوا بأخلاق الله، في العدد ٧ من السنة التاسعة (١٣٦٢ = ١٩٤٣).

ومن مقالاته في مجلة "**الرسالة** ": حول القراءات السبع في العدد (٣٨٠)، وإلى طلاب النحو في جميع الأقطار: جواب عن أسئلة الأستاذ مصطفى إبراهيم في العدد (٣٨١)، حول ربيع وجمادى في العدد (٤١١)، وحول مكتبة الحرم النبويِّ الشريف في العدد (٤١٦)، فتوى واستفتاء في بعض المباحث الأدبية في العددين (٤١٨) و (٤٢٣)، تراث بني إسرائيل في العدد (٥٠٥).

ومن جملة بحوثه المكتوبة التي رأيتها بخطه : خلاصة محاضرات دينيَّة متنوِّعة في أصول الدين. كتبها سنة ١٣٥٣= ١٩٣٤ كتب فيها عن الإنسان وحاجته إلى الدين، وأنَّ العقل لا يكفي في التشريع.

وكلمات مُوجَزَة في فقه الإمام مالك في الطهارة والصلاة، كتبها سنة ١٣٥٣.

وبحث في "**التعاون في الإسلام**" في ٦٠ صفحة.

وبحث في " **الإيمان وأثره في النفوس**" في ٣٨ صفحة، وهو في الأصل محاضرة أُلقيت بجمعية الإخوان المسلمين بسوق السلاح بمصر في ٢٠من رجب سنة ١٣٥٠ = ١٩٣١ م.

وبحث في " **الصوم وحكمته وفضائله وبعض أحكامه** ".

وبحث في " **حياة الإمام البخاري ومكانته في المجتمع الإسلامي** " شارك فيه في ذكرى الإمام البخاري بمناسبة مرور ألف ومائتي عام على ولادته في ١٣من شوال سنة ١٩٤، ألقاها في ٧ من شوال سنة ١٣٩٤ في أسبوع الإمام البخاري بدعوة من الأمانة العامة للشؤون الدينية والأوقاف بالسودان.

وبحث في " **الفتيا وآدابها** " تكلَّم فيها عن معنى الإفتاء، وأهمية مَنْصب الإفتاء، والخوف من الفتيا، وشروط الفتيا، وآداب المفتي والمستفتي.

ومذكرة في مقرَّر الحديث للفرقة الثانية من أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية، كتبها سنة ١٣٩٣ - ١٣٩٤.

ومن جملة جهوده العلميَّة في الحديث النبوي: اسْتِنْسَاخُه بعض الكتب الخطيَّة المهمة مثل كتاب " التنكيت والإفادة في تخريج أحاديث خاتمة سِفْر السعادة " لابن هِمَّات الدمشقي، من مخطوطة في دار الكتب برقم ٥٢٦٦ استنسخها على نفقته في المحرم ١٣٦٥.

وقد أثنى على أبحاثه العلميَّة الأستاذ " ولفركانتول سميث " أستاذ علم الأديان المقارن في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجل – كندا في كتابه "الإسلام في التاريخ الحديث" ص ١٣٥ فقال: " وبعد عام ونصف انقطع فيها الموضوع [١]، وظهر مرةً أخرى بقلم كاتب ظلَّ يكتب عنه ويعالجه، وكان ذلك

---

(١) لم يتبيَّن لي الموضوع الذي يشير إليه لأنني لم أقف على الكتاب المذكور، وإنما
=

بعد زيارتي للقاهرة زهاء الخمس سنوات، وكان هذا الكاتب هو العالم الجليل طه الساكت، وقد تخصَّص هذا العَلَم في معالجة النواحي الخلقيَّة الشخصيَّة، والدعوة إلى الفضيلة والإنسانية والخُلق الديني القويم. كما كرَّس جهده في غرس الإحساس العالي بالمسؤولية والخلق الرفيع والتقوى الخالصة، وذلك في المسائل الحيويَّة الخاصَّة منها والعامة، والواضح في كتابه أنها تَنْبَعُ من روح دينيَّة أصيلة ".

* * * * *

نقد الكتب والمؤلفات المعاصرة :

من الأعمال العلميَّة التي قام بِهَا الشيخ طه محمد الساكت دراسة بعض المؤلفات المعاصرة، وذكر بعض المآخذ عليها، وكانت دراسته لتلك الكتب المقدَّمة إِلَيْهِ تتَّسم بالإيجاز والإنصاف والموضوعية.

وقد سبق ذكر بعض النَّماذج من نقده لبعض الكتب الثقافية المعاصرة في كتابه "درجات الناس": " لها - كما قال الأستاذ الساكت – في الجامعة الثقافية مكان، ونرجو أن يكون لها موضع في الميزان. ومن آي التنويه بها، أن نُنبِّه، على نقدها، وكفى بِهَا تنويها أن تُعدَّ مساويها "!!

وبين يديَّ عددٌ من الخطابات الموجَّهة من الإدارة العامة للثقافة الإسلامية في الجامع الأزهر، تُحيل إليه بعض الكتب لإبداء رأيه فيها... ومن تلك الكتب التي طُلب منه كتابة تقرير عنها والإدلاء برأيه فيما يتعلَّق بتداولها وعدمه حسب تاريخ إرسالها إِلَيْهِ: كتاب "المنتقى في تاريخ القرآن "، و" الإنجيل في القرآن"،

نقلت كلامه من ورقة فيها تقرير باللغة الإنجليزية وترجمته باللغة العربية.

و" القول الصريح في ظهور المهدي والمسيح " لنذير أحمد السيالكوتي، و "الشكوك التي تعتري العقل في العقيدة الإلهية وتفسيرها من كتاب الله والعقل"، وكتاب " الله والعقل"، و" دفاع عن السنة ورد شبهات المستشرقين والكتَّاب المعاصرين "للأستاذ محمد أبو شهبة، وكتاب "قصة يوسف" للأستاذ إبراهيم علي أبو الخشب، وكتاب " يوسف الصِّدِّيق " للأستاذ محمد طلبة رزق، ونقد سيناريو فيلم الاشتراكي الأول أبو ذر الغفاري، وكتاب "تبويب القرآن "، و"القاموس القرآني الجامع لألفاظ القرآن وتفسيرها "، وكتاب "نحو آفاق جديدة"، و " فقه الإسلام المُيَسَّر من المذاهب الأربعة "، وقد وقفتُ على بعض الأجوبة العلميَّة حول الكتب المقدَّمة إليه، ومن هذه التقارير:

١- " **أضواء على السُّنَّة المحمديَّة** " : تَتَبَّعه نظراتٌ في كتابين آخرين تصدَّيا لنقده والردِّ عَلَيْهِ، وهما: " ظلمات أبي رَية "، و"الأنوار الكاشفة ".. وفي كتب أخرى ومقالات تنقض الكتاب الأول..

تكلَّم في تقريره عن المؤلِّف محمود أبو ريَّة، ومنهجه في البحث، وجناياته باسم التحقيق، وتزويره وكَيْده للسنة.. ويخلص إلى بيان قيمة الكتاب العلميَّة والدينية والحكم عَلَيْهِ بأنَّ أساسه الغشُّ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.. ولا رَيْبَ أنَّ من أعظم القُرب إلى الله منع تداول هَذَا الكتاب مَعَ تطهير النفوس التي تلوَّثت بخبثه ورجْسه بنشر مَا يمكن نشره من كلِّ كتابٍ قويّ أمين، وكلِّ بحثٍ حفيظٍ عليم.

ثم استعرض الردود على كتاب أبي رية: " **ظلمات أبي رية** " لمحمد عبد الرزاق حمزة، وقال فيه: " وَهُوَ أول مَنْ نقض كتاب المؤلف نقضاً مُفَصَّلاً في كتاب مُستقل، يشهد لَهُ بسَعَة الباع، وبَسْطة الاطِّلاع، واسم كتابه يدلُّ على رأيه في المؤلف، وطريقته: نقض كتاب المؤلف مسألة مسألة بالبرهان السَّاطع، والبيان اللاذع "، ثم أورد الشيخ الساكت بعض نماذج تُعطي صورة مجملة عن الكتاب.

والكتاب الثاني، " **الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنَّة من الزَّلل والتضليل والمجازفة** " للشيخ عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني، وقال الأستاذ الساكت عن المؤلِّف والمؤلَّف: " صاحب هَذَا الكتاب عَلَمٌ من الأعلام المشتغلين بعلوم السنة، ويدلُّ كتابه على بُعْدِ غَوْره، وثقوب نظره، ورحابة فكره، وسَعَة أفقه، في البحث والدرس والاطلاع على تواضع عظيم، وغَيْرة خالصة على الدين والحق ".

واستعرض بَعْدَ ذَلِكَ كتباً ومقالات أخرى تنقض كتاب "أضواء على السنة" لأبي رية، ومنها مقالات الأستاذ أبو شهبة في مجلة الأزهر، وكتاب " الحديث والمحدِّثون " للأستاذ محمد أبو زهو، و" السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي " للدكتور مصطفى السباعي، الذي نقد أبا ريّة في قرابة ستين صفحة. وقد كتب الأستاذ الساكت تقريره العلمي الرصين في ٢٥ صفحة.

٢- كتاب "**الإنجيل والقرآن** " و "**القرآن والكتاب** " للأستاذ الحداد... وهما كتابان فيهما دعوة إلى النصرانية.

عرض الأستاذ الساكت في تقريره المقدَّم للمدير العام للثقافة الإسلامية عرضاً سريعاً موجزاً للكتابين، وبيَّن أن الكتابين الهدف البعيد منهما، هدم الإسلام والقضاء عليه تحت ستار خدَّاع من الدعوة إلى الوحدة الدينية، والقومية العربية، ومحاربة الجبهات الإلحادية إلى أمثال أولئك من كلمات الحق الذي يراد به الباطل، والصدق الذي يُنْصَب شَرَكاً لاصْطياد الحمقى والمغفَّلين.

وخَلَصَ الأستاذ إلى أنَّ الكتاب ساقطٌ سقوطاً ذريعاً من الناحية العلميَّة؛ لأنه ضلال وإضلال، وخيانة ونفاق، وأما من الناحية الدينية فهو أشدُّ سقوطاً، لأنه فوق الضلال والإضلال، والفساد والإفساد، مثارُ فتن وضغائن، كقطع الليل المظلم. ولا يعلم إلا الله ماذا يكون من مخاطر ومهالك حينما يرى المسلمُ نبيَّه ﷺ وقد طُعن بأنه مزوِّر ومدلِّس، يلفظ قرآنه على آثار نوبات من الشكٍّ تَنْتَابُهُ وتُسَاوِرُهُ. وقدكتب تقريره في ١٠ صفحات في ٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠.

٣- "**حَوْل الحجر الأسود**" عرض فيه لمواضيع الكتاب، وأنَّ غرض المؤلف الذي يرمي إليه: إنكار تقبيل الحجر الأسود، بعد الشكِّ والتشكيك فيه، حتى جعله شِركاً من قبيل عبادة الأصنام... وبيَّن الأستاذ قيمة الكتاب العلميَّة، الذي يقوم على الشك والتشكيك، وعلى إنكار سنة ثابتة مؤيَّدة بالتواتر العملي... ثم ذكر نماذج من أخطاء الكتاب، وأنه - على كثرة أخطائه - يثير شكاً وتشكيكاً في سنة ثابتة، ثم يمتدُّ تشكيكه هذا إلى كثير من السُّنن والشعائر، ثم يُجرِّىء الناسِ على أبعد من هذا، ممَّا يُحدث بَلْبلة واضْطراباً في العبادات والعقائد، ويُحكِّم الأهواء في دين الله تعالى، ويفتح باب شرٍّ إلى أبواب كثيرة... "

كتب الأستاذ تقريره في ست صفحات في ٢٢ من ذي الحجة سنة ١٣٨٣ هـ.

٤- "**ضياء النَّيِّرَيْن الجامع بين علمي الطائفَتَيْن**" لمؤلفه الشيخ أحمد دم من أعيان علماء جمهورية السِّنغال، والكتاب ينتظم تفسير القرآن كُلَّهُ في عشرين مجلداً من الحجم الكبير، كُلُّهَا مخطوطة عدا الأول منها، فقد طبع بمطبعة طنجة بالمغرب، طبعة اشتملت على أغلاط كثيرة، وسَقَطات شوَّهت المعاني.

وذكر مراجع المؤلف من كتب التفسير والأصول والصوفية. وقال الأستاذ بَعْدَ أن تحدَّث عن منهج المؤلف: "ويشهد التفسير لصاحبه بجهد محمود، وبلاء مشهود، واتِّجاه خالص لوجْه الله، يستأهل بِهِ منه سبحانه مَثُوبة العاملين، وجزاءَ المخلصين. على أنَّ اجتهاد الشيخ لا يتجاوز - فيما نرى - الترجيح لرأي، أو الانحياز لفريق، أو التعزيز لرواية، أو محاولة لتوفيق بين خلاف، أو الإشادة بمذهب، أو الإلماع إلى طرفة، أو الاستطراد في قصة شائعة.. ثم ذكر سبعة عشر نموذجاً في تفسيره أحسن في عرضها، وإن كَانَ اجتهاده لا يتجاوز كلام المتقدِّمين، ثم عرض مآخذه على المؤلف، وسقطاته في مواضع شتى من التفسير،.. ومنها مَا هُوَ خطير لما فيه من الإضْرار بعقائد العامة، وَبَلْبلة أفكار الجماهير فَضْلاً عن مُجَانَبة الحق. ثم ذكر أدلة غُلُوِّ المؤلف كقوله بتصرُّف

الأولياء بذواتهم، وسؤال غير الله عزَّ وجل؟!

وخَلَص إلى أنَّ الكتاب في حاجة إلى مراجعه واعية، تقيم معوجه، وتعالج سفهه، وَذَلِكَ: بإصلاح الأخطاء النحوية والبلاغية، وتخريج الأحاديث المهملة، والتنبيه على الضعيف والموضوع منها، والتعليق على بعض العبارات والنقول لتحريرها و إيضاحها، وحذف القصص الإسرائيلية والحكايات التافهة والشطحات التي لا تليق بتفسير الكتاب المجيد، وحذف الاستطراد الكثير الَّذِي يخرج بالتفسير عن طابعه، وخلص إلى أن التفسير لا يجيز طبعه بالوضع الراهن، حفظاً لكتاب الله من المساس بحرمته، وتَنْزِيهاً عَمَّا لا يليق بقدسيته.

ومن الكتب التي راجعها، وكتب تقارير علمية عنها إلى المراقبة العامة للبحوث والثقافة بجامعة الأزهر أيضاً:

٥- " **دعوة الأحرار** " لأحد علماء جماعة أنصار السنة المحمديَّة، انتقد فيه منهج الجماعة، وبيَّن غرض الكتاب والباعث على تأليفه، وما فيه من هجوم على الأزهر والمذاهب الأربعة.

وخلص الأستاذ إلى الحكم على الكتاب بقوله: " وجملة القول: أنَّ إثم هذا الكتيِّب أكبر من نفعه، وأنَّ شرَّه أكثر من خيره، وأنه يجب وضع حدٍّ له ولأمثاله من هذه المؤلَّفات التي توقظ الشَّغَب، وتُحرِّك الخصومات، وتُؤْثر مذاهب التنفير ".

٦- "**القنبلة الذريَّة الشَّرعيَّة الشِّعريَّة الأزهريَّة** " صاحب هَذَا الكتيِّب داعٍ إلى الطريقة التيجانية، ويصف الشيخ الساكت الكُتيِّب بأنه صفحات مظلمة مبتذلة عريقة في السِّباب والسَّفاهة وشَتْم المخالفين، وهي أبعد مَا تكون عن الردِّ العلمي الَّذِي يقصد إلى الحق أينما كَانَ.

٧- " **هَؤُلاءِ مثلُنا الأعلى** " للشيخ عبد الحميد بخيت " أستاذ التاريخ، ضمَّن كتابه شذرات من تاريخ أبطال الإسلام الَّذِينَ ساروا على تعاليمه، فكانوا خير أمة أخرجت للناس. وقد دافع الأستاذ الساكت عن الكتاب الَّذِي طعن فيه

بعضهم ظلماً بأن فيه مساً للرسالات السماوية، والكتب الإلهية. وَقَدْ كتب تقريره في ثلاث صفحات بتاريخ ٢٦ من شعبان ١٣٧٣.

وهناك تقارير علمية أخرى لم تتوفَّر لديَّ، لَوْ جُمعت لظهرت في كتاب، يتجلَّى فيه منهج المؤلف في النقد العلمي المنصف النَّزيه، وآراؤه في كثير من المؤلِّفين والكُتب.

* * * * *

موقفه من تدريس الفقه الشيعي وفكرة التقريب بين السنة والشيعة

وقد انتقد رحمه الله تعالى إدخال الفقه الشيعي في مواد الدراسة في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وفكرة التقريب بين السنة والشيعة الإمامية التي كان يتزعَّمها في القاهرة الشيخ الرافضي الإيراني محمد القُمِّي، ويُؤازره فيها شيخ الأزهر، وشيخ كلية الشريعة آنذاك، ورفع خطاباً إلى رئيس الجمهورية قال فيه:

" والمعروف أنَّ المذهب الشيعي كان يدرَّس بالأزهر في أول نشأته، وقد تبيَّن للأمة ما في هذا المذهب من أباطيل، فنفرت منه أشد النفور، وهيأ الله لها من يحقِّق أمنيتها هذه، وهو بطل الإسلام والعروبة "صلاح الدين الأيوبي"، فألغى المذهب الشيعي، وأحلَّ محله مذاهب أهل السنة والجماعة، وبهذا العمل المجيد أحرزت مصر الزعامة الإسلامية إلى يومنا هذا.

وقد كَبُر على الشيعة أن يزهق باطلهم، وأن تكون لمصر هذه الزعامة الإسلامية العربية، فعملوا على تجديد مركزهم المفقود بإنشاء "جماعة التقريب" بالقاهرة، واستطاعوا بدعايتهم الخدَّاعة ونفاقهم البارع أن يستدرجوا نُخبةً من رجال العلم في مصر لم يفطنوا إلى ما يهدف إليه داعية الشيعة بمصر، "الشيخ محمد القمِّي".

وفي هذه الأيام استطاع هذا الداعية الداهية أن يُدخل الفقه الشيعي بين مواد الدراسة في الأزهر على يد " الشيخ محمود شلتوت "، كما أدخله من قبل في معهد الدراسات العليا التابع للجامعة العربية بدعوى توحيد الصفوف، وإزالة ما بيننا من جَفْوَة وتعصُّب عمل عليها المستعمر، وبهذا يكون الأزهر قد تراجع وتنازل إلى العهد الفاطمي المظلم عن ثقة المسلمين به وبمِصْر.

ونحن لا نحبُّ أن يتعرَّض الأزهر لهذه النكسة في عهد النهضة الحاضرة...

ولا نرضى أن تكون في مصر مجلة للشيعة تُدعى مجلة " رسالة الإسلام "

تقوم بنشر الدعاية الباطلة للمذهب الشيعي، وتشعر الناس هنا وهناك أننا راضون عما فيها، وفي هذه مَجْلَبَةٌ لسوء الظن ".

أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ونصحه للحاكم :

كما كان رحمه الله يُسْدي النُّصح للحاكم في زمانه، وقد سبق الحديث عن كثير من مواقفه مع العامة والعلماء، ووقوفه بعد صلاة الجمعة أمام الملك فاروق في مسجد يحيى باشا بالرمل يدعو إلى الله بثباتٍ واطمئنان، ويدعوه إلى تحكيم كتاب الله، واستمرَّ رحمه الله تعالى في نصحه وتذكيره، وإرساله الرسائل للحاكم في عصره، ومن ذلك خطابه في ٢٨ من شهر رمضان سنة ١٣٧٩ الذي سلَّمه لعبد الناصر في يوم عيد الفطر سنة ١٣٧٩ بالمقام الحُسَيْني بعد الصَّلاة، وقد قال في رسالته:

" أما بعد، فقد قَدمتَ لصلاة الجمعة اليوم، والقارئ يقرأ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [١].

تلك بشارة مولاك: أن ينصر الله مَنْ ينصُره بإعزاز دينه وإقامة كتابه... فكلُّ محاولة للنصر بغير نصره، ولإقامة دينه فهي كرماد اشتدَّت به الريح في يومٍ عاصفٍ، أو كَسَرابٍ بقيعة...

وإنك في هذه الأيام العصيبة مُقْدِمٌ على أمورٍ جِسَام، فَمَا أَحْوَجَك إلى نصر الله، لينصرك، واستجابتك له، ليستجيبَ لك.

ما أحوجك وأنت تطلب النصر في حِلِّك وتَرحالك إلى أن تسارع بالضرب على أيدي السفهاء الذين أضاعوا الصلاة، واتَّبعوا الشهوات، وانتهكوا المحرَّمات، وملئوا الأرض إلحاداً وفساداً.

---

(١) سورة الحج: ٤٠ – ٤١.

ماذا بقيَ من الحُرُمات والآداب، والشابة تحت الشاب عاريَيْن عاهرَيْن، في الميادين والشوارع، وفوقهما الإعلان السافر الفاجر: " معاً إلى الأبد " في هذا الشهر المعظَّم الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

إنَّ الله غيورٌ، ومن أجل غَيْرته حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومن أجل غيرته انتقم ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (١).

ولقد حاول داعٍ إلى الله أن يدعو الملك السابق، ويبيِّن له وفاءً بعهد الله وميثاقه الذي أخذه على العلماء... فلما يئس من الملك شكاه إلى مالك الملك سبحانه؛ يُؤْتي الملك مَنْ يشاء وينَزِع الملك ممَّنْ يشاء.. فلمَّا نزعه الله واستخْلَفَك من بعده، كتب إليك مراراً، ثم بايعك في مثل اليوم بهذا الجامع الأزهر عام ١٣٧٦ يدك في يده... واليوم صافحك بعد صلاة الجمعة، وبشَّرك بنصر الله إنْ نصرتَهُ... ثم فصَّل البشارة المُجْمَلة في هذا الكتاب، ولا يزال جادّاً غير يائس في رفع الحجاب بينك وبين العلماء، فذاك بشير النصر والعزَّة والتمكين في الأرض.

لعلِّي بهذا، وبما كتبتُ إليك من رسائل أكثرها مُسَجَّل بعلم الوصول، قَضَيْتُ بعض حقِّكَ عليَّ، وأدَّيتُ بعض الأمانة التي عَرَضها الله على السَّموات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يحملنَها وأشْفَقْن منها، وسواءٌ عليك أبلَّغتك البطانة أم أخفَوْا عليك...

وفي الخاتمة: لا أنسى أن أقول لك ما قال القائد الأعظم محمد ﷺ: " إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين "، فاعمل على رفعته وحفظه، واعتماد مدارسه كلها، يرفعك الله، وينصرك نصراً عزيزاً، وهو خير الناصرين،

---

(١) اقتباس من الآية ٥٥ من سورة آل عمران.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتبه بخط يده : داعٍ إلى الله مِمَّن لا يخافونك ولا يرجونك، ولكنهم أخوف الناس من الله عليك، وأرجاهم للخير منه إليك : طه محمد الساكت، المفتش بالأزهر ".

وقد تلقَّى فضيلة الشيخ برقية شكر على رسالته هذه من مدير مكتب نائب رئيس الجمهورية للشؤون العامة بتاريخ ١٩٦٠/٤/٥ جاء فيها: " السيد طه محمد الساكت... كان لوصول رسالتكم أطيب الأثر في نفوسنا، لما جاء فيها من تعبير عن وطنيَّتكم الصَّادقة، ومشاعركم الطيِّبة، جَعَلكم الله ذُخْراً للوطن العربي... " وإن كانت هذه الرسالة لم تُغيِّر من واقعهم شيئاً، ولم تُحْدِث في نفوسهم أثراً، ولكن معذرةً إلى ربِّكم، ولعلَّهم يرجعون !!.

* * * * *

شرح الأحاديث النبويَّة

ابتدأ الشيخ طه السَّاكت رحمه الله تعالى الكتابة في ركن السنَّة في مجلة الأزهر في العدد السادس من السنة الرابعة عشرة في شهر جُمادى الآخرة من سنة ١٣٦٢ الموافق لسنة ١٩٤٣ في أوْج نشاطه العلمي والأدبي، وهو في الأربعين من عمره... واستمرَّ في الكتابة إلى العدد الثامن من السنة الثلاثين [١] في شهر شعبان ١٣٧٨ الموافق ١٩٥٩ أي: ما يقارب ستة عشر عاماً على انقطاع عن الكتابة في بعض الأعداد [٢].

---

(١) وكان انقطاعه المفاجئ عن الكتابة بسبب تغيُّر إدارة المجلة ومنهجها، حيث استلم رئاستها الأديب المشهور والكاتب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيَّات، بعد أن كان يرأس تحريرها الأستاذ محب الدين الخطيب.

(٢) انقطع عن الكتابة عند ابتعاثه إلى مكة المكرمة سنة ١٣٦٧ من العدد الثاني من السنة العشرين ١٣٦٨ ثم عاد إلى الكتابة في العدد السادس من السنة الثانية والعشرين ١٣٧٠، وكذلك انقطع عن الكتابة لشهرين في العدد الأول والثاني من السنة الثلاثين ١٣٧٨، ثم عاد إلى الكتابة في العدد الثالث من السنة نفسها.

قال في آخر العدد العاشر من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧: "أما بعد؛ فمنذ عهدٍ غير قريب، وأنا أستخير الله تعالى، وأترضَّى رسوله ﷺ أن أُودِّع الكتابة في هذا المكان إلى أجلٍ مسمَّى عند الله عز وجل، وهأنذا أستأذن أسرة المجلة وقراءها حتى يأذن الله لي بالعَوْد. والعَوْدُ أحمد، وما توفيقي إلا بالله".

ثم يقول في بداية العدد الثالث من السنة الثلاثين في شرح حديث "الواصل والمكافئ": "ودَّعتُ الكتابة إلى أجلٍ كنت قدَّرتُه عاماً أو عامين، ولكن قدَّر الله ألا يزيد على شهرين....فإن يكن العَوْد أحمد، فالفضل لمن بيده الفضل سبحانه، ثم لأسرةِ هذه المجلة وقرائها، فما فتئوا يذكِّرونني أن أصل رحماً ربطتها المجلة بيننا، ثم جاءت السنة فشدَّت =

وإنه لمن يُمْنِ الطالع وحُسْن الخاتمة، أن يفتتح كتابته بشرح حديث: " من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه "، وأن يختتمها بحديث عمل المرء لغيره شَرَحَ فيه حديث: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صَدَقَةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له... " بعد أن سبقه شرح حديث عمل المرء لنفسه: " يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهلُهُ ومالهُ، ويبقى عملُه ".

منهاج السنة في مجلة الأزهر :

وقد كتب رحمه الله تعالى يبيِّن منهاجه في شرح الأحاديث، ويذكر جهد السَّابقين له في هذا الميدان.

قال في شرحه لحديث جرير بن عبد الله ﷺ: " بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقامِ الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم"[1] تحت عنوان "مكانة النُّصْح في الإسلام ":

" أما بعد، فقد وعدنا بعرض منهاج " السنَّة " في هذه المجلة منذ صدروها إلى وقتنا هذا، رغبة الاسترشاد بآراء النَّاصحين في تسديد خطَّتها، واستدراك ما وقع من تقْصير في حقِّها.

وللسنَّة - وهي ثاني الأركان التي بُنيَ عليها الدين - حقُّ العناية بها، وبَذْلُ الجهد في نشرها، وتيسير الطرق إليها، وإلى الفقه فيها، والذبِّ عنها، وكشف الدسائس التي يدسُّها أعداء الله ورسوله للنَّيْل منها، تَذَرُّعاً إلى النَّيْل من كتاب

رباطها، وكأنَّ الرحمن جلَّت آلاؤه، ألهم عبده مدير المجلة أن يكتب حديث السنة السابق في صلة الرحم، تجديداً للتذكرة، وتوكيداً لما بيننا من آصرة....".

(١) مجلة الأزهر، العدد الثاني، السنة التاسعة والعشرون (١٣٧٧ = ١٩٥٧).

الله الحميد... ومَنْ أحقُّ بهذا كلِّه من الأزهر: شيخِه، ورجالِه، ومجلتِه، وحَمَلةِ لوائه في مصر خاصَّةً والعالم الإسلاميِّ كافَّة؟.

كُتَّاب السنَّة في مجلة الأزهر :

لقد أُسِّست هذه المجلة على الكتاب والسُّنَّةً من أول يوم:

فكتب فيها الأستاذ **حسن منصور**(١) منذ صُدورها (٢) حتى الجزء السابع من المجلَّد الثاني (٣).

ثم كتب فيها شيخنا **إبراهيم الجبالي**(٤) من المجلد الثالث(٥) حتى الجزء

---

(١) هو العلامة الشيخ حسن منصور، ولد في مدينة الإسكندرية، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وجوَّد قراءته على أشهر قرَّاءِ الإسكندرية الشيخ إبراهيم إدريس، والتحق بالأزهر، وتلقى العلم فيه نحو سبع سنين، ثم دخل دار العلوم، ولما تخرَّج اشتغل بالتدريس بمدرسة القضاء الشرعي، ولما أُلغيت مدرسة القضاء، وأُنشئت تجهيزية دار العلوم، عُيِّن ناظراً لها، ثم وكيلاً ومدرساً بِهَا. وكان من المشتغلين بالعلم، مهذَّب الأخلاق، قويَّ الإيمان، محمود السيرة، وقد اشتغل بتحرير مجلة "الأزهر" وله فيها مقالات كثيرة، توفي في شهر شعبان سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م كما في "الأعلام الشرقية" ١ : ٣٠٠ لزكي مجاهد.

(٢) صدرت مجلة "الأزهر" أولاً باسم نور الإسلام، وصدر العدد الأول في المحرم سنة ١٣٤٩.

(٣) في رجب سنة (١٣٥٠) بعنوان "الترغيب في تأديب الأولاد". ومجموع الأحاديث التي شرحها سبعة عشر حديثاً.

(٤) قال الأستاذ أحمد شاكر في مقدمة " الباعث الحثيث " ص ٥: " توفي أستاذنا الكبير: الشيخ إبراهيم الجبالي ليلة الاثنين ١٧ صفر سنة ١٣٧٠ الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠ بالقاهرة ".

(٥) في المحرم سنة (١٣٥١)، وافتتح كتابته بشرح حديث: "سبعة يظلهم الله في ظِّله ".

الأخير من المجلَّد الخامس [(١)].

ثم كتب فيها الأستاذ **عبد الرحمن الجَزيري**[(٢)] من المجلَّد الثامن حتى الجزء الأخير من المجلَّد الثاني عشر [(٣)].

ثم كتبتُ فيها منذ صدور الجزء السادس[(٤)] من المجلَّد الرابع عشر حتى الجزء الأول من المجلَّد العشرين.

ثم كتَبَ فيها الأستاذ **فكري يس** [(٥)] من المجلَّد العشرين إلى منتصف

---

(١) ومجموع الأحاديث التي شرحها ثلاثون حديثاً.

(٢) نعته مجلة الأزهر في الجزء العاشر من المجلد الثاني عشر (١٣٦٠ = ١٩٤١)، وقالت: " ننعى إلى قرَّاء مجلة الأزهر واحداً من العلماء العاملين، هو المرحوم الأستاذ الجليل، الشيخ عبد الرحمن الجزيري أحد محرِّريها الممتازين، توفَّاه الله في أوائل شهر رمضان بعد مرضٍ مُزْمن لازمه سنين، ولكنه ما كان يقعده عن الإفادة والتأليف، وكان رحمه الله كبير مفتشي المساجد بوزارة الأوقاف، ثمَّ استقال منها بعد قيامه بمهمته سنين، واشتغل بتدريس الفلسفة في كلية أصول الدين، فكان أحرصَ المدرِّسين على الاضْطلاع بما عُهد إليه، وكان يُحمِّل نفسه في هذا السبيل جهداً باهظاً، تحت ضغط علَّته التي كانت تَتَقَاضاه الراحة المطلقة، ولما عُيِّن مُحرِّراً لباب السنة من هذه المجلة كان لا يألوها مثابرةً وعنايةً.

وله رحمه الله كتابٌ ضخم في الفقه يقع في أربعة مجلدات، يُعتبر مرجعاً قيِّماً لمسائله، وله كتب أخرى في أغراضٍ شتَّى كلُّها ممتعة، تغمَّده الله برحمته ". انتهى. وانظر كلمة في رثائه في الجزء الأول من المجلد الثالث عشر من مجلة "الأزهر" (١٣٦١ = ١٩٤٢) بقلم الأستاذ أبي الوفا المراغي.

(٣) افتتح كتابته رحمه الله في الجزء الثاني من هذا المجلد صفر ١٣٥٦ : (الإخلاص)، واختتمها بـ(زيارة القبور) (طه) ومجموع الأحاديث التي شرحها: ثمانية وأربعون حديثاً.

(٤) بدأتُ أحاديث هذه الفترة بحديث: " مِنْ حُسْن إسلام المرء تركُهُ ما لا يعنيه "، واختتمتُها بحديث (البعوث في الإسلام) حيث كنتُ مبعوثاً من الأزهر إلى البلد الحرام (طه).

(٥) نعته مجلة الأزهر رحمه الله في الجزء السادس من هذا المجلد – الثاني والعشرين =

المجلد الثاني والعشرين"[(١)].

ثم استأنفتُ الكتابةَ في العهد الأخير منذ صُدور المجلَّد الرابع والعشرين.

وإلى جانب أولئك الكاتبين، كَتَبَ كُتَّاب أفاضل في السنَّة والسيرة والشمائل، ما لو جُمع لكان مجلداً ضخماً في الهدي النبوي، ودستوراً مُشْرِقاً في أحكام الإسلام وآدابه، ثم في عناية سلفنا الصالح بالسُّنَّة، ومكانتها من الدين الحنيف.

هذا عرضٌ مُوجَزٌ سريع، لم نطل فيه خشية الإملال، نُذكِّر به أُولي الغيرة على الكتاب والسنة، راغبين إلى الله تعالى وضارعين، أن يُسدِّدهم ويوفِّقهم، لتأدية دَيْن عليهم، يعلمون أنهم مسؤولون عنه بين يدي الله عزَّ وجل، وأنه لن يُؤدِّيه عنهم مجرَّد الكتابه، بالغةً ما بلغت من بلاغة القلم، وفصاحة اللسان " انتهى.

عدد الأحاديث المشروحة ومنهجه في اختيارها:

بلغت الأحاديث التي شرحها المؤلف رحمه الله تعالى حسب ترقيمي لها (١١٩) حديثاً نبوياً.

- (١٣٧٠ = ١٩٥٠)، وفي هذا الجزء نفسه كتبتُ في السنة بعنوان: (بركة المسلم حَيّاً وميتاً)، ثم كتبت في الجزء الثامن من هذا المجلد بعنوان: (عيد الدستور). وظلَّت المجلة خالية من الكتابة في السنَّة إلى آخر المجلد الثالث والعشرين، إلى أن استأنفت الكتابة فيما بعد عودتي من الحجاز. وقد تبيَّن من هذا العرض أن أطول فترة خلت المجلة من كتابة السنَّة فيها، هي ما بين الشيخين الجليلين رحمهما الله: الجبالي والجزيري، ثم الفترة التي بيني وبين الشيخ الجزيري، ثم الأخيرة بيني وبين الأستاذ فكري (طه).

(١) ومجموع الأحاديث التي شرحها ثلاثة وعشرون حديثاً. وقد قمتُ بجمع هذه الأحاديث النبويَّة للأساتذة: حسن منصور، وإبراهيم الجبالي، والجزيري، وفكري يس، وستصدر –بعون الله تعالى– بعد هذا الكتاب.

وجميع الأحاديث التي شرحها، انتقاها من الصحيحين أو أحدهما، سوى حديثَيْن فقط، وهما حديث: "مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه"[١]، وحديث: "التماس رضا الله وإن سخط الناس" [٢].

وقد انتقى الأحاديث التي قام بشرحها من جوامع كلمه ﷺ، وروائع توجيهاته، حسب المناسبات المُقْتضية لذلك [٣].

ففي افتتاح السنة الهجرية يختار – غالباً – حديثاً يتعلَّق بالهجرة النبويَّة المباركة، مثل حديث: "لا هجرة بعد الفتح" [٤].

وحديث: "خير القرون"[٥]، وربطه بمناسبة الهجرة بقوله: "في مطلع كلٍّ عام هجريٍّ يذكر المسلمون أصحابَ رسول الله ﷺ، وكيف أُوذوا في سبيل الله، وأُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ...، ثم أفاض في الحديث عن فضل المهاجرين والأنصار.

وحديث: "إنما الأعمال بالنيات فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله... " [٦].

وحديث: "بدل من الهجرة" [٧]، ويقول في مقدمته: " قد يبدو جديداً في هذا العهد الجديد أن ننتقل من أحاديث الهجرة وشؤونها وحِكَمِها وأحكامها، وما يتَّصل بِهَا من روائع أخبارها وأسرارها، وبدائع إيثارها وآثارها، إلى ما

---

(١) وهو أول حديث شرحه في العدد السادس من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢.

(٢) في العدد العاشر من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

(٣) ذكرت طريقته في اختيار الأحاديث وشرحها، وفصَّلتُ فيها، لأنني لم أسردها في الكتاب حسب مناسباتها وترتيبها في المجلة، وإنما رتبتها حسب الموضوعات.

(٤) في افتتاحية السنة الخامسة عشرة، محرم ١٣٦٣.

(٥) في افتتاحية السنة السابعة عشرة، محرم ١٣٦٥.

(٦) في افتتاحية السنة التاسعة عشرة، محرم ١٣٦٧.

(٧) في افتتاحية السنة الخامسة والعشرين، محرم ١٣٧٣.

يُعادلها من صالح الأعمال، وحميد الخصال، فقد أسهمت هذه المجلة في مجلداتها الأربعة والعشرين بنصيبٍ غير قليلٍ من تلك الشؤون، ومنها ما كتبناه في حديثَيْ الصحيحين: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية.."، و "إنما الأعمال بالنيات...".

وفي شهر رمضان يختار في بعض السنوات الأحاديث المتعلِّقة بالصيام وفضْله كحديث: "كلّ عمل ابن آدم له إلا الصوم..." [١].

وحديث: "كان الرسول ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان" [٢].

وفي شهر ذي الحجة يشرح حديث: " أحبُّ الأيام إلى الله.." [٣].

وفي الشهر نفسه يشرح حديث: "شهران لا ينقصان" [٤].

وفي شهر صفر يشرح حديث: " إبطال مزاعم الجاهلية": " لا عَدْوى، ولا طِيَرة، ولا هَامَة، ولا صَفَر..." [٥].

وفي شهر ربيع الأول يختار - غالباً - أحاديث تتعلَّق بالمولد النبويِّ الشريف، وأخلاقه الحميدة وشمائله المجيدة ﷺ.

فيشرح حديث عبد الله بن عمرو في "صفته ﷺ في التوراة" [٦].

ويشرح حديث عمر بن أبي سَلَمة بعنوان: "من أدب النبوة"، ويقول: "من أجل ذكرى المولد النبوي الكريم أحببنا أن نذكر طرفاً من تأديبه ﷺ لربيبه

(١) في رمضان في العدد التاسع من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

(٢) في العدد التاسع من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٣) في العدد العاشر من السنة الثالثة عشرة ١٣٦٦.

(٤) في العددين ١٩ و٢٠ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤.

(٥) في العدد الثاني من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤.

(٦) في العددين ٣ و٤ من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

الناشئ اليتيم.." [١].

وفي نفس الشهر يشرح حديث: " مَثَلٌ من حِلْم النبي ﷺ " [٢] في قصة غزوة حُنين، ويقول: "من أجل ذكرى الميلاد النبوي الكريم ضربنا هذه القصة مثلاً لحلم النبي ﷺ واحتماله، وصبره وكظمه للغَيْظ، وتسلِّيه بإخوانه النبيين..."

وفي الشهر نفسه يتكلَّم عن "الحياء النبوي" [٣]، ويشرح حديث أبي سعيد الخدري: " كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذارء في خِدْرها " .

وفي الشهر نفسه أيضاً يشرح حديث "خاتم النبيين" [٤]، ويتكلَّم عن الأسماء النبويَّة، ثم يتابع الكلام حول هذا الموضوع في ثلاث حلقات أخرى.

وممَّا يتعلَّق بالمناسبة التي تدعوه إلى شرح الحديث ما ذكره في شرحه لحديث " الوصاة بكتاب الله عزَّ وجل" [٥]: " بمناسبة إشراف الأزهر المعمور على جمعيات تحفيظ القرآن الكريم بأرض الكنانة، أعزَّها الله وسائر بلاد المسلمين بكتابه... ".

وفي حديث: "الرحلة في طلب العلم" [٦] يرد فيه على من تهجَّم على الأزهر، ويقول: "فإذا رأيت شرذمة من أشباه المسلمين، أو أدعياء العلم يقومون في وجه الأزهر: من عدوٍّ حاقد، أو طريد حاسد، أو ملحد كائد، أو ابن جاحد لأبيه عاق، أو كاتب مداده النفاق والشقاق، فلا يهولنَّك أمره..." إلى

---

(١) في العدد الثالث من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٢) في العدد الثالث من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٣) في العدد الثالث من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٤) في العدد الثالث من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٥) في العدد الأول من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٦) في العدد الرابع من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

آخر ما كتب في ردِّه على هؤلاء.

ويكتب حول الجهاد عدَّة أحاديث في: "حي على الجهاد "[١] بمناسبة الغارة على مصر.

وهكذا ينوِّع اختياراته للأحاديث النبويَّة، باختلاف الدواعي والمناسبات.

يقول في شرحه لوصيَّة النبي ﷺ: " بشِّروا ولا تنفِّروا..."، في "البعوث في الإسلام"[٢]، بمناسبة ابتعاثه إلى مكة المكرمة: "نحاول هنا ونحن في بعثٍ إلى البلد الحرام أن نقتبس من الهدي النبوي في البعوث الإسلامية، ما نرجو أن يكون للدعاة مناراً، وللهادين ضياءً.."

ويقول في شرحه لحديث: " كلُّ مولود يولد على الفطرة.."[٣]: " ليس بِدْعاً من الأمر أن نتصرَّف في اختيار الحديث تَبَعاً لتصرُّفه صلوات الله وسلامه عليه في ضروب العلم والحكمة، وفنون التَّزكية والهداية، فقد آتاهُ الله الكتابَ ومثلَه معه، وَجَمَعَ له فيهما علوم الأوَّلين والآخرين، ما يكفل بعض السَّعادة للناس أجمعين...".

وأحياناً يشرح بعض الأحاديث استجابةً لرغبة بعض أساتذته وإخوانه.

ففي حديث "شهران لا ينقصان"[٤] يقول: " كتبنا هذا الحديث إجابة لرغبة أستاذنا الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن، وكيل الجامع الأزهر السابق ".

ويعود أحياناً لشرح بعض الأحاديث باستيعاب وتفصيل سَبَق له أن تعرَّض

---

(١) في العدد الخامس من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٢) في العدد العاشر من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧.

(٣) في العدد الثامن من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢.

(٤) في العددين ١٩ و٢٠ من السنة السادسة العشرين ١٣٧٤.

لبعض جوانبها بإيجاز واختصار، كما في شرحه لحديث "العين حق" [١]يعود إلى شرحه بعنوان: "عَوْدٌ إلى علاج العين" [٢] ويقول: " إجابة لرغبة مشكورة من قراء أفاضل، لاحظوا إجمالاً شديداً، في شرح الحديث الأسبق، ولا سيما في علاج العين..".

ثم يقول: " من تأدية الأمانات إلى أهلها، ومن الاعتراف بالفضْل لذويه أن ننبِّه على أن مرجعنا الأول في شرح هذين الحديثَيْن هو "الطبُّ النبوي"، وأنَّ الذي أشار عليَّ بتفصيل ما أجملت في الحديث الأسبق، أخونا الواعظ الفاضل إبراهيم أبو سَعدة، وشيخنا الكبير الأستاذ محمد عرفة...".

طريقته في الشرح :

يختار الكثير من العناوين من تراجم البخاري رحمه الله تعالى في "صحيحه" كما في "قصة أبي طالب" [٣] وقال: "هذا عنوان أبي عبد الله البخاري لثلاثة أحاديث في كتاب المناقب: هذين الحديثَيْن، وثالثٍ بينهما في وفاته ".

و" الوصاة بكتاب الله عز وجل" [٤] وقد اختار عنوان الحديث من ترجمة البخاري في فضائل القرآن،و " كيف يقبض العلم "[٥] وقال: "هذه ترجمة الإمام البخاري "، و " العين حقٌّ" [٦].

---

(١) في العدد الرابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨.

(٢) في العدد السابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨.

(٣) في العددين ٧ و٨ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤.

(٤) في العدد الرابع من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٥) في العدد الثامن من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٦) في العدد الرابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨.

وقد يختار عنوان الحديث من لفظة الحديث نفسها كما في أول حديث شرحه: "من حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه "[١]، و "لا هجرة بعد الفتح"[٢]، و " مَنْ لا يَرْحم لا يُرْحم" [٣].

ويُحسن اختيار العناوين التي يربط فيها الماضي بالحاضر، ويطبِّقه على الواقع، كما في شرحه لحديث عمر ﷺ في نزول قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكُم دينكُم..﴾، ويختار لها عنواناً مناسباً " عيد الدستور" [٤].

وكما في شرحه لحديث: "إجلاء اليهود من جزيرة العرب"يختار له عنوان: " عيد الجلاء الأول" [٥].

وانظر إلى حُسن اختياره لهذه العناوين: خصومة الأكابر، الإصلاح بين الأكابر، من المروءات سَتْر العورات، عزَّة الكمال للناس، وبركة المسلم حياً وميتاً.

شرحه لعدة متون في موضع واحد :

ويقتصر في أكثر الأحاديث التي يشرحها على متن حديثٍ واحد، وقد يضيف في بعض الأحيان متوناً أخرى يشرحها في مكانٍ واحد.

مثل حديث "الفرار من الفتن " [٦] أورد حديثَيْ أبي هريرة وأبي سعيد:

---

(١) في العدد السادس من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢.

(٢) في العدد الأول من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

(٣) في العدد الرابع من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٤) في العدد الثامن من السنة الثانية والعشرين ١٣٧٠.

(٥) في الأعداد ١ و٢ و٣ من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٦) في العدد الثاني من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

"ستكون فتن.."، "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم...".

وحديث " خير القرون "[١] أورد حديثَيْ ابن مسعود وعِمْران بن حصين.

وحديث: " مَنْ لا يَرحمَ لا يُرحم"[٢] أورد حديثَيْ أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما.

وحديث " من المروءات ستر العورات "[٣] أورد ثلاثة أحاديث عن أبي هريرة: " كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين.."، " لا يستر الله على عبد في الدنيا.."، " لا يستر عبدٌ عبداً".

وحديث: "الإحسان إلى البنات"[٤] أورد حديث عائشة، وقال: " هذان حديثان صحيحان، اتفق الشيخان على رواية أولهما، وانفرد مسلم عن البخاري برواية آخرهما، ويبدو لمن تأمَّل أنهما قصَّتان مختلفتان، وإن تقاربتا لفظاً ومعنى".

وحديث: " البعوث في الإسلام"[٥] أورد حديث أبي موسى بلفظيه المُخْتلفَيْن.

وحديث: "تخيُّر العاملين"[٦] أورد حديثَيْ أبي موسى الأشعري، وأُسيد بن حضير "إنا والله لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله..."، و " إنكم ستلقون بعدي أَثَرة..".

---

(١) في العدد الأول من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٢) في العدد الرابع من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٣) في العدد الخامس من السنة الثانية عشرة ١٣٦٦.

(٤) في العدد التاسع من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٥) في العدد العاشر من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧.

(٦) في العدد الخامس من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

وحديث: " من أدب النبَّوة" [١] أورد حديثَيْ ابن عباس وأبي هريرة.

وحديث: "جهاد النساء" [٢] أورد حديثَيْن عن عائشة رضي الله عنها.

وحديث: "مكان النُّصح في الإسلام" [٣] أورد حديثَيْن عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

شرحه لمتن واحد في عدة مواضع :

وفي بعض الأحيان لا تَتَّسع الصفحات المحدودة في المجلة لشرح الحديث في حلقةٍ واحدة، فيشرحه في موضعين أو ثلاثة، وهذه مواطن الأحاديث التي شرحها في عددين فما فوق.

حديث: " صفة النبيِّ ﷺ في التوراة" شرحه في عددين [٤]. وهو حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: "إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً...".

حديث: "إبطال مزاعم الجاهلية" شرحه في ثلاثة أعداد [٥]، وهو حديث: "لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة..".

حديث: " خير القرون" شرحه في عددين [٦]، وهو حديث: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم...".

---

(١) في العدد الثاني من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٢) في العدد الثامن من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٣) في العدد الأول من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٤) في الثالث والرابع من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣.

(٥) في الثاني والثالث والرابع من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤.

(٦) في العددين الأول والثاني من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

حديث: " البعوث في الإسلام " شرحه في عددين [١]، وهو حديث: "بشِّروا ولا تنفِّروا..".

حديث: "التطهير في الإسلام" شرحه في ثلاثة أعداد [٢]، وهو حديث: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ...".

حديث: "خاتم النبيِّن" شرحه في ثلاثة أعداد [٣]، وهو حديث: "إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي..".

حديث: "سيِّد الأزواج" شرحه في ثلاثة أعداد [٤]، وهو حديث عائشة رضي الله عنها: " ما غِرت على أحدٍ من نساء النبيِّ ﷺ ما غرت على خديجة..".

حديث: " عيد الجلاء الأول " شرحه في ثلاثة أعداد[٥]، وهو حديث: "انطلقوا إلى اليهود..".

وهذه النماذج كُلُّها التي امتدت لأكثر من حلقة هي شرح لحديث واحد فقط.

ومن منهجه في الشرح أن يكتب عدَّة أحاديث متنوِّعة في حلقات متتابعة يجمعها موضوع واحد.

مثل موضوع: "**خصومة الأكابر**" شرح تحت هذا العنوان عدَّة أحاديث

---

(١) في العدد العاشر من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧، والعدد الأول من السنة العشرين ١٣٦٨.

(٢) في الأعداد السادس والسابع والثامن من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

(٣) في الأعداد الخامس والسادس والسابع من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٤) في الأعداد الثامن والتاسع والعاشر من السنة السابعة والعشرين ١٣٧٥.

(٥) في الأعداد الأول والثاني والثالث من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

مختلفة، فابتدأها بحديث اختصام عمر وأبي بكر رضي الله عنهما [١]، ثم حديث اختصام عبد الله بن الزبير مع خالته السيدة عائشة رضي الله عنهم [٢].

ثم يُتبعه بحديث: "الإصلاح بين الأكابر"، ويشرح حديث: " إنَّ ابني هذا سيِّد.." [٣].

ثم يُتبعه بشرح حديث: " اشْفَعوا تُؤْجروا " [٤] وهذه الأحاديث الأربعة كلُّها تدور في موضوع الخصومة والإصلاح بين المتخاصمين على تنوُّع موضوعاتها واختلاف متونها.

ومثل ذلك موضوع "**الجوار في الإسلام**" يشرح تحت هذا العنوان عدَّة أحاديث مختلفة، فيشرح حديث أم هانئ في إجارة مَنْ أجارتهُ رضي الله عنها[٥].

ثم يُتبعه بحديث: " مَنْ قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة..."، ووصية عمر للخليفة بعده: "وأُوصيه بذمَّة الله وذمَّة رسوله ﷺ أن يوفي لهم، وأن يقاتل من ورائهم..." [٦]. ثم يُتبعه بشرح حديث: " إنكم ستفتحون مصر.." [٧].

تخريج الأحاديث :

يخرِّج المؤلف الأحاديث بإجمال دون ذكر الكتب والأبواب، ولا سيما أنَّ

(١) في العدد الرابع من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٢) في العدد الخامس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٣) في العدد السادس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٤) في العدد السابع من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٥) في العدد الثامن من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٦) في العدد التاسع من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٧) في العدد العاشر من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

أكثر الأحاديث التي انتقاها من الصحيحين أو أحدهما.

وقد يذكر في بعض الأحيان فروق الألفاظ كما في حديث: "الحب الإلهي"[١]: "إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل..." قال: "رواه الشيخان غير أنَّ مسلماً انفرد بذكر الشطر المقابل: " وإذا أبغض عبداً دعا جبريل..".

كما يذكر في بعض الأحيان مواضع رواية الحديث.

ففي حديث: " عيد الجلاء الأول " [٢] يذكر مواضع رواية البخاري للحديث.. لينبِّه إلى دقَّته في تراجِمِهِ، واستنْباطه المعاني الدقيقة الجمَّة من الحديث الواحد، إذ يُكرِّره في أكثر من موضع.

وفي حديث: "مكان النُّصح في الإسلام"[٣] يذكر رواية البخاري له ويحدِّد مواضعه، ثم يقول: "وإنما ذكرنا مواضعَهُ من صحيح الإمام البخاري تبْييناً لجانبٍ من فقه البخاري رحمه الله، ودقيق صُنعه في تكرير الحديث الواحد في غير موضع من كتابه، وتحقيقاً لرغبة المستزيدين من فقه الحديث وشرحه ".

ومثل ذلك في الإشارة إلى ألفاظ الحديث ومواضعه ما أشار إليه في "آخر الوصايا النبويَّة" [٤]، و"كيف يقبض العلم "[٥]، و " مدرسة الصيام" [٦].

ويلاحظ أن اهتمامه بهذا الجانب من ذكر مواطن الحديث والإشارة إلى دقَّة البخاري في تراجمه، جاء متأخراً، ولم يكن في السنوات الأولى من شرحه.

---

(١) في العدد الثالث من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢.

(٢) في العدد السادس من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦.

(٣) في العدد الأول من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٤) في العدد السادس من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٥) في العدد الثامن من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

(٦) في العدد التاسع من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧.

تفسير الحديث بالحديث :

يبدأ شرحه في بيان المفردات، ثم المعنى الإجمالي، ويشير إلى لطائف الحديث وأسراره.

ويشرح الحديثَ بالحديثِ، ويورد الرواياتِ المتعدِّدة التي تُبيِّن معناه.

ففي شرحه لحديث " خصومة الأكابر " [١]، يقول: " رواه البخاري في مناقب قريش، ورواه مطَّولاً في باب الهجرة من أواسط كتاب الأدب. وفي الرواية المطوَّلة تفصيلٌ لكثير ممَّا أُجمل في هذه الرواية المختصرة استعنَّا به في الشَّرح ".

وفي حديث "سنة حسنة" [٢] يورد حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: " كنا في صدر النهار..." الذي رواه مسلم في كتاب الزكاة، وفي كتاب العلم، ويقول: "ومع أنَّ الرواية الثانية أخصرْ، ففيها فوائد مُتمِّمةٌ انتفعنا بِهَا في الشَّرح".

وفي حديث: "النساء في العهد النبويّ" [٣]، يقول: " نستعين في شرح الحديث إجمالاً وتفصيلاً برواياته المختلفة، قَصْداً إلى الجمع والإفادة، وخيرُ ما فُسِّر الواردُ بالواردِ ".

الفوائد الحديثيَّة :

يشير في شرحه إلى بعض الفوائد الحديثيَّة، ومن ذلك: الفرق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم في شرحه لحديث: "ظنّ العبد بربِّه" [٤].

---

(١) في العدد الخامس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣.

(٢) في العدد السابع من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٣) في العدد الثامن من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦.

(٤) في العدد العاشر من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤.

فَضْل خواصِّ أعلام الدين على عوام الصحابة :

كما يختار في بعض المسائل الاصْطلاحية كتفضيله خواصّ الأمة من أعلام الدين على عوامِّ الصَّحابة رضي الله عنهم.

يقول في شرح حديث "خير القرون" [١]: "والذي نختاره أنَّ هؤلاء – أي: عوام الصحابة ومَنْ ليس لهم فضيلةٌ إلا المُشَاهَدة – مع عظيم فضلهم، لا يستوون وخواصَّ الأمة من أعلام الدين، وأئمة الهدى، والقائمين في الناس بالقسط، فإنَّا لا نستطيع أن نُسوِّي بعمر بن عبد العزيز مَنْ لا يملك من فَضْل السَّبق إلا صُحبةَ يومٍ أو بعض يوم " [٢].

كما أنه دافع عن الصَّحابة رضي الله عنهم، وبيَّن فضلهم ومنْزلتهم[٣]، ولا سيما أحفظ الصحابة للحديث: أبو هريرة ﷺ [٤].

تحرِّي الصحابة والتابعين في الرواية :

ويُشير في أكثر من من موضع إلى تحرِّي الصحابة والتابعين فيما يروون عن النبي ﷺ، وحرصهم على الأمانة والحيْطة، حتى ليروون اللفظة بصيغة الشك (أو) إن لم يَسْتَيْقنوها، تبرُّؤاً من شُبهة التحريف في كلام من لا ينطق عن الهوى. كما أشار إلى ذلك في حديث: " خير القرون" [٥]، وفيه قول عمرانَ بن

---

(١) في العدد الأول من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥.

(٢) انظر الشواهد التي تؤيده فيما ذهب إليه عند شرحه لهذا الحديث ص٨٥٨ ـ ٨٦٠. وهذا المذهب الذي رجحه المؤلف هو مذهب ابن عبد البر الأندلسي.

(٣) في شرحه لحديث:"خير القرون" ص٨٥٥، وفي "الحبِّ الإلهي" في العدد الثالث من المجلد الرابع والعشرين ١٣٧٢. انظر: ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦.

(٤) انظر شرحه لحديث:"مثل من الحيطة في رواية الحديث" في العدد الثامن من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧. ص ٢٢٩.

(٥) في العدد الثاني من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. ص٨٦٥.

حُصَيْن ﷺ: " فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ".

وكذلك في حديث "الجزاء من جنس العمل" [١]: " من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرُّون منه " قال: " و (أو) في مثل هذا الموضع للشَّكِّ من الراوي في أيِّ الجملتين قال النبي ﷺ، وهي من دلائل التحرِّي في الرواية والعناية بضبطها، والمحافظة على ألفاظ الحديث ".

وقال أيضاً في "الإصلاح بين الناس" [٢] عند إيراد حديث أم كلثوم بنت عُقبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ليس الكذَّاب الذي يُصلح بين الناس فَيُنْمي خيراً أو يقول خيراً...": (أو) للشكِّ من الراوي في أيِّ اللفظَيْن قال النبي ﷺ، وهي تدلُّ كما قلنا في أمثالها على العناية والضَّبْط، وتحرِّي ألفاظه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا أبلغ ردٍّ على مَنْ زَعَمَ أن الأحاديث المرويَّة بألفاظها قليلة معدودة ".

وقال عندما ساق حديث الاستخارة: " اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، (أو قال: عاجل أمري وآجله) فاصْرِفْهُ عني...

وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، (أو قال: عاجلِ أمري وآجله) فاصْرِفْهُ عني.. ".

قال: " و (أو) في الموضعَيْن للشكِّ من الراوي في أيِّ اللفظين قال النبيُّ ﷺ، ممَّا يدل على تمام التحرِّي والضَّبْط، ولذا قال بعضُ العلماء: يُستحبُّ للمستخير أن يجمع بين العبارتَيْن، ليصيب بيقينٍ، مقالةَ النبي ﷺ " [٣].

---

(١) في العدد السادس من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. انظر: ص٦٢٠.

(٢) في العدد الأول من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦. انظر: ص٥٥٤.

(٣) في العدد السادس من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦. انظر: ص٢٩٦.

وفي حديث: "دعاء واستعاذة" [١] يورد قول زَيْدٍ ﷺ: " لا أقول لكم إلاَّ كما كان رسول الله ﷺ ".

قال الأستاذ الساكت مُنبِّهاً على بعض فوائد الحديث: " منها: شدَّة الصحابة رضي الله عنهم في تحرِّي الرواية عن رسول الله ﷺ أخذاً من قول زيدٍ رضي الله عنه: لا أقول لكم إلاَّ كما كان رسول الله ﷺ يقول... ".

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسول الله ﷺ - أو أمر – أن يُسْتَرقى من العين [٢]... قال: " و (أو) في الحديث لشكٍّ الراوي: هل قالت أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: أمرني رسول الله ﷺ بإضافة الأمر إليها. أو قالت: أمر.. من غير إضافة. وهذا الشكُّ – كما قلنا – في مناسبات شتَّى من أعظم الأدلة وأقواها على تحرِّي الرواة، وبلوغهم في ضَبْط الأحاديث والحرص على ألفاظها فضلاً عن معانيها مَبْلغ الذين ائتمنهم الله على دينه، فأقاموا الدين لله خالصاً، وأدوا أمانة الله كاملة غير منقوصة... "

كما نبَّه إلى كثير من الأحاديث الموضوعة، ومالا أصل له ممَّا اشتهر على ألسنة الناس.

ومن ذلك حديث: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع"، وانتهى إلى أنه صحيح المعنى غير ثابت اللفظ [٣]، وحديث: "اختلاف أمتي رحمة" [٤]، وحديث: "تخلَّقوا بأخلاق الله عز وجل" [٥].

(١) في العدد الثاني من السنة الرابعة والعشرين ١٣٧٢. انظر: ص٣٨٨.

(٢) العدد السابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨. انظر: ص١٩٥.

(٣) في العدد السابع من السنة الرابعة عشرة ١٣٦٢، انظر حديث: الصحة والفراغ ص٤٧٥.

(٤) في العدد السابع من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣، انظر حديث: مثل من اختلاف الصحابة ص٨٧٣.

(٥) في العدد التاسع من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤. وقد أفضت في تخريج هذا =

وحديث: "دفن البنات من المكرمات"[١]، وحديث: "نيَّة المرء خيرٌ من عمله"[٢].

الجَمْع بين مختلف الحديث:

ويجمع في شرحه لبعض الأحاديث ما يُوهم ظاهرهُ التعارض.

مثل قوله ﷺ: " لا يُلدغ المؤمن من جُحْر مرتين"، وقوله ﷺ "المؤمن غِرٌّ كريم" [٣].

وطريقة التوفيق بين الروايتين في قوله ﷺ: "لا يُصلينَّ أحدكم العصر إلا في بني قُريظة" وهل كانت الصلاة عصراً كما روى البخاري، أم كانت ظهراً كما روى مسلم [٤]؟

وطريقة التوفيق بين حديث عليٍّ ﷺ: "كان آخر كلام النبيِّ ﷺ: **الصَّلاةَ الصَّلاةَ**"، وحديث عائشة رضي الله عنها: " إنه لم يقبض نبيٌّ قط حتى يرى مَقْعَدَه في الجنة، ثم غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: " **اللهمَّ الرفيقَ الأعلى** " [٥].

الحديث والكلام عنه، ونقلت من كلام المؤلف ما لا تجده في غير هذا الكتاب، فانظره في: "دعاء الله بأسمائه" ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨.

(١) في العدد التاسع من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦، وانظر تخريجي لهذا الحديث في "الإحسان إلى البنات" ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٢) في العدد الثاني من السنة التاسعة عشرة ١٣٦٧. ومما ينبَّه إليه أنه يحيل في أكثر تخريجاته للأحاديث المشهورة إلى: "كشف الخفاء" للعجلوني.

(٣) في العدد الثامن من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤، وانظر حديث: "كياسة المؤمن" ص٤٤٩.

(٤) في العدد السادس من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣، وانظر حديث: "مَثَل من اختلاف الصحابة" ص٨٦٩.

(٥) في العدد العاشر من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧، وانظر حديث: "آخر الكلام النبوي" ص٧٨٠ ـ ٧٨١.

وطريقة الجمع بين الأحاديث التي تُثْبت العَدْوى كما يثبتها الطبُّ والواقع، والأحاديث التي تنفيها [١].

ودحض شبهة التعارض بين الأحاديث الصَّريحة في نفي الشُّؤْم، والتحذير منه، وبين الأحاديث الأخرى التي قد يفهم منها أنها تثبته [٢].

الإحالة إلى كتب وبحوث استوعبت شرح الحديث:

ومما يمتاز به شرحه للأحاديث الإيجاز المؤدِّي للمعنى المراد بعبارة جزلة رصينة، ويحيل في كثير من الأحيان على كتب وبحوث استوعبت شرح الحديث، ولا يعيد ما سبق ذكره خشية من الإملال والإثقال.

يقول في شرح حديث جابر بن عبد الله ﷺ في وصْفِه ﷺ بيت المقدس: "وليس من قصدنا أن نفصِّل أنباء هاتين الرحلتين، وما كان فيهما من أسرار وعجائب، ولا أن نُبيِّن زمنهما سنةً وشهراً وليلةً، ولا أن نعرض لما انْتَابهما قديماً وحديثاً من خلاف وآراء، وهل كانت يقظةً بروح النبي ﷺ وجسمه كما هو قول المحقِّقين من العلماء سَلَفاً وخلفاً، أو كانت مناماً، أو بالروح دون الجسم كما يرى شذوذ من الناس!! ليس هذا من قصدنا، فإن ذلك كله مدوَّن مسطور، خصَّه كثيرٌ من المؤلفين والباحثين بكتبٍ ورسائل، لم تَدَع قولاً لقائل. وإنما نقصد بعون الله إلى بيان شيءٍ من الحِكَم والأسرار في هاتين الرحلتين، وإلى موقف الناس منهما، ثم إلى بيان المنهج القويم إزاء معجزات الرسل كافَّة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".

---

(١) في "إبطال مزاعم الجاهلية" -١-، في العدد الثاني من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤. وانظر ص ٢٠٤ من هذا الكتاب.

(٢) في "إبطال مزاعم الجاهلية" -٣-، في العدد الرابع من السنة السادسة عشرة ١٣٦٤. وانظر ص٢١٦ ـ ٢١٧ من هذا الكتاب.

وفي حديث: "العين حقٌّ"[(١)] يتكلَّم عن العين وإصابتها وتأثيرها بإذن الله تعالى، وعلاجها بالرُّقية الشَّرعية، ثم يقول: " وأكبرُ العلم أنَّ أجمع العلماء بياناً في ذلك كله صاحب "زاد المعاد" في الطب النبويِّ، وكَفَى وَشَفَى، ولم يدع زيادةً لِمُسْتزيد، ولا قولاً لقائل، ولقد هممت أن أُلخِّص هنا بيانه، ولكنِّي آثرتُ الإشارةَ على العبارة، والقَصْدَ على الإطالة..".

وفي شرحه لحديث "بلوغ الدعوة المحمديَّة"[(٢)] يتحدَّث عن حكم مَنْ بلغتهم الدعوة الإسلامية مشوَّهةً بالأباطيل والمفتريات، وَصِلة هذا البحث بأهل الفترة، ويقول: " لهذا الحديث صِلةٌ وثيقة بالبحث في "أهل الفترة"، وكنا وعدنا القرَّاء بأن نتحدَّث إليهم فيها، إجابةً لرغبات جاءتنا من العراق... غير أنا وجدنا مَنْ سبقنا إلى الإفاضة في هذا البحث قديماً وحديثاً، ممَّا يجعل كلامنا بعده حديثاً مُعاداً.

فإلى هؤلاء الذين رغبوا مُلحِّين أن نتكلَّم في أهل الفترة عامَّةً، وأبوي النبيِّ ﷺ خاصَّة، نسوق هذه المراجع السهلة اليسيرة:

١- روح المعاني، للعلامة الآلوسي العراقي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

٢- مجلة "الأزهر" في مجلدها الثامن ص ٦٠٦ في الدعوة إلى الله تعالى، وأهل الفترة، للأستاذ الجزيري مُحرِّر السُّنَّة حينئذ.

٣- مجلة "لواء الإسلام" في جزئها الأول، جزء رمضان المبارك من عامنا هذا ١٣٧٤، وقد تناولت في ندوتها بحثاً في الدعوة والفترة مُستفيضاً. أما نحن فقد اكتفينا إذ كُفينا ".

---

(١) في العدد الرابع من السنة الثلاثين ١٣٧٨. انظر: ص ١٩٤ من هذا الكتاب.

(٢) في العددين ١٧ و١٨ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤. انظر: ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

وعند كلامه عن حديث: " اجتماع الأنبياء على دين واحد "[١] يتحدَّث عن سنة التدرُّج في الشرائع الإلهية، ويُحيل لتتمة هذا البحث إلى حُجَّة الله البالغة، ورسالة التوحيد، وتفسير المنار في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

وعند شرحه لحديث: " مثل من اختلاف الصحابة "[٢] يتحدَّث عن الخلاف الجائز في الفروع ويقول: ضَرَبْنا عن ذكر الأمثلة صَفْحاً؛ لأنها كثيرةٌ معروفةٌ في كتب الأئمة. انظر: "إعلام الموقعين"، و"حجة الله البالغة"، و"رسالة ابن تيمية في اجتهاد الصحابة والتابعين".

وعند شرحه لحديث: " أحبُّ الأيام إلى الله "[٣] ذكر فضل العشر من ذي الحجة، والخلاف في المفاضلة بينه وبين العشر الأخيرة من رمضان، وقال: انظر أول "زاد المعاد" في اختيار الله تعالى وتفضيله بعض الأشياء على بعض.

ويقول عند شرحه لحديث: "شَهْران لا ينقصان"[٤]: " بَسَطَ هذا البحثَ وَوَفَّاه بما لم يُسبق إليه صاحب "زاد المعاد" في أوَّله، فتزوَّد منه ".

ويقول عند شرحه لحديث: "كيف يُقبض العلم"[٥] مُبيِّناً شرفَ الفتوى ومكانتها وخطرها وجلالتها: انظر تفصيل هذا الإجمال في "إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين".

منهجه في عرض الأحكام الفقهية:

اختار الشيخ الساكت أكثر أحاديثه التي شرحها فيما يرتبط بالمناسبات، وما

---

(١) في العدد الخامس من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣. انظر: ص١٢٣.

(٢) في العدد السادس من السنة الخامسة عشرة ١٣٦٣. انظر: ص٨٧٢.

(٣) في العدد العاشر من السنة الثامنة عشرة ١٣٦٦. انظر: ص٣٤٦.

(٤) في العددين ١٩ و٢٠ من السنة السادسة والعشرين ١٣٧٤. ص٣٣٦.

(٥) في العدد الثامن من السنة التاسعة والعشرين ١٣٧٧. ص٢٤٨.

يتَّصل بالأخلاق والآداب والاجتماع، ولم يتعرَّض في اختياراته لأحاديث الأحكام، وقد يَعرض له أثناء شرحه للحديث بعض الأحكام الفقهية، فيتكلم عنها باختصار.

قال رحمه الله تعالى في شرحه لحديث : " وإذا حَلَفْتَ على يمينٍ، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وأْت الذي هو خير" تحت عنوان "وصيَّة نبوية" [١] : " وللفقهاء هنا بحثٌ طويل في أيِّ الأمرين يقدَّم: التكفير أم فعل ما هو خير؟ وقد كفانا الإمام النووي المؤنة؛ إذ جمع أطراف المسألة رحمه الله.." وبعد نقله كلام الإمام النووي رحمه الله تعالى، قال: " وإذا جاز لنا أن نُقرِّب شقَّة الخلاف ذهبنا إلى ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله من تخيير الحالف: إن شاءَ قدَّم الكفارة على الحنث، وإن شاء أخَّرها؛ فالتقديم والتأخير كلاهما في روايات الصحيحين، وهي تقتضي عدم الترتيب، فالأمر واسعٌ ولا حَرَجَ فيه.

والذي يقصد إليه صاحبُ الشَّرع صلوات الله وسلامه عليه، ألا يتَنطَّع مُتنطِّع بَدَرَتْ منه يمين، فيجعلها حائلاً دون البرِّ والتُّقى والإصلاح بين الناس. وأما طريق التحلُّل منها فسهل يسير.

وبعد؛ فلعل في هذه الإلمامة من الأحكام الفقهية التي تُستنبط من الحديث مَقْنعاً لأفاضل القرَّاء الذين يرغبون إلينا أن نبسط الأحكام الشرعيَّة في باب السنَّة، ونتوسَّع فيها إلى أمد بعيد، وعُذْرنا إليهم في الإيجاز أنَّ الأحكام مبسوطة في كتبها، مَيْسورة لراغبيها .

وأكبر العلم أنَّ من توسَّع في الأحكام قصَّر في نواحٍ مهمة من الأخلاق والآداب، والسياسة والاجتماع، ممَّا يجدر بخَلَف هذه الأمة أن يثيروها من كنوز السُّنَّة كما أثار سلفهم من قبل ثروتها الواسعة في الفقه والأحكام ".

---

(١) في العدد الخامس من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. انظر: ص٦٠٨.

وعند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما في "الصَّلاة سلاح النصر"[1]: " غزوتُ مَعَ رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فوازَيْنا العدو، فصافَفْنا لَهُمْ، فقام رسول الله ﷺ يُصلِّي لنا، فقامت طائفة تصلِّي معه، وأقبلت طائفة على العدو، وركع رسول الله ﷺ ركعتين، وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تُصل، فجاؤوا، فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة، وسجد سجدتين، ثم سلَّم، فقام كلٌّ واحد منهم، فركع لنفسه ركعةً، وسجد سجدتين ". قَالَ بَعْدَ أن تكلم عن مكانة الصلاة في الإسلام، وعن واجب الإعداد للمعركة بتجهيز النفوس وتطهيرها بدعم صلتها بالله: " وَقَدْ صلَّى النبيُّ ﷺ هَذِه الصلاة - صلاة الخوف - في مواطن مختلفة، على صفاتٍ شتَّى، يتحرَّى في كلِّ موطن مَا هُوَ أحوط للصلاة، وأحفظ للجيش، وأبلغ في الحذر والحراسة ".

ثم قَالَ رحمه الله تعالى: " وَلَيْسَ يعنينا هنا أن نفصِّل كيفيات هَذِه الصلاة، فإنَّ لهذا التفصيل موضعه من كتب الحديث والفقه، وَإِنَّمَا الَّذِي يعنينا أن نُنوِّه بالصلاة (سلاح النصر) تنويهَ الله بِهَا، ونعظِّمها تعظيم الله إِيَّاها، في السِّلم والحرب، والفرح والكَرْب،.. ولا سيما في ساحة النضال، وميدان القتال، وأحرج سُوَيعات الفصل ".

ويحيل من يريد التوسُّع في الأحكام الفقهيَّة إلى المراجع التي اهتمت بذلك.

في حديث: "الجزاء من جنس العمل"[2] يتحدث عن مفاسد التصوير في العقيدة والأخلاق والآداب، ويشير بإيجاز إلى حكم التصوير، ويحيل إلى ما كتب حول هذا الموضوع في مجلة "الأزهر" فيقول: "وقد كفتنا مجلة الأزهر مئونة البسط في أحكام التصوير وتفصيله، ولا نحب أن

(١) في العدد السادس من السنة الثامنة والعشرين ١٣٧٦. انظر: ص٢٩٣.

(٢) في العدد السادس من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥. انظر: ص٦٢٥.

نعيد حديثاً".

وفي حديثه عن حكم القرعة عند شرحه لحديث: "مثل القائم على حدود الله" [(١)] يقول: "وقد وفَّى الكلام على القرعة وحكمها وكيفيتها ابن القيم في كتابه "الطرق الحكمية".

مراجعه في شرح الأحاديث:

وأما مراجعه في شرحه فهي متنوِّعة وكثيرة، ويصرِّح ببعضها ولا سيما "الفتح" للحافظ ابن حجر، و"شرح النووي على صحيح مسلم"، و "شرح المواهب" للزرقاني، و"زاد المعاد"، و"الإحياء" للإمام الغزالي...

وقد يذكر في بعض الأحيان المصادر التي استفاد منها في نهاية شرحه للحديث.

ففي خاتمة شرحه للحديث الثالث من أحاديث: "الجوار في الإسلام" [(٢)]: "إنكم ستفتحون مِصْر..." قال: من أهم مراجعنا في هذا الحديث بعد الصحيحين:

١- حُسْن المحاضرة ٢- الرسالة الخالدة للدكتور عبد الرحمن عزَّام.

٣- فتح العرب لمصر للدكتور بتْلر، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد.

وفي خاتمة شرحه لحديث: " الإصلاح بين الأكابر" [(٣)]: " إن ابني هذا سيِّد.." قال: من أهم مراجعنا في شرح هذا الحديث: كتاب "العواصم من القواصم" في تحقيق مواقف الصحابة، للقاضي أبي بكر العربي، بتحقيق السيِّد

---

(١) في العدد الثامن من السنة السابعة عشرة ١٣٦٥، انظر: ص٦٢٨.

(٢) في العدد العاشر من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣، انظر: ص٦٠٣.

(٣) في العدد السادس من السنة الخامسة والعشرين ١٣٧٣، انظر: ص٨٩٧.

محب الدين الخطيب.

أسلوبه وكثرة اقتباسه من الكتاب والسنة :

تمتاز الأحاديث التي شَرَحها بأسلوبه الرائع البليغ، وبيانه الأخَّاذ، وتوجيهاته التربويَّة، وتنوُّع الموضوعات التي اختارها من الأحاديث التي شرحها في العقائد والعبادات والأخلاق والسيرة والشمائل والمناسبات الإسلامية، والأحكام الشرعيَّة الفقهية.

كلُّ ذلك بأسلوب موجز ممتع، ولغة سهلة مشرقة، ولفتات تربوية رائعة، وومضات تاريخية نافعة..

ويكثر في شرحه من الاقتباس [١] من الكتاب والسنة[٢]، ولايكاد يخلو حديث من اقتباسه من آي الكتاب، أو أحاديث الرسول ﷺ.

---

(١) الاقتباس هو: " أن يُضمِّن المتكلِّمُ كلامه من شعر أو نثر كلاماً لغيره بلفظه أو بمعناه، وهذا الاقتباس يكون من القرآن المجيد، أو من أقوال الرسول ﷺ، أو من الأمثال السائرة، أو من الحكم المشهورة، أو من أقوال كبار البلغاء والشعراء المتداولة، دون أن يعزو المقتبس القول إلى قائله ". كما في "البلاغة العربية" للشيخ عبد الرحمن الميداني ٢: ٥٣٦.

(٢) سُئل العلامة محمد الخضر حسين: رأيناكم كثيراً ما تقتبسون من القرآن في مقالاتكم، فهل يجوز ذلك؟

فأجاب: نعم، ودليله قوله ﷺ: "الله أكبر خربت خيبر، وإنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٨]". وقد ألَّف في جوازه قديماً أبو عُبيد القاسم بن سلام كتاباً جمع فيه ما وقع للصحابة والتابعين من ذلك بالأسانيد المتصلة إليهم، وألف فيه من المتأخرين داود الشاذلي (ت ٧٣٢)كراسة قال فيها: لا خلاف بين الشافعية والمالكية في جوازه، ونقله عن عياض والباقلاني، وقال: كفى بهما حجَّة غير أنهم كرهوه في الشعر خاصة. نعم، هو محرم في المجون والخلاعة وهزل الفساق وشَرَبة الخمر، ولا ينبغي أن يختلف فيه " كما في مجلة "السعادة العظمى" ص ١٧١.

وانظر أمثلة لاقتباسه من القرآن الكريم في شرحه للأحاديث الآتية: "دعاء واستعاذة" ص ٣٨١ و ٣٨٢، "كياسة المؤمن" ص٤٥٢، و"من حسن إسلام المرء" ص٤٦٤، و"الصحة والفراغ" ص٤٧٥، و"من المروءات ستر العورات" ص٥١٥، و"الإصلاح بين الناس" ص٥٥٥، و"اشفعوا تؤجروا" ص٥٦٦، و"وصية نبوية" ص٦٠٧، و" تخيُّر العاملين" ص٦١٣، و"الجزاء من جنس العمل" ص٦٢٢، و"صفته في التوراة" ص٦٥٠، و"الجوار الأعظم" ص٦٨٠، و"بدل من الهجرة" ص٦٩١، و"رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه" ص٦٩٤، و"راية الإسلام" ص٧١٠، و"عيد الجلاء الأول" ص٧١٢ و٧١٥، و"آخر الكلام النبوي" ص٧٨٣، و"من صفات القائد" ص٧٩٢، و"خير القرون" ص٨٥٦ و٨٦٠، و" أخذ الله للظالمين" ص٩٢٢.

وانظر أمثلة لاقتباسه من الحديث النبوي [١]في الأحاديث الآتية: "عمل المرء لغيره" ص١٨٧، "عوْد إلى علاج العين" ص١٩٦، و"الرحلة في طلب العلم" ص٢٤١، و"أدب الدعاء" ص٣٦٠، و"دعاء واستعاذة" ص٣٨٤ و٣٨٩، و"الحب الإلهي" ص٤٣٤ و٤٣٧، و"بركة المسلم حياً وميتاً" ص٤٤٤، و"من حسن إسلام المرء" ص٤٦٣ و٥١٥، و"التماس رضا الله" ص٤٨٢، و"سنة حسنة" ص٥٠١، و"من المروءات ستر العورات" ص٥١١، و"اشفعوا تؤجروا" ص٥٦٥، و"خير القرون" ص٣٨٤، و"مثل من اختلاف الصحابة" ص٨٧٥، و"اتباع سنن السابقين" ص٩١٣، و"سبيل المؤمنين" ص٩٤٣ و٩٤٤.

عملي في هذا الكتاب :

وأما عملي في هذا الكتاب ـ وهو بين يدي القارئ الكريم ـ فهو يتجلَّى في الخطوات التالية: الجمع والترتيب، ثم الترقيم والتصحيح، ثم التخريج

---

(١) وقد قمت بتخريج جميع الأحاديث التي اقتبس منها دون أن يعزوها.

والتعليق، ثم التقديم والفهرسة.

١- أما الخطوة الأولى في الجمع، فقد قمت بتصوير هذه المقالات من مجلة الأزهر، واجتهدت أن لا يفوتني منها شيء، وجمع المتفرِّق نوعٌ من أنواع التصنيف، ويحسب بعض الناس أن الأمر لا يحتاج إلا إلى نظرةٍ عابرةٍ في الفهارس وتصوير ما تيسَّر من المقالات..

والواقع أنَّ الجَمْع يحتاج إلى أناة وتتبُّع وتثبُّت وتحرٍّ، ثم مايتبع الجمع من عناية متعدِّدة النواحي...

٢- قمت بوضع العناوين الجانبية المضيئة للمعنى، والتي يقف عندها القارئ ليتهيَّأ لفهم ما سيقرؤه، وليختار من الموضوعات ما يناسبه، ثم قمت بترتيب هذه الأحاديث حَسب الموضوعات، وقد جعلتها في عشرة فصول كما هو مُبَيَّنٌ في الفهرس الإجمالي، وجعلتُ تحت كلِّ فصل ما يتعلق به من الموضوعات التي تترابط فيما بينها بوحدةٍ موضوعيَّة متآلفة.

٣- اعتنيتُ بعلامات الترقيم ـ وسمِّها ـ إن شئت ـ: علامات التفهيم، وضبطتُ النصَّ بالشَّكل..

٤- وعَزَوْتُ جميع نقول المؤلف إلى مصادرها، وعلَّقت الكثير من الفوائد، واستدركت على المؤلف رحمه الله تعالى بعض الأوهام التي وقفت عليها برجوعي إلى المصادر الأصلية.

٥- خرَّجْتُ جميع الأحاديث النبويَّة، وبيَّنْتُ درجتها، واجتهدتُ في إعطاء خُلاصةٍ مركَّزة للقارئ تُغنيه عن الرجوع والبحث عن الأحاديث التي استشهد بِهَا المؤلف رحمه الله تعالى.

٦- وبعد أن انتهيْتُ من هذه الأعمال جمعاً وترتيباً وتصحيحاً وترقيماً وتعليقاً قمتُ بكتابة مُقدِّمة وافية، ترجمتُ فيها للمؤلف، وقد فصَّلت في الترجمة، واستوعبتُ الكثير من أخباره؛ لأنني لم أقف على ترجمة تُعرِّف به، فبقي مغموراً لدى جمهرة المشتغلين بالسنة النبويَّة، مع أنه خَدَم السنَّة تدريساً

وتأليفاً، وأمضى عمره في الوعظ والدعوة والتعليم والتأليف... وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في تقديم ترجمة وافيةٍ عنه.

ثم أتْبَعْتُ الترجمة بالتعريف ببعض آثاره العلميَّة ومقالاته المتنوِّعة، ثمَّ انتقلت للحديث عن منهجه في شرح الأحاديث النبويَّة في ركن السنَّة بمجلة الأزهر، ممَّا سبق تقديمه من صفحات، ثم صنعتُ فهارس متنوِّعة: فهرساً لأطراف الأحاديث، وفهرساً لأسماء الرواة من الصحابة، وفهرساً للكتب ومؤلِّفيها، وفهرساً إجمالياً للكتاب، ثم فهرساً تفصيلياً له.

وقد أجْهدتُ نفسي في خدمة هذا الكتاب، واستغرق مني وقتاً طويلاً، حتى خرج جامعاً - بفضل الله وتوفيقه - بين حُسْن المَظْهَر والمَخْبر...

ولعلَّ سائلاً يقول: لِمَ أجهدت نفسك، وأتعبتها في جمع هذه المقالات وترتيبها، والتعليق عليها، وخدمتها، ولو أنك قمتَ بشرحِ هذه الأحاديث استقلالاً على منهج ترتضيه، ونسبْتَهُ لنفسك، لكان أعوَدَ نفعاً، وأكثر فائدةً.

والجواب: " أنَّ إتمام بناء الآباء، خيرٌ مئةَ مرَّةٍ من إنشاء البناء من الأبناء، فضلاً عن أنه جزءٌ من الحقِّ الذي لهم علينا، والوفاء، فهم الأصل الأصيل، والنور الدليل، والفهم المستقيم، والعلم القويم، وما تركوا في آثارهم من بقايا فَجَوات طفيفة، لا يقتضي منا تخطِّيهم والإعراض عن آثارهم النفيسة" [١].

وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في إتمام ما شادَهُ فضيلة الأستاذ الشيخ طه الساكت، وعرَّفت به الكثير من طلاب العلم، وقرَّبت هذا الكتاب ليكون مَنْهَلاً

---

(١) من كلمة كتبها أستاذنا العلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في مقدمته لتحقيق كتاب "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل " للكنوي ص ٦.

عَذْباً للواردين، ومرجعاً سهلاً للخطباء والواعظين، ودرساً نافعاً للطلبة والمستفيدين..

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيِّه سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

تمت كتابه هذه المقدمة ومراجعة الكتاب

بعد صلاة الظهر من يوم الخميس ١٣ من المحرم ١٤٢٥[١]

---

(١) يلاحظ بين تاريخ المقدمة الأولى المؤرخة في ٢٨ محرم سنة ١٤٢٤هـ والثانية مدة عام، وذلك لانشغالي بأكثر من عمل حال دون إنجاز هذا الكتاب في وقته المقدَّر له، إذ تعدَّدت جهودي في أعمال علمية كثيرة، ستصدر بإذن الله قريباً، ومنها: "المرشد الوجيز إلى تدبر الكتاب العزيز"، و"الندوات القرآنية" في ثلاث مجلدات، و"فتاوى محمد أبو زهرة " في ثلاث مجلدات، و"زهرة التفاسير"، و"التفسير المكي" للخطاط الشيخ محمد طاهر الكردي المكي، بعنايتي. والله وحده هو الموفق والمعين لإتمام الأعمال، وتحقيق الآمال.

الفصل الأول

العقيدة والغيبيَّات

١ـ شعب الإيمان.

٢ ـ دين الفطرة.

٣ ـ اجتماع الأنبياء على دين واحد.

٤ ـ خاتم النبيِّين ﷺ (١ ـ ٤).

٥ ـ جزاء الصَّالحات (١ ـ ٤).

٦ ـ بلوغ الدعوة المحمدية.

٧ ـ عمل المرء لنفسه.

٨ ـ عمل المرء لغيره.

٩ ـ العين حقٌّ.

١٠ ـ علاج العَيْن.

١١ إبطال مزاعم الجاهليَّة (١ ـ ٣).

شُعَبُ الإيمان *

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الإيمانُ بِضعٌ وسَبعُونَ ـ أو بِضعٌ وسِتُّون ـ شُعبةً، فأفضَلُها قولُ: لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطَّريق؛ والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان»**. رواه الشيخان واللفظ لمسلم[1].

زاحمني في الكتابة على هذا الحديث رئيسُ تحرير هذه المجلة في جزئها السابق؛ فبينا أنا ماضٍ في إعداد العُدَّة لشرحه، ووَقفِ النظر والفكر والجهد له، طلعت علينا المجلة بمقالته المؤمنة الصادقة الخيِّرة.. فما أن قرأتُها حتى أزمعتُ الكتابة في حديثٍ غيره.. بَيْد أنه ـ وقد عتبتُ عليه في هذه المزاحمة ـ أقنعني بالمُضيِّ في تبيان هذا الحديث الجامع، الذي يعدُّ بحقٍّ أساساً للدين كلِّه فرائضِه وشرائعه، وحدودِه وسننِه؛ وينبوعاً قوياً فياضاً لبيان رسول الله ﷺ وهديه[2].

المنهاج النبويُّ في التربية

أنزل الله إلى نبيِّه الذكر ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، وقد فعل؛ فبيَّن لهم، وعلَّمهم كلَّ ما يحتاجون إليه ممَّا فيه سعادتُهم ومجْدُهم وارتفاع درجاتهم في

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد الخامس والعشرون (١٣٧٣).

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) كلاهما في الإيمان.

(٢) ولجلالة شأن هذا الحديث صنَّف العلماء في شرحه وتعيين شعبه كُتباً كثيرة، ومنها: كتاب «شعبُ الإيمان» للحافظ الفقيه أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفَّى سنة (٤٥٨) ألَّفه في ستٍّ مجلَّداتٍ؛ ثمَّ اختصره أبو جعفر عمر القزويني المتوفى سنة (٦٩٩) وطبع المختصر مرتين بالمطبعة المنيرية (طه).

الدنيا والآخرة. لم يَدَع شأناً من شؤون العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والبرِّ والتُّقى في الحِلِّ والتَّرحال، والمطْعَم والمشْرب والملبس والمنكح، والنوم واليقظة، والاجتماع والانفراد، حتى دخول الخلاء والخروج منه، إلا بيَّنه بياناً شافياً ... فكان من بيانه وهديه هذا المنهاج المنير، وتلك التربية القوية المُثْلى الصَّالحة لكلِّ زمان ومكان، ولكلِّ جيل وقبيل، تلك التي لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثلها، لا يأتون بمثلها، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً.

وكانت طريقتُه ﷺ في هذا المنهاج أمثلَ طرائق التعليم والتربية، ممَّا يدع المعلمين والمربِّين مشدوهين متسائلين حَيارى: أنَّى لهذا الأمي تلك الطريقة العجيبة في التقويم والتربية؟!.

نعم، إنه لم يتلقَّ علماً من بشر، ولم يجلس ـ حياته ـ بين يَدَي مُرَبٍّ ولا معلِّم، ولكن علَّمه العليم الخبير الذي وَسِع كلَّ شيء علماً، وجلس بين يدي الرُّوح الأمين، بأمر ربِّ العالمين، حتى أتمَّ هذا المنهاج الذي أعجز الأوَّلين والآخرين أن يأتوا بمثله، أو أن يجدوا سعادتهم ـ حتى الدنيوية منها ـ في غيره!!.

البيان الإجمالي والتفصيلي

ومن منهاج هذه الطريقة المُثلى: أن يحدِّث أصحابه بمثل هذا الحديث الجامع، ثم يفصِّله بعضِ التفصيل بمثل حديث جبريل في سؤاله عن الإسلام والإيمان، والإحسان، ثمَّ عن الساعة.. فيجيبه صلوات الله وسلامه عليه بأمَّهات هذه الشعب البضع والسبعين.. ثم يقول لهم: «هذا جبريلُ عليه السلام أتاكم يعلِّمكم دينكم»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

أمُّ السنة

وحديث جبريل من الشُّهرة بالمكان الذي لا يجهلُه أحدٌ، وقد جمع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة: من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفُّظ في الأعمال، حتى سُمِّي ـ بحقٍّ ـ أم السنة، كما سُمِّيت الفاتحة بأمِّ الكتاب.

ثمَّ يفصِّل حديثَ جبريل ويبسطه، في هديه وتعليمه وإرشاده، وشرحه لهذه الشعب في مختلف المقامات والمناسبات.

حَصْر الشُّعب وتحديدها

وقد جَدَّ كثير من العلماء وتكلَّفوا حَصْر هذه الشُّعب وتحديدها ... ولخَّصها صاحب «الفتح» في تسعٍ وستين خَصلة طباقاً لإحدى روايتي الحديث، ثم قال: ويمكن عدُّها تسعاً وسبعين خصلة باعتبار إفراد ما ضمَّ بعضه إلى بعض[١].. أيريد بهذا مطابقةَ الخصال للرواية الثانية. وكلتا الروايتين واردة في الصحيح؟!

ولا تخرج هذه الشعب ـ كما قال صاحب «الفتح» ـ عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

فأعمال القلب: المعتقدات والنيَّات، وتشتمل على أربعٍ وعشرين خصلة، أعلاها إيمانٌ بالله وتوحيده وتنزيهه؛ وأنه ليس كمثله شيء.. وعن التوحيد يصدر كلُّ خير.

وأعمال اللسان: سبع منها: الدعاء، والذكر، والاستغفار، واجتناب اللَّغو.

وأعمال البدن: ثمان وثلاثون، منها التطهير حسًّا وحكماً، ومنها: إطعام

(١) الفتح١: ٦٨، ٦٩.

الطعام، وإكرام الضيف، ومنها: تربية الأولاد، وصِلة الرحم، ومنها: ردُّ السلام، وتشميت العاطس، وكفُّ الأذى عن الناس، واجتناب اللَّهو، وإماطة الأذى عن الطريق.

من عجائب التربية النبوية

وأيّاً ما كان الأمر، فقد اكتفى النبيُّ بذكر أفضلها وأعلاها، وأيسرها وأدناها، ثم بذكر شعبةٍ من أمَّهاتها تبعث عليها وتيسِّر الطريق لها. وهذا الإجمال من عجائب التربية النبوية؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه لو فصَّل الشُّعب وعدَّها، وهو قادرٌ على عدِّها، لَشقَّ على أمته، ولسدَّ عليهم طريق الاجتهاد فيها، ولَوقفوا عند الذي عدَّه وفصَّله، مع أنَّ كثيراً منها يُراد منه نوعُه ومثيله، لا عينه وذاته، ويتجلَّى ذلك في نوافل الخير وأعمال البرِّ، وهي كثيرةٌ لا تحصى، كما يتبيَّن في آفاتٍ من الشرِّ لم تكن معروفةً في عهده ﷺ، فتفصيل هذه الشعب ـ فضلاً عما فيه من الإضْجَار والإملال ـ يوقعُ في حَيْرةٍ لا فكاك منها! ثمَّ في اختلاف لا رحمةَ فيه، ولا ثمرة منه!.

مفتاح شُعَب الإيمان

بدأ ﷺ بمفتاح هذه الشُّعب التي لا يقبل شيءٌ منها إلاَّ به، وهو كلمة التوحيد، وليس المراد مجرَّد النُّطق بها، وإلاَّ كان المنافقون وكثيرٌ من الكافرين، من أهل الإيمان ... إنما المراد النطق المُنْبعث عن الإيمان بالله وربوبيَّته، والطُّمأنينة، التي لا تَشُوبها شائبةُ ريبة في وحدانيته، الإيمان الذي خالطت بشاشتُه القلوب، وَمَلأت حلاوتُه النفوس، فطربت الألسنة بالشهادة الخالصة، وتحرَّكت الجوارح بالأعمال الصالحة.

ونظير هذا، قولُه ﷺ لسفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه حينما قال له: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل:

آمنت بالله، ثم استقم»[١].

لم يقل له: آمن بالله؛ لأن الإيمان بالله ـ وإن كان أساسه التصديق الذي لا شكَّ فيه ـ يتفاوت بحسب مراتب اليقين والطمأنينة، ومَحَالٌ أن تكون مرتبة عوام المؤمنين، كمرتبة النبِّيين والصِّدِّيقين، ولا شكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ يريد هنا الإيمان الكامل، الذي يفيض على اللسان، فينطق بكلمته صادقاً موقناً، ثم يفيض على الجوارح، فتعمل الصَّالحات راضيةً مطمئنةً، وهذا شأن المؤمنين الصادقين، الذين قالوا: ربُّنا الله، ثمَّ استقاموا.

أدنى مراتب شُعَب الإيمان

وقفَّى صلوات الله وسلامه عليه بذكر إماطة الأذى عن الطريق؛ ليبيِّن أنَّ إزالة الضَّرر عن المارَّة كبيراً كان أو صغيراً، ولو غُصْن شوك، من شُعَب الإيمان التي لا ينبغي الاستهانةُ بها؛ فقد يكون فيها رضا الله عزَّ وجل.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له فغفر له»[٢]؛ ثم ليبيِّن أنَّ هذه الشُّعب على مراتب مختلفة، ودرجات متفاوتة، لكنَّ الذي يقدِّرها، ويُحصي ثوابها هو الله عز وجل.

مكانة الحياء من شعب الإيمان

وختم الحديث صلوات الله عليه بشعبةٍ من أمَّهات الشُّعب وأجلِّها، وهي الحياء.

وإنما اختاره ﷺ ختاماً؛ لأنه يحضُّ على الشُّعب جميعها، ويتّجه بصاحبه

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

وِجْهَة الخير والاستقامة، ثمَّ هو حِلْية الأخلاق وزينتها، وماء الحيوية الذي يترقرق فيها[1]، بل هو خُلق هذه الحنيفيَّة السَّمْحة، كما روى مالك عن زيد بن طلحة بن رُكانَة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ دينٍ خُلُقاً، وخُلُق الإسلام الحَياءُ»[2].

فكأنه ﷺ يشير بهذا الختام العجيب إلى أنَّ الحياء مُهَيْمنٌ على هذه الشُّعب ومُسَيْطرٌ عليها، فلن يُقْبل منها، أو لن يكون واقعاً موقع الكمال والرِّضا إلاَّ ما اتَّسم بسيما الحياء، فمن هنا يخرج المنافقون والمراؤون والكذَّابون الذين يتظاهرون بعمل الصَّالحات، وهم عنها مُبْعدون.

الحياء الشرعي المحمود

ومن هنا يَسْتبين لمن تأمَّل، أنَّ المراد الحياء الشرعي المحمود الذي يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حقِّ ذي الحق.

وأما الحياء الذي يحمل صاحبه على الإخلال بالحقوق والتقصير في الواجبات، فليس حياءً في حقيقة الأمر، وإنَّما هو عَجْزٌ ومَهَانةٌ وخَوَر، وإن سُمِّي بالحياء مَجَازاً، لمشابهته له؛ وليس هذا مراداً في الحديث البتَّة، كما أنه ليس المراد الحياء الغَرَزي، وإنما المراد الحياء المكتسب الذي يستعمله صاحبه على قانون الشرع، لا يختلف عنه.

الحياء من الحياة

قال العلماء: والحياء مشتقٌّ من الحياة، فهو من قوَّة الحِسِّ ولطفه، وعلى

---

(١) تلميح واقتباس من المقالة التي أشرنا إليها أولاً(طه).

(٢) رواه مالك في الموطأ ٢: ٩٠٥، ورواه ابن ماجَه (٤١٨١) وغيره عن أنس مرفوعاً، ورواه أيضاً من طريق صالح بن حسان عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ فذكره.

حسب حياة القلب، ولُطف الحسِّ يكون الحياء قوةً وضعفاً.

وذكر الماورديُّ في «أدب الدنيا والدين» أنَّ الحياء في الإنسان قد يكون على ثلاثة أوجه: حياؤه من الله تعالى، وحياؤه من الناس، وحياؤه من نفسه.. وبيَّنها كلها، ثم قال: فمتى كمُل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة، فقد كملت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشرِّ، وصار بالفَضْل مشهوراً، وبالجميل مذكوراً[١].

وأما ابن القيم في «مدارج السالكين» فقد ذهب ـ ولله درُّه ـ إلى أنَّ الحياء عشرة أوجه[٢]، ثم فصَّلها تفصيلاً ... وقد نعرض لها كلها أو بعضها لمناسبة «الحياء النبوي»، الذي نرجو أن يكون موضوع حديثنا في الجزء الآتي بمشيئة الله تعالى ومعونته وتوفيقه[٣].

* * * * *

(١) أدب الدنيا والدين ص١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) مدارج السالكين ٢ :٢٦١_٢٦٣.

(٣) انظره في «الحياء النبويِّ» ص٨٠٣ ـ ٨١٢.

دين الفطرة *

٢ـعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه؛ كَمَثَلِ البهيمَة تُنتَجُ البهيمَةَ، هل ترى فيها جَدْعاء»؟ رواه الشيخان[1].

ليس بِدْعاً من الأمر أن نتصرَّف في اختيار الأحاديث النبويَّة، تِبعاً لتصرُّفه صلوات الله وسلامه عليه، في ضروبِ العلم والحكمة، وفنونِ التزكية والهداية؛ فقد آتاه الله الكتاب ومثلَه معه، وجَمَعَ له فيهما، من علوم الأوَّلين والآخرين، ما يكفل بعضُه السعادة العليا للناس أجمعين: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[2].

المفردات:

الفِطْرة: أصل الفِطرة الشقّ، ثم أُطلق على الابتداء والاختراع؛ والفطرة: هيئة الخلق وحاله. والمراد بها في الحديث: ما فطر الله عليه الخلق، من معرفته والإقرار به.

يُهَوِّدانه؛ أو يُنَصِّرانه، أو يمجِّسانه: أي يَجْعلانه يهودياً، أو نصرانياً، أو

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الرابع عشر، شعبان (٥) (١٣٦٢).

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) في الجنائز، ومسلم (٢٦٥٨) في القدر.

(٢) سورة النساء: ١١٣.

مجوسياً، بالتعليم والتلقين.

واليهود: مِن هادَ الرجل، إذا رجع وتاب، وإنَّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1].

والنَّصارى: أُمَّة المسيح ابن مريم عليه السلام؛ سُمُّوا بذلك لأنّهم نصروه أو نصر بعضُهم بعضاً. وقال الجوهري: أُخِذَت هذه التسمية من قرية «ناصرة» التي أقام بها عيسى عليه السلام.

والمجوس: قومٌ يعبدون الشمس والقمر والنار، واقتصر بعضُهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر، وآخرون على وصفهم بعبادة النار. وهم طوائف، يُثبتون أصلَين اثنين مدبِّرين قديمَيْن، يقْتَسِمَان الخير والشر؛ يسمّون أحدهما النور، والآخر الظلمة.

البهيمة: هي كلّ ذات أربع قوائم ولو في الماء؛ أو كلّ حي لا يميِّز.

تُنتَج: يقال نَتِجَت الناقة، فهي منتوجة، وأنتجت فهي مُنتجة، إذا وَضَعَت.

جَدْعاء: جدع الأنف قطعه؛ وكذا الأذن، واليدَ، والشفة، وَجُدِعَ البعير: قُطع فهو أجدع، وجُدِعَت الناقة فهي جدعاء.

* * * * *

معرفة الله وتوحيده

فطر الله الناس جميعاً على معرفته وتوحيده ودينه الحق، وأعدَّهم لقَبوله؛

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦.

فما يُولد مولود إلا وهو مُستعدٌّ لهذا الدين الحنيف حتى لو تُرِك وشأنه، لما ابتغى غير الإسلام ديناً؛ ذلك بأنه مُجَاوبٌ للعقل السليم، مُسَاوقٌ للنظر المستقيم، مُشَاكِلٌ للطبائع النقيَّة والنفوس الزكيَّة التي كُتب لها أن ترقى في مراقي الكمال، ويصدِّقُ هذا قولُ الله جلَّ ثناؤه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

المراد بولادة المولود على الفطرة

وَجَليٌّ أن ليس المراد بولادة الطفل على الفطرة، أنه حين يخرج من بطن أمه يعلم هذا الدين الحق، إنما المراد أنَّ كلَّ مولود فإنه يولد على محبَّته لفاطِره، وإقراره له بالربوبية، حتى إذا خُلِّي ونفسه لم يعدل عن الإسلام إلى غيره؛ وذلك كما يولد على محبته لما يلائمه من الأغذية والأشربة، وعلى اهتدائه إلى ما ينفعه ودفع ما يضره.

لم اقتصر ﷺ على الأبوين في إضلال الطفل؟

ولا يزال الطفل نزَّاعاً إلى الخير، سائراً في طريق الهدى حتى يصلَ إلى الكمال المُقَدَّرِ له، ما لم تُصبه القوارع، وتصرفه عن الحق الصَّوارف؛ من وليٍّ يُضلّه، أو بيئةٍ تفسده، أو شيطانٍ من شياطين الإنس والجنِّ يستهويه، فيهلكه.

وإنما اقتصر ﷺ على الأبوين في إضلال الطفل وإفساد فطرته ـ بالتهويد والتنصير والتمجيس ـ؛ لأنهما أسبق الناس إلى رعايته والقيام عليه.

من روائع التشبيه

ومن روائع التشبيه أن يمثِّل النبيُّ ﷺ الطفل المسكين ـ وقد جنى عليه أبواه

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

هذه الجناية النكراء ـ بالبهيمة؛ ينتجها أهلها تامَّة الخَلْق، ثم يَعدون عليها. فَيَجْدَعُونها، ويُغيِّرون خِلْقَتَها.

العبرة بالإيمان الشرعي

ولا يعزبنَّ عن الفؤاد أنه لا عبرةَ بهذا الإيمان الفطري في أحكام الشريعة الغرّاء، وإنما العبرة بالإيمان الشرعي المكسوب بالنظر والاختيار؛ ولهذا توارث الكفار وأبناؤهم الذين لم يبلغوا الحلم؛ لأنهم ـ وإن أسلموا إسلاماً فِطرياً ـ لم يسلموا إسلاماً شرعياً يُعتدُّ به.

السرُّ في إسلام الكثير من الأجانب

ولقوَّة هذا الدين ومتانته لا نزال نلمس سلطانَه على النفوس ـ وإن تبدَّلت ـ أثراً ظاهراً؛ ولعلّ هذا هو السرُّ في إسلام الكثير من الأجانب عنه، رجوعاً إلى فطرتهم الأولى، على حين لا يرتدُّ سخطةً لدينه من خالطت بَشَاشة الإسلام قلبَه.

هل جميع الأطفال وُلدوا على الفطرة؟

وبعد؛ فهل العموم المستفاد من القضية الكليَّة مرادٌ في الحديث؟ وبعبارة أوضح: أوَلَدُ آدم كلهم هُيِّئوا للإسلام وأُعِدُّوا له؛لم يشذَّ منهم أحد، أم أنّ فيهم من وُلد غير قابل له؟ سؤالٌ مهمٌ، لا ينبغي أن نجاوز هذا المكان قبل أن نجيب عنه.

لقد ذهب إلى الرأي الأول أكثر العلماء؛ ولكنَّ الذي يطمئن له القلب، ويشهد به الحسّ، وتعضده دلائل النقل والعقل، هو الرأي الثاني؛ وأنَّ من بني آدم من ولد مطبوعاً على الكفر، نائياً عن الحقِّ غير مُهيَّأٍ له، ولكنه شاذ نادر لا يضر عموم الحكم في شيء. على أنَّ صيغة «كل» تُستعمل أحياناً بمعنى الكثير الغالب.

وبهذا التأويل اليسير نُجيب عن مثل غلام الخضر، الذي جاء في مسلم[(١)] «أنه طُبع على الكفر، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً»، وبهذا التأويل نقضي على شبهاتٍ ثائرة، وهواجس مُتَرَدِّدة حائرة، وسبحان من لا يُسأل عن ما يفعل؛ ومَنْ لو شاء لآتى كلَّ نفس هُداها.

تحديد المراد بالفطرة

أجملنا القول في المراد بالفطرة، ثم أحببنا أن نفصِّله هنا بعض التفصيل؛ إذ أنَّ الفطرة هي أساس البحث في علوم النفس والتربية، والأخلاق والاجتماع.

اختلف العلماء في تحديد المراد بالفطرة، وأشهرُ الأقوال وأصحُّها ـ وهو الذي اعتمدنا عليه في معنى الحديث ـ أنَّ المراد بها الإسلام.

قال ابن عبد البَر: إنه المعروفُ عند عامة السَّلف، وأجمع أهلُ العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[(٢)] الإسلام، واحتجُّوا بقول أبي هريرة في بعض روايات الحديث: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ الآية. وقد قدَّمنا أنَّ معنى ولادةِ الطفل على الإسلام: استعداده له، فلسنا إذاً بحاجة إلى أن نعدَّ هذا رأياً ثانياً.

وذهب قومٌ إلى أنَّ المراد بالفطرة: العهد الذي أخذه الله تعالى من بني آدم حين أشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[(٣)].

والحقُّ أنَّ هذا ـ كما قال صاحب «الكشاف»[(٤)] ـ من قبيل التمثيل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦١) في كتاب القدر.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٤) الكشاف، للزمخشري ٢: ١٧٦.

والتصوير، ومعناه: أنه نَصَبَ لهم الأدلة على ربوبيَّتِه ووحدانيَّتِهِ، حتى شَهِدَت أبصارُهم وبصائرهم، وميَّزت بين الضلال والهدى، والحق والباطل، فكأنَّه أشهدهم على أنفسهم، وكأنهم قالوا: بلى؛ وهذا القول قريب من سابقه.

ورجَّح ابن عبد البر أن المراد بالفطرة: الخِلقة، أي: يولد سليماً لا يعرف كفراً ولا إنكاراً، ثمَّ يعتقد إذا بلغ الحُلُم.

وقال ابن المبارك: إنَّ المراد أنه يولد على ما يصير إليه من شقاوةٍ أو سعادة، فكأنه أوّل الفطرة بالعلم، وهو مردودٌ بأنه لو كان كذلك لم يكن لقوله: «فأبواه يهوِّدانه. . .» معنى؛ لأنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها[١].

سبب ورود الحديث

وإذا كان سبب ورود الحديث مُرجِّحاً للمراد ـ إن لم يكن نصًّا فيه ـ فقد روى الإمام أحمد وغيره في سبب هذا الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث سرِّيةً، فأفضى بهم القتل إلى الذرِّيَّة، فقال لهم: «ما حملكم على قتل الذرِّيَّة؟» قالوا: يا رسول الله! أليسوا أولاد المشركين؟ قال: «أوَليس خياركم أولاد المشركين؟» ثمَّ قام النبيُّ ﷺ خطيباً، فقال: «ألا إنَّ كل مولودٍ يولد على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها»[٢].

فهذا دليلٌ على أنهم ولدوا غير كفار، ثم طرأ عليهم الكفر بعد.

---

(١) بقيت آراء أخرى في «شفاء العليل» لابن القيم، وفي كتاب الجنائز، من «فتح الباري» لم نجد حاجة إلى ذكرها (طه).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» ٣: ٤٣٥ (١٥٥٨٨) من حديث الأسود بن سريع. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٥ :٢١٦ : رواه أحمد بأسانيد، والطبراني في «الكبير» (٨٣٣)، و «الأوسط» (٢٠٠٥)، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

نزعات الفطرة و اتِّجاهاتها

وكما اختلف العلماء في معنى الفطرة، اختلفَ المربُّون في نزعاتها واتجاهها. فمنهم من ذهب إلى أنها خيرٌ محض، ومنهم من ذهب إلى أنها شرٌّ محض، ومنهم من رأى استعدادها للخير والشر جميعاً، ومنهم من رأى خلوَّها منهما جميعاً.

والذي يشير إليه الحديث ـ وهو ما رجَّحناه من قبل ـ أنَّ النفوس في جبلَّتها إلى الخير أمْيَل، ما لم تعرضْ لها الآفات وتصرفْها الصوارف[١].

حكم من مات من غير أطفال المسلمين

ومن هنا رجَّح المحقِّقون من العلماء نجاةَ مَنْ مات من أطفال غير المسلمين، خلافاً لمن قال: هم مُلحقون بآبائهم، وخلافاً لمن توقَّف في شأنهم.

قبول النفوس للتغيير والتهذيب

وفي قوله: «فأبواه يُهَوِّدانه» إلخ دليلٌ على قَبول الفطر للتغيير والتهذيب، واستعداد النفوس للتعليم والتأديب، خلافاً لمن قاس الخُلُقَ على الخَلْق، والصورةَ الباطنة على الصورة الظاهرة، وزعم أنَّ الأخلاق لا يُتصوَّر تغييرها البتة. وقد عقد الغزالي لتغيير الأخلاق بالرياضة فصلاً ممتعاً في كتاب رياضة النفس من «الإحياء»؛ لم يدع مقالاً لقائل[٢].

---

(١) للأستاذ الكبير محمد فريد وجدي صفحات ممتعة، في تقسيم الفطر واستعداد النفوس للعقيدة السليمة، أو عدم استعدادها، من كتاب «الإسلام في عصر العلم» (طه).

(٢) إحياء علوم الدين ٣: ٥٦ بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة.

من فوائد الحديث

وفي الحديث: تقدير للأسباب، وأنها لا تُنافي قضاءَ الله وقدَرَه، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له.

وفي الحديث: إشارة إلى وجوب العناية بأمر الأطفال منذ الولادة إلى أن يبلغوا الحُلُم.

وفي الحديث: رمزٌ إلى يُسْر هذا الدين وسَمَاحته، وأنَّ الأنبياء وَوَرَثةُ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إذ يدعون عباد الله إلى الله، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور؛ فإنما يعيدون الفطر سيَرَتها الأولى، ويرفعون النفوس إلى محلِّها الأرفع.

* * * * *

اجتماع الأنبياء على دين واحد*

٣ـعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة؛ والأنبياء إخوة لِعَلاَّت، أُمَّهاتُهم شتَّى ودينُهم واحد» رواه الشيخان[1].

أقرب النبيين أخوَّة إلى المسيح

ممَّا يسترعي النظر في هذا الحديث أنه مَصْدرٌ من أجَلِّ مصادر السُّنة، في تاريخ الأديان، وأصول الشرائع، ورسالات الأنبياء، ودعوتهم إلى الله تعالى متعاقبين على أمرٍ واحد، هو دين الله الحق.

وجملة القول فيه: أن هذا النبيَّ الأُميَّ محمد بن عبد الله، أقربُ النبيين أخوَّةً إلى المسيح عيسى ابن مريم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في الأولى والآخرة؛ لأنه خاتم الرسل الذين بشَّروا برسالته، ومهَّدوا لقواعد مِلَّته، وأخذوا العهدَ والميثاق على أمتهم لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيَنْصرنَّه ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[2].

الدينُ الحقُّ

وأنَّ المرسلين قاطبةً ينتسبون إلى أصل واحد، هو الدين القيِّم، الذي

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد الخامس عشر، جمادى الأولى (١٣٦٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) في كتاب الأنبياء، ومسلم (٢٣٦٥) في كتاب الفضائل. وأولاد العَلاّت: الذين أمَّهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحدٌ، وشرائعهم مختلفة. كما في «النهاية» ٣ :٢٩١.

(٢) سورة الصف: ٦.

ارتضاه الله لنفسه، وشرعه لعبده، ثم وصَّى به رسله، وكتب ألاَّ يَقبلَ غيره، وألا يجزيَ إلا به.

تعاقب الأنبياء على هذا الدين الحق، أصوله: توحيد الله وتنزيهه، وفروعه: صور من العبادات، وضُروبٌ من التكاليف، تختلف باختلاف الأمم سذاجةً وحَصَافة، وطفولةً ورجولة، وطبيعةً وزمناً؛ كمثل القانون المهيمن على ممالك شتَّى يتفق فيها كلها أصولاً وقواعد، ويختلف فيها فروعاً ومناهج، تَبَعاً لاختلاف الطبائع والمدارك.

وذلك هو تشبيهُ النبيِّ ﷺ الأنبياء كافة بأولاد العَلاَّت ـ وهنَّ الضرائر[1] ـ لأنَّهن اجتمعوا في أب واحد هو الإسلام، وافترقوا في أمهات كثيرة؛ هي الأوعية الحافظة لهذا الدين في عهوده المختلفة، والمناهج الجامعة له في عصوره المتعاقبة.

وفي هذا الحديث على وجازته أصولٌ لمباحث كريمة، ولفتات إلى معان سامية، سنحاول كشف الغطاء عنها بعون الله وتوفيقه.

أصول الدين وفروعه وآدابه

ينتظم ما جاء به كلّ نبي من الأنبياء أموراً ثلاثة:

الأول: ما يتصل بالعقيدة وأعمال القلوب من إفراده تعالى بالربوبية، والاستسلام له بالعبودية، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره. ويُعرف ذلك وما إليه بأصول الدين، وقد يعرف بالتوحيد لأنه ملاك هذه الأصول وعمادها، لا تقوم إلا به، ولا تنهض إلا عليه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن

---

(١) والعَلّة: الضَّرَّة، من العَلَل وهو الشُّرب بعد الشُّرب، كأنَّ الأبَ لمَّا تزوج امرأة بعد أخرى شرب مرةً بعد مرة، وأولاد الأخياف عكس أولاد العَلاَّت، أمهم واحدة وآباؤهم شتى، وأولاد الأعيان هم الأشقاء. (طه).

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[١]، اتفقت على هذه الأصول جملةً وتفصيلاً كلمةُ الأنبياء، ونزلت بها كتب السماء، وأشار إليها قوله عزّ وجل: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾[٢].

والثاني: ما يتّصل بأعمال الجوارح، كالصّلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين، وغير ذلك من سائر الأوامر والنواهي، ممّا يُعرف بأصول الأحكام وفروع الإيمان.

والثالث: ما يرتبط بالنفوس وتزكيتها، والأرواح وترقيتها، كإغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب، واحتمال الأذى في الله، والمسارعة إلى الخير ابتغاء رضاه، وما إلى ذلك مما يعدُّ من نوافل الأعمال، وكرائم الخصال، وإنْ لم يبلغ مبلغ الفرائض المحتومة والواجبات المفروضة.

وقد جاءت الأديان كلها بهذين القسمين كذلك، إلا أنها تختلف فيهما ـ ولا سيما أوّلهما ـ اختلافاً كثيراً في الصور والأشكال، لا في المقصد والمآل. وإلى هذين يشير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾[٣].

تشابك الشُّعب الثلاث

على أنَّ تقسيم الدين إلى أصولٍ، وفروع، ومكارم؛ إنما هو للإيضاح والتقريب، وإلاً فلا جدال أنَّ هذه الشعب الثلاث كلها متَّصلة متشابكة، يقوّي

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٢) سورة الشورى: ١٣.

(٣) سورة المائدة: ٤٨.

بعضها بعضاً، ويشدُّ بعضها أزر بعض، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[١].

وإذا كان من سُنَّة الله التدرُّج في الأشياء كلِّها، فليس بدْعاً أن تنشأ الشرائع الإلهية نشأة الإنسان في أفراده وجماعته، ويربي الجماعات أنبياءُ الله، كما يربي المرءَ أبواه، حتى إذا بلغ العالَمُ رُشْدَهُ، أرسل إليه من لا نبيَّ بعده، بخير الملل وأوْفاها، وأدومِ الشرائع وأبقاها، لا يضرُّ أهلها مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله[٢].

وحدة الإيمان بالرسل

أهم غايةٍ يرمي إليها الحديث هي: الإيمان بأنبياء الله جميعاً، وبأنهم مُتَّحدون متعاونون ينصر آخرُهم أوَّلَهم، ويؤيِّد بعضهم بعضاً، ولا يتمُّ التصديق بهم أجمعين؛ بل لا يتم الإيمان بالله عزَّ وجل مع الكفر بواحد منهم إلاَّ في زعم من سَفِه نفسَهُ وأضلَّ عقله.

وقد تردَّى أهلُ الكتابَيْن في هاوية الكفر بمحمد ﷺ، وازداد اليهود تردّياً بالكفر بعيسى عليه السلام، وهما ـ صلوات الله عليهما ـ ممَّا يقول الخرَّاصون جدُّ بريئَين.

الرسل مراتب ودرجات

وليس من التفريق بين الأنبياء تفضيل بعضهم على بعض، فقد أجمعت الأمة سلفاً وخلفاً على أن الرسل درجات، وعلى أنَّ أفضلهم أُولو العزم.

---

(١) اقتباس من الآيتين ٢٤ ـ ٢٥ من سورة إبراهيم.

(٢) انظر لهذا البحث: «حجة الله البالغة» [١: ٢٨٥_٢٩٧]، و«رسالة التوحيد»، و«تفسير المنار» في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾(طه).

وحَسْبُنا في دلائل هذا الفضل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[١].

غير أنّه لا يَجْمل بالمؤمنين أن يشتغلوا بهذا التفضيل؛ خشية الزلل والهفو. وقد يجرُّ التفضيل إلى الثَّلْبِ والطَّعن وهما من صريح الكفر، ولهذا نهى النبيُّ ﷺ أمته أن تُفضِّلَه على يونس بن متَّى صلوات الله وسلامه عليه، على حين أنه ـ كما قال ـ: «سيّد وَلَدِ آدم ولا فخر»[٢].

ردُّ فرية

وفي الحديث ردُّ فِريَةِ اليهود في عيسى؛ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[٣]، وردُّ فريَةِ النصارى في تأليههم إيّاه وهو عبد الله ورسوله؛ الأولى: أثر الغلوِّ في الظنِّ والطعن، والثانية: أثر الغلوِّ في الإطراء والمدح.

لا نبيَّ بين البعثتَيْن

والحديث شاهدٌ بأن لا نبيَّ بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وفترة ما بينهما قرابة ست مئة عام.

أما الثلاثة الذين أُرسلوا إلى أصحاب القرية، فإنهم رُسُلُ عيسى وبعضُ حواريه، أرسلهم بأمرٍ من الله عز وجل.

وأما مَنْ دعا قريشاً إلى ملّة إبراهيم من العرب، فإنّما هم بقيَّةٌ من أتباع إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٢) رواه أحمد ٣: ٢(١٠٩٨٧)، والترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجَهْ (٤٣٠٨) عن أبي سعيد من حديث طويل بلفظ: «وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر».

(٣) اقتباس من الآية ١٥٦ من سورة النساء.

وإذ لم تكن هذه الرواية فيصلاً فيما نقول، ففي رواية أخرى للشيخين: «**أنا أولى الناس بابن مريم، الأنبياء أولاد عَلات، وليس بيني وبينه نبي**»[١].

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

خاتم النبيين *

ـ ١ ـ

٤ ـ عن جُبَيْر بن مُطْعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمي، وأنا العاقِبُ». رواه الشيخان واللفظ للبخاري[١].

الأسماء النبويَّة

لا يريد النبيُّ ﷺ أن يُحدِّد أسماءه الشريفة بهذا العدد، تحديد أصابع اليد، وإلاّ لم يُحدِّثنا بأنَّ له أسماءً غيرها كثيرة؛ وإنما أراد أنَّ لها من الفضائل والمزايا ما ليس لغيرها، كما يُنْبئ عن ذلك تفسيرها، أو أنه اختُصَّ أو اشتهر بها، في أمته والأمم التي قبلها.

ولا يريد ﷺ بذكر أسمائه أن نُعدِّدها ونردِّدها ونتباهى بها، وإنما أراد أن نتدبَّر ما احتوت عليه من معانٍ سامية، أو أشارت إليه من آداب عالية، فنسموَ بها، ونتحلَّى بأخلاقها، حتى نرفع رؤوسنا، ونكون جدراء بالانتساب إليه...

خصوص الأسماء النبويَّة وعمومها

فأما الخاصُّ فهو الذي لا يشركه فيه غيره من الرسل، كهذه الأسماء

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد السابع والعشرون، سنة ١٣٧٥ هـ.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٢) في المناقب، ومسلم (٢٣٥٤) في كتاب الفضائل.

الخمسة، والمُقَفَّى[١]، وهو الذي قفى من قبله فكان آخرهم، ونبيُّ المَلْحَمَة[٢]، وهو الذي بُعث ليجاهد أعداء الله جهاداً كبيراً.

وأما العام، فهو الذي يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه ذِرْوتُه وكماله، فَضْلاً من الله عظيماً، وذلك كرسول الله ونبيِّه وعبدِه، والشَّاهدِ والبشيرِ والنذيرِ، ونبيِّ الرحمة، ونبيِّ التوبة.

كثرة أسمائه الشريفة وأوصافه المنيفةﷺ

فإذا جُعل له من كلِّ وصفٍ من أوصافه اسمٌ تجاوزت أسماؤه المائتين عدّاً، كالصَّادق والمصدوق، والرؤوف والرحيم وأمثالها، ومن هنا قال من قال من الصوفية: إنَّ لله تعالى ألف اسم، وللنبيِّ ﷺ ألف اسم مثلها!!

على أنَّ مَنْ تدبَّر أسماءَه صلوات الله وسلامه عليه لم يجدها أعلاماً محضة لمجرَّد التعريف، كما هو الشأن في أسماء الناس؛ بل يجدها مشتقة من صفات قائمة به، تُوجب مَدْحَه، وتشيرُ إلى كماله، شأن الربِّ تعالى جدُّه، وأسماءِ كتابه، وأسماءِ أنبيائه، ليست أعلاماً مجرَّدة؛ ولكنها مع العَلَميَّة نعوتٌ وصفاتٌ تُوجب لموصوفها السَّناء والثناء كما يليق به. وكثرة الأسماء والصفات دليلٌ على العناية بأصحابها، ومن هنا قيل: إنَّ كثرة الأسماء برهانٌ على شرف المُسمَّى.

أمهات الأسماء النبوية وأصولها

وَحَسْبُنا في حديثنا هذا أن نُلمَّ بمعاني هذه الأسماء الخمسة؛ فإنَّها أمهات الأسماء النبوية وأصولها. ومن ابتغى زيادةً في البسط والتفصيل، فليرجع إلى

---

(١) أخرجه أحمد ٤: ٣٩٥ (١٩٥٢٥)، ومسلم (٢٣٥٥) كلاهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤: ٣٩٥ (١٩٥٢٥) و٤: ٤٠٣ (١٩٦٢١).

«زاد المعاد»[1]، و«جلاء الأفهام»[2] وكلاهما لشمس الدين ابن القيِّم، ثمَّ إلى «المواهب اللَّدنيَّة وشرحها»[3].. وعلى هذه الثلاثة أكثرُ تعويلِنا في شرح هذه الأسماء.

مُحَمَّـدٌ ﷺ

فأمَّا محمد، فقد استفاضت الأنباء بأنه لمَّا حَمَلت به ﷺ السيدة آمنة، بُشِّرَت في منامها، بأنها تحمل سيِّدَ هذه الأمة ونبيَّها، وأُمِرَتْ أنْ تُسمِّيه إذا وَضَعَتْهُ محمَّداً، وأنه لمَّا كان سابعَ ولادته ﷺ عقَّ عنه بكبش جدُّه عبدالمطلب، وألهمه الله تَبَاركت أسماؤه على أن يصدِّق رؤيا أمِّه، فيسمِّيه تسميتها، فلما قيل له: يا أبا الحارث، ما حملك على أن تسمِّيه محمداً، وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟! قال: أردت أن يحمدَه الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض.

فمحمدٌ اسمه الأول الذي سمَّاه الله به في عالم الرُّؤْيا، على لسان البشير الذي بَشَّر به أمه، ثم سمّاه به في عالم الرؤية على لسان جدّه وكافلِه عبد المطَّلب.

ومحمَّدٌ اسمه الأشهرُ الذي سمّاه الله به في غير آية من كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾[4]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾[5] ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾[1]

---

(١) ١ : ٨٦ ـ ٩٧.

(٢) ص٧٣ـ٨٩.

(٣) ٣ : ١١٢ ـ ١١٥.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٥) سورة الأحزاب: ٤٠.

ومحمدٌ اسمه الأسبق الذي سمّاه الله به في التوراة، على ما حقَّقه وارتضاه ابن القيّم في كتابيه السَّابقين، خلافاً لما ذهب إليه أبو قاسم السُّهيلى والقاضي عياض على ما نشير إليه.

أحمـد ﷺ

وأما أحمد ﷺ، فهو الذي يلي محمداً في فضْله وسَبْقِه وشُهرتِه، حتى كأنَّه هو، في كلِّ معنى يتَّصل به أو يرمز إليه[٢]، ولا عَجَبَ إذا كان كلاهما منقولاً من الحَمْد؛ فهو يتضمَّنُ الثناء على المحمود، كما يتضمَّن محبته وإجلاله وتعظيمه واتِّباعه في كلِّ ما جاء به.

وإذا غَلَبَ على الأول أنه المحمود حَمْداً بعد حَمْد، عند الله وعند ملائكته، وعند إخوانه المرسلين من قبله، وعند أهل الأرض جميعاً ـ بَلْهَ الجاحدين والجاهلين منهم ـ وعند الأمم قاطبةً في موقف الحشر؛ فقد غلب على الثاني أنه أحقُّ الناس وأولاهم بأن يُحمد هذا الحمد، فالاسمان ـ كلاهما ـ واقعان ـ كما اختار ابن القيِّم ـ على صيغة المفعول، والفرقُ بينهما أنَّ محمداً كثيرُ الخصال التي يُحمد عليها، وأحمدَ هو الذي يُحمد بحقٍّ أكثرَ مما يُحمد غيرُه؛ فمردُّ الأول إلى الكَثرة والكميَّة؛ ومردُّ الثاني إلى الصِّفة والكيفيَّة، وأيّاً ما كان الأمر، فقد أُوتَي ﷺ من خصال الثناء والحمد ما لم يُؤْتَ أحد؛ فكان أعظمَ من حُمِد، وأجلَّ من حُمد، وسبحان من لا ينتهي عطاؤه عند حد.

اسمه ﷺ في الإنجيل

وأحمد هو الاسم الذي سمّاه الله به في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم عليهما السلام، إذ قال:

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) في الرواية التي اخترناها: «أنا محمد وأحمد» نكتة لطيفة تؤكِّد هذا الاتصال؛ حيث عطف الثاني على الأول من غير الضمير الفاصل (طه).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[١] تلك تسميته وبشارته في الإنجيل، بلا خلاف ولا رَيْب.

اسمه ﷺ في التوراة

وإنما الخلاف فيما سُمّي به في التوراة: هل هو محمد أم أحمد؟

قال أبو القاسم السُّهيلي، والقاضي عياض، وصاحب «الفتح»: كان عليه الصلاة والسلام أحمدَ قبل أن يكون محمداً كما وقع في الوجود؛ فإنَّ تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة، وتسميته محمداً وقعت في القرآن الكريم؛ وذلك أنه حَمِد ربَّه قبل أن يَحمدَه الناس، وكذلك في الآخرة يحمد ربَّه فيشفِّعه، فيحمده أهل الموقف، وقد خُصَّ بسورة الحمد، وبلواء الحمد، وبالمقام المحمود، وشُرِع له الحمد بعد الأكل والشرب والدعاء وغيرها، فجُمعت له معاني الحمد وأنواعه ﷺ[٢].

اسمه ﷺ محمدٌ في التوراة وأحمدُ في الإنجيل

وقال ابن القيم في أثناء ردِّه واختياره: إنه صلوات الله وسلامه عليه عُرِفَ عند كلِّ أُمّةٍ بأَعْرَف الوَصْفَين لديها.. فلما كانت أُمّةُ موسى أوسع علماً ومعرفة وَشِرْعة ومنهاجاً من أمّة المسيح، عُرِفَ عندها بالاسم الجامع للمحامد التي يُحمد عليها حمداً مُتكرِّراً، وهذا إنَّما يُعرَف بعد العلم بخصال الخير، وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والصِّفات التي يستحقُّ تكرار الحمد عليها، ولا ريب أنّ بني إسرائيل هم أهل الكتاب الذي كتب الله فيه من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيء.

ولما كان الإنجيل كأنه مُكَمِّلٌ للتوراة ومُتَمِّمٌ لها، جاء فيها اسمه الدالُّ على

---

(١) سورة الصف: ٦.

(٢) فتح الباري ٦: ٦٤١ ـ ٦٤٢، وانظر: الشفا ١: ٣١٢.

الفَضْل والكمال، كما جاءت شريعتُهم بالفضل المكمِّل لشريعة التوراة.

ولمّا كان القرآن الكريم مُصَدِّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وجامعاً لمحاسنهما معاً، جاء كذلك بالوَصْفَيْن جميعاً[(١)].

الماحي ﷺ

وأما الماحي: فهو الذي مَحَا الله بنوره ظلماتِ الكفر، ولم تُمحَ هذه الظلمات بأحدٍ من الخَلْق كما مُحِيَتْ به صلوات الله عليه؛ فإنه بُعث وقد أطبق الكفر على أهلِ الأرض قاطبةً، إلا بقايا من أهل الكتاب.

والكفار ما بين عُبَّادِ أوثانٍ، وعُبَّادِ كواكب، وعُبَّادِ نار، ويهودٍ ونصارى، وصابئةٍ دهرية ـ لا يعرفون رباً ولا مَعَاداً ـ، وفلاسفةٍ لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرُّون بها، فمحا الله بنبيِّه الماحي ﷺ هذه الظلماتِ، وأظهر دينه على كلِّ دين غيره، حتى بلغ مبلغَ الليل والنهار، وسَارَ مَسيرَ الشَّمس في الأقطار.

الحاشر ﷺ

وأما الحاشر: فهو الذي يُحشر الناس على قدمه؛ لأنَّه أوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض، ثُمَّ الناس على أثره يُحشرون، وإليه في المحشر يلجئون، وبه عند الفزع الأكبر إلى ربِّهم يتوسَّلون، وهنالك يتجلَّى مقامُه المحمود الذي يحمده له الأوَّلون والآخرون.

العاقب ﷺ

وأما العاقب: فهو في معنى المُقفَّى والآخر؛ لأنّه تَبعَ آثارَ مَنْ سبقه من الرسل، فكان خاتمهم ﷺ.

وهذا الاسم صريحٌ في أنه ﷺ خاتم النبيين، فلا نبيَّ بعده وقد فُسِّر بهذا عند مسلم، ففي إحدى روايتيه لهذا الحديث نفسه: «وأنا العاقب، والعاقب

---

(١) جلاء الأفهام ص٨٩.

الذي ليس بعده نبي»[١] وفي الرواية الأخرى: «وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد»[٢] وقد تظاهرت الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، من صريح الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على أنه أتى عَقِبَ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنَّ به انتهاء النبوة وحُسْن الختام.

وحَسْبُنا من صريح الكتاب قوله عزَّ وجل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٣].

ومن صحيح السنة قوله صلوات الله عليه فيما رواه الشيخان: «إنَّ مَثَلي ومثلُ الأنبياء من قبلي، كَمَثَلِ رجُل بنى بيتاً، فأحْسَنَهُ وأجْمَلَهُ، إلاَّ مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناسُ يَطُوفونَ به ويَعْجَبون له، ويقولون: هلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة. قال: فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النَّبيين»[٤].

ونرجو أن نُقَفِّيَ على هذا بمزيدٍ بيانٍ في الجزء الآتي إن شاء الله.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم ١٢٤ (٢٣٥٤).

(٢) أخرجه مسلم ١٢٥ (٢٣٥٤).

(٣) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

خاتم النبيين

ـ ٢ ـ

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مَثَلي ومثلَ الأنبياء منْ قَبلي، كَمَثَلِ رجلٍ بنى بَيْتاً، فأحْسَنَهُ وأجْمَلَهُ، إلا مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ بِهِ، ويَعْجَبونَ له، ويقُولونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟!» قال: «فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النَّبيِّينَ». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[1].

الإسلام دين عام خالد

قولٌ حقٌّ، لايُمْتري فيه إلا مَنْ سَفه نفسَه، وألغى رُشْدَه وحسَّه، ودَخَل مختاراً في غِمار الحَمْقى والمجانين، أو سَقَط مُختاراً في شَرَك الأفَّاكين المارقين، ولو أنه نظر قليلاً بعين فطرته التي فطره الله عليها، وآدميته التي كرَّمه الله بها ـ في هذا الدين القيِّم، وما جاء به ومَنْ جاء به ـ لازداد به إيماناً وهُدى، ثمَّ كان به من الهُداة الراشدين.

نظرةٌ صادقة في تاريخ هذا النبِّيِّ الكريم

أرسله الله تعالى على فَتْرةٍ من الرُّسل، وطُموس من السُّبل، وعبادةٍ عَمْياء للأصنام والأشجار، وَجَهَالة جَهلاء غَمَرت جميع القرى والأمصار، برسالةٍ عامة باقية، وشريعة خالدة هادية، قائمةٍ على الآيات البيِّنات، ما قامت الأرض والسموات؛ فكان ـ ولا يزال ـ رحمةً للعالمين، كما كانت شريعته ـ ولا تزال ـ هي النُّور المبين، والمُعْتَصمُ والمَلْجأُ إلى يوم الدين، وليس بينها وبين الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

بها ـ وبأنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ـ إلا نظرةً صادقة في تاريخ هذا النبيِّ الكريم ﷺ.

اتحاد الشرائع واختلافُها

لقد بعثَ الله في كلِّ أمةٍ رسولاً بشريعة تلائمها وتصلح لها، إلى أن ينتهيَ أجلُها الذي قدَّره الله لها، ولكلِّ أمةٍ أجل، ولكلِّ أجلٍ كتاب.

تَتَّحد هذه الشرائع في أُسسها وأصولها، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فيه من بَعثٍ وجزاء. وتختلف في فروعها وأشكالها، على حسب ما يلائمها من رُشْدٍ وكمال.

ولا مِراء في أنَّ كلَّ شريعة من شرائع النبيين السابقين كاملةٌ بالنسبة إليه وإلى أمَّته، وإنْ لم تكن كاملةً كمالاً مُطْلَقاً يلائمُ كلَّ زمان ومكان إلى يوم البعث والنشور. فذلك الذي خَتَم الله به الشرائع، وأتمَّ به الرسالات، واختَصَّ به من بعثه مُتَمِّماً لمكارم الأخلاق.

مَثَلٌ بديع رائع

ولقد أشار إلى هذه الشرائع في اتِّحاد أصولها، ذلك المثل البديع الرائع الذي ضَرَبه صلوات الله وسلامه عليه، إذْ مثَّلها جميعها بقَصْرٍ واحد منيف مُونِق، يبْنيهِ رجلٌ واحد... فتوحيد القصر وبانيه إشارةٌ إلى اجتماع الرسل وشرائعهم على أصول واحدة، كما أشار إلى الفروع في اختلاف أشكالها، باللَّبنة التي بها تمَّ للقصر بهاؤه، وكَمُل حُسْنُهُ ورُواؤُه.

وإلى اتِّحاد الأصول في الشرائع، يشير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

وإلى اختلافها في الفروع يشير قوله جلَّ ثناؤه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[١].

تطلُّع الإنسانية إلى النجاة

هكذا أرسل الله رسلَهُ تَتْرى، حتى إذا برمت الإنسانية بفسادها، وضاقت ذرعاً بغيِّها وَسَفهها، وآنَ لذوي الفطر السليمة أن يبلغوا كمال رُشْدهم، ويتَسنَّموا ذِروَة مَجْدهم، بعث الله صفوةَ أوليائه، وخاتمَ أنبيائه، بأكمل شرائعه، وأوفى مناهجه؛ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النُّور، ومن الضَّلال إلى الهُدى؛ وليناديَ فيهم بلسان عربيٍّ مبين، بأمر ربِّ السموات، وربِّ الأرض، ربِّ العالمين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾[٢]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٣]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٤].

شهاداتٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ:

شهادةٌ من الله تعالى ـ وهو أكبر شيء شهادة ـ لعبده النبيِّ الأُميِّ، محمدِ ابن عبد الله، عليه صلوات الله، بأنَّ شريعته أزكى الشرائع وأوْفاها، وأصلحها لكلِّ زمانٍ ومكان، وبأنَّ دينه ناسخٌ لما سبقه من الأديان، تصديقاً لقوله عزَّ سلطانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٥]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن

---

(١) سورة المائدة: ٤٨ وانظر: حديث اجتماع الأنبياء على دين واحد: «الأنبياء أخوة لعَلاَّت ...» ص١٢٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٨.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٤) سورة المائدة: ٣.

(٥) سورة آل عمران: ١٩.

﴿يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[١].

وشهادةٌ بأنَّه صلوات الله عليه، ليس أباً لأحد من رجال أمته، ولكن رسول الله وخاتم أنبياء الله، بنصٍّ قاطع، وبيانٍ صَادعٍ ساطعٍ، لا يَدَع رِيْبَةً لمرتاب، ولا حِيلة لمُسْرف كذَّاب.. فمن ادَّعى النبوَّة بعد هذا ـ ومن باب أولى الرسالة ـ فهو أفَّاك دجَّال، ضالٌّ مُضِلٌّ، عليه وعلى الظالمين لعنةُ الله ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾[٢].

وفي الشهادة الثانية يردُّ الله تعالى على من يَنْسب زيدَ بن حارثة إليه، صلوات الله عليه، ويُبيِّن لهم أنه ليس أباه، وإن كان قد تبنَّاه، وكان رضي الله عنه يُدعى ـ على عادة العرب في المُتَبَنَّى ـ زيد بن محمد، حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[٣] فدُعِي زيدُ بن حارثةَ... في قصةٍ طريفة ألممنا بها في «حقوق الأكفاء»[٤].

أولاده ﷺ

والمُلمُّ بالقَدْر الضروري من سيرته ﷺ، ولو لم يكن من أُمَّته، يعلم أنه لم يعش له ولدٌ ذكر حتى بَلَغ الحلم؛ فقد وُلد له صلوات الله عليه ثلاثةُ بنين: القاسمُ والطَّيِّبُ والطَّاهر، من أمِّ المؤمنين خديجة رضوان الله عليها، وماتوا كلُّهم صغاراً! وَوُلد له إبراهيم من ماريَة القبطية رضي الله عنها، ومات رضيعاً.

وكان له من خديجة أربعُ بنات، كُلُّهنَّ أدْركن الإسلام، وأسلمن وهاجرن

(١) سورة آل عمران: ٨٥.

(٢) سورة الأنعام: ٩٣.

(٣) سورة الأحزاب: ٥.

(٤) انظرها: ص٩٠٤.

معه: زينبُ، وَزَوَّجها ابنَ خالتها أبا العاص بن الربيع، ورُقيّةُ، وأمُّ كلثوم، وَزَوَّجهما ذا النُّورَيْن عثمان بن عفان، أُخراهما بعد وفاة أختها. وكلُّهنَّ تُوُفِّينَ في حياته، ماعدا فاطمة الزهراء، فإنَّها أُصيبت به، ثمَّ ماتت بعده لستة أشهر!.

أُبوَّته ﷺ الروحية المعنوية

وَنَفْيُ أبوَّته الصُّلبيَّة الحسيَّة، لا يُنافي أبوَّته الرُّوحيَّةَ المعنويَّةَ صلوات الله عليه، فإنَّ الثانية أجلُّ من الأولى، وهي ثابتةٌ له على أحسن ما ينبغي لمقامه الكريم، من المحبَّة والتكريم، كما يشير إلى ذلك حديثُ الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

وفاة أبنائه في حياته ﷺ كرامةٌ ورحمةٌ

وكأنه تعالى أراد ـ وهو الحكيم الخبير ـ أن يَقْبض أولاد نبيِّه في حياته؛ لِيعلِّم أُمَّته كيف يكون صَبْر الآباء في موت الأبناء، ثم لِيعلموا أنه تعالى هو الذي رفع ذكرَ نبيِّه في العالمين، دون مساعدةٍ من الآباء والبنين، ولهذا شاء ـ جلَّت مشيئته ـ أن يكون يتيماً لِيكون لكلِّ يتيمٍ أباً رحيماً، وليكون فضل الله عليه عظيماً.

وأخرى بينه وبين أمته، وهي ألا يمسَّهم أحدٌ بسوء أو أذى، أو يزعم أحدٌ أنَّ أبناءه من بعده هم وَرَثته في نبوَّته أو رسالته، أو أحقُّ الناس ـ على الأقل ـ بخلافته، فيكون فساداً كبيراً، وشراً مستطيراً! وانظر إلى غُلاة الشِّيعة، وما زعموا لابن عمِّه عليٍّ كرَّم الله وجهه!! فكيف لو عاش ابنٌ له من صُلْبِهِ صلوات الله عليه وسلامه؟!.

ألا إنَّ موت أبنائه قبل وفاته، معجزةٌ من معجزاته في حياته، ورحمةٌ من الله على أمته بعد مماته.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

آياتٌ بيِّناتٌ

أما بعد، فإنَّه لو لم يَدل الذكر الحكيم على أنَّ محمداً صلوات الله عليه خاتمُ النبيين، لدلَّ على ذلك خُلُقُه العظيم، وهَدْيُه الكريم، وما آتاه الله من آياتٍ بيِّنات، لم يُؤْتِها أحداً من العالمين.

فكيف وقد أنزل الله ذلك الختام نصّاً قاطعاً، يقطع دابر الدجاجِلة الأفَّاكين، ثم وكَّد هذا البيان صلوات الله وسلامه عليه بنصوصٍ صريحة ـ لا تقبل جَدَلاً ولا تأويلاً ـ بأنه لا نبيَّ بعده..

ولولا مخافة السآمة لسقنا بعض هذه الأحاديث الصريحة الصحيحة.. وإذن فموعدنا الجزء التالي إن شاء الله.

* * * * *

خاتم النبيين

ـ ٣ ـ

شرُّ الدوابِّ عند الله تعالى

لاجرَم أنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لايعقلون[١]، ولا جرَم أنَّ شرَّ هؤلاء إجراماً هم المتنبِّئون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[٢].

ولو كان عند هؤلاء مَسْكَةٌ من عقل، أو ذَرَّةٌ من نُور، لَعَلموا أنَّ دعوى النبوَّة أو تصديقها بعد خاتم النبيين ـ صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين ـ هو الخَبال كلُّ الخبال، والنَّكال الذي ليس وراءَه نكال!! وكفى به جُرماً وخَبالاً، أنه اتِّهامٌ لأحكم الحاكمين في اختياره واصْطفائه مَنْ يشاء من عباده ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣].

دجَّالون كذَّابون

ومن حكمة الحكيم العليم، ورحمتِه بأمَّة خاتم النبيين ﷺ، أنْ أنبأه نبأً

---

(١) اقتباسٌ من قوله عزوجل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢].

(٢) سورة الأنعام: ٩٣.

(٣) سورة القصص: ٦٨.

هؤلاء الدجاجلة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، لتُحذَرَ فتنتُهم، وتُتَّقى ضَلالَتُهم، ونعوذُ به سبحانه من هَمَزات الشياطين.

روى الشيخان وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لاتقوم السَّاعة حتى يُبْعَثَ دجَّالون كذَّابون قريبٌ من ثلاثين، كلُّهم يزعم أنه رسول الله»[١].

وروى أبو داود والترمذي عن ثَوْبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائلُ من أمَّتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذّابون، كلُّهم يزعم أنه نبيٌّ، وأنا خاتم النبيِّين، لا نبيَّ بعدي»[٢].

ولم يفارق النبيُّ ﷺ هذه الدنيا حتى صَدق الله رسولَه ما أوحى إليه، فظهر نَفَرٌ من هؤلاء الدجَّالين الذين ادَّعَوْا النُّبوَّة، والتقت وساوسهم في أثناء مرضه الأخير صلوات الله وسلامه عليه، منهم مُسَيلمةُ الكذَّاب صاحب اليمامة، والأسودُ العَنْسي صاحب صنعاء اليمن.

مُسَيْلِمة الكذاب

ومن خبر مُسَيْلمة كما في الصحيحين وغيرِهما: أنّه قَدِمَ على عهد النبيِّ ﷺ المدينةَ، وجعل يقول: إنْ جَعَلَ لي محمدٌ الأمر من بعده تبعتُه. قدمها في بَشَرٍ كثير من قومه بني حنيفة، فأقبل رسولُ الله ﷺ ومعه ثابتُ بن قيسٍ، وفي يده صلوات الله عليه قطعةُ جريدٍ، حتى وقف على مُسَيْلمة في أصحابه، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدوَ أمرَ الله فيك، ولئن أدْبرت ليعقرنَّك الله، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت[٣] يجيبك عنِّي»، ثم

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم (١٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٧) (٢٢٠٣) (٢٢٢٠) (٢٢٣٠).

(٣) هو خطيب الأنصار، ثابت بن قيس بن شمَّاس بن زهير بن مالك بن امرئ القيس.

=

انصرف عنه.

قال ابن عباس: فسألتُ أبا هريرة عن قول رسول الله ﷺ: «وإني لأراك الذي أُريت فيه ما رأيت»، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «بَيْنا أنا نائمٌ رأيت في يدي سوارَيْن من ذهب، فأهمَّني شأنُهما، فأُوحِيَ إليَّ في المنام أن أنفخَهما، فنفختُهما فطارا، فأوَّلتهما كذَّابين يَخرُجان من بعدي: أحدهما العنسي، والآخر مُسَيْلمة»[1].

ظهور شوكة مُسْيلمة الكذاب:

ولم تظهر شوكة مُسَيْلَمة إلا في عهد الصِّدِّيق رضيَ اللهُ عنه، إذْ جمَعَ جُموعاً كثيرةً ارتدُّوا على أعقابهم، وتأهَّبوا لقتال الصحابة، فَجَهَّز لهم الخليفة الأول جيشاً بإمرة سيف الله خالد، فَقَتَل أصحابَ الكذَّاب.. ثمَّ كان الفتح بفَصْل هامة الكفر والضَّلال.

قاتل سيدِ الشهداء يقتلُ ألدَّ الأعداء

وممَّن أبلى في فَصْل هذه الهَامة، وَحْشيٌّ قاتلُ أسد الله، حمزة سيِّد الشهداء قال: «لما قُبِضَ رسول الله ﷺ فَخَرج مُسَيْلِمة الكذَّاب، قلت: لأَخرُجَنَّ إلى مُسَيْلمة، لعلِّي أقتله، فأكافىءُ به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، فإذا رجلٌ قائم في ثَلْمَةِ جدار، كأنه جملٌ أَورق، ثائر الرأس[2]،

كان من نجباء أصحاب محمد ﷺ، ولم يشهد بدراً، وشهد أحداً، وبيعَة الرضوان، وكان جهير الصوت، خطيباً، بليغاً. بشَّره رسول الله ﷺ بالجنة، وقُتل شهيداً يوم اليمامة رضي الله عنه. «سير أعلام النبلاء» ١ :٣٠٨_٣١٤.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٣)، (٤٣٧٤)، ومسلم (٢٢٧٣)، (٢٢٧٤).

(٢) الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحماً لا سَيْراً، والمراد أنَّ لونه مثل الرماد، وكان ذلك من غبار الحرب. وقوله: «**ثائر الرأس**» أي شعره منتفش.

فرميتُه بحربتي فوضعتها[١] بين ثَدْيَيْه حتى خَرَجَت من بين كتفَيْه، قال: وَوَثَب إليه رجل من الأنصار[٢]، فَضَرَبه بالسيف على هامته»[٣].

وكان وحشيٌّ ـ غَفَرَ الله له ـ بعد إسلامه ـ والإسلامُ يجبُّ ما قبله ـ يرهبُ قتلَه حمزة على غِرَّة في غزوة أحد، ويزيدُ في رهبته وخوفه أنَّ رسول الله ﷺ ما كان يحبُّ أن يراه؛ لأنَّ رؤيته كانت تثيرُ في نفسه الرحيمة مأساةَ عمِّه، وحزنَهُ على أحبِّ الناس إليه!! لكنَّ الله الذي يُضِلُّ مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء، وفَّق قاتلَ سيِّدِ الشُّهداء، لأن يقتل ألدّ الأعداء..

الأسود العَنْسي

وأما الأسود العَنْسي، فقد خرج بصنعاء، وادَّعى النبوَّة في حياة النبيِّ ﷺ، وغَلَب على عامله هناك: المهاجر بن أبي أميَّة، وعَظُمَت شوكتُه، وحارب المسلمين، وفَتَكَ بهم. ولم يزل يعثي في الأرض مُفْسداً، حتى أخذه الله قُبيل وفاة نبِّيه ﷺ أو يومها، وأراح العالم من شرِّه.

المختار بن أبي عُبيد الثَّقفي

ثم ظهر بعد العهد النبويِّ كذَّابون دجَّالون متنبِّئون، منهم المختار بن أبي عُبَيد الثقفي، وقد شَهِدَ عليه بدعوى النبَّوة والكذب الصَّريح جماعةٌ من أهل البيت. بل شَهِدَ عليه حديثُ مسلم في «صحيحه» عن أسماءَ بنتِ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما في قصَّتها مع الحجَّاج، وهي تقول له: «أما إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأمَّا الكذَّاب فرأيناه، وأما المُبير فلا إخَالك إلا إيَّاه» فقام عنها، ولم يُراجعها[٤].

---

(١) في رواية الكُشميهني: فأضعها.

(٢) هو عبد الله بن زيد بن عاصم المازني كما في «الفتح» ٧: ٤٢٩.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) في فضائل الصحابة من حديث أسماء بنت أبي بكر
=

والمبير: الجبَّار المُهْلك، والمراد به هنا: الحجَّاج بن يوسُف الثَّقفي، والمراد بالكذَّاب: المختار بن أبي عُبَيد الثقفي، وذلك بإجماع العلماء، كما قال الإمام النووي في «شرحه لصحيح مسلم»[١].

ومن أقبح أكاذيبه: دعواه أنَّ جبريل عليه السلام كان يأتيه بالوحي. وممَّا وَرَدَ في ذلك ما أخرجه الإمامُ أحمد في «مسنده» عن رِفاعة الغسَّاني[٢] قال: دخلتُ على المُختار، فألقى إليَّ وسادةً، وقال: لولا أنَّ أخي جبرائيل، قام عن هذه ـ وأشار إلى أخرى عنده ـ لألقيتُها لك[٣].

والد المختار وأخته

وقد يكون من العَجَب أنَّ أباه أبا عُبيد الثَّقفي، كان رجلاً صالحاً، واستُشْهِد أيام عمر في حرب المجوس، وكذلك أختُه صفيَّة بنت أبي عُبيد امرأةُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كانت امرأةً صالحةً، وترجَمَ لها ابن حِبَّان في الصَّادقين الثقات[٤].

وأما المختار، فأجْمَعوا على أنه رأسٌ من رؤوس الكَذب والضلال.. وقد

الصدِّيق، وأخرجه أحمد ٢: ٢٦ الميمنيَّة (٤٧٩٠) الرسالة، والترمذي (٢٢٢٠) و(٣٩٤٤) من حديث ابن عمر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شريك. .

(١) شرح صحيح مسلم ٢: ١٠٠.

(٢) الصواب: الفِتْيَاني، بكسر الفاء وسكون التاء وفتح الياء وبعد الألف نون: نسبة إلى فتيان بن ثعلبة بن معاوية بن زيد كما في «المشتبه» «واللباب» و«تبصير المنتبه»، وأخطأ الحافظ رحمه الله في «التقريب» فقال: «القِتْباني» بكسر القاف وسكون التاء بعدها موحَّدة.

(٣) أخرجه أحمد ٥ :٢٢٣ (٢١٩٤٧) وإسناده حَسَن من أجل السُّدي، وباقي رجال الإسناد ثقات، كما في التعليق على «المسند» طبعة مؤسسة الرسالة.

(٤) الثقات، لابن حبان ٤: ٣٨٦، والثقات للعجلي ٢ (٢٣٣٩).

أخذه الله على يد مصعب بن الزُّبير بالكوفة سنة سبع وستين[١].

الحارث بن سعيد

ثم ظهر من بعدِ المختار دجَّالون مُتَنبِّئون ـ من هؤلاء الذين حدَّثنا عنهم الصَّادق المَصْدوق ﷺ ـ مثل الحارث بن سعيد الدمشقي، الذي ظهر في أيام عبد الملك بن مروان، واغترَّ به خلقٌ كثير إلى أن وقع في قبضة عبد الملك، فَسَجَنَه وقَتَله..

إسحاق الأخرس

ومثل إسحاق الأخرس الذي ظهر في خلافة أبي العباس السَّفَّاح. ومن أخباره أنه نَشَأَ بالمغرب، وتعلَّم القرآن، ولم يترك علماً حتى أتقنه، ثم ادَّعى أنه أخرس تمهيداً لدعواه النبوَّة، ثمَّ رَحَل إلى أصفهان، ونَزَل بها عشرَ سنين، ثمَّ زعم أنَّ مَلَكَيْن جاءاه بعد خلوةِ أربعين يوماً، فأيقظاه وغسلاه، وسلَّما عليه بالنبوَّة.. في نبأ نقله صاحب كتاب «الدعاة».

أذنابٌ تتلوى بعد قطع رؤوسها

وآخر هؤلاء الأفَّاكين كأوَّلهم، وكلُّهم أعرقُ الناس ضلالاً، وأسخفُهم أقوالاً، وأبعدُهم عن العقل والفَضْل مجالاً. وقد قطع الله دابرهم، وَوَقَى العالمَ شُرورَهم، ولم يبق من أخبارهم ـ عليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين ـ إلا نوادر وأحاديث تتفكَّه بها كُتب الأدب والتاريخ؛ قصداً إلى الترويح والتسلية..

لكنَّ الحكيم العليم الذي يَبْلو عبادَه بالشرِّ والخير فتنةً[٢]، والذي جعل

---

(١) انظر طرفاً من أخباره في «شرح مسلم» باب «فضائل الصحابة وتحريم سبِّهم»، وفي «الإصابة» لابن حجر، وفي «المنتقى من منهاج الاعتدال» بتحقيق السيد محب الدين الخطيب، ثمَّ في كتاب «الدعاة من المتألِّهين والمتنبِّئين والمهتدين»، لصاحبه وجيه فارس الكيلاني. (طه).

(٢) اقتباس من قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [٣٥].

لكلِّ نبيٍّ عدواً شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زُخرُف القول غروراً[١] ـ لايزال يبتلي هذا الدين الحنيف وأهله بأَرْؤُسٍ من هؤلاء المخبَّلين، تتحرَّك ثم تُقطع، ثم تبقى أذنابها تتلوّى حيناً على عمىً وتخبُّطٍ، إلى أن يُتبعها الله أرْؤُسَها بأيدي أولي بأسٍ من عباده.

وميقاتُ حديثنا الختامي عن هؤلاء الأذناب هو الجزء القادم بمشيئة الله تعالى وعونه وتوفيقه.

* * * * *

(١) اقتباس من قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [١١٢].

خاتم النبيين

ـ ٤ ـ

من أذناب المتنبِّئين

قلنا في نهاية الجزء الماضي: إنَّ الله ـ جلَّتْ حكمتُه ـ لايزال يَبْتلي هذا الدين الحنيف بأرْؤسٍ من هؤلاء الدَّجَاجلة المتنبِّئين، تتحرَّك ثم تُقطع، ثم تبقى أذنابها تتلوَّى حيناً من الدهر على عمى وتخبُّط، إلى أن يقطعها الله كما قطع أصولَها من قبل، بأيدي أُولي بأس من عباده، ووَعَدْنا أن يكون هذا الحديث الختامي في هؤلاء الأذناب، قطع الله دابرهم، وأراح العالمين من شرِّهم.

أبو منصور العِجْلي والمنصوريَّة

فمن هؤلاء: أذناب أبي منصور العِجْلي، من أهل الكوفة، عاصر محمد الباقر، ولما كَشَف الباقر خيانته لأصل الإسلام تبرَّأ منه، وعلى الرُّغم من براءته منه ادَّعى بعد موته أنه وصيُّهُ، وزعم أنَّ علياً والحَسَنَيْن، وعليَّ بن الحسين، ومحمداً الباقر كانوا كلُّهم أنبياء مرسلين، وأنه هو أيضاً نبيٌّ ورسول! وستكون النبوَّة في ستّةٍ من ولده آخرهم «القائم»!.

وكما أنَّ ابنَ سبأ أوَّلُ من اخترع كلمة «الوصي»، فإنَّ العجليَّ هو أوّل من اخترع كلمة «القائم»، وزَعم العِجْلي ـ فيما زعم ـ أنه عُرِج به إلى السماء... وكان يحرِّض أذنابه على خَنْق مُخالفيه. ولم يزل في عَمَاءته حتى أُخذَ وَصُلبَ في وِلاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق، لهشام ابن عبد الملك[١].

---

(١) انظر ص ٩٦ من حاشية السيد محب الدين الخطيب على «المنتقى من منهاج
=

القاديانية

ومنهم مِرْزا غلام أحمد[1] الهندي القادياني زعيم الأحمدية، كان يزعم أنّه ينزل عليه الوحي، وأنه نبيٌّ ورسول، وزعم أصحابه ـ فيما سموه «البشارة الإسلامية الأحمديَّة» ـ أنَّ الله كلَّمه بجميع الطُّرق التي يُكلِّم بها أنبياءَهُ؛ لأنَّ الأنبياء في وصف النبوَّة سواء!!. ومع هذا الكفر البَواح يزعمون إفكاً وبهتاناً أنهم مسلمون!!!. وقد أهلك الله هذا القادياني بإسهالٍ شديد مُزْمِنٍ في سنة ١٣٢٦.

البابية والبهائية

ومنهم البابية، ثمَّ البهائية، أذناب مِرْزا علي محمدٍ الملقَّب بالباب، الذي ابتدع هذه النِّحلة ونَعَقَ بها سنة١٢٦٠ إلى أنْ أعدمته الحكومة الإيرانية في تبريز صَلَباً سنة ١٢٦٥، ثمَّ زعم أحدُ شِيعَته الملقَّب ببهاءِ الله، أنَّه الموعود الذي أخبر عنه الباب، وقبِلَ دعوتَه أكثرُ البابيِّين، وتسمَّوْا حينئذ بالبهائيين، وبقي البهاءُ بعكّا منفياً إلى أن هلك بها سنة ١٣٠٩، فتولَّى رياسة الطائفة ابنهُ عباسٌ الملقَّب عبد البهاء، فأخذ يدعو إلى هذه النِّحلة الضَّالَّة، ويتصرَّف فيها كما يشاء.

وقد زعم مِرْزا علي أنَّه رسولٌ من الله! ووضع كتاباً ادَّعى أنّ ما فيه شريعةٌ منزلة، وسمَّاه «البيان»، وقال في رسالة بعث بها إلى الشيخ الآلوسي صاحب التفسير المشهور «روح المعاني» دعاه إلى مذهبه الذي سمَّاه كذباً على الله: دين الله!! ثم زعم المسمَّى بهاء الله أنَّ رسالته هي لتأسيس السلام على الأرض!

ادَّعى الباب الرِّسالة، ثم زعم أنَّ شريعتَه ناسخةٌ للشريعة الإسلامية، ثم هَذَى بما انتحل لأتباعه أحكاماً لا وِجْهَةَ لها إلا هدم الإسلام من أساسه!!!

الاعتدال». (طه).

(١) مرزا: كلمة فارسية معناها الأمير، ولعلهم يريدون هنا الإمارة في الدين والرياسة فيه. ومعنى غلام أحمد: خادمه وتابعه. (طه).

ولم يكتفوا ـ خيَّبَهُمُ الله ـ بدعوى النبوَّة والرسالة، بل طفروا منها إلى ما طفر إليه بعض أئمتهم «الباطنيَّة» من قبل، فادّعَوْا حلولَ الإله في بعض زعمائهم، كما قال «القرامطة» بإلهيَّة محمد بن إسماعيل بن جعفر!!! وقد ظهرت دعوى الحلول جليَّةً في بعض مقالات البهائية[1].

معاول الهدم

ومهما يكن في هذه النِّحْلة الفاجرة من خَلْط واضْطِراب في دعوى النبوَّة والرسالة، ونسْخ الإسلام، أو توحيد الأديان تارةً، وفي دعوى الحلول والإلهيَّة، وتجلِّيها في بعض أشخاصهم تارةً أخرى، فإنَّ غرضها الذي تَرمي إليه هو هدم الإسلام بمَعاولَ تختلف باختلاف عدوٍّ الأنبياء من شياطين الإنس والجن في تقلُّبهم، وفيما يُوحي بعضُهم إلى بعض من زُخْرُف القول وغروره.

قال العلاّمة الآلوسي في «تفسيره»: «وقد ظهر في هذا العصر[2] عصابةٌ من غُلاة الشيعة، لقَّبوا أنفسهم بالبابيَّة، لهم في هذا الباب فصولٌ، يَحكم بكفر معتقدِها كلُّ من انتظم في سِلْك ذوي العقول، وقد كادَ يتمكَّن عِرقُهم في العراق، لولا همَّةُ واليه النجيب[3] الذي وقع على هِمَّتِه وديانته الاتِّفاق، حيث

---

(١) راجع مقال السيد الخَضِر في المجلد الأول من مجلة الأزهر (ص٣٥٥ ـ٣٧٠)، ثم راجع مَقَالي السيد محب الدين الخطيب في مجلَّد العام السابق (طه).

(٢) في ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠، الموافق ٢٣ أيار سنة ١٨٤٤ كما في «تاريخ العراق بين احتلالين» ٧: ٧٢، و«لمحات اجتماعيَّة من تاريخ العراق الحديث» ٢: ١٣٧.

(٣) هو محمد نجيب باشا، تولَّى منصب ولاية بغداد بعد علي رضا باشا في شعبان من سنة ١٢٥٨ إلى سنة ١٢٦٥، وتوفي في سنة ١٢٦٧ بإستانبول. تنظر ترجمته في «بغداد: خلفاؤها، ولاتها، ملوكها، رؤساؤها من عام ١٤٥ إلى عام ١٤٠٤» ص ٢٣٨ تأليف باقر أمين الوردي، وعن فترة تولي المترجم التاريخية ينظر «تاريخ العراق بين احتلالين» ٧: ٦٣ ـ ٨٤ تأليف عباس العزاوي، و«لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» ٢: ١١٢ ـ ١٥١ تأليف علي الوردي، كما أفادني بذلك الأخ البحَّاثة المؤرخ الأستاذ محمد بن عبد الله الرشيد جزاه الله خير الجزاء.

خَذَلهم، نَصَرَه الله تعالى، وشتَّت شملهم، وغَضِبَ عليهم ـ رضي الله تعالى عنه ـ وأفسد عملهم، فَجَزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه في الدارين ضَيْماً وضَيْراً»[١].

ونحن ندعو اللهَ جَلَّت قدرته بما دعا به الآلوسي، لأُولي الأمر من المسلمين جميعاً، أن يتعقَّبوا هؤلاء الأذناب المفسدين، بالسِّنان والبيان، حتى لايقع في شَرَكهم الضعفاء من الطَّغام.

وقد كفتنا مجلتُنا هذه ـ بارك الله عليها وعلى القائمين بها ـ مؤنة البسط في تلك النِّحلة وضلالها، بما كشفت من مخازيها، وحذَّرت من أباطيلها، وكتبت من مقالات أَضْحَت للمؤلفين مصدراً، وللباحثين مناراً[٢].

أفَّاك جديد

وقد يكون من الطريف أن نشير هنا إلى ما رَوَته الصُّحفُ أخيراً من ظهور أفَّاك جديد في شرق السودان، يُدعى «علي هياتي» ادَّعى النبوَّة في شراذم من الطَّغام أخذوا يلتفُّون حوله، وَخَشِيتَ الحكومة خَطَرَه على الأمن، فقرَّرت نفيَه إلى «حلفا»، فثار على هذا التصرُّف سكَّان الوادي خوفاً على معتقداتهم، وناشدوا ولاة الأمور أن يطردوه إلى مكانه الأول[٣].

---

(١) روح المعاني ١١ :٢١٩ عند تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

(٢) من محاسن الموافقات أن يكتب ببسط وإفاضة في نِحْلَتي البهائية أو القاديانية أو هما معاً، رؤساء تحرير هذه المجلة على التعاقب: فكتب أستاذنا الأجل السيد الخَضِر في البهائية في المجلد الأول، وفي القاديانية في المجلدين الثالث والرابع؛ وكتب الأستاذ وجدي في البهائية والقاديانية في المجلد الخامس، وكتب الأستاذ السيد محب الدين في البهائية في المجلد السادس والعشرين، عدا ما كتب كتَّاب آخرون في أجزاء شتَّى. (طه).

(٣) اقرأ أنباء الخرطوم في أهرام السبت ١٩٥٦/١/٧. (طه).

من أعلام نبوَّته ﷺ

إنَّ ظهور هؤلاء الأفَّاكين حيناً بعد حين، أعظمُ الدلائل على صدق خاتم النبيِّين، صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى أنَّ النبوَّة قد خُتمت به فلا نبيَّ بعده.

ذلك بأنهم يظهرون وبُرهانات الكذب تُحيطُ بهم، ثم تلبسهم، ويتَّخذ الناس منهم ـ حتى العامة ـ طريقاً للتندُّر والاستهزاء والسُّخرية.

لكن هذا لن يمنع أُولِي الأمر أن يضربوا على أيديهم دَرْءاً لما يُخشى من فتنتهم للبُلْه، والأَغرارِ من أشْباه الناس... ثم إعظاماً لمقام النبوَّة.

ورثة الأنبياء

وإذا كانت النبوَّة قد خُتمت بالخاتَم صلواتُ الله وسلامهُ عليه، فإنَّ ورثةَ الأنبياء من أُمَّته، قد وَرِثُوا عنه مقام البلاغ من بعده، فكان أعلى مَنْ بلَّغ عنه أصحابه رضي الله عنهم، ..... بلَّغوا جميعِ أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وسفره وحضره، وجهره وسرِّه، ثم التابعون لهم بإحسانٍ، ممَّن بشَّر النبيُّ ﷺ أمَّته بأنهم لايزالون قائمين على الحقِّ لايضرُّهم من خالفهم حتى يأتيَ أمر الله... فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك السائرون.

نزول عيسى عليه السلام

ولا يُعارض ختامَ نبوَّته ﷺ نزولُ عيسى عليه السلام في آخر الزمان من السماء، حَكَمَاً عدْلاً مُقْسطاً، يكسر الصليب ويقتل الخنزير؛ لأنه لاينزل بشرع جديد، وإنَّما يحكم بشريعة أخيه، وأَوْلى الناس به.

لا جَرَم أنَّ اتِّباع عيسى لأخيه محمد ـ عليهما صلوات الله وسلامه ـ تأييدٌ لنبوَّته، وتصديقٌ لدعوته، وتكريمٌ لخير أمَّةٍ أُخرجت للناس.

* * * * *

جَزَاء الصَّالحات *

- ١ -

٦ ـ عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أرأيتَ أشياءَ كنتُ أتحنَّث بها في الجاهلية، من صَدَقة أو عَتَاقةٍ أو صِلَة رحم[١]، فهل فيها من أجر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أسْلَمتَ على ما سَلَفَ من خير». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[٢].

٧ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ابنُ جُدْعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين» رواه مسلم[٣].

مسألة خطيرة ذاتُ شقَّين

يَزِلُّ كثيرٌ من الناس في مسألةٍ خطيرةٍ فرغ الإسلام منها، وبيَّنها في كتابه المبين، وعلى لسان نبيِّه الأمين، أوْفَى بيان.. تلك هي مثوبةُ غير المسلم على ما يتعبَّد به من قُربة، أو يصنعه من صَنيعة، أو يقدِّمه من الخير العام أو الخاص.

---

* مجلة الأزهر، العددان الثالث والرابع، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

(١) بيان لما كان يتحنَّث به، والتحنُّث: التعبُّد، ولا يخفى أنه كان تعبُّداً صورياً؛ لأن روح العبادة معرفة المعبود، ولا يعرف إلا بالإسلام (طه).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٦) في كتاب الزكاة، باب من تصدَّق في الشِّرك ثم أسلم، ومسلم (١٢٣) في الإيمان.

(٣) رواه مسلم (٢١٤).

والمسألة ذات شطرين : لأنَّ غير المسلم إذا مَرَنَ على فعل الخير[1] وأحبَّه، فقد يَمُنُّ الله عليه بالإسلام، ويوفِّقه لما كان يفعل من البرِّ، فيتعبَّد به في إسلامه، ويتقرَّب به لمن أسلم وَجْهَه إليه، كما منَّ على حكيم بن حزام رضوان الله عليه.

وقد تغلِب عليه شِـقْوتُه حتى يقضـيَ نحبه وهو محروم من النعمة الكبرى ـ التي لا تُذكر نعمة بجانبها، وإن عَظُمت ـ؛ نعمةِ الهداية إلى الإسلام والإخلاص للمنعم جلَّت آلاؤه.

وفي طليعة هؤلاء المحرومين المكذِّبين بيوم الدين، عبدُ الله بن جُدْعان القرشيُّ التَّميمي، واحدُ بني تَيْم ورِجَالاتها، وقريبُ أمِّ المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، وهذا سرُّ سؤالها عنه واستفتائِها رسول الله ﷺ في شأنه.

وإذا جمعنا بين هذين العظيمين في هذا الحديث ـ كما جَمَعَ الله بين السَّعادة والشقاوة، والنعيم والجحيم، في الذكر ـ فإنَّ من حقِّ قُرَّائنا أن نبيِّن لهم ـ في صدر هذا البحث ـ حكمَ الله ورسوله في مثوبتهما ومثوبةِ مَنْ سار على نهجهما، عسى أن يبيِّنوا للناس، فيتعلَّمَ جاهلٌ، أو يهتديَ حائرٌ، أو يثوبَ إلى رُشْده غاوٍ، ممَّن يتَّبعون الهوى، فيضلُّون عن سبيل الله، ويحكمون بغير ما أنزل الله، وكأنَّ بأيديهم مفاتيحَ الجنة، يفتحونها لِمَن حكموا له بالقَبول والفوز، وإن كان في كتاب الله شقياً؛ ويغلقونها في وجه من حكموا عليه بالحرمان والطرد، وإن كان في حكم الله سعيداً، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2].

خيار الناس

كان حكيمُ بن حزام بن خُوَيْلد ابن أخي أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله

(١) أي: تعوَّد على فعل الخير واستمرَّ عليه وألِفَه وتعوَّده.

(٢) اقتباس من الآية ٤٤ من سورة المائدة.

عليها، وفي الطليعة من أشراف قريش ووجوهها، في الجاهلية والإسلام، و«الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا»[١] كما في حديث الصحيحين.

مكانة حكيم قبل الإسلام وبعده

أدرك في الجاهلية ستين عاماً وفي الإسلام مثلها، وحَسْبه شرفاً أنه كان صديقاً للنبيِّ ﷺ قبل بعثته، وأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحبُّه ويودُّه، ويودُّ لو كان من السَّابقين الأوَّلين، وأنه فرح بإسلامه يوم الفتح فرحاً عظيماً، وقال ـ كما ثبت في السيرة والصحيح ـ: «من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن»[٢].

وكان من المؤَلَّفة قلوبهم الذين شهدوا غزوةَ حُنين، فأعطاهم الرسول الأكرم ـ ﷺ ـ عطاء مَنْ لا يخشى الفاقة!! حدَّث عن نفسه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثُمَّ سألته فأعطاني، ثمَّ سألته فأعطاني؛ ثم قال: «يا حكيم، إنَّ هذا المال خَضِرَةٌ حُلوة»، إلى أن قال: «واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»[٣]. وفي هذا الحديث أنه رضوان الله عليه لم يسأل أحداً من الناس حتى توفي، وأنَّ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما كانا يعرضان عليه العطاء مما يُفيء الله على المسلمين فيأبى أن يقبله، وفاءً بما عاهد رسول الله ﷺ ألا يَرْزأ أحداً بعده شيئاً

(١) الحديث لم يروه البخاري، وإنما رواه مسلم برقم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أورده الذهبي في «السير» ٣: ٤٨ من طريق حماد بن سلمة، عن هشام، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «مَنْ دخَل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار بُدَيْل بن وَرْقاء فهو آمن، ومن أغلق بابَهُ فهو آمن» ورجاله ثقات، لكنه مرسل. وقال الحافظ في «المطالب العالية» ١٧: ٤٦٢ أخرجه إسحاق بن راهويه، وهو حديث صحيح، وصحَّح إسناده أيضاً الصَّالحي في «سبل الهدى والرشاد» ٥: ٣٢٦. وانظر: ص٤٩٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

حتى يفارق الدنيا[١]...

تبرَّرَ حكيمٌ في جاهليته بكثير من جلائل الخيرات، وعظائم المكرمات، حتى انتظم في سِلْكِ السَّادة النُّجُب، الذين يَصِلون الرَّحِم، ويحملون الكَل، ويكسبون المعدوم، ويُقْرون الضَّيف، ويُعينون على نوائب الدهر، وسيِّدُهم ـ غير مدافع ـ هو سيِّد ولد آدم ﷺ، ـ ولنا الفخر بالعمل لا بالقول! ـ ثم سيِّد الصِّدِّيقين أبو بكر رضي الله عنه...

وكان من آثاره قبل أن يسلم أنه أعتق مئة رقبة من رَبْقة الأسر، وذُلِّ العبودية، وحمل على مئة بعير، أي تصدَّق بها كلها.

ثمَّ منَّ الله عليه بنعمة الإسلام، فأحسن إسلامه، وزاده الله حُسناً، فأتى صديقه الحميم الكريم صلوات الله عليه وسلامه، مُستفتياً فيما أسلف من هذا البر، فبشَّره الصَّادق المصْدوق ﷺ بحُسن جزائها، وكَرم قبولها، وأنه أسلم على ما قدَّم لنفسه من الخير. قال حكيم رضي الله عنه: قلت: فوالله لا أدع شيئاً صنعته في الجاهلية إلاَّ فعلت في الإسلام مثله[٢].

صدقه ما عاهد الله عليه

ولقد صَدَقَ حكيمٌ ما عاهد اللهَ عليه، فصنع بعد الإسلام كما صنع قبله، بل زاد عليه: جاء في «الصحيحين» أنه لمَّا أسلم حمل على مئة بعير وأعتق مئة رقبة[٣].

قال ابن عبد البر: حجَّ في الإسلام ومعه مئة بدنةٍ قد جلَّلها بالحِبَرة، وكفَّها

---

(١) بسطنا شرح هذا الحديث في الجزء الثاني من المجلَّد الثامن عشر (طه). انظر: اليد العليا خير من اليد السفلى ص٤٨٩ ـ ٤٩٥.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٣٨)، ومسلم (١٢٣).

عن أعجازها[١]، وأهداها، ووقف بمئة وَصيفٍ بعرفة، في أعناقهم أطواق الفضة، منقوش عليها: «عتقاء الله عن حكيم بن حزام» وأهدى ألف شاة.

وكانت بيده دار الندوة، فباعها من معاوية بمئة ألف درهم، فلامه عبد الله ابن الزبير، وقال له: بعتَ مكرمة قريش! فقال له: يا ابن أخي، ذهبت المكارم إلاَّ التقوى، اشتريت بها داراً في الجنة. وتصدَّق بالدراهم كلِّها!!!.

عِقْدٌ واسطته الإسلام

بَخٍ بَخٍ يا حكيم!!.

لقد نظمت عِقْداً من الخيرات الجسام، وبارك الله عليه إذ جعل واسطته الإسلام، فهل تظنَ أنَّ الله ينقصه بعد، وهو أكرم الأكرمين، وأرحم الأرحمين، وهو الذي يرزق مَنْ يشاء بغير حساب؟!.

* * * * *

(١) جَلَّلها: غطاها. والحِبَرة كعِنَبَة: البُرد الموشَّى، وضمير كفَّها المنصوب فيما يظهر يعود على الحِبَرة، محافظة على جمالها ونظافتها، وذلك مِنْ تعظيم الشعائر، وفي إبدائه الصدقات وإعلانه الشعائر، دعوة إلى الخير، وتحدُّثٌ بنعمة الله (طه).

جزاء الصَّالحات *

ـ ٢ ـ

حكم الإسلام في مَثُوبة غير المسلمين

بيَّنا قول الإسلام في مثوبة حكيم بن حزام رضوان الله عليه، ومثوبة كلٍّ منْ سار سيرَتَهُ، من الذين أنعم الله عليهم، فعملوا الصالحات قبل أن يؤْمنوا، ثم أنعم الله عليهم فعملوا الصالحات بعد أن آمنوا وأحسنوا، ثم زادهم الله حُسناً فجزاهم بما قدَّموا وأخَّروا، ولم ينقصهم من عملهم شيئاً.

ونبيِّن الآن قول الإسلام كذلك في عبد الله بن جُدْعان ونظرائه، ممَّن أعانوا على صنوفٍ من الخير، وأسهموا في ضروبٍ من المكارم، ولكن غلبت شقوتُهم، فجعلت بينهم وبين الإسلام سدّاً.

ابن جُدْعان في الجاهليَّة

كان عبد الله بن جُدعان من وجوه بني تَيْم، ورؤساء قريش، وكان قريباً لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان جَوَاداً كريماً، مُطْعِماً للطعام، وَصُولاً للأرحام، وكانت له جَفْنَةٌ يأكل منها القائم والراكب لِعظَمها، وربَّما يرقى إليها الطَّاعم في سُلَّم، ولو لم يكن من مفاخره إلاَّ حِلْف الفَضول لكفاه شرفاً. ونرجو أن نعرض لهذا الحلف في طائفة من حسنات غير المسلمين قريباً.

أهمَّ عائشة رضي الله عنها شأنَ ابنِ جُدعان، وما قدَّم في الجاهلية من

---

* مجلة الأزهر، العددان الخامس والسادس، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

مكارم، فسألت عنها من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، فأجابها: بأنَّ شيئاً مما عمل لا ينفعه؛ لأنه كان من المكذِّبين بيوم الدين.

التكذيب بيوم الدين

ومجرَّد الارتياب في يوم الدين، فَضْلاً عن التكذيب به، هدمٌ لركنٍ من أركان الملَّة الحنيفيَّة، التي بَعَث الله بها أبا الأنبياء خليلَه إبراهيم ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١].

بل إنَّ مجرد الارتياب في يوم الدين، فَضْلاً عن التكذيب به، هدمٌ للركن نفسه، ذلك الركنُ الأعظم الذي قامت عليه الأركان كلُّها، وبُنيت عليه الأديان السماويَّة والشرائع الإلهيَّة؛ ركنُ الإيمان بالله رب العالمين، وخالق السموات السبع والأرضين، وباعث النبيِّين إلى الناس مُبشِّرين ومُنذرين.

الإسلام دين الأنبياء كافة

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾[٢]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٣].

لا جَرَم أنَّ هذا الدين الحق، الذي لن يقبل الله ديناً غيره، هو دينُ الله الذي بعث به رسلَه إلى الناس أجمعين، من لدن آدم إلى خاتم النبيِّين، وهو الذي قال الله تعالى فيه:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ

---

(١) سورة البقرة: ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[١].

وقال فيه الرسول ﷺ، فيما رواه الشيخان: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي؛ والأنبياء أولاد عَلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[٢].

لا جرَم أنَّ هذا الدين الحق، دينُ الله تعالى، إيماناً حقاً صادقاً لا ريب فيه.

ومن الإيمان بالله: توحيده، وتنزيهه عن كلٍّ ما لا يليق به، واختصاصه بالكمال المطلق الذي لا ينبغي إلاَّ له.

الشك في أصل من أصول الإيمان كفر

فمن شكَّ في أصل من هذه الأصول جملةً أو تفصيلاً، فليس من ملَّة إبراهيم في شيء، وإنْ زَعَم أنه من أنصاره أو أنصار نبيٍّ من بنيه ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

إنَّ من شكَّ في أصل من أصول الإيمان ـ فَضْلاً عن أن يُكذِّب به، من الأوَّلين والآخرين ـ فمثله كمثل عبد الله بن جُدعان، لا ينفعه ما قدَّم من الصَّالحات ما لم يُسْلم وَجْهَهُ إلى الله ربِّ العالمين . . .

فإذا أسلم وجهَه إلى الله، فَمثَله كَمَثَل حَكيم بن حزام رضي الله عنه: أسلم على ما أسلف من الخير، فبدَّل الله سيِّئاتِه حسناتٍ، وكَتَب له مثوبَة ما قدَّم وما

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥). وقد شرحه المؤلف في «اجتماع الأنبياء على دين واحد» انظر: ص١٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ٦٨.

أخرٓ ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

شبهة من تلبيس إبليس

وهنا نكشف شبهةً لبَّس بها الشيطانُ وحزبُه على كثير من الناس، فَضَلُّوا عن سواء السبيل!! قالوا ـ أو قيل لهم ـ : إنَّ في مجرَّد الإيمان بالله واليوم الآخر منجاةً من عقاب الله ومدْعاة لثواب الله، ولو غفل العبدُ عن الإيمان ببقيَّة ما ذكرنا من الأصول!!!.

ضلالة أخرجتهم من الملَّة، وأخرجت معهم كلَّ مَنْ شايعهم عليها، أخرجتهم بالأدلة الصَّريحة القاطعة من الكتاب والسنة والإجماع الذي لا شِيَةَ فيه.

منشأ هذه الضلالة

منشأ هذه الضلالة أو التلبيس بها، أنهم يرون الكتاب العزيز، يَقْتصر أحياناً على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وأحياناً على ذكر الإيمان والعمل الصالح، حينما يعرض لذكر الأبرار المتَّقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويَجْهل هؤلاء الحمقى أو يتجاهلون أنَّ ذلك الإجمال القليل ـ الذي يتلوه في مواطن أخرى كثيرٌ من البيان والتفصيل ـ مِن أساليب الإعجاز في القرآن العربي المبين!.

وهم بهذه الضَّلالة يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ أو يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾[٢]، ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ

---

(١) اقتباس من الآية ٢٦١ من سورة البقرة.

(٢) اقتباس من الآية ١٥١ من سورة النساء.

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

أركان الإيمان مترابطة متماسكة

على أنَّ الإيمان الحق بأحد هذه الأصولَ يَسْتَتْبِعُ ـ ولا مَحَالة ـ الإيمان ببقيَّتها؛ لأنها مترابطةٌ متماسكة، ينتظم معنى كلٍّ أصلٍ منها على حِدة معاني الأصول الأخر.

ذلك، وقد بقي حديثٌ ثالث لا يتم «جزاء الصالحات» إلا به؛ فلنتمِّم به هذا البحث في غرَّة الشهر القادم إن شاء الله.

* * * * *

(١) اقتباس من الآية ٩٠ من سورة البقرة.

جزاء الصَّالحات *

قصَّة أبي طالب[١]

ـ ٣ ـ

٨ـعن العباس بن عبد المطَّلب رضي الله عنه قال للنبيِّ ﷺ: ما أغنيتَ عن عمِّك؟ فإنه كان يَحوطُك، ويغضبُ لك! قال: «هو في ضَحْضَاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار»[٢].

٩ـوعن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ وذُكر عنده عمُّه أبو طالب، فقال: «لعلَّه تَنْفَعُهُ شفاعتي يوم القيامة، فَيُجْعَلُ في ضَحْضَاح من النار يبلغُ كعبَيْهِ، يَغْلي منه دماغه!». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[٣].

المفردات:

حَاطَهُ يحوطُهُ حَوْطاً وحيَاطة: صَانه وحفظَه وذبَّ عنه، وتوفَّر على مصالحه.

والضَّحْضَاح: ما رقَّ من الماء على وَجْه الأرض إلى نحو الكعبين، واستُعير

---

* مجلة الأزهر، العددان ٧ و٨، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

(١) هذا عنوان أبي عبد الله البخاري لثلاثة أحاديث في كتاب المناقب: هذين الحديثين، وثالث بينهما في وفاته، سنستعين به في الشرح (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٣) في مناقب الأنصار، ومسلم (٢٠٩) في الإيمان.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٥) في مناقب الأنصار، ومسلم (٢١٠) في الإيمان.

هنا للنار. **والدَّرك**: قعر جهنم وطبقتها السُّفلى. وفتح الراء وإسكانها: قراءتان سبعيتان.

قصة عجيبة

لهذه القصَّة العجيبة صلةٌ أيُّ صلةٍ ببحثنا السابق «جزاء الصالحات»، نرجو من الله أن يجعلها عوناً لإتمام هذا البحث، كما نرجو أن ينفعنا بما فيها من عِبر وعظات!!.

أعمام النَّبيِّ ﷺ الذين أدركوا الإسلام

أدركَ الإسلام من أعمام النبيِّ ﷺ الاثني عشر أربعةٌ؛ استجاب له منهم سيِّد الشهداء، وأبو الخلفاء: حمزة، والعباس. ولكلٍّ منهما في الإسلام، ونُصرةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، بلاءٌ عظيم، ومقامٌ كريم. عليهما رضوان الله.

ولحكمة بالغة حقَّت كلمة العذاب على عَمَّيه: أبي طالب وأبي لَهَب، وإنْ كان البُعد بين عذابَيهما في دار القرار، كالبُعد بينهما في هذه الدار؛ وأين مَنْ كان يسبُّه ويَخْذله، ويُعاديه أشدَّ العداء، ممَّن كان يؤيِّده ويعاضدُه، ويُواليه أشدَّ الولاء؟!.

أبو طالب وعبد المطلب في قريش

كان أبو طالب عمّاً شقيقاً للنبيِّ ﷺ، وكان ـ على قلَّة ماله ـ كأبيه عبد المطَّلب، سيِّداً كريماً مَهيباً، مُطَاعاً في قومه محبَّباً؛ وكان إلى ذلك مُحبًّا لابن أخيه حُباً فاقَ كلَّ حُب، ومُؤْثِراً له إيثاراً فاق كلَّ إيثار، وإذا أعدَّ الله من اصْطَفَاه ليُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق، فإنه خليقٌ بمنتهى الحبِّ والإعجاب والإكبار.

عَرَفَ ذلك منه أبوه عبد المطَّلب، وكان كفيلَ النبيِّ ﷺ، ووليّ أمره. فلمَّا حضرته الوفاة، وقد أشرفَ الحفيدُ الحبيبُ على الثامنة من عمره، عهد بكفالته

إلى ابنه أبي طالب، ووصَّاه به حُسناً.

أعلى مثل للأبوة والبنوَّة في التاريخ

وأنفذ أبو طالب وصية أبيه بابن أخيه في كلِّ مرحلةٍ من مراحل حياته المباركة، وعامله أحسنَ معاملة تُرجى من أب حَفيٍّ سَرِيٍّ، لوحيده الزكي الوفي ... حتى إذا بلغ أشدَّه وبلغ أربعين سنة، وفضَّله الله بالنبوَّة الخاتمة، والرسالة إلى الناس عامة، لم يتخلَّ عنه ساعةً من ليل أو نهار، حين تخلَّى عنه الأقرباء، وناصبَه قومُه العداء، ووقفوا في سبيل دعوته عَقَبةً كأْداء؛ بل اشتدَّ ولاؤه له وَذِيادُه عنه.

وكان هو والعقيلة النبيلة، أمُّ المؤمنين وأوَّل المُصَدِّقين: خديجة بنت خويلد ـ عليها رضوان الله ـ وَزِيرَيْ صدق لدعوته، وردَائَي حقٍّ لرسالته.

عام الحزن

ويقضي الله الذي لا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّب لحكمه، أن يفقد النبيُّ ﷺ هذين الوزيرَيْن أحْوَجَ ما يكون إليهما، بعد أن قاما مُخْلِصَيْن بعبءٍ عظيم في كفاح الدعوة، وأبليا فيها بلاءً حسناً إلى أجلٍ مسمًّى. وتوفَّاهما الذي يتوفَّى الأنفس حين موتها، في شهرٍ واحد، بعد شقِّ الصحيفة الظالمة، وفكِّ الحصار الذي استمرَّ سنتين أو ثلاثاً، وكان أثراً من آثار الصِّراع بين الحق والباطل؛ وقبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات أو نحوها! فلا عَجَب أن يَعظُمَ حزنُه عليهما، وأن يُسمِّي سنة وفاتهما عامَ الحزن! وأن يستقبل بعدهما أهوالاً جساماً!!.

بذل قصارى جهده ﷺ في هداية عمه

وأشدُّ أسباب حزنه ـ فيما نعتقد ـ موتُ عمِّه أبي طالب على مِلَّة عبد المطَّلب، وكان يرجو كلَّ الرجاء أن يموتَ على مِلَّة إبراهيم حنيفاً؛ ذلك بأنه صلوات الله وسلامه عليه المثلُ الأعلى للإسلام في كلِّ ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، وفي مقدمتها: حفظ الجميل وحُسن الجزاء. وإذاً فلا مناص من أن

يَبْذُل قُصارى جهده في هداية عمِّه؛ ليكون معه في الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وفي ذلك قُرَّة عينه، ووفاءُ دَينه، وجزاء عمِّه، وأنعم به جزاء.

وفاةٌ يحضرها رسولُ الله وعدوُّ الله

وكان خاتمة ما بذل من جهد ما رواه الشيخان(١) وغيرهما، أنه ﷺ دخل عليه، وقد حضرته الوفاة، وعنده عدوُّ الله وفرعونُ هذه الأمة، ومعه عبد الله بن أُميَّة الذي أسلم في عام الفتح، فقال له:« أي عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله» فقال الشقيُّ البغيُّ أبو جهل: يا أبا طالب، أترغَبُ عن ملَّة عبد المطَّلب؟! فلم يَزَل رسول الله ﷺ يعرض عليه كلمةَ التوحيد، ولم يزالا يَعْرضان عليه تلك المقالة، حتى قال للنبيِّ ﷺ: يا ابن أخي، لولا السُّبَّة وأن تُعيِّرني قريشٌ بها لأقررت بها عَيْنُك، ثم كان آخر ما كلَّمهم به: هو على ملَّة عبد المطَّلب!! فقال صلوات الله وسلامه عليه: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك، فأُنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٢)، وأنزل فيه وفي غيره: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾(٣).

هدايتان:

ولا يعزب عَمَّن فقَّهه الله في الدين، أنَّ الهدايةَ التي نفاها عن نبيِّه هنا، غير الهداية التي أثبتها له في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

---

(١)أخرجه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

(٢) سورة القصص: ٥٦.

(٣) سورة التوبة: ١١٣.

(٤) سورة الشورى: ٥٢.

فالأُولى: هي الإلهام والتوفيق، والثانية: هي الدلالة والإرشاد لأقوم طريقٍ، وشتَّان ما بينهما.

المجادلة في الحق بعدما تبيَّن

ألا إنه لا يحلُّ لمن يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يزعم إيمانَ أبي طالب حقاً بعد هذه الأدلة، وإن كان يودُّ إيمانه خالصاً من قلبه، إقراراً لعين رسول الله ﷺ.. ولا حجَّة لمن يزعم إيمانه من الرافضة وغيرهم مُتمسِّكاً بما نُسب إليه من مدحه وثنائه وتصديقه بالنبيِّ ﷺ في مِثْلِ قوله:

وَدَعَوْتني وعلمتُ أنَّكَ صادقٌ ... ولقد صدقت فكنت قبلُ أمينا

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمَّدٍ ... من خيرِ أديان البريَّة دينا

فَقُصَارى ما في ذلك كلِّه أنه آمنَ بالرسول وحده، ولم يُؤْمن بربِّه الذي أرسله، وإذا كان إيمانه بالله دون الإيمان برسوله لا ينفعه، فكيف بإيمانه بالرسول وحده، وهو إيمانٌ دفعت إليه أواصرُ الرَّحم، ووليجةُ القربى؟!!.

فلا يهمنَّك «أسنى المطالب في نَجَاة أبي طالب»[1] بل اهتمَّ إن شئتَ بترجمته في «الإصابة» لابن حجر[2]، وحَسْبُكَ ما فيه مِنْ حُجَجٍ دوامغ!.

---

(١) هو للشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية بمكة المتوفى سنة ١٣٠٤رحمه الله تعالى، وكتابه هذا مستلٌ مِنْ كتاب السيد محمد بن رسول البرزنجي الشافعي المتوفى سنة ١١٠٣ رحمه الله تعالى، واسمه: «سَداد الدِّين وسِدادُ الدَّين في إثبات النجاة والدرجات للأبوين»ص٣٥٠_٤٠٦.

(٢) في القسم الرابع مِنْ باب الكنى ٧: ١٩٦ ـ ٢٠٣، ولا يستغرب ترجمة الحافظ ابن حجر له مع أنه ليس مِنَ الصحابة، لأنه ترجمه في القسم الرابع، وهو كما قال الحافظ ١: ٥٧١ : «فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهَم والغَلَط، وبيان ذلك البيان الظاهر الذي يعوَّل عليه، على طرائق أهل الحديث، ولم أذكر فيه إلا ما كان الوهَمُ فيه بيِّناً».

عظاتٌ وعبر

ألا وإنَّ خيراً من المجادلة في الحقِّ بعد ما تبيَّن، أن تتلمَّس وجوهَ العِظة والعبرة في هذا الصُّنع الإلهي، فلعلَّنا نجد فيه تفسيراً عملياً لقوله جلَّ سلطانه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(١)، وقوله تعالى شأنه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾(٢)، ثم قوله تباركت آلاؤه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣).

هذا إلى ما ذكره فقهاء السيرة النبوية وحكماؤها من الحِكَم الإلهيَّة البالغة، في مبادرة الأباعد إلى الإيمان به دون الأقارب، وأنَّ ذلك من أعلام نبوَّته ﷺ.

ولعلَّنا نقول ـ بعد ـ مقالة الذين نزع الله ما في صدورهم من غل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(٤).

ذلك، وللحديث بقية تأتي في موعدها إن شاء الله تعالى.

* * * * *

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٨.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٣) سورة الحجرات: ١٧.

(٤) سورة الأعراف: ٤٣.

جزاء الصَّالحات *

قصة أبي طالب

ـ ٤ ـ

لو لم يكن من شأنِ أبي طالب إلا أنه عمُّ النبيِّ ﷺ وكفيلُه، لكان بتلك العمومة الحميدة، والكفالة الرَّشيدة، جديراً باهتمام النبيِّ ﷺ وعنايته الكريمة ... فكيف إذا كان أبو طالب أوَّل الذين عزَّروه ونصروه وشدُّوا أزره، ودافعوا عنه وعن دعوته ما استطاعوا إلى الدفاع سبيلا..

ولو أنَّ أبا طالب وهو يُعزِّر النبيَّ ﷺ وينصره، اتَّبع النورَ الذي أُنزل معه ـ لكان في طليعة السَّابقين الأوَّلين، الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه، وأعدَّ لهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ولكن أضلَّه الله الذي يُضِلُّ مَنْ يشاء، ولو تربَّى في بيت النبوَّة والرسالة! ويهدي من يشاء، ولو نشأ في حِجْر الكفر والضلالة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

يأس الرسول ﷺ من هداية عمِّه أبي طالب

استيئس الرسول صلوات الله عليه من هداية أبي طالب بعد أمرين:

بعد أن عَرَض عليه كلمةَ التوحيد فردَّها أحوجَ ما يكون إليها، وكان آخر كلامه: هو على دين عبد المطَّلب؛ وبعد أن أنزل الله فيه قرآناً يُتلى: ﴿إِنَّكَ لَا

* مجلة الأزهر، العددان ٩ و١٠، المجلد السادس والعشرون (١٣٧٤).

(١) سورة الأنعام: ١٤٩.

تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[١].

يأسه ﷺ من الاستغفار له

ثم استَيْئَسَ صلوات الله وسلامه عليه من الاستغفار له، بعد أن أنزل الله فيه وفي غيره: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[٢].

شأنُ النبيِّ ﷺ مع عمِّه أبي طالب

هذا بعض شأنِ النبيِّ الكريم، ذي الخُلُقِ العظيم مع عمِّه أبي طالب!!.

أُمنيةٌ ملؤها الحنان والرحمة، أن يهديَهُ الله للإسلام، جزاءَ ما قدَّم له من أيادٍ جسَام، ثم عاطفةٌ يحدوها الألم والأمل، أن يغفرَ الله له، ويهبَه لنبيِّه أكرمِ الخلق عليه وأقربهم إليه ...

ثُمَّ رجاءٌ كريم، في ربٍّ رحيم، أن يشفِّعه فيه، فيخفِّف عنه عذابَ الخلود في جهنم!! لا بتقصير مَدَاه الذي لا ينتهي أبداً ... ولكن بأن يكون أهونَ أهل النار عذاباً يوم القيامة، وإنْ كان هو يرى أنه أشدُّهم عذاباً!!.

شفاعته ﷺ في عمِّه أبي طالب

وقد حدَّثنا النبيُّ ﷺ من طريق عمِّه العباس رضي الله عنه ـ لمَّا سأله عن أخيه أبي طالب ـ وعمَّا يرجو من الله له: أنَّ الله تعالى شفَّعه فيه، فجعله في هذا المقدار القليل من النار، ولولا هذه الشفاعة لكان في أسفلها دركاً، وأقصاها مدًى.

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سورة التوبة: ١١٣.

أبو طالب أهون أهل النار عذاباً

وتفسير ذلك ـ في الصِّحاح ـ أنه يوضع في أخمَص قدميه جَمْرتان أو نعلان من نار، يغلي منهما أمُّ دماغه كما يغلي المِرْجَل والقمقم، وفي رواية: يغلي المرجل بالقمقم[١].

وكأنَّ أبا طالب لمَّا زَحزح قدميه عن الدين القيِّم ـ ملَّة إبراهيم حنيفاً ـ وثبتَّها على مِلَّة عبد المطَّلب، ثبَّت الله قدميه في هذا الضَّحْضاح جزاءً وفاقاً ...

ولولا كلمةٌ سبَقَت من ربِّك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢] لَغُفر لأبي طالب شِركُه، تحقيقاً لأمنيةٍ طالما تمنَّاها النبيُّ ﷺ، وتمنَّاها أصحابه معه، إقراراً لعينه، ومكافأةً لصنيع عمِّه ...

على أنَّ استجابة الله تعالى لهذه الشفاعة النبويَّة الرحيمة ـ فوق أنها تكريمٌ للنَّبيِّ صلَوات الله وسلامه عليه، وفضيلةٌ له ولعمِّه خاصَّةً ـ هوَّنت عليه كثيراً ممَّا قاسى في هداية عمِّه!! ثم كانت أجلَّ وأعظمَ ممَّا قـدَّم أبو طالب ـ لدين الله ونبيِّه ـ من صنيعة ...

مكرُمةٌ لأبي لهب

ومما يتَّصل بهذا، إكرام الله لنبيِّه بتخفيف عذاب القبر كل ليلة اثنين عن

---

(١) **أخمص القدم**: باطنها، **والمرجل**: إناءٌ يغلي فيه الماء وغيره، **والقمقم**: إناء ضيِّق الرأس يُسَخَّن فيه الماء، وقيل: هو البسر، كانوا يغلونه استعجالاً لنضجه. والتفسير الأخير ملائم للرواية الأخيرة. ذلك، ومن عجائب الاتفاق ما أشار إليه صاحب «الفتح» من أن اللَّذَيْن لم يُسلما من أعمامه ﷺ: أبو طالب واسمه عبد مناف، وبينه وبين أسماء المسلمين جفوة وتناف. وأشدُّ منه جفوة وتنافياً أبو لهب واسمه عبد العزَّى! ولا جفوة في حمزة والعباس رضوان الله عليهما (طه).

(٢) سورة النساء: ٤٨.

عمِّه أبي لهب، وكان من أعدائه، وأشدِّهم في مُناوأته وإيذائه!! وذلك بأنه أعتق جاريته ثُوَيبة حين بشَّرته بولادته، قالت له: أشَعرتَ أنَّ آمنة ولدت لأخيك عبد الله غلاماً؟ فقال لها: اذهبي فأنت حرَّة ...

وقد صحَّ أنَّ أخاه العباس رآه في المنام بعد سنةٍ من وفاته، وكانت بعد وقعة بدر، فقال له: ما حالك؟ قال: في النار بشرِّ حال ـ أو ـ بشرِّ حِيبة[1] إلا أنه خفَّف عني كل ليلة اثنين أمصُّ من بين إصبعي هاتين ماءً، وأشار إلى النُّقرة التي تحت إبهامه[2].

أداء الله عزَّ وجل عن نبيِّه ﷺ

وكذلك يريد الله ألاَّ يجعلَ لأحدٍ دَيْناً في عُنق نبيِّه من مِنَّة أو صنيعةٍ إلا كافأه بها، ولو بَدَتْ منه عفواً غير مقصودة ...

أليس الذي يَجْزي أعداءَ نبيِّه أحسنَ مما قدَّموا له من صنيعة، بقادر على أن يجزيَ أحبَّاءَه أضعافاً مضاعفة، وهم الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه، واتَّبعُوا النُّور الذي أُنزل معه؟! بلى، إنهم جُدراء بأن يُضاعف جزاءهم ويؤتيهم من لدنه أجراً عظيماً.

* * * * *

(١) بالحاء المكسورة أو الخاء المفتوحة.

(٢) رواه البخاري (٥١٠١) في النكاح، ولفظه من حديث طويل، قال عروة ـ أحد رواة الحديث ـ : وثُوَيْبَة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقَها، فأرضعت النبيَّ ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله بشرِّ حيبةٍ قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لَمْ ألقَ بعدكم غير أني سُقيتُ في هذه بعتاقتي ثُوَيْبَة.

بلوغ الدَّعوة المحمديَّة *

١٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لايَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحابِ النار». رواه مسلم[١].

عموم الدعوة المحمدية وخلودها

ممَّا اختصَّ اللهُ به نبيَّنا محمداً ﷺ أن بعثه إلى الناس عامّةً، وكان كلُّ نبيٍّ يُبعث إلى قومه خاصَّةً، ومن هنا كانت تتجدَّد الرِّسالات وتتعاقَب، بتجدُّد الأجيال وتعاقُب الأمم، وربَّما يُبعث في العصر الواحد أكثرُ من رسول واحد. وأما رسالة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهي خاتمة الرسالات، وشريعتُه خاتمة الشرائع، ودعوتُه عامَّةٌ شاملةٌ باقيةٌ إلى يوم النشور.

أمة الدعوة والإجابة

وإذاً فالناس من أوَّل يومٍ بُعِثَ فيه صلوات الله عليه وسلامه، مَدْعوون بدعوته، مأمورون بشريعته.

فأما مَنْ بلغته منهم هذه الدعوة ـ في حياته ﷺ أو بعدها ـ فَسَكَنَ إليها واستجاب لها، فهو من أُمَّة الدعوة والإجابة معاً؛ وأما مَنْ أباها وأعرض عنها، فقد دُحِضَتْ حُجَّتُهُ، وسقطت معذرته، وحقَّت عليه كلمة العذاب، فكان من أصحابَ النار وبئسَ القرار.

---

* مجلة الأزهر، العددان ١٧ و١٨، المجلد السادس والعشرون سنة (١٣٧٤).

(١) رواه مسلم ١: ١٣٤ (١٥٣).

معذرة من لم تبلغه الدعوة

وأمَّا مَنْ لم يسمع به ﷺ قط، ولم تبلغه دعوته ـ كائناً ما كان الحائل بينه وبين هذه الدعوة ـ فهذا معذرته معه، ويشهد ببراءته ومعذرته النبيُّ ﷺ نفسه في حديثه هذا، بل يشهد ببراءته ونجاته ربُّه عزَّوجل إذ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] ، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[2].

ففي الآية الأولى شهادةٌ منه عزَّ وجل بأنه لايُعذِّب أحداً من عباده إلا بعد إقامة الحُجَّة عليه، بإرسال رسولٍ إليه، كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[3] وتأويل الرسول بالعقل، ممَّا يأباه، بل ينفر منه العقل والنقل!!

وفي الآية الثانية شهادةٌ منه سبحانه ـ وهو أكبرُ شيءٍ شهادة ـ بنبوَّة مَنْ أُوحيَ إليه هذا القرآن ليُنذرَ به قريشاً وسائر مَنْ بلغه القرآن وسمع به. فأما مَنْ لم يبلغه القرآن ولم يسمع به، فليس من المُنْذَرين، وعذره ـ كما قلنا ـ معه.

سرُّ تقديم قريش بالإنذار

وتقديم قريش في الخطاب والإنذار والإعذار، من الأمور الطبيعية البدهية؛ لأنهم ـ على اختلاف درجاتهم ـ أقربُ الناس إليه، وأولى الناس به؛ أهله وعشيرته، وهم أعرف الناس بسيرته؛ بِلُغَتِهم نَزَل القرآن، وبين ظهرانيهم نَشَأَ وتربَّى عليه الصَّلاة والسلام؛ فلم يكن عَجَباً أن يبدأهم بالإنذار، ثم يُقَفِّي بغيرهم من أهل القُرى والأمصار. بل العَجَب كل العجب أن يكون الأمر على غير ذلك!.

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٩.

(٣) سورة النساء: ١٦٥

غير ذلك!.

من أصول الإسلام

فرسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى النَّاس كافَّة، وخلود شريعته إلى يوم الخلود، ووجوب تبليغها، إلى ذلك اليوم الموعود. كلٌ أولئك من أصول الإسلام الأولى، التي لايسع مؤمناً بالله واليوم الآخر أدنى تردُّد فيها.

مَنْ عَرَف الحقَّ واهتدى به

عرف هذا الحق واهتدى به مَنْ شرح الله صدره للإسلام، فهو على نورٍ من ربِّه.

وَعَرَفَ هذا الحق واهتدى به فريقٌ من أهل الكتاب وعلمائهم، كعبد الله بن سَلاَم، وكان من أحبار اليهود، وتميم الداري، وكان من رهبان النَّصارى، حتى ليُؤْثَرَ عن عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه، أنه لمَّا أسلم، قال له عمر رضي الله عنه: أتعرفُ محمداً كما تعرف ابنك؟! قال: نعم وأكثر، بعث الله أمينَهُ في سمائه إلى أمينِهِ في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمِّه!.

ويُروى أنَّ الفاروق رضي الله عنه قبَّل رأسه حين سمع منه ذلك. وكأنَّه رضي الله عنه ـ وقد فرح بعلم عبد الله وإيمانه ـ كان أشدَّ فرحاً بصدق قول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

كاتمو الحق وهم يعلمون

وكأنِّي بالرسول ﷺ ـ وهو يُحدِّث بحديثه هذا ـ يقْصد أول ما يقْصد إلى هؤلاء الجاحدين الذين يكتمونَ الحقَّ وهم يعلمون! سواءٌ منهم مَنْ جَحَد

---

(١) سورة البقرة: ١٤٦.

رسالتَه جملةً وتفصيلاً، ومَنْ جَحَد عمومها إلى الناس كافة، وزعم أنه رسول الله إلى العرب خاصَّة؛ لأنه نبيٌّ أُميٌّ، والعربُ قومٌ أميُّون! وقد قال هو في نفسه: «نحنُ أُمَّةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب..»[(1)] فاتَّخذ بهذا الزعم الضالِّ المضلِّ الكاذب المنافق ـ طريقاً وسطاً ـ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ـ وآمن ببعض الكتاب، وكَفَر ببعضه، وضلَّ ضلالاً بعيداً!!

صَيْحة مُدَوِّية

يَقْصد الرسول ﷺ أوَّل ما يقْصد إلى هؤلاء الحاسدين الجاحدين، فيُرسلها صيحةً عالية مُدوِّية، مُقْسماً بالقاهر فَوْقَ عباده، القائم على كلِّ نفس بما كَسَبَتْ، مَنْ بيده نفسُه وأَنفُس العباد جميعاً: إنه لا يسمع نداءه كائنٌ من أمة الدعوة إلى يومِ الفَزَع الأكبر، ثمَّ يموت غيرَ مُجيبٍ له، إلاَّ كان من أهل النار خالداً مخلَّداً فيها أبداً.

وإذا كان أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى لم يُغْن عنهم كتابهم من الله شيئاً، بعد رسالة خاتم النبيين صلواتُ الله وسلامه عليهم، فإنَّ مَنْ عداهم ـ ممَّن ليسوا بأهل كتاب ـ أَوْلى بأن يُؤمنوا به، ويُعزِّروه وينصروه، ويتَّبعوا النُّور الذي أُنزل معه، ويستمعوا له وهو يتلو عليهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(2)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) ولفظه في البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّا أُمَّة أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا» يعني مرةً تسعةً وعشرين، ومرة ثلاثين. وانظر شرحه ص٣٣٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٨.

ما آمن بالله من لم يؤمن برسوله ﷺ

ولسنا بعد بيان الله ورسوله بحاجةٍ إلى أن نعيد ماقلناه في مناسبات عدَّة: إنه لن يؤمن بالله مَنْ لم يؤمن برسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وإنه لن ينفعه عند الله، ولن يُنجيَه من عذابه ما قدَّم لهذه الإنسانية من حَسَناتٍ شتَّى. وكيف، وأساس القبول أن يعرف العامل مَنْ عمل عملُه لأجله؟! ولن يعرفه إلاَّ مِن طريق رسوله الذي أرسله داعياً إليه بإذنه[١].

ولو أنَّ عملاً ينجي من عذاب الله أحداً غير مؤمن، لكان عمُّه ـ الذي أسلفنا من حَسَناته الجسام ما أسلفنا ـ أَوْلَى بذلك وأحْرى، وإنَّ يوماً من أيامه في الشِّعب مع ابن أخيه لأرْجَح وزناً، وأكبر شأناً ممَّا قدَّم هؤلاء الكاشفون، والمخترعون للناس في حياتهم الدنيا[٢].

وحَسْبهم أنَّ الله يُعجِّل لهم في هذه العَاجِلَة ثواب ما قدَّموا للناس فيها، جزاءً وفاقاً.

ولا حَرَج على فَضْله تعالى أن يُخَفِّف عنهم من عذاب الجحيم شيئاً، وإنْ كانوا خالدين فيه أبداً.

مَنْ بلغتهم الدعوة الإسلامية محرَّفة

بقي مَنْ بلغتهم الدعوة المحمديَّة مُشوَّهةً بالأباطيل والمفتريات، وكثيرٌ ما هم، والظاهر ـ كما قال جمعٌ من الفضلاء المعاصرين[٣] ـ أنَّ هؤلاء في حكم مَنْ لم تبلغهم الدعوة، اللهمَّ إلا أن تلوح لبعضهم شمسُ الحقيقة من خلال سُحُب الكتمان والتلبيس، ثم يَعمى عنها، ويُعرض عن النظر فيها مع قدرته

---

(١) انظر: جزاء الصالحات ص١٥٦ ـ ١٦٠.

(٢) انظر: جزاء الصالحات، قصة أبي طالب ص١٦٣ ـ ١٦٦.

(٣) منهم أستاذنا الكبير محمد عبد الله دراز في كتابه: «المختار من تيسير الوصول» [١٩٠] وقد انتفعنا به في شرح هذا الحديث (طه).

على ذلك، فإنَّما إثمه على نفسه.

مسؤولية الأمة الإسلامية في تبليغ الدعوة

وهذا لايعفي الأمة الإسلامية ـ ولا سيَّما أُولي الأمر منها ـ منْ تَبعَةِ المؤَاخَذَة والتقصير في تبليغ الدعوة المحمديَّة، ما استطاعت إلى التبليغ سبيلاً.

ضَيْعةُ الحقِّ بين الغفلة والجهالة

والعَجَب أنا لانغار على دعوتنا وهي دعوة الحق، معشار ما نرى ونسمع من نشاط الذين يُسمُّون أنفسَهم بالمبشِّرين، وينفقون في محاربة دعوتنا كلَّ عام مئات الملايين!! فيا ضَيْعَة الحقِّ بين الغفلة والجهالة!!

صلة الحديث ببحث جزاء الصالحات

أما بعد، فلهذا الحديث صلةٌ وثيقةٌ ببحث «جزاء الصالحات»، كما له صلة وثيقة كذلك بالبحث في «أهل الفترة»، وكنَّا وعدنا القرَّاء بأن نتحدَّث إليهم فيها، إجابةً لرغباتٍ جاءتنا من العراق. غير أنَّا وجدنا مَنْ سبقنا إلى الإفاضة في هذا البحث، قديماً وحديثاً، ممَّا يجعل كلامنا بعده حديثاً معاداً.

إحالة إلى مراجع

فإلى هؤلاء الذين رغبوا مُلحِّين أن نتكلَّم في أهل الفترة عامة، وأبوي النبيِّ ﷺ خاصَّة ـ نسوقُ هذه المراجع السهلة اليسيرة:

«روح المعاني» للعلامة الآلوسي العراقي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(١).

مجلة الأزهر في مجلدها الثامن ص ٦٠٦ في «الدعوة إلى الله تعالى وأهل

---

(١) ١٠: ٣٥ ـ ٤١.

الفترة» للأستاذ الجزيري، مُحَرِّرِ السُّنَّة حينئذ[١].

مجلة «لواء الإسلام» في جزئها الأول ـ جزء رمضان المبارك ـ من عامنا هذا، وقد تناولت في ندوتها بحثاً ـ في الدعوة والفترة ـ مستفيضاً[٢].

أما نحن، فقد اكتفينا إذْ كُفينا. والسَّلام على مَن اتَّبع الهُدى، ومَنْ إذا خاطبهم الجاهلون، قالوا: سلاماً.

* * * * *

---

(١) وستنشر ـ بعون الله تعالى ـ بعنايتي في مجموع الأحاديث المشروحة في مجلة الأزهر، والتي تتضمَّن ماكتبه الأساتذة: حسن منصور، وإبراهيم الجبالي، وعبد الرحمن الجزيري، وفكري ياسين رحمهم الله تعالى.

(٢) قمت بجمع وترتيب وَصَفِّ جميع الندوات في مجلة «لواء الإسلام»، وانتهيت من تصحيحها والتعليق عليها، وستصدر بعون الله تعالى وفضله بعنايتي في عدَّة مجلدات.

عمل المرء لنفسه*

١١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقولُ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يتبع الميِّت ثلاثةٌ، فيرجع اثنانِ ويبقى واحد: يتبعه أهلُهُ ومالُهُ وعملُهُ، فيرجع أهلهُ ومالهُ، ويبقى عملُه». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١].

حرص الرسول ﷺ على أمته

من حرص الرسول ﷺ على أمته، ومن آثار رأفته بهم ورحمته، أنه لا يألوهم نُصحاً، ولا يدَّخر عنهم وسعاً، في كلِّ ما يسوق لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً، أو يبقى لهم ذُخراً، في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى.

أبقى الأصحاب وأكرمهم

وفي هذا الحديث المُوجَز الجامع، يهيب بأمته صلوات الله وسلامه عليه، ويدعو كلَّ فرد منها أبلغ دعوةٍ وأجمعَها، أن يَصْطفيَ أنيسه في وحشته، وجليسَه في وحدته، وطائرَه في عُنُقه، يوم يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٢].

لقد حذَّرنا صلوات الله عليه وسلامه الجليسَ السُّوء، ورغَّبنا في الجليس

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، من المجلد الثلاثون، سنة (١٣٧٨).

(١) ولا يختلف عن لفظ مسلم إلا في زيادة «معه» وماضي المضارعين: تبع ـ كعلم ـ أو اتبَّع، بتشديد التاء. رواه البخاري في باب «سكرات الموت» ١١ :٣٦٢ من «كتاب الرقاق» (٦٥١٤)، ورواه مسلم ٤: ٢٢٧٣ في أول كتاب «الزهد» (٢٩٦٠) (طه).

(٢) سورة الإسراء: ١٤.

الصالح، وأخبرنا أنَّ المرء على دين خليله؛ لينظر كلّ من يخالل، وليس أحدٌ منهم بالمقيم معنا أو الباقي في دار الفناء.

لا جَرَم أنَّ دعوته ﷺ، إلى اختيار الصَّاحب الباقي في دار البقاء أجلّ وألزم، وهل للمرء صاحبٌ أبقى وأدْوَم، وآنسُ وأكرم، من العمل الصَّالح الذي ليس له فيه من نعمةٍ تُجزى، إلاَّ ابتغاء وجه ربّه الأعلى؟.

إنَّ هذا العمل الخالص المُصَفَّى، رائدٌ في حياته، وبشيرُه بعد مماته، ونورُه الذي يمشي به في الدنيا، ويسعى به في الآخرة.

متى يكون العمل صالحاً؟

ولا يكون العمل خالصاً مُصَفّى، مُبْتغىً به وجه الله عز وجل، إلا إذا كان تابعاً للعلم المأثور، مُصاحباً للإيمان الخالص، بريئاً من النفاق والغش.

فأما العمل الصادر عن جَهَالة أو هوى، أو عن رياء وسمعة فلا خير في صحبته، ولا وزن له عند مَنْ يضع الموازين القسط ليوم القيامة، ويعلم السرَّ وأخفى، ومَنْ هو أغنى الشركاء عن الشِّرك؛ بل إنَّ هذا العمل نكالٌ لصاحبه ووبالٌ عليه، وأشد الأصحاب خذلاناً له!!.

وأضلّ من هذا العمل ضلالاً، وأبعد منه وبالاً ونكالاً، عمل من يفرّقون بين الله ورسله، ولا يؤمنون حقَّ الإيمان بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم، وبكلٍ ما جاء به.

ومحَالٌ أن يجزيَ الله في اليوم الآخر مَنْ لا يؤمن باليوم الآخر، ومن كذب بما أُرسل به رسله، وبما أنزل به كتبه ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[1].

(١) اقتباس من الآيتين ٢٥و ٢٦ من سورة النبأ.

فأما ما قدَّموه من خير في دنياهم فقد عجَّل لهم جزاءه فيها؛ وأما أُخراهم، فلا مقال لأحدٍ بعد قوله سبحانه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1].

هدي الرسول وأصحابه

وربَّما ظنَّ قريبُ النظر أنَّ هذا الحديث يدعو إلى ترك الدنيا وعدم السَّعي فيها، وإلى الزهد بالطيِّبات وعدم التمتُّع بها، وإلى الاشتغال بالعبادة والعكوف عليها، وربَّما أيَّد ظنَّه هذا بأنَّ الحديثَ مَرويٌّ في أبواب الزهد والرقائق.

ولكن ذلك نظر قاصر، يحصر الحديثَ في أَضْيق حدوده، ويجافي هديَ الرسول وصحابته، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ينهى عن الرهبانية في الإسلام، ويأكل الطيِّبات ويجيب الدعوة إليها، ويدعو إلى الشكر عليها، ويقول فيما رواه الإمام أحمد: «نِعْمَ المالُ الصَّالح للرجل الصَّالح»[2].

وكان أصحابه بعد أن فتح الله عليهم يملكون هذه الدنيا ولا يصدُّون عنها؛ بل كان منهم ـ في عهد النبوة ـ الأغنياء الأثرياء، والتجار الأوفياء، الذين قال الله فيهم: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[3].

بَيْد أنهم كانوا يملكون الدنيا ولا تملكهم، ويهبونها لله ولا تحزنهم، ويتوسَّلون بها إلى الله ولا تفتنهم، وأولئك سادة الزهَّاد، وهداة العبَّاد، إلى

---

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤: ١٩٧ (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، والطبراني في الأوسط (٣٢١٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم. انظر: «المسند» ٢٩: ٢٩٨ بتحقيق الأرناؤوط وآخرين.

(٣) سورة النور: ٣٧.

عِمَارة الدنيا الصَّالحة، والتجارة الرابحة، والملك الرشيد.

تسخير الدنيا واتخاذها وسيلة إلى الخير

على أنَّ من أعظم العبادات، وأجلِّ القُربات، تسخير هذه الدنيا واتخاذها وسيلة، إلى الخير والبر، وذخيرة من صالح الأعمال.

وفي هذا التَّسخير على الوجه الذي يرضاه الله سبحانه، شكرٌ للشاكرين، وتعليمٌ للجاحدين، بأنَّ أحقَّ الناس بخلافة الأرض وعمارتها والتمكين منها، هم العاملون الصالحون.

الحرص على العمل الصالح

وإذا كان عملُ العبد يصحبه ويبقى معه حتى يلقى ربَّه عزَّ وجل، يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوه، على حين يفارقه أهله وماله، أشدّ ما يكون محتاجاً إليهم! فما أجدره إذاً أن يحرص على صاحبه الذي لا يغني عنه أهل ولا مال، حِرْصَه على نفسه التي لا يجدُ منها بديلاً ولا عوضاً!.

وجهٌ يبشِّر بالخير

ومن هنا يتبيَّن أن الحديث لا يألو جهداً في الدعوة إلى العمل النقيِّ الخالص، الذي يتمثَّل لصاحبه في القبر رجلاً حسن الوجه، حسنَ الثياب، طيِّبَ الريح، فيقول: «أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومُك الذي كنت تُوعد، فيقول له: مَنْ أنت؟ فوجْهُك الوَجْهُ الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح...». في حديث طويل رواه الإمام أحمد[١].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٤ : ٢٨٧ (١٨٥٣٤)، والبيهقي في «الشُّعب» (٣٩٥).

قال البيهقي في «الشعب»: هذا حديث صحيح الإسناد. وقال ابن منده: هذا إسناد متَّصل مشهور، رواه جماعة عن البراء، انظر: التعليق على «المسند» طبعة مؤسسة الرسالة.

فلْينظر المرء ـ وهو في سَعَةٍ من أمره ـ كيف يعدُّ جليسه في رَوْضتِهِ إنْ شاء، أو في حفرته؟!.

واتّباع الأهل والمال للموتى أمرٌ أغلبيٌّ، فرُبَّ ميِّت لا مالَ له ولا أهل، وقد يكون له أهل ولا يمكَّنون من اتِّباعه وتأدية حقِّه!.

والاتِّباع هنا يشمل الحسيَّ والمعنويَّ، والمراد: أنَّ كلاً من هؤلاء الثلاثة يتعلَّق بالميِّت على وجوهٍ شتَّى، ثم ينفضُّ عنه المال والأهل، ويلزمه العمل.

أكمل الهَدْي في تشييع الميت

ويشير الحديث إلى حقٍّ من حقوق الميِّت، وهو: تشييعه وتوديعه. والسنة لمن اتَّبع الجنازة إن كان راكباً أن يكون وراء المشيِّعين جميعاً، وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها؛ خلفها أو أمامها عن يمينها أو عن شمالها، وأكمل الهَدْي وأفضله أن يشيِّع أخاه إلى قبره ماشياً أمامه؛ لأنه بمنزلة الشفيع له.. وتلك سنة النبيِّ ﷺ وسنة خلفائه الراشدين من بعده.

أما بعد، فهذا حديثٌ في عمل المرء لنفسه وتقديمه لحياته قبل رَمْسه، يتصَّل به حديث آخر في عمل المرء لغيره، رغبةً في نفعه وبره. وموعدنا الجزء القادم بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

* * * * *

عمل المرء لغيره *

١٢ـعن أبي هُريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا مات الإنسانُ انقطع عمله إلاّ من ثلاثةٍ : إلاَّ من صدقةٍ جاريةٍ ، أو علم يُنتفع به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له». رواه مسلم[١].

مثوبة الله تعالى لعبده على عمل غيره

كَثُر الجَدل قديماً وحديثاً ـ ولا يزال قائماً ـ في مثوبة الله تعالى وجزائه لعبده على عمل غيره.. فرَجَوْنا من الله أن يهديَنا سبيل الرَّشاد ، حتى نَخْلُصَ إلى الحقِّ من بين هذه المعركة الثائرة ، وأن يشرحَ بالحقِّ صدوراً لا تزال بالجدل ضائقة حائرة ، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[٢].

صلاح العمل عند الله

لا جِدَال في أنّ من أصول الإسلام البيِّنة ، ألاَّ يُقبلَ عند الله عملٌ غير

* مجلة الأزهر ، العدد الثامن ، المجلد الثلاثون (١٣٧٨ = ١٩٥٩).

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) في كتاب الوصية بهذا اللفظ ليس غير. وهو الذي ذكره ابن القيم في كتابه «الروح» [ص٢٩٨] لكن بلفظ «ثلاث» من غير هاء ، ورفعه النووي في شرحه لمقدمة مسلم [١ :٦٠] بلفظ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية... إلخ» ، ومن الغريب أن ينسبه صاحب «كشف الخفاء» [١ :٩٩] إلى أبي داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) ، والنسائي (٣٦٥١) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨) ، ويترك «مسلماً» ، ولعله سهوٌ منه أو من الناسخ ، ومن الخطأ نسبته إلى الشيخين ، أو إلى البخاري وحده ؛ فإنه لم يخرِّجه في «صحيحه» ، وهو المراد عند الإطلاق (طه).

(٢) اقتباس من الآية ٤ من سورة الأحزاب.

صالح، سواء أعمله المرء لنفسه، وهو ما قدَّمنا الحديث عنه في الجزء الأسبق؛ أم عمله المرء لغيره، وهو ما نعرض له في هذا الحديث؛ ولا جدال كذلك، في أنّ صلاح العمل عند الله سبحانه، إنما هو ببنائه على العلم المأثور، وخلوصِه من الشِّرك أكبرِه وأصغَرِه، حتى لا يبتغيَ به عاملُه إلاّ وَجْهَ ربِّه الأعلى.

ومن الأوَّليَّات التي يعرفُها كلُّ مسلم أنَّ الإسلام بُني على الإيمان والعمل، والتعاون على البرِّ والتقوى.

الأعمال أصناف ثلاثة

ومما يجب التنبيه عليه في هذه المقدمة ـ إحقاقاً للحق وإيضاحاً له ـ أنَّ عمل العبد قد ينتهي بانتهاء أجله، وقد يمتد إلى أمدٍ ـ قريب أو بعيد ـ بعد أجله، وربَّما كان عظيماً خالداً لا ينقطع أثره. وقد يكون المرء سبباً في عملٍ غيره له، فينسب إليه كأنه عمله، ويلحقُه ثوابه وأجره من غير أن ينقص شيءٌ من أجر العامل نفسه؛ ومن هنا كان الدالّ على الخير كفاعله.. وإذاً فالأعمال أصناف ثلاثة:

١ـ **عمل المرء لنفسه**؛ كسباً، وسعياً، وتحصيلاً من طريق متَّصل مباشرة، لا وَسَاطة فيه ولا سبب، كصلاتِهِ وصيامِهِ وحَجِّه، وسائر أعماله البارَّة التي تنتهي بموته، أو يمتدُّ أثرها بعده إلى ما شاء الله لها أن تمتدَّ، مُسَجَّلَةً في صحيفته، كعلمه النافع، وتأليفه الراشد، وحَبْسه الخير على أهله.

٢ـ **وعملٌ لم يعمله المرء لنفسه، ولكنه كان سبباً فيه، أو داعياً له ودالاً عليه**، ولولاه ما نَبَتَ هذا العمل ولا أثمر، كَمَنْ أنقذ كافراً، أو أرشد حائراً، أو هدى ضالاًّ، أو علَّم جاهلاً، أو دَعَا إلى الرُّشد حاكماً، أو ردَّ إلى العدل ظالماً.. لا جَرَمَ أنَّ له أعمالاً مباشرةً متَّصلة، هي الإنقاذ والإرشاد والهداية والتعليم والدعوة والرد، وله وراءها أجورُ آثارها الحَسَنة؛ إذ كان سبباً فيها،

ولولاه لهدمها الكفر وما بعده.

٣ـ وعملٌ لم يعمله المرء ولم يكن له فيه سعيٌ ولا سبب، اللهم إلا السبب العام، وهو الإيمان بالله وبما جاء به خاتمُ النبيين صلوات الله وسلامه عليهم.

انتفاع المؤمن بعمله وبما كان سبباً فيه بعد موته

والحديثُ شَاهدُ عَدْلٍ على أنَّ المرء ينتفع بعمله، الذي امتدَّ أثره بعد موته، كما ينتفع بعمله الذي انقطع ثوابُه بموته؛ وعلى بطلانِ ما ذهب إليه شِرذمةٌ من أهل الكلام والبدع، زعموا أن الميِّت لا ينتفع بعد أن فارقَ حياته بشيءٍ البتة، وشاهدُ عدل كذلك على أنه ينتفع بما كان سبباً فيه وداعياً له؛ فإن استثناء هذه الأعمال الثلاثة من جملةِ عمله دليلٌ على أنها منه، وأنَّ سبب العمل والسعيَ فيه يلحقه به.

تنشئة الأولاد على الهدى والاستقامة

لا جَرَمَ أنَّ الولد من كسب الوالد وسعيه، وأنَّ ما يعملُه من الصَّالحات فلأبيه وأمه في صحائفهما مثلُ أجره؛ إذْ كانا السبب في وجوده وتربيته؛ ومن هنا كان من أعظم الأعمال أثراً، وأجلِّها قدراً: تنشئةُ الأولاد على الهدى والاستقامة، وتربيتُهم على الصَّالحات التي يدَّخرها الوالدان لنفسيهما، وليس عليهما بعد بلوغ الجهد والوسع في التربية على الهداية، ألاّ يهتديَ الولد؛ فإنَّ التوفيق للهداية بيد الله وحده، وقد قال لنبيه صلوات الله عليه وسلامه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[١].

ويؤيِّد هذا الحديث ويفصِّله ما رواه ابن ماجَهْ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ممَّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته:

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

علماً علَّمه ونشرَه، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»[١].

أصول الصالحات المذخورة:

والاقتصار على الثلاثة في حديث مسلم؛ لأنها أصول الصَّالحات المَذْخورة التي يُردُّ إليها غيرها، ويُقاس عليها أمثالها؛ أو لأنَّ الله أعلمَه بالثلاثة أولاً، ثم أعلمُه بما زاد عليه ثانياً، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢].

وقف الخيرات والمبرّات

وفي الحديث: الحضُّ على وقف الخيرات والمبرَّات الدائمة التي يبقى ذُخرها وأجْرها ما بقيت أعيانها ...

العلم النافع

وتقييدُ العلم بالمنتفع به؛ لأنّ العلم الذي لا يُنتفع به لا يثمر أجراً، بل ربّما كان وزراً وبلاءً وإثماً على صاحبه!.

«ومن سنَّ في الإسلام سنّة حسنة، فله أجرُها وأجرُ مَنْ عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومَنْ سنَّ في الإسلام سنَّةً سيِّئة كان عليه وزْرها ووزْر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجَهْ (٢٤٢)، وابن خزيمة (٢٤٩٠)، ومن طريقه البيهقي في «الشُّعب» (٣٤٤٨) من طريق مرزوق بن أبي الهذيل، عن الزهري، عن أبي عبد الله الأغر، عن أبي هريرة مرفوعاً. وإسناده ضعيف، مرزوق بن أبي الهذيل ليِّن الحديث. وفي الباب عن أبي قتادة عند ابن ماجه (٢٤١)، وابن حبان (٩٣).

(٢) سورة طه: ١١٤.

(٣) اقتباس من حديث رواه مسلم (١٠١٧) وقد شرحه المؤلف رحمه الله تعالى =

الولد الصالح

وإنّما وُصف الولد بالصلاح؛ لأنَّ الأجر قلَّما يكون من غيره، اللهمَّ إلا أجر الصبر على مصيبته، والنكبة به، والجهاد في تقويمه!!.

لا جَرَم أنَّ فسق الأولاد وعقوقهم من أشدِّ البلايا والمصائب والفتن التي يَمتحنُ بها الله آباءَهُم!! وأن موتهم لأهون هذه البلايا وأيسرها على ذويهم!!.

ولا يلحق الوالد شيءٌ من أوزار ولده وسيِّئاته، إذا كانت نيّته في تربيته تحصيلَ الخير له، والعمل على ما ينفعه في دينه ودنياه، ولم يكن معيناً له على فساده ...

هل الأجر متوقِّفٌ على دعاء الولد؟

وليس دعاء الولد شرطاً في حصول أجر الوالد ومثوبته؛ فإنَّ الأجر ثابتٌ للوالدين كلَّما عمل عملاً صالحاً، وإن لم يدعُ لهما؛ كمَن غرس شجراً، أو أجرى نهراً، أو وقف خيراً، فإن له أجرها سواءٌ دعا له من انتفع به، أم لم يدع له.

وإنما ذُكر الدعاء تحريضاً للولد على الدعاء لوالديه، وبراً بهما، وشكراً لهما، ووفاءً لبعض حقِّهما عليه، وامتثالاً لأمر الله تعالى، واقتداءً برسله صلوات الله وسلامه عليهم، فقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1].

وحكى عن شيخ رسله وأنبيائه ـ نوح عليه السلام ـ دعاءَه لوالديه خاصَّة، وللمؤمنين عامة، فقال عزَّ من قائل: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ

بعنوان: سنَّةٌ حسنة. انظر: ص٤٩٦.

(١) سورة الإسراء: ٢٤.

مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[١].

لا جرم أنَّ الولد يُؤْجر على الدعاء لوالديه، وأنَّ الوالدين ينتفعان بدعاء ولدهما، علاوةً على انتفاعهما بكل عمل صالح يعمله.

أما بعد، فهاهو الحديث شمل صنفين من العبادة، أجمع المسلمون على مثوبتهما وعظَم آثارهما والانتفاع بهما ... وبقي النظر في الصنف الثالث، ندّخره للجزء القادم، فما أجدره بجزء مستقل[٢]. والله المستعان على قول الحق واتّباع سبيل المؤمنين، ولا حول ولا قوة إلا به.

* * * * *

---

(١) سورة نوح: ٢٨.

(٢) لم أقف على تتمّة شرحه لهذا الحديث، وهو آخر ما وقفت عليه منشوراً في مجلة الأزهر، ولعلَّ الله سبحانه يقيِّض لي الوقوف على تتمة شرحه لهذا الحديث وغيره مما لم ينشر للمؤلف رحمه الله تعالى.

العينُ حَقٌّ*

١٣ــعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «العينُ حقٌّ». ونَهى عن الوشم. رواه البخاري[(١)].

١٤ــعن ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سَابقَ القَدرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ، وإذا استُغسِلْتُمْ فاغْسِلوا». رواه مسلم[(٢)].

اتَّفق الشيخان على الشطر الأول من الحديثَيْن، وانفرد الإمام أبو عبد الله البخاري بما ضَمَّ إليه من النهي عن الوشْم، وإنْ كانا مُتَّفقَيْن على حديث: «لعن الواشمة والمستوشمة»[(٣)]. وَحَسْبُك ما في اللعن من الوعيد وبليغ النهي!. وانفرد الإمام أبو الحسين مسلمٌ بما ضمَّ إليه من توكيد الإصابة بالعين، ومن بعض علاجها المادي.

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الثلاثون، سنة (١٣٧٨ =١٩٥٨).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب (٥٧٤٠)، وكتاب اللباس (٥٩٤٤)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة بلفظ: «العين حق» وليس فيها النهي عن الوشْم.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨) في كتاب السلام، باب الطب والمرضى والرقى. وذكره صاحب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» في حرف العين، تسامحاً، فإنما اتَّفقا على الشطر الأول كما رأيت. وأما الحديث الأول فرواه البخاري في باب العين الحق، من كتاب الطب، وفي باب الوشمة، من كتاب اللباس (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨٦) و(٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤)و (٢١٢٥).

وفي روايةٍ للإمام أحمد: «العينُ حقٌّ، ويَحضُر بها الشيطان وحسدُ ابن آدم»[(١)].

ولأبي نُعيم: «العين حقٌّ، تُدخل الجملَ القِدْر، والرجلَ القبرَ»[(٢)]!.

وجليٌّ أنَّ الرسول صلوات الله عليه وسلامه تحدَّث بهذا الشَّطر في مناسباتٍ شتى، بيَّن فيها كلها أنَّ الإصابة بالعين حقٌّ لا شكَّ فيه. ويعلم المؤمنون بالرسول ﷺ وما أنزل إليه من ربِّه أنه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٣)].

النهيُ عن الوشْم

ثم نهى في بعض المناسبات عن الوَشْم، وهو غَرْزُ إبرةٍ أو نحوها في الجِلدِ حتى يسيل الدم! ثم يذرُّ عليه كحلٌ أو نحوُه ليخضرَّ، وهو تغييرٌ لخلق الله وفطرته، ومن هنا لعن اللهُ فاعله والداعيَ إليه!.

ففي كلٍّ من الإبرة والعين وَخْزٌ من الشَّيطان، يُغضبُ الرَّحمن عزَّ وجل، وإن كان أحدُهما وخْزاً حسيًّا والآخر وخزاً ماديًّا!.

---

(١) أخرجه أحمد ٢: ٤٣٩ (٩٦٦٨) وإسناده منقطع، مكحول لم يسمع من أبي هريرة. وقوله: «يحضر بها» أي: معها.

(٢) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» ٧: ٩٠، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٩: ٢٤٤ (زوائد ١٣٨٠) في ترجمة شعيب بن أيوب الصَّرِيفيني من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً، وقد تفرَّد به شعيب عن معاوية ابن هشام، ونقل السخاوي في«المقاصد الحسنة» ص٢٩٤ عن إسماعيل الصابوني: وبلغني أنه قيل له: ينبغي أن تمسك عن هذه الرواية، فَفَعل، وقال الذهبي في «الميزان» في ترجمة شعيب بن أيوب ٢ :٢٧٥: وله حديث منكر، ذكره الخطيب في «تاريخه» يريد هذا الحديث.

(٣) سورة التغابن: ١١.

ذلك إلى أنَّ من البواعث على الوشْم دفع العين أو اتِّقاءَ ضررها بما لم يعتمد على عقل ولا نقل، فكان من اللطائف النبوية النهي عن الدواء الذي لم يأذن به الله، إلى الدواء الذي أذن به.

إصابة العين والقدر

وفي بعض المناسبات قَرَن النبيُّ ﷺ إصابة العين بالقدر ـ وإن كانت منه بلا رَيْب ـ توكيداً لنفاذ سهمها، وشدَّة تأثيرها فيمن تصيب، بإذن القائم على كلِّ نفس بما كسبت، وكأنه يقول صلوات الله عليه وسلامه: لو صحَّ أنْ يغالبَ القدرَ شيءٌ ويسابقه في إفناء شيء، أو الإضرار به قبل أجله المضروب له، لسبقت العين، فهو توكيدٌ بليغ من طريق الفرض، ومثلُه في كلام البلغاء والمربّين ذائعٌ شائع لا نطيل القول به.

عالم الروح والغيب

وفي هذا التوكيد النبويِّ الذي يكاد يبلغ مبلغَ التواتر في إصابة العين، تنبيه على دِقَّة الأمر، وعلى أنه في عالم الروح والغيب، الذي يشقُّ على كثير من الناس تصديقُه، ولا سيما الذين يقِفون عند ظواهر الأمور، ولا يؤمنون إلا بما يقع في دائرة الحسِّ والهوى.

لا جرم أنَّ الأباطيل والخرافات، سمَّمت كثيراً من الأفكار والأخبار، وسيطرت على كثير من الجهَّال وأنصاف المتعلمين، وشكَّكَتْ غيرَ قليل من الباحثين الحائرين، ولكنَّ الحسَّ والهوى ما كانا ـ ولن يكونا أبداً ـ مقياساً للتصديق أو التكذيب؛ فالهوى يُعمي ويصُمُّ، إلا هوًى تابعاً لما جاء به المعصوم ﷺ. والحسُّ مقياسٌ أبتر أعوج، تكرَّر خطؤه ونقصه وقِصَرُه في المُحَسَّات، فضلاً عن المغيَّبات، بشهادة الذين لا يؤمنون بالغيب ....

المقياس الرشيد في عالم الغيب والشهادة

والمقياس الرشيد في عالم الغيب والشهادة: هو التصديق بكلٍّ ما صدَّقه الله ورسوله، والتكذيب بكلٍّ ما كذَّبه الله ورسوله، والسكوتُ عما سكتَ عنه الله ورسوله، وجاز عقلاً وشرعاً أن يكون وألا يكون.

وقد قال العلماء: إنَّ كلَّ شيء ليس مُحالاً في نفسه، ولا يؤدِّي إلى قَلْب حقيقة، ولا فساد دليل فهو مما يجيزه العقل، فإذا أخبر به المعصوم كان إنكاره مكابرةً. وصحة الخبر برواية الثقات كافية، وإن لم تكن متواترة... وإلاَّ جحدنا كثيراً من أخبار الصادق المصدوق بعد ما ظهر الدليل ووضح السبيل.

إطفاء شعلة العين الحاسدة

وأما قوله صلوات الله وسلامه عليه: «وإذا استُغْسِلتم فاغسلوا»، فهو بيانٌ للطبِّ المادي من العين، يأمر العائن أن يغتسل إذا طُلِب منه الغسيل، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الاغتسال كان معروفاً عندهم، فأمَرَهم ألاَّ يمتنعوا منه إذا طُلب منهم؛ وأدنى ما فيه الطمأنينةُ لهم ورفعُ الوهم عنهم. وظاهر أنَّ هذا الاغتسال رخصةٌ؛ فينبغي الاقتصار على ما جاء فيها دون التوسُّع فيما ابتدع المبتدعون، وتزيَّدوا وكذبوا على الله ورسوله، ونفَّروا كثيراً من ذَوي الفطرةِ البريئة من الأحاديث الصحيحة!.

وقد روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يُؤْمر العائن، فيتوضأ، ثم يغتسل منه المُعين»[١].

وفي هذا الاغتسال ـ كما قال العلماء ـ مناسبةٌ لا تأباها العقول السليمة، فهذا ترياقُ سمِّ الحية يُؤْخذ من لحمها، وهذا علاج النفس الغضبيَّة؛ توضع اليد على بدن الغضبان، فيسكن، فكأنَّ العين الحاسدة كشعلةٍ من نارٍ وقعت على

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٠) في الطب، ورجاله ثقات.

جسد المحسود، ففي اغتساله إطفاءٌ لتلك الشعلة.

الرُّقية المشروعة

وأعظم من هذا الطب الماديِّ وأنسب، ذلك الطبُّ الروحي النبوي، بالرُّقى والمعوذات التي جاءت عن الله ورسوله، وقايةً وعلاجاً.

ومنها ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبيُّ ﷺ يعوِّذ الحسَنَ والحُسين، ويقول: «إنَّ أباكما كان يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامَّة، من كلِّ شيطان وهامَّة، ومن كلِّ عينٍ لامَّة»(١).

والشيطان هنا: شيطانُ الإنس والجن، والهامَّة واحدة الهوام ـ بتشديد الميم ـ: ذوات السُّموم، والعين اللامة: النازلة التي تصيب بسوء، من أعين الإنس والجن.

وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرني النبيُّ ﷺ، أو أمر أن نسترقيَ من العين»(٢).

وثبت في صحيح مسلم «أنّ جبريل عليه السلام رقى النبيَّ ﷺ»(٣).

وأفاض علماء السنة والاجتماع ـ وفي مقدمتهم ابن خلدون ـ في العين وإصابتِها وتأثيرِها بإذن الله تعالى، وعلاجها بالرُّقية المشروعة(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٥)، (٢١٨٦) من حديث عائشة وأبي سعيد. ولفظه من حديث عائشة أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل. قال: «باسم الله يُبْريك، ومن كلّ داءٍ يشفيك، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد، وشر كلِّ ذي عين».

(٤) في الجزء التاسع من المجلد الحادي عشر من مجلة الأزهر شرح الشيخ الجزيري ـ رحمه الله ـ حديث أبي سعيد رضي الله عنه، في الرقية (طه).

وأكبر العلم أنَّ أجمع العلماء بياناً في ذلك كله صاحب «زاد المعاد» في الطبِّ النبوي[١]، فقد كفى وشفى ولم يدع زيادةً لمستزيد ولا قولاً لقائل، ولقد هممت أن ألخص هنا بيانه، ولكني آثرت الإشارة على العبارة، والقَصْد على الإطالة؛ فليسعنا في العين والرقية منها ما وسع الراسخين في العلم، ولنغض الطرف عن الزائغين والمجادلين في الحقِّ بعد ما تبيَّن، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[٢].

* * * * *

(١) في علاج المصاب بالعين ٤: ١٦٢ ـ ١٧٤.

(٢) اقتباس من الآية ٤ من سورة الأحزاب.

عود إلى علاج العين*

١٥ــعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسولُ الله ﷺ ـ أو أمر ـ أن يُسْتَرقَى من العين[١].

١٦ــوعن أمِّ سَلمَة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في بيتها جاريةً، في وجهها سَفْعَةٌ، فقال: «اسْتَرقُوا لها، فإنَّ بها النَّظرة». رواهما الشيخان، واللفظ للبخاري[٢].

حديثان جليلان

هذان حديثان جليلان، من أصحِّ الأحاديث الكثيرة، التي كادت تكون متواترة في شأن الإصابة بالعين والرقية منها. وحَسْبك من درجات صحتها أن يتفق على روايتها الإمامان العظيمان: البخاري ومسلم، وكفى بكلٍّ منهما حجة.

أمانة المحدثين في الرواية

و«أو»: في الحديث الأول؛ لشكِّ الراوي: هل قالت أم المؤمنين رضي الله عنها: أمرني الرسول ﷺ، بإضافة الأمر إليها، أو قالت: أمر من غير إضافة؟ وهذا الشك ـ كما قلنا ـ في مناسبات شتَّى، من أعظم الأدلة وأقواها على تحرِّي الرواة، وبلوغهم في ضبط الأحاديث والحرص على ألفاظها، فَضْلا عن معانيها؛ مبلغ الذين ائتمنهم الله على دينه، فأقاموا الدين خالصاً، وأدُّوا أمانة

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الثلاثون(١٣٧٨ = ١٩٥٩).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)في الطب، ومسلم (٢١٩٥) في كتاب السلام.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٩) في الطب، ومسلم (٢١٩٧) في كتاب السلام.

الله كاملةً غير منقوصة، على أنَّ رواية أخرى من روايات الحديث: «أمرني» من غير شك، وفي ثالثة: «كان يأمرني». وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أمرٌ نبويٌّ صريح بالرقية من السَّفْعة التي أصابت الجارية في وجهها.

والسَّفعة: ـ بفتح الفاء وقد تضم ـ بقعة ذات لون يخالف لون الوجه، أصابتها بنظرة شريرة، من عين إنسيٍّ أو جنّيٍّ، ولِعيون الجِنَّة، نظرات أنفذ من الأسنَّة.

الداء والدواء من قدر الله

وكما أنَّ العيَن حقٌّ، والإصابةَ بها ثابتةٌ بقَدَرِ الله تعالى ومشيئته، وأنها من الأسباب العادية التي يربط الله بها مسبَّباتها، فكذلك الرقية منها حق، وهي من قدر الله وإرادته، فهما من الداء والدواء. و«ما أنزل الله من داء، إلا أنزل له شفاء، فإذا أصاب الدواء موضع الداء برأ بإذن الله»[١].

وفي «المسند» والسنن[٢] عن أبي خِزامة قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت رقىً نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها؛ هل تردُّ منْ قَدَر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»[٣].

---

(١) اقتباس من حديثين روى أحدهما البخاري (٥٦٧٨)، والآخر رواه مسلم (٢٢٠٤). أما حديث البخاري فلفظه من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء». أما حديث مسلم فلفظه من حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل داء دواء، فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل».

(٢) السنن هنا هي سنن الترمذي، كما في تعليقات الأخوين الفاضلين: الأستاذين عبد الغني عبد الخالق، ومحمود فَرَج العقدة، في تعليقاتهما على «الطب النبوي» الذي طبع وحده أخيراً. (طه).

(٣) رواه أحمد في المسند ٣: ٤٢١ (١٥٤٧٤)، والترمذي (٢٠٦٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

مشروعيةُ الرقية واستحبابها

وأقل ما يقْتضيه الأمر بالرُّقية أنها مشروعةٌ مُرَخَّصٌ فيها، بل مُسْتحبةٌ مندوبٌ إليها، في كلِّ إصابة وشكوى، ولا سيما العين واللّدغة من ذوات السُّموم كلِّها.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا محمد اشتكيتَ؟! قال: «نعم»، فقال جبريل عليه السلام: «باسم الله أرقيك، من كلِّ داءٍ يُؤْذيك، ومن شرِّ كل نفس، أو عينِ حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[(١)].

من الهدي النبوي في عيادة المرضى

وكان صلوات الله وسلامه عليه يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأل عن حاله، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها على ثدييه، وربما توضَّأ وصبَّ على المريض من وَضوئه.

وكان إذا أتى مريضاً، أو أتي به إليه قال: «أذْهبِ البَاسَ ربَّ الناس، اشفِ وأنت الشَّافي، لا شفاءَ إلاَّ شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً»[(٢)]. لا جرم أن الرُّقى بآيات الله تعالى وذكره وأسمائه، وأنَّ الفزع إليه فيما وقع وما يتوقع، والتحصُّن به من المقرِّبات إليه.

الرقى المنهيُّ عنها

وأما ما ورد النهي عنه من الرقى، فهو المشتبه الذي لا يُعرف، أو المركَّب من حقٍّ وباطل، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٦).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١).

والاستعانة بهم، والتعوُّذ بمرَدَتهم.

لاجَرَم أنَّ هذا الصنف من الرقى آفة الإيمان والعقائد، ومفتاح الشرور والمفاسد، بل هو السُّمُّ الذي لا رُقية له إلا توبة نصوحة واقية، أو بطشة قاضية.

من العلاج النبوي للعين

ومن العلاج النبويِّ للعين: أن يدعوَ العائنُ لِمَنْ عانَه بالبركة، وأن يتوضأ العائن أو يغتسل، ثم يغتسل من مائه المَعِين، وليس المراد بالوضوء والغسل هنا كيفيتهما الشرعية، بل الأمر فيهما متَّسع، كما يُؤْخذ من الآثار.

وبيان الغسل في حديث أحمد والنسائي وابن حبّان: أن يغسل العائن وجهه ويديه إلى المرفقين، ومن سُرَّته إلى أسفل جسمه، ويُوضع الماء في قدح، ويصبُّ على رأس المَعينِ وظهره، فيبرأ بإذن الله[١].

من عجائب الطب النبوي

والسرُّ في هذا الغسل من عجائب الطبِّ النبوي، التي تخفى على أكثر الناس، ولا سيما الذين لا يؤمنون بأسرار الروح والغيب، ومن أجل ذلك لا ينتفعون بهذا الطب ولا يبرؤون به، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢].

وكأنَّ أثرَ العين الحاسدة الشرِّيرة شُعلةٌ من النار، انبعثت منها إلى المحسود، فاشتعل ناراً، فكان من الخير والحكمة أن تُطفأ بالماء والدعاء في العائن والمعين جميعاً.

---

(١) أخرجه أحمد ٣: ٤٨٧ (١٥٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٧٦١٨)، وابن حبان (٦١٠٦). وهو حديث صحيح.

(٢) سورة الإسراء: ٨٢.

والسرُّ في دعاء العائن لِمَن عانه، أنَّ الدعاء إحسانٌ للمَعين وطبٌّ له، وتكفيرٌ للإساءة التي قدَّمها إليه بجَحْد نعمة الله عليه وانتقاصها منه، ومن هنا أُمر من رأى شيئاً أعجبه ـ ولو كان مِلْكاً له ـ أن يقول: ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾(١)؛ دفعاً لأذى العين، ووقايةً من شرِّها.

ولا عجب أن يحسد المرء نفسه وولده وحبيبه، وإن كان ذلك في المتقين قليلاً ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(٢).

ولا مخافةَ من عدوى الماء المُستعمل هنا، فإنه استُعمل في إطفاء النار الثانية، بعد أن أطفأ النار الأولى، وقوة الإيمان والعزيمة تدفع ما عسى أن يحملَ من الأذى، وقلَّما يكون الأذى إذا كان العائن صحيحاً سليماً.

على أنَّ هذا الطب رخصة جائزة، غير واجبة، فليتركها من لا يؤمن بها، ومن يخاف العدوى منها، وليكتفِ بالرقية الإلهيَّة النبويَّة في دفع العين والأذى، إن كان من المؤمنين بما أوحى الله إلى رسوله ﷺ.

وممَّا يجدر أن نحذِّر منه العامة وأشباه العامة هنا، تغاليهم في العين، ونسبة كلِّ أذى أو ضرر إليها؛ فإنَّ الأدواء وأشفيتَها، والأسبابَ ومُسبَّباتها، لا يحصيها إلا من أنزلها، وما العين وطبُّها إلا قليل منها.

طب الأرواح والأبدان

كما يجب أن ننبّه هنا ـ كذلك ـ على أنَّ الله جلَّت حكمته، إنما أرسل رسوله هادياً وداعياً ومبشِّراً ونذيراً، أرسله بطبِّ الأرواح والقلوب؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه، وليهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

---

(١) سورة الكهف: ٣٩.

(٢) سورة سبأ: ١٣.

وأما طبّ الأبدان الذي صحَّ عنه صلوات الله وسلامه عليه، فليس إلاّ تكميلاً لشريعته العامّة الخالدة، التي لم تدعْ خيراً إلا دعت إليه، ولا شراً إلا حذّرت منه، في العاجلة والآجلة، إجمالاً وتفصيلاً[1].

* * * * *

(١) من تأدية الأمانات إلى أهلها، ومن الاعتراف بالفضل لذويه، أن ننبِّه على أنَّ مرجعنا الأول في شرح هذين الحديثين هو «الطب النبوي» لابن القيم، وأنَّ الذي أشار عليَّ بتفصيل ما أجملت في الحديث الأسبق، أخونا الواعظ الفاضل الأستاذ إبراهيم أبو سعدة، وشيخنا الكبير الأستاذ محمد عرفة، غير أني لا أزال أدعوهما والقراء الأفاضل إلى المزيد الإفادة من «الطب النبوي»؛ ففيه الجواب الكافي، وفيه قرة العين، والله المستعان ولا قوّة إلا به (طه).

إبطال مزاعم الجاهلية*

-١-

١٧ــعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوى، ولا طِيَرة، ولا هامة، ولا صَفَر وَفِرَّ من المَجْذوم كما تَفِرُّ من الأَسَد» رواه الشيخان(١).

المفردات:

العدوى: مُجاوزة المرض صاحبه إلى غيره. يقال: أعدى فلانٌ فلاناً، مِنْ خُلُقِه، أو من عِلَّةٍ به.

والطِّيَرة: كعِنَبَة: التشاؤم. وتطيَّر بالشيء: تشاءم. وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا المضيَّ لمهمٍّ كالسفر والزواج، أثاروا الطير، فإن مرَّت باليمين تيامنوا، وإن مرَّت باليسار تشاءموا، ثم أُطلقت الطِّيَرَة على التشاؤم، ولو بغير الطيور.

والهامَة: الرأس؛ واسم طائر من طيور الليل، وهو المراد هنا، وكانوا يتشاءمون به. وقيل: هو البومة. وقيل: كانوا يزعمون أنَّ عظام القتيل ـ الذي لا يؤخذ بثأره ـ أو روحَه، تصيرُ هامةً، ولا تزال تصيح: اسقوني اسقوني، حتى يؤخذ بثأره، فتسكن حينئذ.

وصَفَر: قيل هو الشهر المعروف، وكانوا يتطيَّرون به، فلا ينجزون فيه مهمَّة. وقيل: المراد به النَّسيء، وهو إحلال المحرَّم، وتأخيرُ حرمته إلى صفر،

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد السادس عشر، سنة (١٣٦٤- ١٩٤٥).

(١) رواه البخاري في كتاب الطب (٥٧٥٧) واللفظ له. ومسلم في كتاب السلام (٢٢٠٩) بلفظ: «لا عدوى، ولا صفر، ولا هامة»، وزاد في طريق أخرى: «ولا طيرة».

على ما بيَّناه.

وقيل: إنَّ الصَّفَر حيَّةٌ في البطن تلصق بالضلوع فتعضُّها، وينشأ عن ذلك ما يشعر به الجائع من الألم، وأكبر الظنِّ أنه المراد هنا.

والمَجْذوم: هو المصاب بمرض الجذام، وهو داءٌ يحمرُّ به اللحم، ثم يتقطَّع ويتناثر. من الجَذْم، وهو القطع.

* * * * *

انتشار الخرافات والأوهام

كان الناس عامة، والعرب خاصَّة، في جهالةٍ جهلاء، وضلالة عمياء؛ قد ركبوا رؤوسهم، واتَّبعوا أهواءهم، ودانوا بما توارثوه سالفاً عن خالف، من أوزار الشرك والآثام، وأثقال الخرافات والأوهام؛ حتى أرسل الله رسولَه بالهدى ودين الحق، فطهَّر عقائدهم من أرجاسها، وحرَّر عقولَهم من أوهامها، وبيَّن لهم أنَّ ربَّهم الذي خلقهم هو الذي يضرُّ وينفع، ويعطي ويمنع، ويُمرض ويشفي، ويُميت ويُحيي، لا رادَّ لمشيئته، ولا معقِّب لحكمه، وهو العليم الحكيم.

سبيل المؤمنين ونهج المتوكلين في ربط الأسباب بالمسبَّبات

ولئن اقتضت حكمته تعالى أن يربطَ الأسباب بالمسبَّبات، والوسائل بالغايات فإنْ كلُّ ذلك إلاَّ خاضعٌ لمشيئته، مقهورٌ تحت إرادته.

فالغلوُّ في الأسباب، والتكالبُ عليها، شعبةٌ من الشِّرك والضلال؛ وإهمالُها رأساً، جهلٌ بسنن الكبير المتعال.

وأمَّا أن يُجملَ العبد في الطلب، من غير تقصيرٍ ولا مغالاة، مع اعتقاده أنَّ

الأمر كلَّه لله، فذلك سبيل المؤمنين، ونهج المتوكِّلين، وعماد هذا الدين المتين، الذي جاء في شأنه كلِّه قيِّماً وسطاً؛ لا إفراط ولا تفريط.

وعلى هذا المنهج الواضح، وطَّد صلوات الله وسلامه عليه معالم الهداية، وبدَّد ظلمات الغَوَاية، وقضى على مزاعم الجاهلية وتُرَّهاتها، وهو في حديثه هذا يقضي قضاءً مُبْرماً على طائفة من أُمهاتها.

اعتقاد أهل الجاهلية في العَدْوى

فأما العدوى، فكانوا يضيفون التأثير إليها، ويعتقدون أنَّ اختلاطَ مريضٍ بصحيح مُوجبٌ للمرض إيجابَ الأسباب الضرورية لمسبباتها، والعلل العقلية لمعلولاتها، لا مفرَّ من ذلك ولا محيص عنه، جاهلين أنَّ المدار في الإصابة على مشيئة الله وحده، وأنَّ العدوى لا تعدو ـ مهما بلغ أمرها ـ أن تكون سبباً عاديًّا كثيراً ما يتخلَّف، وكم من سليمٍ خالط مريضاً فلم يُصَب بأذى، وكم من مُتَصوِّنٍ حَذِرٍ جاءه المرض من حيث لا يحتسب. والمشاهدة أصدق شاهد.

وإذا لم ينفِ النبيُّ ﷺ العدوى نفسها، وإنما نفى وصفَها وتأثيرها على النَّحو الذي يزعمون؛ إبطالاً لزعمهم على أبلغ وجه وآكدِه.

ومن فنون البلاغة أن تنفيَ وصف الشيء بنفي الشيء نفسِه؛ كأن تقول: لا رأيَ لهذا الرجل، ولا رجلَ في هذا البلد، حينما تقصد إلى نفس السَّداد في الرأي، والشَّهامة في الرجال.

إثباته ﷺ العدوى على الوجه الصحيح

ولا رَيْبَ أنَّ غلوَّهم في إضافة التأثير لغير الواحد القهار، مُخِلٌّ بعقيدة التوحيد التي بُني الإسلام عليها؛ فكان من حكمة سيِّد الحكماء أن يقضيَ على زعمهم الخاطئ بهذا البيان الرائع، والكَلِمِ الجامع، والقول الفصل.

ومن المحال أن يقصد صلوات الله وسلامه عليه إلى نفي العدوى جملةً،

مع أنه أثبتها على وجهها الصحيح في غير ما حديث، بل أثبتها في هذا الحديث نفسهِ؛ إذ أَمر بالفرار من المجذوم كفرارِ الخائف من الأسد؛ لأنَّ الجذامَ ـ وقانا الله وإياكم السوء ـ من الأمراض التي جرت عادةُ الله تعالى بمجاوزتها إلى غير صاحبها، إذا سبق بذلك علمُه ومشيئتُه[١]. ومن المحال أن يتناقض حكيم في كلامه فَضْلاً عمَّن لا ينطق عن الهوى.

التوفيق بين الأحاديث التي تُثبت العدوى والتي تنفيها

وعلى هذا البيان الذي بَيَّنَّا، يسهل التوفيق بين الأحاديث التي تُثبت العدوى كما يثبتها الطبُّ والواقع، وبين الأحاديث التي تنفيها على ما تزعم الجاهلية الأولى.

وإذا لم يكن بدٌّ من إيراد بعض الشواهد، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «لا يوردنَّ مُمْرِض على مُصِحّ»[٢].

والمُمْرِض: صاحب الإبل المريضة، والمُصِح: صاحب الإبل الصحيحة. ولا معنى للنهي عن خلط الإبل السليمة بالسقيمة، إلا التحذير من العدوى.

وروى الشيخان كذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ عمر رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بِسَرْغَ[٣] لقِيَه أهلُ الأجناد[٤]: أبو عُبيدة بن الجراح، وأصحابه فأخبروه أنَّ الوباء قد وقع بالشام، فقال عمر لابن عباس: اُدْعُ لي

---

(١) جاء في فاتحة «المقتطف» لهذا الشهر (يناير، سنة ١٩٤٥) أن الجذام ينكبُ في المعمورة كلَّ عام ثلاثة ملايين إلى خمسة، وأنه اكتسح أوربة في القرون الوسطى حتى أُعِدَّ له عشرون ألف ملجأ وقتئذ. وأنَّ الأطباء لا يألون جُهداً في تركيب عقار يقضي على السلِّ والجذام، ولعلَّهم عند منعطف الطريق. (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١).

(٣) بالصَّرف وعدمه، قرية في طرق الشام ممَّا يلي الحجاز (طه).

(٤) أي أمراء الأجناد كما في رواية أخرى، وكانوا خمسة (طه).

المهاجرين الأوَّلين، فدعوتُهم، فاستشارهم، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمرٍ، ولا نرى أن ترجع عنه[١].

وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدِمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: أُدْعُ لي الأنصار، فدعوتهم له، فاستَشارهم فَسَلَكوا سبيل المهاجرين في الاختلاف، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: أُدْعُ لي مَنْ كان هنا من مَشْيَخَة قريش من مُهَاجرة الفتح، فدعوتُهم، فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن نرجع بالناس ولا نُقدِمهم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظهر[٢] فأصبِحوا عليه.

فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! ـ وكان عمر يكره خلافه ـ نعم، نفرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيت لو كان لك إبلٌ فهبطت وادياً، له عُدْوتان[٣]، إحداهما خِصْبَة والأخرى جَدْبَة، أليس إنْ رَعَيْتَ الخِصْبَة رعيتَها بقَدَر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟!.

قال: فجاء عبدُ الرحمن بن عوف ـ وكان متغيِّباً في بعض حاجته ـ فقال: إنَّ عندي من هذا عِلماً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتُم به بأرضٍ فلا تَقدَموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فِراراً منه». قال: فحمد الله

(١) يعنون تفقد أحوال الرعية.

(٢) أي: مسافر راكب على ظهر الراحلة.

(٣) عُدْوة الوادي، بضم العين وكسرها: شاطئه.

عمرُ بن الخطاب، ثم انصرف[١].

أدب الاختلاف وحكمة عمر

وإنَّما سقنا هذه الرواية برمَّتها، لأنَّها مثالٌ من أمثلة اختلاف الصحابة رضي الله عنهم، في جدالهم بالتي هي أحسن، وترجمةٌ صادقة لحكمة عمر وإصابته وجهَ الحقِّ، مع حَلِّه لمشكلةٍ من المشكلات التي يقف عندها الراسخون في العلم حَيَارى.

ثم ليعلمَ الجاهلون أنَّ الطبَّ في أزهى عصوره، بل العلمَ في أوْج رفعته، مُصَدِّقٌ لما سبق به الصَّادق المصدوق، صلوات الله وسلامه عليه[٢].

أدلة نفي العدوى

وأما الشواهد على نفي العدوى، فمنها ـ عدا حديثنا هذا ـ ما جاء في الصحيحين، أنَّ أعرابياً قال: يا رسول الله فما بالُ الإبل تكون في الرَّمل كالظِّباء ـ يعني نشاطاً وقوةً وسلامة ـ فيدخلُ بينهما البعيرُ الأجْرب فيُجربها؟! فقال ﷺ: «**فَمَنْ أعدى الأول**»؟![٣].

جواب في غاية الإبداع والإقناع، ينطوي على أنَّ السبب الحقيقي هو مشيئة الله عز وجل.

ومنها: ما رواه الترمذي وغيره أنه ﷺ أكل مع مجذومٍ، وقال: «**ثقةً بالله**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

(٢) وفي الحديث فوائد جمَّة، منها الإشارة إلى الحَجْر الصحي الذي يهتمُّ به الطب الحديث، ولولا خشية الإطالة لبسطنا القول فيه. (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٥)، ومسلم (٢٢٢٠).

وتوكّلاً عليه»[١].

وهذه كلمةٌ فاصلةٌ في هذا الموضوع الذي اشتبكت فروعه، واشْتَجَرت آراء الناس فيه.

فإذا جاء الأمر بالفرار من المجذوم ونحوه كما سَلَف، وكما روى مسلم أنه ﷺ أرسل إلى مجذوم كان في وفد ثقيف؛ «إنا قد بايعناك فارجع»[٢]، فذلك للحيطة واحترام الأسباب؛ وإذا جاءت العزيمةُ بمخالطة المرضى؛ فتلك ثقة المتوكلين على ربِّ الأرباب.

أثر العزيمة وقوة الإرادة في القضاء على الأمراض

وقد أجمع علماءُ النفس والطب على أنَّ حدَّة العزيمة وقوة الإرادة، من أمضى الأسلحة التي تتغلَّب على جراثيم المرض، بل من أمنع الحصون التي تعجزُ هذه الجراثيم عن اختراقِها؛ كما أجمعوا على أنَّ من العواملِ التي تُهيئ الجسم للعدوى، التعبُ، والبردُ، والجوعُ، وتعاطي المخدّرِ، والمُسْكرِ، وأنَّ من أعظمها: ضعف العزيمة وخور النفس، وانقيادها للوساوس والأوهام.

ولولا أن منَّ الله على بعض عبا بقوَّةِ الإيمان واليقين، ومَضَاءِ العزم والثقة، لَهلك المرضى، واضْطَرب الأصحَّاء، ولَتقطَّعت الأرحام، وعمَّ الكون الظلامُ، وتساوى الناس والأنعام.

الثقة بالله والتوكل عليه

ألا فلْيشهدِ العالم أنَّ الإيمان الصَّادقَ ـ وعمادُهُ الثقة بالله، والتوكُّل على

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذي (١٨١٧)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٥٤٢)، وابن حبان (٦١٢٠) وإسناده ضعيف، لضعف المفضّل بن فضالة القرشي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣١)، والنسائي (٤١٨٢)، وابن ماجه (٣٥٤٤).

الله ـ أساسُ ما جاء به أوّلُ المؤمنين، وقدوة المتوكِّلين؛ وأنَّ المؤمن القويَّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وإن كان في كلٍّ خير.

* * * * *

إبطال مزاعم الجاهلية *

-٢-

ضلالة التطـيُّر

أشرنا إلى أنَّ العرب كانوا يعتمدون في مُهمَّاتهم على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمرٍ، فرآه قد طار يَمْنَةً تيمَّن به ومضى، وإن طار يَسْرَةً تشاءم به ورجع. وكانوا يُسَمُّون الأول: «السَّانح»، وفسَّره أهل اللغة بأنه: ما ولاك ميامنه، فمرَّ عن يسارك إلى يمينك، ويسمون الثاني: «البارح» وفسَّروه بأنه: ما ولاك مياسره، فمرَّ عن يمينك إلى يسارك. وأحياناً كانوا يثيرون الطير، والوحش، والظباء من وُكناتها[1]؛ لينظروا ما تأخذ في سَيْرها، فيعتمدوا عليه.

تطـيُّرهم بالغراب

وأكثر ما كانوا يتشاءَمون به، الغرابُ حتى لقد ضَرَبوه مَثَلاً في الشُّؤْم: فقالوا: أشْأَم من غراب البَيْن؛ لأنه إذا بان أهل الدار للنجعة وطَلَبِ الكلأ في موضعه، وقع الغراب في موضع بيوتهم يتلمَّس ويتقمَّم، فتشاءموا به، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا، فسمُّوه غراب البَيْن.

ومن أجل تشاؤمهم به اشتقُّوا من اسمه الغُربة، والاغتراب، والغريب، وليس في الأرض طيرٌ، ولا وحش، ولا شيءٌ ممَّا يتطـيَّرون به إلا والغراب عندهم أنكد منه.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، السنة السادسة عشرة، ١٣٦٤.

(١) الوكنة: اسم لكلِّ وكر وعش.

سلطان الأباطيل والأوهام

ولا يعنينا هنا تفصيلُ ما كانوا يتشاءمون به، ولا بيان مذاهبهم في التشاؤم واختلافهم فيه؛ فكتب التاريخ والأدب حافلة بذلك كله، وإنما الذي يعنينا أن نتأمل مليًّا في ضلالات الإنسان وجهله، وسخافاته وظُلمه، وأنه لو تُرك وشأنه، دون رسولٍ يهديه، أو شريعةٍ تحميه، لكان شرّاً لا يحتمل وبلاءً لا يطاق.

ماذا أغنى عنه عقلُه وتفكيره، أو قانُونه وتدبيره، وهو أسيرُ تلك الخُرافات الضَّالَّة، وسجينُ تلك الظُّلمات الحالكة؟!.

تالله إنَّ الوحوش في مَضَاربها، والطيورَ في مَسَاربها، خيرٌ من هذا الإنسان الذي جَنَى على عقله وكرامته؛ إذْ أخضع عنقه لسلطان الأباطيل والأوهام، وغلَّه ـ راضياً ـ بأغلال الشِّرك والآثام.

وإذا كان لهم شبهةٌ في تأثير الاختلاط وانتقال المرض به، فما شبهتهم في الطِّيَرَة وتعليق الأمور عليها؟!.

إنَّ الاختلاط ـ كما أسلفنا ـ من الأسباب العادية التي جَرَت عادةُ الله تعالى أن يربط بها مُسبّباتِها. والضَّرر إنما جاء من قِبَلِ التغالي فيها ونسبةِ التأثير إليها.

وأما الطِّيَرة فلا علاقة بينها بتة وبين نجاح الأمور أو خيبتها. وما تراءى من ذلك أو صادف؛ فهو من تزيين الشيطان أو إغرائه. والشؤم عند التشاؤم، ويدل لهذا ما أخرجه ابن حبَّان في «صحيحه»: «لا طِيَرَةَ، والطِّيَرَةُ على مَنْ تطيَّر»[1].

وقد يقع هذا عقوبةً من الله تعالى أو ابتلاءً منه. والمؤمن عُرضةٌ لبلاءٍ دائم، فَلْيَسأل الله دائماً العفوَ والعافية.

وجملة القول: أنه ليس في سنوح الطير، ولا بُروحها، ولا في شيءٍ ممَّا

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦١٢٣) من حديث أنس بن مالك، وإسناده حَسَن.

يتطـيَّرون به البتة، دلالةٌ على ما يقولون من أمر، وإنما هو عناد الإنسان وجهله، وولعه بنسيان الحَسَنات وإحصاء السيِّئات. وعسى أن يكره شيئاً وهو خيرٌ له، وعسى أن يحبَّ شيئاً وهو شرٌّ له. وفيما قصَّ الله تعالى من قصص المشركين، أنهم إذا جاءتهم الحسنة فرحوا بها، وإن تصبهم سيئة يَطَّـيَّروا برسلهم، وينسوا أن ما أصابهم فبما كَسَبت أيديهم.

بلاء الطِّـيَرة وسرُّ النهي عنها

وليست الطِّـيَرةُ شُعبةً من الشِّرك والضلالة فحسب، ولكنها علاوة على ذلك عذابٌ للنفوس أليم، وهمٌّ مُقْعد لها مقيم، ومَفْسَدةٌ للعقول والأعمال، ومَضْيَعَةٌ للمَصَالح والآمال. فَمَا مِنْ ساعة تمرُّ، دون أن يرى الإنسان فيها ويسمع ما يجوز أن يكون داعيةً من دواعي التطيُّر، فإذا تَشَاغَل بذلك وتشاءم، فما أنكد عَيْشَه، وما أمرَّ حياته.

لهذا قضى النبيُّ ﷺ على الطِّيَرة قضاءً مُبْرَماً، وأبْطَلَها بالأسلوب الذي أبطل به العَدوى، وقَصَد من نفيها ـ وإن كانت معروفةً عند الآثمين ـ نفيَ سببيَّتها، فَضْلاً عن تأثيرها والاعتماد عليها.

ليس العرب بدعاً في التشاؤم

ومن الإنصاف أن نقرِّر أنه ليس العرب في التشاؤم نسيجَ وَحْدِهم، بل لا تكاد تخلو أمةٌ ولا بلدة في مَشَارق الأرض ومغاربها من التشاؤم، وإن اختلفت في أنواعه وصفاته.

هؤلاء العَجَم يُنقل عنهم أنهم يَتَشاءمون بالصبيِّ يذهب إلى المعلم بالغداة، ويتيمَّنون به راجعاً من عنده إلى منزله. ويتشاءمون بالسقَّاء على ظهره قُربةً مملوءة مشدودة، وبالحمَّال المُثَقل بالحَمْل، وبالدابَّة المُوقَرة، ويتيَمَّنون بعكس ذلك، ومن الناس مَنْ يخالفهم في هذا كلِّه، ومن الناس من يتشاءم بعدد خاصٍّ، أو بيوم معيَّن.

وقد سُئل مالك رحمه الله عن الحجامة يوم السبت ويوم الأربعاء، فقال: لا بأس بذلك، وليس يومٌ إلا وقد احتجمتُ فيه، ولا أكره شيئاً من هذا، حجامةً ولا طلاءً ولا نكاحاً ولا سفراً في شيء من الأيام.

وضلالةُ الشُّؤم والمتشائمين، في العصور الخَوَالي، بل في عصر المدنية والنور ـ كما يقولون ـ أكثر من أن تُحصى[1].

إنكار حكماء الجاهلية التطيُّر

على أنه كان من عقلاء الجاهلية وحكمائهم من يُنكر التطيُّر، ويتمدَّح بتركه ولا يراه شيئاً. وفي ذلك يقول المُرقِّش:

ولقد غَدَوتُ وكنتُ لا ... أغدو على واقٍ وحاتم[2]

فإذا الأَشَائمُ كالأيا ... مِنِ والأَيَامنُ كالأشائم[3]

وقال آخر:

تعلَّم أنه لا طَيْر إلا ... على مُتطيِّرٍ وهو الثُّبور

بلى، شيءٌ يوافق بعضَ شيءٍ ... أحايينا، وباطِلُه كثير

---

(١) اقرأ طرفاً طريفاً منها في «شرح أحاديث كلية اللغة» لأستاذنا العلامة عبد الحليم أحمد. وفي شرحنا هذا شَذَراتٌ من بلاغته (طه).

(٢) **الواقي**: الصَّرد. وهو طائرٌ أبقع ضخم الرأس يكون في الشجر، نصفه أبيض ونصفه أسود، وقد تحذف ياؤه؛ تسمية له بحكاية صوته. **والحاتم**: الغراب؛ لأنه يحتم بالفراق على زعمهم (طه).

(٣) أورد الزَّبيدي هذه الأبيات في «تاج العروس» ماده (ح ت م) و(و ق ى)، وقال: وأنشد الجوهري للمرقِّش، ويروى لخُزر بن لَوْذَان. والأبيات في «الصحاح» للجوهري ٥: ١٨٩٣ ولم أعرف أيُّ المرقِّشين هو؟ الأكبر: عوف بن سعد، أم الأصغر: عمرو بن حرملة.

وقال ثالث:

الزَّجْـر والطَّـير والكُهَّـان كلُّهـم ... مُضـلِّلون ودون الغَيْـب أقْفـال

بم يُدفع التطيُّر؟

ولمَّا كان الاحتراز من التطيُّر بليغُ العُسْر والمَشَقَّة، رُفع عن الإنسان ما يَعْتريه منه، وما يُوَسْوس له الشيطان فيه، ولم يُؤَاخَذْ إلا بركونه إليه، واعتماده عليه.

أخرج عبد الرزاق عن إسماعيل بن أميَّة عن النَّبيِّ ﷺ: «ثلاثة لا يَسْلم منهنَّ أحد: الطِّيرة، والظنُّ، والحَسَد، فإذا تطيَّرت فلا ترجع، وإذا حَسَدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقِّق»[1].

وأخرج أبو داود عن عروة بن عامر قال: ذُكرت الطِّيَرَةُ عند رسول الله ﷺ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» ١٠ :٤٠٣(١٩٥٠٤)، ومن طريقه البيهقي في «الشُّعب»(١١٢٩) عن معمر، عن إسماعيل بن أمية مرفوعاً: «ثلاث لا يعجزهنّ ابن آدم: الطيرة، وسوء الظن، والحسد. قال: فينجيك من الطِّيرة أن لا تعمل بها، وينجيك من سوء الظن أن لا تتكلم به، وينجيك من الحسد أن لا تبغي أخاك سوءاً» وإسماعيل: لم يدرك صحابياً، فهذا إسناد معضل.قال الحافظ في «الفتح» ١٠ : ٤٨٤: وهذا مرسل أو معضل، ولكن له شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البيهقي في «الشعب»، وأخرج ابن عدي بسند ليِّن عن أبي هريرة رفعه: «إذا تطيَّرتم فامضوا، وعلى الله فتوكّلوا».

والشاهد الذي أشار إليه الحافظ في «الشعب» ٢ :٣٧١-٣٧٢ (١١٣٠)و (١١٣١) ساقه البيهقي من وجهين إلى شعبة، عن محمد بن إسحاق، قال في الأولى: عن الأعرج، عن أبي هريرة. وقال في الثاني: عن علقمة بن أبي علقمة، عن أبي هريرة. وكلٌ واحدٍ منهما يشهد للآخر، ورواية شعبة عن ابن إسحاق يؤمَن فيها تدليسه، وإن عَنْعَن.

وروى ابن عدي ٤ :١٦٢٣ من طريق عبد الرحمن بن سعد بن عمار، عن عبد الله بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا حسدتم فلا تبغوا، وإذا ظننتم فلا تحقِّقوا، وإذا تطيَّرتم فامضوا، وعلى الله توكلوا». وعبد الرحمن بن سعد: ضعيف، والمقبري: متروك، فقول الحافظ: «بسند ليِّن ..» فيه نظر.

فقال: «أحسنها الفألُ، ولا تردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهمَّ لا يأتي بالحَسَنات إلا أنت، ولا يدفع السَّيِّئات إلا أنت، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بك»[١].

وسأل كعبٌ الأحبار عبدَ الله بن عمر[٢]: هل تتطيَّر؟ فقال: نعم، قال: فكيف تقول إذا تطيَّرت؟، قال أقول: «اللهمَّ لا طَيْرَ إلا طَيْرك، ولا خَيْرَ إلا خيرك، ولا ربَّ غيرك، ولا قوَّة إلا بك». فقال كعب: إنه أفقه العرب، والله إنها لكذلك في التوراة[٣].

الترخيص في الفأل

ومما يقترن بالطِّيَرة ويُذكر معها ـ حتى لكأنّه منها ـ «الفأل»، وقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ، لما له من كريم الأثر، في فتح باب الأمل، والحثِّ على الجدِّ والعمل، وحُسْن الظنِّ بالله عزَّ وجل. وعلى العكس من ذلك التشاؤم والعياذ بالله تعالى؛ فإنه مفتاحٌ للشرِّ، مِغْلاقٌ للخير، مُفْضٍ إلى سُوء الظنِّ واضطراب العقيدة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) في الطب. وعروة بن عامر مُختلف في صحبته كما في «التقريب» (٤٥٦٤).

(٢) الصواب: عبد الله بن عمرو كما سيأتي.

(٣) هكذا في «مفتاح دار السعادة» [٢ :٥٦٧]. ورواه صاحب «الفتح» مختصراً موقوفاً على عبد الله بن عمرو بالواو، ولعلَّ هذا راجح لأنه معروف باطّلاعه على التوراة (طه). وكذلك أورده الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص١٤٣ من حديث عبد الله بن عمرو، وعزاه إلى «مسند ابن وهب»، وفي مسند أحمد ٢: ٢٢٠ (٧٠٤٥) عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «من ردّته الطِّيرة من حاجته فقد أشرك»، قالوا: يا رسول الله، ما كفَّارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اَللَهمَّ لا طيْر إلاَ طيرُكَ، ولا خيْرَ إلا خيرُك، ولا إله غيرُك»، وهو حديث حسن. قال الهيثمي في «المجمع» ٥ :١٠٥: رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طِيَرَةَ، وخيرُها الفأل»، قالوا: وما الفألُ يا رسول الله؟ قال: «الكلمةُ الصَّالحة يسمعها أحدكم»[١].

وفي رواية: «ويعجبني الفأل؛ الكلمة الحسنة»[٢].

وأخرج الترمذي من حديث أنس أنه ﷺ كان إذا خرج لحاجة يُعجبه أن يسمع: «يا نجيح يا راشد»[٣].

وأخرج أبو داود أنه ﷺ كان لا يتطيَّر من شيء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، ورُئِي بِشْر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رُئي كراهة ذلك في وجهه[٤].

وسواءٌ أكان الفأل ضَرْباً من الطِّيرَة، مُستثنىً منها، كالرُّقية بالمأثور تستثنى من غيرها، أم لم يكن كذلك، فإنَّ الفأل بريءٌ من الشِّرك جارٍ على مقْتضى الفطرة، موافقٌ لما أودع الله غرائز الناس وطبائعهم من الارتياح إلى المنظر الأنيق، كالخُضْرة الرائعة، والماء السَّلس، ومن الاسْتبشار بالأسماء الجميلة، كالسَّلام، والنجاح، والبُشْرى. ومحالٌ أن يدخلَ هذا وما إليه في حكم التطيُّر، اللهَّم إلا أن يَقصد إليه المرء قصداً[٥].

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦١٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩٢٠).

(٥) انظر: الفرقان بين الفأل والطيرة في أواخر الجزء الثاني من «مفتاح دار السعادة» [٥٥٧-٥٧٣] لابن القيم، واقرأ أعاجيب من أخبارهما (طه).

إبطال مزاعم الجاهلية(١)

-٣-

دفع شبهة التعارض بين الأحاديث

بقي علينا أن ندحض شبهةَ التعارض بين الأحاديث الصَّريحة في نفي الشُّؤم، والتحذير منه، وبين أحاديث أخرى قد يُفهم منها أنها تثبته، كحديث الشيخين: «**إنَّما الشؤم في ثلاثة: في الفرس، والمرأة، والدار**»(٢).

ومنشأ الشُّبهة تفسير الشؤم في هذا الحديث بالمعنى المشهور، وهو التطيُّر المنهي عنه. ولكنَّ المرادَ به هنا كراهيةُ الشيء واستثْقَالُه وحَرَجُ الصَّدر منه.

ولما كانت هذه الثلاثةُ أشدَّ ملازمةً للمرء واتّصالاً به؛ فقلَّما يستغني عن دابَّة يركبها، وامرأة يتزوَّجها، ودارٍ يسكنها، رخَّص له أن يفارقَها إلى غيرها، إذا ضاق بها ذرعاً. وماذا يصنع بامرأةٍ مُريبةٍ أو سَليطةٍ أو مُسْرِفةٍ، وبفرسٍ شَموسٍ أو مُلْهية، وبدارِ سوء في نظامها أو جيرانها؟!.

ليس له إلا أن يُطلِّقَ أو يبيع غير آسف؛ رفعاً للقلق الذي يُسَاور النفوس، وللوسوسة التي تحيط بالصُّدور؛ ورفقاً به أن يقعَ في هُوَّة التطيُّر المحظور(٣).

---

(١) مجلة الأزهر، العدد الرابع، السنة السادسة عشرة (١٣٦٤_١٩٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٣)، ومسلم (٢٢٢٥).

(٣) أخرج عبد الرزاق (١٩٥٢٦)، وأبو داود (٣٩٢٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩١٨) بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال: قال رجل: يا رسول الله، إنا كنّا في دار كثير فيها =

ويؤيِّدُ هذا التفسير أحاديثُ، منها ما رواه أحمد وصحَّحه ابنُ حبَّان والحاكم: «من سعادة ابن آدم ثلاثةٌ، ومن شِقْوة ابن آدم ثلاثة: من سعادة ابن آدم: المرأةُ الصَّالحة، والمَسْكَنُ الصَّالح، والمَرْكَبُ الصَّالح. ومن شِقْوة ابنِ آدم: المرأةُ السُّوء، والمَسْكَنُ السُّوء، والمَرْكَبُ السُّوء»[١].

وعلى هذا فليس الترخيص بترك هذه الأشياء إقْراراً للطِّيَرة، ولا استثناءً منها، كما قيل.

وَوَجْهٌ آخر، وهو أنَّ الشُّؤم هنا فَرَضيٌّ ليس غير، أي: إنْ فُرِض في شيء من الأشياء شُؤْمٌ، فهو في هذه الثلاثة؛ لأنها ألصق الأشياء بالإنسان، ولكنها ليس فيها شُؤْمٌ البتة، فأولى غيرها.

ويُؤيِّد هذا رواية الصحيحين عن سهل رضي الله عنه: «إنْ كان في شيءٍ ففي المرأةِ، والفرسِ، والمَسْكَن»[٢] يعني الشُّؤم.

ونظيرُ هذا ما وَرَد في العين عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «العيْن حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابق القدر، سبقته العين»[٣].

عددنا، وكثيرٌ فيها أموالنا، فتحوَّلنا إلى دار أخرى، فقلَّ فيها عددنا، وقلَّت فيها أموالنا، فقال رسول الله ﷺ: «ذروها ذميمة». قال البغوي: فأمرهم بالتحوُّل عنها، لأنهم كانوا فيها على استثقال لظلِّها واستيحاش، فأمرهم بالانتقال؛ ليزول عنهم ما يجدون من الكراهية، لا أنها سببٌ لذلك.

(١) أخرجه أحمد ١: ١٦٨ (١٤٤٥)، وابن حبان (٤٠٣٢) بلفظ: «أربع من السعادة: المرأةُ الصَّالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السُّوء، والمرأة السُّوء، والمسكن الضيِّق، والمركب السُّوء» وإسناده صحيح على شرط البخاري. وأخرجه ابن حبان (٦١٢٧) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: «لا عدوى ولا طيرة ولا هام، فإن تكُ الطِّيَرة في شيءٍ، ففي المرأة والفرس والدار».

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٩)، ومسلم (٢٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٨)، انظر حديث: «العين حقٌّ» ص١٨٩.

ومعلومٌ أنَّ شيئاً ما لا يسابق القَدَر، فالعينُ لا تسابقه. ولئن كان هذا التعليق أبلغ في إثبات العين، وأنَّها حقٌّ؛ إنَّ ذلك أبْين في نفي الطِّيَرة، وأنها ضلالٌ وإفك.

إبطال الهامة والصَّفَر

وأمَّا الهامةُ ـ وأكثرها في أشعارهم وأخبارهم ـ فهي وليدة الخيال، وسلالةُ الجهل والضلال، ورزيئة الأفكار والأحلام، وزريعة الخبال والأوهام[1].

وسواء أكانت هي البومة التي تنعق فتُنذر بالموت والخراب، أم كانت هي الطائر الذي ينشأ من عظام القتيل، أو روحه فلا يزال يصيح حتى يُؤْخذَ بثأره؛ فكلٌّ ذلك من التُّرَّهات التي اصْطَنعتها الجاهلية الأولى، ثمَّ ورثتها القرون والأجيال.

زعمٌ جاهليٌّ باطل

ومن هذا القبيل ما زعموا أنَّ في البطن حيَّةً تلتصق بالضُّلوع فتعضُّها، وينشأ عن ذلك ما يشعر به الجائع من ألم الجوع، وهذا ما رجَّحناه في معنى الصَّفَر هنا. وهو زعمٌ جاهليٌّ باطلٌ لا دليلَ عليه إلا الزُّور والبهتان.

ومن القضايا الأوليَّة: أنَّه لا يألم جائعٌ إلا لخُلوِّ مَعِدَته، واحتياجِ شرايينه وأوردته، وسائر أعضائه، إلى الغذاء الذي هو قوام حياته، وعماد عيشه. وما أشْبَهَ الإنسان في حاجته إلى الغذاء، بالآلة البخارية في حاجتها إلى الوقود؛ إذا نفد أو تراكم تعطَّلت، أو اضْطَرَبت، وإذا تجدَّد باعتدال أدَّت وظيفتها وانتظمت.

النَّوْء والغول

ذلك، وفي بعض رواياتِ هذا الحديث، علاوة على ما تقدَّم: نفيُ النَّوْء،

---

(١) الزَّريعة، كسَفينَة: الشيءُ المزروع، والزُّرْعة ـ بالضمِّ ـ كغرفة: البَذْر.

وفي بعضها: نفيُ الغول.

فأما النَّوْء: فهو النَّجْم إذا مالَ للغروب، وكانوا يعتقدون أنَّ الأمطار أثرٌ لتلك الأنواء، وأنَّ الأنواء هي التي تُرسلها وتُهيمن عليها؛ فإذا أصابها الغيث كفروا بالله ونعمته، وقالوا: مُطرنا بنوء كذا.

وفي هذا جَهْلٌ بوظائف النُّجوم، وشركٌ بالواحد القيوم. وأنَّى للكواكب أنْ تصنعَ شيئاً وهي سابحةٌ في أفلاكها، مُسَخَّرةٌ بتسخير الله لها؟! لكنه ضلال الإنسان وجهله، وهو العاجزُ عن تدبير أمره، وسياسة طعامه وشرابه.

الحكمة في خلق النجوم

وقد أبان الله تعالى في كتابه أنَّه ما خلق النجوم إلا لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدىٰ بها في البرِّ والبحر[1]. فَمَنْ تأوَّل فيها بغير ذلك فقد أخطأ، وأضاع نفسه، وتكلَّف ما ليس له به علم. فإنْ اعتقد أنها تُنبئ بغيب، أو تؤثِّر في سَفَر أو حَضَر، أو في سَعْد أو نَحْس، فقد ألغى عقله، وجَحَد ربَّه، وعكس الآية؛ إذْ نَسَبَ إلى المخلوق ما تفرَّد به الخالق.

وفي حديث الصحيحين ممَّا روى الرسول ﷺ عن ربِّه عزَّ وجل أنه قال: «أصبح مِنْ عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مُطِرنا بفَضْل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكواكب، وأما من قال: مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكواكب»[2].

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]. وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقال أيضاً: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٨) في صلاة الاستسقاء، و (٤١٤٧) في المغازي، ومسلم (٧١) في الإيمان.

وما المطرُ إلا أثرٌ من آثار رحمة الله بعباده، وإنْ هيَّأته أسبابٌ وعواملُ، مُتَّصل بعضها ببعض، فذلك تقدير العزيز العليم. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

قد أشار التنزيل في غير آيةٍ إلى كثيرٍ من أُمَّهات الحقائق الكونيَّة التي اتَّفقت عليها كلمةُ العلم الحديث، حتى حُقَّ للعلماء أن يخرُّوا عند تلاوتها سُجَّداً، وأن يقولوا مقالة الملائكة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

وأما الغول: فقد كانوا يتوهَّمون أن نوعاً من سَحَرة الجنِّ، تسكن المفاوز والقِفار، ترصُدُ المسافرين فتتغوَّل لهم تغوُّلاً، أي تتلوَّن لهم ألواناً مُختلفةً مُرْهبة؛ لتُضِلَّهم عن الطريق فيهلكوا. ولهم في ذلك أحاديثُ وأساطير كلُّها منسوجةٌ على منوال الخيال.

وقد ألمَّ صاحب «بلوغ الأَرَب»[3] بطائفةٍ ممَّا زَعَموا من أخبار الغِيلاَنِ، ومحادثَتِهم للجانّ.

---

(١) سورة الروم ٤٨ ـ ٥٠ والكِسَف: القِطَع وزناً ومعنى، والوَدْق: المطر، والمُبْلس: الآيس، ومنه إبليس، لأنه أيس من رحمة الله تعالى (طه).

(٢) سورة البقرة: ٣٢.

(٣) هو العلامة محمود شكري الآلوسي المتوفى سنة ١٣٤٢ رحمه الله تعالى. وقد فاز كتابه «بلوغ الأرب في أحوال العرب» المطبوع في ثلاثة أجزاء بجائزة ملك السويد والنَّرويج. كما في «أعلام العراق» للأثري ص ٩٣ ـ ٩٧.

العفاريت والمَرَدَة

ومن هذا القبيل ما يتخيَّل العامَّة عندنا، من العفاريت والمَرَدَة التي تتمثَّل على صورٍ شتى في الأمكنة المُوحشة، لا سيِّما التي تُنكبُ بحادثٍ مروِّع، من قتل أو حريق.

لا ريْبَ أنَّ الجنَّ، ومنهم الشياطين، ثابتون بنصوصٍ صريحة من الكتاب والسنة، وأنَّ الإيمانَ بهم أصلٌ من أصول الدين، ولكنَّ المنفيَّ هو تلك الأقاصيص التي لم يُنزل الله بها من سلطان.

هذه بعض الخُزَعْبَلات[1] التي حاربها الرسول ﷺ، وأصحابُهُ، وتابعوه، وجدُّوا في القضاء عليها بعد أن استَوْلت على الجاهليين فعشَّشَتْ، ثمَّ باضَتْ وفرَّختْ، فلم تُنتج إلا الوبَال والضلال.

آثار الخرافات والتغافل عنها

وهاهي ذي ـ والأسف يملأ القلوب ـ تفشُو في العالم كافَّة، وفي الشَّرق خاصَّة، فتلدُ شروراً وآثاماً، وتملأُ الدنيا ظلاماً وقَتاماً، وتقف سدوداً منيعةً في طريق الهُدى والرَّشاد، وتُعطِّل مصالح العباد والبلاد. وما ذلك إلا أثرٌ من آثار التغافل عن الدعوة أو التهاون بها؛ فإنه لن يقومَ باطل إلا في غفلة حق.

وممَّا زاد الأمرْ عُسْراً والداء رَهَقاً، أن تَغَلْغَلَت هذه الأباطيل في الناس، وألفت منهم مَرتعاً خصيباً، فلم تَدَعْ منزلاً إلا سكنت فيه، ولا مُجتمعاً إلا أَوَتْ إليه، حتى هالَ أمرُها المُصلحين، وظنُّوا أن لا خَلاصَ للإنسان من وبائها بعد أن نَبَتَتْ فيهم وشبَّت معهم، وأَضْحَت عقائدَ موروثةً لديهم، وتقاليدَ مختلطةً بلحومهم ودمائهم.

لا جَرَم أنَّ الداء جِدٌّ خطير، وأنَّ الدواء جِدٌّ عسير. ولكن ما كان هذا ومثله

---

(١) الخزعبل، والخزعبيل، والتُّرَهة، والباطل: بمعنى واحد.

معه، ليحول بين المُصلحين وبين مهمَّتهم، في إنقاذِ البشريَّة، والعملِ على الخير للإنسانية، وإلا فما هو حقُّ الرعاية التي استَرعاهم الله إيَّاها، وما هو شكر النِّعمة التي فضَّلهم الله بها، فجعلهم على الناس قوَّامين، وإلى الخير والهدى دُعاةً مرشدين؟!.

التَّخلية قبل التحلية

لن تقوم للأفراد، ولا للأمم قائمةٌ ما دامت الأمراض تَنْتَابُها، فَلْنَحْسُم الداء قبل أن نصفَ الدواء، ولنبدأ بأنفسنا فلنعالجها قبل أن نُعالج المرضى، وإلا استهزؤوا بنا، وسَخِروا منا، وردُّوا بضاعتنا، فخسرنا وخسروا، وكنا في البلاء شركاء.

تصفُ الدواء لذي السَّقام وذي الضَّنا كَيما يَصِحُّ به وأنت سقيم؟!

لقد كانت عناية الأنبياء صلواتُ الله وسلامه عليهم بمحو الرذائل، أشدَّ من عنايتهم ببناء الفضائل، ـ وهكذا يفعل المُصلحون المُخلصون، ولن يَيْئَسوا من رَوحْ الله، ـ ذلك لأنَّ الرذائل رجْسٌ وقَذَرٌ، والفضائلَ طُهْرٌ وعفاف، ولن ينبت الطهرُ في حَمأَةِ الرِّجس، إلا أن ينبت الزَّهر في الأرض السَّبِخَةِ والملح الأُجاج.

واجب الأزهر وأُولي الأمر

وإذا كان الرسول ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، لم يألوا جهداً في محاربة هذه التُّرَّهات والقضاء عليها، فحقٌّ على وَرَثَتِه، والأمناء على ملَّته ـ وعلى رؤوسهم رجال الأزهر ـ ألا ينُوا في إبادتها قولاً وعملاً، بالحكمة والموعظة الحَسَنة، والقُدوة الصَّالحة، في أنفسهم وأهليهم، ومَنْ يمتُّ إليهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وإذا كان من الإنصاف أنَّ نقول: إنَّ الغُيُرَ من الدُّعاة إلى الله قد قاموا بقسطٍ غير قليل من محاربة هذه الخرافات وإنارة العقول، وَهَدْي الناس إلى سواء السبيل. فمن الإنصاف كذلك أن نقول: إنَّ حقاً على مَنْ قلَّدهم الله أَزِمَّة حكمه،

وَمَلَّكهم أمورَ خلقه، واختصَّهم بإحسانه، ومكَّن لهم في سلطانه، أن يَشُدُّوا أزْرَ العلماء، ويضربوا على أيدي الجُهلاء، ويقيموا دينَ الله في الأرض؛ ليكونوا ـ بحقٍّ ـ حِمَى الله في بلاده، وظِلَّه المَمْدود على عباده.

* * * * *

الفصل الثاني

العلم والدعوة

١ ـ مثل من الحيطة في رواية الحديث.

٢ ـ الرحلة في طلب العلم.

٣ ـ كيف يقبض العلم؟.

٤ ـ الاقتصاد في الموعظة.

٥ ـ البعوث في الإسلام (١ ـ ٢).

مَثَلٌ من الحَيْطة في رواية الحديث *

١٨ ــعن أنس رضي الله عنه قال: إنه ليَمْنَعُني أن أُحدِّثكم حديثاً كثيراً أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من تَعَمَّد عليَّ كَذِباً فَلْيَتبوأْ مقْعَدَهُ[١] من النَّار». رواه الشيخان[٢].

أصلان مُشْتبكان وصِنْوانِ لا يفترقان

على القرآن والحديث يعتمد الإسلامُ دينُ الله العام الخالد، في شِرعته ومنهاجه وهديه وإرشاده؛ فهما لهذا الدين الحنيف أصلان مُشْتبكان، وصِنْوان لا يفترقان. وإلى هذا يشير قوله صلوات الله وسلامه عليه: «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بهما: كتابَ الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ»[٣].

وقوله: «ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه..»[٤].

لا جَرَم أنَّ العناية بهما، والحفاظ عليهما، والتثبُّت في روايتهما، تعدل

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد التاسع عشر، سنة(١٣٦٧).

(١) فليتبوأ مقْعده: فليتَّخذ منزله، من المَبَاءة وهي المنزل، يقال: بوَّأه الله منزلاً فتبوَّأه، أي: أسكنه إيَّاه فسكنه.

(٢) رواه البخاري (١٠٨) في العلم، ومسلم (٢) في المقدِّمة.

(٣) رواه مالك في «الموطأ» ٢: ٨٩٩ من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد ٤: ١٣١ (١٧١٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٤). عن المقدام بن معد يكرب وهو حديث صحيح.

العناية بالإسلام، والحفاظ عليه، والاحتفال به؛ إذْ كانا أساس بنيانه، ودعام أركانه، ومِلاك أمره.

ومن فَضْل الله ورحمته بهذه الأمة أنْ آتاها ما لم يُؤْتِ أحداً سواها؛ ومن ذلك أنْ خصَّها بحفظ كتابها، والعناية بآثار نبيِّها، ممَّا لم يعرف التاريخُ مثلَه ـ بل بعضَه ـ لأمةٍ من الأمم.

نهيُه ﷺ أول الأمر عن كتابة الحديث

وقد كان من آيات نبوَّته، وعظيم حكمته ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ أنْ صَرَفَ هِمَمَ أصحابه أوَّل الأمر، إلى كتاب ربِّه، يَتْلونَه حقَّ تلاوته، ويدرسونه حقَّ دراسته، ويهتدون بهديه، ويستضيئون بنوره.

وبلغ من اهتمامه بهذا الكتاب العزيز أنْ أذِن لأصحابه بأن يحدِّثوا بحديثه دون أن يكتبوه، فقال: «لا تكتبوا عنِّي، ومن كتب عنِّي غير القرآن فَلْيَمْحُه»[1]، حتى إذا اطمأن إلى بليغ عنايتهم بالتنزيل، وشدَّة حرصهم عليه، أَذِنَ لهم بكتابة الحديث عنه، كما أذن لهم من قَبلُ في روايته؛ فكان جلُّ اعتماد الصحابة رضي الله عنهم على حفظهم من رسول الله ﷺ وتلقِّيهم عنه. ومَنْ كتب منهم؛ فإنَّما كان يكتب مبالغةً في الحيطة والتثبُّت.

تحرِّي الصحابة وأمانتهم في رواية الحديث

وكان منهم مُكثرٌ ومُقلٌّ ووسطٌ بين ذلك، ومع تحرِّيهم جميعاً في الرواية

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٤) في الزُّهد والرقائق. قال الحافظ الذهبي في «السير». ٣ :٨: «انعقد الإجماعُ بعد اختلاف الصحابة رضي الله عنهم على الجواز والاستحباب لتقييد العلم بالكتابة. والظاهر أنَّ النهي كان أولاً لتتوفَّر هِمَمُهم على القرآن وحده، وليمتاز القرآن بالكتابة عما سواه من السُّنن النبويَّة، فيُؤْمن اللَّبْسُ، فلما زال المحذور واللَّبْسُ ، ووضح أن القرآن لا يشتبه بكلام الناس، أُذِنَ في كتابة العلم، والله أعلم».

عن رسول الله ﷺ، وبليغ أمانتهم في الحديث عنه ـ مَنْ كَتَبَ منهم ومَنْ لم يكتب ـ كان كثيرٌ منهم يُمسك عن الحديث ـ وهو يحفظه ـ خشيةَ أن يخطئ وهو لا يشعر؛ والثقة إذا حدَّث بشيءٍ، عُمِلَ به؛ اعتماداً على ما يُعهد فيه من الصِّدق.

وليس الخطأ ـ وإنْ لم يأثم صاحبه ـ بالأمر اليسير على أهل الورع والتُّقى، وسادتهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ ومن ثَمَّ كان خوف أنس وأمثاله رضي الله عنهم، مع أنَّ أنساً كان خادم رسول الله ﷺ، ومِنْ أدرى الناس به، وأحفظِهم لحديثه، وقد رُوي عنه مئون من الحديث[1]، ولكنَّها قليلةٌ جداً، إذا قيست بمكانه من رسول الله ﷺ، وبعمره الطويل المبارك[2]، وبحاجةِ الناس إلى مثلِ علمِهِ وفهمه.

أحفظ الصحابة للحديث

وأحفظُ الصَّحابة للحديث ـ غير مدافَع ـ أبو هريرة رضي الله عنه[3]، وقد

---

(١) مسند أنس رضي الله عنه (٢٢٨٦) اتفق له البخاري ومسلم على ١٨٠ حديثاً، وانفرد البخاري بثمانين حديثاً، ومسلم بتسعين. كما في «السير» ٣ :٤٠٦، وعدد أحاديثه في مسند أحمد (٢١٧٠) انظر: المسند ٣ :٩٨ (١١٩٤١)- ٣ :٢٩٢ (١٤١١١).

(٢) وُلدَ أنس قبل الهجرة بعشر سنين، ومات سنة ثلاث وتسعين، وعمره مئة وثلاث سنين رضي الله عنه كما في «السير» ٣ :٤٠٦

(٣) مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٥٣٧٤) اتفق له البخاري ومسلم على ٣٢٦ حديثاً، وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين حديثاً، ومسلم بمئة وتسعين. وله في مسند أحمد (٣٨٦٦) حديثاً من الحديث (٧١١٩) إلى الحديث (١٠٩٨٤) كما في طبعة مؤسسة الرسالة.

ذكر البخاريُّ أنَّ ثمانمئة من التابعين قد رَوَوْا عنه، ولم يقع هذا لغيره[١]، مع أنَّ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قد كَتَبَ عن رسول الله ﷺ أكثر منه بشهادة أبي هريرة نفسِه[٢]، ولكنَّ اشتغاله بالعبادة، ونظَرَه في كتب أهل الكتاب، ورحلته إلى مصر أو الطائف أقلَّت من تحديثه والأخذ عنه[٣].

ومع أنَّ أبا هريرة لم يُحدِّث بكلٍّ ما حفظ ووعى، فقد أنكر عليه كثرةَ

---

(١) قال الإمام البخاري: روى عنه نحو من ثمانمئة رجل أو أكثر من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، وغيرهم. كما في «تهذيب الكمال» ٣٤ :٣٧٧، و «سير أعلام النبلاء» ٢ :٥٨٦، و«الإصابة» ٤:٢٠٣. وقد قام العالم الفاضل الأستاذ عبد المنعم صالح العلي في كتابه «دفاع عن أبي هريرة» بتتبُّع مرويات أبي هريرة، والتفتيش عن أسماء الرواة عنه، للبرهان على دقة كلام البخاري هذا، وأورد القوائم بأسماء هؤلاء الرواة، فبلغ ماأحصاه من الأسماء الواضحة (٧٢٧) نفساً، ثم أضاف إليهم قائمة بمن ذُكر باسمه دون نسبته، أو بكنيته فقط،أو ذكرت أسماؤهم غير واضحة، ومجموع الجميع (٣٨) نفساً، فيكون العدد الإجمالي(٧٦٥) راوياً، وهو قريب جداً من قول البخاري.

قال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى في كتابه«السنة ومكانتها في التشريع» ص٢٩٧: «وإنَّ في أخذ هؤلاء الثمانمئة من كبار الصحابة والتابعين عه، ونقلهم لحديثه، وثقتهم به، لثمانمئة برهان على جلالة قدره، وصدق لهجته، وثمانمئة تكذيب لمن أكل الحسد والعداوة والتعصُّب قلوبهم من المستشرقين، ومن تَبِعَهم من المسلمين».

(٢) روى البخاري (١١٣) عن همّام بن منبِّه قال: سمعت أبا هريرة يقول: «مامن أصحاب النبيِّ ﷺ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب».

(٣) مسنده ٧٠٠ حديث، اتَّفقا له على سبعة أحاديث، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين. وعدد أحاديثه في مسند أحمد (٦٢٧) انظر: المسند ٢ :١٥٨ (٦٤٧٧) ـ ٢: ٦٢٦ (٧١٠٣).

تحديثه جمعٌ من الصحابة، حتى أبان لهم عذرَه في ذلك فكفّوا عنه[١].

روى البخاريُّ عنه أنه قال: إنَّ الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدَّث حديثاً، ثم يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

إنَّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ في الأسواق، وإنَّ إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإنَّ أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشِبَع بطنه، ويحضُر ما لا يحضرون، ويحفظُ ما لا يحفظون[٣].

ثم يبيِّن لهم السرَّ في عدم نسيانه، بما أصابه من بركة رسول الله ﷺ ودعائه له، فيقول ـ كما روى الشيخان عنه ـ: قلت: يا رسول الله إني أسمع

---

(١) وفي هذه الأيام ينكر عليه، بل ينال منه قومٌ لا خَلاَق لهم من علم ولا معرفة، وربما ساعدهم على طعنهم ما يَصْطنعه الوضَّاعون من أحاديث ينسبونها إليه، وليست من مروياته في شيء! (طه).

وقد سخَّر الله من يدافع عن أصحاب رسول الله ﷺ، ويردُّ على أعداء السنة، ومن المعاصرين الذين نافحوا عن أبي هريرة، وكشفوا زيف الأعداء الطاعنين: الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني في كتابه «الأنوار الكاشفة»، والدكتور محمد محمد السماحي في كتابه «أبو هريرة في الميزان»، والدكتور السباعي في «السنة ومكانتها في التشريع»، والدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه «دفاع عن السنة»، والعالم الفاضل الأستاذ عبد المنعم صالح العلي في كتابه الفذ «دفاع عن أبي هريرة» جزاهم الله عن السنة وأهلها خير الجزاء.

(٢) سورة البقرة: ١٥٩_١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري (١١٨).

منك حديثاً كثيراً أنساه! قال: ابْسُطْ رداءَكَ، فبسطتُه. قال: فَغَرَفَ بيديه، ثم قال: ضمَّه فَضَمَمْتُهُ، فما نسيت شيئاً بعدُ[١].

ثمَّ يعتذر عن عدم تحديثه بكثير ممَّا سمع، فيقول كما روى عنه البخاري: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين؛ فأما أحدهما فَبَثَثْتُهُ، وأما الآخر فلو بَثَثْتُهُ قُطِعَ هذا[٢] البلعوم[٣].

عناية السلف بالحديث

ثمَّ سار التابعون على نهج الصحابة في الحفظ والضبط والتحرِّي في الرواية حتى جاء عصر التدوين، فعُني السَّلف بحديث رسول الله ﷺ عنايةً لم يُعرف لها ـ من بعد كتاب الله عزَّ وجل ـ مثيل.

أنفقوا نفوسَهم وأعمارهم وأموالهم في جمعه وتدوينه، والبحث عن رواته طبقةً طبقة، إلى رسول الله ﷺ ـ ونقلُ الثقة إلى منتهى الحديث ممَّا خصَّ الله به المسلمين دون سائر المِلل ـ وبيَّنوا درجةَ كلِّ حديث حسب قوّة رجاله في العدالة والضبط والتحرِّي.

وبذلك مازوا الغثَّ من السَّمين، والخبيثَ من الطيِّب، ونفوا من رجال الحديث طوائف الدَّجَاجِلَة والمَارقين، والوَضَّاعين والكَذَّابين، والجَهلة

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩)، ومسلم (٢٤٩٢)، ولفظ مسلم: «فما نسيت بعد ذلك شيئاً حدَّثني به».

(٢) كناية عن القتل، ويعني بالوعاء الآخر: أحاديث الفتن وأمراء السُّوء وأحوالهم وما إلى ذلك، وقد تذرَّع الباطنية بهذا الحديث إلى نشر ضلالتهم من أنَّ للشريعة ظاهراً وباطناً، ليتحلَّلوا من عروة الشريعة وأحكامها، وليتَّبعوا وحي الشيطان والهوى (طه).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٠).

المُتعصِّبين، كما ينفي الكير خبثَ الحديد.

ذلك أنَّ أعداء الله ورسوله ـ من الزنادقة والملحدين وأشياعهم ـ قد كادوا لهذا الدين من قديم؛ حاولوا جاهدين أن ينالوا من كتاب الله بالتحريف أو التبديل أو المعارضة، فأحبط الله سعيَهم، وردَّ كَيْدَهم، وجعلهم هُزْأة الهازئين وسُخْرة السَّاخرين، وصدق الله، إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[١].

كشفُ الوضَّاعين ونقد الموضوعات

جرَّبوا محاولتهم بعد خَيْبتهم الأولى، في التقوُّل على رسول الله ﷺ، فوضعوا ما شاء لهم الهوى، وكذبوا ما استحبَّ لهم الكذب، وموَّه كثيرٌ منهم بأقاويل في الترغيب والترهيب قد يوافق بعضٌ منها من معاني الحديث الصحيح؛ فانبرى لهم هؤلاء الأئمة الأعلام، فنقدوا أقوالهم، وكشفوا للناس زيفهم، وفَضَحوا أمرهم، ووقفوا طلاب الحديث على الصحيح منه والسقيم[٢].

والعَجَبُ كلُّ العَجَب أن يغترَّ بهؤلاء الضَّالِّين بعضُ الأعلام من المفسِّرين والمتصوِّفين، فيرووا في كُتبهم طائفةً من أحاديث موضوعةٍ، نبَّه على وضعها أهلُ الحديث ونقدته وفياصِلُ القول فيه[٣].

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) في علم مصطلح الحديث بسط القول في الوضع وأسبابه، والوسائل إلى معرفة درجة الحديث وغير ذلك ممَّا يهمُّ المُستَزيد (طه).

(٣) ولهم في ذلك مصنَّفات معروفة كـ«تذكرة الموضوعات»، و«كشف الخفاء» (طه).

وانظر ما كتبه شيخنا العلامة المحدث عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في كتاب «لمحات مِنْ تاريخ السنة وعلوم الحديث» حول الحديث الموضوع وأسباب الوضع ونتائجه، والأسس

=

منكرو السنة

وشرذمةٌ أخرى ابتلى اللهُ بها الإسلامَ والمسلمين، لا تقلُّ خطراً عن أولئك الأفاكين والوضَّاعين! تلك التي تنكر من حديث رسول الله ﷺ ما لا يوافق هواها، وتجْحَدُ ما يصدُّ شهوةً من شهواتها، أو يقف عقبةً في طريقها، ولو اتَّفق على صحَّته وصِدْق نسبته أئمةُ الهدى، وحُماةُ الشريعة! على حين يُصدِّقون ما يُصادف هواهم، وإنْ قال الثقات الصادقون: إنه كذبٌ مفترى!! وقد يضلِّلون أشياعهم، ويُموِّهون عليهم بتآويل سخيفة لا تختلف ضلالةً عن جَحْد الحديث الصحيح وتكذيبه، أو انتهاك حرمات الله ورسوله! وقد ذهبت الجُرأة بأذناب منهم مذهبَ الشَّطط، فزعموا أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ إلاَّ أحاديث معدودة!!.

ونحن لا نطمع في أن نهدي ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1]، ولكنَّا نذكِّر من نخشى عليه الاغترار بهؤلاء، ومن حفظ شيئاً من مبالغة بعض السلف في رواية الحديث، وغابت عنه أشياء؛ نُذكِّرهم جميعاً بأنَّ رسول الله ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى عن مئة ألفٍ من أصحابه أو يزيدون، وهو عنهم جميعاً راضٍ، وكلُّهم ثقات عدول، وإن كانوا عند الله درجاتٍ.

ثم نتلو عليهم قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

التي أقامها المحدثون لصيانة السنة، والكتب المؤلفة في الموضوعات والوضَّاعين ص٧٩ـ٢٣١.

(١) اقتباس من الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]، وقوله جلَّ سلطانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٢].

* * * * *

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) سورة الحشر: ٧.

الرِّحلة في طَلَبِ العلم *

١٩ ـ عن أبي سليمان مالك بن الحُوَيْرث رضي الله عنه قال: أتينا النَّبيَّ ﷺ، ونحن شَبَبَةٌ مُتقاربون، فأقمنا عندَهُ عشرينَ ليلةً، فظنَّ أنَّا اشتَقْنا أهلَنا، وسألنا عمَّن تركنا في أهلنا. فأخْبَرناه ـ وكان رقيقاً [١] رحيماً ـ فقال: «ارجِعُوا إلى أهليكم، فعلِّموهم وَمُرُوهم، وَصَلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي، وإذا حَضَرت الصَّلاةُ فَلْيؤذِّن لكُمْ أحَدُكُم، ثمَّ لِيَؤمَّكُمْ أكبَرُكُمْ». رواه الشيخان واللفظ للبخاري [٢].

هذه رحلةٌ من الرحلات القديمة في طلب العلم، انتدب لها طائفةٌ من بني لَيْث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وعلى رأسهم مالك بن الحُويرث رضي الله عنه. قدموا في السنة التاسعة على خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

الوفود في العهد النبوي

وكان العربُ من أنحاء الجزيرة في السنتين: التاسعة والعاشرة يقدمون على رسول الله ﷺ أفواجاً؛ لِيُبايعوه على الإسلام ويتفقَّهوا فيه، وكان صلوات الله

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد السابع والعشرون، سنة (١٣٧٥).

(١) هكذا رواية البخاري بالقاف في كتاب الأدب (٦٠٠٨)، من الرقَّة؛ وبالفاء في كتاب الأذان (٦٢٨)، من الرفق. وأما رواية مسلم (٦٧٤) فهي بالفاء فقط. وتقاربهما معنىً كتقاربهما لفظاً (طه).

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٨) في الأدب، ومسلم (٦٧٤) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وسلامه عليه كما وصفه ربُّه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وكما قال: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

إكرامه ﷺ الوفود

كان صلواتُ الله وسلامه عليه يُكرم كلَّ وفد عامَّةً، ويكرمُ كريمَهُم خاصَّةً، فيولِّيه عليهم، ويُوصيه بهم، وكان يُحْسِنُ استقبالهم جميعاً، ويسألهم عمَّن خَلَّفوا من أولادهم وأهليهم، ثم يُشيِّعهم بأكرم وداع وأجمله، كما استقبلهم بأحسنِ ترحيبٍ وأحفله.

وصيَّتُه ﷺ بالبعوث والوفود

وامتدَّت مكرمته ﷺ إلى البعوث والوفود من بعده، فأوصى بهم، وأمر بإكرامهم، ولا تزال تمتدُّ وَصاته ومكرمته ما اهتدت أمته بهديه، واستمسكت بسنَّته ورُشده؛ لأنَّهم رُسُلُ مَنْ خلفهم، وقادةُ مَنْ وراءهم، ولأنهم ـ ماداموا مُخلصين في العلم وطلبه ـ وفدُ الله ورسوله ﷺ، ومرحباً ثمَّ مرحباً بوفد الله ورسوله ﷺ...

روى الترمذي وابن ماجَهْ عن أبي هارون العَبْدي قال: كنا نأتي أبا سعيد رضي الله عنه، فيقول: مرحباً بوصيَّة رسول الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الناس لكم تَبَعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقَّهون في الدين، فإذا أتَوكم فاسْتَوصُوا بهم خيراً»[٣].

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٥٢) (٢٦٥٣)، وابن ماجه (٢٤٧).

وَفْد مالك بن الحُوَيْرِث

لَبِثَ وَفْد مالك رضي الله عنهم في ضيافة رسول الله ﷺ عشرين يوماً وليلة، يُزوِّدهم ويُفقِّههم ويهديهم، حتى طالَ عليهم المَدَى، واشتَهَوْا أهليهم واشتدَّ الشَّوق إليهم، وليست إقامتهم عشرين ليلة ـ ما عدا لياليَ الظَّعن جيئةً وأوْبةً ـ بالأمر الهيِّن على معشر من الشباب يفيض قوَّةً وفتوَّةً ... وما أَنْ قرأ صلوات الله وسلامه عليه ذلك في وجوههم، حتى استَنْبأهم واستَبَانَ صِدقَ فراسته في شغفهم بالعودة.

وصيَّةٌ جامعة

هنالك أَذِنَ لهم بالسَّفر إلى أهليهم، ووَصَّاهم وهو يودِّعهم بهذه الوصية الجامعة.. أمرهم ـ فيما أمر ـ أن يؤدُّوا زكاة علمهم كاملة، فيعلِّموا أهليهم كما علَّمهم الله ورسوله، ويأمروهم بالهدى والخير، ويفقِّهوهم في دين الله كما فقَّههم فيه رسول الله ﷺ ، ومن يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين، ويُلهمه رشده.

وصيَّتُه ﷺ بالصلاة

واختصَّ الصَّلاة ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بمزيد من الوَصاة والعناية، فأمرهم أن يُصلُّوا هم وقومُهم كما رَأَوْهُ يُصلِّي، خشوعاً وقنوتاً وقياماً وقراءة، وسَمْتاً وأناةً وضراعة.

وليعلموا أنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله الصَّلاةُ لوقتها، فإذا حَضَرت الصلاة فَلْيُؤذِّن لهم واحدٌ منهم في سَفَر أو حَضَر، كبيراً كان أو صغيراً؛ لفضلها وعظيم ثوابها، وجليل آثارها في جمع قلوبهم وتأليفها، وتعاونهم على البرِّ والتقوى، ولْيؤمُّهم في الصَّلاة أكبرهم سناً.

وليؤمَّكُم أكبركم

وإنما قدَّم السِّنَّ هنا ـ ومَلاك الإمامة هو الفَضْل في الفقه والقراءة ـ لأنهم استَوَوا في الإسلام والهجرة والصُّحبة، والأخذِ عن رسول الله ﷺ، ومدَّةِ

الإقامة عنده، فَلَمْ يَبْقَ من خِصَال الفَضْل إلا قِدَمُ السِّنِّ وإنْ كانوا شَبَبَةً متقاربين فيها.

قال صاحب «الفتح»: «ولمَّا كانت نِيَّتُهم صادقةً ـ يعني في طلب العلم وتعليمه ـ صادف شَوْقُهم إلى أهليهم الحظَّ الكامل في الدين، وهو أهلية التعليم، كما قال الإمام أحمد في الحِرص على طلب الحديث: «حظٌّ وافق حقاً»[(١)].

والسَّعادة كلُّ السَّعادة في الدين والدنيا أن يكون حظُّ العبد وَفْقاً لمن لاينطق عن الهوى صلوات الله عليه وسلامه، وأن يكون هواه تَبعاً لما جاء به.

مفتاح السعادة

ومفتاح هذه السعادة الشاملة الكاملة، بل سبيلها الذي لاسبيل غيره، هي المحافظة على صلاة رسول الله ﷺ كما أمر بها؛ فإنَّها قوام الدين وعمادُه، مَنْ حافظ عليها كان لما سِوَاها أحفظ، ومن ضيَّعها فهو لما سِوَاها أضْيَع، وهذا هو سرُّ الاعتناء بها، والتشديد في طلبها ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(٢)].

رحلات دائبة متعاقبة

أما بعد؛ فذا حديثٌ من أحاديث الجماعة: الصحيحين وباقي الكتب الستة، في طلب العلم والرحلة إليه، وهذه مجلة الأزهرِ المعمورِ، أكبر جامعة إسلامية وأقدمها، وأعظمها نشراً للعلم والدعوة إلى الله في أرجاء المعمورة.

---

(١) فتح الباري ٢: ٢٠١.

(٢) اقتباس من الآيتين ٤٥ و٤٦ من سورة البقرة.

وإذا كان أكثر أحاديثها متَّصلاً بالأزهر، ولو من بعض نواحيه العامة، فإنَّ هذا الحديث وثيقُ الصِّلة بالأزهر، في أخصِّ نواحيه وأعظمِها شأناً وأجلِّها مكاناً.

ذلك بأنَّ الأزهرَ مَوْئلُ العلوم الإسلامية الأوّل، ينفر إليه طُلاَّبها من كلِّ فجٍّ في مَشَارق الأرض ومغاربها؛ ليتفقَّهوا في الدين وليُنْذِرُوا قَوْمهم إذا رَجَعوا إليهم.. وليس عليهم جُنَاح أن يَبْتغوا فَضْلاً من ربِّهم، ويَشْهدوا منافع لهم في هذه الرحلات الدائبة المُتعاقبة، كما كان يصنع وفدُ مالك بن الحُوَيْرث وغيره من الوفود في العهد النبوي، مَشْرقِ النّور، ومَبْعثِ الهُدى والعلم..

من شُعب الجهاد في سبيل الله

والرحلة في طلب العلم والفقه في الدين شُعبة من شُعَب الجهاد في سبيل الله، لا تقلُّ شأناً عن قتال العدوِّ لإعلاء كلمة الله وحمايتها، بل إنها ـ مع صدق النيَّة، وحُسن الطويَّة، والعمل بالعلم، والدعوة إلى الخير ـ لأجلُّ قدراً، وأرفع مكاناً، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك ـ وقد أنزل الله تعالى في شأن المتخلِّفين عنها من الآيات الشِّداد ما أنزل ـ كانوا يَنتدبون جميعاً إلى الغزو، ويتسابقون فيه حتى لايكاد أحدٌ منهم يبقى مع رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة فصِّلت: ٣٣.

(٢) سورة التوبة: ١٢٢.

فاطمأنوا وأيقنوا أنَّ التفقُّه في دين الله، ونشر دعوته، وإقامة حُجَّته، وتعميم هدايته ـ وهذا هو الغرض كلُّ الغرض منه ـ جهادٌ من أعظم الجهاد.

وتبيَّنوا أن «مداد العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء[١]» ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢]، بَيْدَ أنَّ «العلماء ورثة الأنبياء»، [٣] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[٤].

قال صاحب «المنار» في تفسيره لهذه الآية[٥]: «كنت أطلب العلم في

(١) اقتباسٌ من حديث رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٢: ١٩٣ (١٨١ زوائد) في ترجمة محمد بن الحسن بن أزهر الوضَّاع، من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «وُزِنَ حبر العلماء بدم الشهداء فرَجح عليهم» وهو حديث مرضوع، ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» ٨: ٤٨٥ (٨٨٣٩) مطوَّلاً، وفيه عبد العزيز بن أبي رّواد. قال ابن حبان عنه في «المجروحين» ٢: ١٣٦ روى عن نافع أشياء لا يشك من الحديث صناعته إذا سمعها أنها موضوعة، كان يحدِّث بها توهُّماً لا تعمُّداً. وقد ذكر الزركشي في «اللآلئ» ص ١٦٩، والسَّخاوي في «المقاصد» ص ٣٧٧ رواية الديلمي هذه ولم يتكلَّما عنها بشيء.

والحديث ذكره الزركشي في «اللآلئ» ص١٦٨ بلفظ: «مداد العلماء أفضل من دم الشهداء» وقال: «أخرجه الحافظ أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم البغدادي في جزئه «رواية الكبار عن الصغار» عن الحسن البصري ـ يعني من قوله ـ».

(٢) سورة النساء: ٩٥.

(٣) اقتباس من قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء» وهو حديث حسن رواه أحمد (٢١٧١٥)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤٢) كلُّهم من حديث أبي الدرداء.

(٤) سورة فاطر: ٢٨.

(٥) أي الآية ١٢٢ من سورة التوبة. كما في المنار، لرشيد رضا ١١: ٧٨.

طرابلس، وكان حاكمها الإداري من أهل العلم والفقه[١]. فقال لي مرَّةً: لماذا تستثني الدولةُ العلماءَ وطلابَ العلوم الدينيَّة من خدمة العسكرية.. وهم أولى الناس بها؟!ـ يُعَرِّض بي ـ أليس هذا خطأ لا أصل له في الشرع؟ فقلت له على البداهة: بل لهذا أصلٌ في نصِّ القرآن الكريم، وتلوتُ الآية[٢]. فاستكثر الجواب على مُبْتدِىءٍ مثلي لم يقرأ التفسير، وأثنى وَدَعا»[٣].

---

(١) سمَّاه السيد رشيد رضا: مصطفى باشا بابان من سَرَوات الأكراد.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

(٣) في استدلال الشيخ رشيد رضا بهذه الآية على التفرُّغ للعلم والفقه، وترك الخروج للجهاد في سبيل الله، ومتابعة الشيخ الساكت له وموافقته على استنباطه، نظر. والوجه الصحيح في تفسير الآية، كما قال أستاذنا العلامة المفسِّر الشيخ عبد الرحمن حنبكة الميداني حفظه الله في كتابه «ظاهرة النفاق» ٢ :٤٦٤ـ٤٦٦: «ليس مِنْ شأن المؤمنين أن ينفروا للقتال في سبيل الله جميعاً نفرةً واحدة، فهلاً خرج للقتال إذا دَعَا داعي القتال من كلِّ فرقةٍ من فرقهم الاجتماعية بحسب مهنها وتخصُّصاتها طائفة محدَّدة بعددها، ليتفقَّهوا عن طريق التجارب والممارسات العملية في أمور القتال والحرب من مختلف الجوانب، كالأسلحة، وفنون القتال، وطرائق الأعداء فيها، وكل ما يمكن أن يفيد الأمة الإسلامية، فهذا من التفقُّه في الدين، وذلك لأن القتال في سبيل الله هو من الدين، فكل معرفة تكتسب عن طريق الخبرةِ والتجربة والملاحظة، ولو عن طريق الأعداء المحاربين هو من التفقُّه في الدين. والتفقُّه: هو الفهم الدقيق العميق.

وبعد أن يتفقَّهوا في الأمور التي سبق بيانها، يقومون بوظيفة إعلام قومهم بما توصَّلوا إليه من معلومات، يُعتبر جهلها ثغرة خطرٍ على الإسلام والأمة الإسلامية، فإعلامهم بها هو بمثابة الإنذار لهم بمواطن الخطر، ويكون ذلك بعد رجوعهم من رحلة النَّفْر إلى قومهم رَجَاء حذرهم، فإذا حَذَروا اتَّخذوا وسائل الحماية» انتهى.

وهذا الوجه الذي ذهب إليه شيخنا الميداني، رجّحه الأستاذ سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» ٣ :١٧٣٤ قال رحمه الله تعالى: «والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن =

الأزهر : رسالته وأياديه

أما بعد ـ مرة أخرى ـ فهذا هو الأزهر، وتلك رسالته..

فإذا رأيت شِرذمةً من أشباه المسلمين، أو أدعياء العلم والإصلاح يقومون في وَجْه الأزهر: من عدوٍّ حاقد، أو طريدٍ حاسدٍ، أو ملحدٍ كائد، أو ابنٍ جاحدٍ لأبيه عاق، أو كاتبٍ مدادُه النفاق والشقاق، فلا يهولنَّك أمره، فما هو إلاّ:

كناطحٍ صخرةٍ يوماً ليوهِنَها ... فلم يَضُرْها وأوْهى قرنَه الوَعْل

إنَّ رسالة الأزهر خالدةٌ باقيةٌ، مابقيَتْ مساجدُ الله الثلاثة في البلاد المقَدَّسة، ثمَّ ما بقيتَ أمة الإسلام قائمةً على الحقِّ لايضرُّهم مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمر الله.

مصر والأزهر

أما يد الأزهر على العالم الإسلامي عامَّة، وعلى مصر خاصَّة، فإنها يدٌ مذكورة مشكورة. وحَسْبُ مصرَ أنها لم تتبوَّأ زعامة الشرق ـ وما كان لها أن تتبوَّأها ـ إلا بالأزهر.

ولولا الأزهر ما كانت مصر شيئاً مذكوراً.

المؤمنين لا ينفرون كافَّة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة ـ على التناوب ـ لتتفقَّه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد في سبيل الله، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقهته من هذا الدين أثناء الجهاد والحركة..»

ثم قال: «فالذين يخرجون للجهاد بالدين هم أولى الناس بفقهه..أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممَّن تحركوا،.. ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن، من أن المتخلِّفين عن الغزو والجهاد والحركة هم الذين يتفرَّغون للتفقُّه في الدين! ولكن هذا وهم، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين..».

ولو كان الأزهر في مصر أيام الرشيد لما احتقرها، وقال مقالته المأثورة ـ حينما قرأ قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[١] الآية ـ «**لأولينَّها أحسن عبيدي**». فولّاها الخصيب[٢]، وكان على وضوئه!.

وعن عبد الله بن طاهر[٣] أنه وُلِّيها[٤]، فلمَّا شارفها قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون؟! والله لهي أقلُّ عندي من أنْ أدخلها، وثَنَى عنانه!

إنَّ الشِّرذمة التي تكيد للأزهر لا تكيد لمصر وللعروبة خاصَّةً، بل تكيد للعالم الإسلامي كافَّةً، بل ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٥].

* * * * *

---

(١) سورة الزخرف: ٥١.

(٢) الخصيب بن عبد الحميد، صاحب ديوان الخراج بمصر، كما في «وفيات الأعيان» ١ :٦١.

(٣) عبد الله بن طاهر بن الحسن، الأمير العادل، أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر، تأدَّب وتفقّه، وله يدٌ في النظم والنثر. قلَّده المأمون مصر وإفريقيَّة، ثم خراسان، وكان ملكاً مطاعاً سائساً مهيباً جواداً، ممدحاً من رجال الكمال. مات سنة ٢٣٠، وله ثمان وأربعون سنة. كما في «سير أعلام النبلاء» ١ : ٦٨٤.

(٤) وكان دخوله إليها سنة ٢١١، وخرج منها في أواخر هذه السنة، فدخل بغداد في ذي القعدة فيها، واستمرَّ نوَّابه بمصر، وعُزل عنها سنة ٢١٣ كما في «وفيات الأعيان» ٣ :٨٧.

(٥) اقتباس من الآية ٣٢ من سورة التوبة.

كيف يقبض العلم *

٢٠ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينْتَزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبْض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رءوساً جُهَّالاً، فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»! . رواهُ الشيخان واللفظ للبخاري[1] .

ميراث الأنبياء:

العلماء وَرَثة الأنبياء، ما في ذلك رَيْبٌ.

والأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما وَرَّثوا العلم:

ورَّثوا العلم بأسماء اللهِ وصفاته، وسُنَنه في خلقه وآياته.

وورَّثوا العلم بكتاب الله وحدُودِه، والحُكم بما أنزل الله فيه.

وورَّثوا العلم بشريعة الله ودينه الذي رضيَهُ لعباده، وتعبَّدهم به، ووصَّاهم أن يقيموه ويهتدوا بهديه؛ لأنه النور المبين، والصِّراطُ المستقيم، إلى الحياة الطِّيبة، والعيشة الراضية، والجزاء الأوفى، في الآخرة والأولى.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد التاسع والعشرون ١٣٧٧= ١٩٥٨.

(١) أخرجه البخاري (١٠٠) باب كيف يقبض العلم، وهذه ترجمة الإمام أبي عبد الله البخاري في كتاب العلم، وهذا لفظه فيه، ورواه بلفظ آخر في كتاب الاعتصام (٧٣٠٧) وترجمته فيه: باب ما يذكر من ذمِّ الرأي وتكلُّف القياس، ورواه مسلم (٢٦٧٣) في كتاب العلم كذلك، وترجمته هناك: باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان. والحديث عَلَمٌ من أعلام نبوَّته كماترى (طه).

ومصْداق ذلك كله قول الله جَلَّت آلاؤه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

للوسائل حكم المقاصد وللمقدِّمات حكم النتائج

ويتَّصل بهذا الميراث النبويِّ كلُّ علم يهدي إليه، وكلُّ وسيلة توصل له، متى خَلُصَت النيَّة، وسَلُم القلب من الأمراض والعلل، وطهُر من الآفات والدسائس.

لا جَرَم أنَّ للوسائل حكمَ المقاصد، وأنَّ للمقدِّمات حكمَ النتائج، في الخير والشرِّ والنفع والضُّر، فإنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذا العلم النبويُّ، لن يتجرَّد ـ ولا ينبغي له أن يتجرَّد ـ عن لُبِّه وجَوْهره، وحياته ونوره، وهو العمل به والاهتداء بهديه؛ فمن أبعد المُحال أن يرفع الله الذين أُوتوا العلم درجات، وهم في وادٍ وما أتوه في وادٍ، بل يهبط بهؤلاء علمهم دَرَكات؛ لأنه حُجَّةٌ عليهم وفتنةٌ لهم. والجهل خيرٌ من العلم إذا كان فتنةً، والعياذ بالله!!

على أنَّ العلم لو تجرَّد عن العمل به لن يكون ميراثاً نبوياً بحال، فإنَّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا ـ مَنَ شاء الله أن يورثوه ـ كلاماً وجدلاً، وإنما ورَّثوا حجَّةً وبياناً، وهدايةً ونوراً، وفقهاً في دين الله عِزَّ وجل.

ليس العلم بكثرة الرواية وقوة الجدل

وغنيٌّ عن البيان كذلك: أنَّ هذا العلم ليس بكثرة الرواية، ولا بقوَّة الجدل في المناظرة، وإنما هو ـ بالتلقِّي والتعلُّم ـ نورٌ يهدي الله به، ويهدي الله له من

---

(١) سورة المجادلة: ١١.

اصْطَفَاه من عباده.

وعلامة هذا الاصْطفاء أن يُفقِّهه في دينه، ويُلهِمَهُ الرَّشَاد والسَّداد، فإنْ منَّ عليه فَجَعله قدوةً للعباد، فذلك الذي يُدْعَى في ملكوت السماء عظيماً، وذلك فَضْل الله يؤتيه من يشاء.

ورثة الأنبياء حقاً

إنَّ العلماء العاملين، النَّاصحين المُخلصين، مصابيحُ الظلام، وهُداة الأنام، يبنون الأمم، ويُحيون الهِمَم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾[1] هؤلاء هم وَرَثَةُ الأنبياء حقاً، يهتدون بهديهم، ويُجدِّدون للناس أمرَ دينهم، ويستغْنون بالغنيِّ الحميدِ عمَّا في أيديهم، ولولا بقيةٌ منهم لَهَلَك العالم أجمع.

بقيَّةٌ من أولي العلم والفضل

ولقد منَّ الله على المؤمنين بهذه البقيَّة، كما منَّ عليهم بالنبيين وخاتمهم وأصحابه من قبل، إلا أنها تقلُّ وتتضاءلَ ـ تدريجاً ـ بقبض أرواحها، لا برفع العلم ومَحْوه من صدورها، فإنَّ الكريم إذا وَهَب لا يَسْترد، فما بالك بأكرم الأكرمين سبحانه؟! لا نُحصي ثناءً عليه.

وقد بشَّرنا الصَّادق المَصْدوق صلواتُ الله وسلامه عليه، بهذه البقيَّة، وبيَّن لنا علامتها إذ يقول: «من يُرد الله فيه خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمةً على أمر الله، لا يضرُّهم من خالفهم حتى يأتيَ أمر الله». رواه الشيخان[2].

---

(١) اقتباس من الآية ٥٤ سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

التوفيق بين الحديثَيْن

وقد يَبْدو بين الحديثَيْن خلافٌ أوّل النظر، ولكنه يذهب عند التأمُّل، فإنَّ الحديثَيْن لا يختلفان في ذهاب العلم بموت العلماء من حَمَلة الشريعة وفقهاء الأمة، حتى إذا لم يَبْقَ عالمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رؤساء جُهَّالاً، يستفتونهم في أمر دينهم، فيستنكف أحدهم أن يقول: لا أدري، ويتعاظم أن يرجع إلى أحد من هذه البقيَّة التي بشَّر بها النبيُّ ﷺ، أو يشقُّ عليه الرجوع إليها، لقلَّتها وتفرُّقها حتى باتت في حكم العَدَم! وحين ذاك تَفْشو الجَهَالة، وتعمُّ الضَّلالة، ويُوَسَّد الأمر إلى غير أهله؛ تمهيداً لقيام الساعة على كلِّ لُكع وابن لُكع من شِرار الخَلْق!!

جهَّال في ثياب العلماء

وها نحن أولاء نرى جُهَّالاً في ثياب العلماء، يتصدَّرون للفتوى والقول على الله بغير علم، ولا يَعْدَمون من أتباع كلِّ ناعق، مَن يُصَدِّقهم ويدافع عنهم، وهو يَجْهل الضروري ممَّا افترض الله عليه، وإذا كان هذا وفي الأمة الإسلامية بقيَّةٌ من أُولي العلم والفضْل، فما بالك إذا اضْمَحلَّت هذه البقية إلى معشارها أو أقل؟!

شرف الفتوى

وإذا كان في الحديث تنويهٌ بشأن العلم والعلماء عامة، ففيه تنويهٌ أعظم وأجلّ بشأن الفتوى والمفتين خاصَّةً، وحَسْبُ الفتوى شرفاً وفضلاً أنَّ الله ـ تعالى جَدُّه ـ تولاَّها بنفسه، ثمَّ ولاَّها خاتم أنبيائه ورسله، ثمَّ تولاَّها سادة الأمة وقادتها، أبرُّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلُّها تكلُّفاً، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ. فلْيُعِدَّ المفتون لهذا المَنْصب عُدَّته، وليعرفوا له خطرَهُ وجلالته[1].

ورواية الإمام أحمد لهذا الحديث ـ بمعناه ـ عن أبي أُمامة رضي الله

---

(١) انظر تفصيل هذا الإجمال في «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (طه).

عنه، في حَجَّة الوداع[1]، تدلُّ على مكان التحديث به، كما تدلُّ على مبلغ اهتمام النبيِّ ﷺ بالعلم وأخذِه وروايتِه، وتوكيد وَصاته به في آخر حياته، وتحذير أمته ـ ولا سيِّما الآخرين منهم ـ أن يتهاونوا في طلب العلم، والحرص عليه حتى يُقبَض بقبض العلماء!! فيفشو الجهلُ، ويستفحل الداء، وتكون الآزفة!!

وصاة خليفة راشد

وقد توجَّسَ خيفةً من هذا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، في رأس المائة الأولى، إذ كتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه على المدينة:

«انْظُر ما كان من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فاكْتُبْهُ، فإني خِفْتُ دُروسَ العلم،

---

(١) أخرجه أحمد ٥: ٢٦٦ (٢٢٢٩٠)، ولفظه من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه قال: لمَّا كان في حَجَّة الوداع قام رسول الله ﷺ، وهو يومئذٍ مُردفٌ الفَضْل بن عباس على جملٍ آدمَ، فقال: «يا أيها الناس، خذوا من العلم قبل أن يُقبضَ العلمُ، وقبل أن يُرفعَ العلمُ»، وقد كان أنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١] قال: فكنَّا قد كرِّهنا كثيراً من مسألته، واتَّقينا ذاك حتى أنزل على نبيِّه ﷺ قال: فأتينا أعرابياً فرَشَوناه برداء، قال: فاعتمَّ به ـ أي: جَعَله عِمَامة له ـ، حتى رأيت حاشية البُرْد خارجةً على حاجبه الأيمن.

قال: ثم قلنا له: سَلِ النَّبيَّ ﷺ، قال: فقال له: يا نبيَّ الله، كيف يُرفَعُ العلم منَّا، وبين أظهرنا المصاحفُ، وقد تعلَّمنا ما فيها، وعلَّمناها نساءَنا وذراريَّنا وخَدَمنا؟!

قال: فرفع النبيُّ ﷺ رأسَهُ، وقد علَتْ وجْهَه حُمْرةٌ من الغضب، قال: فقال: «أيْ ثَكِلَتْك أمُّك! وهذه اليهودُ والنَّصارى بين أظهُرهم المصاحفُ، لم يصبحوا يتعلَّقون بحرفٍ ـ أي: يعلمون ـ ممَّا جاءَتْهُم به أنبياؤهم، ألا وإنَّ من ذَهَاب العلم أن يذهبَ حَمَلَتُه» ثلاث مرات. والحديث إسناده ضعيف بهذه السياقة. وانظر التعليق على المسند ٣٦: ٦٢٢.

وذهابَ العلماء، ولا يُقْبلِ إلا حديث النبيِّ ﷺ، وليفشوا العلم، وليجلسوا حتى يعلمَ مَنْ لا يعلم؛ فإنَّ العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً»[١].

والله المستعان على العلم والعمل به، والفقه في دينه، والنُّصح له.

* * * * *

(١) رواه البخاري ١ : ٢٠٤ معلَّقاً في كتاب العلم، باب: «كيف يقبض العلم». وانظر ما كتبه العلامة المحقِّق الشيخ محمد عوّامة حول الجانب العلمي في حياة عمر بن عبد العزيز، ونشره العلم في الأمصار والبوادي، وتدوينه العلم وتثبيته في الكتب؛ خشيةَ انْدراسه بموت حَمَلته في مقدِّمة تحقيقه لكتاب «مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز» للحافظ الباغندي ص٥ ـ ٢٣.

الاقتصاد في الموعظة *

٢١ـ عن أبي وائل قال : كان عبد الله يُذكِّر الناس في كلِّ خميس، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن، لوَدِدْتُ أنك ذكَّرتنا كلَّ يوم، قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُملَّكم، وإني أتخوَّلكم بالموعظة كما كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بها، مَخَافةَ السَّآمة علينا. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري(١).

أبو وائل: كنية شقيق بن سَلَمة الأسدي الكوفي، أحدُ سادة التابعين وكبارهم، أدرك زمن رسول الله ﷺ ولم يره، وروى عن خلفائه الأربعة، وغيرهم من كبار الصحابة رضي الله عنهم، ولا سيِّما عبد الله بن مسعود، فقد أكثر من الرواية عنه، حتى قال عمرو بن مُرَّة: قلت لأبي عبيدة بن ابن مسعود: مَنْ أعلم أهل الكوفة بحديث أبيك؟ قال: شقيق. وروى عنه الجَمُّ الغفير من التابعين، واتَّفقوا على ثقته وجلالته.

عُجالة عَاجلة من ترجمة زاخرة حافلة

أما عبد الله: فهو ابن مسعود بن غَافِل الهُذَليُّ، وكنيته أبو عبدالرحمن، وأمُّه أم عبد، من هُذَيْل أيضاً. أسلمت وهاجرت، فهو صحابيٌّ ابن صحابية

أسلم عبد الله قديماً حين أسلم سعيد بن زيد قبل عمر بن الخطاب رضي

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الثامن والعشرون، سنة (١٣٧٦=١٩٥٦) .

(١) رواه البخاري (٦٨) و(٧٠) في كتاب العلم، و(٦٤١١) في كتاب الدعوات، ومسلم (٢٨٢١) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

الله عنهم، وقال: لقد رأيتُني سادس ستة وما على الأرض مسلمٌ غيرُنا[١].. وهاجر إلى الحبشة ثمَّ إلى المدينة، وشَهِدَ مع رسول الله ﷺ بدراً وأُحداً والخندق وبيعة الرِّضوان والمشاهد كلها.

ومن أخباره بعد النبيِّ ﷺ: أنه شهد فتوح الشام، وسيَّره عمر إلى الكوفة، وكتب إلى أهلها: «بعثتُ إليكم عماراً أميراً، وعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل بدر، فاسمعوا لهما، واقْتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي»[٢].

أشبه الناس بخاتم النبيين في هَدْيه وسَمْته

لازم النَّبيَّ ﷺ، وكان حارسه، وصاحب وسادته وسواكه ونعله، أشبه الناس بخاتم النبيين ﷺ في هديه وسَمْته.

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً وما نحسب ابنَ مسعود وأمَّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، مِن كثرة دخولهم عليه ولزومهم له»[٣]، فلا عجبَ بعد ذلك أن يكون أشبه الناس بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم، في هَدْيه وسَمْته.

إمام مدرسة نبوَّية

ثمَّ لا عَجَبَ بعد ذلك أن يكون إمام مدرسة من مدارس النبوَّة التي أخرجت أئمة علم وهدى، ملَؤوا الدنيا هدايةً ونوراً، ممَّن أعزَّ الله بهم الإسلام، وهدى بهم إلى دار السلام[٤].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١: ١٢٦، والحاكم ٣: ٣١٣ وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الحاكم ٣: ٣٨٨ وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٦٣) و(٤٣٨٤)، ومسلم (٢٤٦٠).

(٤) انظر: أخبار هذه المدرسة العظيمة في مقدِّمة «نصب الراية»: «فقه أهل العراق =

سادس ستة

«ومن عجيب الحكمة أنه كان سادسَ ستةٍ في الإسلام أولاً، وكان واحداً من ستةٍ في العلم ثانياً، وكان أستاذ أئمة ستةٍ في الكوفة آخراً ... أولئك الذين خلفوه بحركةٍ كبيرةٍ في العلم صارت تُتوارثُ حتى تُوِّجت بأبي حنيفة تلميذِ حمَّاد، تلميذِ النَّخَعي، تلميذِ علقمة، تلميذ عبد الله بن مسعود[١]».

ترجمة زاخرة حافلة

هذه العُجَالة العاجلة، من ترجمةٍ زاخرةٍ حافلة، تدلُّنا فيما تدل على أنَّ ابنَ مسعود رضوان الله عليه، كان أمّةً هادياً، ونوراً سارياً، وبحراً فيَّاضاً، لا يحبس علمَه ونوره على يوم الخميس من أيام الأسبوع فحسب، وأكبر العلم أنه لو أراد ذلك لغلبه هديه، ولتفجَّرت ينابيع علمه في كلِّ يوم على الرُّغم منه.. وإنما هو يومٌ اختاره للوعظ والتذكير؛ تزكيةً للنفوس، وتطهيراً للقلوب، إلى بقية أيام الأسبوع الست التي كان يُوالي فيها مدرسته بالتعليم والفتوى، وبيان الأحكام واستمدادها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

الوعظ والتذكير والقصص

والوعظ والتذكير من شُعَب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عزَّ وجل، وهما من وظائف الأنبياء والمرسلين، ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين. والوعظ والتذكير والقصص، ثلاثتهن متجاوراتٌ في الذكر والمعنى.

ولم نَرَ من كَشَفَ اللِّثام عنهنَّ إلا الإمام الخطابي في «معالم السنن» عند

وحديثهم» ١ :٢٥_٩٣.

(١) قبسة من «تراجم إسلامية جليلة لكبار الصحابة والتابعين» بقلم زميلنا العالم الكاتب الأستاذ النواوي، جعلناها مسك الختام لهذه العجالة (طه).

رواية أبي داود لحديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، فقال: سمعت رسول الله يقول: «لا يَقُصُّ إلا أميرٌ، أو مأمورٌ، أو مُخْتَالٌ»[١] نقل هنالك: «أنَّ المُتكلِّمين على الناس ثلاثة أصناف: مذكِّر، وواعظ، وقاص.

فالمذكِّر: الذي يذكِّر الناس آلاء الله ونعماءَهُ، ويبعثهم بذلك على الشُكر له.

والواعظ: يُخوِّفهم بالله ويُنذرهم عقوبَتَهُ، فيردعهم بذلك عن المعاصي.

والقاصُّ: هو الذي يُخبرهم أخبار الماضين، ويَسْرد عليهم القَصص، فلا يأمن أن يزيدَ فيها أو ينقص، والمذكِّر والواعظ مأمونٌ عليهما هذا المعنى»[٢].

من القصص محمود ومذموم

ولا يتَّسع المجال هنا لبيان مساوئ القُصَّاص، وما أدخلوه في قَصَصِهم من أكاذيب وغرائب، يَغْزون بها قلوب الدَّهْماء، ويَسْتهوون بها أفئدتهم!!

وحَسْبنا أنَّ القصص المحمود ما حمده الله ورسوله، وأنَّ القصص المذموم ما ذمَّه الله ورسوله.

ولارَيْبَ أنَّ أصحابَ النَّبيِّ ﷺ وتابعيهم بإحسان لم يصدروا ـ ولن

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» ٦ :٢٣(٢٣٩٧٢) بلفظ «متكلِّف» بدل «مختـال»، وأبـو داود (٣٦٦٥) في كتاب العلـم، بـاب القصـص مـن حـديث عـوف بـن مالـك الأشـجعي، والحديث صحيح بطرقه وشواهده. وقال ابن الأثير في «جامع الأصول» ١١ :٧٣٤ في شرحه للحديث: «أراد بهذا الخُطَب، وذلك أنَّ الأمراء كانوا يتولَّونها بأنفسهم، فيقصُّون فيهـا علـى الناس ويعظونهم. فأما المأمور؛ فهو من يقيمه الأمير، ويختاره الأئمة، فينصبونه لـذلك، ولا يكادون يختارون إلا رضياً من الناس فاضلاً، وما سوى ذلك فلا يكاد ينتدب له من الناس إلا مُراءٍ مختال، فإن المختال ينصب نفسه لذلك من غير أن يـأمره أحـدٌ مـن أُولي الأمـر، طلبـاً للرياسة، فهو يرائي بذلك ويختال. وقيل: أراد به الفتوى في الأحكام».

(٢) معالم السنن، للخطابي ٥ :٢٥٥.

يصدروا ـ فيما يقصُّون ويعظون إلا عن بيِّنة من الله ورسوله.

مساوئ القُصَّاص

أما أولئك الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويكذبون على الله وعباده، وهم يعلمون أو لايعلمون، فهم من المختالين الذين عناهم الحديث المرويُّ عن أبي داود آنفاً، وأولئك هم آفة الدعوة إلى الله، وشرٌّ عليها في كلِّ زمان ومكان!!.

إيثار ابن مسعود يوم الخميس للوعظ والتذكير

وإذا كان عبد الله رضي الله عنه أشْبَهَ النَّاس برسول الله ﷺ هَدْياً وسَمْتاً، فلا بدَّ من حكمةٍ لإيثاره يوم الخميس بالوعظ والتذكير، فإمَّا رأى النَّبيَّ ﷺ يُؤْثرُه، وإما لأنه تمهيدٌ ليوم الجمعة، خيرِ يوم طلعت عليه الشمس، ادَّخره الله لنا وهدانا إليه[1].

---

(١) والحكمة في إيثاره يوم الخميس أيضاً، أنه تُعرض الأعمال فيه وتُرفع وتُفتح أبواب السماء. أخرج الترمذي (٧٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «تُعرض الأعمالُ يوم الاثنين ويوم الخميس» وقال الترمذي: حسن غريب.

وأخرج أحمد ٢: ٣٢٩ (٨٣٦١) عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الأعمال تُعرض كل اثنين وخميس»، وفي صحيح مسلم (٢٥٦٥) عن أبي هريرة مرفوعاً: «تُفتح أبوابُ الجنة يوم الخميس».

قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص٢٤٤ :«وروي علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] قال: يكتب كلُّ ما تكلَّم به من خير وشر، حتى أنّه ليكتب قولُه: أكلتُ وشربتُ، وذهبتُ، حتى إذا كان يوم الخميس عُرض قولُه وعملُه، فأُقرَّ منه ما كان فيه من خيرٍ أو شرٍ، وأُلقيَ سائره، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

فهذا يدلُّ على اختصاص يوم الخميس بعرض للأعمال لا يوجد في غيره.

وكان إبراهيم النَّخعي يبكي إلى امرأته يوم الخميس، وتبكي إليه، ويقول: اليوم تُعرض أعمالُنا على الله عزَّوجل» انتهى.

طلبُ أهل مجلسه الاستزادة من وعظهِ وتذكيره

كان أهل هذا المَجْلس: مجلسِ الوعظ والتذكير، ينتظرونه أحياناً لِيَسْتزيدوا من وعظه وتذكيره، حتى قال قائل منهم ـ وهو يزيد بن معاوية النَّخعي الكوفي التابعي العابد الثقة ـ: يا أبا عبد الرحمن، إنا نحبُّ حديثك ونشتهيه، ولوَدِدنا أنَّك حدَّثتنا كلَّ يوم، فقال: إني أخبر بمكانكم، وما يمنعني أن أحدِّثكم كل يوم كما تشتهون إلا كراهةَ أن أُمِلَّكم، وإنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا.

التخوُّل بالموعظة أدعى للانتفاع بها

والتخوُّل بالمَوعظة والتحوُّل والتخوُّن بها[١] ـ وبكلٍّ مِنَ الثلاثة رُوي الحديث ـ وهو التعهُّد، وطلبُ أحوال النشاط فيها، والارتياح إليها، وذلك أدعى للانتفاع بها، والتأثُّر بآثارها.

أحبُّ الأعمال إلى النبيِّ ﷺ

نعم كان عمل النبيِّ ﷺ ديمة[٢]، وكان أحبُّ الأعمال إليه ما داوم عليه صاحبه، وإنْ قلَّ، وكان يكره أن يُمِلَّ العبدُ نفسه في العبادة أو يُضْجِرَها، فإذا أملَّ غيره أو أضْجَره فإنه ـ ولا رَيْب ـ أشدّ لذلك كراهية.

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية» ٢ :٨٨: «يتخوَّلنا بالموعظة» أي: يتعهَّدنا، من قولهم: فلان خائل مالٍ، وهو الذي يُصلحه ويقوم به.

وقال أبو عمرو: الصواب: يتحوَّلنا بالحاء، أي: يطلب الحال التي ينشطون فيها للموعظة فيعظهم فيها، ولا يُكثر عليهم فيملُّوا. وكان الأصمعيُّ يرويه: يَتَخوَّننا بالنون، أي: يتعهَّدنا.

(٢) اقتباسٌ من حديثٍ رواه البخاري (١٩٨٧) ومسلم (٧٨٣). ولفظه عند البخاري من حديث علقمة: قلت لعائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يختصُّ شيئاً؟ قالـت: لا، كان عمله ديمةً. وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق.

الدوام في كلٍّ شيء بحسبه

غير أنَّ الدوام في كلٍّ شيء بحسبه، يختلف باختلاف مكانِه من الدين وطلبه، قولاً كان أو فعلاً، فرضاً كان أو نفلاً، وللنفوس وأحوالها، وللأوقات وتقلُّبها، وللهمم واختلافها، لكلٍّ أولئك آثارٌ لا تُنسى.

خيرُ المذكِّرين والواعظين

وخير المُذكِّرين والواعظين مَنْ يَعرف طبائع النفوس، وأنها مجبولةٌ على السَّآمةِ والملال، وحُبٍّ الانتقال من حال إلى حال، فيُرشدُها ويدعوها ما توسَّم فيها نشاطاً وإقبالاً، ويُخفِّف عنها ويُوجز ما تفرَّس فيها فتوراً وكلالاً، ولأَن يقوم عن أهل مجلسه وهم مشتاقون، خيرٌ من أن يدعوهم وهم سائمون.

على هذا المنهج السَّمْح الكريم، سار في دعوته وهَدْيه إمامُ الهادين والمرشدين، من بُعث بالحنيفيّة السَّمْحة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

* * * * *

البعوث في الإسلام*

ـ ١ ـ

٢٢ ـ عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشِّروا ولا تُنفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا»[1].

٢٣ ـ وعن سعيد بن أبي بُرْدة عن أبيه عن جدِّه أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنفِّروا، وتَطَاوَعا ولا تختلفا». رواهما الشيخان[2].

تاريخ البعوث في الإسلام

حقٌّ على الدعاة، إلى الله عامَّةً، ومَنْ ولاَّه الله منهم مقاليدَ الأمور خاصَّةً، أن يتبيَّنوا تاريخ البعوث في الإسلام، وكيف كان يتخيَّرها النبيُّ عليه الصَّلاة والسلام؛ فإنَّما تنجَحُ الدعوة وتُؤْتي أُكلَها بمقدار إخلاص صاحبها وحُسْن اختياره.

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد التاسع عشر (١٣٦٧ = ١٩٤٨).

(١) أخرجه مسلم (١٧٣٢) بهذا اللفظ، ورواه البخاري (٦٩) في كتاب العلم، ومسلم في الجهاد (١٧٣٤) من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنَفِّروا».

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤٤)، ومسلم (١٧٣٣) بلفظ: «يسِّرا ولاتعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا،.. ».

ونحاول هنا، ونحن في بَعث إلى البلد الحرام، أن نقتبس من الهَدْي النبويِّ في البعوث الإسلامية، ما نرجو أن يكون للدعاة مناراً، وللهادين ضياءً.

هاجر النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه، من مكة إلى المدينة، على رأس ثلاثَ عشْرة سنة، رأى فيها وهو صابرٌ مُصابر، من ضروب الأهوال، ما ينوء بشُمِّ الجبال. وما إن استقرَّ أمر الإسلام أو كاد حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يبعث البعوث إلى البلاد النائية، يجاهدون في الله حقَّ جهاده، ويدعون إلى الله على هُدى وبصيرة، ويحكمون بين الناس بالحقِّ، ويفقِّهونهم في دين الله عزَّ وجل[1].

وصايا جامعة

وكان صلوات الله عليه يُوصي بعوثه بوصاياه الجامعة، وعِظاته البليغة، وهذا نموذجٌ من وصيَّته لمَّا بعث صاحبيه أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى قومهما وبلدهما باليمن، وكانا من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وأدراهم بأحكام الإسلام؛ أوصاهما بخلال ثلاث، هنَّ جماع الفقه والحكمة، وعماد العلم والمعرفة؛ وعليهنَّ يُبْنى أمرُ الدين كلِّه أصولاً وفروعاً، وآداباً ومكارمَ، وبهنَّ أو بما يُرَدُّ إليهن كان يوصي أصحابه في عامَّة الأمر وخاصَّته.

التيسير على الناس والتخفيف عليهم

الأولى: **التيسير**، وهو ضدُّ التعسير، والمراد به التسهيل على الناس والتخفيف عليهم في الدعوة والعبادة، والعلم والعمل، وأخذُهم بالتدرُّج في الأمور شيئاً فشيئاً، ولا سيما حُدَثاء العهد بالإسلام، ومن قارب حدَّ التكليف من الصبيان،

(١) فالمراد بالبعوث هنا: ما يشمل الغزاة والمجاهدين، والقضاة والمرشدين (طه).

ليتمرَّنوا على الإسلام وخِصاله، إلى أن يأْنَسوا به ويهَشُّوا له، ويختلطَ بهم اختلاطَ اللحم بالدم؛ ولا بأس حينذاك أن يأخذهم ببعض الحزم والشدَّة.

ولو حُمِلَ الناس على الحقِّ جُملةً لتركوه جملة. وكم من داعٍ عسَّر ولم يُيَسِّر، وشدَّد ولم يُخفِّف، خابَ سعيُهُ، وضاع أملُهُ، وذهبت دعوتُهُ أدراجَ الرياح.

إنه لا ينبغي لأحدٍ أن يتصدّى للدعوة إلاّ من بعد أن يفقه سيرة النبيِّ ﷺ ومنهاجه فيها، كما لا يحلُّ لإمام أو أمير أن يولِّيها أحداً إلا إذا كان لها كفئاً، وبها جديراً.

لقد بُنِيَ هذا الدين على التيسير، وأشاعه النبيُّ ﷺ في جميع أقطاره، وقال: «إنَّ الدين يسرٌ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلاّ غلبه فسدِّدوا وقاربوا»[١].

ونهى عن التعمُّق في الدين، وشدَّد النكيرَ على المتعمِّقين، وقال: «هَلَكَ المتنطِّعون»[٢] ثلاثاً.

ودخل المسجد فإذا حبلٌ مَمْدود بين ساريتَيْن، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبلٌ لزينب، فإذا فتَرت تعلَّقت به؛ فقال النبيُّ ﷺ: «حُلُّوه، ليصلِّ أحدكُم نشاطه، فإذا فتَر فليقعُدْ»[٣].

ودخل على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة، فقال: «من هذه»؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها. قال: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يَملُّ الله حتى تَملُّوا»[٤].

(١) أخرجه البخاري (٣٩) في الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) في العلم.

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٠) في التهجُّد، ومسلم (٧٨٤) في صلاة المسافرين.

(٤) أخرجه البخاري (٤٣) في الإيمان، ومسلم (٧٨٥) في صلاة المسافرين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين قطُّ إلاَّ أخذ أيْسَرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيءٍ قط، إلا أن تنتهك حرمةُ الله فينتقم لله بها»[١].

ودخل المسجدَ أعرابيٌّ، فانتحى منه ناحية، وبال فيها، فثار إليه الناس وهمُّوا به، فزجرهم صلوات الله عليه، وقال: «دعوه، وأهريقوا على بوله ذَنوباً من ماء ـ أو سَجْلاً من ماء[٢]ـ فإنَّما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»[٣].

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يذكّر الناس كلَّ خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوَدِدت أنك تذكِّرنا كلَّ يوم! فقال: لا يمنعني من ذلك إلاَّ أنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلُنا بالموعظة خشيةَ السآمة علينا[٤].

الحنيفيَّة السَّمْحة

وكانت الحنيفيَّة السَّمْحَة فرائض وسنناً وآداباً وفضائل، ليأخذ كلٌّ من بعد الفرائض بالقسط الذي يسَّر الله له.

ورخَّص الله للناس في كلِّ ما يشقُّ عليهم أداؤه، فأباح للمسافر الفطر في رمضان، وأوْجَبَه على مَنْ خشيَ هلاكاً أو قاربه.

وأمر ﷺ العاملين على الصَّدقات أن يُيَسِّروا على الأغنياء في الجباية، فيكتفوا بالوسط، ولا يرهقوهم بأخذ السَّمين والمنتقى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) في المناقب، ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائل.

(٢) الذَّنوب والسَّجل: الدلو، و«أو» للشك من الراوي في أيِّ اللفظين قاله ﷺ (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٠)، (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٨)، (٧٠)، (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١). وانظر شرحه في «الاقتصاد في الموعظة» ص٢٥١ ـ ٢٥٧.

وسنَّ للمسافر قَصْرَ الصَّلاة، وأمر الإمام بالتخفيف فيها؛ فإنَّ في الناس المريض والضعيفَ وذا الحاجة.

وكان إذا سمع بكاء الطفل، يتجوَّز في صَلاته رِفقاً بأمه.

وكان يأمر بالأخذ بالرخصة ويقول: «إنّ الله يُحبُّ أن تؤتى رُخَصُه كما يُحبُّ أن تُؤْتى عزائمه»[١]. إلى غير ذلك من أمثلةٍ لا يُحْصِهَا العدُّ، ثابتةٍ كلها في صحيح الآثار، ومنتقى الأخبار، بلغت ـ أو كادت ـ مبلغ التواتر.

دين الفطرة

وما لنا نعدّد الأمثلة ونبسط الأدلَّة، وقد علم الناس جميعاً أنَّ دين الله هو دين الفطرة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٢] وأنه واضحُ المنهج في عقائده وأحكامه، سَهْلُ المأخذ في كلِّ أمر من أموره، وَحَسْب الناظر فيه ـ ومن ابتغاه ديناً ـ أن يعلم أنَّ الأعرابيَّ الجِلْف كان يجلسُ بين يدي رسول الله ﷺ ساعةً من نهار، فيتلقَّى عنه الدين كلَّه، فإذا هو خَلَقٌ آخر، قد مُلئ نوراً وهُدًى، وكان منذ ساعة قطعةً من الظلمات تمشي على الأرض.

(١) رواه بهذا اللفظ ابن حبان (٣٥٤) من حديث ابن عباس وإسناده صحيح، وفيه الحسين بن محمد، وهو: ابن أيوب الذراع، وثَّقه النسائي. وقال أبو حاتم: صدوق. وذكره ابن حبان في الثقات ٨: ١٩٠، ومَنْ فوقه من رجال الصحيح، وحسَّنه المنذري.

وأخرجه عن ابن عباس أيضاً الطبراني في «الكبير» (١١٨٨٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» ٨: ٢٧٦ من طريق الحسين بن إسحاق التستري، والبزار (٩٩٠)، قال الهيثمي في «المجمع» ٣: ١٦٢: ورجال البزار ثقات، وكذلك الطبراني.

كما أخرجه بهذا اللفظ أيضا ابن حبان (٣٥٦٨) من حديث ابن عمر بإسنادٍ قوي.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

بين التيسير والتهاون

لا جَرَمَ أنَّ الدين يُسرٌ، ولكن لا يحسبنَّ الذين لا يفقهون، أنَّ يُسْرَهَ أو التيسير فيه، يدعو إلى التهاون في أمره، أو التأويل في نصوصه، أو تَتَبُّع الرُّخَص التي تُروى عن علمائه والفقهاء[1] فيه؛ فإنَّ الدين حبلُ الله المتين، وصراطُه المستقيم، لم يكن في شأنٍ من شؤونه غالياً ولا جافياً ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2] لا إفراط ولا تفريط.

إنهَّ ليُوشكُ من تأوَّل فيه لشهوةٍ أو هوى، أو تهاونَ فيه عن عمًى وجَهَالة، أو تَتَبَّعَ الرُّخص المرويَّة هنا وهناك، يتلقَّفها تلقُّفَ المتلاعبين، أو يعتمد عليها اعتماد الجاحدين المتهوِّسين! إنه ليوشك هؤلاء جميعاً أن يخرجوا من الدنيا بغير دين: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

المداومة على التيسير

قال شُرَّاح الحديث ـ وذلك من أحسن ما قالوا ـ: وإنما أردف ﷺ أمرَه بالتيسير نهيَه عن التعسير، مع أنَّ الأمر بالشيء يَسْتَتْبِعُ النَّهيَ عن ضدِّه، تقويةً

---

(١) أي: من الأقوال الشاذة التي لا دليل عليها. قال الذهبي في «السير» ٨ :٩٠ـ٩١: «ومن تَتَبَّع رُخَص المذاهب، وزلاَّت المجتهدين، فقد رقَّ دينه. كما قال الأوزاعي أو غيره: من أخذ بقول المكيين في المتعة، والكوفيين في النبيذ، والمدنيين في الغناء، والشاميين في عصمة الخلفاء، فقد جمع الشَّرَّ، وكذا من أخذ في البيوع الربويَّة بمن يتحيَّل عليها، وفي الطلاق، ونكاح التحليل بمن توسَّع فيه، وشبه ذلك، فقد تعرَّض للانحلال، فنسأل الله العافية والتوفيق».

(٢) اقتباس من الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

(٣) سورة النور: ٦٣.

وتوكيداً، حتى لا يَدَع لمُتنطِّع عُذراً؛ على أنه لو اقتصر على التيسير لتحقَّق امتثال الأمر مرَّةً واحدة، وإنْ عسَّر مراراً؛ فلمَّا قرنه بالنهي عن التعسير، فهم أن المراد المداومة على التيسير.

* * * * *

البعوث في الإسلام*

ـ ٢ ـ

ثلاث خصال

إنَّ هذين الحديثين احتويا على ثلاث خصالٍ بُني عليهما أمرُ الدين كله، ولذا كان النبيُّ ﷺ يأمر أمَّته بهنَّ، ولا سيما بعوثه، ومَنْ كان في موضع القدرة من الأمة. وتكلَّمنا على الخَصْلة الأولى منهنَّ، وهي التيسير والتسهيل على الناس في العلم والعمل، والإرشاد والدعوة، في غير إفراط ولا تفريط.

ولا نغلو إذا قلنا: إنَّ هذه الخَصلة هي الأساس للخَصْلَتَيْن الأُخْرَيَين، ولذا أشاعها النبيُّ ﷺ في كلِّ شأن، وأكَّد طلبها في كلِّ أمر، وقال لأصحابه ـ وهم خيرة أمته ـ حينما ثاروا على الإعرابي الذي بال في المسجد: «فإنَّما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين»[1].

أما الخصلة الثانية؛ فهي التبشير ـ ضد التنفير ـ، وهو: تسكين الناس[2] وإخبارهم بالأخبار السَّارَّة، التي يظهر أثرها على البِشْرة.

والتبشير من أعظم الوسائل إلى ترويح النفوس وإزالة همومها، والحيلولة

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد العشرون، محرم (١٣٦٨).

(١) أخرجه البخاري (٢٢٠)(٢٢١)، ومسلم (٢٨٤).

(٢) في إحدى الروايات المتَّفق عليها[البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤)]: «سكِّنوا» بدل: «بشِّروا»، فلذا فسَّرنا التبشير بالتسكين (طه).

بينها وبين القنوط واليأس.

ولن تجدَ أعونَ للداعي ـ بعد توفيق الله تعالى ـ من بشارة طيِّبة، يفتح بها آذاناً صُمًّا وأعيُناً عُمْياً وقلوباً غُلفاً.

دعاة منفِّرون

وكم من نفوسٍ كانت مُسْتَعدّةً للهدى والخير، لولا أن ابتُليت بأناسٍ مُنفِّرين، يقنِّطون الناس من رحمة الله، ويُبعدونهم من فَضْله ورضاه، أولئك الذين يُجَسِّمون الصغائر، ويكفِّرون بالكبائر، ويشتدُّون في الأمر والنهي، كأنَّهم حُرَّاسٌ على أبواب الجنة، لا يدخلها أحدٌ إلا أن يفتحوا له، أو كأنَّ مفاتيح الرحمة بأيديهم، فلا تَنالُ أحداً إلاَّ أن يرضَوْا عنه! وكأنَّهم نسُوا أو تناسوا أنَّ رحمة الله غَلَبت غضبه، وأنها وسِعَتْ كلَّ شيء، وأنَّ من أسرف على نفسه حتى ملأ الدنيا خطايا، ثمَّ لقي الله تائباً لا يشرك به شيئاً، لقيه الله بالمغفرة!.

ومهما يكن من أمر المُسْرفين، فإنَّ عفوَ الله أعظمُ من جرمهم، ورحمتَهُ أوسعُ من ذنبهم، ولا يَيْأس عبدٌ من رَوْحِ الله وفي قلبه ذَرَّةٌ من إيمان: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[١].

التبشير والإنذار

وليس المراد أن يقتصر الداعي على التبشير، دون أن يقرنه بالإنذار إذا دَعَت الحاجة إليه، بل لا بدَّ منهما جميعاً، وإن كان لكلٍّ مقامٍ ما يناسبه؛ وقد بعث الله النبيِّين مُبشِّرين ومُنذرين.

ولولا البشارة لأهلك الناسَ اليأسُ والقنوط! ولولا النِّذارة لأهلكهم الغيُّ والغرور! فكلاهما سلاحٌ لا غنًى عنه، وطبٌّ لا بدَّ منه؛ ومن أجل ذلك لم ينهَ

---

(١) سورة يوسف: ٨٧.

النبيُّ ﷺ عن الإنذار، وإنْ كان كذلك خلاف التبشير. على أنه مَنْ اليسير على مَنْ دعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ألاَّ يكون في إنذاره غليظاً مُقْطِعاً، اللهمَّ إلا إنْ دَعَت إلى ذلك ضرورةٌ لا محيصَ عنها؛ وآخِرُ الدواء الكيّ!.

مراعاة الأولويات ومراتب الأعمال

وهنا أمرٌ يجدر بنا أن نُنبِّه عليه؛ وهو أنَّ كثيراً مِّمن يتصدَّون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عزَّ وجل، يبالغون في التبشير والإنذار، فَيُسوُّون النوافل بالفرائض، والصَّغائر بالكبائر، ويذكرون لأقلِّ الأعمال أعظمَ الجزاء، معتمدين في شَطَطهم هذا على أكاذيب مسطورةٍ، وأحاديثَ موضوعةٍ، لا سَنَدَ لها من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ﷺ.

وحقٌّ على الولاة أن يأخذوا على أيدي هؤلاء، ويَحُولوا بينهم وبين الدعوة، فإنَّهم يفسدون أكثر مما يصلحون، إلا أن يتوبوا إلى الله سبحانه، ويتعلَّموا شرائط الدعوة ومنهجها، ويقتدوا بالأئمة والسلف، وتكونَ لهم بصيرةٌ نيِّرة تهديهم سواء السبيل.

وفي كتاب الله عزَّ وجل وما صحَّ عن رسول الله صلوات الله عليه غنًى وكفاية. على أنَّ في هذا الصحيح ما تعجز النفوس الضعيفة عن حمله وفهمه[١]؛ فليكن الحديثُ فيه بمقدار، مع إحاطته بالإيضاح والحكمة، والتمهيد له بالإعداد والإيقاظ.

وفي مثل هذا يقول سيدنا عليٌّ رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أَتُحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسوله»[٢]!.

---

(١) كغرائب الأحاديث، وأحاديث الصفات ونحوها (طه).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٦) في كتاب العلم.

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمُحَدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلُغُهُ عقولُهم، إلاَّ كان لبعضهم فتنةً»[١].

التطاوع والتوافق

وأما الخصلة الثالثة؛ فهي التطاوع والتوافق، ضدَّ التخالف والتنازع. وفي التوافق قوَّة وأُلْفة، وفي التخالف والتنازع ضَعفٌ ونُفْرة.

وقد كان المسلمون سادةَ العالم، وملوكَ الدنيا، وخلفاء الله في الأرض[٢]، إلى أنْ دبَّ فيهم دبيبُ الخلاف والتَّفرُّق، فبُدِّلوا من بعد أمنهم خوفاً، ومن بعد قوَّتهم ضعفاً، ومن بعد عزِّهم ذلاً، ولولا أنَّ الدين عند الله هو الإسلام لما كان لسلطانهم في الوجود ظلٌّ، ولا لشأنهم في الأمم ذكرٌ.

نعمة الأخوة والوحدة

وكان العرب في الجاهلية أُمماً مُتفرِّقة، وأحزاباً مُتقطِّعة، وأقواماً متناحرين متنافرين، ولا كلمة تجمعهم، ولا رابطة تربطهم، حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، فجمعهم تحت لواء التوحيد وراية الإسلام، وألَّف الله بين

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١ : ١١، وقال الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢ : ٥٩٦ : «عن أبي هريرة، قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءَين: فأما أحدهما، فبثَثْتُهُ في الناس، وأما الآخر، فلو بَثَثْتُه، لقُطِعَ هذا البلعوم.

قلت: هذا دالٌّ على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تُحرِّك فتنةً في الأصول، أو الفروع، أو المدح والذم؛ أما حديث يتعلّق بحلٍّ أو حرام فلا يحلُّ كتمانه بوجه، فإنه من البيِّنات والهدى.

ولكن العالم قد يؤدِّيه اجتهادُهُ إلى أن ينشُرَ الحديثَ الفلاني إحياءً للسنة، فله ما نوى، وله أجر ـ وإن غلط ـ في اجتهاده.

(٢) في هذا التعبير الذي يكثر من استعماله المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ نظرٌ لا يخفى.

قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخواناً، وكانوا على شفا حفرةٍ من النار فأنقذهم منها! ... ولم يزالوا مُتمتِّعين بنعمة الوحدة والأُخوَّة، حتى فرَّقتهم الأهواء والمطامع، وعضُّوا بَنان النَّدم، ولاتَ ساعة مَنْدَم!.

على أنَّ فيما شَرَعَ الله لهم من هذه الفرائض، حوافزَ عمليَّة تناديهم بالوحدة، وتدعوهم إلى الوِفاق والأُلفة، وتُهيبُ بهم في كلٍّ فرصة أن ارجعوا إلى دينكم، واستاروا بسيرة الصَّالحين من أسلافكم، تعزّوا وتسعدوا، وتظفروا وتُفلحوا، وتكونوا كما كنتم من قبل خلفاء الله في الأرض.

تلك هي الخصال الثلاث التي كان يوصي بها النبيُّ ﷺ بعوثَه، وهي ـ كما ترى ـ سبيل السعادة لمن استَمْسك بها، واهتدى بهديها.

بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن

هذا، وقد كان بَعْثُه صلوات الله وسلامه عليه معاذاً وأبا موسى إلى اليمن سنة عشر قبل حَجَّة الوداع؛ وقيل: سنة تسع عند منصرفه من تبوك؛ وقيل: سنة ثمان عند الفتح. وأيّاً ما كان الأمر فقد بُعِثا بعد أن عَلا شأنُ الإسلام، وبدَّد نورُهُ سُحُبَ الظلام، وكانت اليمن إذ ذاك مخلافَيْن[1]، فكان معاذ والياً على النجود وما تَعالى من البلاد، وكان أبو موسى والياً على التهائم وما انخفض منها. ومع بُعْد الشُّقة بينهما فكانا يَتَزاوران ويتعاوَنَان، ويسألُ كلٌّ منهما صاحبَه عن عمله وعبادته؛ ليَتَنَافسا في الخير، ويتسابقا إليه. وكانا يتناصحان ويتشاوران، فإذا تَنَازعا في شيءٍ ردُّوه إلى الله ورسوله؛ فيتوافقان ويتطاوعان.

وجملة القول: أنهما كانا قدوةً صالحة لمَن دَعَا إلى الله على بصيرة وهدى.

* * * * *

---

(١) المخلاف والكورة والإقليم: واحد.

الفصل الثالث

العبادات والأدعية والأذكار

أولاً : العبادات

١ ـ حيَّ على الجهاد (١ ـ ٢).

٢ ـ الجنة تحت ظلال السيوف.

٣ ـ الصلاة سلاح النصر.

٤ ـ خيرة الله خير.

٥ ـ المساجد الثلاث.

٦ ـ من أسرار الصوم وآدابه.

٧ ـ مدرسة الصيام.

٨ ـ استدارة الزمان.

٩ ـ شهران لا ينقصان.

١٠ ـ أحبُّ الأيام إلى الله.

ثانياً : الأدعية والأذكار

١ ـ فضل الذكر.

٢ ـ أدب الدعاء.

٣ ـ دعاء الله بأسمائه.

٤ ـ ظن العبد بربه.

٥ ـ دعاء واستعاذة.

حيَّ على الجهاد *

ـ ١ ـ

٢٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رَجُلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: دُلَّني على عملٍ يعدلُ الجهاد. قال: «لا أجدُهُ»! قال: «هل تستطيع إذا خَرَجَ المجاهدُ أن تدخلَ مَسْجدَكَ، فتقومَ ولا تَفْتُرَ، وتصومَ ولا تُفطِرَ»؟! قال: ومَنْ يستطيع ذلك؟!.

رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١]

بين القول والعمل

حيَّ على الجهاد، حيَّ على العمل. إنه قد جدَّ الجدُّ، فحقَّ القصد في القول، والجهد في العمل.

إنَّ فضلَ القول على العمل هُجْنَةٌ[٢]، وفضْل العمل على القول زينة، وما أكثر ما قلنا! وما أقلَّ ما عملنا! أفلم يأْن لنا أن نغيِّر ما بأنفسنا، ليغيِّر الله ما بنا؟! وأن يكون في منهاج حياتنا أن نقول ونعمل على سواء؟! أمَّا أن يكون من منهاجنا فضل العمل على القول؛ فذلك من هدي النبوة؛ من هدي الأنبياء والرسل، ومن اهتدى بهم من الدعاة إلى الله عز وجل.

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد الثامن والعشرون ، سنة (١٣٧٦).

(١) رواه البخاري (٢٧٨٥) في الجهاد، ومسلم (١٨٧٨)في الإمارة.

(٢) الفضل: الزيادة، والهُجْنة: العَيْب.

إنَّ خاتم النبيين صلواتُ الله وسلامه عليهم، لم يكن يَسْرُد الحديث كَسَرْدنا هذا، وإنما كان يُحدِّث حديثاً بيِّناً، يحفظه مَن يجلس إليه[١]، لو عدَّه العادُّ لأحصاه، وكان في الأعمِّ الأغلب من أحواله صلوات الله عليه، يقصر الخِطبة ويطيل الصلاة، ليعلمَنا ـ بالعمل ـ فضْل العمل، وليبنيَ على خير أساس، خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس.

ولعلَّ من حكمة الحليم العليم، الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلقْه ثمَّ هدى، أنْ جَعَل لكلٍّ منا أذنين اثنتين، ويدين اثنتين، ولساناً واحداً في فم واحد ليسمع ضِعْفَ ما يقول. و«من عَمِل بما عَلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم»[٢].

الدعوة إلى الجهاد

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى عمل الصَّالحات بعد الإيمان بالله ورسوله، فقد وكَّد الدعوة إلى الجهاد توكيداً، وحرّض عليه تحريضاً، وعدّه بعد أركانه الخمسة أجلّ الأعمال قدراً، وأرفعَها ذكراً، وأفضلَها مرتبةً وشأناً.

قبسٌ من الذكر في فضل الجهاد والمجاهدين

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا

(١) اقتباس من حديث أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، و مسلم (٢٤٩٣)، وأبو داود (٣٦٥٤)، والترمذي في السنن(٣٦٣٩) وقال: حسن صحيح، وفي «الشمائل» (٢٢٣) عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يَسْرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلامٍ بيِّنٍ فَصْلٍ، يحفظه من جلس إليه.

(٢) اقتباس من حديث أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» ١٠ : ١٥ من حديث أنس وضعَّفه.

(٣) سورة النساء: ٩٥_٩٦.

يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١] هذا قبسٌ من الذكر في فضل الجهاد والمجاهدين.

قبسٌ من السنة في فضل الجهاد والمجاهدين

فأما مَنْ أُنزل إليه الذكر صلوات الله وسلامه عليه، فقد بسط هذا الفضل وبيَّنه أوفى بيان.

قال فيما رواه مسلم عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه: «مَنْ رضيَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد نبيّاً، وَجَبت له الجنة»، فَعَجبَ لها أبو سعيد فقال: أَعِدْها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجةٍ في الجنة، ما بين كلِّ درجتَيْن كما بين السماء والأرض»، قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»[٢].

تمنِّي الشهيد

وقال فيما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد! يتمنَّى أن يرجعَ إلى الدنيا، فيُقتلَ عشر مرات، لما يرى من الكرامة»[٣].

وفي رواية: «لما يرى من فَضْلِ الشهادة»[٤]. إلى أحاديث صحيحةٍ عجيبة في مكان الجهاد والمجاهدين، سبقَنا بتبيانها السبَّاقُ إلى الخير في هذه المجلة، فكتب في جزئها السابقِ إحدى عشر صفحة مشرقة في «الجهاد ... وتاريخه»

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم ١٠٩ (١٨٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم ١٠٨ (١٨٧٧).

وليست هذه أول مسابقة له في رَوْضة السنة المطهَّرة[١].

لا يوجد عملٌ صالح يعدل الجهاد

لا عَجَب إذاً بعد هذا الفضل الذي اختصَّ الله به الجهاد والمجاهدين، ألاَّ يجد المجاهد الأكرم ﷺ عملاً يعدلُ الجهاد في فضله، ويساويه في منزلته، بالغاً ما بلغ من الصَّالحات ... اللهم إلا اعتكافاً بالمسجد دائماً، مع صلاة وصيام مَوْصُولَيْن بالليل والنهار، من غير فتور ولا إفطار ... ومَنْ يستطع ذلك؟!!

لا أحد؛ لأنه عملٌ فوق طاقة البشر ... وما هو إلا مَثَلٌ من الأمثال النبويَّة الرائعة لمنزلة الجهاد بين سائر الأعمال ... وأين مَنْ يشتري نفسه بعمل أيِّ عمل كان، ممَّن يبيعها ومالَها، راضيةً طيِّبةً، لذي الجلال والإكرام؟! ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

مَنْ هو المجاهد؟

وأهل ذلك الفوز العظيم ـ كما في السنة المطهرة ـ إنما هو من خَرَج من بيته، لم يُخرجه إلا إيمانٌ بالله وتصديقٌ بما وَعَدَ المجاهدين على لسان رسله، وكان جهاده لإعلاء كلمة الله، وحماية دين الله.

روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه أنَّ أعرابياً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: «الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه[٣]». وفي رواية: «يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّة»[٤].

---

(١) المقال المشار إليه للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى.

(٢) اقتباس من الآية ١١١ من سورة التوبة.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٦) في كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٩٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٥٨) في كتاب التوحيد.

وفي رواية: «يقاتل غضباً»[١]، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[٢].

الجهاد قُبَّة الإسلام وذِرْوَةُ سَنَامه

هذا الجهاد هو عمود الإسلام وقبَّته، وسَنَامه وذِرْوته، فيه عزُّ الإسلام والمسلمين، ورفْعَةُ لواء الوطن خَفَّاقاً في العالمين.. وثَمَّ ضروبٌ أخرى من الجهاد، لا بدَّ منها ومن أسلحتها، لِمَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر، وموعدُ بيانها الجزء الآتي إن شاء الله.

أما بعد، فإذا كنا ندعو إلى القَصْد في القول[٣]، والجِدِّ في العمل مع الإخلاص فيه، فما أحرانا أن نستجيب لما دعونا، وأن نلتزم ذلك في منهاج «السُّنة» ما استطعنا، ضارعين إلى الله سبحانه أن يجعل ما نقول ونعمل حُجَّةً لنا لا علينا، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وهو حَسْبُنا ونعم الوكيل.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (١٢٣) في كتاب العلم.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣)، (٣١٢٦)، (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤) في الإمارة.

(٣) كتب فضيلة الشيخ قبل هذا الحديث: الاقتصاد في الموعظة في المجلد ٢٨ العدد ٤ سنة ١٣٧٦ شرح فيه حديث ابن مسعود: كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة؛ مخافة السآمة علينا. قال في آخر شرحه للحديث: «أما بعد، فهل كانت دعوتنا إلى القصد في القول إلهاماً من العليم الخبير عزَّوجل؟ ذلك بأنه على إثرها أغار على الكنانة عدوُّ الله والوطن، فأجبنا مناديه ينادي: حيَّ على الجهاد، حيَّ على العمل».

حَيَّ على الجهاد[1]

ـ ٢ ـ

أصول الجهاد

أصول الجهاد خمسة:

جهاد النفس.. بالتزكية والتربية على الهدى ودين الحق، تعلُّماً وعَملاً وهدياً، ودعوةً إلى الله عز وجل، وصبراً لحُكمه، واحتمالاً للأذى في سبيله.. ولا يزال العبدُ مرتقياً في معارج هذا الجهاد حتى يُفلحَ ويصبحَ ربانياً، يُدعى عظيماً في ملكوت السماء.

وجهاد الشيطان.. بدفع ما يُلقي في النفس من شكوك وشبهات، وما يزيِّن لها من رغبات وشهوات.

والنفس والشيطان، عدوّان خفيّان، هما أعدى أعداء الإنسان، اصْطَحَبا في الخَفَاء على فتنته والكَيْد له، واصْطَلَحا على إغوائه والتغرير به، وتَظَاهرا على أمره بالسُّوء والفحشاء، وصدِّه عن سبيل الله!.

من أجل ذلك كان جِهادُهما أساساً ومُقدِّمةً لما وراءه من صنوف الجهاد، وأَخْلِق بمَنْ ظفر بعدوِّه الخفي، أن يكون ظفرُه بعدوِّه الظاهر أعظمَ، ونصرُه عليه أتمَّ.

---

(١) مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الثامن والعشرون، سنة(١٣٧٦=١٩٥٧).

وجهاد الكفار.. بالدعوة إلى الإسلام، وحمايته من العدوان، وافتدائه بالنفس والمال، وبكلٍّ مُرْتَخَص وغال، ابتغاءَ مَرْضاة الله، وإعلاءً لكلمة الله. وهذا الجهاد هو المقصود في الحديث كما أسلفناه في الجزء الأسبق، وهو الذي يرفع الله به المجاهدين مئة درجة في الجنة، ما بين السماء والأرض ...

وجهاد المنافقين والملحدين.. بالحُجَّة والبرهان، والقلب واللسان، وهو أشدُّ من جهاد الكفار وأصعب، ومن هنا كان جهاد الخاصَّة من الأمة، والصَّفوة من أتباع الرسل.

وجهاد أرباب المنكرات والبدع.. بالنهي عنها، والعمل على تغييرها باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب عند العجز، وذلك أضعف الإيمان!

وإلى هذه الأصول الخمسة يشير قوله عزَّ اسمه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾[1] ،وقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾[2]. وقد أفاض في بيانها وبيان شعبها ومراتبها صاحبُ «الهدى»[3] ...

فرض الجهاد يختلف باختلاف العباد

وإذا كان الله سبحانه قد كَتَب على عباده أن يُجاهدوا فيه حقَّ جهاده، فإنَّ فرضَ الجهاد وحقَّه يختلف باختلاف العباد قوةً وضعفاً، وعلماً وجهلاً، وسَعَةً وضيقاً.

وحَسْب الأمة الإسلامية ـ أفراداً وجماعاتٍ ـ أن تُجاهدَ ما اسْتَطاعت إلى الجهاد سبيلاً، وأن تُعدَّ لعدوِّ الله وعدوِّها ما استطاعت من قوَّةٍ، ماديَّة كانت

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

(٢) سورة العنكبوت: ٦.

(٣) زاد المعاد ٣: ٩ ـ ١١.

القوة أو معنوية ...

جزاء تاركي الجهاد

فما مِنْ أمة تهاونت في الجهاد أو تركته، إلا ألبسها الله ثوبَ الذُّلِّ! وَسَلَّط عليها مَنْ يَسُومُها سوءُ العذاب والخوف! وسَلَبها نعمة الاستخلاف والتمكين في الأرض!.

مكايد أعداء الإسلام

تنبَّه لهذا أعداء الله والإسلام، فأخذوا يكيدون للمسلمين! ويعدُّون لهم ما استطاعوا من قوة! ويرمونهم بالتعصُّب والهمجية لِيُبعدوهم عن الجهاد والدعوة، ولِيَجدوا في المنافقين منهم من البطانة والأولياء، مَنْ هم أشدُّ على الإسلام من الأعداء!!!.

وهاهو ذا عدوّ الله وعدوُّنا يضربنا ـ كلَّما سنحت له الفرصة ـ ببعض ما أعدّ ـ وهو متعصِّبٌ تعصُّبنا الذي زعم أو أشد ـ ضرباتٍ لا تعرف هوادةً ولا رحمة!!!

خدعة التعصُّب

ولعلَّ الأمة الإسلامية في هذه الأيام ـ وقد رأت رأي العين من فجور عدوِّها ووحشيَّته ما لم يكن ليخطر على بال ـ تتنبَّه من غفلتها، وتصحو من نومتها، وتعرف فَضْل الجهاد والإعداد، بكلِّ ما يتَّسع له معنى الجهاد والإعداد؛ فقد أَسْفَر الصُّبح لذي عينين، وانكشفت خدعة التعصُّب[1]، وما يُراد بها من تثبيط وتخذيل! وتخدير وتضليل!.

---

(١) وهي ما يطلق عليها اليوم الإرهاب، وسمَّوْها قبل ذلك تطرُّفاً وأصوليّة!!

أسلحة لا يعرفها العدو

وإذا كان المسلمون بحاجة شديدة إلى أسلحة مادية مثلِ أسلحة عدوِّهم إن لم تفقُها، فإنَّ حاجتهم إلى الأسلحة المعنوية أشد، وهم منها ـ بحمد الله ونعمته ـ أوفر حظاً وأوفى نصيباً، لو رجعوا إلى كنائن دينهم وخزائنه ... ففيها من أسلحة النصر والظفر، ما لا عينٌ، رأت ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشرٍ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

وإذا كان العدوُّ أقوى منا حَشْداً، وأكثرَ منا عَدَداً وعُدداً، فإنه لا طاقة لنا به، ولا قدرة لنا عليه، إلا بعون الله تعالى ومَدده، وطلب النصر من عنده... وتلك أسلحةٌ لا يعرفها العدوُّ ولن يعرفَها، ولو عَرَفها لاستحال أن ينتفعَ بها، لأنه ليس من أهلها، ولكنَّ أهلَها وأحقَّ الناس بها هم المؤمنون المتَّقون..

وصيَّة عُمرية

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنهما:

أما بعد: فإنِّي آمرك ومَنْ معك من الأجناد بتقوى الله على كلِّ حال، فإنَّ تقوى الله أفضَلُ العُدَّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومَنْ معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوِّكم؛ فإنَّ ذُنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدوِّهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوِّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأنَّ عَدَدَنا ليس كعدَدِهم، ولا عُدَّتنا كعُدَّتهم، فإن استَوَيْنا في المعصية، كان لهم الفَضْل علينا في القوَّة، وإلاَّ نُنصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوَّتنا. فاعلموا أنَّ عليكم في سَيْركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيُوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله. ولا تقولوا: إنَّ عدوَّنا شرٌّ منا، فلن يُسَلَّط علينا، وإنْ أسأنا، فَرُبَّ قومٍ سُلِّط عليهم

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

شرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل ـ لمَاّ عملوا بمساخط الله ـ كفارُ المجوس: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾[(١)]. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوّكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم[(٢)].

الحذر من الذنوب

أيُها المسلمون: اعلموا ـ إن لم تكونوا تعلمون ـ أنَّ عدوَّ الله وعدوَّكم، قد درسوا هذه الوصيَّة العمريَّة وأمثالها فيما درسوا من تاريخكم، فأيقنوا أن لا سبيل لهم عليكم إلا إذا استَوَيْنا في المعصية. فهم لا يزالون يعملون عليها، ويجاهدونكم فيها، ولكنَّهم لن ينالوها أبداً، ما أخذتم حِذْركُم وأسلحتكم، وأعددتم لهم ما استطعتم من قوّة مادية وروحية، فأوفوا بعهد الله يوف بعهدكم، وانصروا الله ينصركم، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[(٣)].

* * * * *

(١) سورة الإسراء: ٥.

(٢) «أخبار عمر» لشيخنا علي الطنطاوي رحمه الله تعالى، ص ٢٢٥، وعزاه إلى «نهاية الأرب» ٦: ١٨٦، و«العقد» ١: ٤٩.

(٣) اقتباس من الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

الجنة تحت ظلال السيوف *

٢٥ ـ عن عبد الله بن أبي أوْفى رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ في بعض أيَّامه التي لقِيَ فيها العدوَّ، انتظر حتى مالت الشَّمس، ثمَّ قام في الناس، فقال: «يا أيها الناس: لا تتمنَّوْا لقاء العدوِّ، واسألوا الله العافيةَ، فإذا لقيتمُوهُم فاصْبِروا؛ واعلمُوا أنَّ الجنَّةَ تحتَ ظلالِ السيوف».

ثم قال: «اللهُمَّ مُنْزِلَ الكتاب، ومُجْرِيَ السَّحَاب، وهَازِمَ الأحزاب، اهزمهم وانْصُرنا عليهم» رواه الشيخان[1].

الحرب شرٌّ لا بدَّ منه، ولا يُقدِم الإسلام عليها إلاَّ مضطراً

الحربُ شرٌّ لا بدَّ منه! قضيةٌ آمنَ بها الناس جميعاً، ويزدادون إيماناً بها كلَّما اتَّسع العُمرانُ، وتنافس الناس في هذه الحياة.

وأخرى آمن بها الناس كذلك ـ مسلمُهم وكافرُهم ـ إلا أعمى أو مكابراً، يدمغه الحق، فيولِّي صاغراً، ويُدبر مستكبراً، قد ختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة! تلك هي: أنَّ الإسلام لا يتشهَّى الحرب ولا يتمنَّاها، ولا يُقْدِم عليها إلا مُضْطَراً؛ فهو دين الهُدى والرحمة والسلام والطُّمأنينة،

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد التاسع عشر، (١٣٦٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) في الجهاد والسير.

والوقار والسكينة؛ فإذا اعتدى معتدٍ على كرامته، أو بغى باغٍ على حرمته، ردَّ العدوان بمثله، لا يحيف ولا يجور، ولا يغدر ولا يخون؛ فإذا كفَّ الظالم، وثاب الآثم، ورجع المعتدي، صافحه الإسلام وعفا عنه، وأعاشه في كنفه وادعاً آمناً مطمئناً على نفسه وماله وعرضه ودينه، يدافع عنه ويقاتل دونه، ويرعى له من الحُرمة والكرامة ما لا يرعاه أهل ملَّته، ولا يزال كذلك في بُحبوحة الأمن والطمأنينة، حتى يغدرَ أو يفْجرَ فيعلنها الإسلام حرباً عَواناً[1]!.

هنالك لا يجد الإسلام بُدًّا من الأخذ بالحزم والعزم في معاقبة الباغين، وتأديب الطاغين، وإلاَّ كانت رحمتُه ضعفاً، وعزَّته ذلاًّ، وشجاعته جُبْناً! وتلك بعض الرذائل التي جاء لمحوها والقضاء عليها.

وهل يستطيع منصف أن يقولَ إنَّ الإسلام يشتهي الحربَ أو يدعو إليها في غير الضرورة التي لا محيصَ عنها، وهذه إحدى غزوات رسول الله ﷺ التي نهى فيها عن تمنِّي لقاء العدو والاشتباك معه؟!.

لم تُعرف على وَجْه التحديد هذه الغزوة[2]، ولكن الذي عُرف من سيرته صلوات الله عليه، حتى أضْحى الجدل فيه عِناداً ومكابرةً، أنه ما خرج لملاقاة قوم إلاَّ بعد أن سَطَعت الأدلَّة على غدرهم ومكرهم، وعملهم سرًّا أو جهراً على هدم دعوته، ووَضع العقبات والعراقيل في طريقها!.

إيثار السِّلم على الحرب

وكم احتمل هو وأصحابه صابرين مصابرين من أذى لا يحتمل، وإعناتٍ لا يُطاق، في إيثار السِّلم على الحرب، والعفو على العقوبة، واللين على البطش والقوة.

---

(١) العوان: النَّصَف (بوزن سَبَب) في سنِّها من كلِّ شيء، والعَوان من الحرب: الذي قُوتل فيها مرَّةٍ بعد مرة، كأنهم جعلوا الأولى بِكْراً (طه).

(٢) غير أنها كانت بعد غزوة الأحزاب قطعاً بدليل السياق (طه).

وفي مُوادَعة اليهود، وصُلح الحديبية، وفتح مكة وكثير غير ذلك، شواهدُ صدق لما نقول.

وإذا كان الإسلام يَجْنح للسَّلْم إنْ جَنَحَ العدوُّ لها ـ ولو كان في جنوحه هذا مخُادعاً ـ فمن العناد والمكابرة، بل من السُّخف والمُهَاتَرة، أن يرميَ الإسلامَ أفَّاكٌ أثيم، بأنه متعطِّش للدماء، أو معتدٍ على الأبرياء!.

إعداد القوة

وإذا أمر الإسلام أهله بأن يُعِدُّوا لعدوِّهم ما استطاعوا من قوَّة، فما ذلك إلاَّ لإرهاب العدوِّ، والحيطة منه، والحذر من كَيْده ومداهمته. والأخذُ بالحزم والحَيْطة فضيلةٌ من الفضائل التي اجتمع العقلاء عليها، ومظهرٌ من مظاهر القوَّة التي لا تحيا أمة إلا بها.

وممَّا يقطع القلوب حَسْرةً، ويَفْري الأكباد همًّا أن يأخذ أعداء الإسلام بهذه الحيطة ـ ولا أقول فضيلة ـ من بعد أن يخدعوهم ويرموهم بالتعصُّب، ويتوسَّلوا بهذه الفِرْية إلى إضعافهم وتجريدهم من كلِّ حَوْلٍ وطَوْلٍ، ثم لا يتنبَّه المسلمون من بعد نومهم العميق إلاَّ على فنونٍ من القوَّة، وضروبٍ من الرمي، تذهب بالصَّواب، وتطير بالألباب!.

أُوتيتَ ملكـاً لم تُحسـن سياسـتَه ... كذاك من لا يَسوسُ الملك يخلعه

النهيُ عن تمنِّي لقاء العدو

نهى النبيُّ ﷺ عن تمنِّي لقاءِ العدو، رغبةً في علاج الأمور بالسِّلم، وكراهيةً لإراقة الدماء عند الخصومة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل؛ ثم حذراً من الإعجاب والبغي؛ فإنَّ المعْجب مزهوٌ بنفسه، قليلُ المبالاة بعدوِّه، والباغي ظالم، والظالم قلَّما ينتصر، ومن بُغي عليه فهو مظلوم، والله مع المظلوم وناصره.

وأخوفُ ما يخاف على الجيش: إعجابُه بنفسه، وبغيُه على غيره، وقد قال قائل في غزوة حنين: لن نُغلب اليوم من قلَّة، حينما أعجبتهم كثرتهم فلم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً!.

وقال عليٌّ لابنه رضي الله عنهما: «يا بُنيَّ لا تدعُ أحداً إلى المبارزة، ومن دعاك إليها فاخرج إليه؛ لأنه باغ، والله قد ضمن النصر لمن بُغي عليه!».

إيثار العافية

ثُمَّ أمرهم أن يسألوا الله العافية، لأنَّ أحداً لا يعلم ما يؤول إليه أمره مع عدوِّه، فلأَنْ يُعافى فيشكر، خيرٌ له من أن يُبتلى فيصبر، كما يُؤثر عن الصدِّيق رضي الله عنه.

فإذا استَفحل الداء، وعزَّ الدواء، ولم تُجْدِ لدى العدوِّ حيلةٌ ولا وسيلة، فلا مفرَّ إذاً من اللقاء، والجهاد في سبيل الله، وبيع النفس والنفيس لمرضاة الله، والصَّبر تحت ظلال السيوف، حيث الفوز العظيم بجنات النعيم.

انتظاره ﷺ مَيْل الشَّمسِ عن كبد السماء

أما انتظاره صلوات الله عليه وآله وسلم حتى مالت الشمس عن كَبِد السماء، فتلك من عاداته في الحرب.

روى النعمان بن مُقَرِّن رضي الله عنه قال: غَزَوْتُ مع رسول الله ﷺ غزواتٍ، فكان إذا طَلَع الفجر أمسك عن القتال حتى تطلعَ الشَّمس، فإذا طلعت قاتل، حتى إذا انتصف النهار أمْسَك حتى تزولَ الشمس، فإذا زالت قاتل حتى العصر، ثم أمسك حتى يُصلِّيَ العصر، ثم يقاتل. وكان يقال: عند هذه الأوقات تهيجُ رياحُ النصر، ويدعو المؤمنون لجيوشهم في صلواتهم.

أخرجه أبو داود والترمذي[١].

الدعاء في القتال

وأما الدعاء في القتال وعند التحام الجيشَيْن، فكان من دأبه صلوات الله وسلامه عليه، ومن أعظم الآداب التي أدَّب بها جنوده في الحرب؛ ذلك لأنَّ الدعاء ولا سيما في هذا الموطن، عنوانُ الفزع إلى الله والالتجاء إليه، وأنْ لا اعتماد في النصر إلاَّ عليه؛ ثم هو أمارةٌ على أنَّ هذا القتال في سبيله، ومن أجل نُصرة دينه، وهو يقول وقوله الحق: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢].

وأشار صلوات الله وسلامه عليه، وهو يدعو بهذا الدعاء، إلى وجوهٍ كريمة في طلب النصر.

فبإنزال الكتاب، يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[٣].

وبإجراء السَّحاب، يشير إلى قدرته جلَّ سلطانه على تسخير السحاب وإرسال الرياح، وإغاثة عباده بالمطر، فهو لا شك قادرٌ على إغاثة المجاهدين في سبيله، وإمدادهم بالنصر ومعونته.

وبهزيمة الأحزاب، يشير إلى تجريد التوكُّل عليه، واعتقاد أنْ لا نصرَ إلاَّ من عنده سبحانه، إذ هزم الأحزاب وبدَّد شَمْلَهم، وفرَّق جموعهم، وما كان للمسلمين بهم طاقة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في أيِّ وقتٍ يُسْتحبُّ اللقاء (٢٦٤٨)، والترمذي (١٦١٢).

(٢) سورة محمد: ٧.

(٣) سورة التوبة: ١٤.

ثُمَّ نبَّه على عِظَمِ هذه النِّعم الثلاث كلِّها: فبإنزاله تعالى كتابَه العزيز كانت نعمةُ الدين، وبإجراء السَّحاب كانت نعمة الدنيا، وبهزيمة الأحزاب كان حفظُ النعمتين جميعاً.

هذه أثارةٌ من آداب الحرب في الإسلام، ونظرِه إليها، ومن نظر بعين الإنصاف، فإنه واجِدٌ في هذا الدينِ الحنيف، أعلى مَثَلٍ تنتظره المدنية، ويصبو إليه الأنام، في العِزَّة والرفاهية والطُّمأنينة والسلام.

* * * * *

الصَّلاة سلاحُ النَّصر *

٢٦ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: غَزَوْتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْد، فَوَازَيْنا العدوَّ، فَصَافَفْنا لهم، فقام رسول الله ﷺ يُصلِّي لنا، فقامت طائفة معه تصلي، وأقبلتْ طائفةٌ على العدو، وَرَكَعَ رسولُ الله ﷺ بمَنْ معه، وسَجَد سَجْدَتَيْن، ثم انصرفوا مكانَ الطَّائفة التي لم تُصَلِّ، فجاؤوا فركع رسولُ الله ﷺ بهم رَكعةً، وسَجَد سجدتَيْن، ثمَّ سَلَّم، فقام كلٌّ واحد منهم فركع لنفسه ركعةً وسَجَدَ سَجْدَتَيْن. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١].

مكانة الصلاة في الإسلام

وعَدنا أن نتحدث في هذا الجزء عن صنوف الجهاد وأسلحته، بعد أن ألممنا في الجزء الماضي بشيءٍ من فضيلة الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته[٢]. ثم دَعَتْ دواعٍ كريمة إلى تقديم هذا الحديث بين يدي الوفاء بالوعد.

إنه حديث الصَّلاة في الحرب، والقتالُ سِجال بين جُند الرحمن، وأولياء الشيطان، ولا وزن عند الله لجهاد ـ أيِّ جهاد ـ ما لم يكن بين المجاهد ومن يُجاهد في سبيله صلة.

وأيُّ صلة أعظم من الصلاة؟! إنَّ الصَّلاة عماد الدين، ومَلاك التقوى: في

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الثامن والعشرون (١٣٧٦).

(١) رواه البخاري في كتاب صلاة الخوف (٩٤٢) واللفظ له، ومسلم (٨٣٩) في صلاة المسافرين.

(٢) انظر: حديث حيٍّ على الجهاد ص٢٧٣ ـ ٢٧٧.

الحَضَر والسفر، والسِّلم والحَرب، والأمن والخوف، والنضال والقتـال؛ فهـي قاعدة كلِّ جهاد، وأساس كل دفاع. لا يرفع الله لتاركها عملاً، ولا يتقبل الله منه قُربة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وفي الصَّلاة بعد ذلك قوةٌ للضعفاء، وَمَعُونةٌ للأقوياء، وإماتةٌ بالغيظ للأعداء؛ ومن أجل ذلك كانت من الإسلام، عماده الأول، وركنه الأَجلّ، بعد الإيمان بالله ورسوله؛ ومن أجل ذلك كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، كَتَبها الله عليهم خمس صلوات في كلّ يومٍ وليلة، ويسَّرها لهم تيسيراً، لا عُسْر فيه ولا حَرَج، من لم يستطع أن يصليها قائماً صلاَّها قاعداً، فَمَنْ لم يستطع فعلى جَنْب، فمن لم يستطع فَلْيُومئ بها إيماءً؛ لئلاَّ يكون لكائن من كان ـ بعد هذا التيسير ـ حجةٌ ولا معذرةٌ.

والمجاهدون في سبيل الله أَوْلى بالصَّلاة، وأحقُّ بها؛ لأنها سلاحهم الروحي، الذي إذا حالف سلاحهم المادي، كانوا من جند الله حقاً: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٢).

عَرَف ذلك أعداء الإسلام وأحلاف الشيطان، قديماً وحديثاً، فصدُّونا عن كتابنا وصلاتنا؛ لنكون مثْلَهُم، ثمَّ تكون لهم الغَلَبة علينا؛ لكثرة العَدَد والعُدَد حيث لا طاقة لنا بهم ولا قوَّة!!

نسمة زكيَّة

لكنَّ نسمةً من نسمات العزيز الرحيم، هَبَّت علينا في هذه الأيام العصيبة، طَيِّبةً زكيةً، فذكَّرت نفوساً كانت غاوية، وَهَزَّت قلوباً كانت قاسية، وأهابت بوزرائنا وقادتنا وأُولي الأمر منا أن يُنادوا: الصَّلاة سلاح

---

(١) سورة المائدة: ٢٧.

(٢) سورة الصَّافات: ١٧٣.

النصر: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١] معلنين في ندائهم القوي الملهم، أنَّ نصرنا لله تعالى إنما يبدأ بصلتنا الخالصة المؤمنة به، وأنَّ هذه الصِّلة إنما تبدأُ بالصلاة، وأنَّ واجبَ الإعداد لن يقْتصر على حفر الخنادق، وتجهيز المواقع الدفاعية، ولكنه يجب أن يمتدَّ، فيشمل تجهيز النفوس والقلوب، وتطهيرها؛ لتدعم صلتها بالله عزَّ وجل، وأنَّ على جميع القادة أن يُيَسِّروا لجنودهم القيام بصلاتهم، وأن يكونوا لهم أئمةً ومثلاً، يؤمُّونهم في الصَّلاة كما يقودونهم إلى المعركة.

الصَّلاة في الميدان

يذكِّرنا هذا النداء الموفَّق بصلاة القائد الأول ﷺ بالجيش، ثمَّ بصلاة القادة مِنْ بعده في معارك الحقِّ والظفر والنصر، إلى أنْ خَلَفت من بعدهم خُلوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤْمرون، أضاعوا الصَّلاة، واتَّبعوا الشَّهوات، وباعوا الدينَ بالدنيا، فَخَسروها جميعاً!!!

وقد صلَّى النبيُّ ﷺ هذه الصلاة في مواطن مختلفة على صفاتٍ شتَّى، يَتَحَرَّى في كلِّ موْطنٍ ما هو أحْوَط للصلاة، وأحفظ للجيش، وأبلغ في الحذر والحراسة.

وفي هذه الغزوة التي غزاها صلوات الله وسلامه عليه قِبَل نجد، صلَّى العصر صلاةَ قَصْرٍ وخوف، ففرَّق الجيشَ طائفتين، صلَّى بالأولى ركعة، على حين كانت الأخرى مُوَازِيةً للعدو، ثم انصرفت التي صلَّت خلفه ركعةً، وهي في صلاتها، مكان الطائفة التي لم تُصَلِّ، وجاءت هذه مكانها، فصلَّى النبيُّ ﷺ ركعته التالية، حتى إذا سلَّم، قامت كل طائفة فَقَضت لنفسها ركعتها الثانية، متعاقبين أو مجتمعين، مع أخذ كلٍّ منهما حذرها، وأسلحتها، وهي في

---

(١) سورة محمد: ٧.

صلاتها، اتَّقاءَ غدرِ العدو.

غزوة ذات الرقاع:

وتُسمَّى هذه الغزوة «ذات الرِّقاع»، لما لقوا فيها من بالغ المشقَّة والجهد، حتى كان أبو موسى الأشعري وخمسة منه يعتقبون بعيراً واحداً! قال أبو موسى: فنُقبت أقدامنا ـ رقَّت من الحفاء ـ ونُقبت قَدَماي، وسَقَطَت أظفاري، فكنَّا نلفُّ على أرجلنا الخِرق(١).

وسارَ صَلوات الله عليه في بِضْع مئينَ من أصحابه، حتى نزل نَخْلاً، على يومين من المدينة، يريدُ جموعاً، كان بَلَغه أنها اجتمعت لمحاربته، فلمَّا بلغهم نبأُ مَقْدَمه، ألقى الله في قلوبهم الرُّعب، فخافوا وتفرَّقوا في رؤوس الجبال.. ثم اجتمع جَمْعٌ منهم، فأخاف بعضهم بعضاً، فانصرفوا بعد أن تواقفوا من غير حرب.. وإنما كانت صلاة الخوف حَذَراً من العدو..

وخروج أبي موسى في هذه الغزوة، وأبي هريرة، ممَّا استدلَّ به البخاري وصاحب «الهَدي» على أنها كانت في السنة السابعة بعد خيبر؛ لأنهما لم يقدما على النبيِّ ﷺ إلا في أواخر خيبر(٢).

أول صلاة صلاها للخوف ﷺ

وأول صلاة صَلاَّها للخوف ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كانت بعسفان، بعد مرحلتين من المدينة إلى مكة.. وكانت في عمرة الحديبية سنة ست.. وذلك أنه لما صلَّى بأصحابه الظهر استقبلهم المشركون ـ عليهم خالد بن الوليد ـ فندموا أن لم

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٢٥) في المغازي، ومسلم (١٨١٦) في الهجرة والمغازي.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٧: ٣٢٢، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» ٣: ٢٥٢ ـ ٢٥٤. وممَّن ذهب إلى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد خيبر ابن كثير في« سيرته» ٣: ١٦١، وابن حجر في «الفتح»٧ :٤١٨.

يصيبوا من النبيِّ ﷺ وأصحابه غِرَّة. وقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غِرَّتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فأخبر الله نبيَّه ﷺ، وأنزل عليه صلاة الخوف، فصلاَّها بهم صلاة العصر[1].

وقد وقعت هذه الصلاة من قلب سيف الله خالد، موقعاً لم يزل أثره فيه، حتى شرح الله صدره للإسلام بعدها بعام أو عامين..

وليس يعنينا هنا أن نفصِّل كيفيَّات هذه الصلاة، فإنَّ لهذا التفصيل موضعه من كتب الحديث والفقه.. وإنما الذي يعنينا، ويعني قادتنا وأُولي الأمر منا أن ننوِّه بالصلاة ـ سلاح النصر ـ تنويهَ الله بها، ونعظِّمها تعظيمَ الله إيَّاها، في السِّلم والحرب، والفرج والكرب، في كلِّ بيت ومعهد، وفي كل مَتْجَر ومصنع، وفي كلِّ مجتمع وناد، غير ناسينَ فَضْل الجماعة فيها، ودعوة الله إليها، لما لها في الأمة عامَّة، وجيشها خاصّة من عظيم الأثر، وشدِّ الأزر، ولاسيما في ساحة النضال، وميدان القتال، وأحرج سُوَيْعات الفصل.

أول المسؤولين عن الصلاة

يعنينا هنا، ويعني أُولي الأمر منّا أن يعلموا أنهم أوَّل المسؤولين عن الصلاة ـ صلاة الأمن وصلاة الخوف ـ في كلِّ رقعة من الأرض مكَّنهم الله فيها، وفي كلِّ نفسٍ ولاَّهم الله أمرها، وفرض عليها أن تطيعهم، وتخلص لهم من بعد طاعة الله وطاعة رسوله..

لقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يكتب إلى عمَّاله: إنَّ أهمَّ أمركم عندي الصلاة، فَمَنْ حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها، كان لما سواها أشد إضاعة.

إنّ الصَّلاة ليعود فضلها وعظيم آثارها: من الموالاة والطاعة والمحبة

---

(١) انظر بيان مشروعيتها في صحيح مسلم (٨٤٠).

والإخلاص سراً وعلناً ـ أ ول ما يعود ـ إلى مَنْ دعا إليها وأمر بها، وأخذ الناس بالحزم والعزم، وكان مثلاً كريماً لمن يأمرهم بها ويحضُّهم عليها.

إعاذة وضراعة

وإننا لنعيذ بالله قادتنا، وأُولي الأمر منا، أن يكونوا من خَلوفٍ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤْمرون[١].. ونَضْرع إليه سبحانه أن يُسدِّدهم ويؤيِّدهم، وأن يمنَّ عليهم بطاعتنا لهم في طاعته، ومحبتنا إياهم في محبته، حتى نُصَلِّي عليهم، ويُصَلُّوا علينا[٢]، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

* * * * *

(١) اقتباس من حديث رواه أحمد ١ : ٤٥٨ (٤٣٧٩)، ومسلم في كتاب الإيمان (٥٠) عن عبد الله بن مسعود، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ بعثه الله في أمةٍ قبلي، إلا كان له من أُمَّته حواريُّون وأصحابٌ، يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلُف من بعدهم خُلوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خردل»..

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٥٥) عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «خيار أئمتكم: الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، ويُصَلُّون عليكم، وتُصلُّون عليهم، وشرارُ أئمتكم: الذين تُبغضونهم، ويُبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» قيل: يا رسول الله، أفلا نُنابذهم بالسيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصَّلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئاً تكرهونه، فاكْرَهُوا عَمَلَه، ولا تنْزعوا يداً من طاعة». وانظر ص٦١٨ ـ ٦١٩.

خيرةُ الله خيرٌ *

٢٧ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّمنا الاسْتخارة في الأمور كلِّها كما يُعلِّمنا السُّورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدُكُم بالأمر، فَلْيركع رَكْعَتَيْن من غير الفَريضة، ثمَّ ليقل: اللهمَّ إنّي أَستَخيرُك بعلمك، وأسْتَقْدِرُك بقُدَرِتك، وأسْأَلُكَ من فَضْلك العظيم؛ فإنَّك تَقْدِرُ ولا أقْدر، وتَعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علاَّم الغيوب. اللهمَّ إن كُنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومَعَاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: عاجِلِ أمري وآجلِه ـ فاقْدُره لي، ويَسِّره لي، ثمَّ بارك لي فيه، وإنْ كُنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ومَعَاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: في عَاجِلِ أمري وآجِلِه ـ فاصْرِفْه عنّي، واصْرفني عنه، واقْدُرْ ليَ الخَيْرَ حيثُ كان، ثمَّ أَرْضِنِي به. قال: ويُسَمِّي حَاَجَته». رواه البخاري[1].

المفردات:

أستخيرك: أطلب منك الخيرَة. والخِيَرة وزان عِنَبة، اسمٌ من قولهم: خار الله لك أي: أعطاك ما هو خيرٌ لك. ومستخير الله ـ جلَّت آلاؤه ـ يسأله خير أمريه اللذين يتردَّد فيهما.

[أستَقْدرك: أي: أطلب منك أنْ تقْدِرَني]

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الثامن عشر، (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢) في كتاب التهجُّد، وأبو داود (١٥٣٨) في الصلاة، والترمذي (٤٨٠) في الصلاة، والنسائي (٣٢٥٣) في النكاح، باب كيف الاستخارة.

فاقدُره لي: بضم الدال وكسرها، من بابَي نَصَر وضَرَب: اقْض لي به وهيِّئه، أو اجْعَله مَقْدوراً لي. وكأنَّ هذا تمهيدٌ لطلب تيسيره الذي عُطف عليه بعدُ.

وأو: في الموضعين للشكِّ من الراوي، في أيِّ اللفظين قال النبيُّ ﷺ، مما يدل على تمام التحرِّي والضبط[١]، وقد أشرنا إلى مثل ذلك من قبل.

* * * * *

توحيد الله وتنزيهه والاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه

يبدو لمن يقنع بظواهر الأمور، أنَّ هذا الحديث يدعو إلى نافلةٍ من نوافل الخير، ليس غير.

ويؤيِّده في ذلك أنَّ المُحدِّثين والفقهاء، إنما يذكرونه في صلاة الاستخارة ودعائها، مِن أبواب التطوع والنافلة.

ولكنَّ الباحثَ في أسرار الأحاديث ومراميها يجد في هذا الحديث ـ غير متكلِّفٍ ولا متعسِّف ـ سُبلاً معبَّدة إلى توحيد الله وتنزيهه، واستحضار عظمته وجلاله، مع الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه، في منهج من مناهج العبادة السَّهلة المحبَّبة إلى كلِّ نفس.

وَمَنْ ذا الذي لا يحبُّ أن يجعلَ الله له من أمره يُسْراً؟! فيقدِّمَ بين يديه ركعتين يختمهما بالضَّراعة إلى الله وحدَه أن يخيرَ له، وأن يَصْرِفَ عنه السُّوء والأذى، وأنْ يرضيَه دائماً بما يُيسِّره له؛ لأنه وحده القادر القاهر، الذي أحاط

---

(١) ولذا قال العلماء: يستحبُّ للمستخير أن يجمع بين العبارتين؛ ليصيب بيقين مقالة النبيِّ ﷺ (طه).

بكلِّ شيء علماً، وأحصى كلَّ شيء عَدَداً.

ويجد الباحث في هذا الحديث كذلك كيف كان النَّبيُّ ﷺ يهدم الشِّرك وآثاره، ويرفع مكانه قواعدَ التوحيد ومناره، ويذكِّر الناس بربِّهم في كلِّ أمر يهمُّهم، أو حاجةٍ تعرض لهم، وحاجات مَنْ عاش لا تنقضي.

طرائق الناس في الوقوف على المغيَّبات

لقد شُغف الناس قديماً بحبِّ الاطلاع على المغيَّبات، والوقوف على المُحَجَّبات، وسَلَكوا في ذلك طرائق قِدَداً، كلُّها تحوم حَوْل الشَّك أو تتَّصل به؛ وتولاَّهم في هذا الضلال القديم رؤوس من شياطين الإنس والجن، يُوحي بعضهم إلى بعض زُخْرُف القول غُروراً.

ومن هؤلاء العرّافون، وضاربو الرَّمْل، والكُهَّان، والمنجِّمون، ومَنْ إليهم، ممَّن لا تزالُ بقاياهم منتشرةً في أنحاء الأرض إلى اليوم.

ولقد كان للعرب في الجاهليَّة من هذه الأباطيل والأضاليل نصيبٌ غيرُ قليل، حتى بعثَ الله رسولَه بالهدى ودين الحق، كما بعث إخوانه النَّبيين من قبله، فأخرجهم من ظلمات الشِّرك إلى نور الإيمان، وأنقذهم من مَهَاوي الخُرافات والأوهام إلى ذِرْوة العلم والعِرفان، وسَمَا بعقولهم من حَضيض الأَسْر والتقليد إلى سَمَاء البصيرة والبرهان.

ضلالة الاستقسام بالأزلام

وكان فيما حرَّمه الله وقبَّحه، وبيَّن أنه خُبْثٌ ورِجْس من عمل الشيطان، ضلالةُ الاسْتِقْسام بالأزلام[1]، وهي الأقداح التي يضربونها لمعرفة الحظ

---

(١) واحدها: زَلَم، بفتح الزاي وضمها مع فتح اللام. والزُّلَم، والقلم، والقِدْح (بكسر القاف) كلُّها بمعنى، والمراد بها قطع خشبية على هيئة السهم، إلا أنه لا ريشَ له ولا نصل (طه).

والنصيب، وطلب ما قُسِمَ لهم في الغيب.

وتدلُّ صحاح الأخبار على أنَّ القداح كانت عندهم ضروباً:

فَضَرْبٌ منها ثلاثة أقداح، يجعلونها في خرائطهم، مكتوبٌ على أحدها: «أمرني ربي»، أو: «افعل». ومكتوبٌ على الثاني: «نهاني ربي»، أو: «لا تفعل». والثالث: غُفْلٌ أي لا شيءَ عليه. فإذا أراد أحدهم سَفراً أو غزواً أو زواجاً أو تجارة أو نحوها، أدخل يده في الخريطة، فإذا خرج الآمر ائتمر، أو الناهي انتهى، أو المُهمَل أعاد الضَّرب، وأجالَ يدَه ثانية.

وضربٌ منها سبعة أقداح، كانت في جوف الكعبة عند هُبَلَ، أعظم أصنام قريش بمكة، وقد كتب عليه ما يدور بينهم من النوازل والأمور المهمة، كالعقل وهو الدية، والنَّسب، والحلف، والماء، إلى غير ذلك مما يشغلهم. فإذا همّوا بأمر أو اختلفوا في شيء، ذهبوا إلى سَادن الكعبة، وأهدَوْا إليه الهدايا، وطلبوا إليه أن يَسْتَقْسِمَ لهم، فما خَرَج عملوا به واطمأنّوا له. وكثيراً ما تكون هذه السبعة عند كلِّ كاهن من كُهَّان العرب وحكّامهم؛ للفَصْل في الأمور المهمة على نحو أقداح هُبَل في الكعبة.

وضربٌ ثالثٌ، عشرة أقداح للميسر: سبعةٌ منها ذوات خطوط، وثلاثةٌ أغفال، وكانوا يضربون بها للمقامرة.

وتدلُّ كثرة الروايات واختلافها على أنَّ القداح كانت تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، والأهوال والشهوات، وإنْ رجعت كلُّها إلى معنى واحد، هو التوسُّل بها إلى كشف الغيب الذي لا يعلَمه إلا الله.

ضلالةٌ تهدر العقل، وتفسد الفطرة، وتهوي بالإنسان إلى الدرك الأسفل، من بعد أن شرَّفَه الله وكرَّمه، وسخَّر له ما في الأرض جميعاً، وأعلى شأنه في هذا الوجود!.

وَمِنْ هنا ندرك الحكمة الإلهيَّة البالغة في تحريم هذه الضلالة، ونُظمِها في

سِلْكِ الخبائث والفسق[١]، ونعتها بأنَّها رجس من عمل الشيطان[٢].

ومن هنا كذلك ندرك السرَّ في شِرعة الاستخارة، وعناية النبيِّ ﷺ بتعليمها أصحابَه، كأنها سورةٌ من القرآن.

يهُمُّ المرءُ بالأمر، لا يَدْري أخيرٌ هو أم شر؟، أو يدري أنه خير، ولكنه لا يدري أجاء إبانه أم لم يجيء بعد[٣]: «وللأمور كما للزَّرع إبان».

فيُرشده صلوات الله وسلامه عليه، أن يفزع إلى علاَّم الغيوب، يستخيره ليخيرَ له، ويستهديه ليهديَهُ، ويتوكَّل عليه وحده ليعينَه ويكفيَه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٤].

صلاة ركعتي الاستخارة

ولأنَّ في دعاء الاستخارة قَبَساً من نور التوحيد والتنزيه، والضَّراعة إلى الله عزَّ وجل، سنَّ النبيُّ ﷺ صلاةَ ركعتين قبله؛ لأن الصَّلاة صِلَةٌ بين العبد وربِّه، وأعظمُ وسيلةٍ إليه سبحانه، وَحَسْبُ المُصلِّي أنه يناجي ربَّه. وكانتا من غير الفريضة؛ للعناية بأمر الاستخارة، واختصاصها بعبادةٍ مستقلة[٥].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

(٣) وأما المعروف أو المنكر من المأمورات والمنهيات، فَبَدهيٌّ أنَّ الاستخارةَ فيها لا معنى لها إلا تحصيل الحاصل أو سوء الأدب (طه).

(٤) سورة الطلاق: ٤.

(٥) هذا، وللاستخارة آدابٌ تنظر في موضعها من كتب الأحكام (طه).

الله أكبر أين الضلال الجاهليُّ، من الهدي النبويِّ؟!. وأين خباثة الرِّجْس، من طَهَارة النفس؟!. وأين ظلمات الكفر والعصيان، من نور الهدى والإيمان؟ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾[١].

لا تغني الاستشارة عن الاستخارة

ولا يَقُولنَّ قائلٌ: إنَّ الاستشارةَ تُغني عن الاستخارة. فليس كلُّ أمر يُسْتشار فيه، ولا سيِّما أمراً يعزُّ فيه الناصح الأمين. فإذا تيسَّرت الاستشارة فليبدأ بها؛ فإنَّها خيرٌ إلى خير، وحَسْبُها فَضْلاً أنَّ الله أمر نبيَّه ﷺ أن يُشاورَ أصحابه في الأمر، مع ما منحه من العقل الرشيد، وأيَّده بالعصمة والتسديد. وفي منثور الحِكَم والآثار: «ما خابَ من استخار، ولا نَدِمَ من استشار»[٢].

عادات جاهلية

وبعد، فإنَّ من العَجَب ـ وفينا هذا الهديُّ النبويُّ الكريم ـ أن يكون في الأمة المحمديَّة مَنْ لا يزال يَسْتَنُّ بسُنَّة الجاهلية، في الاسْتِقْسام بما يشبه الأزلام، من رقاع الفأل، وأوراق اللعب، وكعاب النَّرد، وحَبِّ السُّبح، إلى غير أولئك، مما يختلف عن سهام الجاهلية في أشكالها، ويتَّفق معها في مراميها وأغراضها.

ومنهم: من يستخير ببعض الأدعية، أو آي الكتاب الكريم، يتلوها عند النوم؛ ليرى في منامِه ما يُرشده إلى الصَّواب[٣].

---

(١) سورة المائدة: ١٠٠.

(٢) رواه الطبراني في الصغير ٢ :١٧٥(٩٨٠)، و من طريقه القضاعي في «مسند الشهاب» ٢ :٧(٧٧٤) من حديث عبد القدوس بن حبيب، عن الحسن، عن أنس مرفوعاً. قال صاحب «الكشف»: ١ : ١٨٥ : وفي سنده ضعف جداً.

(٣) في هذا العطف مبالغةٌ وحَيْف: عطفِ مَنْ يستخير الله تعالى ببعض الأدعية والآيات الكريمة، على من يستخيره بسنن جاهلية تشبه الأزلام!!

على أنَّ بعض أئمة المذهب الحنفي نصَّ على سَواغية الاستخارة بالمنام، وهو الإمام =

ومنهم: من يظنُّ أنّ الاستخارةَ وسيلةٌ إلى كشف الغَيْب، جاهلاً أنها ليست إلا ضراعةً إلى الله سبحانه؛ أن يَرزقَ من استخاره السَّدادَ، ويُهيئَ له سبيل الرَّشاد.

ألا إنَّ الحقَّ أبْلَج، والباطلَ لَجْلَج، وقد تَركَ فينا نبيُّنا صلوات الله عليه وسلامه ما إنْ اهتدينا به، فلن نضلَّ بعده أبداً، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[1].

* * * * *

محمد بن أبي بكر الشَّرغي زاده من علماء القرن السادس، ترجمه الحافظ القرشي في «الجواهر المضيَّة» ٣ :١٠٣، وذكر في آخر الترجمة أن له كتاباً نفيساً كثير الفوائد سمَّاه «شرعة الإسلام». أقول: إن هذا الإمام نصَّ في كتابه هذا على هذه الكيفيَّة من الاستخارة، ناقلاً لها عن المشايخ، والله أعلم.

هذا وقد تواردت الأحاديث الصحيحة على فَضْل الرؤيا الصَّالحة، وأنها عاجل البشرى التي يبشِّر الله بها عباده الصالحين في الدنيا. ففي «مسند أحمد» ٦: ٤٤٥ (٢٧٥١٠) عن أبي الدرداء قال: سألت رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. قال النبيُّ ﷺ: «الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له».

وروى أحمد في «المسند» ٢: ٢١٩ (٧٠٤٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ: «الرؤيا الصالحة، يُبَشَّر بها العبد جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة». ووقع في أكثر الروايات ـ كما قال الحافظ في «الفتح» ١٢: ٣٦٢ ـ: أنَّ الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً، وهي أصح الروايات.

وروى ابن ماجَهْ (٣٨٩٦)، وابن جرير في «تفسيره» ١٢: ٢١٩ عن أمِّ كُرْز الكعبيَّة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوَّة، وبقيت المبشِّرات».

(١) اقتباس من الآية ٩٢ من سورة النمل.

المَسَاجِدُ الثلاث *

المَسْجد الحرام ـ المسجد النبوي ـ المسجد الأقصى

٢٨ ـ عن أبي هريرة رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرِّحَال[1] إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»[2]. رواه الشيخان[3].

اختلاف المساجد بالشَّرف والفَضْل

أَفْضَل بقاع الأرض المساجد، وما في ذلك رَيْبٌ، وكفى أنها بيوت الله التي أَذِنَ أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه.

وهي ـ وإنْ شُرِّفت كلها بانتسابها إلى الله عزَّ وجل ـ تختلف شرفاً وفَضْلاً باختلاف قِدَمها وَسَعتِها، واقترابها من السنَّة وابتعادها.

وقد رفع الله ثلاثةً منها درجاتٍ، فقدَّمها على ما عداها، وكرَّمها وفضَّلها

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد التاسع عشر (١٣٦٧).

(١) الرَّحْل للبعير كالسَّرج للفرس، وشدُّ الرحال كناية عن السفر مطلقاً (طه).

(٢) سُمِّيَ بذلك لبُعده عن مسجد مكة أو المدينة، أو لأنه لم يكن وراءه مسجد، أو لبُعده عن القَذَر والرِّجس (طه).

(٣) أخرجه البخاري (١١٨٩) في كتاب العمل في الصلاة، ومسلم (١٣٩٧) في الحج مِنْ حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم (٨٢٧) مِنْ حديث أبي سعيد الخدري.

تفضيلاً؛ وتلك هي التي نوَّه بأسمائها[1] رسول الله ﷺ في هذا الحديث.

أعظم المساجد فضلاً

أما المسجدُ الحرام: فهو أعظمها فَضْلاً، وأجلُّها شأناً، وأرفعها مكاناً، جَعَلَه الله مَثَابةً للناس وأمناً، في مكة البلد الأمين؛ مهبط الوحي، ومَبْعَث الرسالة، ومولد خاتم النبيِّين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

اختاره الله تعالى قِبلةً لعباده، وجَعَل زيارته ركناً من أركان دينه، وأمر أبا الأنبياء خليله إبراهيم عليه السلام أن يبنيه، ويرفع قواعده، ويؤذِّن في الناس بالحج إليه؛ ليأتوه رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتينَ من كلِّ فج عميق.

وليس على وَجْه الأرض موضعٌ يجب على كلِّ قادر أن يَسعى إليه، ويطوفَ به، ويُقبِّلَ بعضَه إلاَّ هذا البيت.

وحَسْبُكَ ما رُوِيَ أنَّ الصَّلاة فيه بمئةِ ألف صلاة فيما سواه[2]، وما صحَّ أن مَنْ حَجَّه مخلصاً لله؛ فلم يرفث ولا يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[3].

وهل تَنتظر شهادةً على فَضْله أبلغ من قول أصدق القائلين فيه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

---

(١) نوَّه باسمه: إذا رفع ذكره.

(٢) أخرج أحمد ٣ :٣٤٣(١٤٦٩٤) ، وابن ماجَهْ (١٤٠٦) بإسنادين صحيحين ـ كما في الترغيب ـ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة».

(٣) أخرج البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ، فلم يرفث، ولم يفسُقْ، رَجَع من ذنوبه كيَوْمَ ولدته أمه» قال المنذري في «الترغيب» (١٦٤٠): الرفثُ يُطلق، ويُراد به: الجماع، ويطلق ويُراد به: الفحش، ويُطلق ويراد به: خطاب المرأة فيما يتعلَّق بالجماع، وقد نقل في معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء، والله أعلم.

بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

مَسْجدُ النَّبيِّ ﷺ

ويلي المسجدَ الحرام في الفَضْل **مسجدُ النبيِّ ﷺ**، على ما ذَهَبَ إليه العلماء[2].

قال النوويُّ في شرح قوله ﷺ: «**صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلاَّ المسجدَ الحرام**»[3]: «اختلف العلماء في المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم في مكة والمدينة: أيتهما أفضل؟ ومذهب الشافعي وجماهير العلماء أنَّ مكة أفضل من المدينة، وأنَّ مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة. وعكسه مالك وطائفة؛ فعند الشافعي والجمهور: معناه إلاَّ المسجد الحرام؛ فإنَّ الصلاة فيه أفضل من الصَّلاة في مسجدي. وعند مالك وموافقيه: إلا المسجد الحرام؛ فإن الصَّلاة في مسجدي تفضُله بدون الألف»[4].

---

(١) سورة آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) **فائدة**: سأل بعض الأفاضل عمَّا أُلحق بالحرمين؟ والخلاصة: أنَّ العلماء اتَّفقوا على مضاعفة الثواب لما زيد في المسجد الحرام، واختلفوا فيما زيدَ في الحرم النبويِّ، فذهب النووي وغيره إلى أنَّ التضعيف لا يشمله، ولكن رغبته ﷺ في زيادته، وتحقيق أصحابه لهذه الرَّغبة دليلٌ على أنَّ المضاعفة شاملةٌ لما زيد فيه. ولعل الإشارة في «مسجدي هذا» لإخراج المساجد المنسوبة إليه بالمدينة. وانظر: «وفاء الوفا» (طه).

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤) مِنْ حديث أبي هريرة.

(٤) انظر: النووي على مسلم ٩: ١٦٣، والفتح على البخاري ٣: ٨٠، ٨١، و«وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» في الكلام على المساجد الثلاثة (طه).

ويؤيِّد مذهبَ الجماهير ما رواه الترمذي والنسائي عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ ـ وهو واقفٌ على راحلته بمكة ـ يقول: «والله إنك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منكِ ما خرجت»[١].

وما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلاَّ المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مئةِ صلاةٍ في مسجدي»[٢].

وقد بناه النبيُّ ﷺ وأسَّسه على التقوى من أوَّل يوم[٣] بعد مَقدَمه من مكة إلى المدينة، دارِ السلام، وَمَوْئل الإسلام، من بعد أن أسَّس مسجد قُباء[٤] في بني عمرو بن عوف، وكان قد أقام فيهم أربع عشرة ليلة.

أمر صلوات الله وسلامه عليه باتِّخاذ اللَّبِن فاتُّخذ، وبنى المسجد في مَبْرَك ناقته، وهو يومئذ مِرْبد تمر[٥] ليتيمَيْن في المدينة، وكانا راغبَيْن أن يجعلا ثمنه هبةً لله ورسوله، فأبى ﷺ إلاَّ الثمن، وابتاعه منهما بعشرة دنانير أدَّاها من مال

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٢١)، والنسائي في السنن الكبرى (٤٢٣٨)، (٤٢٣٩)، وابن ماجَهْ (٣١٠٨).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» ٤: ٥ (١٦١١٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» ٤: ٤ ـ ٥: «رواه أحمد والبزار (٤٢٥) والطبراني في «الكبير» بنحو البزار، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح».

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...﴾ [التوبة: ١٠٨]، وسيُسْفِر لك وَجْهُ الحقِّ في سبب نزولها (طه).

(٤) قباء من عوالي المدينة على نحو ثلاثة أميال منها، وهي في الأصل اسم بئر في هذا الموضع (طه).

(٥) المِرْبَد بوزن منبر: الجرين أو مربط الإبل (طه).

أبي بكر رضي الله عنه، ثم سُقِف بالجريد، وجُعلت عُمُده من خشب النخل، وعمل فيه المهاجرون والأنصار، وكان ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنائه، وهو يتمثَّل بقول عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه:

هَذا الحِمَالُ، لا حِمَالُ خَيْبرْ هَـذَا أَبَـرُّ ـ رَبَّنَـا ـ وَأَطْهَـرْ[١]

وقوله:

اللهُمَّ إنَّ الأجْـرَ أجْـرُ الآخِـرَهْ فَـارْحَمِ الأنصـارَ والمُهَـاجِرَهْ

وجُعِلت قبلتُه إلى بيت المقدس؛ وكان ﷺ يُصلِّي نحو بيت المقدس بعد مَقْدَمِه إلى المدينة حتى ولاَّه الله القِبْلة التي يرضاها، وهي الكعبة البيت الحرام، على رأس سبعة عشر شهراً.

وممَّا جاء في فضل هذا المسجد ما رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث أنس رفعه: «من صلَّى في مسجدي أربعين صلاةً لا تفوته صلاة كُتب له براءة من النار، وبراءة من العذاب، وبراءة من النفاق»[٢].

المسجد الأقصى

وأما **المسجد الثالث فهو بيت المقدس**، مسجد الأنبياء السابقين، وقبلة الأمم السالفين، وقبلة هذه الأمة كذلك سبعة عشر شهراً كما قدَّمنا آنفاً؛ وَوَرَدَ أنَّ الصلاة

---

(١) أي: المحمول من اللَّبِن والحجارة في بنيان هذا المسجد، أبرُّ وأزكى عندك يا ربنا من أحمال خيبر تمرها وزبيبها (طه).

(٢) رواه أحمد ٣: ١٥٥ (١٢٥٨٣) وإسناده ضعيف، لكن رواه الترمذي (٢٤١) مِنْ غير طريق أحمد، عن أنس مرفوعاً وموقوفاً بلفظ: «من صلَّى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، كُتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق». ورجَّح الموقوف. انظر التعليق على «المسند»، طبعة مؤسسة الرسالة.

فيه بخمسمائة صلاةٍ فيما سواه إلا المسجدَ الحرام، والمسجدَ النبويَّ[١].

وروى النسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ النَّبي ﷺ قال: «إنَّ سليمان بن داودَ عليهما السلام لما بنى بيتَ المقدس، سأل اللهَ عزَّ وجلَّ خلالاً ثلاثاً: حُكماً يصادف حُكمَه[٢] فأُوتيَهُ؛ ومُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأُوتيَهُ؛ وسأل الله تعالى حين فَرَغَ من بنائه ألاَّ يأتيه أحدٌ ـ لا ينهزُه[٣] إلا الصلاةُ ـ فيه أن يخرجه من خطيئته، كيوم ولَدَته أمُّه[٤]».

وروى أبو داود عن مَيْمونة مولاة النَّبيِّ ﷺ[٥] أنها قالت: يا رسول الله، أفتِنا في بيت المقدس؟ فقال: «ائْتُوهُ فَصَلُّوا فيه، فإن لم تأتوه وتصلُّوا فيه، فابعثوا بزيتٍ يُسْرَج في قناديله»[٦].

---

(١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاةٍ، والصلاة في مسجدي بألف صلاةٍ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاةٍ». قال المنذري في «الترغيب»(١٧٧٦): رواه الطبراني في الكبير، وابن خزيمة في صحيحه. ورواه البزار (٤٢٢) ولفظه: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاةٍ، وفي مسجدي ألفُ صلاةٍ، وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة» وقال البزار: إسناده حسن.

(٢) أي: أن يكون حكمه موافقاً لحكم الله عز وجل وشريعته.

(٣) لا يُخرجه ولا يَدفعه.

(٤) رواه أحمد ٢ :١٧٦(٦٦٤٤)، والنسائي ٢: ٣٤ (٦٩٣)، وابن ماجَهْ (١٤٠٨)، وابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (١٦٣٣) في صحيحيهما، والحاكم ١ :٣٠ أطول من هذا، وقال: صحيح على شرطهما، ولا علَّة له.

(٥) خادمه. وهي ميمونة بنت سعد، أو سعيد، صحابيةٌ.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٥٧) في كتاب الصلاة، باب في السُّرج في المساجد، وابن ماجَهْ (١٤٠٧)، قال النووي في «المجموع» ٨: ٢٦٢ «إسناده لا بأس به»، وقال العلائي: «إنه حديث حسن أو صحيح» كما في «البلدانيات» للسخاوي ص٦٧.

هذه هي المساجد الثلاثة المقدَّسة، التي تُشَدُّ الرِّحَالُ إليها، وتُحتمل المشاقُّ في سبيلها، وتُنفقُ النفقات في زيارتها والصَّلاةِ فيها؛ وأما غيرها فلا يدركها في هذه المنزلة، ولا يلحقها في تلك المزِيَّة[1].

فالذين يتحمَّلون النفقات في السَّفر إلى مسجدٍ سواها، أو يرهقون أنفسهم في الذهاب إلى غيرها، جاهلون بسنَّة نبيِّهم، أو متَّبعون لأهوائهم[2]؛ وحقٌّ على أهل العلم أن يهدوهم صراطاً سوياً.

شدُّ الرحالِ لغير المساجد الثلاثة

نعم؛ إنَّ الرِّحلة للقاء الصَّالحين، أو الأخذ عن العالمين، أو النظر في مَلَكوت السَّموات والأرض؛ كلُّ ذلك ممَّا رغَّب فيه الكتاب والسنة، وشهدت به سيرة السلف.

---

(١) ويدلُّ على ذلك أيضاً ما أخرجه أحمد ٦ : ٧ (٢٣٨٤٨) بإسناد صحيح أن أبا هريرة لقي بَصْرة بن أبي بَصْرة الغفاري، قال: مِنْ أين أقبلتَ؟ فقلت: مِنَ الطُّور. فقال: أما لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجتَ إليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُعملُ المَطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجدَ: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي، وإلى مسجد إيلياء» أو «بيت المقدس».

قال الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٩ : ٣٦٨: معناه: «لا تُشدُّ الرِّحال إلى مسجدٍ، ابتغاء الأجر سوى المساجد الثلاثة، فإنَّ لها فضلاً خاصًّا..». وقال أيضاً ٤ : ٤٨٤: «فمن وقف عند الحُجْرة المقدَّسة ذليلاً مُسلِّماً، مُصلِّياً على نبيِّه، فيا طُوبى له، فقد أحسن الزيارة، وأجمَل في التذلُّل والحُبِّ، وقد أتى بعبادةٍ زائدةٍ على مَنْ صلَّى عليه في أرضه أو في صلاته، إذ الزائر له أجرُ الزيارة وأجرُ الصلاة عليه، والمصلِّي عليه في سائر البلاد له أجر الصلاة فقط..» إلى آخر كلامه النفيس رحمه الله تعالى.

(٢) ومن هؤلاء أقوام أولعوا بالموالد، ورأوا فرضاً عليهم أن يؤذوا مساجد الله وعباده، بشدة زحامهم، وكثرة ضجيجهم، وبالغ أقذارهم (طه).

قال الإمام الغزالي: «كان سعيد بن المسيِّب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد».

وقال الشَّعبي: لو سافر رجلٌ من الشام إلى أقصى اليمن في كلمةٍ تدلُّه على هدى، أو تردُّه عن رَدى ما كان سفره ضائعاً[١].

ورحل جابر بن عبد الله إلى مصر مع عشرة من الصَّحابة، فساروا شهراً في حديثٍ بلغهم عن عبد الله بن أُنيس الأنصاري يحدِّث به عن رسول الله ﷺ[٢] حتى سمعوه[٣].

والأخبار والآثار في الارتحال إلى طلب العلم، وزيارة الإخوان، والتدبُّر في آيات الكَون، وآثار السَّابقين، أكثر من أن يُلِمَّ بها كتابٌ فضلاً عن مقال[٤].

مسجد قُباء

وألحق بعضُ العلماء مسجد قُباء بهذه الثلاث، فأجاز شدَّ الرحال إليه؛

---

(١) الشَّعبي هو التابعي الجليل عامر بن شَرَاحيل الكوفي الهمداني المولود سنة ١٩ والمتوفى سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى. قال ابن المديني: قيل للشعبي: من أين لك هذا العلمُ كلُّه؟ قال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبرٍ كصبر الحمار، وبكورٍ كبكور الغُراب» كما في «تذكرة الحفاظ» ١ :٨٤.

(٢) قال الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب العلم ١ :١٥٨ باب الخروج في طلب العلم: ورحل جابر بن عبد الله مَسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيسٍ في حديث واحد. والحديث الذي يشير إليه البخاري رواه في كتابه «الأدب المفرد» (٩٧٠) في باب المعانقة.

(٣) انظر «إحياء العلوم» في آداب السفر [٢: ٢٤٥ _ ٢٤٧] (طه).

(٤) انظر جملةً صالحةً من أخبار العلماء في التعب والنَّصب، والرحلة في طلب العلم وقطع المسافات في الكتاب النافع المعطار «صفحات من صبر العلماء» ص٣٣_١٠٧، لأستاذنا العلامة المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى.

لأنه أوَّل مسجدٍ بُني في الإسلام، وأوَّل مسجد أعلنَ فيه النبيُّ عليه الصلاة والسلام الجماعةَ بأصحابه، وأوَّل مسجدٍ بُني لجماعة المسلمين عامة، وكانت المساجد قبلة خاصَّة للأفراد أو القبائل، وكان النبيُّ ﷺ يزوره كل سبت راكباً أو ماشياً، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يحرص على ذلك اقتداءً به ﷺ[١].

المسجد المؤسَّس على التقوى

واختلف العلماء في أيِّ المسجدين نَزَل قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾[٢]؟.

فَذَهَب جَمَاعةٌ ـ منهم مالك ـ إلى أنه مسجد المدينة مُحتجِّين بما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى؟ فقال: «هو مسجدكم هذا»[٣]، يعني مسجد المدينة.

قال النووي: وهذا نصٌّ بأنه المسجد الذي أُسِّس على التقوى المذكور في القرآن، وردٌّ لما يقول بعضُ المفسِّرين أنه مسجد قباء[٤].

والحقُّ ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ أنَّ كلاًّ منهما أُسِّسَ على التقوى من أوَّل يوم بُنيَ فيه، وأنَّ قوله تعالى في بقيّة الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[٥] يؤيِّد أنَّ المراد مسجد قباء، كما رُوي في سبب

---

(١) روى البخاري (١١٩٣)، والنسائي (٦٩٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجدَ قُباء كلَّ يوم سبتٍ راكباً وماشياً، وكان عبد الله يَفْعَلُهُ.

(٢) سورة التوبة: ١٠٨.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٩٨)، والترمذي (٣٠٩٩)، والنسائي (٦٩٧).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٩: ١٦٩.

(٥) سورة التوبة: ١٠٨.

نزولها بسندٍ صحيح[1].

والسرُّ في إجابته ﷺ بأنَّه مسجد المدينة، رفْعُ ما يخطُرُ بالبال من أنَّ التأسيس على التقوى خاصٌّ بمسجد قباء، وبيانُ أنَّ مسجد المدينة يشاركه هذه الميزة، ويمتاز عنه بفضائل أخرى[2].

وبعد، فإنَّ الحنيفيَّة السَّمْحَة تدعو إلى الأسفار النافعة، والرحلات المباركة، التي تُثمر ثمرها، وتُؤْتي أُكُلَها، وتدلُّ على الخَيْر والهُدى، وتدفع الشرَّ والرَّدى؛ كما تُحذِّر من الأسفار العابثة والضَّائعة، التي لا تُكْسِبُ صاحبها في الدين أجراً، ولا في الدنيا خيراً.

* * * * *

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قُباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية. أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذي (٣٠٩٩)، وابن ماجَهْ (٣٥٧)، وابن خزيمة (٨٣)، والحاكم في المستدرك ١ :٢٥٧، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وعن أبي أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أن هذه الآية لما نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، قال رسول الله ﷺ: «يامعشر الأنصار: إنَّ الله قد أثنى عليكم في الطهور، فما طهوركم»؟ قالوا: نتوضأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء.. قال: «فهو ذاك فعليكموه». رواه ابن ماجَهْ (٣٥٥) والحاكم ١ :٥٥، وقال: هذا حديث كبير صحيح، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الزيلعي في «نصب الراية» ١ :٢١٩. والحديث صحيح لشواهده عن جماعة.

(٢) وأما زيارته صلوات الله وسلامه عليه، فكان المقصود الأول منها مواصلة أهل قباء وتفقُّد أحوالهم وأحوالِ مَنْ غاب منهم عن شهود الجمعة معه، وهذا هو سرُّ تخصيص الزيارة بالسبت (طه).

من أسرار الصوم وآدابه *

٢٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال اللهُ عزَّ وجلَّ: كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ لهُ، إلاَّ الصِّيامَ، فإنَّه لي وأنا أجْزي بهِ. والصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يومُ صَومِ أحدِكُم، فلا يَرفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتَله، فليْقُل: إني صائمٌ. والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيده، لَخُلوفُ فَمِ الصائم أطيبُ عندَ الله منْ رِيحِ المِسْكِ، للصَّائم فرحتان يَفرحُهُما: إذا أفطر فَرِحَ، وإذا لقيَ ربَّهُ فرِحَ بِصومِهِ». رواه الشيخان واللفظ للبخاري[1].

مكان الصوم من العبادات

أفاض العلماء والباحثون قديماً وحديثاً في حِكَم الصوم وأسراره ما شاء الله أن يفيضوا، وجهدوا في اكتشافها ما شاء الله أن يجهدوا. ولكنَّهم مهما يكتشفوا من أسراره الفرديَّة والجماعيَّة، وحِكَمه الماديَّة والروحيَّة، وآثاره الطبيَّة والتهذيبيَّة؛ فلن يُدركوا غايتها، ولن يحيطوا بتفصيلها علماً.

وأكبرُ الظنِّ أنهم في جهدهم هذا يعنون أشدَّ العناية ببيان حكَمه وأسراره مستقلاً عن سائر أركان الإسلام وشُعَبه؛ إذ لم ينل ارتباطه بها وتأثيره فيها من هذه العناية إلاَّ قليلاً.

فهل لنا أن نُنعم النظر في كشف أسرار الصوم مرتبطاً بغيره من شرائع الإسلام وشُعبِه ومؤثِّراً فيها، كما أنعمنا النظر في أسراره وآدابه مُستقلاً عنها

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢).

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) كلاهما في كتاب الصيام.

وبلغنا أمداً بعيداً؟! وهل لنا أن ننتقل بعد ذلك إلى سائر هذه الشُّعَب، فندرس صِلة كلٍّ منها بأخواتها ومدى تأثيرها فيها، ثمَّ ندرس صِلاتها مجتمعةً متعاونة متضافرة ـ كما أعدَّها العليم الحكيم ـ على إعداد الفرد والأمة، إعداداً قوياً متيناً، يُجدِّد بناء أمَّتنا الإسلامية، ويُعيدها سيرتَها الأولى؟

مِصْفَاةٌ دقيقة نقيَّة وامتحانٌ سنويٌّ دقيق

إنَّ مَثَلَ الصوم في أركان الإسلام وشرائعه، كمثل المِصْفاة اللَّطيفة الدقيقة النقيَّة التي صَفَتْ في نفسها، وأُعِدَّت لتصفية غيرها. فهي تُنقِّي أعمالَ الصَّائم وأحوالَه، وشؤونَ جسمه وروحه كلِّها ـ دقيقها وجليلها ـ من سمومها المادية والمعنوية، وعلى قدر نقاء هذه المصفاة ولطفها تكون تنقيتها لغيرها.. أو كَمَثل امتحانٍ سنويٍّ دقيق، يستغرق من العام شهراً كاملاً، تُمتحن فيه أعمال العبد وشؤونه حتى تمرن على الإخلاص والقوّة، وتَخلُص من الدَّنَس والضعف والهزال، ويتجدَّد الامتحان كل عام حتى يتخرَّج الصَّائم عضواً نافعاً، ولَبِنةً سليمة قويَّة في بناء هذه الأمة الإسلامية.

امتحانٌ اختياريٌّ

وإذا كان هذا الامتحان السنويّ إجبارياً في كلِّ عام، فإنَّ هناك امتحاناً اختيارياً، سَنَّهُ معلِّمُ الناس الخير، ومُخرِجُهم من الظلمات إلى النور بإذن ربِّه صلوات الله وسلامه عليه، سَنَّه في خلال كلِّ شهر ما عدا شهر رمضان، بل في كلِّ أسبوع لمن شاء أن يترقَّى في معارج الكمال، ويبلغ الذِّروة في فضائل الأعمال.

المزيّة لا تقتضي الأفضليَّة المُطْلَقة

وليس الصوم نفسُه بحاجة إلى مِصْفَاةٍ أو امتحان؛ لأنَّ الله العليم الحكيم قد اصْطفاه لنفسه، واختصَّه من بين العبادات والشرائع بالإضافة إليه، تكريماً له وتشريفاً، ومزيَّةً له دون غيره من الطاعات؛ لا جَرَم أنه يتولَّى تصفيته وتنقيته على حسب ما قدَّر لعبده من منزلة، وما رفعه من درجة، وقد باتَ من القضايا

الأوليَّة: أنَّ المزيَّة لا تقتضي الأفضليَّة[١].

سرُّ إضافته إلى الله تعالى

ولعلَّ السرَّ في اختصاص الصوم بهذه المرتبة العليا من التشريف والتكريم، ما قيل من أنه لم يُعبد به أحدٌ غيرُ الله عز وجل، فلم يعظِّم الكفَّار في عصرٍ من الأعصار معبوداً لهم بالصيام، بل عظَّموه بصورة الصلاة والسجود والقيام، والذبح والحَلِف والنذر، والطواف والصَّدقة والذكر، وما إلى ذلك من فنون الجاهلية وأعمال المشركين.

أو لأنَّ الصوم ـ لخفائه ـ أبعد ما يكون عن الرياء. فليس للصائم فيه حظٌّ ولا شهوة كما له في غيره من العبادات. أو لأنَّ الاستغناء عن الطعام والشراب وما إليهما، من صفات الربِّ الذي يُطعم ولا يَطعم، فأضاف الصوم إليه لأنه يوافق صفةً من صفاته الربانيَّة، وإن جلَّت صفاته سبحانه عن الشبيه والنظير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

ثواب الصوم ومقدار الجزاء عليه

ولمَّا كرَّم الصومَ ـ عزَّ اسمه ـ بنسبته إليه وحده، تولَّى هو أيضاً جزاءَه واختصَّ به، وتفرَّد علماً بمقداره وتضعيفه، وجعله سرًّا محجوباً لا يُطلع عليه أحداً من عباده، كما كان الصوم نفسه سرًّا بين العبد وربه، جزاءً وفاقاً.

وإذا كانت الحَسَنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، في أعمال ابن آدم الظاهرة التي أُسندت إليه، وأنبأه الله ثوابها وعظيم جزائها، فكيف بهذا السرِّ الذي اختصَّ الله به نسبةً وجزاء؟! لا جَرَم أنه جزاء لا يهتدي إليه حساب الحاسبين، ولا يمتدُّ إليه وصف الواصفين.

---

(١) انظر مناقشة هذه العبارة: المزيَّة لا تقتضي الأفضليَّة في التتمة الأولى ص٩٤٧.

(٢) سورة الشورى: ١١.

وإذا كان «الصيام نصفَ الصبر» كما صحَّ في الأثر[1]، فإنَّ الصائمين في طليعة الصَّابرين الذين بشَّرهم ربهُّم بأنهم يُوفَّون أجرهم بغير حساب.

درجات الصوم

وبعد، فأيُّ صوم هذا الذي كرَّمه الله ذلك التكريم، ووفَّى صاحبه ذلك الجزاء العظيم؟! لا ريبَ أنه درجاتٌ متفاوتة بتفاوت الصابرين المخلصين، ولعلَّ أدناها أن يتخلَّى من الآثام الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ويتحلَّى بالآداب النبوية فقهاً وهدياً. وأما صيام العامَّة وأشباه العامة ـ وهو مجرَّد الإمساك عن الطعام والشراب وما إليهما مع اقتراف الآثام ـ فليس من الصيام الربَّاني في شيء.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من لم يدع قولَ الزور والعمل به، فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه»[2].

ويرى الزُّهاد والمتصوِّفة أنَّ الصوم درجاتٌ ثلاث: صوم العوام وهو هذا الذي ذكرناه آنفاً؛ وصوم الخواص وهو هذا مع اجْتناب المحرَّمات من قول أو فعل؛ وصوم خواص الخواص، وهو الصيام عن غير ذكر الله وعبادته؛ ثم يزعمون أنَّ هذا الأخير هو المراد في الحديث. وهو زعمٌ لا دليل عليه، وفيه تحجيرٌ لرحمةِ الله الواسعة، وتضييقٌ لفَضْله العظيم.

المراد من الصوم في هذا الحديث

والذي يدلُّ عليه الهديُ النبويُّ في هذا الحديث وغيره، أنَّ المراد إنما هو

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٩) بسنده عن رجل من بني سلمة، وقال: هذا حديث حسن. وكذا رواه ابن ماجه (١٧٤٥) ـ واللفظ عنده ـ من طريقين عن أبي هريرة. قال البوصيري في «الزوائد»: إسناد الحديث عن الطريقين معاً، ضعيف.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٣).

الصوم الذي يؤدّي وظيفتَه التي من أجلها شُرِع، وحكْمَته التي من أجلها كُتب، وإليها الإشارة بقوله عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «الصيام جُنَّة»[2].

والجُنَّة: السترة والمانع؛ لأنَّ الصومَ الحقَّ يمنع صاحبه من الرفث والآثام، ومن غضبِ اللهِ وعذابه كما يمنع المِجَنُّ ـ وهو التُّرس ـ صاحبَه من السلاح.

ومثل من لا يقيه صيامُه سهامَ الذنوب والآثام، كَمَثل من لا تَنْهاهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر، وكلاهما لا يزداد من الله إلا بُعداً!.

وإذا كان الصيام مِجَنّاً لصاحبه وحِصْناً له من عدوِّه: نفسه وهواه وشهوته، وإبليس وذرِّيَّته فمن كَيَس الصائم أن يكون يقظاً فطناً، يأخذ حذره أن يخرق العدوُّ مِجنَّه، أو أن يهدم عليه حصْنَهُ، فيكون فريسةَ عدوّ لا يألوه خَبالاً أو ضحية حَمَق هو أشدُّ وبالاً ونكالاً!.

سدُّ منافذ العدو

ومن أكْيَسِ الكَيْس ألاَّ يَدَعَ مَنْفَذاً من منافذ العَدوِّ التي يهجم منها عليه إلاَّ سدَّه سدّاً مُحْكماً، متعهِّداً هذه المنافذ وسدودها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وأقربُ المنافذ إلى العدوِّ رفثُ الصَّائم وصخبه، وسبابُهُ وجداله، وما إلى هذا من آفات لسانه الذي بين فكَّيه!.

والرفث: السُّخْف وفاحش الكلام، وما لا ينبغي إلا بين المرء وزوجه في غير أوقات الصيام.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٣.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

والصَّخب: ويقال بالسين أيضاً، هو الصِّياح والخصام وما إليهما من المِراء والجدال.

من المنهاج النبوي في التربية

وفي نهيه ﷺ عن أقرب خطايا الصائم وأهونها عليه، تنبيهٌ على أبعدها منه وأشقاها عليه، كما في نهيه عزَّ وجل عن التأفيف في معاملة الوالدين؛ ليكون أحرى بنهيه عمَّا وراء ذلك من إيذاء وعنف.

وليس الصائم وحدَه هو المقصود بالنهي عن هذه الصغائر التي قد تكون ستاراً لما وراءها من كبائر؛ بل غير الصائم مثله في أصل النهي، ولكن يتأكد في حقِّ الصائم ما لا يتأكَّد في حقِّ غيره، ويُطالب الصائم من الاجتهاد والمحافظة والوَقار بما لا يُطالب به غيره.

فإذا شاتم الصائمَ أحدٌ أو خاصَمَه، فَلْيَعفُ وَلْيَصْفح، ولا يقابلنَّ الشرَّ بمثله، وَلْيذكر اليوم وحرمته، وَلْيقل بقلبه ولسانه مَرَّةً أو مرتين: إني صائم، فذلك أدنى أن يكفَّ عن خصمه، وأن يكفَّ عنه خصمه.. ثم لا بأس أن يجلس إن كان قائماً، أو يقوم إن كان جالساً، فذلك أعون على صرف الشيطان وجنده، فما استعان الشيطانُ على أحدٍ بمثل غضبه وصَخَبه.

تربية الإرادة القوية

وفي تذكير العبد نفسه بأنه صائمٌ عند العدوان عليه سَفَهاً وجهلاً، تقويةٌ لظهره، وشدٌّ لأزره، وتمرينٌ لنفسه على تربية الإرادة القوية، والعزيمة الماضية، التي لا يحوم حولها جبنٌ ولا تردُّد، ولا ينال منها إيذاءٌ مؤذٍ، ولا تثبيط مثبِّط، وذلك من آثار التقوى التي هي ملاك الحكمة في الصيام وشرعته.

ومَنْ لنا بمن يبلِّغ علماء النفس والتربية منهاجَ النبيِّ المربِّي الحكيم صلوات الله وسلامه عليه، في تربية أمَّته على قوَّة الإرادة ومَضَاءِ العزيمة، بهذا الأسلوب

العملي الميسَّر، الذي يستوحيه المرءُ من نفسه لنفسه، فيجده أسرع مُجيبٍ له وناصرٍ بإذن ربه.

بشائر الرضا والقبول

هذا الصائم الوقور المُتَّقي الذي لم يكن ـ بصيامه ـ صورةً صمَّاء مُمْسَكة عن الطعام والشراب والشهوة فحسب، بل كان ـ بصيامه وتقواه ـ قوةً من جند الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، وكان روحاً وثَّاباً إلى المَجْد والعُلا، سائحاً في ميادين الخير، والتعاون على البرِّ، والدفع بالتي هي أحسن، يهدي إلى سبيل الرَّشاد بصومه، ويرفع بناء المَكْرُمات بأيده وعزمه، هو الحقيقُ بأن يزفَّ إليه الصَّادق المَصْدوق صلوات الله وسلامه عليه، بشارة الرضا والقَبول والفوز بالمأمول، ممَّن بيده الخيرُ كلُّه، وهو الذي لا يضيع أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً.

والخُلوف ـ بضم الخاء، ويجوز فتحها ـ هو تغيُّر رائحة الصائم من أثر الإمساك عن الطعام والشراب، و تقزُّزُ الناس منه أمرٌ طبيعي لا لَوْم عليه، لكنه عند الله تعالى آيةُ الرِّضا والمحبة للصائم الذي وصفناه آنفاً.

وإنما أقسم ﷺ ـ وهو الصادق المعصوم ـ توكيداً لهذه البشارة، وتفريحاً لأصحابها. وكان أكثر أقسامه بالذي نفسه بيده، وهو ربهُّ ومالك أمره؛ إشعاراً بتقواه ومراقبته، وأنه أعلم بعبده وأقرب إليه من حبل الوريد.

فرحتان عاجلة وآجلة

ثم بشَّر النبيُّ ﷺ ذلك الصائم ببشارتين أخريين، كلتاهما من آثار البشارة العامة السابقة: فرحة عاجلة في ختام كلٍّ يوم من أيام صومه، بتمام عبادته وسلامتها وتوفيق الله له فيها، ثمَّ برزق الله له، وإنعامه عليه بالحلال الطيِّب

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

الذي يُعينه على عبادة ربِّه والإخلاص له؛ وفرحة آجلة بلقاء ربِّه راضياً مرضيًّا، مُسْتَبشراً بجزائه الذي وعده إيَّاه على لسان نبيِّه ـ دون أن يحسب أو يقدِّر ـ ممَّا «لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[1].

* * * * *

(١) اقتباس من حديث رواه البخاري في كتاب بَدْء الخلق (٣٢٤٤)، ومواضع أخرى، ومسلم في أول كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤ : ٢١٧٤ (٢ ـ ٥).

مدرسة الصِّيام *

٣٠ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله ﷺ أجْوَدَ النَّاس، وكان أجْوَدَ ما يكُونُ في رَمَضان، حيَن يَلْقَاهُ جبريلُ، وكان يَلْقَاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضان، فَيُدارِسُهُ القُرآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بالخير من الرِّيح المُرْسَلَةِ.

رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١]

أصول الإسلام ودعائمه العظمى

بُنيَ الإسلام على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، وحجٍّ بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً[٢].

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد التاسع والعشرون، رمضان(١٣٧٧).

(١) رواه البخاري في بَدْء الوحي (٦)، ورواه بعد ذلك في الصوم (١٩٠٢)، وفي بَدْء الخلق: باب ذكر الملائكة (٣٢٢٠)، وفي الأنبياء: باب صفة النبيِّ ﷺ (٣٥٥٤)، وفي فضائل القرآن (٤٩٩٧)، وأما مسلم فرواه في كتاب الفضائل (٢٣٠٨).

(٢) اقتباس من حديث رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) ولفظه عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

هذه أصول الإسلام ودعائمه العظمى، وتؤلِّف كلٌّ دعامة منها مدرسة لها مناهجها وحدودها، وأحكامها وآدابها.. ثم تؤلِّف الدعائمُ كلُّها منهاجَ الدين كلِّه، في جملته وتفصيله.

فأما الجملة فقد أشار إليها حديث الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بِضْع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

أعظم ميراث نبويٍّ

وأما التفصيل فقد بيَّنه صلوات الله وسلامه عليه أوْفى بيان، منذ أُوحيَ إليه في شهر رمضان ـ الذي أُنزل فيه القرآن ـ إلى أن ودَّع هذه الدنيا، تاركاً لأمته أعظم ميراث نبويٍّ، وأوفى منهاج سماويٍّ، أعجز الأوَّلين والآخرين أن يأتُوا بمثلِه، وأن يجدوا سعادتهم الدنيوية والأخروية في غيره.

أساس الدعائم

ولكلٍّ من هذه الدعائم الخمس ـ ما عدا الأولى ـ ميقاتها الزماني ليس غير، أو الزماني والمكاني معاً.

وأما الدعامة الأولى، فهي أساس الدعائم الأربع ومفتاحها، وقُطبها وعمادها، لا يُوزن عند الله عمل إلا بميزانها، ولن يرضى الله عن عبد إلا إذا امتلأ يقيناً بها، فليس لها إذاً زمان ولا مكان... اللهمَّ إلا قلبٌ سليم ينبضُ بالحقِّ، ولسانٌ قويم ينطق بالصِّدق، ونفسٌ مؤمنةٌ راضية: رَضِيَتْ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ عبداً للهِ ورسولاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) وقد شرحه المؤلف في «شُعَب الإيمان».

اتِّصال الدعائم الخمس بعضها ببعض

ولئن كانت الدعائم الخمس، يتَّصل بعضها ببعض اتِّصالاً وثيقاً، فإنَّ لكلٍّ منها مزايا خاصَّة، وفضائل وأسراراً، وحِكَماً بالغة تُوحي بها أو تشير إليها، وتُعرف من مدرستها ومنهاجها، بمقدار فقه العبد في دينه، وتلقِّيه العلم عن أهله، وإنما النبيُّ ﷺ قاسم، والله يعطي.

لا جَـرَمَ أنَّ أعظـم النـاس حظـاً مـن هـذه الفضـائل والمزايـا: الأنبيـاء والصِّدِّيقون، والعلماءُ العاملون، على دَرَجاتٍ بينهم.

اختصاص رمضان بإنزال القرآن

وأوَّل ما اختصَّت به دعامة الصيام، أنَّ الله جَلَّت حكمته، وتباركت نعمته، اختار زمانها – قبل أن تكون كتاباً موقوتاً، وفرضاً محتوماً – مبدأً لإنزال كتابه، في ليلة مباركة، هي ليلة القدر، أعظمَ الفضلَ فيها، والإنعامَ بها، حتى جعلَها خيراً من ألف شهر.

الدعامة الروحيَّة الكبرى

عَطَاءٌ جِدٌّ عظيم، وجودٌ من جَوَاد كريم، لا يَقْدر عليه إلا مالك الملك، ومَنْ بيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير.

لا عَجَب بعد هذه الهِبَة الإلهيَّة العُظمى، واستقرار الإسلام بدعائمه الثلاثة الأولى، أن تُفرض الدعامة الروحيَّة الكبرى، شكراً لمولى النِّعم، وذكراً لأجلِّ النِّعم، واحتفالاً كريماً في كلِّ عام، بفاتحة الهُدى والفرقان.

إخلاص لا يشوبه رياء

ومن أَجَلِّ ما اختصَّت به هذه الدعامة الروحيَّة: الإخلاص الذي لا يشُوبه رياء، وهو أول درس يتلقَّاه الصائمون في مدرسة الصيام.

وسرٌّ هذا الإخلاص الخاص، أنَّ الصيام عبادةٌ سلبيَّةٌ خفيَّة لا يعلمها إلا الله عزَّ وجل، ومن ثمَّ شرَّفها بإضافتها إليه وحده دون سائر العبادات، فقال

سبحانه في حديثه القدسي: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»[١].

الإيمان بين الصبر والشكر

وإذا كان الإيمان بين الصبر والشكر، كما يشير إلى هذا قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «عَجَباً لأمر المؤمن إنّ أمرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إنْ أصابته سرَّاء شكَرَ، فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرَّاء صَبَرَ، فكان خيراً له[٣]».

فالصَّائم يتلقَّى في مدرسة الصَّوم كلَّ ضروب الصبر، وكل فنون الشكر، حتى يَشْرُفَ بالعبوديَّة لله وحده، فيكونَ صالحاً لعمارة الأرض، خليقاً برضوان الله عزَّ وجل.

التخلُّق بأخلاق القرآن

وإذا كان شكر كلٍّ نعمة بما يناسبها ويتَّصل بها، فَخَليقٌ بمن يشكر هذه المنَّة الكبرى، أن يجمع إلى الفرح بصوم رمضان، تخلُّقه بأخلاق القرآن، فإذا كان يحفظه أو يحفظ منه قدراً، فليتَّخذ من تلاوته ومُدارسته شكراً وذكراً، أما العمل به والتخلُّق بأخلاقه، فذلك جماع الشكر، وأفضلُ الذكر، وكذلك كان هدي أول المسلمين، وقدوة الشاكرين ﷺ.

---

(١) الحديث رواه الشيخان، البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وشرحه أستاذنا الجبالي في المجلد الرابع، ونسينا أن نرجع إلى جَدْول الأحاديث فشرحناه في المجلد الرابع والعشرون. (طه) انظر: من أسرار الصوم وآدابه ص٣١٢.

(٢) سورة إبراهيم: ٥، وسورة لقمان: ٣١، وسورة سبأ: ١٩، وسورة الشورى: ٣٣.

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب بن سنان رضي الله عنه.

كان ﷺ خلقه القرآن

كان خُلُقُهُ القُرآن[١]، يرضى لرضاه، ويَسْخَطُ لِسَخَطِه.

وكان أحسنَ الناس، وأشْجَعَ الناس، وأجْوَدَ الناس[٢]، ما سُئل شيئاً قط فقال: لا[٣]، إنْ كان عنده أعطى، وإن لم يكن عنده وعد وعداً كريماً. وكان يعطي عطاءَ من لا يخاف الفاقة، في حين يعيش في نفسه وأهله عيش الفقراء، حتى ليمكثَ الشهر أو الشهرين لا يوقد في بيته نار، إن هو إلا التمر والماء!.

جودٌ ربانيٌّ

كان جوده قبل أن يُبعث كرماً إنسانياً، فلمَّا أكرمه الله بالرسالة، أصبح جوده كرماً ربانياً، ومَنْ أوْلى من رسول الله ﷺ، بأن يتخلَّق بأخلاق مولاه؟! فإذا جاء شهر التنزيل، فمِن دونه البحر فيضاً وصفاء، بل مِن دونه الريح انطلاقاً ورخاء.

نماذج من الجود النَّبويِّ

ومن جوده بالخير صلوات الله وسلامه عليه: تعليمُ الجاهلين، وهداية الضَّالِّين، وإخراج النفوس من ظلماتها، وإحياء القلوب بعد موتها، في غير كُلْفةٍ ولا منَّة، بل بالحكمة والموعظة الحسنة. وذلك من آثار فضلِ اللهِ عليه ورحمته، ولاسيِّما في هذا الشهر الكريم.

---

(١) روى الإمام مسلم (٧٤٦)، وأحمد في «المسند» ٦ :١٦٣(٢٥٣٠٢) عن سعد بن هشام، قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. وإسناده صحيح على شرط الشيخين

(٢) في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله أحسَنَ الناس، وأشجع الناس، وأجْوَد الناس » أخرجه البخاري (٢٨٥٧) في الجهاد، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل.

(٣) في الصحيحين عن جابر قال: ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ شيئاً فقال: لا. أخرجه البخاري (٦٠٣٤) في الأدب، ومسلم (٢٣١١) في الفضائل.

عرض القرآن ومدراسته

ومن هذا الفَضْل أن يلقاه الرُّوح الأمين في كلِّ ليلة من لياليه، فيدارسه القرآن فيه، ويعرضه كل منهما مرة في كل عام، حتى إذا كان رمضان الأخير كانت المعارضة مرتين، إيذاناً بانتقاله إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه.

دروس يتلقَّاها الصائمون

ألا إنَّ الجودَ عامة، وفي رمضان خاصَّة، وتلاوةَ القرآن ومدارسته، وتزاورَ المحبِّين في الله، وشكرَ المُنْعِم على ما أوْلاه، والتعاونَ على البرِّ والتقوى، كلُّ أولئك من الدروس التهذيبيَّة القيِّمة، التي يتلقَّاها الصَّائمون في مدرسة هذا الشهر العظيم، ولكنْ مَضَتْ سُنَّة الله تعالى، ألاَّ ينفع عالماً بعلمه، حتى يكون به من العاملين.

* * * * *

استدارة الزمان *

٣١ ـ عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حرم؛ ثلاثٌ متواليات: ذو القَعدَة، وذو الحجَّة، والمُحرَّم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». رواه الشيخان[1].

المفردات:

يُطلق الزمان: على قليل الوقت وكثيره، والمراد هنا: السنة القمرية بدليل السياق، **واستدارة الزمان**: دورانه وعودته إلى سيرته الأولى، منذ خلق الله السموات والأرض، وقدَّر القمرَ منازل.

والأشهرُ الحُرُم: واحدها حَرَام، كسَحَاب، من الحُرمة؛ لأنَّ الله فرض احترامها وتعظيمها على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتواتر ذلك عن العرب قولاً وعملاً، وإن أخلّوا به بعد، اتِّباعاً لأهوائهم، وانقياداً لشهواتهم، على ما يأتي بيانه.

ومضر: قبيلة عظيمة من قبائل العرب، تنسب إلى أبيها، وهو الجد الثامن

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد السادس عشر، سنة (١٣٦٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٦) في المغازي، ومسلم (١٦٧٩) في القسامة.

وفي الأصل ذكر الحديث من طريق أبي هريرة. والصواب ما صحَّحته. وأبو بكرة هو نُفيع بن الحارث بن كَلَدَة الثقفي، وقيل: اسمه مَسْروح، كنَّاه النبيُّ ﷺ لتدلّيه ببكْرة من الطائف، توفي ٥١هـ. كما في «الكاشف» (٥٨٦٩).

عشر للنبيِّ ﷺ. وإنما أُضيف رجبٌ إليها؛ لأنها كانت أشد القبائل استمساكاً بتحريمه. ويُقال: إنّ ربيعة كانت تحرم رمضان وتسمِّيه رجب، فأبطل ﷺ هذه التسمية، وقضى ببيانه على هذا الزعم.

* * * * *

حجة الوداع

في السنة العاشرة من الهجرة أُذِّن في الناس أنَّ رسول الله ﷺ خارج إلى الحج. فما كاد هذا النبأ ينتشر حتى أقبل الناس في المدينة ألوفاً ألوفاً، من كل حَدَب يَنْسلون، وحتى ضُربت الخيامُ حول المدينة لمئة ألف أو يزيدون؛ جاؤوا جميعاً يلبُّونَ دعوة نبيِّهم، ويأتمُّون به في حجِّهم، يحدُوهم إيمانٌ خالص، وتملأ نفوسهم غبطةٌ صادقة. ولخمسٍ بقين من ذي القعدة خرج صلوات الله وسلامه عليه لحجة الوداع، التي لم يحج بعد الهجرة غيرها[١].

خطبته ﷺ في حجة الوداع

وفي وسط هذه الجموع الحاشدة، ألقى خطبته الجامعة الخالدة، التي قرَّر فيها أُسُساً من الفضائل، ونَبَذَ فيها أصولاً من الرذائل، وطرح فيها بِدَعاً من منكرات الجاهلية الأولى، وأبان فيها حقوقَ الله، وحقوق عباده، ووطَّد فيها قاعدة المساواة بين الناس، وأنهم جميعاً سواسيةٌ كأسنان المشط، لا فضل

---

(١) وأما قبل الهجرة، فقد روى الثقات أنه كان يحجُّ كلَّ عام. قالوا: وإذا كانت قريش تحجُّ كلَّ عام وتفخر بذلك، وهي على غير دين، فلا ريب أنه صلوات الله عليه أحرص على الخير منهم. (طه).

لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأنَّ المسلمين إخوة لا يحلُّ لمسلم من أخيه إلاَّ ما أعطاه عن طيبِ نفس، ووصَّى فيها بالنساء خيراً. وكان شطراً منها هذا الحديث الذي رواه الشيخان[1]. وهو يشتمل على أمرين عظيمين: إبطالِ بدعة النَّسيء، وكانت فاشيةً في العرب، وفضلِ الأشهر الحرم.

ضلالة النَّسيء

أما النَّسيء فهو شرعةٌ جاهليةٌ مبتدعة، غيَّر بها العرب ما ورثوه عن ملَّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، من تعظيم الأشهر الحرم، وإتمام مناسك الحج، وتحريم القتال فيها.

وكأنَّ الله ـ جلَّت حكمته، ووسع كلَّ شيء علمُه ـ جعلها هدنةً لهم، يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وتجارتهم وحجِّهم. ولقد بلغ من تعظيمهم لهذه الأشهر أنْ كان الرجلُ يلقى فيها قاتلَ أبيه أو أخيه فلا يهيجه ولا يمسُّه بأذى.

فلمَّا طال عليهم الأَمَد، وكانت معيشتهم على الصَّيْد والحروب وشنِّ الغارات، والأخذ بالثأر، شقَّ عليهم الكفُّ عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية. فزيَّنت لهم شياطينهم أن يبدِّلوا في المناسك ويَنْسئوا في حرمة الأشهر، بسوء التأويل واتِّباع الهوى؛ فكانوا إذا جاء المحرَّم وهم محاربون أحلُّوا، وحرَّموا مكانه صَفَراً، فإن احتاجوا إليه أحلّوه وحرَّموا مكانه ربيعاً الأول، وهلمَّ جرًّا. فإذا جاء العام القادم حرَّموا المحرَّم في زعمهم وأحلّوا صفراً.

هكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها. وقد

---

(١) شطر الشيء نصفه، وجزؤه. ومنه في حديث الإسراء: «فوضع عني شطرها» أي: جزأها. وقد روى الخطبة كلها أصحاب السيرة، واستشهد بها الأستاذ الكبير مدير هذه المجلة، وعلق عليها تعليقاً حسناً. انظر آخر المجلد الرابع عشر (طه).

يزيدون في السنة أحد عشر يوماً، أو خمسة عشر يوماً أو شهراً في بعض السنين؛ لتوافق السنة القمرية أختها الشمسية، فيقع حجُّهم في وقت معيَّن من السنة، يتفق وأسفارهم ومواسمهم التجارية[١]. وأيًّا ما اختلفوا في النسيء، فقد كانوا يعتدُّون في التحريم بمجرَّد العدد، لا بخصوصية الأشهر المعيَّنة.

وفي هذه الضلالة التي ابتدعوها علاوة على شركهم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢].

متى استدار الزمان؟

وأكبر الظنّ أنَّ فجر الإسلام ـ أوَّل انبثاقه ـ قد مَحَا ظلمة النَّسيء، فلم يُبقِ لها من أثر، وإنه لم يقع حجٌّ في الإسلام إلا بعد أن استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السَّموات والأرض، فأرسلها الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه صَيْحةً في الآفاق مدويِّة، بأنَّ النَّسيء قد انمحَى بنور الإسلام، وعاد أمر السنين على ما كان.

وإذا كان الأمر على ما رجَّحنا، فقد وافقت حجَّة أبي بكر رضي الله عنه شهر ذي الحجة من السنة التاسعة، كما وافقته حجَّة الوداع من السنة العاشرة،

---

(١) قيل: إنهم تعلموا هذا الكبس من اليهود والنصارى، فإنهم كانوا يفعلونه من أجل أعيادهم. ويرى بعض الباحثين أن التأخير كان نسيء أهل البادية، وأن الكبس كان نسيء أهل الحضر، ولذا كانوا يختلفون في وقت الحج ويتجادلون فيه. وبعد، فهذه خلاصة آراء كثيرة في النسيء ذكرها المؤرخون والمحدثون. انظر: «فتح الباري» في كتاب التفسير، و«بلوغ الأرب في أحوال العرب» للآلوسي (طه).

(٢) سورة التوبة: ٣٧.

خلافاً لمن زعم أنها كانت في شهر ذي القعدة. أنى هذا؟! وكيف يصح حج الصدِّيق إذن؟! بل كيف يسميه الله الحج الأكبر، ويؤذن فيه ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[1]؟!.

إنا لا نشكُّ مثقالَ ذرَّة في أنَّ العليم الخبير قد أنبأ نبيَّه صلوات الله عليه عوْدةَ الزمان إلى وضعه الأول، ثم نبَّأ به ﷺ أمته في حَجَّة الوداع، أجلّ موسم شهده العالم الإسلامي، ويشهده حتى يقوم الناس لرب العالمين.

آية من آيات النبوة

وفي هذا النبأ الذي طابق ما حقَّقه علماءُ الفَلَك، وأثبته أئمةُ التاريخ آيةٌ من آي النبوة، وحُجَّةٌ من حجج الرسالة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

فضل الأشهر الحرم

وفي تخصيص هذه الأشهر بالذكر دليلُ فَضْلها على ما سواها؛ فالحسنةُ تُضاعف فيهنَّ، وكذلك السيئة.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[3]: إنَّ الظلمَ في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً وَوِزْراً [من الظلم] فيما سواها، وإنْ كان الظلمُ على كلِّ حال عظيماً، ولكنَّ الله يُعَظِّم من أمره ما شاء[4].

وقال: إنَّ الله اصْطَفى صفايا من خلقه؛ اصْطَفى من الملائكة رسلاً، ومن

---

(١) سورة التوبة: ٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٣) سورة التوبة: ٣٦.

(٤) تفسير الطبري ١١ :٤٤٥

الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذِكْرَهُ، واصْطَفى من الأرض المساجدَ، واصْطَفى من الشهور رمضانَ والأشهُرَ الحُرُمَ، واصْطَفى من الأيام يومَ الجُمُعة، واصطفى من الليالي ليلةَ القدر، فعظِّموا ما عظَّم الله؛ فإنَّما تُعظَّم الأمورُ بما عظَّمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل[١].

مناط التفضيل في الأشياء

وإليه ـ جلَّت حكمتُه ـ يُردُّ تفضيل مَنْ شاء وما شاء، من الملائكة والناس، والأزمنة والأمكنة، فلولا تخصيصُه تعالى وتفضيلُه لاستَوت الذوات والأعيان، والأمكنة والأزمنة.

وهو ـ سبحانه ـ لا يختصُّ شيئاً بفَضْل إلا لمعانٍ خاصَّةٍ به، وخصائص حقيقة به، تحيط بها حِكَمٌ بالغة، وأسرار عالية، إذا عجزنا عن إدراكها رددنا إليه علماً.

وهو ـ تعالى جَدُّه ـ أعلم بمواقع اختياره ومواطن رضاه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾[٢] فلْيسعنا ما وَسعَ عمر رضي الله عنه ـ وناهيك به[٣] ـ إذ يقبِّل الحجر الأسود، ثم يردُّ أمره إلى الله ورسوله، فيقول: «أما والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسولَ الله ﷺ يقبِّلك ما قبلتك»[٤].

وزعم قوم أن تفضيل بعض الأشياء على بعض، إنما هو لما يُضاف إليها من نحوِ علم وعمل، وذكر وعبادة، وإلا فذواتها كلّها بمنزلةٍ سواء. وقد نقض

---

(١) تفسير الطبري ١١ :٤٤٥، و تفسير ابن كثير ٤ :١٦٥٦.

(٢) سورة القصص: ٦٨.

(٣) ناهيك به من رجل أي: كافيك. كأنه بجده وغنائه ينهاك عن تطلُّب غيره.

(٤) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

هذا الزعم من أساسه ابن القيم في أوّل كتابه «زاد المعاد»[١].

نظام الأشهر الحرم

وإنما جعل الله الأشهر الحرم على هذا الوضع؛ ثلاثة سَرْدٌ، وواحد فردٌ؛ لأداء مناسك الحج والعمرة، وتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره، وتأمين السُّبُل وتيسير المنافع، لقوم أَلِفوا الغارة والحرب، فحرَّم قبل أشهر الحج ذا القعدة؛ لأنهم يقعدون عن القتال فيه، وحَرَّم شهرَ ذي الحجَّة؛ لأنهم يحجُّون فيه ويؤدُّون المناسك، وحَرَّم بعده شهراً؛ ليرجعوا إلى بلادهم آمنين، وحرَّم رجب في وَسَط الحَوْل لزيارة البيت والاعتمار به، لِمَنْ يَقدم من أقْصى الجزيرة ثمَّ يعود إلى وطنه آمناً.

ونرى حكمةً أخرى ذات شأن: أن يبدأ العامَ، ويتوسَّطه، ويختمه، ثلاثةُ مواسم من أجلِّ مواسم الخير والبر؛ لينشط كَسِلٌ، ويتنبَّه غافلٌ، ويتوبَ مُسْرِفٌ إلى الله عز وجل.

وكان الخَتْم شهرَيْن، فَسْحاً للأهبة، ومدًّا للفرصة؛ ليذهب زوَّار الله ويؤوبوا، وهم هادئون مطمئنون، قد أرضَوْا ربَّهم، وشهدوا منافع لهم، وحقَّقوا آمال الإسلام فيهم؛ وليدرك مَنْ فاتَتْه هذه الحظوة مثوبَتها وأجرها، بإخلاص نيَّته وصدق توبته، وإحسان عمله في هذا الموسم الكريم. فما أبلغ الحكم، وما أجلَّ النِّعَم، وما أعظمَ أجر العاملين.

* * * * *

---

(١) زاد المعاد ١ : ٥٣.

شهران لا ينقصان *

٣٢ ـ عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «شهران لا ينقصان، شهرا عيد: رمضان وذو الحجَّة»(١).

٣٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إنَّا أُمةٌ أميَّة، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا». يعني مرةً تسعة وعشرين، ومرةً ثلاثين(٢). رواهما الشيخان، واللفظ للبخاري.

أكرم الشهور عند الله تعالى

أكرم الشهور عند الله شهران: شهر رمضان، وشهر ذي الحجَّة(٣). جعلهما الله أعظمَ مواسم الخير، وأجلَّ مغانم البرِّ، وَفَضَّلهما على سائر الشهور تفضيلاً...جعلهما كليهما ميقاتَيْن لركنَيْن من أركان الإسلام: الصوم، وحج البيت الحرام؛ واصْطَفى من كلٍّ منهما ثُلثاً، فضَّله على سائر الليالي، والأيام.

العشر الأخير من رمضان

فأما ثُلث رمضان، فهو العشر الأخير منه، ولياليه أفضل ليالي العام كلِّه،

---

* مجلة الأزهر، العددان ١٩ و ٢٠، المجلد السادس والعشرون، (١٣٧٤ = ١٩٥٥).

(١) أخرجه البخاري (١٩١٢)، ومسلم (١٠٨٩) كلاهما في كتاب الصيام.

(٢) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) كلاهما في كتاب الصيام.

(٣) كتبنا في هذا الحديث إجابة لرغبة أستاذنا الشيخ عبد الرحمن حسن، وكيل الجامع الأزهر سابقاً (طه).

وحَسْبُك أنَّها شُرِّفَتْ بليلة القدر، وليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر، وهي الليلة المباركة التي أُنزل فيها القرآن، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

التماس ليلة القدر

وقد ندَبَ النبيُّ ﷺ أمته أن يلتمسوها في الوِتر من هذه الليالي العشر، وكان صلوات الله وسلامه عليه يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، ويجتهد في هذا العشر الأخير منه ما لا يجتهد في غيره، وكان يعتكف في مسجده هذا الثلث الأخير من كلِّ رمضان، فلمَّا كان العام الذي انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى اعتكف ثُلثَيه: الثاني والثالث منه.

عيد الفطر

وجعل الله لأمة محمد ﷺ ختامَ هذا الثلث الأخير عيداً كريماً هو عيد الفطر، فَرَضَ عليهم فيه أن يفطروا؛ تحقيقاً لبشارة النبيِّ ﷺ لمن صام رمضان إيماناً واحتساباً بأنَّ له فرحتين يفرحها: إذا أفطر فرح، وإذا لقِيَ ربهَّ فرح بصومه، وما أجلَّ الفرحة الأخرى وأعظمها...

أحبُّ الأيَّام إلى الله

وأما ثُلُث ذي الحجَّة فهو العَشر الأوَّل منه، وحَسبُك أنَّ أيامه أحبُّ الأيام إلى الله تعالى؛ بشهادة الصَّادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

روى البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيَّامٍ العملُ الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيّام ـ يعني أيامَ العشر ـ قالوا: يا رسول الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟! قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلاّ رجلٌ خرج بنفسه ومالِهِ، ثمَّ لم يرجع من ذلك بشيء!!»[2].

---

(١) اقتباسٌ من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العيدين (٩٦٩)، وأبو داود في الصوم (٢٤٣٨)، =

خلاصة الأشهر الحرام

وكفى هذه الأيام شَرَفاً أنْ جعلها الله تعالى خُلاصة الأشهر الحرُم؛ فيها موعدُ الهجرة إلى بيته، والجهادُ في مَرضاتِه، وتعظيمُ شعائره وحُرُماته؛ وفيها يوم النحر أعظم الأيام على الإطلاق، كما أنَّ ليلة القدر أعظم الليالي على الإطلاق؛ وفيها يوم عرفة، وهو يلي يوم النَّحر في الفضل[1]، وقد صحَّ أن صيامهُ يكفِّرُ ذنوب سنتين[2]، وما من يومٍ يَعتقُ الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم عرفة، وفيه يباهي الله ملائكته بأهل الموقف؛ وقد جاؤوا شُعثاً غُبراً خاشعين لله، راجين فضْلَه ورضَاه[3].

والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧) واللفظ لأصحاب السنن الثلاثة، أما لفظ البخاري فهو: «ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء». وسيأتي شرح المؤلف له بعنوان: «أحبُّ الأيام إلى الله» ص٣٤١.

(١) بل قد صحَّ أنه أفضل أيام الدنيا فيما خرّجه ابن حبان ٩: ١٦٤ (٣٨٥٣) من حديث جابر مرفوعاً: «.. وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة».

وعلَّق أبو زكريا النَّوويُّ رحمه الله في «المجموع» ٦: ٣٨١ عن البغوي وغيره: أن يوم عرفة أفضلُ أيام السنة، وعلى المُرجَّح من المذهب: لو علَّق طلاقَ زوجته فقال: أنت طالق في أفضل أيام الدنيا: طَلَقَتْ يومَ عرفة.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» (١٩٦) من حديث أبي قَتادة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله تعالى: أن يُكفِّر السنة التي بعده، والسنةَ التي قبله».

(٣) روى مسلم (١٣٤٨)، والنسائي (٣٠٠٣)، وابنُ ماجَهْ (٣٠١٤) عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مامن يومٍ أكثرَ من أن يُعتِق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ماأراد هؤلاء؟».

وروى أحمد ٢ :٣٠٥(٨٠٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٥٢)، والحاكم ١ :٤٦٥ وقال: صحيح على شرطهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله

=

إكمال الدين وإتمام النعمة

وإذا كان الله جَلَّتْ آلاؤه، قد أنعم على الأمة المحمديَّة بإنزال القرآن في ليلة القدر، فَلَقد أنعم عليها إذْ بشَّرها بإكمال دينه، وإتمام نعمته، في يوم عرفة[١].

روى البخاريُّ وغيره أنَّ يهودياً جاء إلى عمر رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، آيةٌ تقرءونها في كتابكم، لو علينا معشرَ اليهود نزلت؛ لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أيُّ آية؟. قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[٢]، فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه؛ نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة يوم جمعة، ونحن واقفون معه[٣]، فأُفحِمَ اليهود عليهم لعنة الله، بأنَّ الله تعالى أنزلها في عيدين لا في عيد واحد[٤].

عيد النَّحر

وإذا كان الله سبحانه قد تفضَّل على المؤمنين بعيد الفطر في ختام العشر

يباهي الملائكة بأهل عرفاتٍ يقول لهم: انظروا إلى عبادي جاؤوا شُعْثاً غُبْرا».

(١) قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص ٣١٨: «وإكمال الدين في ذلك اليوم حصل من وجوه منها: أنَّ المسلمين لم يكونوا حَجُّوا حجَّة الإسلام بعد فرض الحج.. ومنها: أنَّ الله تعالى أعاد الحجَّ على قواعد إبراهيم عليه السلام، ونفى الشِّرك وأهله.. وأما إتمام النعمة: فإنما حصل بالمغفرة، فلا تتمُّ النعمة بدونها..، ومنها: أنه عيدٌ لأهل الإسلام، كما قاله عمر وابن عباس».

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

(٤) بسط هذا البحث ووفَّاه بما لم يسبق إليه صاحب «زاد المعاد» [١ : ٦١] في أوله، فتزوَّد منه (طه). وقد شرح المؤلِّف هذا الحديث في عيد الدستور. انظر: ص٧٦٢ ـ ٧٦٦.

الأخير من شهر رمضان؛ فقد تفضَّل عليهم بعيد النحر في ختام العشر الأول من شهر ذي الحجة.

ولِعظيم فَضْل هذه الأيام ذهب أكثر السَّلف والخَلَف إلى أنه تعالى أقسم بلياليها تشريفاً لها، إذ قال: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1] وقيل: إنها العشر الأخير من رمضان، وقيل: هي العشر الأول من شهر الله المحرَّم[2].

وجملة القول: أنَّ الله اصْطَفى من شهور العام شَهْرَي الصيام والحج، واصطفى من الليالي أواخر الأول، كما اصْطفى من الأيام أوائل الآخر ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[3].

فضل ثابت

هذا الفضْل الثابت لهذين الشَّهرين الكريمَيْن، بشهادة المعصوم صلوات الله عليه، لا يعتريه نقصٌ ولا ضَعف، تمَّت عِدَّة كلٍّ منهما معاً ثلاثين يوماً، أو نَقُصت عدَّة كلٍّ منهما، فكانت تسعةً وعشرين يوماً، أو تمَّت عِدَّة أحدهما دون عِدَّة صاحبه.

وإذاً فمن ضَعف التأويل أن يُقال: إنَّهما لا ينقصان في عدَّتهما معاً، فلا يكونان كلاهما تسعة وعشرين، وأضعف من هذا وأسخف أن يُقال: إنهما أو إنَّ أحدَهما ثلاثون دائماً؛ فالحسُّ يدفع هذا ويُكذِّبه!.

---

(١) سورة الفجر: ١ ـ ٢.

(٢) قال ابنُ ناصر الدين الدمشقي في «مجلس في فضل يوم عرفة» ص ٢٨: «والأكثرون على أنَّ الفجرَ فجرُ يوم عرفة، والعشرَ عشرُ ذي الحجة.. والأخبار مشتهرة بتفضيل عشرِ ذي الحجَّة على العَشْرَيْن المذكورَيْن؛ لأنَّ فيه يومَ التَّروية، ويومَ عرفة، ويومَ النحر».

(٣) سورة القصص: ٦٨.

ولقد صام رسول الله ﷺ تسعَ رمضانات؛ إذْ كان فَرضُ الصِّيام في شعبان في السنة الثانية من الهجرة، وكان صيامه تسعة وعشرين أكثر من صيامه ثلاثين، حتى قيل: إنَّ صيامه ثلاثين كان عامين ليس غير. ويأبى الله ـ كسُنَّته مع نبيِّه دائماً ـ إلا أن يُصدِّقه بالعمل قبل القول، لِيزيدَ الذين آمنوا إيماناً، ويزيدَ الذين اهتدَوْا هُدىً.

هديٌ نبويٌّ عَمَليٌّ

ومن الهدي النبويِّ العَمَلي ما جاء في قصَّة «التحريم» المشهورة، التي انتهت بحلفه ﷺ: ألاَّ يدخل على أزواجه شهراً؛ من شدَّة مَوْجدَته عليهنَّ، حين عاتَبَه اللهُ عزَّ وجل. فلمَّا مَضَت تسعٌ وعشرون ليلةً دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له: يا رسول الله، إنَّك كنت أقسمت ألاَّ تدخلَ علينا شهراً! وإنَّما أصبحتَ من تسعٍ وعشرين ليلة، أعدُّها عدًّا!! فقال: الشهر تسعٌ وعشرون، وكان ذلك الشهرُ تسعاً وعشرين ليلة[١].

يقرِّر بهذا الصَّنيع صلوات الله وسلامه عليه أنَّ أحكام الشريعة الغرَّاء لا تتأثَّر ولا تتغيَّر بنقص العدَّة في غير هذين الشهرين العظيمين، فأولى ألاّ تتأثَّر ولا تتغيَّر فيهما؛ وهما شهرا عيدَيْن كريمَيْن، لا جَرمَ أنَّ ناقصَ العدَّة منهما وكاملَها سواءٌ في الحجِّ والصِّيام وسائر الأحكام، كما هما سواءٌ في الفضل والجزاء والرضوان، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[٢].

مَبْنى الشريعة على الأمور الظاهرة

وثَمَّ حكمةٌ جليلة أشار إليها صاحب «حُجَّة الله البالغة»[٣]، ولم أجد من تنبَّه

---

(١) رواه مسلم (١٠٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سورة النساء: ٧٠.

(٣) ٢ :٧٥١ في أحكام الصوم.

لها سواه. أشار رحمه الله إلى أنَّ مبنى الشرائع على الأمور الظاهرة عند الأُميين دون التعمُّق في حساب النُّجوم، وذلك قوله صلوات الله عليه: «إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»[١]، وقوله صلوات الله عليه وسلامه: «شهرا عيدٍ لا ينقصان»، قيل: لا ينقصان معاً، وقيل: لا يتفاوت أجرُ ثلاثين، وتسعة وعشرين. وهذا الأخير أقْعدُ بقواعد الشَّرع، كأنه سَدَّ أن يخطر ذلك في قلب أحد.

ومن المقاصد المهمَّة في باب الصَّوم سدُّ ذرائع التعمُّق، وردُّ ما أحدثه المُتَعَمِّقون، فلقد كانت هذه الطاعة شائعةً في اليهود والنصارى ومتحنِّثي العرب، بل كانت ولا تزال شائعة في الوثنيين والهنود إلى اليوم، فتعمَّقُوا وابتدعوا وزادوا ونقصوا، واتبَّعوا أهواءهم!! فحذّر صلوات الله وسلامه عليه أمَّته أن يزيدوا أو يتكلَّفُوا؛ إذ بيَّن أحسنَ بيان وأجْمَلَه، بأنَّ شَهْرَي الصيام والحج ـ كلاهما من العبادات العريقة في القِدم ـ كاملان في الفضْل والمثُوبة، وإن نَقَصت عِدَّتهما، فليسا بحاجةٍ إلى تكملة أو زيادة؛ فإنَّ التكملة من عند العبَّاد غلوٌّ في العبادة وافتراءٌ على المعبود، وذلك منشأ الضلال وسبيل النكال، والعياذ بالله تعالى».

وهذه الإشارة التي أشار إليها صاحب «حجة الله البالغة»[٢] ـ وتصرَّفنا فيها بالبسط والإيضاح ـ أثرٌ من آثار بَصِرَه بالسنَّة وفقهه في الدين، و«من يُرِدِ الله به خيراً يفقهه في الدين»[٣].

رؤية الهلال وتحرِّيها بمختلف الطرق

ذلك، ولا نرى حَاجةً إلى البحث في رؤية الهلال، وتحرِّيها بمختلف

---

(١) رواه البخاري (١٩١٣) ومسلم (٨٠٨٠).

(٢) هو الإمام ولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ رحمه الله تعالى.

(٣) اقتباس من الحديث الذي رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

الطرق؛ فقد كفانا مؤونة هذا البحث علماء أجلاَّء، وفي طليعتهم أستاذنا الأكبر[١] في أحاديثه: «وإذا كانت الشريعة لم تفرض على النَّاس أكثرَ من تحرِّي الهلال برؤيته بالعين المُجرَّدة...رحمةً بهم، وتخفيفاً عليهم، فإنَّ ذلك لا يمنع أن تُستخدم تلك الوسائل التي تُسهِّل رؤيته، والتثبُّت منه، ما دامت موفورةً ميسورةً»، ومن الله العونُ والهداية.

* * * * *

---

(١) هو العلامة الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله تعالى.

أحبُّ الأيام إلى الله*

٣٤ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أيَّام العملُ الصَّالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام ـ يعني أيَّام العَشْر ـ قالوا: يارسول الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟! قال: ولا الجهادُ في سبيل الله، إلاّ رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء». رواه البخاري[1].

كَثْرة شُعَب البر

من محاسن هذا الدين أنه لم يدع خِلَّةً من خِلال الخير والبرِّ إلاّ رغَّب بها وحضَّ عليها، ثم يَسَّـر سبيلَها، وبشَّر بجميل عاقبتها، وكريم مثوبتها؛ كما لم يَدَع خَصْلةً من خِصال الشرِّ والإثم إلا نفَّر منها وكرَّه النفوس إليها، ثم عسَّر في سبيلها وتوعَّد عليها.

مواسم كريمة

ولمَّا كانت شُعب البرِّ ـ وهي أكثر من أن تُحصى ـ أجلُّ من أن ينهض بها أحدٌ من الناس بالغاً من الفضل ما بلغ، أعدَّ الله لعباده مواسمَ كريمة، وأتاح فُرصاً مباركة، في أزمنة محدَّدة، وأيام معدودة، ضاعف لهم فيها الحسنات أضعافاً كثيرة؛ ليُسارعوا فيها إلى الخيرات، ويتَّجروا فيها بصنوفِ القُرَب والطاعات، فيعوِّض مُقصِّرٌ فيها ما فاته، ويُدرك مُؤَمِّل ما تمنَّاه.

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد الثامن عشر، شوال (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩) في العيدين: باب فضل العمل في أيام التشريق.

من آثار رحمته بعباده

وحكمةٌ أخرى بالغة، وهي أنّ الله سبحانه علم أنَّ في عباده ضعفاً وعجزاً ومَيْلاً إلى الكسل والهوى والشهوة، فمنحهم هذه المواسم جَبْراً لضعفهم، وعوناً لعجزهم، وإرغاماً لشيطانهم؛ وذلك أثر من آثار رحمته بهم وفضله عليهم.

ومن فَضْله جلَّت آلاؤه أن فرَّق هذه المواسم التي اصْطَفَاها، في خلال العام كلِّه، ترغيباً للعاملين، وتنشيطاً للخاملين؛ لئلا تضعف الهمم، وتفترَ العزائم، ببعد الشُّقَّة وطول الزمن.

أفضل أيام الدنيا

ومن هذه المواسم التي اختارها الله لعباده، ودعاهم إلى اغتنام العمل فيها، أيّام العشر الأُوَل من شهر ذي الحجة؛ جعلها الله أفضل أيّام الدنيا، وأحبَّ الأزمان إليه، وأدناها إلى رضوانه وكرمه؛ العمل فيها أعظم الأعمال، والأمل فيها أقربُ الآمال، والحسنةُ فيها بسبعمئة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة لا يعلمها إلاّ الله عزَّ وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وإذا كان يوم الجمعة ـ وهو موسم الأسبوع ـ خيرَ يومٍ طلعت عليه الشمس ـ كما ثبت في صحيح مسلم[2] وغيره ـ فإنَّ كلَّ يومٍ من هذه الأيام العشر خيرٌ من يوم الجمعة الذي هو ليس فيها، كما يدلُّ ذلك على إطلاق الحديث، وكما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو مَنْ هو اتِّباعاً للسنة واقتفاءً للآثار، أنه

---

(١) اقتباس من الآية ٢٦١ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤) في الجمعة، ولفظه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها».

قال: «ليس يومٌ عند الله أعظم من يوم الجمعة، ليس العشر؛ فإنَّ العمل فيها يعدل عمل سنة»[١].

تفضيل العمل في أيام العشر على الجهاد

بل إنَّ تفضيل العمل فيها على الجهاد في سبيل الله ـ وهو ذِرْوة الإسلام ومناره ـ أعظمُ دليل على فَضْل هذه الأيام على الدَّهر كلِّه دون جدال أو استثناء؛ اللهمَّ إلا ضرباً واحداً من ضروب الجهاد لإعلاء كلمة الله عزَّ وجل، هو أن يخرج المجاهد مُخاطراً بنفسه وماله، يبتغي الشهادة، ويرجو الحُسنى وزيادة، ثم لا يرجع بنفسه ولا ماله؛ هذا النوع وحده من أنواع الجهاد ـ وهو أعلاها شأناً وأجلّها مكاناً ـ هو الذي يعدل العمل في عشر ذي الحجة أو يزيد عليه؛ على أنَّ العمل في هذه الأيّام جهادٌ للنفس والهوى، وناهيك منه[٢].

وحَسْبُكَ في فضل الجهاد الذي اقترن بهذه الأيام فساوته أو أرْبَتْ عليه، ما جاء في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عما يعدل الجهاد في سبيل الله فقال: «لا تستطيعونه»، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كلّ ذلك يقول: «لا تستطيعونه»؛ ثم قال: «مَثَلُ المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم، القانت بآيات الله لا يفتُرُ من صلاة ولا صيام حتى يرجع»[٣].

---

(١) قال ابن رجب في «لطائف المعارف» ص٤٦٠: وروى ثُوير بن أبي فاختة ـ وفيه ضعف ـ عن مجاهد، عن ابن عمر قال: «ليس يوم أعظم عند الله...» وهو يدل على أنَّ أيام العشر أفضل من يوم الجمعة الذي هو أفضل الأيام.

(٢) يقال: هذا رجل ناهيك من رجل. معناه: أنه بجده وغنائه ينهاك عن تطلُّب غيره (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨) وانظر شرحه لهذا الحديث تحت عنوان: حيَّ على الجهاد ص٢٧٣ ـ ٢٨٢.

وقد أقسم الله بها تعظيماً لها فقال عزَّ من قائل: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[١][٢].

وإنَّما رفع الله قَدْرها، ونوَّه صلوات الله وسلامُه عليه باسمها؛ لأنها خُلاصة الأشهر الحرم، ومَجْمَعُ أمَّهات العبادة وأصولها، ومَوعدُ الهجرة إلى الله والرحلة إلى بيته، والجهاد في مرضاته.

وإذا كان الله اصْطَفى الأشهر الحُرُم وعظَّمها، فقد اصْطَفى منها شهر ذي الحجة وزادَهُ تعظيماً، ثم اختار عشره الأول فزاده شرفاً وفضلاً، فهي بلا ريب خير الأيام، وصفوة العام.

أيُّهُما أفضل أيام العشر من ذي الحجة أم ليالي العشر الأخير من رمضان؟

ولا يُعارض هذا ما جاء في فضل ليلة القدر، وأنها كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[٣] فإنَّ هذا الفَضْل ثابتٌ لأيامها دون لياليها[٤].

---

(١) سورة الفجر: ١ ـ ٢.

(٢) كما قال غير واحد من السَّلف والخَلَف. وقيل: هي العشر الأخير من رمضان، وقيل: العشر الأول من محرم (طه).

(٣) سورة القدر: ٣.

(٤) قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص٤٦٨ـ٤٦٩: «فأما لياليه ـ أي العشر من ذي الحجة ـ فمن المتأخِّرين ـ يريد به ابن القيِّم والله أعلم ـ مَنْ زعم أن ليالي عشر رمضان أفضل من لياليه، لاشتمالها على ليلة القدر، وهذا بعيد جداً. ولو صحَّ حديث أبي هريرة: «قيام كلِّ ليلةٍ منها بقيام ليلة القدر» ـ رواه الترمذي (٧٥٨) وابن ماجه (١٧٢٨) من رواية النَّهاس بن فَهْم عن قتادة، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. والنَّهاس ضعفوه ـ لكان صريحاً في تفضيل لياليه على ليالي عَشْر رمضان، فإنَّ عَشْر رمضان فضِّل بليلةٍ واحدةٍ فيه، وهذا جميع لياليه متساوية لها في القيام على هذا الحديث، ولكن حديث جابر الذي خرجه أبو موسى المديني: «ولا ليالي أفضل من لياليهن» صريحٌ في تفضيل لياليه كتفضيل =

والحقُّ كما قال ابن القيِّم: «أنَّ لياليَ العشر الأخير من رمضان أفضلُ من ليالي العشر من ذي الحجة، وأيَّام عشر ذي الحجَّة أفضل من أيام عشر رمضان، وبهذا البيان يزول الاشتباه»[١].

ومن هنا كانت ليلة القدر أفضل الليالي على الإطلاق، كما أنَّ يوم النحر أفضل الأيام على الإطلاق[٢]، وكفى أن سمَّاه الله تعالى يوم الحج الأكبر[٣]، ويلي يوم النحر في الفضل يوم عرفة[٤]، وقد صحَّ أنَّ صيامه يكفِّر ذنوب سنتين[٥]، وما من يوم يُعتِق الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم

أيامه أيضاً. والأيام إذا أطلقت دخلت فيها الليالي تبعاً، وكذلك الليالي تدخل أيامُها تبعاً.

وقد أقسم الله بلياليه، فقال: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهذا يدلُّ على فضيلة لياليه أيضاً.

والتحقيق ماقاله بعض أعيان المتأخِّرين من العلماء أن يقال: مجموع هذا العشر أفضلُ من مجموع عشر رمضان، وإن كان في عشر رمضان ليلة لا يفضل عليها غيرها، والله أعلم».

(١) زاد المعاد ١ :٥٧.

(٢) روى الإمام أحمد في «مسنده» ٤ :٣٥٠(١٩٠٧٥)، وأبو داود (١٧٦٥) في الحج، والحاكم في «المستدرك» ٤ :٢٢١ وصحَّحه ووافقه الذهبي من حديث عبد الله بن قُرطٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «أعظم الأيام عند الله يومُ النحر، ثم يوم القَرِّ» وإسناده صحيح، ورجاله ثقات، والقرُّ هو: حادي عشر من ذي الحجة، سُمِّي بذلك، لأن الناس يقرون فيه بمنى.

(٣) كما في سورة براءة، وقد بعثَ النبيُّ ﷺ علياً ليقرأ صدرها في موسم الحج في السنة التاسعة، وكان أميره أبو بكر رضي الله عنه، وكان التبليغ يوم النحر (طه) وسُمِّيَ يوم الحج الأكبر؛ لأنَّ معظم أعمال الحج ومناسكه فيه.

(٤) ولكن جاء في حديث جابر الذي رواه ابن حبان في «صحيحه» ٩ :١٦٤(٣٨٥٣) عن النبيِّ ﷺ: «وما من يومٍ أفضل عند الله مِنْ يوم عرفة» وهو حديث صحيح، إسناده قويّ. وذهب إلى ذلك طائفة من العلماء، ومنهم من قال: يوم النَّحر أفضل الأيام، لحديث عبد الله ابن قُرْط المتقدِّم. وانظر ما علَّقته ص ٣٣٥.

(٥) كما في الحديث الذي رواه مسلم (١١٦٢)، والترمذي (٧٤٩)، وابن ماجه
=

عرفة[١]، وفيه يتجلَّى الله على عباده، ثم يباهي ملائكته بأهل الموقف، وقد جاؤوا شُعثاً غُبْراً خاشعين لله، راجين من فَضْله رضاه[٢]؛ ولئن كان يوم النحر يوم الرفادة والزيارة، فإنَّ يوم عرفة يوم التوبة والضَّراعة، والابتهال والطهارة[٣].

سرُّ تخصيص هذه الأيام بهذا الفضل

هذا، وإذا استْبان فَضْلُ هذه الأيام العشر، فإنَّا نحاول بعون الله وتوفيقه أن نبيِّن السِّرَّ في تخصيصها بهذا الفضل، مع يقيننا أنَّ مردَّ هذا التفضيل إليه سبحانه، فهو الذي يُفضِّل مَنْ شاء وما شاء، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[٤].

ولا بدَّ لنا قبل ذلك أن نقفَ ولو قليلاً على تاريخ هذه الأيام في الجاهلية الأولى، لنعرف كيف بدَّلها الله من الرِّجس طهراً، ومن الضلال هدًى، ومن

(١٧٣٠)، ولفظه عند مسلم من حديث طويلٍ عن أبي قتادة جاء في آخره: «وسُئل ـ أي رسول الله ﷺ ـ عن صوم يوم عرفة؟ فقال: «يكفِّر السنة الماضية والباقية».

(١) اقتباس من حديث رواه مسلم (١٣٤٨) عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار، من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة. فيقول: ما أراد هؤلاء»؟.

(٢) اقتباس من حديث صحيح رواه الإمام أحمد في «المسند» ٢: ٣٠٥ (٨٠٤٧)، وابن خزيمة (٢٨٣٩)، وابن حبان (٣٨٥٢)، ولفظه عند أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزَّ وجل يُباهي الملائكة بأهل عرفات، يقول: انظروا إلى عبادي شُعثاً غُبْراً».

(٣) انظر أول «زاد المعاد» [١: ٤٢_٦٨] في اختيار الله تعالى وتفضيله بعض الأشياء على بعض (طه).

(٤) سورة القصص: ٦٨.

الظلام نوراً ؟؟.

لقد بدَّل العربُ في الجاهلية ملّةَ إبراهيم حنيفاً، فملؤوا البيت بالرِّجس والأوثان، وأفسدوا الشعائر بالزور والبهتان، وقدَّموا لآلهتهم الذبائح والقرابين، واتَّبعوا ما تَتْلو الشياطين، وجَعَلوا هذا الموسم مَيداناً لكلِّ خرافةٍ وضلالة، وشعوذة وجهالة؛ حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلِّه، فَمَحَا معالم الغَواية، ورفع منار الهداية، وثبَّتَ دين الله في الأرض، وأعاد ملَّة أبيه إبراهيم طاهرةً نقية، استجابةً لدعوته عليه السلام إذ قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

وما أن تمَّ فتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستقرَّ الإسلام في جزيرة العرب، حتى عاد هذا الموسم ميداناً للإيمان والنور والهدى، وإعلاناً لدعوة الحقِّ، ووسيلة أي وسيلة للتعارف والتعاون على البر والتقوى.

ولا يقولنَّ قائلٌ: إنَّ التمتُّع بهذا الموسم خاصٌّ بمَنْ شدَّ الرحال إلى بيت الله الحرام، وأدَّى مناسك الحجِّ وشعائره على قواعد الإسلام، أمّا من أدَّى الفريضة أو كان عاجزاً عنها فليس له في فضيلة هذا العشر من نصيب؛ فإنَّ الجواب عند من يعرف أنَّ المسلمين أمة واحدة، دينهم واحد، وإلههم واحد، يتعاون حاضرُهم وغائبُهم، وظاعنُهم ومقيمُهم، وغنيُّهم وفقيرُهم، على المصلحة والخير العام. ولئن فات المقيمَ التمتُّعُ بمناسك الحج وشعائره، وشهودِ الإسلام في أكبر معالمه، وأجمل مظاهره، لا يفوته العمل ـ وهو في وطنه ـ لنفسه ولأمته على ما يرفع شأن المسلمين والإسلام، ويعيد هذه

---

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

الذكريات خالدةً في العالمين.

أرأيت كيف كان هذا العشر غُرَّةَ الدهر، وخُلاصة الأيام، ومِسْك الختام من كلِّ عام؟! أوَرأيت أنَّ السعيد كلَّ السعيد مَن وُفِّق لاغتنام فرصته، وتحصيل فضيلته؛ إذ كان أحبَّ الأيام إلى الله، وأدناها إلى إحسانه ورضاه؟!.

* * * * *

فضل الذكر*

٣٥ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «مثل الذي يذكر ربَّه، والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ والميِّت». رواه البخاري[1].

الذكر والشكر

دعامتان قويتان، يقوم عليهما الدين كلّه، أصوله وفروعه؛ الذكر والشكر. ينبئ عن هذا قولُه ـ جلَّ ذِكْرُه ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2] ووصيّته ﷺ لمعاذ رضي الله عنه ـ فيما رواه أبو داود والنسائي ـ ألاّ يدع في دُبر كلِّ صلاة أن يقول: «اللهم أعنِّي على ذكرك، وشكرك، وحُسْن عبادتك»[3].

حقيقة الذكر والشكر

وذلك لأنَّ الذكر عمل اللسان والقلب، وهو مُقْتَضٍ لمعرفة الله تعالى والإيمان به، ووصفه بصفات جلاله وجماله، والثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به. والشكرُ عمل بقية الجوارح في خدمة الله

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الرابع عشر، رمضان (١٣٦٢ = ١٩٤٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) في الدعوات.

(٢) سورة البقرة: ١٥٢.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» ٥: ٢٤٥ (٢٢١١٩)، (٢٢١١٢٦)، وأبو داود في «سننه» ٢: ١٨٠ (١٥٢٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠١) (١١٧) من السنن الكبرى، وفي سننه الصغرى ٣: ٥٣ (١٣٠٣). وانظر تتمة تخريجه وشرحه في تعليقاتي على «جياد المسلسلات» للسيوطي ص ١٥٦ ـ ١٦٢.

تعالى، وطاعته، والتقُّرب إليه بأداء محابِّه، واجْتناب مكارهه. فانتظم الذكر والشكر؛ ما تعبّد الله به عبادَهْ، وما خلق الجنَّ والإنس إلا لأجله، كما يقول ـ وقوله الحق ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

على أنَّ لنا أن نعدَّ الشكر أثراً من آثار الذكر، كما نعدُّ الطاعة ثمرة من ثمار المعرفة، فما شكر الله تعالى من لم يذكره.

فضل الذكر

ولا حَرَج أن نقول إذاً: إنَّ الذكر الحقَّ رأس اليقين والإيمان، ومدارُ الإسلام والأحكام، وعمادُ الخير كلِّه.

ويعضُدنا في هذا ما أخرجه الترمذي وابن ماجَهْ[2] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَليكِكم، وأرفعِها في دَرَجاتكم، وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخيرٍ لكم من أن تَلقَوْا عَدُوَّكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى»[3].

وكذلك ما أخرجه الترمذي وغيره عن عبد الله بن بُسْر: أنَّ رجلاً قال: يارسول الله، إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبَّث به،

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) بسكون الهاء في الوصل والوقف ونُطْقُها بالتاء خطأ. (طه) وانظر تعليق أستاذنا العلاّمة الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة رحمه الله تعالى على رسالة: «ذكر من يُعتمد قوله في الجرح والتعديل» للذهبي ص١٩٨ـ١٩٩ الطبعة الرابعة، سنة ١٤١٠ ضمن «أربع رسائل في علوم الحديث».

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥: ١٩٥ (٢١٧٠٢) (٢١٧٠٤) بإسناد صحيح، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠).

قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[١].

أكمل الذكر وأفضلُه

وواضحٌ أنَّ اللسان لا يكون رَطْباً من ذكر الله إلاّ إذا رُوِي القلب من خشية الله، وقاد الجوارح إلى طاعة الله؛ لأنَّ اللسان ترجمانُ القلب، والقلبُ أمير الجوارح، «إذا صَلَح صَلَح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله»[٢].

بعد الذي أوضحنا فلا عَجَبَ أن يشبِّه النبيُّ ﷺ الذاكر ـ وقد استنار قلبُه بنور المعرفة، وتحلّى قلبُه بحلية الطاعة ـ بالحيِّ الذي تزيَّن ظاهره ببهجة الحياة، وباطنه بنور العلم والإدراك؛ وأن يشبِّه الغافل ـ وقد قسا قلبه، وأظلمت نفسه ـ بالجثَّة الهامدة؛ تعطَّل ظاهرها، وأظلم باطنها، فلَحِقَتْ بعالم الجماد.

وإذا قلنا: إنَّ الذكرَ عملُ اللسان والقلب جميعاً؛ فإنما نعني به أكمل الذكر، وأفضله، وأزكاه عند الله تعالى، وأَوْلاه بمراده ومراد رسول الله ﷺ؛ وإلاّ فإنَّ الذكر يكون باللسان وحده، وهو أقلُّ درجاته؛ وأفضل منه أن يكون بالقلب وحده؛ وأفضل من هذا أن يكون بهما معاً، فإذا أُسِّس على التقوى، وامتزج بتدبُّر المعنى، وأُحيط بخشية الله عزَّ وجل، فذلك هو الفقه الأكبر، وهو أجلُّ الذكر وأعظمه، وهو ـ بحقٍّ ـ طبُّ القلوب ودواؤها، وعافية الأبدان وشفاؤها، ونور الأبصار وضياؤها، وحياة النفوس وزكاؤها.

وإنّما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأنَّ ذكر القلب يثمر المعرفة، ويثير الحياء، ويبعث على الخشية، ويدعو إلى المراقبة، ويَزَعُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٦٨٠) (١٧٦٩٨)، والترمذي (٣٣٧٥). وهو حديث صحيح.

(٢) اقتباس من حديث رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

عن التقصير في الطاعات والتهاون في السيِّئات، وقلَّما يكون في ذكر اللسان وحده شيء من هذا.

أقسام الذكر

وكثيراً ما يراد بذكر الله ـ تعالى شأنه ـ كل طاعة له، وإن جاوزت عمل اللسان والقلب إلى غيرهما من سائر الجوارح؛ لأنَّ طاعة الله، فرضاً أو نفلاً لا تتحقَّق إلا مقْترنة بذكره أو مُشتملة عليه، أو داعية إليه، ومن أجل هذا، سمَّى الله الصَّلاة ذكراً، فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[١].

وعن بعض العارفين قال: الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرِّضاء.

وقال الإمام النووي: إنَّ فضيلة الذكر لا تنحصر في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ونحوِها[٢]، بل كلُّ عاملٍ لله تعالى بطاعةٍ فهو ذاكرٌ له. وقال عطاء رحمه الله: مجالس الذكر، هي مجالس الحلال والحرام، والفقه بالدين[٣].

وذلك أنَّ أساس الذكر ـ ولا جدال ـ معرفةُ المذكور أوّلاً؛ ثمَّ ذكرُه بما شرَعه لعباده، وارتضاه لعبادته، ودعا إليه على لسان رسوله ﷺ.

وكلُّ الأذكار والأوراد في صِيَغِها وأدائها، وشروطها وآدابها ـ مفردةً

---

(١) سورة الجمعة: ٩.

(٢) كالدعاء والاستغفار والصلاة والسلام على النبيِّ ﷺ.

(٣) «الأذكار النووية» ص٤٩.

ومكرّرةً، مقيَّدةً ومُطْلقةً، مُسْتوفاة ومخفَّفةً ـ قد فصَّلها الشارع تفصيلاً، ولم يأذن لأحدٍ من بعده أن يمسَّها بتهذيبٍ أو تعديل، فَضْلاً عن التغيير والتبديل، فمن استباح شيئاً من ذلك، فقد افتات على الله ورسوله.

ولسنا بحاجة بعد الذي تقدَّم إلى بَسْط الأدلة على فضل الذكر، وجليل خطره. وحَسْبُنا أنَّ الله تعالى أمر به مطلقاً ومقيَّداً، وجعله قرينَ الأعمال الصَّالحة وروحَها ومفتاحَها وختامَها، وربط الفلاح باستدامته وكثرته، وجزى أهله بذكره ومحبّته، وغشَّاهم ـ أينما كانوا ـ بفضله ورحمته. وانظر «مدارج السالكين»[1]، ففيه تفصيلُ هذا كله.

تفاضل الأذكار

ثم الأذكار تتفاضل بحسب آثارها، وتوكيد الشارع أو تخفيفه في طلبها. وقد تظاهرت الأدلة على أنَّ أفضلها، بل أحبُّ الأعمال إلى الله قاطبة، الصلاة لوقتها؛ لأنها جِماعُ الذكر كله؛ ثمّ تلاوة كتاب الله تعالى؛ ثمَّ التهليل والتسبيح وما إليهما.

على أنه قد يعرض للمفضول ما يجعله أوْلى وأفضل؛ وذلك كالتسبيح في الركوع والدعاء في السجود؛ فإنهما أفضل من قراءة القرآن، بل القراءة فيهما منهيٌّ عنها. وكذلك القول في الأذكار الموظّفة عقب الصلوات والمقيَّدة بحال خاصة.

حقاً إنَّ فضْل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، لكن لكلٍّ مقامٍ مقال، ولكلِّ ذِكر مَقْصد إذا عَدَل عنه إلى غيره فاتَتْ الحكمة وعُطِّلت المصلحة. وإذا لم يخلق الله شيئاً عبثاً، فحَاشَ لله أن يشرعَ شيئاً عبثاً.

---

(١) ٢ : ٤٢٣ـ٤٢٣ في منزلة الذكر. وانظر أيضاً «الوابل الصيِّب» ص٦٦ـ١٢٦فقد استوفى بيان فوائد الذكر استيفاءً حسناً، وذكر نحو مئة فائدة.

وقد يخلو العبد بربّه فيتَضَرَّع ويبكي ويستغفر، ويحضره من الخشوع والابتهال ما لا يحضره في وقت آخر، لا جرم أنَّ هذا في موطنه أجلّ أنواع الذكر، وصاحبُه أحد السبعة الذين يظلّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلاّ ظله.

وجملة القول: إنَّ التفضيل مَسْلكٌ دقيق لا يجتازه إلاّ من كان على نورٍ من ربِّه، يعرف به مراتبَ الأعمال ومقاصدَها، ويفرِّق به بين فضيلة الشيء النفسية وفضيلته العرضية، ليعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ويضعَ كلَّ شيء موضعه، ولا يشتغل بالمفضول عن الفاضل، ولا بالفاضل عن الأفضل، فيربحَ إبليسُ الفضل الذي بينهما.

قال صاحب «الوابل الصيِّب»: «سُئل بعض العلماء: أيُّهما أنفع للعبد، التسبيح أم الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً، فالبخور وماء الورد، وإذا كان دَنساً، فالصابون والماء الحار»[1].

تكرار الذكر

ويدعو الحديث إلى تكرار الذكر وإدمانه في كلِّ المناسبات، وجميع الحالات؛ لكن على ما أوضحته السنة وفصَّلته الأحاديث، ورواه الثقات.

ولقد كان ﷺ يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنب، في مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته، ونومه ويقظته، بل كان كلامه في ذكر الله وما والاه؛ من أمره ونهيه ووعده ووعيده وصفاته وأحكامه وسؤاله ودعائه ورغبته ورهبته، وهكذا كان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه، وفي كلِّ أحيانه، وعلى

---

(١) «الوابل الصيِّب ورافع الكلم الطيِّب»، لا بن قيِّم الجوزية ص١٢٦ وذكر ابن القيم أنه لما قال ذلك لشيخه ابن تيميّة، قال له: فكيف والثياب لا تزال دَنِسةٌ ؟

سائر أحواله.

حكمة التكرار

وللذكر مع التكرار أثرٌ عظيم في محو الذنوب وصَقْل القلوب، وتَقْوية العزائم، وإنهاضِ النفوس، وإثارةِ الهمم، واستعذاب الصِّعاب، واحتمال المشاق.

ومن الأدلة على هذا كلّه ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «من سبّح الله في دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وكبّر الله ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير، غُفرت خطاياه، وإن كانت مثلَ زَبَدِ البحر»[1].

وما رواه الشيخان أنه ﷺ علّمَ علياً وفاطمة رضي الله عنهما أن يسبِّحا كلَّ ليلة ـ إذا أخذا مضاجعهما ـ ثلاثاً وثلاثين، ويحمَدا كذلك، ويكبِّرا أربعاً وثلاثين لمّا سألته خادماً، وشكت إليه ما تقاسي من الطحن والسعي والخدمة؛ علّمهما ذلك، وقال: «إنه خيرٌ لكما من خادم»[2]. والأدلّة على ذلك أكثر من أن تُحصى، ولكنَّ المشاهدةَ أعدلُ شاهد.

عناية الصوفيّة بالذكر وتكراره

من أجل هذا اتَّخذ الصوفية من الذكر وتكراره منهاجهم، وجعلوا منه دواءهم وغذاءهم، ورأوا كما رأى الحديث ـ بحق ـ أنَّ العبد بحاجةٍ إلى ذكر مولاه مادام بحاجة إلى الحياة.

لكنّا ننصح لهم ـ والدينُ النصيحة ـ أن يكونَ هَوَاهُم تَبعاً لما جاء به من لا

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧)و (٢٧٢٨).

ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، فقد أقام المعالمَ وأوضح السبيلَ، وأبان النهج، واختار لنا خيراً وأفضل وأزكى وأجمل ممَّا نختار لأنفسنا. فمن رأى رأياً معه، فقد آثر نفسه واتَّبع هواه فأرداه. وإذا كان جزاء من تزلَّف إلى الملوك بزيف الجواهر، الطرد والحرمان، فما جزاء من تقرَّب إلى ملك الملوك بزيف العبادة إلا الهلاك والخسران!.

عجائب التكرار

وللتكرار من عجائب الآثار، وبدائع الأسرار، ما جعل المربين، وعلماء النفس والاجتماع، يقيمون عليه صروحاً من العلم والفضائل، وحصوناً من مكارم الأخلاق والعادات.

وعلى نظريّة التكرار تقوم في هذه الأيام دعوةٌ جديدة لتعلم اللغة العربية وإنهاضها، وتربية مَلَكَةٍ قوية تغني عن القواعد في تأثُّر البيان، وتقويم اللسان، وعِصمته من اللحن والأخطاء.

ولا ندلُّكُم على «روح الاجتماع» ومؤلفات التربية؛ لتقفوا على عجائب التكرار وفعله في النفوس وإيقاظه للقلوب؛ وإنَّما نهديكم إلى كتاب الله، وتعاليم رسوله ومُصْطفاه ﷺ، ففيهما العجبُ العجاب، ومنهما يغترف أولو الأبصار والألباب.

* * * * *

أدب الدعاء*

٣٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجابُ لأحدكُم ما لَمْ يَعْجَلْ؛ يقول: دَعَوْتُ ربّي فلم يَسْتَجِب لي» رواه الشيخان[1].

كما أدَّبَ النبيَّ ربُّه فأحسنَ تأديبه، وهذَّبه فأكملَ تهذيبه، علَّم النبيُّ ﷺ أُمَّته فأحسنَ تعليمها، وزكَّاها فأجمل تزكيتها.

وهذا أدبٌ من أُمَّهات الآداب التي يلقِّنها النبيُّ ﷺ أمَّته؛ ليأخذوا أنفسهم بها حين يدعونَ ربَّهم ويسألونه من فضْله، حتى يكون دعاؤهم حقيقاً بالقَبول، جديراً بالاستجابة.

ومن الخير ألا نعجل بتبيان هذا الأدب وما إليه من قَبلِ أن نبيِّن ما هو الدعاء في لسان الشرع؟ وما مكانه من هذا الدين الحنيف؟.

معنى الدعاء

عدَّ العلماء للدعاء معانيَ ترجع في جملتها إلى معنيين: العبادة، والمسألة. وقالوا: إنَّ الإجابة على المعنى الأول هي: الجزاء والإثابة، وعلى المعنى الثاني هي: إيتاء العبد ما طلب.

وبالمعنيين جميعاً فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد الرابع عشر، شوال (١٣٦٢= ١٩٤٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٠) في كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٣٥) في الذكر والدعاء.

﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[١]؛ وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[٢] وهذا المعنى الأخير أكثر المعنَيَيْن شيوعاً، وهو المراد هنا.

والدعاء بهذا المعنى شعبة من شُعَب الذكر، وركنٌ من أجلِّ أركانه. وهو عنوانُ الخشوع والطاعة، ومناطُ الذلة والضَّراعة، ثم هو بعد ذلك مَظْهَرُ العبودية؛ لأنه كما روى الترمذي: «مخُّ العبادة»[٣].

آداب الدعاء

أما آداب الدعاء فهي كثيرةٌ مبْثوثة في السنة؛ من أهمِّها ما جاء في هذا الحديث وهو: أن يجتهد العبد في الدعاء ويكرِّره غير متعجِّل ولا مُسْتَبْطئ؛ فإنَّ الله تعالى لا تُعجزه الإجابة، ولا يُنقص خزائنه العطاء، وكيف، وقد قال صلوات الله عليه فيما يرويه عن ربِّه عز وجل: «يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم، وإنْسَكُمْ وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحد مسألته، ما نَقَصَ ذلك ممَّا عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَط إذا أُدْخلَ البحر». رواه مسلم عن أبي ذرٍّ[٤].

وفسَّر النبيُّ ﷺ استعجال العبد بأن يقول بلسان الحال أو المقال ـ وبئس ما يقول ـ: «دعوتُ ربي فلم يستجب لي»! هذا فرارٌ من طريق العبودية، ومغادرةٌ لِبابِ الربوبيَّة. وأين هذا من مقال بعض العارفين: «إني أسأل الله تعالى حاجةً منذ عشرين سنة، ولا أزال أسأله إيَّاها، وأنا أرجو الإجابة؛ سألته عزَّ وجل أن

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) سورة غافر: ٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك. قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٧). والمِخْيَط: الإبرة.

يوفقني لترك ما لا يعنيني؟»[١].

السرُّ في تأخير الإجابة

وليس تأخير الإجابة دليلاً على ردِّ المسألة، ولا على هوان السائل؛ فقد تُؤَخَّر لأسرار إلهيَّة يتجلَّى للعبدِ بعضها، فيعلم أنَّ الله أراد به خيراً أو دفع عنه شراً. وقد تؤخَّر ليرفع اللهُ درجتَه؛ ويباهي به ملائكته؛ ففي بعض الآثار: أنَّ العبد إذا دعا ربَّه وهو يحبُّه قال: «يا جبريل! لا تعجل بقضاء حاجة عبدي؛ فإني أحبُّ أن أسمع صوته»[٢]. فلْيكثر العبد من دعاء ربِّه، ولْيَحْذَر أن يضربَ له مثلاً من خلقه؛ فإنه لا يستوي مَنْ يغضب حين يُسأل، ومن يغضب حين لا يُسأل[٣]!.

أسباب الإجابة

ومن أهمِّها: أن يكون صادقَ النيَّة، حاضر القلب، مُخلصاً في الدعاء،

---

(١) ذكرها الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» ١ : ٤٧٥.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» ٢ : ٩٦٦ برقم: ١٠٦٨. ولفظه من حديث جابر أن النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ جبريل مُوكَلٌ بحاجات العباد، فإذا دعاه عبده المؤمن قال له: يا جبريل، احبس حاجة عبدي هذا، فإني أُحبُّه وأحبُّ صَوْتَه، وإذا دعاه الكافر، قال: يا جبريل، اقضْ حاجة عبدي هذا، فإني أبغضه وأبغض صوته». وفي إسناده الحسن بن قتيبة، وهو ضعيف.

(٣) أخرج الترمذي (٣٣٧٠) والحاكم في «المستدرك» ١ : ٤٩١ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسألِ اللهَ يغضب عليه**».

وفي ذلك يقول الشاعر:

اللهُ يغضبُ إنْ تركتَ سؤالَه ... وبُنَيُّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

موقناً بالإجابة؛ فإن الله تعالى لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ[1].

وقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدُكم فَلْيَعْزم في الدُّعاء، ولا يقل: اللهمَّ إنْ شئتَ فأعطني، فإنَّ الله لا مُسْتَكْرِهَ له»[2].

وإنما كُرهت المشيئة في الدعاء، وإن حُمِدَت في غيره؛ لأنها تُشعر بالاستغناء عن المسؤول، وضعف الثقة بإجابته. وحقٌّ على من يَضْرَع إلى مولاه أن يُحْسِنَ الأدب، ويجُدَّ في الطَّلب، ويعظم الرَّغبة؛ فإنه تعالى لا يتعاظمه شيء. ثمَّ لا يمنعُه مِنْ صدق ظنِّه بربِّه، ما يعلم من نفسه؛ فقد استجاب الله لشرِّ

---

(١) اقتباس من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعُوا الله، وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ». رواه الترمذي (٣٤٧٤) وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والطبراني في «الدعاء» (٦٢)، والحاكم في «المستدرك» ١: ٤٩٣ وقال: مستقيم الإسناد، وتعقبه الذهبيّ بأن في إسناده صالحاً المري، وهو متروك. وذكره النووي في «الأذكار» رقم (١٠٤١) وقال عقبه: إسناده فيه ضعف. وقال المناوي في «فيض القدير» ١ :٢٢٩: «فمن زعم حسنه فضلاً عن صحته فقد جازف»، وفي «الفتوحات الربانية» ٢: ١٧٧ قال ابن علان: له شاهد في مسند أحمد ٢ :١٧٧(٦٦٥٥)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص انتهى. والشاهد بلفظ: «القلوب أوعيةٌ، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل، أيها الناس، فاسألوه ، وأنتم موقنون بالإجابة، فإنَّه لا يستجيب لعبدٍ دَعَاه عن ظهر قلب غافل» وحسَّنه المنذري في «الترغيب والترهيب» ٢ :٤٩١ (٢٤٥٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠: ١٤٨: رواه أحمد وإسناده حسن. وضعفه محققو «المسند» ١١ :٢٣٥ لوجود ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ، وباقي رجاله رجال الصحيحين غير أبي عبد الرحمن الحُبُلي فمن رجال مسلم.

ومعنى الحديث صحيح: إذ لا بدَّ مع الدعاء من حضور القلب والإيقان بالإجابة.

قال الإمام الرازي ـ فيما نقله المناوي في «فيض القدير» ١ :٢٢٩ ـ: أجمعت الأمة على أنَّ الدعاء اللساني الخالي عن الطلب النفساني قليل النفع، عديم الأثر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

الخلق إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[1].

وملاك الأمر[2] في إجابة الدعاء: تَقْوى الله، وصدقُ معاملته، وحُسْن الظنِّ به.

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما لنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟! قال: «لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتَّبعوا سنَّته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نِعَمَ الله فلم تؤدُّوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهرُبوا منها، وعرفتم الشَّيطان فلم تحاربوه، وعرفتم الموت فلم تستعدُّوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم، واشتغلتم بعيوب الناس»[3]!!.

الدعاء والقضاء

ولا يحُولنَّ بين العبد وبين الجدِّ في الدعاء ما جَرى به القلم، وسَبَق به القضاء[4]؛ فقد ربط الله الأسباب بمسبَّباتها، والوسائل بغاياتها، وأمر عباده بالدعاء سبباً إلى الحاجات، ووسيلةً إلى الرغبات، وكلٌّ مقدور، في لوح مسطور، ومن قعد عن الدعاء محتجًّا بالقضاء، فَليقْعد عن الأكل والشُّرب والسَّعي والعمل، أو يفرِّق بين الأمرين بسلطان مبين.

---

(١) سورة الحجر: ٣٦ ـ ٣٨، وسورة ص: ٧٩ ـ ٨١.

(٢) مَلاك الأمر: ـ بفتح الميم ويكسر ـ: قِوامه الذي يملك به.

(٣) إحياء علوم الدين ٣: ٣٣، كتاب شرح عجائب القلب، بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب.

(٤) أخرج أحمد في «مسنده» ٥: ٢٧٧ (٢٢٣٨٦) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ولا يردُّ القدر إلا الدعاء» وهو حديث حَسَن لغيره، كما في التعليق على «المسند» ٣٧: ٦٨ طبعة مؤسسة الرسالة. وانظر ما كتبته بإسهاب في تعليقاتي على «العقيدة الإسلامية» للمكّي بن عزُوز ص٣٥٢ ـ ٣٥٥.

ولو لم يكن من مزايا الدُّعاء، إلاَّ أنه عنوان العبوديَّة، ومفتاح باب الربوبيَّة لكفاه شرفاً وفضْلاً. ولمَ لا يسعُنا ما وَسعَ رسول الله ﷺ، وقد كان يُكثر الدعاء، وله أدعيةٌ كثيرةٌ مأثورة؟! وعلى نهجه سار أصحابُه والتابعون.

ألا إنَّ الدعاء، كما جاء في الآثار: ينفع ممَّا نَزَل وممَّا لم ينزل(١)، ومن فُتح له باب الدعاء فُتحت له أبواب الرحمة(٢).

تنوُّع الإجابة

وكما قلنا آنفاً: ليس تأخير الإجابة دليلاً على ردِّ المسألة، نقول هنا: ليس من شرط الإجابة أن تُقضى حاجة العبد نفسها، فقد يختار الله له خيراً منها أو مثلها. وكثيراً ما رأينا رَأْيَ العين أنَّ خيرةَ الله خيٌر، وكثيراً ما نتمثَّل بقول الصوفية: «لو اطَّلعتم على الغيب لرضيتم بالواقع».

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحم إلاَّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجِّلَ له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرفَ عنه من السوء مثلها. قالوا: إذاً نكثر، قال: الله أكثر»(٣).

فما من دعوة من مسلم إلا وهي مستجابة، لا سيما الدعوات في الأوقات

---

(١) اقتباسٌ من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُغني حَذَرٌ من قدر، والدعاء ينفع ممَّا نزل وممَّا لم ينزل، وإنَّ البلاء لينزل، فيتلقَّاه الدُّعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة» ـ أي: يتصارعان ـ رواه الحاكم في «المستدرك» ١ : ٤٩٢ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) اقتباسٌ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من فُتح له في الدُّعاء منكم، فُتحت له أبواب الجنة» رواه الحاكم في «المستدرك» ١ : ٤٩٨ وصحَّحه.

(٣) أخرجه أحمد ٣: ١٨ (١١١٣٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، والحاكم في المستدرك (١٨٥٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

الفاضلة، والفرص الكريمة، كالسجود، والأذان، وجوف الليل، وأدبار الصَّلوات، والخَلْوة مع الله عزَّ وجل. غير أنَّ الإجابة ـ كما يدل الحديث ـ تتنوَّع؛ فتارةً تكون بما دعا به الداعي، وتارةً تكون بعوض منه.

الدعاء والتفويض

وبعد؛ أيُّ المقامين أفضل: الدعاء والسؤال، أم السكوت والرضا؟.

قيل: السكوت أفضل؛ لما فيه من التفويض والتسليم. وقيل: الدعاء أوْلَى وأجمل؛ لأنه سنن الأنبياء والمرسلين، وبرهان الخشوع والضَّراعة لربِّ العالمين.

أفضل الأدعية

والذي يطمئنُّ إليه القلب في هذا الخلاف، أنَّ خير الحالَيْن، وأعلى المقامَيْن ما خَلُصَت فيه النية، وصَدَقت فيه الرغبة؛ فقد يكون الدعاء أفضل، لا سيما المقترن بالرضا، والمُمْتزج بالطمأنينة، والشامل في ظهر الغيب للإخوان والمسلمين. وقد يكون التسليم أفضل، لا سيما المخالط لسكون القلب، وطمأنينته بذكر الله وجلاله، أكثر من دعائه وسؤاله؛ وهذا مُجْمل ما جاء في الحديث القدسي: «من شَغَلَه القرآنُ وذكري عن مسألتي: أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السَّائلين»[1].

وفيما علَّمنا الله ورسوله الخير، والهداية كلُّ الهداية، والكفاية كلُّ الكفاية لمن أحبَّ اللهَ ورسولَهُ.

* * * * *

---

(١) أخرجه الترمذي آخر أبواب ثواب القرآن (٢٩٢٧) من حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب.

دعاء الله بأسمائه *

٣٧ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً؛ مئةً إلا واحداً، مَنْ أحصَاها دَخَل الجنة؛ إنه وترٌ يحبُّ الوتر». رواه الشيخان[١].

المفردات:

الاسم: ما دلَّ على مُسَمَّاه. واسمُهُ تعالى شأنه: هو كلُّ لفظ دلَّ على ذاته سبحانه، أو على معنىً ثابتٍ له؛ الأول: كلفظ الجلالة، والثاني: كالرحمن الرحيم.

أحصاها: حفظها، كما جاء في إحدى روايات الشيخين[٢]، أو دعا بها، كما في رواية أبي نُعيم، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٣]، أو أطاقها، فأحسَنَ رعايتها، وتخلَّق بها، على ما يأتي توضيحُه. **وأصل الإحصاء**: العدُّ بالحَصَى؛ لأنهم كانوا يعتمدونه في العدد، كاعتمادنا فيه على الأصابع، ثم استُعمل لمُطلق العد.

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد السادس عشر، (١٣٦٤ = ١٩٤٥).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) في كتاب الشروط، ومسلم (٢٦٧٧) في كتاب الذكر والدعاء.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٠) في كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٧٧) في كتاب الذكر والدعاء.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.

والوتر ـ بفتح الواو وكسرها ـ : الفَرد، أو ما لم يتشفَّع من العدد، وأوتره أفذّه، ومنه أوتر صلاته إذا جعلها وتراً.

وعدٌ كريم

في هذا الحديث وعدٌ كريمٌ من الصَّادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، بأنَّ منْ أحصى أسماء الله التسعة والتسعين، فَتَح الله له باب رحمته، وكرَّمه بدخول جنَّته، وأحلَّ عليه رضْوانه، فلم يَسْخط عليه بعده أبداً.

المرادُ بإحصاء أسماء الله الحُسنى

وليس المراد من إحصائها مُجرَّدَ حفظها، أو الدعاءَ بها، وإنْ كان في ذلك مثوبةٌ وفضلٌ؛ فإنَّ هذا ممَّا يستوي فيه البرُّ والفاجر، والعامل والخامل، وإنَّما المراد حفظها بإحسان القيام عليها، والتخلُّق بآدابها.

وإذاً فليس المراد من الوعد الكريم مجرَّد دخول الجنة؛ فإنَّ ذلك مآل كلِّ مَنْ مات على كلمة التوحيد مُوقناً بها، وإنْ ذاق ما ذاق من عقوبة جرمه، وعاقبة بغيه وظُلمه، ولكنَّ المراد دخوله في السَّابقين الأوَّلين: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

الإحصاء بالقول وبالعمل

ثمَّ إنَّ الإحصاءَ يقع بالقول تارةً، وبالعمل أخرى.

فالذي يكون بالقول أن يعلمَ العبدُ، أنَّ لله تعالى أسماءً يختصُّ بها، كالأحد والمتعالي والجبَّار والقهَّار، إلى غير ذلك من صفات الجلال، فيقرُّ بها، ويخضع عندها.

والذي يكون بالعمل، أن يعلمَ أنَّ له جلَّ شأنه أسماءً تُطْلَقُ في ظاهر الأمر

---

(١) اقتباس من الآية ٦٩ من سورة النساء.

على غيره، كالرحيم والكريم والعفوِّ والحليم، إلى غيرها من صفات الجمال، فيقْتدي بها، ويتحلَّى بمعانيها، فيرحمَ ويُكرمَ ويعفوَ ويحلُمَ، ما وَضعَ كلَّ وصف في موضعه، وما استطاع إليه سبيلاً.

ولا يبعدُ أن يكون للعبد حظٌّ من صفات الجلال أيضاً، فيتكبَّر على أعداء الله المستكبرين، وينتقم لله من الظلمة الباغين، وهكذا حتى يكون متخلِّقاً بأسمائه تعالى وصفاته كلِّها، على حَسْب حاله وطاقته ومقدار عبوديته لمولاه ذي الجلالِ والإكرامِ، والقهرِ والانتقام. وهذا ما يعنيه الصُّوفية بقولهم: «تخلَّقوا بأخلاق الله عزَّ وَجَل»[1].

---

(١) دلَّني البحث والاستقراء على أنه ليس بحديث، وإن نُسِبَ إلى النَّبيِّ ﷺ في غير ما كتاب (طه).

وروى الخطيب في «تاريخه» ٢ :٤٠١_٤٠٢ (زوائد ٢٥٣) من حديث أنس قال: «حُسْنُ الخلق من أخلاق الله عزَّ وجل» وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في «الميزان» ١ :٥٢٣، و«اللسان» ٣: ١٢٤ (٢٤٠٧) في ترجمة الحسن بن مقداد. والأخذُ بحُسن الخلق تخلُّقٌ بأخلاق الله عزَّ وجل.

وحديث: «تخلَّقوا بأخلاق الله» ذكره السَّهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ رحمه الله تعالى في كتابه «عوارف المعارف» في الباب الحادي والستين في ذكر الأحوال وشرحها في الحب الخالص لله، وأن المحبة لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، وهذا الذي عبَّر عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ: «تخلَّقوا بأخلاق الله». وقال الحافظ السيد أحمد بن الصِّدِّيق الغماري رحمه الله تعالى في «غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف» ٢ :٨٧٠ (٥٦٧): لم أجده.

وبعد كتابة ما تقدَّم وقفت على مقالتين لفضيلة الشيخ طه الساكت رحمه الله تعالى بخطِّه نُشرت الأولى في العدد السابع من مجلة «نور الإسلام» بتاريخ غرة ربيع الثاني ١٣٦٢ بعنوان: «تخلَّقوا بأخلاق الله» قال فيه: «يظنُّ كثيرٌ من الناس أنَّ هذا حديث عن رسول الله ﷺ، والذي أعلمه من مطالعاتي في كتب القوم وغيرها أنه حكمة صوفية، ولقد بحثت جاهداً عن مصدرها في مظانَّ كثيرة، مثل كتاب «كشف الخفا والإلباس» للعجلوني، و«تذكرة =

الموضوعات» للفتَّني، و «الفتاوى الحديثيَّة» للهَيْتمي، و«الرسالة القشيرية» فلم أجدها. ثم سألت كثيراً من أرباب البحث والاطلاع فلم أظفر بشيء، وأخيراً رجعت إلى مابدأت البحث فيه، وهو كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي، فعثرت في فضيلة حُسْن الخُلق من كتاب رياضة النفس على حديثٍ في هذا المعنى، وهو: «حُسْنُ الخُلُق خُلُق الله الأعظم». قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٣: ٥٠: رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣٤٤) من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف.

[وقال الهيثميُّ في «المجمع» ٨ :٢٠:«ورواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمرو ابن الحُصين، وهو متروك». والحديث رواه أبو نُعيم في «الحلية» ٢ :١٧٥ من طريق عمرو ابن الحُصَيْن أيضاً].

ثمَّ كانت خاتمة المطاف أن رجعت إلى «المقْصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للغزالي أيضاً، فوجدتُ في ص١٥ مانصُّه: الفصل الرابع في بيان أن كمال العبد وسعادته في التَّخلُّق بأخلاق الله تعالى، والتَّحلِّي بمعاني صفاته وأسمائه، بِقَدْر ما يُتصوَّر في حقِّه، ثم أخذ يشرح هذا الفصل، وبيَّن أن التحلِّي بمكارم الأخلاق هو السبيل إلى الكمال والسعادة.

وبعد، فهذا بحث في مصدر هذه الحكمة ومنشئها، نرجو ألا يُلهينا عن معناها والانتفاع بها، فإنَّ الحكمة ضالَّة المؤمن، فحيثما وَجَدَها أخذها.

وإجمال القول في هذه الحكمة الجليلة: أنَّ صفات الله سبحانه لا تتناهى، وأنَّ كمالاته جلَّ شأنه لا تُحصى، وإذا كانت نعمه جلَّ ثناؤه لا يُحصيها عدٌّ، ولا يدنو منها حصر، فكيف بأوصاف جماله وجلاله؟ وما جاء في الصحيحين وغيرهما مما قد يشير إلى حصرها من مثل قوله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دَخَل الجنة» فليس المراد منه الحصر، وإنما المقصود ما يترتَّب على حفظها والعمل بها، والتحلِّي بمعانيها، من دخول الجنة ورضوان الله عز وجل» انتهى.

وأما المقالة الثانية فهي بعنوان: «السعادة عند الصوفية» نشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» المجلد السادس عشر، بتاريخ ذي الحجة ١٣٦٢ قال فيها: «من العبارات الشائعة عند القوم، ومن نصائحهم البالغة، ووصاياهم الجامعة: «تخلَّقوا بأخلاق الله» ولقد جرت هذه النصيحة مجرى الأمثال، حتى ظنَّ كثير من أرباب الفضل والنُّهى أنها من كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وممَّن صرَّح بذلك العارف ابن عطاء الله في كتابه «القصد المجرَّد» وصاحب كتاب «التاج» في أول كلامه على البسملة، ويذكر الصوفية أحاديث في هذا =

وأما مَنْ حفظها عدًّا، وأحْصَاها سَرْداً ولم يعملْ بها، فمثَلُه كَمَثَل مَنْ حفظ القرآن ولم يعمل به، وقد ثبت الخبرُ في الخوارج، أنهم: «يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم»(١).

نعم؛ إنَّه يُثاب كلٌّ منهما على العدِّ، والتلاوة والدعاء، وإن اقْترف

المعنى، منها: «إن لله ثلاثمائة خُلُق، من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة» » [أخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث أنس مرفوعاً عن الله بلفظ: «خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق..» وهو ضعيف كما في «تخريج الإحياء» ٤ :٣٥٩] .

ومن المعروف أنَّ الصوفية، وإن بلغوا في الفضل مبلغاً ليسوا من رجال الحديث وأهل النقد، والذي استَنْبطتُهُ بعد طويل البحث والمراجعة والتحرِّي، أنها ليست من الحديث في شيء.

ورأيت في الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ نقلاً عن «الكشف» أنه ﷺ مُتخلِّق بأخلاق الله عز وجل، ونقل عن العارف بالله المرصفي: أن عائشة رضي الله عنها أرادت بقولها: «كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه» أنه ﷺ متخلِّق بأخلاق الله، لكنها لم تُصرِّح به تأدُّباً منها.

وإيضاح معنى التخلُّق بأخلاقه تعالى: أن له أسماء وصفات يختصُّ بها، كالجبَّار والقهَّار والمتعال، ونحوها من صفات الجلال، فيجب على العبد الإقرار بها والخضوع عندها. وله جلَّ شأنه أسماء وصفات؛ كالرحيم والكريم والشكور والغفور، ونحوها من صفات الجمال، فيجب الاقتداء بها، والتحلِّي بمعانيها. ولا يبعد أن يكون للعبد حظٌّ من صفات الجلال أيضاً، فيتكبَّر على أعداء الله عزَّ وجل، وينتقم لله، ويقهر لله. وهكذا فيكون متحلياً بالصفات كلِّها على حسب حاله، ومقدار مايتَّفق وعبوديته لمولاه ذي الجلالة والإكرام، والجبروت والسلطان. وقد يكون حَسَناً وجميلاً أنَّ نفس التخلُّق بأخلاق الله تعالى، التخلُّق بالآداب النبويَّة والشمائل المحمديَّة التي أدَّب اللهُ بها نبيَّه فأحسن تأديبه، وهذَّبه بها فأكمل تهذيبه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين» انتهى.

(١) رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً.

المعاصي، ولكن شتَّان ما بين العاملين والغافلين.

كثرة أسماء الله وصفاته

ولا تَحْسَبَنَّ الحديثَ يحصرُ أسماءَه تبارك وتعالى في تسعةٍ وتسعين، بل هو يُبشِّر مُحصيها بدخول الجنّة مع السابقين الأوَّلين كما أوضحنا. وإلا فأكثر أسمائه صفاتٌ، وصفاتُهُ تعالى لا تتناهى.

وفي الحديث: «أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك سَمَّيتَ به نَفْسَك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً منْ خلقك، أو استأْثرتَ به في علم الغيب عندَك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونُورَ بصري، وجِلاءَ حُزني، وذهابَ همِّي»[1].

الحكمة في الاقتصار على هذا العدد

والحكمة في الاقتصار على هذه العدة، أنَّها الأسماء الجوامع، الدَّالة على ما عَدَاها، ممَّا لا يُحصيه إلا الله تباركت أسماؤه وَجَلَّت آلاؤه.

وَيُؤْثَر عن بعض الحُكماء أنَّ العددَ زَوْجٌ وفردٌ، والفردُ أفضل من الزوج، ومنتهى الإفراد من غير تكرار تسعة وتسعون؛ لأن مئة وواحداً يتكرَّر فيه الواحد، وإنَّما الوتر أفضل من الشَّفع؛ لأنَّ الأول من صفات الخالق، والثاني من صفات المخلوق؛ ولأن الشَّفْعَ يحتاج إلى الوتر من غير عكس.

وقد يؤيِّد هذا قوله صَلوات الله عليه: «مئة إلا واحداً» بعد قوله: «تسعة وتسعين»، دفعاً لشبهة التصحيف في الخطِّ والسمع، بين التسع والسبع. وفي

---

(١) رواه أحمد ١: ٣٩١ الميمنيَّة (٣٧١٢) (٤٣١٨) طبعةمؤسسة الرسالة، وهو حديث ضعيف كما قال الدارقطني في «العلل» ٥: ٢٠١؛ وذلك لجهالة أحد رجال إسناده، وهو أبو سَلَمة الجُهني، فلم يتبيَّن لأئمة الجرح والتعديل من هو، وقد انتهى الأستاذ شعيب إلى تضعيف الحديث في تعليقه على «مسند أحمد» بعد أن صحَّحه في تعليقه على «صحيح ابن حبان» ٣: ٢٥٣ (٩٧٢) بسبب التفريق بين أبي سلمة الجُهني وموسى الجُهني، حيث جزم بأن سلمة الجهني هو موسى الجهني الثقة. وانظر: التعليق على «المسند» ٦: ٢٤٧ ـ ٢٥٠.

هذا البدل من توكيد الكلام، ونصوع البيان، ما لا يَخْفى على ذي لبٍّ[1].

الله وترٌ يحبُّ الوتر

ومعنى الوتر في حقِّه سبحانه: أنه واحدٌ في ذاته، لا يقبل الانقسام والتَّجْزِئة، واحدٌ في صفاته، فلا شبيهَ له ولا مَثِيل، واحدٌ في أفعاله، فلا ظهيرَ له ولا مُعين.

ومعنى محبَّته للوتر: إثابتُه على الإيتار المشروع في الأعمال، ورضاه عن ذلك أكثر من غيره؛ لأنه رمزٌ لوحدانيَّته، وعنوانٌ على كبريائه وعظمته؛ ولذلك خلق السموات سبعاً، والأرضين سبعاً، وأيام الأسبوع سبعاً، وجَعَل أركان الإسلام خمساً، وفرض الصَّلوات خمساً، وجعل أعداد ركعاتها سبع عشرة.

ثمَّ اقتدى به إمام الموحِّدين صلوات الله وسلامه عليه، فأمر بالإيتار في كثير من الأعمال والطاعات، كالطَّهارة وختام الصَّلوات، وتكفين الأموات، وأمرَ أن نجعلَ آخر صلاتنا من الليل وِتْراً؛ لنختم الليل كما ختمنا النهار، برمز الوحدانية وهو الإيتار.

أسماء الله سبحانه توقيفيَّة

ثمَّ لا خلافَ بين الثقات من العُلماء أنَّ أسماءَه تعالى توقيفيَّةٌ، فما لم يَرِدْ إطلاقُه عليه سبحانه في الكتاب أو السُّنة أو الإجماع، لا تجوز تسميته به، وإن صحَّ معناه، فتقول: يا رحيم. ولا تقول: يا رفيق، وتقول: يا قويّ. ولا تقول يا جليد، وتقول: يا كريم. ولا تقول: يا سخي؛ فإن ذلك من الإلحاد في أسمائه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[2]. وهم الذين

---

(١) من لطائف المصادفات أو الأوهام أن يُكتب هذا الحديث للجزء التاسع في الشهر التاسع، فيكون تجاور التسعتين عِدَّة أسماء الله الحسنى (طه).

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

يعدلون عن الحق، فيشركون به سبحانه، أو يُسَمُّونه بما لم يُسَمِّ به نفسه، أو بما لا يُعرف معناه، جلَّت أسماؤه، وتعالت صفاته[١].

هذا، ولم تُذكر الأسماء في الصحيحين، وإنما وردت في الترمذي وغيره[٢]. قال صاحب «الفتح»: «ورواية الترمذي هي أقْرب الطرق إلى الصحة، وعليها عوَّل غالب مَنْ شرَح أسماءَ اللهِ الحُسنى»[٣]، ثم ساق الرواية، وهي مشهورةٌ ميْسورة.

أمثل خطة وأحكم أسلوب

وبعد؛ فهل رأيت خطَّة أمثل وأقْوم، أو أسلوباً أجل وأحكم، أو دعوة إلى التوحيد أشْيَع وأذْيَع من هذه التعاليم الزاكية النامية التي يُحيي بها النَّبيُّ ﷺ كلمة الحق، ثمَّ يُثَبِّتُها ويُنَمِّيها، حتى تَدخلَ كلَّ قلب، وتملأ كلَّ نفس، وتختلط باللحم والدم، من الرأس إلى القدم؛ لئلا يقوم العبد إلا عليها، ولا يتحرَّك أو يسكن إلا بها، فهو يُبرزها ويُمثِّلها في الأحوال كلِّها، دقيقها وجليلها؟!

ولمَ لا تتبوَّأ هذه المنزلة، وهي رسالة الله التي أرسل بها رسله، ووصيَّته التي أقام عليها شرعه. ثم هي مفتاح كلِّ خيرٍ ونعمة، ومِغْلاق كلِّ شر ونقْمة، ولولاها لَفَسدَت السَّموات والأرض ومَنْ فيهنّ؟!.

لقد رعاها ﷺ حقَّ رعايتها، وتعهَّدها كما ينبغي لها، حتى رَسَا أصلُها، وسَمَا فَرعها، وآتت أُكلَها كلَّ حين بإذن ربِّها.

ولعلَّ هذا هو السرُّ الأعظم والمقْصودُ الأجلُّ الأكرم الذي يتكشَّف لك

---

(١) انظر ما كتَبْتُه بإسهاب في تعليقاتي على كتاب «العقيدة الإسلامية» للمكِّي بن عزُّوز ص ٢٦٦ ـ ٢٧٢.

(٢) الترمذي (٣٥٠٢)، وابن حبان (٢٣٨٢)، وابن ماجَهْ (٣٨٦١).

(٣) فتح الباري ١١: ٢١٩.

عندما تطالع وَجْهَ هذا الحديث بعد النظرة الأولى، وأكبر العلم أنه:

يزيـــــدك وَجْهُــــه حُسْـــناً إذا مـــــا زِدْتَـــــهُ نَـــــظَراً

ولكنَّا نقف عند نهاية الصفحات الثلاثة[1]؛ لأنه تعالى وترٌ يحبُّ الوتر.

* * * * *

(١) كما في صفحات المجلة المطبوعة، أما هنا فهي تسع صفحات مع تعليقاتي.

ظنُّ العبد بربِّه *

٣٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبُّي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا مَعَه إذا ذكرني، فإنْ ذَكَرني في نفسه: ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذَكَرني في ملأٍ: ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهم، وإنْ تقرَّب إليَّ شبْراً: تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً: تقرَّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي: أتيتُه هرولةً». رواه الشيخان[1].

المفردات:

الظنُّ: إدراكٌ فوق الشَّك ودون اليقين، وقد يَرِدُ بمعنى اليقين والاعتقاد كما هنا، وأكبر الظنِّ أنَّ إيثاره على اليقين رمزٌ إلى أقلِّ درجات الثقة بالله تعالى والرجاء فيه، وهي أن تبلغَ من العبد مَبْلغ الظنِّ الغالب، فلن يُقبلَ منه ما دون ذلك، وفي هذا من الرحمة والحنان بالعبد ما لا يخفى على بصير.

وعند: ظرف يفيد القُرب حِسًّا أو معنىً. ومن أفصح الأساليب وأجزلها: «أنا عند ظنِّك»، أي: أنا لك أو عليك كما تظن فيَّ، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرٌّ.

ومع: ظرفٌ يفيد المُصَاحَبَة حِسًّا أو معنى كذلك.

والمعيَّة إذا أُضيفت إليه سبحانه فهي على وجهين: معيَّة علم وإحاطة،

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد السادس عشر، (١٣٦٤ = ١٩٤٥).

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في أول الذكر والدعاء (٢٦٧٥).

ومراقبة وقدرة، كالتي في قوله عزَّ سلطانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١].

ومعيَّة حفظ ورعاية، ورحمة وولاية، كالتي هنا، والتي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٢].

وذكر الله تعالى: تَذَكُّرُهُ بآلائه وآثاره، والثناءُ عليه بما هو أهله قولاً وعملاً واعتقاداً. وقد بيَّنا في شرح الحديث: «مثلُ الذي يذكر ربَّه، والذي لا يذكر ربَّه، مثل الحيِّ والميِّت»[٣]، إنَّ كلَّ طاعة لله، فهي ذكرٌ له.

والمَلأ: جماعةُ الأشراف؛ لأنهم يَملؤون العيونَ أبهةً، والصُّدورَ هَيْبةً وَجَلالاً، أو الجماعة مُطْلَقاً كما هنا. وجمعه: أملاء، كَسَبَب وأسباب.

وذكر الله للعبد في نفسه: كنايةٌ عن إثابته إيَّاه بما لا يطَّلع عليه أحدٌ من خلقه، وذكرُهُ سبحانه للعبد في الملأ: كنايةٌ عن الثناء عليه، وإعلان مكافأته.

[**والباع** : قدْر اليدين مفتوحتين مَمْدودَتَيْن، والصَّدْر بينهما]

والهَرْولة : الإسراع في المشي[٤].

وإضافة هذه الأمور إليه سبحانه من قبيل المجاز والتمثيل، تقريراً للمعاني وتصويراً لها في أجمل صورةٍ، وأحسن تقويم[٥].

---

(١) سورة الحديد: ٤.

(٢) سورة النحل: ١٢٨.

(٣) سبق تخريجه وشرحه في فضل الذكر ص٣٤٩.

(٤) قال ابن الأثير في «النهاية» ٥ :٢٦١ في تحديد معنى الهَرْولة، والمعنى العام للجملة: «الهَرْوَلة: بين المشي والعَدْو ـ أي الركض، وهو كنايةٌ عن سُرعة إجابة الله تعالى، وقبول توبة العبد ولطفه ورحمته».

(٥) ونقل الإمام الترمذي رحمه الله تفسيره ـ عَقِبَ روايته له ـ عن الأعمش أحدِ رواة هذا الحديث، وهو إمامٌ مشهور بالقراءات ورواية الحديث، توفي سنة بضع وأربعين ومائة،

=

والمراد: أنه من أتى بقليل الطاعة كافأه الله بجزيل الأجر والعطاء، وكلَّما ازداد فيها ضاعف الله له المثُوبة والجزاء، ولكن أين هذا الكلام، من كلام الملك العلَّام ذي الجلال والإكرام؟!.

وإنْ سَلَكْتَ سبيل السَّلف، ففوِّض التأويل إلى الله تعالى، مؤمناً بكمال تنزيهه، وأن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(1)].

الفرق بين الحديث القدسي والقرآن:

وبعد؛ فهذا حديثٌ من الأحاديث القدسيَّة التي يرويها النبيُّ ﷺ عن ربِّه عزَّ وجل.

وبحَسْبنا هنا أن نفرِّق بين الحديث القدسي، والقرآن الكريم، بأنَّ هذا أُوحيَ بلفظه ومعناه للإعجاز؛ والتحدِّي، إلى الهداية به، والتعبُّد بتلاوته: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾[(2)]؛ وذاك أُوحي إليه

قال: «ويُروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث: «من تقرَّب مني شبراً تقرَّبت منه ذراعاً» يعني: بالمغفرة والرحمة، وهكذا فسَّر بعض أهل العلم هذا الحديث. قالوا: إنما معناه إذا تقرَّب إليَّ العبدُ بطاعتي وبما أمرت، تُسارع مغفرتي ورحمتي». ونحو هذا التفسير قولُ قَتَادة عقب روايته للحديث: «فالله تعالى أسرع بالمغفرة» كما في «المسند» ٣: ١٣٨(١٢٤٠٥). وتوفي قتادة قبل الأعمش بنحو ثلاثين سنة.

وقال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» ١٧: ٣: «هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره. ومعناه: من تقرَّب إليَّ بطاعتي تقرَّبتُ إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإنْ زاد زدتُ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي: أتيتهُ هرولةً. أي: صَبَبْتُ عليه الرحمة، وسبقتُه بها، ولم أُحْوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود. والمراد: أنَّ جزاءه يكون تضعيفُه على حَسْب تقرُّبه».

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥.

ﷺ لمُجَرَّد البشارة أو النذارة، وله أن يرويَه بمعناه فحسب، وإن نزلَ بلفظٍ إلهيٍّ كريم[١].

حُسْن الظنِّ بالله تعالى

وأهم ما يعرضُ له الحديث ـ ونحن مُضْطرُّون إلى الإيجاز ـ أمران خطيران يُحدِّدان مقامَ العبد بربِّه، ومعاملة العبد له، وهذا متَّصل بسابقه اتِّصال الثمرةِ بالشَّجرة، والغايةِ بالوسيلة، فإنْ ظنَّ بالله خيراً وَجَدَه خيراً، وإنْ ظنَّ به غير ذلك فهو كما ظن، وعلى حَسَبِ ظنِّه بربه وثقته به، يكون تعظيمُه له وأدبُه معه.

وحُسْنُ الظنِّ به تعالى حقٌّ محتوم على كلِّ عبد، وفي كلِّ حال، ولا سيِّما المريض، ومن تأهَّب للقُدوم على مولى كريم، يعفو عن السيِّئات، ويُضاعف الحَسَنات، ويُنادي عبادَه الذين أسرفوا على أنفسهم: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

بين حُسْن الظنِّ والاغترار بالله والجرأة عليه

ولكن لا سبيلَ إلى حُسْن الظنِّ لمَنْ فرَّطوا في جَنْبِ الله، مُغْترِّين بربِّهم الكريم، ناكبينَ عن صراطه المستقيم.

وفي هؤلاء يروي البخاري في «تاريخه» قولَه ﷺ: «ليس الإيمان بالتمنِّي ولكن ما وَقَرَ في القلب، وصدَّقه العمل، وإنَّ قوماً ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتى

---

(١) انظر في تعريف الحديث القدسي، وهل لفظه ومعناه من الله عز وجل، أو لفظه من النبيِّ ﷺ ومعناه من الله تعالى؟ ما كتبه أستاذنا العلامة المحقِّق الشيخ محمد عوَّامة حفظه الله في عافية وسرور في مقدمة كتابه الحافل النافع «من صحاح الأحاديث القدسية» ص ٧ـ ١٧.

(٢) سورة الزمر: ٥٣.

خَرَجوا من الدنيا ولا حسنةَ لهم، وقالوا: نحن نحسن الظنَّ بالله تعالى، وكذبوا. لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل»[١].

وشتَّان بين حُسْن الظنِّ بالله، والاغترار به والجُرأة عليه.

من ثمرات حُسْن الظنِّ بالله

ومن ثمرات حُسْن الظنِّ بالله ـ كما ألمحنا إليه آنفاً ـ: حُسْنُ معاملة العبد له، وكريمُ أدبه معه، فيؤدِّي فرائضَه كما أمر، ويتركُ معاصيه كما نهى، ويتقرَّبُ إليه بالنوافل كما نَدَب، ويُكثرُ من ذكره كما أحبَّ، حتى يكون الله معه بنصره ومعونته، وتأييده ورحمته. ومَنْ بلغ هذه المنزلة، فقد انتظم في سِلْك الصِّدِّيقين الذين يُباهي الله بهم الملائكة.

وقد يتشوَّف لهذه المنزلة قومٌ سمَّوا أنفسهم بالمتصوِّفة، أو حَشَروا أنفسهم في الذاكرين، وليسوا من هؤلاء ولا أولئك في شيء، اللهمَّ إلا أنْ يثوبوا إلى رُشدهم، فيعرفوا المذكور أولاً، ثم يذكروه بما شَرَع لعباده، وارتضى لعبادته، ودَعَا إليه على لسان رَسُولِه ﷺ.

---

(١) هذا الحديث لا يصحُّ رفعه ونسبتُه إلى النبيِّ ﷺ، وإنما هو من كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى، أورده ابن أبي شيبة في «المصنَّف» بتحقيق العلامة المحقق الشيخ محمد عوامة برقم (٣٠٩٧٧) من طريق جعفر بن سليمان، عن زكريا، قال: سمعت الحسن البصري ..، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» رقم (٥٦) من طريق محمد بن عبد الملك الدقيقي، عن عبيد الله بن موسى، عن أبي بشر الحلبي، عن الحسن. وذكره الشيخ ابن تيمية في «فتاواه» ٧ :٢٩٤ من طريق عباس الدوري، حدثنا حجاج، حدثنا أبو عبيدة الناجي. وذكره الحافظ ابن رجب أيضاً في «لطائف المعارف» ص٤٠٢ من كلام الحسن البصري.

وتتمة الحديث: «وإنَّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة..» من كلام الحسن البصري أيضاً، كما نسبه إليه ابن كثير في «البداية والنهاية» ٩ :٢٦٨، والمناوي في «فيض القدير» ٥ :٦٧.

نُصْرة الدين والجهاد في سبيل الله

ومن آثار حُسن الظنِّ بالله تعالى: نُصْرةُ دينه، والجهادُ في سبيله، وبَذْلُ النفس والنفيس في مرضاته، ثقةً به، وتوكُّلاً عليه، وإيثاراً لما عنده. وما كان الرُّسل صَلَوات الله وسلامه عليهم أكرمَ الناس، وأشْجَعَ الناس؛ إلا لأنَّهم أعرفُ الناس بربهم، وأوْثَقُهم به، وأعظمُهم توكُّلاً عليه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1].

فَضْل الذكر الجهري

وإنَّما فضَّل الله سبحانه مَنْ ذكره في ملأٍ، على مَنْ ذكره في نفْسِهِ؛ لأنَّ الأوَّل أثنى على الله بما هو أهله، ودَعَا عبادَهُ إلى الثناء عليه، بقوله أو عمله أو بهما جميعاً، فكان خليقاً بأن يُذكر في الملأ الأعلى، وأن يُباهيَ الله به. والجزاءُ من جنس العمل، ولولا هذا، لكان الآخرُ مثلَه أو أفضلَ منه.

خيريَّة العالم العلوي

وقد استدلَّ بهذه الخيريَّة من ذهب إلى تفضيل الملائكة على خواصِّ البشر، وهو بحثٌ عريض له مجال غير هذا. على أنَّ خيريَّة العالم العلوي هنا إنَّما جاءت من طريق المعيَّة الإلهيَّة، وهي معيَّة الشَّرف الذي لا يُسامى، والكرامة التي لا تُدانى[2].

---

(١) اقتباسٌ من الآية ٨١ من سورة النساء.

(٢) إنما صار الملأ الثاني خيراً من الملأ الأول، لأنَّ الله سبحانه وتعالى مع مَنْ يذكر هذا الذاكر. ونقل الحافظ في «الفتح» ١ : ٣٨٧ عن القاضي ابن الزَّمَلْكاني في «الجزء الذي جمعه في الرفيق الأعلى» قوله: «وإنما صار الذكر في الملأ الثاني خيراً من الذكر في الأول؛ لأنَّ الله هو الذاكر فيهم، والملأُ الذين يذكرون ـ والله فيهم ـ أفضلُ من الملأ الذين يذكرون وليس الله فيهم».

درجات الطاعة ودركات المعصية

والحقُّ الذي لا جِدَال فيه أنَّ العبد يصعد في درجاتِ الطاعة والطُّهر حتى يكونَ مَلَكاً كريماً أو أفضلَ منه، ويهبط في دركات المعصيةَ والدَّنَس حتى يصيرَ شيطاناً رجيماً أو أسفل منه. و«كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»[1].

* * * * *

(١) اقتباسٌ من الحديث الذي رواه مسلم (٢٦٤٩) في القدر من حديث عمران بن حصين.

دعاء واستعاذة *

٣٩ ـ عن زيد بنِ أرقمَ رضي الله عنه قال : لا أقول لكم إلاَّ كما كان رسولُ الله ﷺ يقول. كان يقول : «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من العَجْزِ والكسلِ، والجُبن والبُخل، والهرَم وعذاب القبر. اللهمَّ آتِ نفسي تَقْواها، وزَكِّها، أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومَوْلاها. اللهمَّ إني أعوذُ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُسْتَجَابُ لها». رواه مسلم[١].

شأن الدعاء

للدعاء في الإسلام، وهَدْيِ النبيِّ عليه الصَّلاة والسلام، شأنٌ عظيمٌ ومَقامٌ كريمٌ.

ألم تر إلى فاتحة الكتاب: أم القرآن وأعظم سورة فيه؟! شطرها الأول ثناء، وشطرها الآخر دعاء.

أوَلم تر إلى الرسول ﷺ؟! لم يكتفِ بأن يحدِّثنا أنَّ الدعاء أكرم شيء على الله تعالى[٢]، حتى حدَّثنا أنه هو العبادة[٣]، أو هو مخ العبادة[٤].

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد الرابع والعشرون، (١٣٧٢ = ١٩٥٢).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢) في كتاب الذكر والدعاء..

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجَهْ (٣٨٢٩)، وابن حبان (٨٧١)، والحاكم (١٨٤٤) كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء».

(٣) رواه أبوداود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧) و(٣٣٧٢).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٧١) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه لا نعرفه إلا من =

والعبادة هي منتهى الخشوع والخضوع لله ربِّ العالمين.

وبِحَسَبِ إخلاص العبد فيها واستقامته عليها، ترتفع درجته، وتَشْرُف عند الله مكانته.

خمس آفات مهلكات

وفي هذا الحديث يستعيذ النبيُّ ﷺ، ويعلِّم أمَّته أن تستعيذ من خمس آفاتٍ مُهلكات، كلُّهنَّ شرٌّ يُتَّقى، وبلاءٌ يُستعاذ بالله منه، ثم يستعيذُ صلوات الله وسلامه عليه من عذاب القبر، وكأنه عاقبةٌ محتومةٌ للآفات السَّابقة، ونذيرُ سوء لما بعده من عذاب الآخرة، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

ثم يضرع لله تعالى أن يؤتيَه، ومن اتَّبع هداه التقوى، وأن يُطَهِّره من هذه الآفات، وما إليها، ويَقْرن هذه الضَّراعة بالثناء عليه بما هو أهله، ثم يتحصَّن به ـ وهو نِعْم المَلْجأ ـ من أربع بلايا من كُفِيَهُنَّ فقد كُفِيَ الشرَّ كلَّه، وضرب في الخير بسهم وفير.

العجز والكسل

وقد زاوجَ النبيُّ ﷺ بين اثنين من هذه البلايا التي عاذ بالله منها لمشاكلةٍ بينهما.

فتعوَّذ أول ما تعوَّذ من العَجز والكسل، وكلاهما داءٌ وبيلٌ ومرضٌ قاتل للحياة الروحية والاجتماعية، بل للحياة الطيِّبة في الآخرة والأولى. ويتَّفقان كلاهما في صفة سلبيَّة، وهي التخلِّي عن العمل، وإن كان منشأ التخلِّي في العجز: عاهة أو نحوها، ومنشأ التخلِّي في الكسل: التقاعد والتثاقل عن العمل

حديث ابن لهيعة..

(١) اقتباس من الآية ١٢٧ من سورة طه.

مع القُدرة عليه؛ إيثاراً لراحة البدن أو حظٍّ من حظوظ النفس وأهوائها.

ويختلفان في أنَّ الكسلان مذمومٌ ملومٌ لا عذر له؛ لأنه ساقط الهمَّة، خائر العزيمة، مُتخلِّف عن الرَّكب، بضاعته الأحلام والأماني، و﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

أما العاجز فهو معذورٌ إلى أمدٍ بعيد، ولا سيما عجز بمحض القضاء والقدر، لا يدَ لصاحبه فيه، كالذي يولد كذلك؛ أو الذي يصاب من حيث لا يحتسب. فأما من جنَى على نفسه حتى أعجزها، أو حادَ بها عن طريق الجادة حتى أتلفها، فهو أعظم من الكسلان جرماً وأقبح إثماً وذماً!.

فَلْيَتَّقِ اللهَ امرؤٌ في نفسه، ولْيُجنِّبها بواعثَ العَجز والكسل، وإلاَّ فهو عُضوٌ فاسدٌ يجب النظر في إصلاحه أو بتره قبل أن يعدوَ فسادُهُ على المجتمع.

الجبن والبخل قرينان

وتعوَّذ ﷺ من الجُبْن والبُخل، وكلاهما منعٌ وشُحٌّ، غير أنَّ الأول شحٌّ بالنفس، والثاني شحٌّ بحبيب النفس، وهما قرينان لا يكاد يذكر أحدهما دون صاحبه، وكذلك ضدَّاهما: الشجاعة والكرم.

ومن أمثلة الاستدراك في مبادئ النحو: فلانٌ شجاع لكنه بخيل؛ وذلك لأنه لا تخطر الشجاعة بالبال إلا ومعها الكرم. وتعليل ذلك هيِّن، فإنَّ الكرم ضربٌ من ضروبِ الشجاعة.

ومردُّ الشجاعة بجميع صنوفها إلى الثقة بالله أولاً، ثم بالنفس ثانياً؛ ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أشجعَ الناس وأكرمَ الناس؛ لأنهم أوثق الناس بالله عزَّ وجل.

---

(١) اقتباس من الآية ٥٠ من سورة الكهف.

وجودُ الخليلِ والحبيبِ بالنَّفس والمال ليس موضعَ ريبة ولا جدال.

وكذلك ورثة الأنبياء مِنْ بعدهم، وكم ضحَّوا بالنفس والنفيس في سبيل أوطانهم، لا يبْتغون إلاَّ وجهَ الله، ولا يخشون أحداً سواه، فأما الجبناء والبخلاء، فليسوا من ورثة الأنبياء في شيء.

الهرم وعذاب القبر

وتعوَّذ ﷺ من الهرمِ وعذابِ القبر. والهرمُ: أقصى السنِّ وأرذل العمر، والهَرِمُ على هذه الحال كَلٌّ ثقيلٌ على الأهل والولد، وبالحريِّ غيرهم. وكبرُ السن مع ثقَل الظلِّ داءٌ يُستعاذ بالله منه.

خيرُ الناس

فأما مجرَّد الكبر، ولو جاوز المئة مع سلامة العقل وهدوء النفس، واستطاعة العمل، فذلك خيرٌ يُطلب المزيد منه، فإذا اجتمع إلى تلك الصفات حِنْكةٌ وتَجْربة، وسَدادٌ في الرأي، ورُشْد في السياسة، ونور في البصيرة، وخشية لله وحده، فذلك الإمام المُقْتدَى به، والسِّراج الذي يُستضاء بنوره.

وفي مثل هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه ـ : «خير الناس من طال عُمُرُه وحَسُنَ عَمَلُه»[1].

عذاب القبر ونعيمه حقٌّ

وعذاب القبر ونعيمُه كلاهما حَقٌّ، تَضَافرت الأدلة عليه، وصحَّت

---

(١) أخرجه أحمد في مسند عبد الله بن بُسْر المازني ٤ :١٨٨(١٧٦٨٠) و(١٧٦٩٨) وإسناده صحيح، وهذه الجملة: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» رواها أحمد أيضاً في مسند أبي هريرة (٧٢١٢)، وفي مسند أبي بكرة الثقفي (٢٠٤١٥).

الرواية فيه عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في مواطن كثيرة، ولا يأبى دُستور العقل أن يعيدَ اللهُ تعالى حياةَ العبد في جسده أو في جزء منه، وأن يعرض عليه مَقْعَده بالغَداة والعشيِّ، إنْ كان من أهل الجنة فَمِنْ أهل الجنة، وإنْ كان مِنْ أهل النار فَمِنْ أهل النار، ويقال له: هذا مَقْعَدُك حتى يَبْعَثَكَ الله يوم القيامة[١].

وقاعدة أهل السنة والجماعة: أنَّ شيئاً وَرَدَ به نقلٌ قويم، ولم يمنع منه عقلٌ سليم، وَجَب قَبوله واعتقاده والإيمان به.

وكم من شيء أثبته العلم الحديث في عالم الأحياء، بعد أن أنكره قليلو البضاعة من أشباه العلماء، فكيف بهم في عالم الأموات، وبضاعتهم فيه مُزْجَاة؟!.

ألا إنَّ «القبر رَوْضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار»[٢]، فليعدَّ امرؤ قبرَه كما يشاء ويختار، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣].

التَّخْلية قبل التَّحلية

بعد أن تعوَّذ ﷺ من هذه الآفات التي تُهلك من يُبتلى بها ـ فرداً كان أو جماعة ـ ضَرَع إلى الله سبحانه أن يمنح نفسه تَقْواها له وخشيتها منه، وأن يزكِّيها

---

(١) اقتباسٌ من حديثٍ رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) كلاهما من حديث عبد الله بن عمر. ولفظه عند البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشي؛ إن كان مِنْ أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان مِنْ أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثَكَ الله يوم القيامة».

(٢) اقتباس من حديث رواه الترمذي (٢٤٦٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار» وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) اقتباس من الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

ويُجمِّلها؛ لأنَّه القادر على ذلك وحده، فهو مالكُ أمرها، ومدبِّر شأنها، والقائم على كلٍّ نفس بما كسبت، لا يسوق الخيرَ غيرُه، ولا يكشف الضُّرَّ أحدٌ سواه. إنَّ ضراعته هذه بعد استعاذته، من قبيل التحلية بعد التخلية، أو من قبيل الصحة بعد العافية.

تزكية النفس

وتزكية النفس: تطهيرُها سرًّا وعلانية من الخُبْث والدَّنَس، في عقيدة المرء وسلوكه ومعاملته، لنفسه أو لربِّه، أو لأهله وعشيرته، أو لوطنه وأمته والعالم أجمع.

التطهير العام الشامل

ولقد قام الإسلام على قواعد التَّطهير العام الشامل: فدعا إلى تطهير العقائد من دَنَس الشِّرك والكفر وعبادة غير الله عزَّ وجل، وإلى تطهير العقل من الخشوع والخضوع للخرافات والأوهام والأضاليل، وتقليد الآباء والكُبَراء على غير هُدًى وبصيرة، وإلى تطهير القلب من الحقد والحسد والغلِّ والشَّحناء والبغضاء، وما إلى ذلك من أمراضه الذاهبة به وبصاحبه. ودعا إلى تطهير المعاملات من الكذب والزُّور والرِّشوة والربا، والحرص والجَشَع والخِداع والطمع، وما إليها من أكل أموال الناس بالباطل، والعدوان عليهم في المال أو العرض أو النفس.

بُني الإسلام ـ ولا نقول سبق ـ على التَّطهير العام الشامل الذي لم يدع رذيلةً إلاَّ هدمها، ولا نقيصةً إلا مَحَاها، ثم شيَّد على أنقاض هذه الرذائل مدرسةً قويَّةَ الأركان، عتيدةَ البنيان، منهاجها الكتاب المبين، وإمامُها خاتم النبيين، وبنوها خيرُ أمة أُخرجت للناس[1].

---

(١) شرح المؤلف حديث عبادة بن الصَّامت: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ...» تحت عنوان: التطهير في الإسلام. انظر: ص٧٣٤ ـ ٧٦١.

أربع آفات مهلكات

ولما كان النبيُّ في أمته، والإمامُ في رعيته، والقائدُ في جنده، كالطبيبِ الشفيق الناصح، وكان أخوف ما يخاف على مريضه الانتكاس والعياذ بالله تعالى؛ عاد ﷺ يتعوَّذ من أربع آفات أخرى، فيهنَّ فساد المرء ودنسه، ومنهنَّ يكون بلاؤه وانتكاسه. على أنه ﷺ كان يتعوَّذ أحياناً من هذه الأربع على حِدة، فقد روى الاستعاذة منها في حديثٍ مستقل الترمذيُّ والنسائيُّ عن ابن عمرو رضي الله عنهما[١]، وكذلك أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه[٢].

الآفة الأولى: علم لا ينفع؛ لأنه شرٌّ من الجهل، فإنَّ الجاهل قد يُعذر بجهله، وأما العالم الذي لم ينفعه الله بعلمه فهو فتنةٌ للناس ومَضِلَّةٌ لهم؛ لأنه في موضع القدوة منهم، لا جَرَمَ أنَّ علمَهُ حُجَّةٌ عليه لا له، وأنه أشدُّ الناس خِزْياً ومَقْتاً في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

الآفة الثانية: قلب لا يخشع؛ لخلوِّه من الإيمان واليقين، ولفساده باجْتراح السَّيِّئات والمعاصي، طَبَع الله عليه فلم يَلن لذكر الله، ولم يتَّعظ بمواعظ الله، ثم انتقل فساده إلى الجوارح؛ لأنه المهيمن عليها والمُحرِّك لها.

وفي حديث الصحيحين المعروف: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسد كلُّه، ألا وهي القلب»[٤].

الآفة الثالثة: نفسٌ لا تشبع؛ لجَشَعها وطمعها، فهيَ وَبَالٌ على صاحبها

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٨)، والنسائي (٥٤٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٥٤٦٧).

(٣) سورة الصف: ٢ ـ ٣.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ومُتْعبةٌ له، لا تدعه يتمتَّع بما أُوتي من نعمة ومتاع، لا يتمتَّع بنعمة عاجلة لأنه مشغول عنها بالآجلة، ولا يتمتَّع بنعمة آجلة لأنها لم تأت بعد، لا جرم أنه الشقيُّ المحروم الذي سُلب نعمة الرِّضا، وملئ قلبُه بحبِّ الدنيا، وحب الدينار رأس كل خطيئة.

الآفة الرابعة: دعوةٌ لا يستجاب لها، أو: «دعاء لا يُسمع» كما في الرواية الأخرى؛ لأنَّ عدم الاستجابة أمارة إعراض الله عن العبد لإعراض العبد عنه.

من أسرار تأخير الإجابة

وينبغي أن يعلم أن تأخير الإجابة ليس دليلاً على ردِّ المسألة، فقد تؤخَّر لأسرار إلهيَّة.

منها: أن الله يُحب أن يسمع صوت الداعي وتضرُّعه، كما أنه ليس من شرط الإجابة أن تقضى حاجة العبد نفسها، فربَّما ادَّخرها الله له في الآخرة، وربَّما صرف عنه من السُّوء مثلها. فلا ييأس العبد من رَوْح الله، وليدعُ ربَّه صادقَ النيَّة، حاضرَ القلب، طيِّبَ الكسب، موقناً بالإجابة.

وقد بسطنا القول في أدب الدعاء، في شرح حديث الصحيحين: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل»[١]، فلا حاجة بنا إلى إعادته.

إرشاداتٌ وتنبيهاتٌ

ذلك، وينطوي الحديث على لطائفَ جمَّةٍ، وإرشاداتٍ كريمة، إذا لم يتَّسع المقام لتفصيلها كلها، فلا أقلَّ من التنبيه على بعضها.

فمنها: أن التحصُّنَ من الآفات والبلايا، بالدعوات والاستعاذة، بمنزلة الوقاية منها قبل وقوعها، ومثل الأمراض الروحيَّة والاجتماعيَّة كمثل الأمراض

---

(١) انظر: تخريجه وشرحه في «أدب الدعاء» ص٣٥٧.

الجسمية، الوقاية في كلٍّ منها خير من العلاج. فإذا وقع شيءٌ من هذه الأدواء، وجد أنَّ جانبه الأدوية التي أنزلها الحكيم الخبير ضامنةً للشفاء. ومتى أصاب الدواء موضع الداء برأ بإذن الله.

وما مثل الضمان الاجتماعي الذي تتباهى به الأمم بجانب هذا الضمان الإلهي إلاَّ كمثل القشر من اللب، أو كمثل الزَّبَد من الزُّبد، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[١].

ومنها: شدَّةُ الصحابة رضي الله عنهم في تحرِّي الرواية عن رسول الله ﷺ، أخذاً من قول زيد رضي الله عنه: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول.. وحَسْبُ زيد شرفاً وتحرِّياً أنَّ الله تعالى صَدَّقه لما رفع إلى النبيِّ ﷺ قول عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[٢]. وقد أكذبه ابن أُبيٍّ وحلف، فأنزل الله تصديقه؛ وأخذ ﷺ بأذنه، وقال: «وفت أذنك يا غلام»[٣]. ولبسط القصة مقام آخر غير هذا المقام[٤].

ومنها: الإشارة إلى فَضْل الدعاء والاستعاذة، وعظيم أثرهما في تزكية النفس وتربيتها، وصلتها بربها ومالك أمرها وناصيتها، ولا سيِّما مع الدوام الذي تشير إليه صيغة: «كان..».

---

(١) سورة الأحزاب: ٤.

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٧٧٢)، ولفظه عند البخاري من حديث طويل: «...وقال: «إن الله قد صدقك». وفي لفظ آخر من حديث أنس، قالوا: هو الذي يقول رسول الله ﷺ: «هذا الذي أوفى الله له بأذنه».

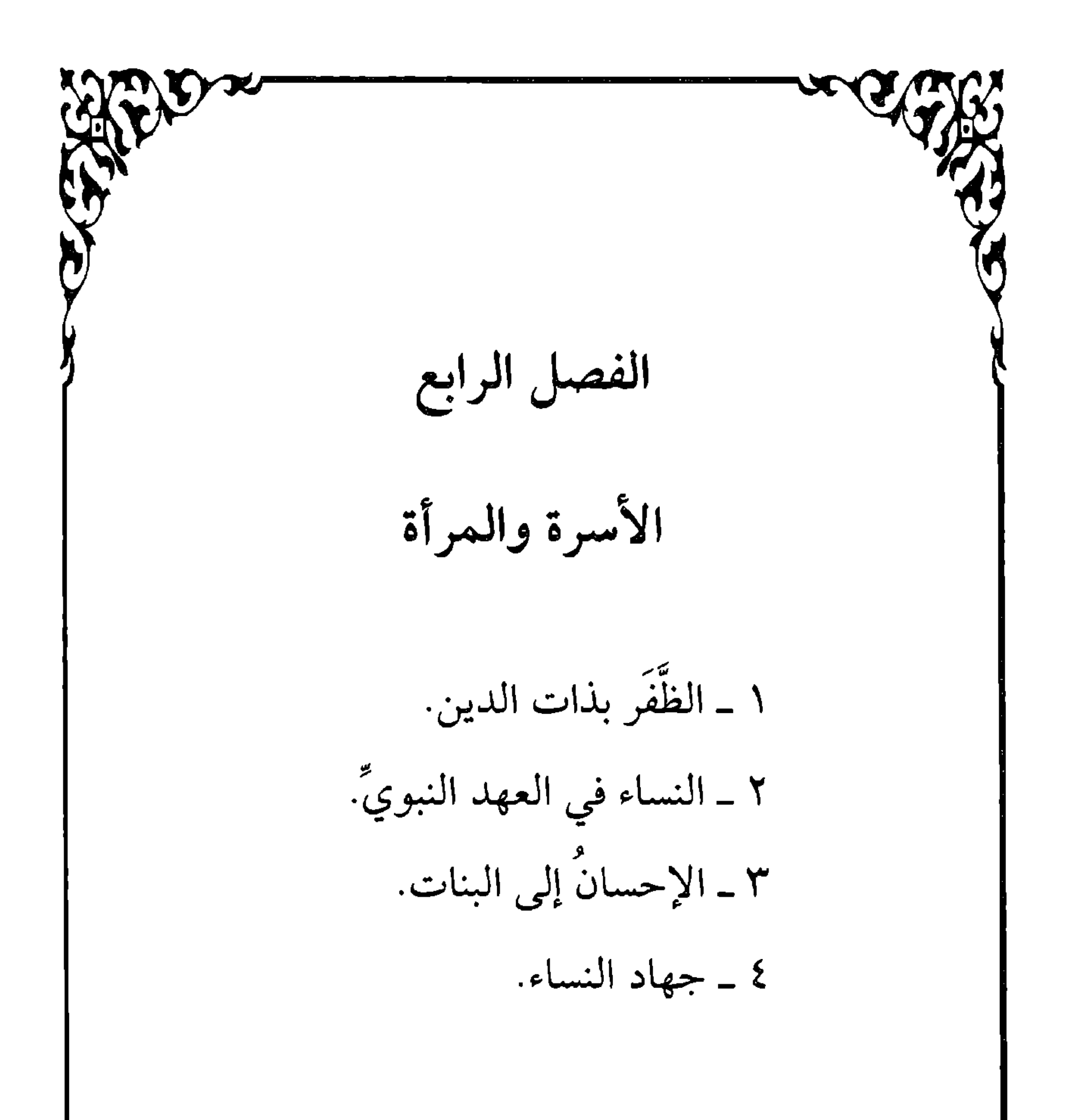
(٤) انظرها في حديث: «دعوى الجاهلية» ص٦٩٨.

فاللهمَّ هذا الدعاء، وعليك الإجابة، وهذا الجَهْد، وعليك التُّكلان. «اللهمَّ اهدنا لأحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وقنا سَيِّئَ الأعمال، وَسَيِّئَ الأخلاق، لا يقي سيِّئَها إلا أنت»[١]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[٢].

* * * * *

(١) اقتباس من حديث رواه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢١)، والنسائي ٢: ١٢٩ (٨٩٦)، وابن ماجهْ (٧٢٩)، وابن حبان (١٧٧٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً..».

(٢) سورة الكهف: ١٠.



الفصل الرابع

الأسرة والمرأة

١ ـ الظَّفَر بذات الدين.

٢ ـ النساء في العهد النبويِّ.

٣ ـ الإحسانُ إلى البنات.

٤ ـ جهاد النساء.

الظَّفَر بذات الدين*

٤٠ ـ **عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «تُنكح المرأةُ لأربع: لمالها، ولحَسَبها، ولجَمَالها، ولدينها، فاظْفَر بذاتِ الدِّين، تَرِبَتْ يَدَاك»**. رواه الشيخان[1].

المفردات:

الحَسَب: ما يعدُّه الناس من مفاخر الآباء، مأخوذٌ من الحساب؛ لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدُّوا مناقبهم ومآثرَ قومهم، ثمَّ حكموا لمن كان أكثرهم مناقبَ وأوفاهم شرفاً.

والحَسَب أيضاً: الفِعَال الحسن، كالجود، والشجاعة، وحُسن الخلق. وقد حسب حسباً، فهو حسيب.

وتربت يداه: في أصل كلامهم دعاءٌ عليه، كأنه افتقر حتى لصق بالتراب. لكنهم أكثروا استعمال هذه الكلمة، وتوسَّعوا فيها حتى أخرجوها عن حقيقتها؛ قصداً إلى الإنكار، أو التعجُّب، أو التعظيم، أو الحث كما هنا.

وللعرب كلماتٌ تجري على ألسنتهم، ولا يريدون بها معناها الأول. ومن هذا القبيل: قاتله الله؛ لا أب له، لا أم له.

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الخامس عشر، سنة (١٣٦٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)في النكاح، ومسلم (١٤٦٦) في الرضاع.

عادات الناس في الزواج

يحدِّثنا صلواتُ الله وسلامه عليه عن عادات الناس في الزواج، ويُحلِّل رغباتهم فيه، تحليلاً لا يدع لباحث قولاً؛ يبيِّن أنَّ مقاصدَ الناس في النكاح ـ على اختلاف نزعاتهم، وتعاقب أعصارهم ـ على أربعة أنحاء؛ فإما أن تُقصد المرأة لمالها ليستمتع به الزوج في حياته، ويورثه أولاده منها بعد مماته، ويخفِّف به أثقال العيش وأعباء الحياة. وإمّا أن تُراد لحسبها، يبتغي زوجها العزة بقومها والمنزلةَ بشرفها وجاهها؛ والمصاهرة لُحمةٌ كلحمة النسب. وإما أن تُرغب لجمالها، إذا كان الزوج عبدَ الهوى وأسير الشهوات.

سوء اختيار الزوجة ومغبته

تلك شؤون الكثرة الكاثرة من الناس، إذ يَقْصدون إلى النكاح. وما أسوأ العاقبة، وأنكد الحياة، إذا استحوذت المرأة على الرجل، فاستعبدته بمالها، أو اقتنصته في شَرَك حسبها وجمالها!. هنالك تكون هي القيِّمة على الزوج، والحاكمة بأمرها، والمُسْتبدَّة برأيها، ويكون الزوج هو العبدُ المطيع، والذليل المُسَخَّر لما تريد المرأة وتهوى، وهنالك الطامّة الكبرى، والبلاء الأعظم.

اختيار المرأة الصالحة وأثره

أما الكَمَلَةُ من الرجال ـ وما أقلَّهم ـ فهم الذين يرغبون في المرأة لدينها؛ فيجدون فيها السَّكَنَ لنفوسهم، والطّمأنينة لقلوبهم، والأمن على أموالهم وأعراضهم.

ذلك بأنَّ الحَسَب عندهم هو التُّقى، وأن الغنى غنى النفس، وأنَّ الجمال هو جمال الدين والخُلُق.

لكنَّ الله تعالى يهبُ لهم من ذوات الدين ما فقدوا وخيراً ممَّا فقدوا؛ من ذوات الحَسَب والنسب، وربَّات المال والجمال.

وفي الدين الخير كلُّه لمن باع الحياةَ الدنيا بالآخرة فربحهما جميعاً. وفي الدنيا الشرُّ كله لمن اشترى الفانية بالباقية، فخسرهما جميعاً؛ ومصداق ذلك ما رواه الطبراني في «الأوسط» عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من تزوَّج امرأةً لعزِّها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوَّجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوَّجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءةً، ومن تزوَّج امرأةً لم يرد بها إلا أن يغضَّ بصره، ويُحْصِنَ فرجَه، أو يَصِلَ رَحِمَه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه»[1]. وفي تجاريب الحياة مُعتَبرٌ وذكرى.

علاوة في الفضل وزيادة في الحُسنى

وغنيٌّ عن البيان أنَّه صلوات الله وسلامه عليه إنما يرغِّب عن ذوات الحسب، والنسب، والجمال، إذا عَرَيْن عن الدين، وتَجَرَّدن من فضائله. وأما إذا تحلَّت ذاتُ الدين بخصلةٍ من الخصال الثلاث، أو بهنَّ جميعاً فذلك علاوة في الفضل، وزيادة في الحُسنى، لا يأباها الدين الحنيف، بل يدعو إليها؛ ومن ثمَّ نراه ينفِّر من نكاح المرأة الوضيعة الحَسَب، أو المجهولة النَّسب إلا من أمثالها؛ لأنَّ العرقَ دسَّاس، وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح، كما نراه يرغِّب في النظر إلى المرأة حين خطبتها؛ خشيةَ أن يُخدع فيها، فيعاشَرها على مَضَضٍ، أو يفارقها على نكد.

وقد حظيت أمهات المؤمنين ـ لا سيما خديجة وعائشة، رضوان الله عليهن ـ بهذه المناقب أو أكثرها، مضافة إلى الدين والخُلق والأسوة الحسنة والتربية الرشيدة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وجملة القول: أنَّ الدين هو الأساس الأول، لمن يختارها الرجل شريكةَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣٤٢). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤ :٢٥٤ فيه عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب، وهو ضعيف.

حياته، وموضع ثقته، ومثابةَ هناءته وسعادته، فإذا حظي فيها بمنقبة فوق ذلك، فما أخلقه بشكر النعمة وتقوى الله فيها.

بم تعرف المرأة الصالحة؟

وتُعرف ذات الدين بالمَنْبت الكريم، والبيئة الصَّالحة، والبيت التَّقي المُهَذَّب، والسيرة النقيَّة الطاهرة.

ومهما أَوْغَل الناس في الفساد والغش، وَسَرَتْ عَدوى الرذيلة إلى الفضيلة، واشتبهت المسالك، فإنَّ للصلاح نوراً يُبدِّد الظلام، ويخترق الحُجُب، ويدلّ روَّاده عليه، ويهديهم السبيل إليه. فإن عَثَر ـ بعد قصد صحيحٍ ـ ذو قلب سليم، وطويَّة صالحة ـ وقلَّما يعثر ـ فسرعان ما يقوم على قدميه مطمئنة نفسُه، ذاهبة كربته ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

ويتَّصل بالأغراض السابقة ما نرى الآن، من ثقافات المرأة المختلفة، وفنون تربيتها المتكاثرة. فما كان منها في الخلق والأدب، وواجبات الزوجية والأمومة، وحقوق البيت والولد، فهو راجع إلى دينها.

وما كان منها ـ وهو الأعمُّ الأغلب ـ في فنون العيش، ومزاحمة الرجال، وضُروب الزينة، ومفاتن الحياة، فهو مردودٌ إلى المقاصد الأخرى في زواجها.

والذي نعنيه أنَّ النبيَّ ﷺ قد أبان أمهات الأغراض في النكاح، وأنَّ ما جدَّ في المدنية الزائفة، والحضارة المقيتة، فهو متشعِّب عنها ومردود إليها، وأنَّ الدين ـ ومنه التربية الرشيدة ـ لا يزال هو المقْصد الأسمى، والمَطْمح الأعلى، لمن يبتغي عِزَّةً خالصة، وحياة طيبة.

---

(١) سورة طه: ١٣٢.

اختيار الرجل الصالح

وكما ينبغي للرجل أن يبحث عن ذات الدين فيظفر بها، ينبغي كذلك للمرأة أو وليِّها أن يتخَيَّر ذا الدين والخُلق فيظفرا به. وهنالك توضع اللبِنَةُ الأولى في بناء البيت الصالح التقي، والأسرة الكريمة المهذَّبة، بل الأمة المرهوبة الجناب، الرفيعة المنزلة.

الكفاءة بين الزوجين

ومما هو جدير بالنظر، رعاية المشاركة بين الزوجين في حظوظ هذه الدنيا؛ فقد حدثنا التاريخ، وأرتنا المشاهدات، أنَّ المرأة لا تحتفل بمن كان دونها حَسَباً، أو مالاً، أو ثقافة؛ فَتَضْطرب الحياة الزوجية حينئذ، وتسوء مغبتها، وأما إذا كان الزوجُ أكثرَ مالاً وأعزّ نفراً، فهو الرجل عندها كلّ الرجل.

ولما كان للحَسَب من بين الحظوظ مكانته الأولى، قدَّرته الشريعة الغرّاء قَدْره، وحلَّت عقدة النكاح، إذا خُدِعت المرأة بزوجٍ لم يكن لها كُفئاً.

تنشئة البنت على الدين والخُلُق

وكما في تعبيره ﷺ بالظَّفر ـ الذي هو البُغْيَةُ ومُنْتَهى الأمل ـ إثارة للرغبة الصَّادقة في المرأة الصالحة، فيه كذلك إشارةٌ واضحة إلى أولياء البنت والقوَّامين عليها، أن يُنَشِّئوها على الدين والفضيلة، وحقوق الزوج والمنزل. فلْيعلموا أنها تربةُ الولد ومنبتُه، وعمادُ هذا الوجود وبهجته، وأنها خُلقت سريعة التأثر بما تنشأ عليه من خيرٍ وشرّ، قويّة التأثير بما طُبعت عليه أو تأثَّرت به.

فهي ـ ولا مراء ـ أشدُّ من الرجل إثارةً، وأبلغ في النفوس تأثيراً؛ لأنَّ عقلها من وراء قلبها، وأما الرجل، فإن قلبه من وراء عقله. وشتَّان ما بين النهجَيْن.

وكم رأينا من زوجٍ صالحةٍ أنقذت زوجها من بُؤْرة الفساد، وهدته السبيلَ السويَّ، وأخرى فاسدةٍ عكست عليه أمرَه وَفَتَنَتْه في دينه، وكانت نَكَداً له ووبالاً عليه.

وقلَّما نرى رجلاً صالحاً قوَّم زوجه المِعْوَجَّة وغيَّر من طباعها؛ ومن هنا كانت العناية باختيار المرأة الصالحة أشدَّ من العناية باختيار الرجل الصالح.

مصابنا في بيوتنا وأولادنا

أما بعد، فإذا راعك هَوْل مصابنا في بيوتنا وأولادنا، بل في أموالنا وأخلاقنا، فاعلم أنَّ أساس ذلك كله هو المرأة؛ ذلك بأنها عندنا واحدةٌ من اثنتين؛ جاهلةٌ خَرقاء، مظلمةُ القلب والبصيرة، صرفها جهلُها عن الخير، وأرداها خَرَقُها في الشَّر؛ ومتعلِّمة ثرْثَارة، أَسفَّتْ في اللهو والتَّرف، وتَسكَّعت في المجامع والأندية، وثارت على الأهل والولد، فكانت شراً من أختها وأضلَّ سبيلا!.

مصابنا في إحجام الشباب عن الزواج

وإلى رسوخ الجهل، وسوء التربية، وإن شئت فقل: إلى عُري المرأة من الدين والفضيلة، يُردُّ مصابُنا في إضْراب فريق من الشباب عن الزواج، وإيثار فريقٍ آخر غير المسلمة على المسلمة، حتى عرضت الفتاة في الطرقات والأسواق، كما تعرض السِّلع للتجارة؛ ظناً من أهلها وذويها أنّ ذلك يُرَغِّب الشبَّان فيها! مع أنَّ هذا لا يزيدها عندهم إلا حقارةً وازدراءً، ولا يزدادون به إلا نفوراً وإباءً! ومن وراء الإحجام عن الزواج انحلال الأمة، وتقويض بنائها، وضياع أخلاقها.

وإنَّما الأمــم الأخـلاق مـا بقيَـتْ … فإنْ همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كلمة إلى ولاة الأمور

فإذا كانت المرأة ـ كما يقول علماء الاجتماع بحقٍّ ـ أساسَ نهضة الأمم

وفخارَها، ومبعثَ قوَّتها وآمالها، وعنوان عزها وسعادتها، إذا صَلَحَت صلح المجتمع كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ المجتمع كلّه؛ إذا كانت كذلك فلينظر ولاة الأمور والقوَّامون على التربية: أين يضعونها؟ ولْيعلموا أنَّ الله سائلهم عن شرعتها ومنهاجها، ولْيُوَطِّنوا أنفسهم على أن يجعلوا الدينَ عمادَها والفضيلةَ ملاكَها، وإلا جَنَوْا عليها، وفقدوا خُلُقها؛ وإذاً لا يجدون العلم إلا مدرجة للشر وسبيلاً إلى الفساد ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾[1].

* * * * *

(١) سورة الأعراف: ٥٨.

النِّساء في العَهْد النبويِّ *

٤١ ـ عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبيِّ ﷺ: غَلَبنا عَلَيْكَ الرِّجالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يوماً من نفسك؛ فَوعَدَهُنَّ يوماً لَقِيَهُنَّ فيه، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ؛ فكان فيما قال لَهُنَّ: «ما مِنكُنَّ امرأةٌ تُقدِّم ثلاثةً من ولَدِها إلا كان لها حِجَاباً من النار». فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: «واثنين». رواه الشيخان[1].

المفردات:

قالت النساء: في رواية مسلم: أنهنَّ كُنَّ من نساء الأنصار، والقائلة إحداهنَّ، ولعلَّها كانت أكبرهُنَّ سناً أو شأناً، ولرضاهُنَّ كلهنَّ نسب إليهنَّ.

غَلَبنا عليك الرجال: زاحمونا عليك، فلم يكادوا يتركون لنا وقتاً معك، تُعلِّمنا فيه مَّما علَّمك الله[2].

ولدها: الولد يشملُ الذكر والأنثى، والصغير والكبير، والمفرد والجمع.

إلاَّ كان: أي هذا التقديم المفهوم من «تقدِّم» وفي رواية: «إلاَّ كانوا» أي: هؤلاء الثلاثة، وفي رواية ثالثة: «إلا كُنَّ» أي: هؤلاء الأنفس أو النَّسَمات.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الثامن عشر (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (١٠١) و(١٠٢) في كتاب العلم، ومسلم (٢٦٣٣) في كتاب البرِّ والصِّلة.

(٢) نستعين في شرح الحديث إجمالاً وتفصيلاً برواياته المختلفة، قَصْداً إلى الجمع والإفادة، وخير ما فَسَّر الواردَ الواردُ (طه).

فقالت امرأة: هي أمُّ سُليم الأنصارية، والدةُ أنس خادم رسول الله ﷺ، وقيل: أم مُبشِّر، وقيل: أم أيمن، ولا مانع أن تكون كلٌّ سألت، فيُروى القول عن كلٍّ.

* * * * *

تاريخ النساء في صدر الإسلام

هذه صحيفةٌ من الصُّحف الخَوَالد، من تاريخ النساء في صدر الإسلام، أحببنا أن نعرضَها على نسائنا في هذا العصر، عسى أن يَجِدْن فيها عِظةً بليغةً ينتفعنَ بها، أو حِكمةً رشيدة يَسْتَضِئْن بنورها، وإنهنَّ لواجدات إن شاء الله، متى أصْغَيْنَ القلب، وألقَيْن السمع، وقام أولياؤهن بما فرض الله من تعليمهنَّ وإرشادهنَّ.

ولم تكن حياة النساء في العصر الأول كحياتهنَّ في هذا العصر، مُضْطربةً حائرة، أو متبذِّلة ساخرة؛ بل كانت إلى الفطرة أقرب، وإلى الطُّهر أدنى.

حِرْصُهُنَّ على التفقُّه في الدين

ولم يكن يمنعهنَّ الحياء الذي يَتَحَلَّيْنَ به ـ والحياءُ من الإيمان ـ أن يتفقَّهن في الدين، ويسألن رسول الله ﷺ وأصحابه عمَّا جهلن منه؛ ولم تكن رعايتهنَّ البالغة بحقوق الزوج والبيت والولد، لِتحول بينهنَّ وبين المنافسة في الهدى والخير، إلى المثوبة والبر، ابتغاء رضوان الله ورسوله.

قُلنَ يوماً لرسول الله ﷺ: يارسول الله، غلبَنا عليك الرجال، فاستأثروا بك، وذهبوا بحديثك، فاختَر لنا يوماً من تلقاء نفسك نأتيك فيه، فتعظنا بمواعظ الله، وتعلِّمنا ممَّا علَّمك الله، فقال: «موعدكنَّ بيت فلانة يوم كذا

وكذا»، فاجتمعن فيه.

أدبٌ في الخطاب، وكَرَمٌ في الجواب، وحِرْصٌ على الوفاء، رغبةً في العلم والتعليم، ورجاوة للفقه في الدين. وهذا بعض ما كان منه ومنهنَّ، صلوات الله عليه، ورضوان الله عنهن.

اجتمعن في الموعد المضروب، حتى جاء رسول الله ﷺ فحدَّثَهُنَّ وعَلَّمَهُنَّ، وتخيَّر من الحديث ما هُنَّ أحوج إليه، وما هو أمسُّ بهنَّ، وأزكى لهنَّ. وكذلك الداعي إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يحدِّث كلَّ أحد بما هو أصلح وأجدر به.

واقتصر أبو سعيد رضي الله عنه على تلك البِشارة العظيمة التي سنذكرها بعدُ، ولم يبيِّن لنا ماذا أمرهُنَّ به في هذا اليوم؟ إما لعنايته بهذه البشارة وجليل شأنها عند الناس ولا سيما النساء، وإما لأنه لم يبلِّغ ما وجَّه إليهنَّ النبيُّ ﷺ من أمر.

أمره ﷺ النِّساءَ بالصَّدَقة

ومن يتتبَّع عظاته للنساء صلوات الله عليه يطمئن إلى أنه أمرهنَّ، فيما أمرهنَّ، بالصَّدقة، جَبْراً لنقصهنَّ، وتطهيراً لقلوبهنَّ، وتكفيراً لسيئاتهن.

على أنَّ أبا سعيد نفسه هو الذي روى عنه الشيخان أنَّ النبيَّ ﷺ خرج في أضحى أو فطر إلى المُصَلَّى فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء تَصَدَّقْنَ، فإنِّي أُريتُكُنَّ أكثَرَ أهل النار»، فقلن: وَبِمَ يا رسولَ الله؟ قال: «تُكثرن اللعنَ وتكفُرن العشير[1]؛ ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكنَّ!»، قلن: وما نقصانُ ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة

---

(١) المعاشر والمخالط ولا سيما الزوج.

مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى؛ قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تصم؟» قلن: بلى؛ قال: «فذلك من نقصان دينها»[١].

وفي رواية لمسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: «تصدَّقْنَ فإنَّ أكثركنَّ حَطَبُ جهنم»؛ [فقامت امرأةٌ مِنْ سطة النساء، سفعاءُ الخدَّين. فقالت: لِمَ يارسول الله]؟ قال: «لأنكنَّ تُكْثِرنَ الشَّكاة، وتكفرن العشير»[٢]، قال: فَجَعَلنَ يَتَصَدَّقْنَ من حُلِيِّهنَّ، يُلقينَ في ثوب بلال من أقراطِهنَّ[٣] وخَوَاتمهنَّ.

ولا يعيبُ المرأةَ أن يكون النقص في أصل تكوينها وخُلُقها؛ لأنها لا يدَ لها فيه، وإنما هو لحكمةٍ عالية أرادها العليمُ الحكيمُ، ليكتب على الرجل ولايتها ورعايتها، وبَذْل الجهد في إكرامِها والإحسان إليها؛ ومن أجل ذلك لم يُحمِّلها ما لا طاقة لها به، بل نهاها أن تتعاطى ما لا تُحسنه من كلٍّ ما لا يتَّفق مع جبِلَّتها وتكوينها. وقلَّما وَلِيَتْ أمراً ليس من شأنها إلا باءت هي وأنصارها بخسران مقيم، وخزيٍ أليم. على أنها إذا تأمَّلت في هذا النقص وجدته من نِعَمِ الله عليها، ورحمته؛ بها إذ رفعَ عنها إصْراً لا تقوم به، وَوِزْراً لا تحملُه، وقد يُعوِّضُها الله بصالح الأعمال ما تسبق به كثيراً من الرجال.

بشارةٌ نبويَّة

بقي الكلام على البشارة التي بَشَرهُنَّ بها النبيُّ ﷺ، وهي: أنَّ من أُصيبت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤) في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، ومسلم (٨٠) في كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم (٨٨٥) في كتاب صلاة العيدين. وما بين المعكوفين سقط مِنَ الأصل.

(٣) القرط: ما يُعلَّق في شحمة الأذن، ذهباً كان أو غيره، وجمعه قراط كرماح والأقرطة جمع الجمع (طه).

في ثلاثةٍ من أولادها فَصَبرت عند الصَّدمة الأولى، واحتسبتْ راضيةً بقضاء الله وقَدَره، فقد ضَمِنَ الله لها الجنة، ووَقَاها عذاب النار.

واشترط بعضُ العلماء أن يكونوا صغاراً لم يبلغوا الحلم، أخذاً ممَّا رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من الناس من مسلمٍ يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحِنْثَ[1] إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إيَّاهُم»[2]؛ لأن الرحمة بالصغير أعظم، والمحبة له أكثر، ولكن لا يخفى أنَّ المصيبة في الكبير أقطع، والفجيعة فيه أفظع، والآمال به أعلق، فإن لم يَفُق الصغيرَ في المثوبة، فلا أقلَّ من أن يُساويَه.

طمعت النساء في فَضْل الله، فسألنَ الرسول ﷺ، وما أكثر تسآلهنَّ في مثل هذا المقام: أيكون هذا الفضل لمن أُصيب في اثنين؟ فأجابهنَّ صلوات الله عليه بأنه ثابت كذلك لمن فُجِعَت في اثنين.

بل أخرج الطبراني في «الأوسط» من حديث جابر بن سَمُرة مرفوعاً: «من دفن ثلاثة، فصبر عليهم، واحتَسَبَهُم وَجَبَتْ له الجنَّة»، فقالت أمُّ أيمن: أَو اثنين؟ فقال: «واثنين»، فقالت: وواحداً؟ فسكت، ثم قال: «وواحداً»[3].

ولا عَجَبَ في هذا عند من يَعْلم أن لا حَرَجَ على فَضْل الله عزَّ وجل، وكيف؟! وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صفيَّه من أهل الدنيا

---

(١) الذنب، والمراد: لم يكلَّفوا، فيكتب عليهم الحنث.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٨) في كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٢٤٨٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣ :١٠: رواه الطبراني في «الأوسط»، و«الكبير»، وفيه ناصح بن عبد الله، أو عبد الله، وهو متروك.

ثم احتَسَبَه، إلاَّ الجنة»[١].

ففي هذا بشارة شاملة لكلٍّ من أُصيب في عزيز لديه، من ابن بارٍّ أو أبٍ رحيم، أو أخٍ كريم، فقابل المُصَابَ بالصَّبر والتَّسليم، والرِّضا بقضاء العليم الحكيم.

ودلَّت الأحاديث المتواترة على أنَّ الرجل والمرأة في هذه البشارة سواء، وإنما قال ﷺ: «ما منكنَّ امرأة..» إلخ؛ لأن العِظة كانت خاصَّة بالنساء.

مكانة المرأة في الإسلام

هذه صحيفةٌ تُصوِّر لنا ـ على الرُّغم من إيجازها ـ مكانةَ المرأة في الإسلام، وحَدَبه عليها، وعنايته بتعليمها وإرشادها، وحمايته لها من وخامة الابتذال والاختلاط، وما يَجُرَّان عليها من وبال وبلاء.

ثم تبيِّن لنا كيف استجابت المرأة في الصَّدر الأول لدعوة الإسلام، وتأدَّبت بأدبه؟ فلم تعدُ طَوْرَها، ولم تجاوز حدَّها، ولم تفكِّر يوماً أن تزاحم الرجل فيما كتب الله عليه من حقوق وأعباء، وإن عملت على أن تكون معه في الخير العام على سواء.

ولا نريد هنا أن نُبيِّن منَّة الإسلام على المرأة فيما فرض لها من حقوق وواجبات، وفيما أنقذها من طغيان الرجل في العصور المظلمة، وقد كان يَسومُها سوء العذاب والآلام، ويعاملها معاملة السِّلَع والأنعام، فقد كُتبتْ في هذا مؤلفاتٌ ومقالات تربو على الإحصاء، وأضحى الكلام فيه من الحديث المعاد.

وإنما الذي نريد ونرجو من المرأة في عصرنا الحاضر أن تقرأ ـ ولو على سبيل التسلية ـ تاريخَها في الإسلام، وعنايته بها؛ فعسى ـ إن فعلت ـ أن تذكرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٤) في كتاب الرقاق، باب العمل يُبْتَغَى به وجهُ اللهِ.

نعمة الله عليها، فتخفِّف من غَلْوائها، وتقصد في غيِّها، وتتبيَّن أنها كانت مخدوعةً بمفاتن المدنيَّة الحديثة وآثامها وشرورها!.

وحينذاك تضعُ أكوام اللَّبِنات وأقواها في بناء أمَّتها وعزِّها، وسعادتها وارتقائها.

* * * * *

الإحسان إلى البنات*

٤٢ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلت عليَّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها تَسْألُ، فلم تجَدْ عندي شيئاً غَيْرَ تمرةٍ واحدةٍ، فأعطيتُها إيَّاها، فَقَسَمَتْها بين ابنَتَيْها ولم تأكُلْ منها، ثم قامت فَخَرَجت، فدخل النبيُّ ﷺ علينا فأخبرتُه، فقال: «من ابتُلِيَ مِنْ هذه البنات بشيءٍ، فأحسن إليهنَّ، كُنَّ له سِتْراً من النار». رواه الشيخان[1].

٤٣ ـ وعنها رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتُها ثلاثَ تمرات، فأعطت كلَّ واحدة منهما تمرةً، ورفعتْ إلى فيها تمرة لتأكلَها، فاستَطْعَمَتْها ابنتاها، فشقَّت التمرةَ التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صَنَعَتْ لرسول الله ﷺ، فقال: «إنَّ الله قد أوْجَبَ لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار». رواه مسلم[2].

عناية الإسلام بالبنات

هذان حديثان صحيحان، اتَّفق الشيخان على رواية أوَّلهما، وانفرد مسلمٌ عن البخاريِّ برواية آخرهما. ويبدو لِمن تأمّل أنَّهما قصتان مختلفتان وإنْ تقاربتا لفظاً ومعنى. وأجاز صاحبُ «الفتح» اتِّحادَهما، على أن يكونَ مُراد الصِّدِّيقة

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الثامن عشر، (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (١٤١٨) في كتاب الزكاة، ومسلم (٢٦٢٩) في كتاب البر والصلة، والترمذي (١٩١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٠) في كتاب البرِّ والصِّلة.

بقولها: «فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة»، أنَّها لم تجد سوى تمرةٍ في أوَّل الأمر، فأعطتها إيَّاها، ثمَّ عثرت على اثنتين بعدها فأعطتهما إياها كذلك، فيصرن ثالثاً. وفي هذا من التكلُّف مالا يعنينا.

وإنَّما الذي يعنينا من هذه القصَّة أو القصتين ـ عدا ما نشير إليه بعد ـ عنايةُ الإسلام بالبنت، وترغيبه في إكرامها والإحسان إليها، وإعدادها لأَنْ تكون أمًّا صالحة، تبني أُسَراً كريمة، وتُنشئ أجيالاً سعيدة، من بعد أن أنقذها من حُفر الوأد[1]، وانتشلها من بؤر الذِّلَّة والمَهَانة!.

كراهية العرب في الجاهلية للبنات

لقد جُبل الناس قديماً وحديثاً على كراهية البنت، حتى قالوا: «**دفنُ البنت من المُكْرُمات**»[2]. وقال عبد الله بن طاهر:

---

(١) وأد بنته يئدها: دفنها حية، وهي وئيدة وموؤودة. (قاموس).

(٢) زعم بعض الرواة أنه حديث، فإنْ وَرَدَ فله وجهٌ صحيح ولا سيما إن كانت البنت سيئة التربية في زمن كله فتن وفساد، غير أنه الأشبه به أنه موضوع كما قال بعض أئمة النقد. انظر «كشف الخفا» [١ :٤٠٧](طه).

والحديث رواه الطبراني في الكبير ١١ :٣٦٦(١٢٠٣٥)، و «الأوسط» (٢٢٨٤)، والبزار (٧٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٥: ٦٧ (٦٧٣ زوائد)، وأبو نعيم في «الحلية» ٥ :٢٠٩، وابن عدي في «الكامل» ٦ :٢٢٠٠، كلُّهم من حديث ابن عمر، والحديث موضوع أورده ابن الجوزي الموضوعات ٣ :٢٣٦، وحكم بوضعه الصَّغاني في «الدرِّ الملتقط»، والسيوطي في «اللآلئ المصنوعة» ٢ :٤٣٨، والشوكاني في «الفوائد المجموعة»ص٢٦٦.

كما روي الحديث من حديث ابن عمر، أخرجه ابن عديٍّ في «الكامل» ٢ :٦٩٣، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٧ :٢٩١(١٠٦٩زوائد) ، وأبو نُعيم في «الحلية» ٧ :٢٤٥ وحكم بوضعه ابن الجوزي، وأقرَّهُ السيوطي، وقال الدكتور الشيخ خلدون الأحدب في كتابه النافع «زوائد تاريخ بغداد» ٤ :٣٠٢ «إذا كان الحكم على الحديث بالوضع من جهة الإسناد بعيد، فإنه غير =

لكلٍّ أبي بنتٍ يُراعي شؤونها ثلاثةُ أصهارٍ إذا حمد الصِّهر
فبعلٌ يراعيها، وخدرٌ يكنُّها وقبرٌ يواريها؛ وخيرُهُم القبر

وبلغ من كراهية العرب للبنت في الجاهلية، أنَّ فريقاً منهم كانوا يئدونها وهي طفل، وكان أحدُهم إذا دَنا وضع امرأته استخفى عن الأعين حتى ينظروا ما تلد له؛ فإن كان ذكراً ابتهج واستبشر، وإن كانت أُنثى اغتمَّ وتكدَّر، وظلَّ مُسْتخفياً حائراً حتى يقضيَ في أمر ابنته؛ فإنْ بدا له أن يستحيِيَها تركها حتى إذا كبُرت ألبسها جُبَّة من صوفٍ أو شعرٍ، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلَها تمهَّل حتى صارت سداسيّة قال لأمها: زيِّنيها وطيِّبيها حتى أذهبَ بها إلى أحمائها، ويكون قد حفرَ لها حفرةً في الصَّحراء، فإذا بلغ تلك الحفرة التي أعدَّ لها، قال لها: انظري إلى هذه البئر، فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها، ثم هال التراب عليها، ويزعم أنه هدمَ ركناً من أركان المعرَّة أو الفقر.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[(١)] ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[(٢)].

من آثار الجاهلية الأولى

ومن آثار هذه الجاهلية الأولى: ما نشاهد من غضب الرجل على امرأته إذا ولدت بنتاً، وربَّما ذَهَبَ به الجهلُ بالله والسُّخطُ على قضائه أن يطلِّقَ أمّها، كأنها

بعيد من جهة نَكَارة المتن، ومن ثمَّ جزم مَنْ جزم من النقَّاد ببطلانه، وهو الصَّواب».

(١) ممتلئ غمّاً وحزناً. وسواد وجهه كناية عن تغييره لما أصابه (طه).

(٢) سورة النحل:٥٨ـ٥٩.

التي صورَّتها وأنشأَتْها بشراً سويّاً؛ ولِمَ لا يخلق لنفسه إذاً وهو أقدر من المرأة وأقوى؟! وهل وُجد هذا الجاهل على ظهرِ الأرض، وأُشِمَّ نسيم الحياة لولا المرأة؟! ومَنْ ذا الذي يدري أيُّ الأولاد خير وبركة؟! فَلَرُبَّ جارية خيرٌ لأهلها من غلام، كما نشاهد ذلك كثيراً؛ وصدق الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

حاربَ الإسلامُ هذه العادة البغيضة المُنْكَرة حتى قضى، أو كاد يقضي عليها؛ ولم يكتفِ بتهجينها وتقبيحها والقضاء عليها، حتى دعا إلى إكرام البنت، وبالغَ في طلب الإحسان إليها.

أفضل سُبُل التربية

ولقد أجمع المُربُّون على أنَّ أهدى سُبُل التربية، وأقومَ مناهج الحكمة، ألاّ يقنعَ المربِّي باقتلاع رذيلةٍ حتى يغرسَ مكانها فضيلة، وألاّ يرضى بهدم منكر حتى يبنيَ على أنقاضه معروفاً. وذلك شأن سيِّد المربِّين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في محوه آثار الرذائل، وإقامة معالم الفضائل، ودعوته إلى الحق، وهدايته إلى الرُّشْد، منذ بعثه الله ليتمِّم مكارم الأخلاق.

درجات الإحسان

هذا، والإحسان إلى البنت درجاتٌ، أدناها أن ينفقَ عليها وليُّها، ويؤدِّي إليها حقَّها، ويبرئ نفسه من التأثيم في شأنها[2]؛ وبَدَهيٌّ أنّ هذا كله ليس مراد النبيِّ ﷺ من الإحسان إليها في هذا الحديث؛ لأنه من الأمور العامّة التي لا تستوجب هذا الوعد الكريم، ويكاد الأولياء يتّفقون فيها، إن لم يكن لدافع من

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) أثمه تأثيماً: قال له: أثمت.

الحنان والرحمة، فللتبرؤ من تهمة التفريط في التربية!.

وإنَّما مراده ﷺ أمرٌ فوق هذا، من الإيثار والمعروف وحُسن الصنيع؛ ولذا أشار إلى إحسان امرأة بما آثرت ابْنَتيْها وقدَّمتهما على نفسها.

على أنَّ هناك آثاراً وروايات ـ وإنْ لم تبلغ مَبْلغ هذين الحديثين منزلة ـ تُفسِّر لنا المرادَ من الإحسان وتُوضِّحه.

ففي حديث ابن عباس عند الطبراني أنَّ هذه البشارة ـ وهي الحجاب من النار ـ لِمَنْ وَلِيَ من هذه البنات شيئاً: «فأنفق عليهنَّ، وزوَّجَهُنَّ، وأحسن أدبهُنَّ»[١].

وفي حديث أبي سعيد في «الأدب المفرد»: «فأحسن صُحبتهنّ، واتّقى الله فيهنّ»[٢].

وفي حديث ابن مسعود عند الطبراني أيضاً: «مَنْ كانت له ابنةٌ[٣] فأدَّبها

(١)أخرجه أبو يعلى ٤ :٣٤٢ (٢٤٥٧)، والطبراني في الكبير (١١٥٤٢) من حديث ابن عباس، ولفظه: «من عال ثلاث بنات، فأنفق عليهنَّ، وأحسن إليهنَّ، وَجَبَت له الجنة»، وروى ابن ماجَهْ (٣٦٧٠) بإسناد صحيح، وابن حبان (٢٩٣٤) في صحيحه، والحاكم ٤ :١٧٨ وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن مسلمٍ له ابنتان فيُحسن إليهما ما صَحِبتاه، أو صحبهما، إلا أدخلتاه الجنة».

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٩)، والترمذي (١٩١٦) باللفظ المتقدِّم. وأخرجه أبو داود (٥١٤٧) إلا أنه قال: «فأدَّبَهُنَّ، وأحسَنَ إليهنَّ، وزوَّجهُنَّ، فلَهُ الجنة».

(٣) هذا صريح في أنَّ فضْل الإحسان وجزاءه يقع لمنْ وَلِيَ شيئاً من البنات ولو واحدة فقط، وتؤيِّده روايات أخرى (طه).

منها: حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «من كُنَّ له ثلاثُ بناتٍ، فَصَبَر على لأوائهنَّ وضرَّائهنَّ وسرَّائهنَّ، أدخله الله الجنة برحمته إيَّاهنَّ»، فقال رجلٌ: واثنتان يا رسول الله؟ قال: «واثنتان»، قال رجل: يا رسول الله: وواحدةٌ؟ قال: «وَوَاحِدَةٌ» رواه الحاكم ٤ :١٧٦ وقال

=

وأحسنَ أدبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، وأوْسَعَ عليها من نعمة الله التي أوْسَع عليه»[١]. فهذه الآثار ـ وما إليها ـ دليلٌ على أنَّ الإحسان الذي يُريده النبيُّ ﷺ لا يتمُّ إلا بتعليم البنت وتأديبها والحَدَبَ عليها. ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا نَهَجَ بها وليُّها منهجاً قويماً، لُحْمتُه هذا الدين المتين، وسَداه خُلق الإسلام الكريم. فأيّما منهج سار على غير هدى من الدين الحنيف، فليس من الإحسان إلى البنت في قليلٍ ولا كثير، بل إنه إساءة إليها، من ورائها حساب عسير.

طرائف ولطائف

وبعد، ففي الحديث جملةٌ من الطرائف يجمل بنا أن نشير إليها، لِما تحويه من معانٍ سامية، وأدبٍ رفيع.

فمنها: تصدُّق أمِّ المؤمنين رضي الله عنها بالقليل التافه حيث لم تجدْ غيره، حرصاً منها على الخير، ومبالغة في امتثال وصيّته ﷺ لها، إذ قال: «لا يرجعُ من عندك سائلٌ ولو بشقِّ تمرة» رواه البزار من حديث أبي هريرة[٢]. وفي ذلك عبرةٌ لمن يمتنعُ عن الصَّدقة لقلَّة ذاتِ يده، فإنَّ العدم أقلُّ من القليل، ورُبَّ حَفْنةٍ من البرِّ والشَّعير أزكى وأطهر عند الله من آلاف الدراهم والدنانير.

صحيح الإسناد.

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٤٧) بسند واهٍ، كما قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٤٤٣.

(٢) رواه البزار كما في «كشف الأستار» ١: ٤٤٤(٩٣٨) ولفظه: «يا عائشة اشتري نفسك من الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، ولو بشقِّ تمرة، يا عائشة لا يرجعنَّ من عندك سائل، ولو بِظلْف محرق» والظِّلف للبقر والغنم كالحافر للفرس والبغل، والخفُّ للبعير كما في «النهاية» ٣: ١٥٩.

وروى أحمد في مسنده ٦: ٧٩(٢٤٥٠١) بإسناد حسن عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة اسْتَتِري من النَّار، ولو بشقِّ تمرةٍ، فإنَّها تسُدُّ من الجائع مَسَدَّها من الشَّبعان».

وفي خلوِّ بيت النبيِّ ﷺ ـ أحياناً ـ من متاع الدنيا على سَعَةِ ما أفاء الله عليه، درسٌ وعظة للأغنياء الكانزين، وعزاءٌ وسلوى للفقراء البائسين.

ومنها: أنه لا حَرَجَ على أحد أن يذكرَ برّه ومعروفه ـ قلَّ أو كَثُر ـ ما سلمَ قصدُه من الأمراض النفسيَّة، كالمنِّ والفخر والرياء وما إليها، كما هو الظنُّ بالصِّدِّيقة أمِّ المؤمنين.

فأمَّا اختصاص البنات بهذه البشارة فلِمَا فيهنَّ من الضعف وانخفاض الجَناحِ وشدَّة الحاجة إلى الرعاية والتهذيب؛ أما البنون فلديهم، في أغلب الأحوال، من قوَّة البدن وجزالة الرأي، واحتمال الشدائد ما يغنيهم عن المبالغة في الرفق والإحسان. ولعلَّ هذا هو السرُّ في التعبير بالابتلاء[1] مع ما جرَت به العادة من استياء الناس بولادة البنات!.

وإذا كان في حديثه ﷺ هذا عظة لمن ابتُليَ بالبنات، ففي ذُرِّيَّته الطاهرة أكبرُ العِبر والعظات.

لقد احْتَسَبَ بنيه كلّهم أطفالاً صغاراً، ولم يُجاوزوا طَوْر الطفولة إلا بناته الفُضْلَيات، فأدَّبَهُنَّ وعلَّمَهُنَّ وأحْسَنَ إليهنَّ ثم اختار لهنَّ خيرة الأزواج، ولم يعشْ منهنَّ بعده إلاَّ الزهراء. وقد كانت أسرع أهل بيته لحَاقاً به، صلوات الله وسلامه عليه وعلى من اهتدى بهديه في مناهج التربية والآداب.

* * * * *

---

(١) في قوله: «من ابتلي..» إلخ، وفي بعض الروايات: «من بُلي..» بالباء. وهي ظاهرة (طه).

جهاد النساء *

٤٤ ـ عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: يا رسول الله، نَرَى الجهادَ أَفْضَلَ العملِ، أفلا نُجَاهِدُ؟ قال: «لا، لَكُنَّ أفضلُ الجهاد، حجٌّ مبرور» رواه البخاري[1].

٤٥ ـ وعنها: رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ: سأله نساؤه عن الجهاد؟ فقال: «نِعْمَ الجهادُ الحَجُّ» رواه البخاري[2].

النساء في العهد النبوي

لم تكن حياة النساء في العهد النبوي كحياتهنَّ فيما بعد!! بل كانت إلى الفطرة النقيَّة أدنى، وإلى العفّة الأبيَّة أقرب.

كانت المرأة في هذا العهد، تستجيب مُسارعةً إلى دعوة الإسلام متأدِّبةً بآدابه، لا تعدو طَوْرَهَا، ولا تجاوز حَدَّها، ولا تحيد عمَّا أعدَّها الله له، ولا تزاحم الرجل فيما خَصَّه الله به، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له.

كانت ذاتَ حياءٍ، ولكن لم يمنعها حياؤها أن تسأل عن دينها كي تتفقَّه فيه، وكانت ذات إباءٍ، ومن أجل ذلك رغبت رغبةً صادقة في أن تُشارك الرجل في كلِّ ما تستطيع المشاركة فيه، بل تنافسه في العلم والفضل، والمثوبة

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، السنة الثامنة والعشرون، (١٣٧٦= ١٩٥٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج (١٥٢٠)، وفي كتاب جزاء الصَّيد (١٨٦١)، وفي كتاب الجهاد (٢٧٨٤) (٢٨٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (٢٨٧٦).

والأجر، وفي كلِّ خيرٍ عام، ما وَجَدَت إلى ذلك الخير سبيلاً.

قالت للرسول الأكرم ﷺ: غَلَبنا عليك الرجال، فاجْعَل لنا يوماً من نفسك، فَوَعَدَهُنَّ يوماً لقيهُنَّ فيه، فَوَعَظَهُنَّ وأمرهُنَّ[١].

وقالت له[٢] صلوات الله وسلامه عليه: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣]

جماع الخير

تلك عشرة أوصاف كاملة، هي جِمَاع الخير والبرِّ، وأساسُ السعادة في الأولى والآخرة يستوي في عظيم جزائها الرجل والمرأة. وربما فاقت المرأة

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١)، (٧٣١٠)، ومسلم (٢٦٣٣)، وانظر حديث: النساء في العهد النبويّ ص٤٠٠.

(٢) القائلة أمُّ عمارة الأنصارية، أو أمُّ سلمة رضي الله عنهما. روى الترمذي (٣٢١١) عن أم عمارة أنها أتت النبيَّ ﷺ فقال: ما أرى كلَّ شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء. فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ..﴾ وهناك سبب آخر للنزول فقد أخرج أحمد ٦ :٣٠٥ (٢٦٦٠٣)، والنسائي في «السنن الكبرى(١١٤٠٥) عن أمِّ سلمة قال: قلت: يا رسول الله، مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟قال: فلم يَرُعْني منه يومئذ إلا ونداؤه على المنبر: «ياأيها الناس» قالت: وأنا أُسرِّح رأسي، فَلَفَفْت شعري، ثم دنوت من الباب، فجعلت سمعي عند الجريد، فسمعته يقول: إنَّ الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٥.

الرجل في بعض هذه الصفات، فكانت أعظم شأناً عند الله وأرفع مكاناً. وما يمنعها وأبواب الخير لا تُحصى، والله ذو فضل عظيم؟!.

استئذان رسول الله ﷺ بالجهاد

ولم تقنع المرأة في العهد النبويِّ بهذا الفَضْل المشترك، إلى جانب فضل آخر خاص بها: من الرعاية لزوجها، والعناية بأمر بيتها، والقيام على أولادها، بل همَّت أن تزاحم الرجل في أخصِّ خصائصه، وهو حملُ السلاح في سبيل الله تعالى.

فما أن سمعت الثناء على الجهاد والمجاهدين، وأنَّ الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله ورسوله، إلى غير ذلك، ممَّا عرضنا لبعضه في الدعوة إلى الجهاد[١]، حتى استأذنت رسول الله ﷺ أن تجاهد. استأذنته بلسانِ أمهات المؤمنين، وفي طليعتهنَّ ـ رضوانُ الله عليهنَّ ـ الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق.

نساء في الميدان

ولقد ساعد المرأة على استئذانها هذا، ترخيصُ رسول الله ﷺ لها في ساعة العُسْرة وشدَّة الحاجة، أن تناضل وتقاتل وتحمل السلاح لإعلاء كلمة الله، وتقْتحم الميدان لتمريض الجرحى في سبيل الله تعالى.

ففي الصِّحاح عن أنس رضي الله عنه أنه لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبيِّ ﷺ، فرأى عائشة بنت أبي بكر، وأمَّه أم سُليم مُشَمِّرَتَيْن تنقلان القُرَب على ظهورهما، ثم تُفرغانها في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثمَّ تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم[٢].

وفيها: أن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: كنا نغزو مع النبيِّ ﷺ، فنسقي القوم

---

(١) انظر: حيَّ على الجهاد ص٢٧٣.

(٢) رواه البخاري (٢٨٨٠) (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١).

ونخدمهم، ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة[١].

وفيها: أن أمَّ سليم اتَّخذت يوم حُنين خنجراً، فكان معها، فرآها أبو طلحة زوجها، فقال: يا رسول الله، هذه أمُّ سُليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟! قالت: اتَّخذته، إنْ دَنَا مني أحد من المشركين بَقَرتُ به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك!![٢].

امرأة تبلي أعظم البلاء

وممَّن أبلى أعظم البلاء من النساء في سبيل الله: أمُّ عمارة الأنصارية، واسمها نَسيبة، شهدت بيعة العقبة، ثم شهدت أُحُداً، وكان معها زوجها زَيْد بن عاصم، وابناها منه: عبد الله[٣]، وحبيب الذي قَتَله مُسَيلمة بعد. تروي عنها أمُّ سعد بنت سعد بن الربيع أنها قالت: خرجتُ يوم أحد، ومعي سِقاءٌ فيه ماء، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو في أصحابه ـ والدولة والريحُ للمسلمين، فلمَّا انهزم المسلمون، انحزتُ إلى رسول الله ﷺ، فكنت أُباشر القتال، وأذبُّ عنهم بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليَّ. قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوفَ له غَورٌ. فقلت: مَنْ أصابك بهذا؟! قالت: ابن قَمِئة[٤]. ثم شهدت بيعة الرضوان.

ولمَّا بلغها قَتْلُ ابنها حَبيب، نَذَرت ألاَّ يصيبها غسلٌ حتى يُقتل مُسيلمة، فشهدت اليمامة مع خَالد بن الوليد، وقاتلت حتى قُطعت يدها، وجُرحت اثنا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٢).

(٢) رواه مسلم (١٨٠٩).

(٣) عبد الله بن زيد المازني، الذي حكى وضوء رسول الله ﷺ كما في صحيح البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٣٥)، قُتل رضي الله عنه يوم الحرة، سنة٦٣.

(٤) طبقات ابن سعد ٨ :٤١٢.

عشر جرحاً[١].

جهادٌ خاصّ

هذا البلاء الذي أبْلَته المرأة في القتال، في العهد النبويِّ والعهود التي بعده، ليس رخصةً لها، بل حقٌّ عليها، كما هو حقٌّ على الرجال، في شدَّة الحاجة، وساعة العُسْرة، كما أسلفنا. وأما في غير الحاجة الملحَّة، والضائقة المحيطة، فقد كفاها الله المئونة، وخفَّف عنها العبء، وبدّلها بهذا الجهاد الخاصِّ بغير أولي الضرر من الرجال، جهاداً آخر عاماً، لا يقلُّ أجره، ولا تنقص مثوبته، عن جهاد الرجال، إن أخلصت لله فيه، وأتمَّتْهُ له، بريئاً من الإثم والرياء، والشِّقاق والنفاق وسوء الأخلاق. وهذا هو الجهاد الذي لا قتال فيه، وهو جهاد الكبير والصغير والضعيف، وهو الحجُّ المبرور الذي لا جزاء له إلا الجنة.

بدلٌ كريم

تخفيفٌ من الله ورحمةٌ منه بالمرأة، وبدلٌ كريم قابلته المؤمنة الصادقة، راضيةً مُسْتَبْشرةً، بلسان أُمِّ المؤمنين رضوان الله عليها.

ولقد تجلَّى هذا الرِّضى والبشْر في روايةٍ أخرى رواها البخاري أيضاً عن عائشة بنت طلحة[٢] عن خالتها ـ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ قالت: قلتُ يا رسول الله: ألا نَغْزو ونجاهدُ معكم؟ فقال: «لَكُنَّ أحسَنَ الجهاد وأجمله: الحجُّ؛ حجٌّ مَبْرور»، فقالت عائشة: فلا أدَعُ الحجَّ بعد إذ سَمِعْتُ هذا من رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد ٨: ٤١٦.

(٢) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وأمُّها أمُّ كلثوم بنت الصديق، وكانت بديعةَ الحُسْن، أصْدَقها مُصْعب ألفَ ألفٍ، ماتت بعد المائة. كما في «الكاشف» (٧٠٣٩).

(٣) رواه البخاري (١٨٦١).

ثم زادها رضي الله عنها اقْتناعاً بهذا البدل، ورضاً به، وطمأنينةً له، ما رأت من انحراف بعض النساء في آخر عهدها عن الجادة المُثْلى، بما أحْدَثْنَ عند خروجهنَّ من زينةٍ لا تُذكر بجانب ما أحدثن بعد ذلك من السفور والتبرج!

فتقول رضي الله عنها فيما رواه مسلم عن عَمْرة بنت عبد الرحمن: لو أنَّ رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء، لمَنَعَهُنَّ المسجد، كما مُنعت نساءُ بني إسرائيل[1].

وفي هذا مَقْنعٌ وبلاغ لمن أراد السَّداد والرَّشاد، والله المُستعان.

* * * * *

(١) رواه مسلم (٤٤٥).

الفصل الخامس

الرقائق والأخلاق

١ ـ إنما الأعمال بالنيات.

٢ ـ الحبُّ الإلهي.

٣ ـ بركة المسلم حياً وميتاً.

٤ ـ كياسة المؤمن.

٥ ـ عزَّة الكمال في الناس.

٦ ـ من حُسْن إسلام المرء.

٧ ـ الصحة والفراغ.

٨ ـ التماس رضا الله وإن سخط الناس.

إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّـات *

٤٦ ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول: «إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يَنكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه الشيخان[1].

ثلث الإسلام

أجمع الأئمة على جلالة هذا الحديث، وعظيم خطره، حتى قال الشافعيُّ وأحمدُ وغيرهما: إنه ثُلُث الإسلام، يعنون: أنَّ الإسلام ينتظم أركاناً ثلاثة: عملَ الجَنان، وقولَ اللسان، وفعلَ الجوارح، أو يريدون: أنه أحد الأحاديث الثلاثة التي إليها تُردُّ جميعُ الأحكام؛ والثاني: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[2] رواه مسلم عن عائشة؛ والثالث: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن»[3]، الحديث. رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

تقدير النّية والاعتداد بها

والحديثُ بعدَ هذا يرفع شأن النيَّة، ويُعلي مكانَها، ويبيِّن أنَّها من العمل

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد التاسع عشر، (١٣٦٧ = ١٩٤٧).

(١) أخرجه البخاري (١) و(٥٤) و(٢٥٢٩) و(٣٨٩٨)، و(٥٠٧٠) و(٦٦٨٩) و(٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢) و(٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

بمنزلة الأُسِّ من البناء، والرُّوح من الجَسَد، والعماد من البيت.

وإذا قدَّرت القوانين النيَّة قَدْرها، وربطت بين آثارها، وأدخلت في الثواب أو العقاب حسابها، فإنَّ شريعةً من الشرائع لم تبلغ مبلغ الإسلام في تقدير النيَّة والاعتداد بها.

وحَسْبُك أنه يَهدر العملَ إذا خلا من النية، ويجعلُه ـ أو يكاد ـ ضرباً من ضروب اللّغو أو الخطأ، وهو لا يجزي على واحد منهما، وإن أدَّى بطريق المصادفة إلى غاية حسنة. فإنْ عاقب المخطئ إذا أفضى خطؤه إلى ضرر، فلِتربية اليقظة في النفوس وتحذيرها أن تتهاونَ أو تتغافلَ حتى تنحرفَ عن الجادَّة.

ومن هنا رُفع القلم عن الصَّبيِّ حتى يبلغَ، وعن المجنون حتى يُفيق، وعن النائم حتى يستيقظ[1]، كما رُفع عن المخطئ والناسي والمُكره[2]؛ لأنَّ هؤلاء جميعاً لا نيَّة لهم، اللهمَّ إلا الصبيَّ إذا ميَّز فإنه يؤدَّب إذا أساء، ويُكافأ إذا أحسن، وإن تكن نيَّته دون من بلغ الحُلُم، على أنَّ الإسلام لم يتركْ هذا الباب مفتوحاً على مِصْراعَيه، يلجه كلُّ من تحدِّثه نفسه بالتخلِّي عن التَّبِعَة، بل وضع شروطاً للخطأ والنسيان والإكراه تأخذ بتلابيب كلِّ مُفْترٍ أو مُتَصنِّع[3].

---

(١) للحديث الذي رواه الترمذي (١٤٢٣) في الحدود، وأبو داود (٤٤٠٣) في الحدود أيضاً من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاثةٍ: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبيِّ حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل».

(٢) للحديث الذي رواه ابن ماجَهْ (٢٠٤٥)، وابن حبّان في صحيحه (٧٢١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان، وما اسْتُكرهوا عليه».

(٣) فلا يقبل من دواعي الخطأ والنسيان والإكراه إلاّ ما دلَّت القرائن على صدقه (طه).

نية المؤمن خير من عمله

وإذا أردت أن تبلغَ الغاية في تقدير الإسلام للنية والاعتداد بها، فانظر إليه إذ يفضِّل النيَّة المجرَّدة من العمل على العمل المجرَّد من النية، وهذا تأويل الأثر المشهور: «نية المؤمن خيرٌ من عمله»[١]؛ وذلك لأنَّ العمل الذي خلا من النية كالصُّورة لا حياة فيها، والبنيان لا أساسَ له، فلا خير منه يُرجى، ولا ثمرةَ له تُرتقب؛ أما النيَّة الصَّالحة فهي تُذكِّي صاحبها، وتُوجِّهه إلى صالح العمل وشيكاً؛ بل هي تُلحقه بالعاملين المخلصين إنْ صَلَحَت، وبالمفسدين إنْ فَسَدَت، وإن لم يصنع صاحبُها شيئاً.

وشاهد هذا ما رواه الترمذي من حديث أبي كَبْشَةَ الأنماري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتَّقي فيه ربه، ويَصِل فيه رَحِمَه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبدٌ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيَّته، فأجرهما سواء.

وعبدٌ رزقه مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيّته، فوِزْرُهما سواء»[٢].

---

(١) عزاه في «المقاصد الحسنة» ص٤٥٠ للطبراني في «الكبير» ٦: ١٨٥ (٥٩٤٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي، وأيضاً عزاه للعسكري من حديث النواس بن سمعان، والديلمي من حديث أبي موسى الأشعري... ثم قال بعد أن ذكر رواياتهم: «وهي وإن كانت ضعيفة فبمجموعها يتقوَّى الحديث».

(٢) رواه أحمد ٤: ٢٣١ (١٨٠٣٢)، والترمذي (٢٣٢٥) وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد دلَّت صِحَاح الآثار على أنَّ من اعتاد عمل خيرٍ أو همَّ به فَحَبسه حابسٌ من مرض أو عذر، كتب الله له ثوابَ ما نوى.

فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كُتبَ له مثلُ ما كان يعملُ مقيماً صحيحاً»[١].

وما رواه البخاري أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ قوماً خلَّفنا في المدينة، ما سَلَكْنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حَبَسهم العذر»[٢].

وكما يُجْزَى العبدُ على الحسنة يهُمُّ بها فلم يستطعها، يُجْزَى كذلك على السَّيِّئة يريدها، ثم يكفُّ عنها خشيةَ الله عزّ وجل[٣]، وربما انتظم ـ بخوفه من الله ـ في سلك الطوائف السَّبعة، التي يظلُّها الله يوم لا ظلَّ إلا ظله.

اختلاف الجزاء على الأعمال

ولمَّا كانت النيَّة تختلف قوّةً وضعفاً، على حَسْب منزلة العبد في الإخلاص

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦) في الجهاد.

(٢) رواه البخاري (٢٨٣٩) في كتاب الجهاد.

(٣) روى البخاري في الرقاق (٦٤٩١)، ومسلم بألفاظ كثيرة في كتاب الإيمان ١ :١١٨(١١٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجل قال: «إنَّ الله كتب الحسنات والسيِّئات، ثم بيَّن ذلك: فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن هو همَّ بها فَعَمِلَها كتبها الله له عنده عشرَ حَسَنات، إلى سبعمائة ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة. ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن هو همَّ بها فَعَمِلها كتبها الله له سيئةً واحدة»

وفي الرواية الأخرى التي عند البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٠١) عن أبي هريرة: «وإن تركها ـأي السيئةـ من أجلي فاكتبوها له حسنة» وجاء مثل هذا القيد في رواية مسلم ١ :١١٨(١٢٩): «وإن تركها من جرَّايَ» أي: من أجلي.

قُرباً وبُعداً، اختلف الجزاء على الأعمال قِلّةً وكَثْرةً، حتى جُوزي المحسنُ على حسنةٍ بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلاّ الله عزّ وجل.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعَدْل تمرةٍ[١] من كسبٍ طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب ـ فإنَّ الله يتقبلُها بيمينه، ثم يربِّيها لصاحبها، كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه[٢] حتى تكون مثل الجبل»[٣].

وروى النسائي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبَقَ درهمٌ مئة ألف درهم»، فقال رجل: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: «رجلٌ له مال كثير أخَذَ من عُرضه مئة ألف درهم تصدَّق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدَّق به»[٤].

ولعلَّ في هذا الذي أسلفنا بياناً لفضل النيَّة الصالحة، وأنَّها جوهر العمل وروحُه، وتلك خلاصة الجملة الأولى: «إنما الأعمال بالنيَّات»؛ وتصويراً صادقاً لجزاء العاملين، وأنه على حسب نياتهم، ومرتبة كلٍّ من الإخلاص، وهم في ذلك درجاتٌ، وتلك خلاصة الجملة الثانية: «وإنما لكل امرئ ما نوى».

جزاء المخلصين والمرائين

ولمَّا بيَّن صَلَوات الله وسلامه عليه أنَّ الأعمال بحسب النيَّات، وأنَّ حظَّ العامل من عمله نيّته ـ خيراً كان العمل أو شراً ـ أوضح جزاءَ المخلصين

---

(١) أي بقيمتها لأنّ العَدل بالفتح: المِثْل، وبالكسر: الحِمْل.

(٢) مهره، وفيه لغتان: الفتح فالضم بالتشديد، والكسر فالسكون بوزن جرو. والتقبُّل باليمين كناية عن الرضا (طه).

(٣) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٤) رواه النسائي (٢٥٢٧)، (٢٥٢٨).

والمرائين في مثال من الأعمال التي تتَّحد صورتها، ويختلف حكمها والجزاء عليها باختلاف النِّية فيها، إخلاصاً ورياءً وصلاحاً وفساداً، وكأنه يقول: إنَّ سائر الأعمال على قياس هذا المثال.

اختيار التمثيل بالهجرة

واختيارُ التمثيل بالهجرة لِمَا لها من عظيمِ الشأن في ذلك العهد، ولعلَّه تحدَّث الحديث في إبَّان الهجرة من مكة إلى المدينة والدعوة إليها.

يؤيِّد ذلك ما يُروى أنَّ رجلاً هاجر من مكَّة إلى المدينة، لا يريد فضيلة الهجرة، وإنَّما يريد أن يتزوَّج امرأةً تُدعى أم قيس[1]. فإنْ صحَّ أن تكون القصَّة سبب هذا الحديث كما قيل، كان التمثيل بالمرأة مَقْصوداً له ﷺ، جَرْياً على كريم عادتِه من التعليم والإرشاد من غير أن يُجابِهَ أحداً بما يكرهُ حياءً أو كَرَماً، وإلاَّ فالقصَّة من قبيل المُصَادفة[2] ليس غير.

---

(١) قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١ : ٧٤: «وقد اشتهر أن قصة مُهاجر أمِّ قيس هي كانت سبب قول النبي ﷺ: «من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها»، وذكر ذلك كثير من المتأخرين في كتبهم، ولم نرَ لذلك أصلاً يصحُّ. والله أعلم» انتهى. وقد روى وكيع في كتابه عن الأعمش عن شقيق ـ وهو أبو وائل ـ قال: خطب أعرابيٌّ من الحيِّ امرأة يقال لها: أمُّ قيس، فأبت أن تزوِّجه حتى يهاجر، فهاجر، فتزوجته، فكنَّا نسميه مُهاجرَ أمِّ قيس. قال: فقال عبد الله: يعني ابن مسعود: من هاجر يبتغي شيئاً، فهو له.

وروى هذه القصة سعيد بن منصور في «سننه»، ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٠) عن أبي معاوية عن الأعمش بهذا الإسناد. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢ : ١٠١ : رجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ في «الفتح» ١ : ١٠ : «لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سبق بسبب ذلك، ولم أر في شيءٍ من الطرق ما يقتضي التصريح بذلك».

(٢) الصحيح أن يقول: من باب الموافقة لا غير.

الهجرة في الإسلام

وقد وقعت الهجرة في الإسلام على وجهين: **أوَّلهما**: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما في هجرتَي الحبشة، وابتداء الهجرة من مكّة إلى المدينة. **والثاني**: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذلك بعد أن استقرَّ النبيُّ ﷺ بالمدينة، وهاجَرَ إليها مَنْ أمكنَه ذلك من المسلمين، وكانت الهجرة إذْ ذاك تختصُّ بالانتقال إلى المدينة، إلى أن فُتحت مكة، فانقطع الاختصاص، وبقي عمومُ الانتقال من دار الكفر ـ لمن قدر عليه ـ واجباً.

اتِّحاد الجزاء والشرط

واتِّحاد الجزاء والشَّرط ممَّا يدلُّ على المبالغة في التعظيم أو التحقير، فكأنه صلوات الله وسلامه عليه يقول: مَنْ هاجر لا يبتغي إلا وجه الله عزَّ وجل لا أجد له جزاءً إلاّ أنْ أَكِلَه إليه سبحانه، فهو وليُّه وحسبه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

وَمَنْ هاجر لا يبتغي إلاَّ دنيا يُصيبها أو شهوةً يقضيها، فحسبه ضياعاً وخزْياً أنْ وكَلَه الله إلى غيره، فَخَسِرَ الدنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

وبعدُ، فإنَّ مدار الفوز والسَّعادة على العمل، ومدار العمل على الإخلاص، فمَنْ عَجزَ عن العمل الصالح فلن يَعْجَزَ عن النيَّة الصَّالحة، والرَّغبة الصَّادقة، ورُبَّ نيَّةٍ فاقَتْ عملاً، ورُبَّ رغبةٍ مهَّدت للخير سُبُلاً.

* * * * *

(١) سورة البقرة: ١٠٥.

(٢) سورة الحج: ١١.

الحبُّ الإلهي*

٤٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أحبَّ اللهُ عبداً نادى جبريلَ: إنَّ الله يُحبُّ فلاناً فأَحبَّه، فَيُحبُّه جبريل. فينادي جبريل في أهل السماء: إنّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، ثم يُوضَعُ له القَبول في الأرض» رواه الشيخان[١].

منزلة المحبة

محبةُ الله لعبده وما يَتْبعها، من ولاية الله ونصره له، ودفاعه عنه، ومعاداته لِمَنْ عاداه، ومُسالمتُه لِمَنْ سالَمَه، وإكرامُه لِمَنْ أكرمه، ومنْ إعزاز السماء والأرض له، حتى لتفرحان به في حياته، وتبكيان عليه عند موته؛ هذه المحبة التي لا محبَّة فوقها، وكلُّ محبةٍ دونها، منزلةٌ ما أجملها! حقيقةٌ بأن يتنافسَ فيها المتنافسون، ويتسابقَ إليها المتسابقون، من العباد المخلصين والأبرار المقرَّبين؛ إذ كانت هي الغايةُ القُصْوى من المقامات، والذِّروة العليا من الدرجات، ولا جَرَم أنَّها حرام على أرباب الكلام، وأصحاب الأماني

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢ = ١٩٥٢).

(١) رواه البخاري في ثلاثة مواضع: في بَدء الخلق (٣٢٠٩)، وفي كتاب الأدب (٦٠٤٠)، وفي التوحيد (٧٤٨٥)، ورواه مسلم في كتاب البر والصلة ٤: ٢٠٣٠ (١٥٧). غير أنّ مسلماً انفرد بذكر الشطر المقابل، وهو: «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي أهل السماء: إنّ الله يبغض فلاناً، فأبغضوه، ثم تُوضع له البغضاءُ في الأرض»، واقتصر البخاري على الجملة الأولى منه فقط التي فيها المحبة.

والأحلام، حلالٌ لأولي العلم والنُّهى، والعمل والخشية، من الذين جاهدوا في الله حقَّ جهاده، وتولَّوا الله حقَّ وَلايته، فاجْتباهم ربُّهم، واصْطَفاهم لمحبته، واختصَّهم برحمته: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

أسباب محبّة الله للعبد

غير أنه ـ سبحانه ـ وإن اختصَّ برحمته من يشاء من عباده، علَّمنا في كتابه المبين، وفيما أوحى إلى رسوله الصادق الأمين، أنَّ لهذه الدرجة الرفيعة ـ درجة محبته وولايته ـ أسباباً تدلُّ عليها، ووسائل تهدي إليها، وأمارات ترشد إلى أهلها، على تفاوت ما بينهم فيها.

وقد أمرنا الله أن نعمل ونكدح، آخذين بالوسائل والأسباب لما قضى ـ وله الحجة البالغة ـ من الربط الإلهي الوثيق بين الأسباب ومسبَّباتها، والوسائل وغاياتها.. فمن طمع في محبَّة الله له ورضوانه عليه، دون أن يأخذَ بأسباب هذه المحبّة، ويسلك سبلها، فهو إمَّا مخدوع جاهل، أو مُبْطلٌ عنيد، يريد أن يلغي عقله، ويفسد فطرته، ويبدِّل سنّة الله في خلقه وشرعه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2].

وأساس حُبِّ الله لعبده وولايته له، هو: حبُّ العبد لربه وإخلاصه له، وعلى قدر حبِّ العبد وإخلاصه، يكون حبُّ الله ومعونته، وتوفيقه وهدايته.

ولا يزال العبد يتدرَّج في الإخلاص والمحبَّة، حتى يكون عالماً ربانياً: لا ينام ولا يقوم، ولا يحبُّ ولا يبغض، ولا يفعل ولا يترك، ولا يتحرَّك ولا يسكن، إلا بالله ولله؛ يتَّقيه حقَّ تُقاته، ويبلغ الجهد في مرضاته، ويتوكَّل عليه

---

(١) سورة البقرة: ١٠٥.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٢.

حقَّ توكله، فلا يخشى أحداً غيره، ولا يرجو أحداً سواه.. وما أجدره حينئذٍ بمحبة الله له، وقُربه منه، حتى يكون أقربَ إليه من سمعه وبصره، ويده ورجله، وما ظنُّك بعبدٍ أحبَّه مولاه، فكفاه وتولاَّه، ورضيَ عنه وأرضاه؟!.

أليس مِصْداقُ ذلك ما رواه البخاري في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنتُهُ بالحرب، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يسمعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصر به، ويَدَهُ التي يَبْطُش بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها، وإن سَأَلني لأُعطِيَنَّه، ولَئن استعاذني لأُعيذنَّه»[1].

طريقةُ محبَّة العبد لربِّه سبحانه

بيَّن هذا الحديث الربّاني ـ أيَّ بيانٍ ـ طريقة محبَّة العبد لربه، ووسيلته إلى قربه، وأجملَها في امتثال أوامره، واجتناب محارمه، والوقوف عند حدوده، مع تقديم الأصولِ على الفروع، والفرائضِ على النوافل، وقديماً قال العلماء الربَّانيُّون: مَنْ شغلَه الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغلَه النفل عن الفرض فهو مغرور. ومَثَلُ من يتقرَّب إلى الله بالنوافل مع تهاونه في الفرائض، مِن جَهَلَةِ المتصوِّفة وأمثالهم، كَمَثَل البستاني، يأتمنه سيِّدُه على بستانه، فيعمد إلى أشجاره فيسرقها، ثم يختلس منها بعض ثمارها، فيقدِّمها هديَّة إلى سيِّده. لا جَرَمَ أنه جديرٌ برفض هديَّته علاوةً على غضب مولاه ومَقْته!

أدعياء المحبة

أما الذين يزعُمون أنَّ محبة الله أثرٌ للعلاقة القلبية، والصِّلة الروحيَّة بين

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ١١ : ٣٤٠ (٦٥٠٢).

العبد وربِّه، ولا دخل للعمل فيها، من الزنادقة الملاحدة، ومَنْ جاراهم ـ من أرباب الفلسفة النظرية والشَّقشقة اللِّسانية ـ فلا خطاب لنا معهم، إذْ لا أملَ لنا فيهم؛ لأنَّهم قومٌ ركبوا رؤوسهم، وأغلقوا قلوبهم، واتَّبعوا أهواءهم، فعموا وصمُّوا وضلُّوا وأضلُّوا: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾(١).

وقد ادَّعى محبةَ الله أقوامٌ أقلّ من هؤلاء تمرُّداً وعناداً، فشهر الله فضيحتهم وإفلاسهم، وأعلن في كتابه العزيز تكذيبهم وبراءته منهم، فقال ـ وقولُه الحق ـ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢).

وقال في إبطال دعوى أهل الكتاب وإفحامهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴾(٣).

ثمَّ قال جلَّ شأنه في علامات أوليائه الصَّادقين، الذين أحبَّهم كما أحبوهُ، ورضيَ عنهم كما رضوا عنه، والذين يُباهي بهم ملائكته، ويعزُّ بهم دينه، ويجعل منهم العوض، خير العوض ممَّن ارتدَّ عنه وجحده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٤).

---

(١) سورة الجاثية: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) سورة المائدة: ١٨.

(٤) سورة المائدة: ٥٤.

من صفات المُحبِّين الصَّادقين

هذه أربع علامات تضمَّنتها الآيتان الكريمتان، ميَّز الله بهما هؤلاء المحبين المخلصين:

الأولى: ذلَّتهم للمؤمنين، وخفض الجناح لهم وإشفاقهم عليهم، كإشفاق الوالد على ولده، أو الأخ على أخيه، أو الطبيب على مريضه، فليست الذلّة هنا ذلّة ضَعَةٍ وضعف، ولكنها ذلَّة تواضع وعطف، وقد أمر الله الأبناء أن يُحسنوا إلى الآباء، ويخفضوا لهم جناح الذّلِّ من الرحمة، ووصف رسول الله ﷺ الكَمَلَة من أمته، بأنهم في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى [(١)].

الثانية: عزَّتهم على الكافرين، وعدم الخضوع لهم، فلا يتولَّونهم ولا يمالئونهم، ولا يتَّخذون منهم بِطانةً وأنصاراً، ولا يتشبَّهون بهم في شأن من شؤونهم، ممَّا يهين كرامتهم أو يضعف عزّتهم وسلطانهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)]. ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[(٣)].

وفي معنى هاتين العلامتين ما وصف الله تعالى أصحاب نبيِّه ﷺ فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[(٤)].

---

(١) اقتباس من حديث رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، ولفظه عند البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً، تداعى له سائر جسده بالسَّهر والحُمَّى».

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) سورة النساء: ١٤١.

(٤) سورة الفتح: ٢٩.

الثالثة : جهادهم بأنواع الجهاد كافَّة : بأنفسهم، وأموالهم، وأيديهم، وألسنتهم، لا يألون جهداً، ولا يدَّخرون وُسعاً.

وعلى ضروب الجهاد قام الإسلام، وبُني هذا الدين الحنيف، وعمَّ نورُ الله في الأرض، وبالجهاد سَبَق السَّابقون ممَّن لا يبلغ المجتهدون منا مُدَّ أحدهم ولا نصيفه[١].

الرابعة : صَلابتهم في الحقِّ ومضيُّهم فيه، لا يخافون لوم اللائمين، وإن بلغوا من السُّلطان والجاه أمداً بعيداً؛ لأنهم لا يعملون رغبةً في جزاء من الناس أو ثناءً، أو رهبةً من مكروه أو بلاء، وإنما يخشون الله وحده، فيحقّون الحقَّ، ويُبطلون الباطل، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، رضيَ الناسُ أم كانوا ساخطين.

مُقْتضى محبَّة الله سبحانه

وتقتضي محبة الله سبحانه أن يُحبَّ العبدُ ما يحبُّه ربُّه، ويبغضَ ما يبغضه، من الأعمال والعباد جميعاً. وتلك هي العلامة الجامعة للعلامات السابقة وما إليها، مما هو مبثوثٌ في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ. وممَّا أَلِفَتْهُ العقول، وجرَتْ عليه الفِطَر، أنَّ المُحِبَّ يُؤْثر حبيبَه على نفسه، ثم يتحسَّس من كلِّ ما يحبُّ الحبيب فيحبه، ومن كلِّ ما يبغض فيبغضه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أَوْلى الناس بالمحبَّة بعد الله عزَّ وجل

وَأَوْلى الناس بالمحبَّةِ هو خاتمُ النبيِّين، صلواتُ الله وسلامه عليه وعليهم،

---

(١) المُدُّ في الأصل: رُبْع الصَّاع، وإنَّما قدَّره به، لأنه أقلّ ما كانوا يتصدَّقون به في العادة. ويروى بفتح الميم، وهو الغاية كما في «النهاية» ٤ :٣٠٧. والنَّصيف هو: النِّصف كما في «النهاية» أيضاً ٥ :٦٥.

إذْ أَخْرجَنا من الظلمات إلى النُّور بإذن ربِّه، وأَحيانا حياةً أبديَّة روحيَّة، فوق حياتنا العابرة الجسمية؛ ولذلك كان حبُّه ﷺ فوقَ حُبِّ الوالدَين، بل كان رُكناً من أركان الإيمان، ودعامَةً من دعائمه، وكان شكرُه ـ باتِّباعه، واستجابة ندائه، والصلاة والسلام عليه ـ فوقَ شكر الوالدين اللذين أمر الله بشكرهما مقروناً بشكره.

وتَلي محبَّتُهُ ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه النبيِّين والمرسلين ـ مَحَبَّة أصحابه والتابعين لهم بإحسان.

ومن آثار محبَّتهم: إجلالُهم وإحسانُ الظَّنِّ بهم، لحُبِّ الله ورسوله إيَّاهم، وثنائه عليهم ومغفرته لهم.

وحَسْبُنا من دواعي الحبِّ والإجلال، أنهم شهدوا من النور ما لم نشهد، ثمَّ حدَّثونا، وعلموا من الكتاب والسنة ما لم نكن نعلم لولا أن علَّمونا، وكان فضل الله عليهم بالسَّبْق، ثم علينا بالاتِّباع عظيماً[1].

ثمرةُ الحبِّ الإلهي

إذا بلغ العبدُ المرتبةَ العليا في محبَّة الله له، على ما بيَّنا لك آنفاً، من مُجْمَل القول ومفصَّلِه، فبشِّره بما بشَّر الله به أولياءه من حبِّ الملائكة والناس لهم، ورضا الخَلْق بعد رضا الخالق عنهم؛ إلى ما يمتِّعهم به سبحانه من غنى النفس، وقُرَّة العين، وطِيب الحياة، بلذَّة الحبِّ وحلاوة المُناجاة، ممَّا لو علمه ملوك الدنيا لاشتروه بملكهم، ولقاتلوا المحبين عليه.

---

(١) بسطنا القول في فضل الصحابة رضوان الله عليهم، في الجزأين الأول والثاني من المجلد السابع عشر، ثمَّ في كتابنا «درجات الناس» [ص٣٥ـ٣٩](طه) وانظر: حديث: خير القرون ص ٨٥٥ ـ ٨٦٦.

ولا ينقص من محبَّة الوليِّ وهيبته ورضا الله والناس عنه، ما يغصُّ به حاقد أو حاسد، أو فاسق أو منافق، فإنه لا وزن لهؤلاء في حبٍّ ولا بغضٍ، وما نجا من بلائهم أولياءُ الرحمن في زمان أو مكان: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[٢].

تلك عاجلة بُشرى العباد الصالحين في الدنيا، وأمَّا في الآخرة، فقد أعدَّ الله لهم ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣].

لمحاتٌ ولطائف

ولا نَدَع القلم قبل أن ينبِّه إجمالاً ـ كعادته ـ على بعض ما انطوى عليه الحديث من لمحاتٍ ولطائف:

فمنها: فضل الرُّوح الأمين، والرسول الكريم جبريل عليه السلام على سائر الملائكة.

ومنها: إثباتُ حُبِّ الله وبغضه، ودعائه وثنائه، وهي من صفاته الثابتة له جلَّ شأنه على الوجه اللائق بجلاله وجماله، نؤمن بها، دون أن نبحثَ عن كيفيَّتها وكُنْهِها، كما آمنَ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكما آمن صحابته

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٢) سورة الأنعام: ١١٢.

(٣) سورة السجدة: ١٧، وهو اقتباس من الحديث القدسي: «أعددت لعباديَ الصالحين مالا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت،..» رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في صفة الجنة (٣٢٤٤)، ومسلم أول كتاب الجنة ٤ :٢١٧٤ (٢٨٢٤).

والراسخون في العلم.

ومنها: أنَّ محبة الناس وقَبولهم ـ ولا سيما الصَّالحين منهم ـ من علامات محبة الله عزَّ وجل، وكذلك بغضهم ونفورهم، من علامات بغضه وسخطه. نعوذ بالله منه.

ومنها: ـ وهو ألطفها وأوفاها وأدقُّها ـ أنه ليس الشأن أن تُحبَّ الله، بل الشأن أن يُحبَّك الله، ولن تظفرَ بمحبَّته إلاَّ إذا اتَّبعت حبيبَهُ ظاهراً وباطناً، واستقمت على طريقته غائباً وشاهداً، لا ترضى منها بدلاً، ولا تبغي عنها حِوَلاً.

* * * * *

بركة المسلم حياً وميتاً *

٤٨ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من الشَّجر شَجَرةً لا يسقط ورقُها، وهي مَثَلُ المسْلِم، حدِّثُوني مَا هِيَ»؟ فوقع الناس في شَجَر البادية، ووقع في نفسي أنها النَّخلةُ ـ قال عبد الله: فاستَحْيَيْتُ ـ فقالوا: يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسولُ الله ﷺ: «هيَ النَّخلةُ». قال عبدُ الله: فَحَدَّثْتُ أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأَنْ تكون قلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا. رواه الشيخان[1].

مجالس النبيِّ ﷺ

في مجلسٍ من مجالس النَّبيِّ ﷺ، وقد حفل بصفوةٍ من أصحابه، أراد أن يحدِّثهم عن المسلم الذي يصلح أن يكون عضواً حيًّا في الجامعة الإسلامية، ولَبِنةً قوية في بنائها، ومَنْ أحقُّ من النبيِّ ﷺ بهذا الحديث، وهو أوَّلُ المسلمين بشهادة الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]؟!.

من فنون التربية

والذي أثار الحديث عن المسلم مناسبةٌ لطيفة، اتَّخذ منها إمام

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الثاني والعشرون (١٣٧٠=١٩٥٠).

(١) أخرجه البخاري (١٣١) في كتاب الوضوء، باب الحياء في العلم، ومسلم (٢٨١١) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

المربِّين صلوات الله وسلامه عليه سبيلاً إلى امتحان أصحابه في أسلوب مشوّقٍ لما يلقي عليهم من العلم والحكمة. والتشويق فنٌّ من فنون التربية، عني به المربون وعلماء النفس كثيراً، وأوسعوه بحثاً ودرساً؛ لما له من عظيم الأثر في تنبيه الفكر وجمع القوى.

أُهديَ إليه ﷺ جُمَّار[1] فأكل منه، ثم سأل أصحابه أن يخبروه عن الشجرة التي لا يتساقط ورقُها على غير المعهود في الشجر، والتي مثلها كَمَثل المسلم في النفع والخير والبركة.. فأخذ الحاضرون يذكرون من شجر البادي ذاهلين عن الشجرة التي أكلوا من جمَّارها.

وكان في الجُمَّار تنبيهٌ على الإجابة، بَيْد أنهم لم يعرفوا النخلة باسم الشجرة قبل هذا المجلس، لكن عبد الله رضي الله عنه تنبَّه وألقى الله في رُوعه[2] أنها النخلة، وللجُمَّار الأثرُ الأول في هذا التنبيه، ولقد همَّ عبد الله أن يُجيب، ولكنه نظر فإذا هو أصغر القوم، وكان عاشرَ عشرةٍ هو أحدثهم، ورأى الشيخين: أبا بكر وعمر لا يتكلَّمان؛ فسكتَ عن الإجابة حياءً وأدباً. فلمَّا عجز القوم وأعيوا، سألوا النبيَّ ﷺ فأجابهم بأنها النخلة.

ولَّما انصرف المجلس حدَّث عبد الله أباه بما وقع في نفسه، فقال له: لو قلتها يا بنيَّ لكان ذلك أحبُّ إلي من حُمُر النَّعم، كما ثبت عند ابن حبان في «صحيحه»[3]، والأحاديث يفسِّر بعضها بعضاً، ومن ذلك

---

(١) جمع جُمَّارة، قلب النَّخل. وفي علم النبات: لبُّ النباتات، ويتألف من أنسجةٍ لدْنةٍ هَشَّةٍ. كما في «المعجم الوسيط» ١ :١٣٤.

(٢) الرُّوع: القلب، والذهن، والعقل. يقال: وقع في رُوعي كذا، أي: في نفسي.

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٤٣) حيث جاء في آخر الحديث: «أحسبه قال: حُمُر النَّعم»،
=

حديث الصحيحين: «لأَن يَهْديَ الله بك رَجُلاً واحداً خَيْرٌ لك من حُمُر النَّعَم»[1]، والإبل الحمراء أعزُّ أموال العرب وأنفسها.

تشبيه المسلم بالنخلة

ما أجمل تشبيه المسلم بالنخلة، أو النخلة بالمسلم، كما فعل رسول الله ﷺ.

إنَّها خفيفةُ المؤونة، قليلةُ الكُلفة: تنفع ولا تَضر، وتُحسِنُ ولا تُسيء، وتعطي ولا تأخذ ـ إن أخذت ـ إلاَّ قليلاً؛ وكذلك المسلم الحقُّ، يتعفَّف ولا يُلحف، ويتلطَّف ولا يتكلَّف، مأمولٌ خيرُه ونفعُهُ، مأمونٌ شرُّهُ وَضُرُّهُ؛ يُحْسِنُ إلى الناس، ويعفو عن إساءاتهم، ويعطيهم مُخْلِصاً، ولا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً.

وفي النَّخلة صَلابةٌ واستقامةٌ، وقوةٌ ومتانةٌ، لا تُحرِّكها الرياح، ولا تنال منها العواصف؛ وكذلك المسلم الحق: قويٌّ في دينه، ثابتٌ في يقينه. في الزلازل وقورٌ، وفي المكاره صبورٌ، وفي الرَّخاء شكور، مهتدٍ وهادٍ إلى الصِّراط المستقيم.

النخلة وارفة الظلال، طيِّبة الثمار، ممدودة الخير، موصولة النفع منذ أن تغرس، إلى أن تجف وتَيْبس، بل بعد أن تُقطعَ قطعاً، وتُرسل في مصالح الناس ومرافقهم. ولن ترى شيئاً من أُصولها وفروعها وثمارها مهمَلاً أبداً.

وقد تفرَّد بها أبو عمر الضرير، وهو حفص بن عمر بن عبد العزيز الدُّوري، لا بأس به، كما في «التقريب»، ومَنْ فوقه على شرطهما.

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠) في كتاب المغازي، ومسلم (٢٤٠٦) في كتاب فضائل الصحابة.

ويدرك بركةَ النخيل وخيرَها في حياتها وبعد مماتها، مَنْ يعلم أنَّ كثيراً من الناس كانوا ـ ولا يزالون ـ يقيمون في بيوتٍ تعتمد على جُذوع النخل وجريده، ويعيشون على التمر عُمُراً، كما تعيش إبِلُهم على النَّوى دهراً.

وفي السيرة النبويَّة عن عائشة رضي الله عنها: إنا كنَّا ـ آل محمد ـ لَنمكث شهرين، ما نوقد ناراً، إن هما إلاَّ الأسودان: التمر والماء[1].

المسلم الحقُّ خيرٌ كلُّه

وكذلك المسلم الحق، كلُّهُ خيرٌ وبركةٌ، حيًّا وميتاً، لنفسه ولعشيرته، وأُمته ووطنه، والعالم أجمع:

أما في حياته: فيما يعلِّمهم ويُرشدهم، ويُؤدِّي حقوقَهم، ويسعى جاهداً في مصالحهم، ويعينهم على البرِّ والتقوى.

وأما بعد مماته: فيما يترك فيهم من علمٍ نافعٍ، أو هَدْيٍ صالحٍ، أو أثرٍ مباركٍ، أو سنَّةٍ حسنةٍ، له أجرُها وأجرُ من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة، لا ينقص من أجورهم شيء.

وكلُّ هذه الشُّعب الخَيِّرة المُتنوِّعة تدخل فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله، إلاَّ من ثلاثة، إلا مِن: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٢) مسلم (١٦٣١)، وقد تقدَّم شرحه تحت عنوان: عمل المرء لغيره ص١٨٣.

الأمة المسلمة

هذا هو المسلمُ الحقُّ، الذي تتألف منه ومن أمثاله أمةٌ رشيدةٌ قويةٌ، متماسكة متآزرة ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[1].

أمة صالحة لوراثةِ الأرض وعمَارتها، جَديرةٌ بما وَعَدَ الله عباده من النصر في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، والعزِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، والتمكين في الأرض من بعد الاستخلاف فيها، كما قال جلَّ سلطانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[4].

فأين المسلم أو المسلمون اليوم من شجرة طيِّبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تُؤتي أُكلها كلَّ حين بإذن ربها؟! إنهم حُفَالة كحُفَالة[5] الشعير أو التَّمر، أو غثاء كغثاء السيل؛ لا تستطيع أن تحصيهم عدداً، ولكن قلَّما ترى مع الأسى والأسف أحداً!!.

إنه لن يعود للمسلمين مَجْدُهم الأول، إلاَّ إذا تخلَّقوا بأخلاق الرعيل

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) سورة الروم: ٤٧.

(٣) سورة المنافقين: ٨.

(٤) سورة النور: ٥٥.

(٥) الحُفَالة: رذالة من الناس، كرديء التمر ونُفايَتِهِ، وهو مثل الحُثالة. كما في «النهاية» ١ :٤٠٩.

الأول: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[١]، تراهُم في «توادِّهم، وتعاطفهم، وتراحمهم، كَمَثَل الجَسَد الواحد، إذا اشتكى منه عُضوٌ منه، تداعى له سائر الجَسد بالسَّهَر والحُمَّى»[٢]، أو تراهم «كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً»[٣].

* * * * *

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) اقتباس من حديث النعمان بن بشير المرفوع المتفق عليه في البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٣) اقتباس من حديث أبي موسى المرفوع المتفق عليه في البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

كياسة المؤمن *

٤٩ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لا يُلْدَغُ[1] المؤمنُ من جُحْرٍ مرَّتين». رواه الشيخان[2].

المفردات:

اللدغ: كاللسْع وزناً ومعنى. ويُستعملان في ذوات السموم على سواء، بخلاف اللذع، فإنه الخفيف من إحراق النار. وقيل: اللسْع لذوات الإبر، كالعقارب. واللدغ لذوات الفم، كالحيَّات.

والجُحْر: هو الثَّقب الذي تحتفره الهوام والسباع لأنفسها.

* * * * *

من جوامع الكلم وروائع الحكم

هذا حديثٌ من جوامع كلمه، وروائع حِكمه، صلوات الله وسلامه عليه. ضربه مثلاً للمؤمن وما ينبغي أن يتكمَّل به من كياسةٍ وسياسةٍ، ويقظة وحزم؛ فإنَّ نقصاً في دين المرء وعقله أن يكون أبْلَهَ مُغفَّلاً، خُدْعةً للخادعين، وطُعْمَةً للطامعين.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد السادس عشر، (١٣٦٤ = ١٩٤٥).

(١) رُوي بضم الغين وكسرها لالتقاء الساكنين، على النفي أو النهي. والنفي مراداً به النهي أبلغ وأحكم (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٣) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٨) في كتاب الزهد والرقائق.

أبو عَزَّة الجُمَحي

وموردُ هذا المثل أبو عَزّة الجُمَحي الشّاعر، وكان يهجو النَّبِيَّ ﷺ وأصحابه، ويؤذي الله ورسوله. وذلك أنه أُسر في غزوة بدر فيمن أُسر من المشركين، فَضَرَع إلى النَّبِيِّ ﷺ أن يعتقه دون فداء، وقال: يا محمد، إني فقير وذو حاجة قد عرفتها، فامنُن عليَّ لفقري وبناتي، فرقَّ الرسول وأطلقه، بعد أن أخذ عليه الميثاق ألاَّ يُظاهر عليه.

فلمَّا عاد إلى مكة أبى له لُؤْمُه وسُوءُ طويَّتِه إلا أن ينال من المسلمين بشعْرِه، وأن يطيعَ المشركين في الخروج إلى أحد، واستنفار الأعداء لمحاربة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه.

ويشاء الله أن يقع أسيراً في غزوة حمراء الأسد[١]، وهي التي استجاب المؤمنون فيها لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، فعاد سيرته الأولى، يَضْرع ويشكو، ويقول للنَّبيِّ ﷺ: امنُن عليَّ لفقري وبناتي، وأعاهدك ألاَّ أعود لمثل ما فعلت.

فأجابه سيّدُ الحكماء صَلَوات الله وسلامه عليه إجابته الخالدة: «لا والله، لا تَمْسَح عَارضَيْك[٢] بمكة، وتقول: خدعت محمداً مرَّتين. لا يُلدغ المؤمن من جُحْر واحد مرتين، اضرب عنقه يا زيد».

كان صلواتُ الله وسلامه عليه في الأولى مَضْرِبَ المثل حِلْماً وَرِفقاً، ورحمةً، كما كان في الثانية مَضْرِبَ المثل كذلك سياسةً وكياسةً وحكمةً.

---

(١) تقع على نحو ثمانية أميال من المدينة. وكانت هذه الغزوة في اليوم التالي لغزوة أحد، ولذا تابع بعض الشّرّاح فألحقها بأحد، وقال: إنّ أبا عزة أُسر بها (طه).

(٢) العارضان والعارضتان: صفحتا الخد، وقيل: مسحهما، كنايةٌ عن الزهو والاستخفاف.

الخطة المثلى للذين يقودون الأمم

وهذه هي الخطة المُثْلى للَّذين يقودون الأمم، ويسوسون الجماعات، ويحملون لواء الهُدى، عفوٌ في غير ضَعف، ورحمةٌ من غير عنف، وإحسانٌ لا تُكَدِّره مَسَاءَة، فإذا لم يُصادف شيءٌ من ذلك مَوْضعه، ولم يُصب مَوْقعه، وكان كالبذر الطيِّب في الأرض السَّبِخة، فلا مناصَ من الشدَّة والحزم، واليقظة والعزم؛ ليعتبر ماكرٌ، ويرتدع غادر، ثمَّ لتنتصر الفضيلةُ، وتعلو كلمة الحق.

وما أصدق أبا الطيِّب إذ يقول:

إذا أنـتَ أكرمـتَ الكـريم ملكتَـهُ ... وإنْ أنـتَ أكـرمتَ اللئيـم تمـرَّدا

فوضْعُ النَّدى في موضع السـيف، بالعُلا ... مُضِرٌّ كوضع السيفِ في موضع النـدى

الحكمة وضعُ كلِّ شيء في موضعه

وإذا كان من الإيمان والحكمة، بل من هدي النبوَّة والرسالة، أن يوضع كلُّ شيء في موضعه، فلا غَرابة أن يمتدحَ الله جلَّ ثناؤه، عباده المؤمنين بأنهم ينتقمون ولا يعتدون، فيقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[1].

على حين أنه يحضُّهم على العفو في غير آية، ويقول لنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[2].

وكان النَّخَعي إذا قرأ الآية الأولى قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فيجترئ عليهم الفسَّاق.

---

(١) سورة الشورى: ٣٩.

(٢) سورة الجاثية: ١٤.

التحلِّي بالحزم والفطانة

وسواءٌ أكان النَّبِيُّ ﷺ يُخبر عن حالٍ من أحوال المؤمن، أم ينهى المؤمن ويُحذِّره أن يقع في شَرَك الغفلة؛ فإنه ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ يدعوهم إلى أن يَتَحلَّوْا بالحزم والفَطَانة والتجريب للأمور، حتى إذا نُكب أحدهم من وَجْهٍ مرّة، منعه تفطُّنه أن يُنكَبَ منه مرةً أخرى.

سرُّ تقييد الجُحْر بواحد

وما أجمل تقييده الجُحْر «بواحد»، حتى لا تكون نقصاً في إيمان المؤمن، ولا ثَلْماً في فطنته وكياسته، أن يُلدغَ من جُحْر آخر ليس من نوع الأول ولا من قبيله، وإن لم يكن من تمام الفطنة والاعتبار بالحوادث، والاتِّعاظ بالكوارث، وقياس الأمور بأشباهها.

لماذا خُصَّ المؤمنُ بهذه الوصية؟

وإنما خصَّ المؤمن بهذه الوصيَّة الحكيمة؛ لما يغلب عليه من سلامة النيَّة وحُسْن الظن، فيقع في الشَّرَك من حيث لا يدري.

الغفلة والبلاهة ليست من صفات المؤمن:

ومن العَجَب العُجَاب أن يزعم كثيرٌ من الناس ـ ومنهم من قرَّاء الحديث ـ أنَّ البلاهة والغفلة من سمات الصَّلاح والتقوى، وأنَّ الكياسة والفطنة من آيات الخُبْث والجَرْبَزَة[١].

زعمٌ باطل، ووهمٌ خاطئ، جرَّ على المسلمين نكَبات وبلايا، لا يزالون يَرْزَحُون تحت أثقالها، وكيف يكون الأمر كما زعموا، والأبْلَه والمخدوع لا يصلح لأمر من أمور الدين، ولا لشأن من شؤون الدنيا، بل هو نكبةٌ أينما حَلَّ، وبليَّة حيثما ارتحل؟!!.

---

(١) الجُرْبُز ـ بالضمِّ ـ الخبُّ الخبيث، والمصدر: الجَرْبَزَة «قاموس».

أم كيف يكون الأمر كما ظنُّوا، وقد جاء القرآن الكريم يخاطب العقول، وينبِّه الألباب على ما احتوى عليه من عِبَر، وما اشتمل عليه من حِكَم؟! كما جاءت السنة حافلة بالثناء على ذوي البصائر والعقول تنويهاً باسمهم، وحثاً على الاقتداء بهم.

ثم لم يصْطَفِ الله تعالى رسولاً أو نبياً إلا وهو قدوة مثلى، في اليقظة والحزم، وأخذ الأمور بالتي هي أقوم.

ولم تأذن الشريعة الغرَّاء للمسلمين أن يولُّوا أمرهم أميراً أو قاضياً، إلا إذا كان معروفاً برجاحة العقل، وإصابة الرأي، وبُعْد النظر.

الجمع بين هذا الحديث وبين وقوله ﷺ: «المؤمن غرٌّ كريم»

ولا يُعارض هذا الحديث ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الرَسُول ﷺ قال: **«المؤمن غِرٌّ كريمٌ، والمنافق خَبٌّ لئيمٌ»**[(١)] فقد تكلَّم الحفَّاظ في سَنَده حتى ذهب بعضهم إلى أنه موضوعٌ. على أنّ وصف المؤمن فيه بالغَرارة جاء مُقابلاً لوصف المنافق بالخِبِّ والخِداع. وهذا جَليٌّ في أنَّ المراد من غرارة المؤمن: غفلتُه عن الشَّرِّ، وبُعدُه عن الخُبْثِ والمكر[(٢)]،

---

(١) رواه أحمد ٢ :٣٩٤(٩١١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤١٨)، وأبو داود (٤٧٥٧) في الأدب، والترمذي (١٩٦٤) في البرِّ والصِّلة. كلُّهم بلفظ: «والفاجر» ولم يأت في مصادر التخريج لفظ «المنافق». والحديث حَسَن بمجموع طرقه. كما في التعليق على «المسند» ١٥ :٥٩ـ٦٠ بتحقيق شعيب الأرناؤوط وتلاميذه.

(٢) قال ابن الأثير في «جامع الأصول» ١١: ٧٠١: «الغِرُّ: الذي لم يُجرِّب الأمور، وإنما جعل المؤمن غِرًّا نسبةً إلى سَلامة الصَّدر، وحُسْنِ الباطن والظنِّ في الناس، فكأنه لم يُجرِّب بواطن الأمور، ولم يطَّلع على دخائل الصدور، فترى الناس منه في راحة لا يتعدَّى إليهم منه شرٌّ، بل لا يكون فيه شرٌّ فيتعدَّى.

والخَبُّ: الخَدَّاع المكَّار الخبيث، ولذلك قابل به «الغِرَّ» لأنَّ الناس يتأذَّون به، لما يصلهم من شرِّه».

=

وهذه خَلَّة كريمة لا تحولُ بينه وبين الاحتراس من المكايد واليقظة في الأمور.

ومهما يكن من أمر، فلا جدال في أنَّ المؤمن الفَطِنَ الحَذِر، الكيِّس[١]، الرشيد خيرٌ من المؤمن العاجز الضعيف، وأجدرُ أن يكون خليفة الله في الأرض[٢].

وإذا امتدح ﷺ في المؤمن كياستَه، فلا يريد أن تصلَ به إلى منزلةٍ من الخُبْث والمكر وسوءِ الظنِّ، فإنَّ هذه من صفات المنافقين الذين يمقُتهم الله ورسوله، وإنما يريد الكياسة التي نبَّهْنا عليها، وهي التي تُعرِّفه الشرَّ لئلاَّ يقع فيه، وتُبصِّره عواقب الأمور؛ ليكون منها على حَذَر.

جواز الخداع والكذب في الحرب

نعم، أجاز صلوات الله وسلامه عليه الخداع في الحرب، بل الكذب فيها، وقال فيما رواه الشيخان عن جابر رضي الله عنه: «الحرب خدعة»[٣]؛ لأنَّ

وقال في «النهاية»٣ :٣٥٤_٣٥٥ في معنى قوله: «المؤمن غِرٌّ كريم»: «أي: ليس بذي نُكْرٍ، فهو ينخدع لانقياده ولينه، وهو ضدُّ الخَبِّ. يريد أنَّ المؤمن المحمود من طبعه الغَرارة، وقلَّة الفطنة للشرِّ، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلاً، ولكنه كرمٌ وحُسن خلق.

والخبُّ- بالفتح_ الخدَّاع، وهو الجُرْبز الذي يسعى بين الناس بالفساد. رجل خَبٌّ، وامرأة خبَّة، وقد تكسر خاؤه، فأما المصدر فبالكسر لا غير. كما في «النهاية»٢ :٤ .

(١) ومما ينبَّه له أن حديث: «المؤمن كيِّس، فَطِنٌ، حَذِر» رواه الشهاب القضاعي في «الشهاب» (١٢٨) من حديث أنس بن مالك. وهو حديث موضوع، فيه سليمان بن عمرو، أبو داود النخعي. قال أحمد وغيره: كان يضع الحديث. وأبان بن عياش: متروك متهم.

(٢) في إطلاق هذه اللفظة نظر، وانظر ماكتبه شيخنا العلامة المفسِّر عبد الرحمن حنبكة الميداني حفظه الله تعالى في كتابه «بصائر للمسلم المعاصر» ص١٥٢_١٨٤ بعنوان: مقولة «الإنسان خليفة الله في أرضه» مقولةٌ باطلة..

(٣) البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩). وخَدْعة بتثليث الخاء مع سكون الدال، وبضمها مع فتح الدال، وأفصح لغاتها: الفتح فالسكون.

الغاية من الحرب كَسرُ شوكة الأعداء. ويعلم كلٌّ من الخَصْمَيْن أنَّ صاحبَهُ لا يألو جهداً في الكَيْد له. وإذا كان للشجاعة، وكثرة الجند، وجودة السلاح أثرٌ عظيم في الفوز والغَلَبة، فقد تكون الخدعة في الحرب أعظم أثراً، وأبقى على النفوس والأموال.

ويشهد لهذا ما فعل نُعيم بن مسعود الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في واقعة الأحزاب، إذْ سعى بين المشركين وبين بني قريظة بما فرَّق بينهم حتى صَرَف الله كَيْدهم، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[١].

وفي خدعة الحرب يقول المُهَلَّب لبنيه: «عليكم في الحرب بالمكيدة؛ فإنها أبلغ من النَّجْدة»، على أنَّ الخدع في الحرب، أو الكذب فيها لا يجوز البتة فيما يؤدِّي إلى نقض عهدٍ أو أمان.

على هذه اليقظة الحميدة والكياسة السَّديدة، سار النَّبيُّ ﷺ، وخلفاؤه الراشدون، ثمَّ المسلمون الأوَّلون في تصريف شؤونهم وتدبير دولتهم، حتى كانوا بحقٍّ سادةَ الأمم وملوك الدنيا.

التفطُّن لمكايد الشيطان الرجيم عدوِّ الإنسان

وإذا كان جديراً بالمؤمن أن يتفطَّن لمكايد عدوِّه الذي يُبصره، فما أحراه أن يكون دائم اليقظة والفطنة لعدوِّه اللدود الذي لا يُبصره، ذلك هو الشيطان الرجيم، وعدُّو الإنسان المبين.

حذَّر الله عبادَه إغراءه وإضْلالَه، وضَربَ لهم أمثالاً من فتنه ومكايده، وقال جلَّ شأنه: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾[٢].

---

(١) اقتباس من الآية ٢٥ من سورة الأحزاب.

(٢) سورة الأعراف: ٢٧.

كما بيَّن النَّبيُّ ﷺ لأُمَّته طريقَ النَّجاة من دَسَائسه وَوَسَاوسه، حتى أخبرهم أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما روى الشيخان[١] من حديث أم المؤمنين صفيَّة.

ومع هذا فليس من أحد ـ ما خلا النبيِّين والصِّدِّيقين ـ إلا أوقعه في مكايده، وَصَادَه بمصايدِه، ثمَّ يأبى ـ وقد أفلته الله منه ـ إلا أن يغترَّ به، ويقع في مخالبه.

الحثُّ على التفطُّن واليقظة في شؤون الدنيا والآخرة

وقد استَبَان ممَّا قدَّمنا أنَّ الحديثَ يتناول الحثَّ على التفطُّن، واليقظة في شؤون الدنيا والآخرة معاً، فليس مقصوراً على أمور الدين خاصَّة، كما زعم بعض الشَّارحين. وما من شك في أنَّ من خُدع في إحداهما أَوْشَكَ أن يُخدع في أخراهما.

يقظة أولي الأمر وذوي الرأي

أما بعد؛ فإن لم يكن من مَطْمَع في يقظة المؤمنين جميعاً، وكياستهم في دينهم ودنياهم، وشؤونهم كلِّها كافَّة، فلا أقلَّ من أن يَسْتيقظَ أُولو الأمر منهم وذوُو الرأي فيهم، حتى يستعيدوا لأُمَّتهم بعضَ عِزَّتها، ويَسْتردُّوا لها شَطْراً من مَجْدِها وكرامتها. ولن يُغَيِّر الله ما بقومٍ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٢].

* * * * *

---

(١) البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) اقتباس من الآية ١١ من سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

عزَّة الكمال في الناس*

٥٠ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما الناس كالإبلِ المئةُ لا تكادُ تجد فيها راحلةً»[١]. رواه الشيخان[٢].

معرفة الناس وطبائعهم

مِنْ أعظم شرائط الدعوة، وأهم الأسباب في نجاح الداعي، معرفتُه أحوال مَنْ يدعوهم؟ وإلمامه بطباعهم، ومبلغ رقيِّهم وانحطاطهم؛ ليكون على بصيرة من دعوته.

ومن أجل ذلك تُعنى الأمم ـ ولا سيما المستعمرين منهم ـ بدراسة الاجتماع وطبائع النفوس وأحوال البشر؛ ولا تُولِّي سياسة البلاد إلاَّ من حنكته الخبرة، وَصَقَلَتْه التجربة، وفاز من هذه الدراسات بحظٍ كبير.

وأوْلى الناس بمعرفة الناس وطبائعهم هم الدعاة إلى الله عزّ وجل؛ لأنهم يبنون نفوساً متهدِّمة، ويعمرون قلوباً خربة، ويُصلحون فِطراً فاسدة، وينشئون أجيالاً جديدة. فما أشقَّ مهمتهم وما أثقل عبئهم!.

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الخامس عشر، رجب (١٣٦٣).

(١) يجوز أن تكون المئة صفة مفردة للإبل، وأن تكون مبتدأ والجملة بيان. والراحلة هي البعير القوي النجيب المختار في جميع أوصافه للسفر والركوب، وما أعزّها في الإبل (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٨) في الرقاق، ومسلم (٢٥٤٧) في فضائل الصحابة.

خبرة الرسل بأحوال الناس

وإذا كان رسلُ الله هم سادة الدعاة إليه، فليس عجباً أن يمنَحهم من الخبرة بأحوال الأمم أوْفى نصيب، وفي رعيهم للغنم وهم أحداث ـ وما من نبيٍّ إلا رعاها ـ ثم في تحمُّلهم مشاقّ الأسفار، ومفارقة الديار، تأييدٌ لما نقول؛ ولهذا كانوا أوسعَ الناس صدراً، وأجمَلَهم صبراً، وأجلَّهم سياسةً وحِلماً.

وإذا قَضَتْ حكمة الله تعالى أن يكون رسلُه في الفضل درجاتٍ، فلا بِدعَ أن يكون خاتمُ النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجلَّهم في العلوم منزلةً، وأعظمهم في المعارف رتبةً، وأوسعهم في طباع الناس علماً؛ لأنّ دعوته عامة، وشريعته خالدة.

ولقد تجلَّى ذلك في هديه وإرشاده، وتأليفه بين القلوب النافرة، واجتذابه للنفوس الشَّاردة، كما تجلَّى ذلك في وصاياه المختلفة، وحكمه البالغة، التي اقْتَلَعَت جذوراً شرِّيرة، وأبْرأت أدواء مُسْتعصية.

الإبداع في التمثيل

ومن الآيات البيِّنات على نُفوذ بصيرته، وبلوغِ خبرته بأحوال النفوس وطبائع البشر، هذا الحديث الجامع الذي يصف الناس فيه بأنهم كثير، ولكنّ الكامل فيهم قليل.

مثلُهم كمثل الإبل، تعدُّ المئة منها، بل المئتين فلا تقع على الراحلة النجيبة، الحسنة المنظر، الكريمة المخبر، التي استوت خَلقاً وخُلقاً، فلا تجد فيها ضعفاً ولا عيباً، ولا ترى فيها عِوجاً ولا أمْتاً.

وهكذا الناس، يعييك منها العدُّ والإحصاء، فلا يقع بصرك أو بصيرتك ـ إلا ما شاء الله ـ على كامل مكمّل، ترضى سجاياه كافة، وتُحمد أحواله عامة؛ بل لا بدّ من قذى في العين، أو شجى في الحلق، أو أذًى في النفس.

هذا تقيٌّ نقيٌّ إلا أنه يُخْدَع؛ وهذا قويٌّ سَريٌّ إلا أنه يَخْدَع؛ وهذا عالمٌ كبير لكنه ضعيف! وهذا حاكم خطير لكنه يحيف؛ وهذا شجاع كريم غير أنه فاسق؛ وهذا مفكّر عليم غير أنه ينافق. وقُل ما شئت من مدحٍ وثناء، ولكن لا بدَّ من الاستدراك والاستثناء.

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى: «الناس إلا قليلاً ممَّن عصم الله مدخولون في أمورهم؛ فقائلهم باغ، وسامعهم عيّاب، وسائلهم متعنّت، ومجيبهم متكلّف، وواعظُهم غير محقّق لقوله بالفعل، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف، والأمين منهم غير متحفِّظ من إتيان الخيانة، وذو الصِّدق غيرُ محترس من حديث الكذبة، وذو الدين غير متورِّع عن تفريط الفجرة، والحازم منهم تارك لتوقع الدوائر...».

من حكمة الله في هذا النقص

وكأنه ـ كما قال أبو حيَّان التوحيدي ـ لابدَّ من نقصان يعتري الإنسان، في كلِّ زمان ومكان؛ لئلا يستبدَّ باستطاعته، ولا يغترَّ بكماله، ولا يختال في مشيته، ولا يتهكَّم في لفظه، ولا يتحكَّم على ربِّه، ولا يعدو على بني جنسه؛ ولئلا يعرى من مُذَكِّرٍ بالله، وزاجرٍ عن أمر الله، وداعٍ إلى ما عند الله، ومُحَذِّر من عقاب الله، ومُرَغِّب في ثواب الله.

قَبَسٌ من نور النبوة

ولقد افتَّن الأدباء والشعراء في التعبير عن عزَّة الكمال في الناس، وقلّة الأخيار منهم، حتى قال قائلهم:

ما أكثر الناس، لا بل ما أقلّهم ... الله يعلم أنّي لم أقُل فَنَدا[1]

---

(١) الفند: الكذب وضعف الرأي.

إني لأُغمض عيني ثمَّ أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

قال أبو تمام:

إن شئتَ أن يسودَّ ظنُّك كله فَأَجِلْهُ في هذا السَّواد الأعظم

إلى شواهد كثيرة يحفظها أهل الأدب والبيان. بل لقد شكا الفاروق رضي الله عنه وهو في خير القرون قلّة الرجال، إذ قال: «اللهم إنّي أشكو إليك جلَدَ الكافر، وعجزَ الثقة».

أبدع الشعراء والأدباء في تصوير هذا المعنى ما شاء الله أن يُبدعوا، ولكنهم لم يخلُصوا إلى مثل هذه البلاغة النبوية، والحكمة الربَّانية، والتي تنبع من جلال الحقِّ، وتفيض من معين الصدق، وتجلي الحقيقة للعيان ساطعةً مشرقة، وأين مشاعل الشعراء، من مصابيح الأنبياء؟.

معنى آخر للحديث

وضح ممّا قدمناه أنّ الحديث يعني قلَّة الكاملين الخيِّرين المُصْطَفَين على كثرة الناس، كقلّة الراحلة النجيبة المختارة إلى الإبل، ويشهد لهذا المعنى آياتٌ كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2].

وإذا كان الكرام المُصْطَفَون قليلاً في السابقين، فهم أقلُّ من القليل في اللاحقين. لكنّ طائفةً قد تأوّلوه على أنّ الناس في أحكام الدين سواسية كأسنان المشط؛ لا فضل فيها لشريفٍ على مشروف، ولا لرفيع على وضيع، كالإبل

---

(١) سورة الأنعام: ١١٦.

(٢) سورة سبأ: ١٣.

الكثيرة المستوية في فقدان الراحلة. وليس غلوًّا أن نقول: إنّ هؤلاء قد انحرفوا عما يقصد إليه الحديث المبين.

تقدير الكمال

ثم إنَّ الناس يختلفون في تقدير الكمال اختلافاً كثيراً، تبعاً لعصورهم وتربيتهم وبيئاتهم. ولقد أُولِع الإنسان ـ ولا يزال ـ بتصوير مَثَل كامل ينزِّهُهُ عن كلِّ نقصٍ بشري، ويمنحه كلّ جمال إنساني، ثم يتخذه قدوته وغايته، ولكنه ـ ويا للأسف ـ لا يزال عاجزاً عن مداناة هذا المثل فضلاً عن تحقيقه.

والكامل عند علماء الأخلاق والتربية: من قويَ جسمُه حتى أصبح آلةً سليمة في فعل الخير، وعدَّةً قويمة في إنتاج البر؛ ونَضَجَ عقله وحصف حتى حال بينه وبين الفساد، وسَلَكَ به سبيلَ الرَّشاد؛ ولطفت روحه وسَمَت حتى بوَّأته مقاعدَ الصدِّيقين.

وللصوفية مجالٌ كبير في تصوير الإنسان الكامل. وصفوَةُ القول فيه عندهم: أنه مَنْ يرقى بنفسه؛ ويسلك طريق الأنبياء والمقَرَّبين حتى يتَّصلَ بالله عزَّ وجل؛ وحينئذٍ يذوق ما لا يذوق الناس، ويرى ما لا يرون، ويعرف ما لا يعرفون.

نموذجان من الكمال الإنساني

ولا نرى بأساً أن نشيرَ هنا إلى صورتين جميلتين من نماذج الكمال الإنساني، نرجو بذلك أن نأخذَ أنفسنا بهما أو بإحداهما، ويُيسِّر السبيل إليهما أنهما ليستا من الأمور النظرية، ولا ينقص من ينتهجهما إلا صدق الرغبة، ومضاء العزيمة في قليلٍ من المرَانة والصبر.

قال عليٌّ كرَّم الله وجهه في صفة المتَّقين: «فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوَّةً في دين، وحزماً في لِين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمُّلاً في فاقة، وصبراً في شدّة، ونشاطاً في هُدى، وتحرُّجاً عن طمع. يعمل الأعمال الصَّالحات وهو

على وَجَل؛ يمسي وهمُّه الشكر، ويصبح وهمُّه الذكر؛ مُقْبلاً خيره، مُدْبراً شره؛ في الزلازل وقور، وفي المَكَاره صَبُور، وفي الرخاء شكُور؛ نفسه في عناء، والناس في راحة».

وقال أحد الحكماء: إنّي مخبرك عن صاحبٍ لي، كان أعظمَ الناس في عيني، وكان رأسُ ما أعظمه عندي صغرَ الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجده، ولا يكثر إذا وجد؛ وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه مؤونة، ولا يستخف له بدناً ولا رأياً؛ وكان خارجاً من سلطان الجَهَالة، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة؛ وكان لا يشكو وجعاً إلاَّ عند من يجد عنده البُرء، ولا يصحب إلاَّ من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرَّم ولا يتسخَّط، ولا يتشهَّى ولا يتشكّى، ولا ينتقم من الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

الكمال درجات

وأياً ما كان الأمر فالكمال على أنحاءٍ ودرجات، ومحالٌ أن يجتمع في كلِّ نواحيه إلاَّ للأنبياء والمرسلين، والناس بعد هؤلاء على حظوظ متفاوتة على حسب اقترابهم، أو تباعدهم من الكمال والكاملين، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

ثم إنَّ الكمال أمرٌ نسبيٌّ، فَرُبَّ مفضولٍ في الأوَّلين يكون مثلاً كاملاً في الآخرين، ومهما وصف الواصفون في ضروب الكمال وسبله، ففي كتاب الله وسنّة رسوله هدى ونورٌ وشفاء لما في الصدور. وحسبنا آية البر[2]، وسورة

---

(١) سورة فاطر: ٣٢.

(٢) ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة:١٧٧].

العصر، وأجمع آيةٍ لخيرٍ يُمتثل وشرٍ يُجْتنب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

من لطائف الحديث وأسراره

وحقٌّ على من فهم هذا الحديث أن يأخذَ العفو ويأمر بالعرف، وأن يُحسن ما وَجَدَ إلى الإحسان سبيلاً، ولا ينتظر من الناس ـ والنقص في طبائعهم ـ ملائكةً أطهاراً، أو صدّيقين أخياراً، فإنه حينئذ يطلب ما لا سبيل إليه. وليكن مع هذا كلّه على حذر من الناس يستره، في ظنٍّ حسن وخُلُقٍ كريم.

وفي الحديث منافسةٌ كريمةٌ، يدركها السبَّاقُون إلى الخير، والغُيَّرُ على المكارم، فيعملون على أن يكونوا في الناس كالرواحل في الإبل «وقليل ما هم».

أما بعد، فإنَّ الواصفين أكثر من العارفين، والعارفين أكثر من الفاعلين، فلينظر امرؤ أين يضع نفسه؟.! .

* * * * *

(١) سورة النحل: ٩٠.

من حُسْن إسلام المرءِ تركُه ما لا يعنيه *

٥١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تركُه ما لا يَعْنيهِ»[١]

جوامع الكلم

أُوتيَ النَّبيُّ ﷺ جوامعَ الكَلِم، واخْتُصِرَ له الكلامُ اختصاراً.

ومن جوامع كلمه، ولوامع حِكَمِه هذا الحديث، الذي نحن بصدده، والذي نحاول بعون الله أن نكشف الغطاء عن بعض ما يكنُّ من دقائق وأسرار. ولنبدأ بكلماتٍ في إسلام المرء، وحُسن إسلامه، وما يعنيه، وما لا يعنيه؛ فإنها المنفذُ إلى مكنونات الحديث.

أمَّا إسلام المرء: فهو انقياده لشرع الله الذي شَرَعَ لعباده وتعبَّدهم به، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوفِ عند حدوده وآدابه.

وأما حُسْن إسلام المرء: فهو قيامُه على هذا الشَّرع، وتقبُّله له بجميل الرعاية، فيما أمر ونهى، وأحبَّ وكره.

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الرابع عشر، جمادى الآخرة (١٣٦٢)، وهذا أول حديث بدأ بشرحه العلامة طه الساكت رحمه الله تعالى، ونُشر له في مجلة الأزهر.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٨) في الزهد، وابن ماجه (٣٩٧٦) عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد ١ :٢٠١(١٧٣٧) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما. والحديث حَسَنٌ بشواهده.

وتختلف مراتبُ الحُسْن باختلاف هذه الرعاية، فعلى قدر ائتماره وانتهائه يكون إسلامه، كما أنه بحسب إخلاصه ويقينه يكون إيمانه. وتَبَعاً لهذا اختلف المسلمون قوّةً وضعفاً، وحقيقةً وزعماً، حتى سما بعضهم عن الملائكة الكرام، وسفَل بعضهم عن بهيمة الأنعام: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1].

ما الذي يعني المرء؟

وأما الذي يعني المرء فهو كلُّ ما يهمُّه في دينه ودنياه، وآخرته وأُولاه، من علم نافع، وعمل صالح، وسعيٍ حميد إلى غرض مجيد.

يَعني المرء في حياته أن يُقبِل على نفسه فيُهَذِّبها، ويستكمل فضائلها، وعلى عمله، فيُحسنَه ويتقنه غير وكِلٍ ولا كَسِلٍ، وعلى حقوق الله وحقوق عباده فيؤدِّيها كاملةً غير منقوصة.

ويَعني المرء في حياته، أن يُحسن إلى أهله وعشيرته، بتعليمهم وإرشادهم، وتقويمهم وإصلاحهم؛ فإنه راعٍ لهم، والله سائله عمّا استرعاه، وأن يُحسِن إلى أُمَّته وبلاده؛ فلا يدَّخر وسعاً في رفعتها وإعلاء شأنها، ولا يألوَ جهداً في ابتغاء الخير لها؛ فإنه عضوٌ منها ولَبِنَةٌ في بنائها، وإذا شلَّ عضوٌ تداعت له سائر الأعضاء، وإذا سقطت لبنة أوشك أن يتصدَّع البناء.

الترويح عن النفس

ويدخل فيما يعني المرءَ ما يُروِّح النفسَ، ويُجمُّ القلب من عناء العمل وهموم الحياة، على ألاَّ يجافي المروءة، أو يجاوز حدَّ الأدب. وقد كان ﷺ

(١) سورة محمد ﷺ: ١٧.

يمزح ولا يقول إلا حقاً[١]، وقد ضحك حتى بَدَتْ نواجذه[٢]، وإن كان جُلُّ ضحكه التبسُّم[٣].

وَيُؤْثَر عن عليٍّ رضي الله عنه: أجمُّوا هذه القلوب، والتمسوا لها ظرفَ الحكمة؛ فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدان.

والنفس ـ كما قال صاحب «العقْد» ـ مُؤْثِرة الهوى، آخذةٌ الهوينى، جانحةٌ إلى اللّهو، أمّارةٌ بالسوء، مستوطنةٌ للَعجز، طالبةٌ للراحة، نافرةٌ عن العمل، فإن أكرهتها أنضَيْتها[٤]، وإن أهملتها أرديتها[٥].

ولا رَيْبَ أنَّ الناس مختلفون فيما يعنيهم، اختلافهم في النزعات والميول بما أودع الله كُلاًّ من عُدَّة، وما وَهَب لكلٍّ من هِبة.

جماع القول فيما يعني المرء ومالا يعنيه

جماع القول فيما يعني المرء هو: ما ينفعه في حاله ومآله وعاجل أمره

---

(١) روى الترمذي في «السنن» (١٩٩٠) وقال: حسن، وفي «الشمائل» (٢٣٧) عن أبي هريرة قالوا: يارسول الله، إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية» ٥ :٢٠: «النواجذ من الأسنان: الضواحك، وهي التي تبدو عند الضحك، والأكثر الأشهر أنها أقصى الأسنان. والمراد الأول؛ لأنه ما كان يبلغ به الضحِك حتى تبدُوَ أواخِرُ أضراسه» انتهى.وينظر «الشمائل النبويَّة» للترمذي، باب ما جاء في ضحك رسول الله ﷺ، والأحاديث التي أوردها في بدوِّ نواجذه الشريفة ﷺ (٢٢٩) و (٢٣٢) و(٢٣٤).ولشيخ بعض شيوخنا السيد أحمد بن الصدِّيق الغماري رحمه الله تعالى: «شوارق الأنوار المنيفة في بدوِّ النواجذ الشريفة».

(٣) روى الترمذي في «السنن» (٣٦٤٢)، وقال: صحيح غريب، و«الشمائل» (٢٢٨) عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: «ماكان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسُّماً».

(٤) أهزلتها.

(٥) العِقْد، لابن عبد ربه ٦ : ٣٩٣.

وآجله، و«كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له»[١].

وإذا عَرَف كلُّ امرئ ما يعنيه، سَهُل عليه أن يعرف ما لا يعنيه؛ وبضدِّها تتميَّز الأشياء. فإذا لم يكن بُدٌّ من قولٍ جامعٍ لِما لا يعني المرء، فهو: كل ما لا يهمّه في دينه ودنياه، وحاله ومستقبله، من لغو القول، وعبث الفعل، وسَفاف الفضول.

وفضول الناس لا تقف عند حدٍّ، ولا يُستطاع ألبتَّة حَصْرها في عدد؛ لأنها فنون متشعِّبة؛ وضروبٌ متكثِّرة، وألوانٌ مترجِّحة بين لغو المباحات، وكبائر المنكرات.

أمثلة من فضول الناس

وقُصارى ما يمكن إنَّما هو سياقة أمثلة لها تكون نَموذجاً لما وراءها.

فمنها: سؤال بعضهم بعضاً من أين أقبلت؟! وإلى أين تذهب؟! وكيف عيش فلان؟! وما مرتبته؟! وماذا يملك، إلى غير ذلك من أسئلة وبحوث يضيق بها المسؤول ذرعاً! إن كذب أثم، وإن صدق حرِج؛ وربما كشف عورة أو أذاع سراً؛ ولا يجني السائل من ورائها إلا ضعفاً في دينه، ونقصاً في خلقه، وغمطاً في مروءته!!. وخير جواب لهذا السفيه هو السكوت والإعراض، أو التذكير بمثل هذا الحديث؛ ولا بأس بردِّ سؤاله عليه، أو مفاجأته بما لا يرتقب، قصد تنبيهه على أنَّ سؤاله هذا من سَقَط المتاع.

ومنها: تعاطي بعضهم ما لا يحسُن، وتكلُّفه ما لا يستطيع، وإنفاقُه العمر ـ

---

(١) اقتباس من حديث رواه مسلم (٢٦٤٩) في القدر من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رجل: يارسول الله: أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم . قال: ففيمَ يعمل العاملون؟ قال: «كلٌّ مُيسَّرٌ لما خلق له» . وفي رواية البخاري في القدر: «كلٌّ يعمل لما خُلق له، أو يُسِّر له».

وهو رأس ماله ـ فيما لا يعود عليه وعلى أمته إلا بالويل والشقاء.

وكم في النوادي والمجتمعات، والبيوت والطرقات، من ساسةٍ يرسُمون خطط الحرب، ويتطوَّعون بالحُكم على بعض الدول دون بعض، وهم أعجز الناس عن سياسة أنفسهم وبيوتهم! ومن مصلحين يملؤون الدنيا صياحاً وعويلاً، وهم أجهل الناس بمبادئ الإصلاح وأسسه، وأحوج الناس إلى تقويم أَوَدهم، وإصلاح شؤونهم! ومن مفتين جاهلين يفتون بغير علم، فيَضلّون ويُضِلّون، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون! إلى طوائف لا نطيل بذكرها، فهم ـ و يا للأسف ـ سواد هذا المجتمع المسكين ولا علاج لهؤلاء ـ إن شاء الله ـ إلا أن يُذهبهم ويأتي بخلق جديد.

هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما لا يعني المرء؟

ولا يدخل في هذا الباب أمرُ المرء بالمعروف ونهيه عن المنكر، وتطوُّعه للخير؛ فإنَّ هذه وما إليها من معالي الأمور، وقواعد الإصلاح، ومهمَّات الدين. كيف لا وقد نفى الله الخير عن كثيرٍ من نَجْوى الناس وكلامهم إلاّ من أمر بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس[1]؟!

وهذا أبو بكر رضي الله عنه يصعد منبر رسول الله ﷺ فيحمد الله، ويثني عليه ثم يقول: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية، وتتأوَّلونها على غير تأويلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[2]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على

(١) اقتباس من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [١١٤].

(٢) سورة المائدة: ١٠٥.

يديه، أَوْشَكَ أن يعمَّهم الله بعقاب من عنده»[١].

ذلك، وواضحٌ أنه إذا كان من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه كان ـ ولا محالة ـ من حُسن إسلامه كذلك اشتغاله بما يعنيه. ومن كان له عقلٌ يمنعه أن يشتغل بما لا يفيد، فخليقٌ بمثله أن يشتغل بما يفيد.

لماذا آثر النبُّي ﷺ ناحية الترك على ناحية الفعل؟

وإنما آثر النبيُّ ﷺ ناحية الترك على ناحية الفعل؛ لأنَّ التروك على كثرتها لا تُكلِّف الناس شيئاً فهم سواء، وما عليهم ـ إن أرادوا الخير لأنفسهم ـ إلا أن يجافوها ويسكتوا عنها، ولا يُصيخوا لدواعي الهوى ونزعات الشهوات؛ أما الأفعال ـ وهي محدودة أو تكاد ـ فهي تحصيلٌ وإنشاء، وليس كلُّ الناس قادراً على البناء، ثمَّ إنَّ حياة القادرين ـ بَلْهَ العاجزين ـ لا تتَّسع مهما امتدت لكلِّ الواجبات، فضلاً عن سائر المهمَّات، ولذلك قامت النيَّات عند العجز مقام الأعمال.

عنايته ﷺ بالتروك وتحذيره من المناهي

من أجل ذلك كانت عنايته صلوات الله وسلامه عليه بالتُّروك أشدَّ، وتحذيرُه من المناهي أغلبَ، ومن أجل ذلك قال: «ذَرُوني ما تركتُكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد ١: ٢ (١)، وأبو داود (٤٣٣٨) في الملاحم، والترمذي (٣٠٥٩) في أبواب تفسير القرآن، والفتن (٢١٦٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر: التعليق على المسند، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٧)، وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾ [المائدة:١٠١] فإن بينها وبين الحديث عهداً، وكأنه مستمدٌّ منها (طه).

وإذاً فلا عُذر لمن قارَفَ شيئاً مما لا يعنيه؛ والعذرُ كلُّ العذر لمن عجز عن بعض ما يعنيه، وذلك سرٌّ من أسرار هذا الحديث.

وسرٌّ آخرٌ، وهو أنَّ الإنسان ـ كما قال علماء النفس ـ لا بدَّ له أن يفكِّر، ثمَّ لا بدَّ له أن يعمل، فإذا ترك ما لا يعنيه انحصر همُّه فيما يعنيه، فانقطع له وردَّد النظر فيه، وأفرغ جهده في إجادته وإتقانه، وذلك سبيل التقدُّم والنبوغ، والابتكار والاختراع في العلوم والفنون على اختلاف أنواعها وتفاوت طبقاتها. وما أحوجنا إلى إحسان الأعمال إذا ابتغينا العزَّة والكمال.

وسرٌ ثالث، وهو: أن شُغْل المرء بما يعنيه حِصْنٌ له من الذلّة والمهانة والتسكُّع والاسْتجداء، وجُنَّة له من الموبقات والآثام، بل حمايةٌ للمجتمع من النفاق والشقاق ومنكرات الأخلاق، وهل ازدحمت المحاكم، واكتظَّت السجون وتناحر الناس، وأوقدوا بينهم نار العداوة والبغضاء إلا لأنَّهم أفرطوا في اللغو والفضول، وقتلوا الوقت في الآثام والشرور؟! وهل يُنتَظر من جنود البَطالة والفراغ إلا ذاك؟!.

تربية الثقة بالنفس

لا غرابة إذاً أن يشير الحديث إلى تربية الثقة بالنفس، والاعتزاز بها والاعتماد عليها، في غير صَلَفٍ ولا ازدهاء؛ فإنَّ الانقطاع إلى العمل سرُّ النجاح فيه، والنجاحُ يدعو إلى النجاح. ومن جنى ثمرة عمله، أوشك أن يمتلئ قوّةً وإقداماً وعزماً وحزماً، وهنالك يدهشُ الألباب، ويأتي بالعَجَب العُجَاب.

يفاخر الغربيون ومَنْ لفَّ لَفَّهم بتقدُّمهم في العلوم والفنون والتربية والاجتماع، ويشكو الشرقيون تأخُّرَهم في قافلة الحياة، وقد كانوا ملوك الدنيا وأئمة العلوم.

فلولا جلس الأوّلون بين يدي هذا النبيِّ الأميِّ الكريم، ليتعلَّموا في ساعةٍ من نهار، ما أنفذوا فيه المحابر والأعمار، ثم لم يبلغوا المراد، وما هم ببالغيه، وهلاَّ

اهتدى الآخرون بهديه، واقْتفوا أثر الصحابة فاستردُّوا مكانهم، واستعادوا سيرتَهم، واستراحوا وأراحوا من عناء الضجيج، وبلاء الشكوى والصياح؟! ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[(١)].

دعوة الحديث إلى الورع والعلم والعمل

هذا، وفي الحديث دعوةٌ إلى الورع، والورعُ: صفوة الدين، وعماد التقوى، وملاك الخير كله.

كان عليٌّ رضي الله عنه يختبر القصَّاص؛ فَمَنْ رآه أهلاً للتذكير تركه وإلا أقامه.

مرَّ رجلٌ بالحَسَن البصري رحمه الله، وهو يُذَكِّر الناس، فقال له: ما عماد الدين؟ فقال: الورع، قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فقال له: تكلَّم الآن إنْ شئتَ.

وروى الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد حسن، أنه ﷺ قال: «فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة، وخيرُ دينكم الورع»[(٢)].

وأخيراً يدعو الحديث إلى العلم والعمل، والهدى والتُّقى، وأولئك أبواب الرحمة، ومفاتح الحكمة: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٣)].

جوامع الكلم وينبوع الحكم

أوَرأيت بعد هذا كيف أُوتي ﷺ جوامعَ الكلم، واختُصِر له الكلام

---

(١) سورة الأنفال: ٥٣.

(٢) أخرجه الطبراني في« الأوسط» (٣٩٦٠)، والبزار (١٣٩) من حديث حذيفة بن اليمان بإسناد حسن- كما قال: المنذري في «الترغيب» (١٠٣).

(٣) سورة البقرة: ٢٦٩.

اختصاراً، فبَلَّغ رسالاتٍ في كلمةٍ، وهدى أمماً في حكمةٍ؟!.

أوَرأيت بعد هذا كيف قال الأئمة بحق: إنَّ هذا الحديث مجَمْع الآداب، وينبوع الحكم، وأنه لم يدع فضيلة إلا رغَّب فيها، ولا نقيصة إلاَّ نفَّر منها؟!.

أولم تعلم بعدُ أنَّ حديث خاتم النبيين من بعد كلام ربِّ العالمين؛ لا تفنى عجائبه، ولا تنتهي بدائعه، ولا يغيض يَنبوع حكمه وأسراره، وأنه نورٌ مبينٌ، وهادٍ إلى الصراط المستقيم؟!.

* * * * *

الصِّحَّة والفراغ*

٥٢ ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ: «نعْمَتَانَ مَغْبونٌ فهما كثيرٌ من النَّاس: الصِّحَّة والفَرَاغ». رواه البخاري[١].

هذا الحديث أيضاً من جوامع كلمه، صلوات الله وسلامه عليه. وقصداً إلى الإيضاح جعلنا القول فيه ذا شعب ثلاث: الأولى في مفرداته، والثانية معناه، والثالثة في بعض ما يشير إليه من لطائف وأسرار.

المفردات:

نعمتان: فُسِّرت النِّعمة ـ بكسر النون ـ بالإنعام، وبالحال الحسنة التي يكون عليها الإنسان، وبما منَّ الله به على العبد من فَضْل وإحسان. وهذا أنسب المعاني هنا[٢].

ويرى الإمام الغزالي أنَّ النعمة بحقٍّ هي السعادة الأخروية، وكلُّ ما يعين عليها من قُرب أو بُعد، وأما السَّعادة الدنيوية وما يعدُّه الناس خيراً ولذة، مما لا يؤدِّي إلى سعادة الآخرة ولا يعين عليها، فليس من النعمة في شيء؛ فإنْ سُمِّيَ نعمة، فذلك من قبيل التجوُّز أو الغلط[٣].

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الرابع عشر، (١٣٦٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢) في كتاب الرقاق.

(٢) وأما النَّعمة بالفتح، فهي: التنعُّم، [وبالكسر: الإنعام]، وبالضم فهي: المسرَّة كما في «الكشاف» [٤ :٦٤٠] (طه).

(٣) إحياء علوم الدين، كتاب الصبر والشكر، في الركن الثاني من أركان الشكر: بيان =

مغبون: مغلوبٌ مخدوعٌ، أو قليل الفِطْنة ضعيفُ الرأي؛ الأول من قولهم: غبنه في البيع أو الشراء، إذا غَلَبه وخَدَعه وبخَسَه شيئه؛ والثاني من قولهم: غبن رأيه، إذا قلَّت فطنته، ونقص ذكاؤه[1].

الصحة: خلاف المرض، أو هي سلامة الجسم من العيوب والآفات. وفسرها صاحب «المصباح»: بأنها حالة طبيعية في البدن، تجري أفعاله معها على المَجْرى الطبيعي. وصحَّ يصح فهو صحيح وصَحاح.

الفراغ: خلاف الشُّغل، والمراد: كفاية المؤونة، وخلو البال من شواغل العيش. ومن دعوات صاحب «الأساس»: «اللهمَّ إني أسألك عيشاً رافغاً، وبالاً فارغاً»[2].

* * * * *

نعمتان كبيرتان

نِعَمُ الله تعالى كثيرةٌ، وأحقُّها بالرعاية وأَوْلاها بالشكر ـ وهو حُسن توجيه النعمة وصرفها فيما خُلِقَت له ـ هاتان النعمتان الكبريان: نعمتا الصحة والفراغ؛ ذلك بأنهما رأس مال المُتَّجر في الآخرة والأولى، وأعظم وسائل السَّعادة في الدين والدنيا. وهل يُحسن عابدٌ عبادَته، أو يتقن عاملٌ عملَه، أو يصابر داعٍ في دعوته، أو يوفي راعٍ حقَّ رعيّته، إذا سُلب تاجَ الصحة، أو غُلَّ بأغلال العيش وأثقال الحياة؟!.

حقيقة النعمة وأقسامها ٤ :٩٩.

(١) الأول: مُتَعدّ، وبابه ضرَب. والثاني: لازم، وبابه تعب. وقد ينصب ما بعده على نزع الخافض أو على التمييز كقولهم: رشد أمره وسفه نفسه. انظر «اللسان» (طه).

(٢) أرفَعَ: اتَّسعَ عيشُه ورَغِدَ. والأرفعُ من العيش: الخصيب الواسع. وصاحب الأساس هو العلامة المفسِّر اللغوي الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ رحمه الله تعالى.

وإذا كان الشكر على قدر العطاء، فحقيقٌ بمَن آتاه الله إحدى هاتين النعمتين ألاَّ يدَّخر وُسْعاً في تثميرها والانتفاع بها، وإن حُرِمَ أختها، وهي لها نِعْمَ الظهير والمعين!.

الاتِّجار في الخيرات والمنافسة في الصَّالحات

أما مَنْ أسبغ الله عليه النعمتين، وجمع له بين الرغبتين؛ فكساه حُلَّة الصحة والعافية، وكفاه مؤونة العيش والحاجة، فما أحقَّه بالاتّجار بالخيرات والمنافسة في الصالحات، وما أخْلَقَه بالعمل فيما يعود عليه وعلى أمته بالنفع والخير والفلاح، والرَّشاد! وما يمنعه وقد تنحَّتْ عنه العوائق وتهيَّأتْ له الأسباب؟!.

وإذا كان إنتاج رأس المال، إنما بحُسْن التدبير والإعمال ـ كما يقول علماء الاقتصاد ـ فما ثمرة نعمةٍ عطَّلها صاحبها، أو ضيَّعها في الغيِّ والفساد؟!.

مَثَل الذين صرفوا أوقاتهم في الشهوات والأهواء

مَثَلُ أولئك الذين أضاعوا شبيبتهم في اللهو واللعب، وأعمارهم في الشهوات والأهواء ـ وكثيرٌ ما هم ـ كمثل الأغرار من التجار تخدعهم زخارفُ الأشياء، فيستبدلون الرخيص بالثمين والخبيث بالطيِّب، فتحقُّ عليهم كلمةُ الإفلاس والهوان.

إنَّ النفس لتذهبُ حَسَرات، وإن القلبَ ليتقطَّع زَفَرات على شُبَّان وشواب، وأشباه رجال ونساء، ينفقون حياتهم ـ وهي أغلى ما يملكون ـ في غير فائدة ولا جدوى، فضلاً عن المآثم والمضار!.

ولو لم يُصب هذا الداء العَياء إلا السِّفَلة والأوغاد، لكان هَمًّا مُحتمَلاً وخطباً هيِّناً، ولكنه فشا في عِلْية القوم، وخاصَّة الأمة ومن يُرَجَّون لمصلحة البلاد!!.

مثل الذين صرفوا أوقاتهم في طلب المعالي وعمل الصالحات

ومَثَل هؤلاء الذين صرفوا أوقاتهم في طلب المعالي، وتحصيل الفضائل وادِّخار الصالحات كَمَثَل الحُذَّاق من التجار؛ يشترون البضائع الجزيلة بالأثمان القليلة، فيضاعفُ لهم الرِّبح، ويمتازون بالفضل والثراء.

وما الناس في هذه الدار إلا تُجَّار، وإن اختلفت ألوان التجارات، ورؤوس الأموال.

خير تجارة وأزكاها

ألا وإنَّ خير تجارةٍ وأزكاها، وأسلمها وأنماها، هي التجارة مع الكريم المنان، ذي الفضل والإحسان، الذي يشتري الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

سرُّ تخصيصه ﷺ هاتين النعمتين بالذكر

دلَّ تخصيصُه ﷺ هاتين النعمتين بالذكر على عظيم فَضْلهما، وكريم خطرهما، وإن استهان بهما الناس فلم يقدّروهما قدرهما، شأنهم في كلٍّ جليل من النعم وكريم من الهبات، لا سيما النعم التي تعمُّ العباد على السواء!!.

واعتبر بالشمس والهواء، والنار والماء؛ لا يعيشُ بدونها على أديم الأرض مخلوقٌ، ومع هذا فهم عنها عَمُون، ولفضلها جاحدون. ثم هم بعد ذلك يعظِّمون مُحقَّرات الأمور، ويتنافسون على توافه الأشياء.

---

(١) سورة الصف: ١٠ ـ ١٢.

دُعيَ الحسن البصري إلى طعام ومعه فرقد السِّنجي[١] وأصحابه، فقعدوا على المائدة، وعليها الألوان من الدجاج المُسمَّن والفالوذ[٢]، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدِّي شكره، فقال: أيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنَّه جاهل؛ إنَّ نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ! ثم أقبل عليه، فقال: «يا فُريقد، أترى لعاب النَّحل، بلباب البُرِّ، بخالص السمن، يعيبه مسلم»؟!.

على قدر إلف النعمة تكون الغفلة عنها

ويبدو جلياً أنه على قدر إلف النعمةِ ولزامها تكون الغفلة عنها، وقلما ذكر أحد نعمة ألفها، إلا بعد فقدها، ومن هنا قيل: إنَّ الصحة تاجٌ على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى.

عنايته ﷺ بأمر الصحة

يُعنى علماء التربية والأخلاق بأمر الصحة والفراغ، وَيبسْطون الوسائل في تدبيرها وحُسن القيام عليها؛ لأنَّ الصحة هي الشرط الأوَّل لقيام الإنسان بالفضائل والواجباتِ، وتأديتها على خيرِ وجه وأكمله. كما يعنون بالرياضة البدنية؛ لأنها من ألزمِ الأمور لتوفير صحةِ الجسم ونشاطه، ولأنها تشغل صاحبها عن العبث والهوى.

ولكن سبقهم إلى هذا كلِّه سيد الحكماء والمربين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ علماً وعملاً وهدياً وإرشاداً.

جاء في مسند الإمام أحمد، أنه ﷺ قال للعباس رضي الله عنه: «يا عباس؛

---

(١) سِنج بكسر السين: قرية من قرى مَرو، ينسب إليها جماعة من أهل العلم (طه).

(٢) في «المختار»: الفالوذ والفالوذق معرَّبان، قال يعقوب: ولا تقل: الفالوذج. وفي «القاموس»: الفالوذج، واقتصر عليه، حلواء معروفة (طه).

يا عمَّ رسول الله: سَل العافية في الدنيا والآخرة»[١].

وروى الترمذي وغيره من حديث عبد الله بن مِحصَن الأنصاري[٢]: «من أصبح معافى في جَسَده، آمناً في سِرْبه، عنده قوتُ يومه فكأنما حِيزَت له الدنيا»[٣].

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال لرجل وهو يعظُه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحتَك قبل سقمِك، وغناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شغلِك، وحياتك قبل موتك»[٤].

---

(١) رواه أحمد ١: ٢٠٩ (١٧٨٣)، والترمذي (٣٥١٤)، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٢) ويسمَّى أيضاً: عُبيد الله، بالتصغير، قال الذهبي في «الكاشف» (٢٩٤٥): «عبد الله ابن مِحْصَن الأنصاري، اختُلف في صحبته، عنه ابنه سلمة». وقال الحافظ سبط ابن العجمي في «حاشيته على الكاشف» ١: ٥٩٢: تابع المؤلفُ المزيَّ هنا، وفي «التذهيب» في ذكر عبد الله هذا مكبَّراً، وأنه اختُلف في صحبته، وقد قال مُغْلطاي: إنه لم يره في كتب العلماء إلا مصغَّراً مجزوماً بصحبته. انتهى. وقد ذكره المؤلف في «تجريده» مصغَّراً مجزوماً بصحبته، ثم قال الذهبي في آخر ترجمته: وقيل: بل هو عبد الله.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١٤١)، ورواه أيضاً البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠) كلُّهم من طريق سلمة بن عبيد الله بن مِحْصَن، وسَلَمة: قال أحمد: لا أعرفه، وليَّنه العقيلي كما في «حاشية الكاشف» (٢٠٣٨)، وفي «التقريب» (٢٤٩٩): مجهول. ورواه أيضاً ابن حبان في «صحيحه» (٦٧١) من حديث أبي الدرداء، وسنده ضعيف جداً، فيه عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن بن أبي عَبْلة. قال الذهبي في «الميزان» و«المغني»: «متَّهم بالكذب». ومع ذلك فقد ذكره ابن حبان في «الثقات» ٨: ٣٥٧. ونسبه الهيثمي في «المجمع» ١٠: ٢٨٩ إلى الطبراني، وقال: «رجاله وثِّقوا على ضعف في بعضهم». وقوله: **في سِرْبه**، أي: في نفسه. يقال: فلانٌ واسع السِّرب، أي: رخيّ البال، وروي بفتح السين، وهو المسلك. كما في «جامع الأصول» ١٠: ١٣٦. **والحذافير**: عالي الشيء ونواحيه، يقال: أعطاه الدنيا بحذافير، أي: بأسْرها، الواحد: حذفار.

(٤) انظر: كتاب الرقاق في «فتح الباري» (جـ ١١)، و«زاد المعاد» (جـ ٣)، و«شرح =

وكان ﷺ لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لا يشبع[١]، وما أكل طعاماً تعافُه نفسه، وما أدخل طعاماً على طعام قط، وكان لا يتشهَّى ولا يتكلَّف. وقد تداوى وأمر بالتداوي، ولكن الوقاية عنده خير من العلاج؛ وهذا منتهى ما وصل إليه الطب الحديث.

ومن اهتدى بهديه في تدبير المَطْعَم والمَشْرب والنوم واليقظة، والسُّكون والحركة، فإنه لا يحتاج إلى طبيب قط.

تَجْزئته ﷺ لوقته

أما وقته صلوات الله عليه، فكان يُجزِّئه ثلاثة أجزاء: جزء لله عزَّ وجل، وجزء لأهله، وجزء لنفسه؛ ثم يُجزِّئ جُزأه بينه وبين الناس، فيتعهَّدهم ويبرُّهم ويتولَّى شؤونهم، ويُخبرهم بالذي ينبغي لهم، ويُؤْثر أهلَ الفضل على قدر فضلهم في الدين، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

تقدير السلف للوقت

وبعد، فإذا أهمَّنا الخير لأنفسنا وبلادنا، فَلْنسارع إلى حلٍّ هذه المشكلة العظمى؛ مشكلة الحياة وإضاعتها سُدى.

وفي طليعة ما نتقدَّم به من علاج هو النظر في تاريخ أسلافنا الأماجد، الذين قَدَّروا الوقت حقَّ قدره، ولم يُفرِّطوا في شيءٍ منه دون فائدة، حتى كان منهم العلماء المُبرِّزون، والحكماء الربَّانيُّون، والهداة الراشدون.

المواهب اللدنية» (جـ ٤). (طه). والحديث أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٧٩١٦).

(١) «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع» إلخ صحيح المعنى، ولكني لم أجده حديثاً بعد طول البحث، ثم أخبرني مُحدّثٌ ثقةٌ أنه ثابت المعنى غير ثابت اللفظ (طه).

(٢) اقتباس من الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

هذا ابنُ رشْد؛ نقرأ في تاريخه أنه لم يدع النظر، ولا القراءة منذ عَقَل إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله.

وهذا داود الطائي؛ كان يستفُّ الفتيت، ويقول: بين سفِّ الفتيت، وأكل الخبز تلاوة خمسين آية.

وهذا محمد بن أحمد البِيروني ـ وكان جليلَ القَدْر أثيراً عند الملوك، مُكبّاً على تحصيل العلم ـ دخل عليه بعض أصحابه، وهو يجود بنفسه، فقال له: كيف قلت لي يوماً: حساب الجدَّات في الميراث؟ فقال له صاحبه: أعلى هذه الحال؟! قال: يا هذا! أودِّع الدنيا وأنا عالمٌ بها؛ أليس هذا خيراً من أن أخلِّيها وأنا جاهلٌ بها؟! قال: فذكرتُها له، وخرجت، فسمعت الصَّريخ عليه، وأنا في الطريق[١].

ولسنا بحاجةٍ إلى الإفاضة في ضرب الأمثال؛ فحَسبُنا النبيُّ ﷺ والذين تخرَّجوا على يديه؛ الذين ملؤوا الدنيا نوراً وهدى، وعلماً وعملاً، وفتحاً وعدلاً، وما كانوا أحسن منَّا صحّة، ولا أكثر منّا فراغاً.

تفاوت النعم فضلاً ورتبة

ودلَّ هذا التخصيص كذلك على أن النعم تتفاوت فضلاً ورتبة.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: اختلف في أوّل نعم الله على العبد، فقيل: الإيمان، وقيل: الحياة، وقيل: الصحة. ثم قال: وأمثل هذه الأقوال الأوّل.

أجلُّ نعم الله على عباده

وأدقُّ من هذا ما حقّقه صاحب «زاد المعاد»[٢]؛ من أنَّ العافية المُطْلقة هي

---

(١) وانظر أخبار السلف في العناية بالوقت كتاب «قيمة الزمن عند العلماء» لأستاذنا العلامة الجليل الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة رحمه الله تعالى.

(٢) ٤ : ٢١٤.

أجلُّ نعم الله على العباد، ويعني بالعافية المُطْلقة: السَّلامة من الآفات في الدين والدنيا، واستشهد لذلك بما رواه الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سلوا الله اليقين والمعافاة؛ فما أُوتي أحدٌ بعد اليقين خيراً من العافية»[1] فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتمُّ صلاحُ العبد في الدارين إلاّ بهما؛ وممَّا يذكر عن ابن عباس أنَّ أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ما أسأل الله بعد الصَّلوات الخمس؟ فقال: «سل الله العافية»، فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[2].

وتنقسْم النِّعم باعتبارات مختلفة إلى أصولٍ وفروع، وعامَّةٍ وخاصَّة، وأساسية وكمالية، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحصى.

ولو أراد أحدٌ أن يستقصيَ نعمةً واحدة منها، ويحصر أسبابها ومهيئاتها، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[3].

وليس المقام هنا للبسط والتفصيل، فَمَن أراد ذلك فليرجع إلى كتاب

---

(١) أخرجه أحمد ١: ٣ (٥) و١: ٤ (١٧) و١: ٨ (٤٦)، وابن ماجَهْ (٣٨٤٩) ولفظه من حديث أبي بكر: «سلوا الله المعافاة. أو قال العافية، فلم يؤت أحدٌ قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة...». وهو حديث صحيح.

(٢) يشهد له مارواه الترمذي برقم (٣٥١٢) من حديث أنس بن مالك، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أيُّ الدعاء أفضل؟ قال: سل ربَّك العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة، ثم أتاه الثاني فقال: يا رسول الله: أي الدعاء أفضل؟ فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث، فقال مثل ذلك. قال: فإذا أعطيت العافية في الدنيا وأعطيتها في الآخرة فقد أفلحت. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، إنّما نعرفه من حديث سلمة ابن وردان.

(٣) سورة النحل: ١٨.

الشكر من «الإحياء»، فقد أفاض الإمام الغزالي فيه وأجاد، ولا رَيْبَ أنه فارس هذا الميدان[١].

قلة الشاكرين

ويشير الحديث إلى ضعف الناس أمام الهوى، وإلى أنَّ شكر الله ـ جلَّت آلاؤُه ـ حِصْنٌ حصين من غوائل الأهواء والشهوات.

ثم يشير إلى أنَّ الشاكرين ـ وقليلٌ ما هم ـ أكيسُ الناس وأحرصُهم على خير، وأوْلاهم بفضل؛ اشتروا بثمنٍ بخس ـ حياة محدودة، وأوقات معدودة ـ مُلكاً كبيراً ونعيماً مقيماً وعزاً خالداً. أولئك هم الناس، وأولئك هم الأكياس[٢]، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة.

* * * * *

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٤: ٨٠ _ ١٢٧.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه ابن ماجَهْ في كتاب الزهد (٤٢٥٩) عن ابن عمر أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلَّم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله: أيُّ المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنُهم خلقاً». قال: فأيُّ المؤمنين أكْيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنُهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس».

التماس رضا الله وإنْ سَخِطَ الناس*

٥٣ ـ كَتَبَ معاويةُ إلى عائشَةَ رضي الله عنهما، أن اكْتُبي لي كتاباً توصيني فيه، ولا تُكثري عَلَيَّ؛ فَكَتَبَت إليه: سَلامٌ عَلَيْك. أما بعدُ؛ فإني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «من التَمَسَ رضا الله بسُخْط الناس: كفاه الله مَؤُونَةَ الناس، ومن التَمَسَ رضا النَّاسِ بسُخْط اللهُ: وَكَلَه اللهُ إلى الناس». والسَّلامُ عليك.

رواه الترمذي[(١)].

منقبتان كريمتان

منقبتان كريمتان، تلمعان في سيرة الراشدين المُقْسطين، من خلفاء المسلمين وأمرائهم.

فأما أُولاهما: فهي تعهُّدهم للولاة والعمَّال بالرعاية والمراقبة، وإيصاؤهم كلَّما حانت فرصة، بالعدل والإحسان، وتقوى الله في السر والإعلان.

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، العدد الخامس عشر، (١٣٦٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤) عن رجل من أهل المدينة، ولم يُسَمِّ الرجل ـ وهو ضعيف لجهالة الرجل الذي لم يُسَمَّ ـ وأخرجه بإثر الحديث المرفوع من طريق سفيان الثوري عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها كتبت إلى معاوية، فذكر الحديث بمعناه، ولم يرفعه، وسنده صحيح.

وأخرج ابن حبان في «صحيحه» المرفوع منه فقط (٢٧٦)، ولفظه: قالت: قال رسول الله ﷺ: «من التمس رضا اللَّه بسُخْط الناس: رضيَ الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسُخط الله: سخط اللهُ عليه، وأسخط عليه الناس» وإسناده حسن.

وأما أُخراهما: ولعلَّها أكرم من سابقتها وأجل، فهي إصاختهم لنصح الناصحين، من أُولي المكانة في العلم والدين، بل هشاشتهم لهذا النصح وارتياحهم له، والتماسهم إيَّاه ممَّن هو به قمين؛ إذ يعلمون أنَّ الدين النصيحة، وأنَّ أكفأ من يؤدِّيها على وجهها ـ وبخاصة إذا استنصحوا ـ هم أئمة الفضل وأعلام الهُدى، الذين لا يبالون غير الحق، ولا يخافون في الله لومة لائم.

وقد حفظ لنا التاريخ من هذين الصنفين من الوصايا مُثلاً عُليا، تكفل للأمم وحكوماتها ـ إذا اهتدت بهداها ـ سعادة الأبد، وعز الخلود.

وصية موجزة جامعة

ومن الصنف الثاني هذه الوصية الموجزة الجامعة، التي اقتبستها أم المؤمنين عائشة من غُرَر حكمه صلوات الله وسلامه عليه، وأنفذتها إلى معاوية، ردًّا على كتابه، وإجابةً لاستيصائه.

لِمَ اختص معاويةُ عائشةَ لكتابة وصية له؟

والذين يعلمون شيئاً من تاريخ معاوية، وكياسته وبُعْد نظره، لا يعجبون له إذ يختص عائشة بالكتابة، وبين يديه من أصحاب رسول الله ﷺ جمٌّ غفير، كلّهم على هُدى من ربِّهم وبصيرة.

وقد يخطر بالبال أنَّ هذا الاختصاص مَظْهرٌ من مظاهر الدَّهاء وسَعَة الحيلة، ابتغاء التحبُّب إلى أمِّ المؤمنين وشيعتها، ومن وراء هذا تثبيت الملك وتأييده.

ولئن صحَّ هذا إنه لمن السياسة الرشيدة، والنظرات البعيدة، والكياسة النادرة التي ماز الله بها معاوية رضي الله عنه، والتي ينفسح لها صدر الدين الحنيف، ولا تأباه مروءةٌ ولا كرامة.

ومن أحقُّ بهذا الفضل من معاوية، وقد دعا له النبيُّ ﷺ أن يكون

هادياً مهدياً[(١)]. وقال فيه ابن العباس رضي الله عنهما ـ وكان نقَّاداً ـ: ما رأيت رجلاً كان أخْلَق للمُلك من معاوية![(٢)].

وأجمع المؤرِّخون وأُولو البصر بالسياسة أنه كان أَسْوَسَ الناس وأسْوَدَهم، وأحقَّهم بالملك والرياسة[(٣)].

والذين يعلمون مقامَ عائشة من الدين، وسَبْقَها في الفَضْل، ومكانها من النبيِّ ﷺ، لا يعجبون كذلك لهذا الجواب السَّديد المُحكَم، وهذه النصيحة الفذَّة البالغة، ثم هم ينصفون معاوية، ويوقنون أنه على الخبير سَقَط.

ليس عَجَباً من عائشة رضي الله عنها، وهي تتوقَّد ذكاءً، وتمتلئ إيماناً وهدى، أن تُدرك بغيةَ معاوية وحبَّه للمُلك، وحياطته له باجْتذابه القلوب

(١) أخرجه أحمد ٤: ٢١٦ (١٧٨٩٥)، والترمذي (٣٨٤٢) وقال: هذا حديث حسن غريب. قال الإمام ابن راهويه: لا يصحُّ عن النبِّي ﷺ في فضل معاوية شيء. كما في «السير» ٣: ١٣٢ للذهبي.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٩٨٥) عن معمر، عن همَّام بن مُنبِّه قال: سمعت ابن عباس..

(٣) قال الحافظ الذهبي في «السير» ٣: ١٣٢: «قلت: حَسْبُك بمن يؤمِّره عمر، ثم عثمان على إقليم ـ وهو ثغر ـ فيضبطهُ، ويقوم به أتمّ قيام، ويُرضي الناسَ بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألَّم مرةً منه، وكذلك فليكن الملك، وإن كان غيره من أصحاب رسول الله ﷺ خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح، فهذا الرجلُ ساد، وساسَ العالم بكمال عقله، وفرط حِلمه، وسَعَة نفسه، وقوة دهائه ورأيه، وله هَنَاتٌ وأمور، والله الموعد»

وقال أيضاً ٣: ١٥٧: «فانقضت خلافة النُّبوة ثلاثين عاماً، ووليَ معاوية، فبالغ في التجمُّل والهيئة، وقلَّ أن بلغ سلطانٌ إلى رتبته، وليتَه لم يعهد بالأمر إلى ابنه يزيد، وترك الأمّة من اختياره لهم».

وقال ٣: ١٥٩: «ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلُهم على ظلمهم، وما هو ببريءٍ من الهنات».

واصْطناع النفوس، وأنه قد يحوم لهذا حَوْل مَسَاخط الله في مراضي عباده، ومَنْ حام حَوْلَ الحِمَى يُوشكُ أن يقعَ فيه، فتنفذ إليه هذا البلاغ ليُنذَرَ به، وليتَّخذه دستوره ومنهاجه، وليعلمَ أنَّ بيد الله قلوب العباد ونواصيهم، فَمَنْ أطاعه وأرضاه رضيَ الله عنه، وأرضى عنه الناسَ، حتى يرضى عنه مَنْ أسخطه في رضاه، ويزيِّن لديه قوله وعمله وشأنه كله، ومن أعرض عنه وأسخطه سَخطَ الله عليه، وأسخط عليه مَنْ أرضاهُ في سخطه[1]، وعاد حامده من الناس ذامًّا له وناقماً عليه[2]، ذلك بأنَّ للباطل غشاوةً على البصر والبصيرة لا تلبث أمام الحق حتى تزول. وقديماً قيل: الحقُّ أبْلَج والباطل لَجْلَج.

حاجة الملوك إلى رضا الرعيَّة

ولا يَدورنَّ بخَلَد أحدٍ أنَّ الملوك والأمراء بغنى عن رضا الرعيَّة، بل إنهَّم إلى رضا رعاياهم أحوج من الرعايا إلى رضاهم؛ إذ لا ترسخ دعائم الملك إلاَّ على المحبّة والرضا، ومن ثمّ كانوا أحوج الناس إلى العدل وأوْلاهُم به؛ يحفظ ملكهم، ويكبت عدوَّهم، ويقيهم فتنة الحقد والضغينة، ويوطِّد لهم الأمن والسكينة، وبحق قيل: العدل أساس الملك.

الذين يلتمسون رضا الناس بسخط الله

هذا، والذين يلتمسون رضا الناس بسخط الله صنوفٌ شتَّى، هم أصل

---

(١) اقتباس من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أسخط اللهَ في رضا الناس: سَخط الله عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سُخْطِه، ومَنْ أرضى الله في سُخط الناس: رضي الله عنه، وأرضى عنه مَنْ أسخطه في رضاه حتى يزيِّنَه، ويُزيِّن قولُهُ عمَلَه في عيْنه» قال المنذري في «الترغيب» (٣٣٢٦): رواه الطبراني بإسناد جيِّد قوي.

(٢) اقتباس من من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ طَلَب محامدَ الناس بمعاصي الله، عادَ حامدُهُ له ذامّاً» رواه البزار (٣٥٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٧).

البلاء، ومكمن الداء، وبأمثالهم مُنيَ الإسلام، في كلِّ زمان ومكان.

فمنهم: **المنافقون المداهنون**، الذين يُسِرُّون خلاف ما يعلنون، أو يراؤون الناس ويزعمون أنهم مخلصون.

ومنهم: **الجبناء المستضعفون**، الذين تأخذهم من الناس هيبة تخرس ألسنتهم، وتعمي قلوبهم، فلا يقولون حقاً، ولا ينكرون باطلاً.

ومنهم: **الذين يوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه**، ويتَّخذون بطانة من دونهم لا يألونهم خَبَالاً.

يتزلَّف هؤلاء إلى الناس، ويترضَّونهم بمساخط الله، رجاء حظٍّ موهوم، أو جاه مزعوم، أو عَرَضٍ خادع، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[1].

وشرٌّ من هؤلاء: مَنْ يشتري مساخط الله بسخرية الناس وازدرائهم، من أولئك المجاهرين الماجنين والسُّخفاء المُتظرِّفين، ومَنْ على شاكلتهم.

الترفّق والتلطّف والمداراة

وليس منهم مَنْ يتلمسَّ رضا الله والناس، فيترفَّق في المعاملة، أو يتلطَّف في المُجَاملة، أو يُداري السُّفهاء في غير مسٍّ لكرامته ودينه، حتى إذ لم يكن بدٌّ من أحد الأمرين: سُخْطِ الله، أو سُخْطِ عباده، آثر الحقَّ على الخلق، ولم يبال الناس شيئاً.

أوفى الناس بمحبة الله والناس

وليس عَجَباً أن يكون العاملون على رضا الله ـ وإنْ سخط عباده ـ أحمدَ

---

(١) سورة النور: ٣٩.

الناس عاقبةً، وأوفاهم من محبة الله والناس نصيباً؛ ذلك بأنهم حفظوا الله فحفظهم، ونصروا الله فنصرهم، وتَولَّوا الله فكَفَاهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[1].

موعظة الحسن البصري لابن هُبيرة

لمّا ولِيَ ابنُ هُبَيْرة[2] العراق وخراسان ليزيد بن عبد الملك، بعث إلى الحسن البصري، وابن سيرين، والشّعبي[3]، فاحتفى بهم وأحسَنَ مثْواهم، ثم قال: إنَّ الخليفة أخذ من الناس عهودَهم، وأعطاهم عهده؛ كي يسمعوا له ويطيعوا، وإنه تأتيني منه كتبٌ إن أمضيتها أسخطتُ الله، وإن أهملتها أسخطتُ أمير المؤمنين، فماذا تأمرون؟ فأجاب الشَّعْبِّي بكلام فيه تقيَّة، وسكت ابن سيرين. فقال: يا أبا سعيد ما تقول؟ فقال الحسن: يا ابن هُبَيرة، خَفِ الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله؛ فإنَّ الله جلَّ وعزَّ مانعك من يزيد، ولن يمنعك يزيد من الله.

يا ابن هُبَيْرة، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فما كتب إليك يزيدٌ فاعرضه على كتاب الله، فما وافقه فأنفذه، وما خالفه فلا تنفذه؛ فإنَّ الله أوْلى بك من يزيد، وكتابُ الله أوْلى بك من كتابه. وما زال به حتى أبكاه.

---

(١) سورة النساء: ٤٥.

(٢) هو الأمير عمر بن هُبَيْرة الفَزَاري الشامي، أمير العراقَيْن ووالد أميرها يزيد، جمعت له العراق في سنة ١٠٣، ثم عُزل بخالدٍ القَسْريِّ، فقيَّده وألبسه عباءةً وسجنه، فتحيَّل غلمانُه ونَقَبوا سَرَباً أخرجوه منه، فَهَرب واستْجار بالأمير مَسْلَمة بنِ عبد الملك، فأجاره، ثم لم يلبث أن مات سنة ١٠٧ تقريباً. كما في «السِّير» ٤ :٥٦٢.

(٣) عامر بن شراحيل، أبو عمرو التابعي، قال: أدركت خمسمائة صحابي. قال مكحول: ما رأيت أفقه منه، مات بالكوفة سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى.

فما كان من الوالي بعد أن انصرف في عَبْرته، إلا أن أرسلَ إليهم جوائزهم، فأعطى الحسن أربعة آلاف درهم، وصاحبيه ألفين ألفين.

فنادى الشَّعبيُّ على باب المسجد: مَنْ قَدَر منكم أن يُؤْثر الله على خلقه فليفعل؛ فإنَّ الأمير قد سألنا عن أمر الله، ما علم الحسن شيئاً جهلْتُه، وما علمتُ شيئاً جهلَه ابن سيرين، ولكنّا أردنا وَجْهَ الأمير، فأقصانا الله عزَّ وجل وقَصَر بنا، وأراد الحسن وجْهَ الله، فحباه تبارك اسمه وزاده[1].

ومالنا نسوق الشواهد ونضرب الأمثال، ونحن نراها كلَّ يوم بأعيننا، ونكاد نلمسها لمساً بأيدينا؟!.

إيثار طاعة الله ومرضاته

ألا إنَّ مَنْ آثر الله واتَّقاه، وَقَدَّم مرضاته على هواه، جَمَعَ الله حوله القلوب، ودفع عنه عَواديَ الخطوب، وجَعَلَ له من عدوِّه نصيراً، ومِن مناوئه ظهيراً.

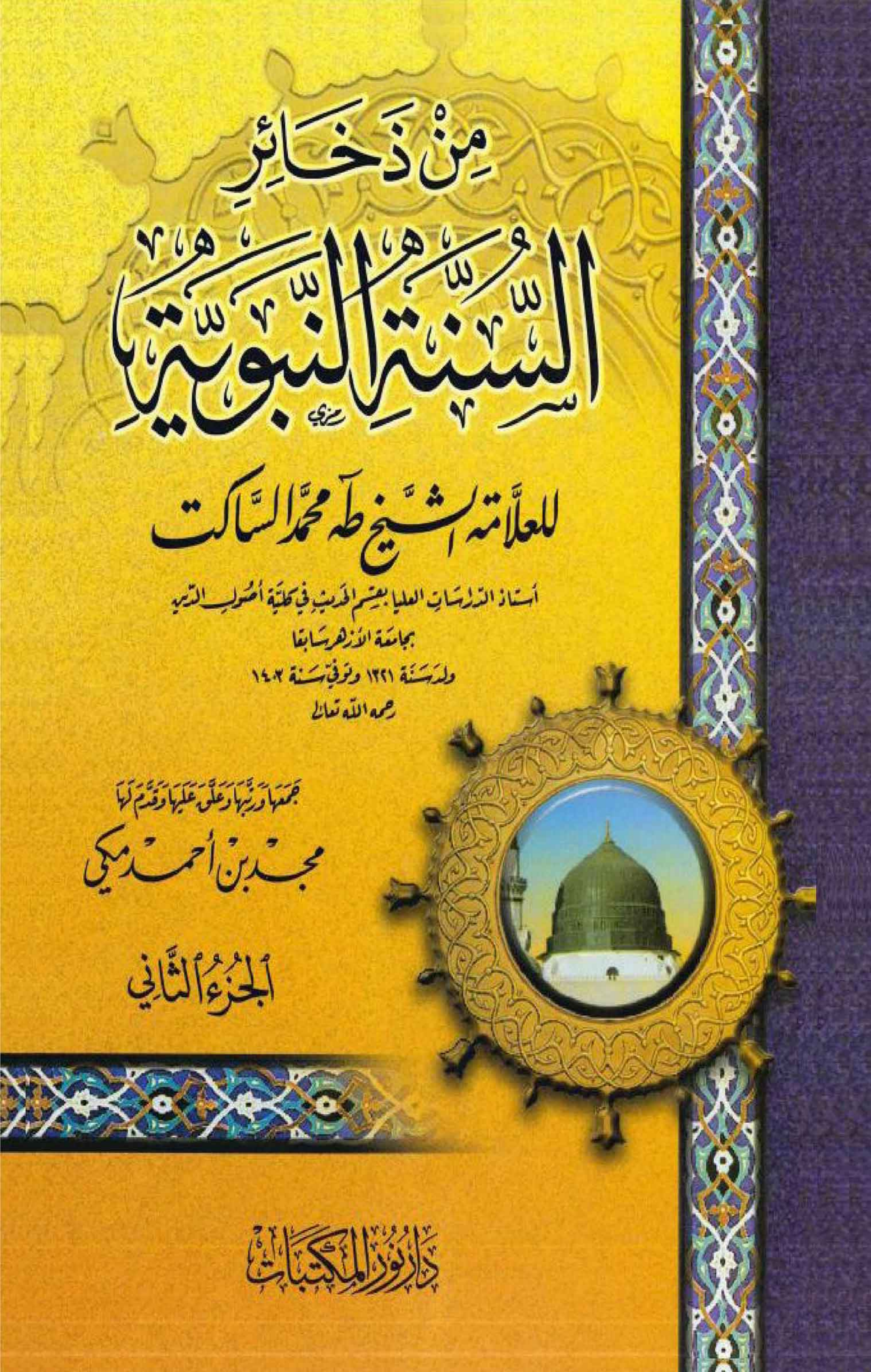
ألا وإنَّ من باع دينه بدنياه، وخشيَ الناس، ولم يخشَ الله، هَتَكَ الله سَتْره، ونكَسَ عليه أمره، وصَرَفَ عنه قلوبَ العباد، ولم يبلِّغه حظاً مما أراد. وسبحان مقلِّب القلوب والأبصار، يُصرِّفها كيف يشاء؟.

* * * * *

(١) حلية الأولياء ٢ :١٤٩. وما أحسن قول الحسن البصري رحمه الله كما في «الطبقات» لابن سعد ٧ :١٧٥: «يا ابن آدم: لا ترضِ أحداً بسخط الله، ولا تطيعنَّ أحداً في معصية الله».

الفهرس الإجمالي للمجلد الأول

* * * * *


من ذخائر
السنة النبوية
للعلامة الشيخ طه محمد الساكت
أستاذ الدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقا
ولد سنة ١٣٢١ وتوفي سنة ١٤٠٢
رحمه الله تعالى
جمعها ورتبها وعلق عليها وقدم لها
مجد بن أحمد مكي
الجزء الثاني
دار نور المكتبات

مِنْ ذَخَائِرِ
السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ
(٢)

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار نور المكتبات
السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف وفاكس : ٦٨٣٨٠٥١ - ص ب : ٤٠٣٧٤ - الرمز البريد : ٢١٤٩٩

مِنْ ذَخَائِرِ

السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

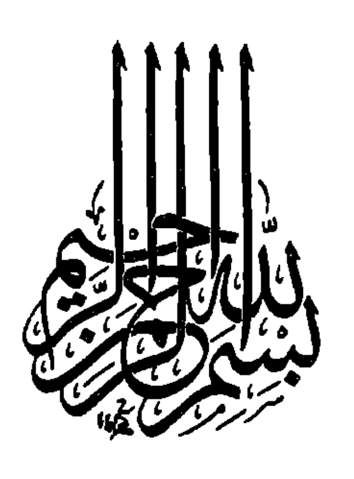
للعلّامة الشّيخ طه محمّد السّاكت

أستاذ الدراسات العليا بقسم الحديث في كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقاً
ولد سنة ١٣٢١ هـ وتوفي سنة ١٤٠٣ هـ
رحمه الله تعالى

جمعها ورتبها وعلق عليها وقدم لها
مجد أحمد مكي

الجزء الثاني

دار نور المكتبات



الفصل السادس

الآداب والأحكام

١ ـ اليد العليا خير من اليد السفلى.

٢ ـ سنة حسنة.

٣ ـ فضيلة كتمان السر.

٤ ـ من المروءات ستر العورات.

٥ ـ مكان النصح في الإسلام (١ ـ ٢).

٦ ـ الدين النصيحة.

٧ ـ الوصاة بكتاب الله (١ ـ ٢).

٨ ـ من لا يَرحم لا يُرحم.

٩ ـ الواصل والمكافئ.

١٠ ـ الإصلاح بين الناس.

١١ ـ اشفعوا تُؤْجروا.

١٢ ـ الوصاة بالجار والمرأة.

١٣ ـ الجوار في الإسلام (١ ـ ٣).

١٤ ـ وصية نبوية.

١٥ ـ تخيُّر العاملين.

١٦ ـ الجزاء من جنس العمل.

١٧ ـ مثل القائم على حدود الله والواقع فيها.

١٨ ـ عقوبة السارق.

اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى *

٥٤ ـ عن حكيم بن حِزام رضيَ الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألتُهُ فأعطاني، ثمَّ سألتُهُ فأعطاني، ثم قال: «يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوَةٌ، فمَنْ أخَذَهُ بسَخَاوة نفْسٍ بُورِكَ لَهُ فيه، ومَنْ أَخَذَهُ بإشْرافِ نَفْسٍ لم يُبَارك له فيه، وكان كالَّذي يأكلُ ولا يَشْبَعُ. اليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفلى».

قال حكيم فقلت: يا رسول الله، والَّذي بعثكَ بالحقِّ لا أرْزَأُ أحداً بعدَكَ شيئاً حتَّى أفارقَ الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يَدْعُو حكيماً إلى العطاء، فيأبى أن يَقْبَلَهُ منه. ثمَّ إنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ ليُعطيَهُ، فأبى أن يَقْبَلَ منه شيئاً. فقال عمر: إنّي أُشْهِدُكُم يا مَعْشَرَ المسلمين على حكيم، أنّي أَعْرِضُ عليه حَقَّهُ من هذا الفَيْءِ فيأبى أن يأخُذَه. فلم يَرْزأْ حكيمٌ أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوفي. رواه الشيخان[1].

المفردات:

إنَّ هذا المال خَضِرةٌ حلوة: تميل النفس إليه، وترغب فيه رغبتها في الخضر المُسْتلذ؛ لأنَّ الخضرةَ يُسرُّ بها الناظر، والحلاوةَ يلتذُّ بها الطاعم، فإذا اجتمعا في شيءٍ اكتملت به متعة النفس وشهوتها.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد الثامن عشر، سنة (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٢)، وفي الوصايا (٢٧٥٠)، وفي الخُمس (٣١٤٣)، وفي الرفاق (٦٤٤١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٥).

وفي هذا التشبيه لمحةٌ لطيفةٌ إلى فناء المال وسُرعة زواله؛ لأنَّ الأخضرَ سريعُ الذُّبول. والتأنيث في هذه الرواية؛ لأنَّ المال في معنى الدنيا، وهي مؤنَّثة. وفي رواية أخرى: «إنَّ المال خضرٌ حلو»[١] الخ.

وروى مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إنَّ الدنيا حلوةٌ خضرة، وإنَّ الله مُسْتخلفكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون»[٢] وهما على الأصل.

فَمَنْ أخذه بسخاوةِ نفس: بغير إلحاف في المسألة، ولا إلحاح بالطلب. والمراد بالنفس: نفس الآخذ، أو المعنى: فمن أخذه بطيب نفس المعطي، وانشراح صدره دون مضايقةٍ ولا إحراج. وإذا كان أصل السخاوة في اللغة: السهولة والسَّعَة، فلن يضيقَ صدرها عن احتمال المعنيين معاً.

وإشراف النفس: تطلُّعها وحِرْصها.

واليد العليا: هي المنفقة والمعطية، **والسُّفلى**: هي السائلة والآخذة. وهذا تفسير حديث الشيخين، فقد رَوَيا عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ـ وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفُّف والمسألة ـ: «اليد العليا خير من اليد السُّفلى، فالعليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة»[٣]. وقد استخلص صاحب «الفتح» من صحيح الآثار أنَّ الأيديَ خمسٌ: أعلاها المنفقةُ، ثمَّ المُتَعفِّفةُ عن الأخذ، ثمَّ الآخذة بغير سؤال، وأسفلها السَّائلة، والمانعة[٤].

لا أرْزَأ: أي لا آخُذ من أحدٍ شيئاً. وأصل الرُّزْء: النقص، فكأنه يقول: لا أنقصُ مال أحدٍ بالأخذ منه.

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٠)، وفي فرض الخمس (٣١٤٣) كلاهما بلفظ: «إن هذا المال خضر حلو».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).

(٤) فتح الباري ٣: ٣٥٠.

والفيء: الغنيمة، ويُطلق على الخراج. وأصله: الردُّ والرجوع، ومنه سُميَ الظلُّ بعد الزوال فيئاً؛ لأنه رجع من جانبٍ إلى جانبٍ، فكأنَّ أموال الكفار كانت للمؤمنين ثمَّ رجعت إليهم.

* * * * *

من أساليب التربية النبوية

سَلْ مَنْ شئت من أساطين العلم، ونقِّب ما شئتَ في وثائق التاريخ، وابحث ما استطعتَ في فنون التربية والتعليم، وأنا زعيمٌ بأنَّك لن تجدَ ما يُداني هذا الأسلوب، فضلاً عمَّا يُماثله، هدياً وإرشاداً، وتعليماً وتقويماً، وبأنك ستَعْجَبُ معيَ العَجَبَ كلَّ العَجَب، لا مِنْ أن يكون هذا هديُ مَنْ علَّمه الله ما لم يكن يعلم، وكان فَضْل الله عليه عظيما؛ ولكن مِنْ أن يذلَّ المسلمون وفيهم هذا الهديُ النبوي الكريم، من بعد أن كانوا مُلوكَ الدنيا وسادة العالمين!.

من آثار التربية النبوية

وإنْ شئْتَ أن تتبيَّن آثار هذه التربية النبويَّة، فتلك قصَّةُ واحدٍ من ألوف الصحابة الذين تَخرَّجوا في مدرسة النبيِّ الأمِّي، صلوات الله عليه وسلامُهُ، بعد أن تلقَّوا عنه دروس العِزَّة الإسلامية في سيرتها الأولى.

حكيم بن حِزام

كان حكيمُ بن حِزام رضي الله عنه من أشراف قريش ووجوهها[1]، عاش

---

(١) وحَسْبُكَ أنه ابنُ أخي خديجة بنت خُوَيْلد رضي الله عنها. دخلت أمُّه الكعبة في نسوةٍ من قريشٍ، فضربها المخاض، فأُتيت بنطع، فولدت عليه حكيماً (طه).

في الجاهلية ستين عاماً، وفي الإسلام مثلها [١]، وكان صديقَ النَّبيِّ ﷺ قبل المَبْعث وبعده، وكان يُحبُّه ويودُّه، ويتمنَّى لو سَبَق إلى الإسلام، ولكن لأمرٍ ما قَضَى الله أن يتأخَّر إسلامه إلى عام الفتح. ولعلَّ نزعة من نزعات سُؤْددِه في الجاهلية بطَّأت به. وما كان أشدَّ فرح النبيِّ ﷺ بإسلامه، حتى قال: «من دخل دار حكيم فهو آمن»[٢]. وتألَّفه بالعطاء حتى حَسُن إسلامه واكتمل، وآتى أُكلَه جنياً شهياً.

مغانم غزوة حنين

شهد حكيم غزوة حُنين، وقد أبلى فيها بلاءً حسناً، وكانت العاقبة لهم، بعد أن كادت تدور الدائرة عليهم، لمَّا أعجبتهم كثرتهم فلم تُغن عنهم شيئاً... وغنموا مغانم ما كانت تخطر على قلب أحد!. كانت الإبل فيها أربعةً وعشرين ألف رأس، وكانت الغنم أربعين ألفاً أو تزيد، وكانت الفضة أربعةَ آلاف أوقية؛ هذا عدا السَّبْي الذي منَّ النبيُّ ﷺ به على هَوَازن لمّا جاؤوا تائبين، وكان ستة آلاف نفس بين امرأة وطفل!.

عظةٌ بليغةٌ في العفة و القناعة

فلما قسم النبيُّ ﷺ الغنائم بدأ بالمؤلَّفة قلوبهم، ومنهم حكيم بن حزام، أعطاه مئةً من الإبل، فاستَزَادَهُ، فأعطاه مئةً ثانية، فاستَزَاده، فأعطاه ثالثةً، بَيْد أنه لم يتركه على حاله تلك من الضَّراوة والشَّراهة، بل ألقى عليه عظةً بليغة في

---

(١) قال الذهبي في «السير» ٣: ٤٥ : «قلت: لم يعشْ في الإسلام إلا بضعاً وأربعين سنة».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ٨: ٩. وأورده الحافظ في «الفتح» ٨: ١١، ونسبه إلى موسى بن عقبة في المغازي، وأشار ابن حجر في «الإصابة» إلى صحته فقال: ثَبَت في السِّيرة وفي الصحيح. انظر: «سير أعلام النبلاء» ٣: ٤٨، و«الإصابة» ٢: ٩٨، و«مجمع الزوائد» ٦: ١٧٢، و«سبل الهدى والرشاد» ٥: ٣٢٦. وانظر ما تقدَّم ص١٥٣.

العفة والقناعة، وضرب له مثلاً عالياً في العزَّة والكرامة، وأبان له أنَّ طالب الدنيا إذا تكالب عليها كان منهوماً لا يشبع، ومغلولاً لا يُروى، وأنه «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنَّ الغنى غنى النفس»[(١)].

منهج حكيم في الاستعفاف والقناعة

أثَّر هذا الدرس في نفس حكيم تأثيراً بليغاً، وآتى أوَّل ثماره ولمَّا يَبْرح حكيم مجلسَه، فما أن كاد النبي ﷺ يفرغ من عظته البالغة حتى اكتفى حكيمٌ بالمئة الأولى، وكفَّ عمَّا عداها. وأكبر الظنِّ أنه كان بسبيل الاستعفاف عن هذه المئة أيضاً، لولا أن رآها مبالغةً في الردِّ غيرَ حميدة، وخطَّةً في منهاج المكارم ليست رشيدةً. ثم عاهد النبيَّ ﷺ، مُقْسماً له بمن بعثه بالحقِّ بشيراً ونذيراً، لا يأخذْ من أحدٍ شيئاً كائناً مَنْ كان حتى يلقى الله عزَّ وجل.

ولقد صدق ما عاهد الله عليه، فلم يأخذ من أحدٍ شيئاً حتى النبيَّ ﷺ. فلا عجبَ إذاً أن يعطيَه حقَّه أبو بكر وعمر، ثمَّ عثمان ومعاوية رضي الله عنهم، فيأبى أن يأخذَه. وناهيك من بيت المال في عصره الأول، وما كان يصيب المسلمين من أعطيته التي أفاء الله عليهم[(٢)].

الحكمة من امتناع حكيم عن نصيبه من العطاء

وإنما كان يمتنع حكيم عن نصيبه المفروض له، لأنه خشيَ أن تضرَى[(٣)] نفسه، فتتجاوزَ به إلى ما لا يريد، ففطمها حَسْماً لها أن تطمعَ، ورغبةً في أن

---

(١) اقتباس من حديث أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) كلاهما من حديث أبي هريرة.

(٢) وحَسْبُك أنَّ جيش المسلمين استولى فيما غنم بساط كسرى، وكان ستين ذراعاً في مثلها، وكان على هيئة روضة رُسمت عليها الزهور والطيور بالجواهر والذهب، فلما فرَّقها عمر على المسلمين أصاب علياً قطعة منه باعها بعشرين ألف درهم (طه).

(٣) أي: تعتاد. يقال: ضَرِيَ بالشيء تَضْرَى ضَرىً وضراوة فهو ضارٍ، إذا اعْتَادَهُ.

تدع ما يَريب إلى ما لا يَريب. وهذا مذهبٌ بليغ في العفة والقناعة لا يَسْلكه إلا السَّادة من الزُّهَّاد والأكابر من ذوي الهمم، وكثيرٌ ما هم في صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم، وإلا فلا حَرَج على من عُرِض عليه شيءٌ من الدنيا، فأخذه بغير طلب ولا مسألة.

أخرج الشيخان عن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه مَنْ هو أفقر مني، فقال: «خُذْه، إذا جاءك من هذا المال شيءٌ وأنت غير مُشرفٍ عليه ولا سائل فَخُذْه، وما لا، فلا تُتْبعه نفسك»[1].

إشهاد عمر على حكيم في امتناعه عن عطائه

وإنَّما كان عمر يُشهد عليه أنه يعطيه عطاءَه فيمتنع عنه؛ لئلا يكون لحكيم عند الخليفة مَعْذرةٌ، ولئلا يظنَّ أحد ممَّن لا يعلم حقيقة الأمر أنَّ أمير المؤمنين يتهاون في حقٍّ رعايته ... رضي الله عنك يا عمر! ما أعدَلَكَ، وما أحزَمَكَ، وما أبْصَرَكَ!.

وحكمةٌ أخرى ـ ونراها جديرة بالنظر ـ في امتناع حكيم عن عطائه؛ تلك أنه رغب رغبةً صادقة في أن يحقِّق الله وعد نبيِّه له؛ فيبارك عليه في قليله، ويجعل يده من الأيدي العُلا، التي تُعطي ولا تأخذ، وتنفقُ ولا تخاف من الإنفاق إقْلالاً، وكذلك صَنَعَ الله له، فقد مات رضي الله عنه في خلافة معاوية، وإنه لِمنْ أكثر قريش مالاً على الرُّغم ممَّا أنفق في سبيل الله. فمن ذلك أنه حجَّ في الإسلام، فأهدى ألف بَدَنة، وألفَ شاة، ووقف بعرفة ومعه مئة وصيف في أعناقهم أطْواقٌ من الفضَّة مَنْقوشٌ فيها «عتقاء الله عن حكيم بن حزام».

ومن ذلك أنَّ الإسلام جاء ودار الندوة بيده، فباعها من معاوية بمئة ألف درهم وتصدَّق بها كلها، وقال: اشْتَرَيْتُ بها داراً في الجنة. ولمَّا لامه ابن

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٤٠٥).

الزبير، وقال له: بعث مَكْرُمَةَ قريش! قال: يا ابن أخي، ذهبت المكارم إلا التقوى[١].

هدي أصحاب رسول الله ﷺ

بهذا الهدي النبويِّ الكريم اهتدى أصحاب رسول الله ﷺ وتابِعوهم، فكان المال في أيديهم لا في قلوبهم، وكانت الدنيا تحت أقدامهم لا فوق رؤوسهم؛ ومن أجلِ ذلك مَلَكوا المال ولم يملكْهم، وسخَّروه ولم يفتنْهم، بل كان مطيَّتَهُم إلى البرِّ، ووَسيلتَهم إلى الخير، وعَوْنَهم على صالح الأعمال وكرائم الخصال، و«نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح»[٢] يُورثه الفضائل، ويُكسبه المحامد، ويُعينه على نوائب الحقِّ، ويقيه حرص النفس وشُحَّها، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

* * * * *

---

(١) أخرجه الطبراني (٣٠٧٣) بإسنادين، قال الهيثمي في «المجمع» ٩ : ٣٨٤: أحدهما حَسَن.

(٢) اقتباس من حديث رواه أحمد (١٧٧٦٣) من حديث عمرو بن العاص. وإسناده صحيح على شرط مسلم. كما تقدَّم ص١٨٠.

(٣) اقتباس من الآية ٩ من سورة الحشر.

سُنَّةٌ حَسَنة *

٥٥ ـ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ، قال: فجاءه قوم عُراة مُجتابي النّمار ـ أو العَباء ـ متقلّدي السيوف، عامّتهم من مضر، بل كلّهم من مضرَ؛ فتمعَّر وجهُ رسول الله ﷺ؛ لِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً، فأذَّن وأقام، فصلى، ثم خطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1] والآية الأخرى التي في آخر الحشر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[2].

تصدَّق[3] رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقِّ تمرة. قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرَّة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب، حتى رأيتُ وجهَ رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مُذْهَبة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنة فله أجرُها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقصَ من أجورهم شيء؛ ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وِزْرُها ووِزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الثامن عشر، سنة (١٣٦٦).

(١) سورة النساء: ١.

(٢) سورة الحشر: ١٨.

(٣) خبر بمعنى الأمر وهو أبلغ، كأنّ الامتثال قد تحقَّق. (طه).

شيء». رواه مسلم[١].

المفردات:

مُجْتابي النمار: النمار جمع نِمرة، وهي الكساء من الصوف المخطَّط، والاجتياب من الجَوْب وهو القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[٢] أي نحتوه وقطعوه. والمراد: أنَّ هؤلاء القوم لِفاقتهم ورقَّة حالهم لبسوا أرديتهم، أو عَباءهم (جمع عباءة) وقد خرقوها في رؤوسهم.

و«**أو**»: للشك من المنذر بن جرير في أيِّ اللفظين قال أبوه: آلنمار أم العَباء؟. وإذا كان هذا بعض تحرِّيهم في رواية بعضهم عن بعض، فكيف بتحرِّيهم في الرواية عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم؟!.

ومُضَر: من أُمهات العرب المُسْتعربة وأشهرها. وربيعة ومضر مَضْرب المثل في كَثْرَة العدد.

فتمعَّر... الخ: أي تغيَّر وَجْهُه صلوات الله عليه رِثاءً لهم وحُزناً عليهم.

والصَّاع: كَيْل معروف عند أهل المدينة، قريب من ربع الكيلة المصرية.

والكوم: بفتح الكاف وضمِّها، وكذلك الكومة بالضم، ما كوِّم وجُمع من طعام أو غيره، ونظيره الصُّبْرة من الطعام، وهي ما جُمع منه بلا كيل ولا وزن.

والمُذْهَبة: القطعة المطليَّة بالذهب. وأذهب الشيء وذهَّبه طلاه بالذهب، وإن كان المعروف في الرواية التخفيف. وضبطها بعضهم: «مُدهُنة» بالدال والنون، وهي وعاء الدهن، أو الماء المجتمع في الحجر. والتأنيث هنا موافق

---

(١) في كتاب الزكاة ٢ :٧٠٥ (١٠١٧)، وفي كتاب العلم ٤ :٢٠٥٩(١٠١٧)، ومع أنَّ الرواية الثانية أخصر ففيها فوائد متمِّمة انتفعنا بها في الشرح (طه).

(٢) سورة الفجر: ٩.

لرواية الشيخين في حديث الثلاثة الذين خلِّفوا، ثم تاب الله عليهم، «وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر»[1]. والمراد في كلٍّ بيانُ إشراقِ وجهه الشريف، وبريق أساريره صفاءً ونوراً حين فرحه بالخير.

* * * * *

التعاون على البر والتعاطف على الخير

يُعنى الإسلام بالتعاون على البرّ، والمتعاطف في الخير، عنايةً تجعل ممَّن اتَّبع هداه أمّةً واحدةً، يَسُرُّ كلها ما يَسُرُّ بعضها، ويحزن جميعها ما يحزن فرداً منها. وَحَسْبُكَ أن جعل المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، وأنْ شبَّه المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم، بالجسد الواحد، إذا اشتكى عضوٌ منه تداعى له سائره بالسَّهر والحُمَّى.

ولقد استجاب المسلمون الأوَّلون لدعوة الإسلام إلى البرِّ على اختلاف أنواعه، فلم يدعوا طريقاً من طُرقه إلا سلكوه، ولا باباً من أبوابه إلا ولَجُوه إيثاراً لما عند الله، وابتغاء فضله ورضاه. وكاد أغنياؤهم وفقراؤهم يكونون في الفضل سواء، لم يمنعِ الفقيرَ فقرُه وفاقتُه أن يبلغ الجهد في الإنفاق، ولو درهماً أو درهمين، أو حفنةً أو حفنتين؛ كما لم يمنع الغنيَّ حبُّ المال والأولاد أن يبذلَ شطرَ ماله أو جلَّه أو كلَّه في سبيل الله، وكان يتجلَّى هذا التعاون إذا ادْلَهَمَّت الخطوب، واشتدَّت الأزمات.

نموذج رائع

وهذا مثالٌ رائع من أمثلة كثيرةٍ يخطئها العد، في استجابتهم لرسول الله ﷺ حين يدعوهم في المُلِمَّات، ويندبُهم لكشف الكُرُبات.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

هؤلاء قومٌ من أعراب مضر، تنطقُ أحوالُهم بالبؤس والفاقة، وتنادي رثاثةُ ثيابهم وهلهلتها بالعري والحاجة، قدموا على رسول الله ﷺ يبتغون ممَّا أفاء الله عليه، ويرتجون تيسيرَ عُسرتهم لديه؛ وَمَنْ أولى بذلك منه، وهو أجود بالخير من الريح المرسلة؟! ولكن ماذا يصنع صلوات الله عليه وليس عنده شيء؟! لقد دخل بيته لعله يجد شيئاً يعينهم به فلم يجد، وما كان أشدّ هذا الأمر عليه: أن يرى ذا حاجةٍ ليست عنده حاجته، أو طالب معونةٍ ليست بيده معونته!.

إذاً فلْيَدْعُ أصحابه من حضر منهم لتفريج هذه الكربة، وليندبهم لإزالة هذه العسرة؛ فإنهم أوَّل من ينتدبون للتعاون على البرِّ والتقوى، ويأتسون بمن لا يدّخر شيئاً في سبيل الله. وكذلك فعلَ صلوات الله وسلامه عليه.

كان وقت الصلاة قد حان، فأمر بلالاً أن يؤذّن لها ويقيمها؛ وبعد الصلاة رقى منبره خطيباً على عادته كلَّما حَزَب أمر أو ألمَّت مُلمَّة؛ وأخذ يحثُّ على الصدقة والإنفاق، فأبطأ الناس بعضَ الإبطاء، ولعلّهم كانوا ينتظرون تمام خطبته، أو يستقلّون ما بأيديهم من المال والمتاع. وكان إذا كره شيئاً تغيَّر، وإذا تغيَّر رُئي ذلك في وجهه.

وما هي إلا لحظات حتى انبرى رجلٌ من الأنصار ـ ورحم الله الأنصار ـ إلى صُرَّة من فضة كانت عنده، فأتى بها وكفُّه تعجز عن حملها حتى وضعها بين يديه، صلوات الله عليه؛ ثم تتابع الناس في البذل، كلٌّ على حسب وُسْعه، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] حتى كان كَوْمان عظيمان من الطعام والثياب، عدا ما هنالك من الذهب والورِق.

وحينذاك استبشر النبيُّ ﷺ، واستنار وجهه فرحاً وسروراً بما رأى من تلبية الدعوى إلى البر، والمسابقة في الخير، وإغاثة هؤلاء الملهوفين! ثم بشَّر ذلك

---

(١) اقتباس من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

الأنصاري الكريم، الذي فتح باب هذا الخير العظيم، بأنه قد سنَّ سنة حسنةً له عند الله أجرُها وذخرها، ومثل أجر من عمل بها واقتفى أثرها إلى يوم يبعثون.

عبرٌ وعظات

في هذا الحديث عِبَر وعِظات، حقٌّ على من قرأه أن يتأمَّلها وينتفَع بها، ولا سيما الدعاة إلى الله تعالى؛ فإنَّ فيه من الحكمة والموعظة الحسنة مثلاً للهُداة، ونبراساً للمرشدين.

فيه: جمع الناس لعظائم الأمور، وحثُّهم على التعاون في الخير مع رعاية المناسبات، وتخيُّر الأوقات؛ وخيرُها أوقات الصَّلوات، بعد الوقوف بين يدي الله، والاستمتاع بحلاوة الضراعة والمناجاة.

وفيه: تذكيرُ الناس بالبواعث على الإجابة والحوافز إلى المنافسة، ولهذا افتتح خطبتَه ﷺ بآيتي التقوى؛ وفي الآية الأولى تذكرةُ السامعين بنعمة الإيجاد والتربية، وأنهم جميعا إخوةٌ لأب واحد وأمٍّ واحدة، لا فَضْل لأخ على أخيه إلا بالتقوى، وأنه سبحانه رقيبٌ عليهم، وسيجزيهم بما كانوا يصنعون؛ وفي الآية الأخرى تذكرةٌ بالدار الآخرة التي يرحلون إليها لا محالة في الغد القريب، وإذا كان لا بد للمسافر من زاد ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وفيه: التيسير على المحسنين، والرفق بالضعفاء المخلصين، فَلْيَتَصَدَّق كلٌّ بما استطاع، ولو بشقٍّ تمرة؛ ورُبَّ قليل هو عند الله أزكى وأطهر من كثير، وإنما الأعمال بالنيات.

حقيقة السُّنة الحسنة والسُّنة السيئة

وفي الحديث كشفُ النقاب عن السنة الحسنة والسنة السيئة، وبيان حقيقة

---

(١) اقتباس من الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

كلٍّ منهما؛ إذ أوضح صلوات الله وسلامه عليه أنَّ كلَّ عملٍ صالحٍ يبتدئ به صاحبه، فيَدعو الناس إلى مثله، فهو السنة الحسنة؛ ومنه يُعلم أنَّ كلَّ عملٍ غير صالح يبتدئ به صاحبه، فيدعو الناس إلى مثله، فهو السنة السيئة.

وطوبى لمن جعلَه الله مفتاحاً للخير مِغْلاقاً للشر، وويلٌ لمن جعله الله مفتاحاً للشرِّ مِغْلاقاً للخير[1]؛ للأول: أجره وأجر من اهتدى به إلى يوم القيامة، وعلى الثاني: وِزْره وَوِزْر من اقتدى به إلى يوم القيامة.

ومن قبيل السنة الحسنة: ما يسنُّه ملوك المسلمين وكبراؤهم من العطايا الجزيلة، والأعمال الجليلة، والمشروعات النافعة؛ من تلك الباقيات الصالحات التي تخلّد ذكراهم بالدعاء لهم والاقتداء بهم؛ وعلى العكس منها سنن سيئة؛ حَمَل بعضهم أثقالها وأثقال من اقتدى بهم فيها.

وبعد، فلعلَّ في هذا البيان على وَجَازته، مَقْنَعاً لخَصْمَيْن اختصموا في السنة والبدعة، وأضاعوا العمر في جدال عنيف، وسباب جائر، ثم افترقوا على غير هُدىً من الله ولا بصيرة!

ولعلَّ الله أن يفتحَ على قومنا هؤلاء ويهديهم للتي هي أقوم، ويبعث فيهم من يسنُّ لهم في الإصلاح سنةً حسنة يفوز بأجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء!.

* * * * *

---

(١) اقتباس من حديث رواه ابن ماجَهْ في «المقدمة» (٢٣٨) من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فَطُوبى لعبدٍ جَعَله اللهُ مفتاحاً للخير، مِغْلاقاً للشرِّ، وَوَيْلٌ لعبدٍ جعله الله مفتاحاً للشرِّ، مِغْلاقاً للخير». قال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

فضيلة كتمان السِّرِّ*

٥٦ ـ عن ثابت بن أَسْلَمَ البُنَاني، عن أنس رضي الله عنه قال: أتىَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، وأنا ألعبُ مع الغِلْمان، فَسلَّم علينا، فبعثني إلى حاجةٍ، فأبطأتُ على أمي، فلمَّا جئتُ، قالت: ما حَبَسَكَ؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حَاجَتُهُ؟ قلت: إنَّها سِرٌّ، قالت: لا تُحَدِّثَنَّ بسرِّ رسولِ الله ﷺ أحداً. قال أنس: واللهِ لو حَدَّثتُ به أحداً لَحَدَّثْتُكَ به يا ثابت. رواه مسلم(١).

صدور الأحرار قبور الأسرار

خَلَّة من خِلال المروءة والنُّبل، وآيةٌ من آيِ الشَّرف والعقل، وسِمةٌ من سِمَات المَجْد والرُّشد، تلك هي صيانة السِّرِّ، والمبالغة في كتمانه، والحرص عليه أن يُمسَّ.

وَحَسْبُكَ دليلاً على منزلة هذه الخَصْلة في قلوب الناس قاطبةً، إجماعُهم على امتداح صاحبها، ووزنهم عقلَ الرجل وشرفه، وهمَّته ومروءته، بميزان حفظه للسر ودفنه له. وقديماً قالوا: «صدور الأحرار قبور الأسرار».

وممَّا لا رَيْبَ فيه أنَّ الناس على حفظ الأموال أقدر منهم وآمنُ على حفظ الأسرار، فليس كلُّ أمين على المال حفيظاً على السِّر؛ ولذا يبلغ المرء من

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الثامن عشر (١٣٦٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) في كتاب فضائل الصحابة، وروى البخاري بعضه مختصراً (٦٢٨٩) بلفظ: أسرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ سراً، فما أخبرتُ به أحداً بَعْدُ، ولقد سألتني عنه أمُّ سُلَيْم، فما أخبرتُها به.

الجهد والنَّصَب في تخيُّر مَنْ يستودعه مكنون سرِّه، ما لا يبلغ معشاره فيمن يستودعه نفيس ماله؛ ويخاف على سرِّه أن يُذاع، أكثر ممَّا يخاف على ماله الضَّياع؛ لأنَّ المال غادٍ ورائح، وأما السِّرُّ فقد يكون في إفشائه إزهاق روح أو تمزيق عرض.

وأوْلى الناس بأن يقدر هذه الفضيلة قدرها، مَنْ تربَّوا في حِجْر النبوَّة، أو تأدَّبوا بآدابها، واقْتَبَسُوا من نورها.

قصَّةٌ رائعة في كتمان السر

وهذه قصةٌ رائعة في كتمان السر، يقصُّها ثابتٌ البُناني عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ. وثابتٌ هذا من سَادَة التابعين علماً وفضلاً، وعبادةً ونُبلاً، وكان أثيراً لدى أنس، ومقرَّباً عنده، يُفْضي إليه بذات نفسه، ويبثُّه مكنونَ صدره، ويختصُّه بأكثر ما رَوَى عن رسول الله ﷺ.

مُثُل عليا في أخلاق الخادم والمخدوم

القصة بيِّنةٌ جليَّة، غنيَّةٌ عن البَسْط والشَّرح، وإن تكن مُوجَزةً، فهي على وَجازتها، ترجمةٌ واضحة لِمُثلٍ عُليا في أخلاق الخادم ومخدومه.

ففيها: رفْقُ المخدوم بخادِمِه، والتَّخليةُ بينه وبين لِدَاتِهِ وأترابه، يلعبُ معهم لعباً طاهراً بريئاً.

وفيها: الاهتشاشُ للصبيان والخَدَم، وإيناسُهم، وتفريحهُم بالتسليم والتحية.

وفيها: نباهةُ الخادم وحِذْقُه، وكتمانه سرَّ مخدومه، حيّاً وميِّتاً، عن أقرب الناس إليه، وأكرمهم لديه.

وموضعُ العَجَب في خُلُق أنس ونُبْله، أن يكتمَ حاجةَ رسول الله ﷺ[1] دون

---

(١) قال شرَّاح الحديث: هي حاجةُ بيته ﷺ، ولو كانت من العلم ما وَسع أنساً كتمانها.

أن يستكتمَه إيّاها، ولو استكتمه لاعتَذَر بذلك لأمِّه. وأجْمَلُ من هذا وأعجبُ، أن يضْبطَ نفسه وهو لا يزال يلعب مع الصبيان، على حين يتطوَّع بالأسرار كثيرٌ من الشيوخ والشُبَّان.

أمٌّ مربية

ولله درُّ أم سُليم[١] ما أعظمَ تربيتها، وأجلَّ مدرستها[٢] ،وأكرم وَصاتها لابنها، ألاَّ يُخْبرنَّ بسرٍّ رسول الله ﷺ أحداً كائناً مَنْ كان.

لا جَرَم أنها فَرِحَت بأن يكون ابنُها موضعَ ثقة الرسول الأكرم ﷺ، فأحبَّت أن يزداد عنده ثقةً وحباً. ومَنْ أحظى وأسعدُ ممَّن وَثِقَ به المعصوم وأحبَّه؟!.

لقد كانت أمُّ سُليم صادقةَ الفِرَاسَة، كريمة الهَيْبة؛ إذْ أتت بابنها رسول الله ﷺ مَقْدَمَه إلى المدينة، وهو غُلامٌ حَدَثٌ، فقالت: يا رسول الله هذا أنيس، غلامٌ يخدمك، فادْعُ الله له، فَدَعا له، وقبله[٣].

ولقد صدَّق فِرَاسَتها أنه خدم النبيَّ ﷺ عشر سنين، مقامه بالمدينة، فما قال له: أف قط، ولا لشيء صَنَعه لم صنعته؟! ولا لشيء تركه لم تركته؟![٤].

---

(١) اشتهرت بكنيتها هذه، حتى كأنها اسمها لا تُعرف بغيره؛ وليس لها ولد يدعى سلُيماً. وهي وابنها أنس وزوجها أبو طلحة وابنها عبد الله بن طلحة من أعظم بيوتات الأنصار شرفاً وفضلاً، وَحَسْبُكَ أن النبيَّ ﷺ، لم يكن يدخل بيتاً بعد بيوت أزواجه غير بيت أم سُليم، فقيل له؟ فقال: «إني أرحمها، قتل أخوها وأبوها معي»! (طه). وانظر شرح حديث: مسامرة نبوية ص٨١٩ ـ ٨٣٠.

(٢) إشارة إلى بيت حافظ إبراهيم:

الأم مدرســـــة إذا أعـــــددتها ... أعـددت شـعباً طيّـب الأعـراق

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٨١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٠٩). ولفظه من حديث أنس قال: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عَشْرَ سنين، والله ما قال لي: أفًّا قطُّ. ولا قال لي لشيءٍ: لمَ فعلتَ كذا؟ وهلاَّ فعلت كذا.

ذلك مَثَلٌ من الطراز الأول في الأُمومة وتربيتها، والبُنُوَّة وأدبها، إلى جانب النموذج الأسمى في حفظ السرِّ وكتمانه.

مثال آخر في كتمان السر

ومثالٌ آخر لا يقلُّ عن سابقه جلالاً وروعةً، في كتمان السرِّ وإن لم يستكتم، يرويه البخاري عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما قال: لما تأيَّمت حَفْصة من خُنَيْس بن حُذافة السَّهمي ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، قد شهد بدراً، وتُوفي في المدينة ـ لقيتُ عثمان بن عفان، فَعَرَضتُ عليه حَفْصة، فقلت: إنْ شئتَ أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثتُ لياليَ، فقال: قد بَدَا لي ألاَّ أتزوَّج يومي هذا.

قال عمر: فلقيتُ أبا بكر، فقلت: إنْ شئتَ أنكحتُك حفصة بنت عمر، فَصَمَتَ أبو بكر، فلم يرجع إليَّ شيئاً، فكنت عليه أَوْجَد مني على عثمان، فلبثتُ لياليَ، ثمَّ خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتُها إيَّاه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وَجدت عليَّ حين عَرَضْتَ عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟، قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أنْ أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أنَّ رسولَ الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأُفشيَ سرَّ رسولِ الله ﷺ، ولو تركها لقبلتُها[1].

موضع العبرة

وموضعُ العبرَة في هذا المثال أنَّ الصِّدِّيق لو أجاب الفاروق، لكان مُفْتاتاً على النَّبيِّ ﷺ، بل لكان مُسيئاً إلى حَفْصة وأبيها؛ لأنَّ دخولها في حظيرة أمهات المؤمنين لا يعدله شيءٌ بعد الإيمان بالله ورسوله. أما التعريض بسرِّ رسول الله ﷺ فهو ممَّا تهابه ألسنة المؤمنين، فضْلاً عن سيِّد الصِّدِّيقين. على أنَّ

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٥).

عُدولَه ﷺ عنها كان مُحتَملاً، فلو أنَّ أبا بكر أذاع بالسرِّ أو عرَّض به، ثم رَغِبَ عنها رسول الله ﷺ، لأَخذَ عمر من الهمِّ والغمِّ ـ وهو الجَلِد الشُّجاع ـ ما لا قِبَلَ له باحتماله! فَلْيَصْمت الصِّدِّيق إذاً، ولْيُؤْثر الصَّمت، إذا كان هو الحزم والكَيْس، على وَجْدِ الفاروق وغضبه، حتى يقضيَ الله أمره.

وقد خار الله لعثمان، وعمر وابنتِه جميعاً، فزوَّج ذا النُّورين خيراً من حفصة، أمَّ كلثوم بنت النبيِّ ﷺ، وكان عثمانُ قد تأيَّم من شقيقتها رُقيَّة؛ وزوَّج حَفْصَةَ خيراً من أبي بكر، رسولَ الله ﷺ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[1].

ولم يجد أبو بكر في نفسه حَرَجاً بعد أن أعلنَ النَّبيُّ ﷺ خِطْبَتَه، أن يعتذرَ لصديقه الذي عَتَب عليه وغَضِبَ؛ لأنه لم يُحِرْ عند السؤال جَواباً[2]، وتركه في حَيْرةٍ من أمره. بل رأى حقاً عليه في باب المكارم أن يزيل ما في نفسه بإبداء المعذرة واضحةً صادقة.

نموذج ثالث في كتمان السر

ومن هذا الطراز في كتمان السِّرِّ إلى أنْ يحينَ إبَّانُه، قصَّةُ الزهراء مع الصِّدِّيقة رضي الله عنهما.

روى الشيخان عن عائشة قالت: كنَّ أزواجُ النبيِّ ﷺ عنده، لم يغادر منهنَّ واحدةً، فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي، ما تُخطئ مَشْيَتُها من مِشيةِ رسول الله ﷺ شيئاً، فلمَّا رآها رحَّب بها، فقال: «مرحباً يا بُنَيَّتي»، ثمَّ أَجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمَّ سارَّها، فبكت بكاءً شديداً، فلمَّا رأى جَزَعَها سارَّها الثانية، فضحكت. فقلت لها: خَصَّك رسولُ الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرار، ثم

---

(١) سورة الطلاق: ٤.

(٢) لم يُحْرِ أي: لم يرد.

أنت تبكين؟!

فلما قام رسول الله ﷺ سألتُها: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أُفشي على رسول الله ﷺ سرَّه.

قالت: فلمَّا توفي رسول الله ﷺ، قلت: عَزَمْتُ عليك بما لي عليك من الحقِّ لمَّا حدثتِني ما قال لك رسول الله ﷺ[1]؟ فقالت: أمّا الآن فنعم.

أما حين سَارّني في الأولى، فأخبرني أن جبريلَ كان يُعارضه القرآن[2] في كلِّ سنةٍ مرَّة، وإنه عارضَه الآن مرَّتين، وإني لا أُرى الأجلَ إلا قد اقْتَرب، فاتَّقي الله واصبري، فإنه نِعْمَ السَّلف أنا لكِ. قالت: فبكَيْتُ بكائي الذي رأيت.

فلما رأى جَزَعي سَارَّني الثانية، فقال: «يا فاطمَةُ، أما تَرْضَيْن أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيِّدَةَ نساءِ هذه الأمة»؟! قالت: فضحكتُ ضحكي الذي رأيتِ[3].

رأى النبيُّ ﷺ أمارةً تدلُّ على اقْتراب أجله، ومنها مُدارسته القرآن مرَّتين، بعد أن كان جبريل يُدارسه كلَّ عام مرَّة فحسب. وعلم أن سيكون أشدَّ الناس حُزناً عليه هي ابنته فاطمة، التي لم يترك من بعده ذُرِّيَّةً سواها؛ فأحبَّ أن يُهوِّن عليها وَقْعَ المصيبة الجُلَّى، رحمةً بها وحناناً. فلمَّا جَزِعَت بَشَّرها بأنها أقرب أهل بيته لحوقاً به، كما في إحدى روايات مسلم[4]، وبأنها سيدة نساء المؤمنين في الجنة.

---

(١) تقول: أقسمت عليك لما فعلت كذا أي: إلا فعلت (طه).

(٢) أي: يدارسه إياه، فيقرأ جبريل، والنبيُّ ﷺ يتابعه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٨٥) (٦٢٨٦) في كتاب الاستئذان، ومسلم ٩٨(٢٤٥٠) في فضائل الصحابة، واللفظ له..

(٤) أخرجه مسلم ٩٧ (٢٤٥٠).

فَطِنتْ الزهراء إلى أنَّ مناجاة أبيها لها بهذا الحديث من الأسرار الخطيرة التي لا بدَّ من كتمانها في حياته، وإلا فلِمَ خصَّها بالنَّجْوى دون أزواجه؟!.

وعبثاً حَاولت الصِّدِّيقة من بين أُمَّهات المؤمنين أن تَلجَ باب هذا السِّرِّ، لأنَّ الزهراء ـ وهي أكرم ابنة لأعظم أب ـ قد أغلقته، فأحكمت إغلاقه، حتى إذا قضى الله قضاءه، فتحته؛ إذْ لم تجد في فتحه ضرراً، بل رأت فيه نفعاً وخيراً.

متى يستحبُّ إظهار السِّر؟

ومن هذا استنبط العلماء أنَّ من السرِّ ما يجوز إظهاره، وقد يُستَحَب، إذا انتهى أجلُه، وقُصِدت المصلحة من وراء إعلانه، وقد يجب إظهاره إذا كان وصيَّةً بخير أو قضاءً لدَيْن أو أداءً لحق؛ وأما إذا لم يكن في إظهاره مصلحة، فمن الخير والإيمان أن يُكتم أبداً، ولو مات صاحبه.

هذه ثلاثة أمثلة من النماذج العليا في كتمان السِّرِّ، في كلٍّ واحدٍ منها هديٌ لِمَنْ أراد أن يكون للأسرار كَتوماً، وللمروءاتِ أهلاً، وللثقة والمكارمِ موضعاً.

* * * * *

من المروءات ستر العورات *

٥٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ أمَّتي مُعافىً إلا المُجَاهرين، وإنَّ مِنَ المَجَانَةِ أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يُصبحَ ـ وقد ستره الله ـ فيقول: يا فلانُ، عَمِلتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يسترهُ ربُّه، ويصبح يكشف سِتْرَ الله عنه». رواه الشيخان[1].

٥٨ ـ وعنه رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «لايَسْتُرُ اللهُ على عبدٍ في الدنيا، إلا سَتَرَه اللهُ يومَ القيامة»[2].

وعنه أيضاً عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يَسْتُرُ عبدٌ عبداً في الدنيا، إلا سَتَرهُ الله يوم القيامة». رواهما مسلم[3].

المفردات:

المَجَانة: تركُ المبالاة بالقول والفعل، وأصلُها من المجون، وهو الغلظُ والصَّلابة، كأنَّ الماجن، وهو الهازل المُسْتَهتَر، صُلْب الوجه غليظه. وأكثر ما تكون المَجَانة بالليل، فلذا قُيِّدت به.

والبارحة: أقربُ ليلةٍ مَضَتْ من وقت القول، مِن برح مكانه: إذا زال عنه.

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد الثامن عشر (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) في كتاب الأدب، واللفظ له، ومسلم (٢٩٩٠) في الزهد والرقائق.

(٢) أخرجه مسلم ٧١ـ(٢٥٩٠).

(٣) أخرجه مسلم ٧٢ـ (٢٥٩٠).

وكذا وكذا: كناية عن المعصية التي جَاهَر بها الماجن، فاستَوجب سَخَط الله، وَحُرِمِ معافاته ومغفرته.

*****

الهمُّ بالمعصية بين داعي العقل وداعي الهوى والشهوة

داعيان قويان يتجاذبان المرء حينما يَهُمُّ بمعصية: داعي العقل والحكمة، وداعي الهوى والشهوة. وليغلبنَّ المرءَ ويظفرنَّ به أيُّهما أشدُّ عليه وأقوى. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[1].

وليس بضائر العبد، ولا بقادحٍ في إيمانه ويقينه، أن تزِلَّ قدمه، أو تغلبه خطيئته؛ فإنه ليس في الناس معصوم كائناً من كان، حاشا النبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

المجاهرة بالمعصية والاستهتار بالخطيئة

وإنما يضيرُ العبد، ويُضْعف إيمانه أن يجمعَ إلى جُرمه جرماً آخر أفظع منه وأنكى، وهو مجاهرته بجريمته، وانتهاكه لحرماتِ الله عزّ وجل، على مرأى من الناس ومَسْمَع، وفي غير استحياءٍ من الله وعباده!.

وقد يستر الله هذا الآثم، فلا يُطلع على جريرته أحداً من خلقه، فَضْلاً منه ونعمة، أو بلاء ومحنة، ثمَّ يأبى عليه جحوده وقحته إلا أن يتحدَّث إلى إخوان الشياطين، وجُلساء السُّوء، بما سَوَّلت له نفسه، وزيَّن له شيطانه، غير آسفٍ ولا مُستغفر! وكيف، وهو فخورٌ بما أسلف، ومُعْجَبٌ بما اقْتَرف، وكأنه يقول: إنْ فاتكم أن تشهدوا المَخْزاة عِياناً، فلن يفوتكم نعتها كأنكم رأيتموها!.

---

(١) سورة النساء: ٢٨.

ضربٌ من ضروب الإجهار بالمعصية، والاستهتار بالخطيئة، بل أثرٌ من آثار لُؤْم الطبع، ودنسِ النفس، وفَساد الفطرة!.

وحقيقٌ بهذا المجاهر الأثيم ألاّ ينظر الله إليه، وألاّ يرحمه، على سَعَة رحمته ومغفرته، وأنْ يُخْزيَه في الدنيا والآخرة؛ جزاء ما عاند وأفسد، ومزَّق من سَتْر الله، وحرَّض عباده على انتهاك حِماه، «.. ألا وإنَّ لكلّ ملك حمىً، ألا وإنّ حِمى الله في أرضه محارمه»[1].

الجزاء من جنس العمل

وأمَا من زلَّتْ به قدمُه، فاسْتَتَر في خطيئته بستر الله عزّ وجل، فقد بشَّره الصَّادق المصدوق، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يسترَهُ الله في الآخرة كما ستَره في الأولى، وأن يشملَه بعفوه ومغفرته.

روى الشيخان في حديث النَّجْوى[2] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يُدْني المؤمن، فيضعُ عليه كنَفَه، ويَسْتُرُه[3]، فيقول: أتعْرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ. حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هَلَك، قال: سَتَرتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[4].

ويُؤْثر عن عليٍّ كرَّم الله وجهه قال: مَنْ أذنب ذنباً، فستره الله في الدنيا،

---

(١) اقتباس من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أي مناجاة الله تعالى لعبده في السرِّ، حيث تشملُه رحمته، وتحيطُ به عنايته، فالقرب هنا قربُ رحمةٍ وكرامة (طه).

(٣) كنفه: قال في «الفتح» ١٠ : ٤٨٨ : «الكنف: السَّتر، وهو المراد هنا». وقال النووي في «شرح مسلم» ١٧ : ٨٦: «المرادُ بالدنوِّ هنا دُنُوُّ كرامةٍ وإحسانٍ، لا دُنُوُّ مسافة، والله تعالى مُنزَّه عن المسافة وقُربها».

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنباً، فعوقب عليه في الدنيا، فالله تعالى أعدل من أن يُثنِّيَ عقوبته في الآخرة.

استحياء العبد من المجاهرة بالمعاصي

وإنما كان المُتَستِّر بالمعصيةِ خَليقاً بمعافاة الله وسَتْره؛ لأن فيه بقيةً من الحياء، إنْ لم يكن من الله فمن خلقه، ومن استحيا من الناس أوشك أن يستحييَ من الله. والحياءُ لا يأتي إلا بخير، وحَسْبك أنه شعبة من الإيمان.

واستحياء العبد من الإجهار بالمعاصي دليلٌ على أنه يبغضها ويَمقتها، ويستقذر أن يراه الناس عليها. ومن استقذر المعصية فهو حريٌّ بأن يُقلَّ من غِشْيانها إن لم يُقلعْ عنها، ثم هو منكسر النفس عند المعصية، منقبض الصَّدر منها، قريب الندم والتوبة؛ لأنه لم يَمْرُن عليها مَرانة المُسْتَهْتَرين[1]، ولم يمرُد عليها مَرادة الماجنين الآثمين.

والمُتَستِّر بعد هذا كلِّه لم يحرِّض على المعاصي أحداً، وشُؤْمُ معصيته على نفسه خاصَّة، فكان أخفَّ من المُتَهتِّك ضرراً، وأقلَّ وِزْراً، وأضعفَ أثراً.

ولا يحسبنَّ أحدٌ أنَّ رسول الله ﷺ ـ وحاشاه ـ يُقنِّط مجاهراً من رحمة ربه، أو يعفي مُتستِّراً من تَبِعة ذنبه؛ ولكن يُبيِّن ما للمجاهرة بالمعاصي من سوء العاقبة، وما للتستُّر والحياء من كَريم الأثَر، وعسى أن يستحييَ مجاهر، أو ينيب إلى ربِّه مُسْتترٌ.

وجوب ستر المسلم على أخيه المسلم

ومن الحقِّ المحتوم للمُتستِّر على أخيه المسلم ألا يهتك سِترَه، وألا يُفشي

---

(١) المُسْتَهْتَر: كثير الأباطيل، كما جاء في «اللسان» و«التاج»، أو: يتَّبع هواه فلا يبالي بما يفعل، كما جاء في «المصباح» والفعل: «اسْتُهْتِرَ» من الأفعال المبنية للمجهول كما في «معجم الأخطاء الشائعة» للأستاذ محمد العدناني ص٢٥٧.

سِرّه، سواء أُوقف على زلَّته أثناء اقْترافها، أم علم بها بعد انقضائها؛ والله ستِّيرٌ يحب السَّتر[1]، ويجزي عليه بمثله في الدنيا والآخرة، والجزاءُ من جنس العمل.

غير أنَّ ستر المسلمِ على أخيه لا يمنعه من النُّصح له، وتغيير المنكر الذي ارتكبه، والحَيْلولة بينه وبين صاحبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فإنَّ هذا من الحقوق المحتومة عليه كذلك.

ومثلُ هذا الستر الذي اقترن بالنصيحة، هو الذي رغَّب فيه النبيُّ ﷺ، حفظاً لحرمة المؤمن، وقال فيه كما روى أبو داود وغيره عن عُقبةَ بن عامر رضي الله عنه: «من رأى عورةً فسَتَرها، كان كَمَنْ أحيا مَوْءُودَةً»[2].

وإنما كان السَّتر كذلك، لأنه أحيا صاحب العورة حياةً أدبية كريمة، وأنقذه من بلاء يكاد يمْحَقُه، كَمَنْ أنقذ البُنَيَّة التي كان العرب يدفنونها حيَّة، خشيةَ إملاقٍ أو فضيحة، وربّما كانت الحياة الأدبيَّة أغلى من الحياة النفسيَّة، فكثيراً ما

---

(١) اقتباس من حديث أخرجه أحمد ٤ :٢٢٣(١٧٩٧٠)، وأبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٧) من حديث يعلى بن أميَّة عن النبيِّ ﷺ. ولفظه عند أحمد بسنده عن صفوان ابن يعلى بن أمية عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، فإذا أراد أحدكم أن يغتسل، فليتوارى بشيء».

وأخرجه أبو داود (٤٠١٣)، والنسائي (٤٠٦) من حديث يعلى بن أمية بلفظ: «إن الله عز وجل حليم حَيِيٌّ ستِّير يحب الحياء والسَّتر، فإذا اغتسل أحدكم فليَسْتتر».

ومما ينبَّه إليه أن الأستاذ عبد القادر أرناؤوط سمَّى يعلى في «جامع الأصول» ٧ :٣٠٠: يعلى بن شدَّاد بن أوس؟! وهو يعلى بن أمية التميمي كما جاء في مصادر الحديث، من رواية ابنه صفوان عنه، ثم إنَّ يعلى بن شداد ليس من رجال النسائي كما في «الكاشف» للذهبي (٦٤١٤).

(٢) أخرجه أحمد ٤: ١٤٧ (١٧٣٣١) و (١٧٣٣٢)، و ٤ :١٥٣ (١٧٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٩١)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٢٤١)، (٧٢٤٢) وهو حديث ضعيف الإسناد لسوء حفظ أحد رجاله، وهو ابن لهيعة، وجهالة آخر، وهو: كثير أبو الهيثم مولى عُقبة بن عامر الجهني.

تهون النفس في سبيل الشَّرف والكرامة!.

التحذير من تتبُّع العورات والبحث عنها

وإذا كان كشفُ عورة المؤمن قِحَةً وجُرماً، فأشدُّ منها وقاحةً وجريمة تلمُّسها وتتبُّعها والبحثُ عنها، إجابةً لداعي الهوى، وإشباعاً لنَهَم الشهوة، وإشاعةً للسوء والقالة في المؤمنين الغافلين، وفي هؤلاء ينادي النبيُّ ﷺ من فوق منبره بصوت رفيع فيقول: «يا معشر مَنْ أسلمَ بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه: لا تؤذوا المسلمين، ولا تُعيِّروهم، ولا تَتَبَّعُوا عَوْراتهم، فإنَّه من تَتَبَّع عَوْرَةَ أخيه المسلم تَتَبَّع الله عَوْرَتَه، ومن تَتَبَّع اللهُ عورَتَه يفضَحْهُ ولو في جَوْف رَحْله»[١] أخرجه الترمذي وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما.

كشف الستر بين المصلحة والمفسدة

على أنَّ العورة التي أُمرنا بسترها هي التي يكون في دفنها مصلحةٌ أرجحُ من مصلحةِ كشفها. أمّا إذا كان في كتمانها مَفْسدةٌ مظنونة أو محقَّقة ـ كَمَنْ رأى آخر يسفك دماً، أو ينتهك عرضاً، أو ينتهب مالاً، ولم يكفَّ إلا بكشف أمره، وإظهار جرمه. فإنَّ على من اطَّلع عليه حينئذ أن يُذيع سرَّه، ويطلع الحاكم عليه، حَقْناً للدماء، وصَوْناً للأعراض، وحفظاً للأموال، وتأديباً للمفسدين في الأرض.

وكذلك مَنْ بلغه أن فلاناً سيرتكب جريمةً مفْسدةً، كان حقاً عليه أن يعمل ما في وسعه للحَيْلولة بين المجرم وجريمته؛ فليس المحافظة على هذا المجرم بأوْلى من العناية بذلك الوادع الآمن، وليس هذا مقام الإفاضة في أحكام الشريعة، وحِكَمها البليغة، وأسرارها الدقيقة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٦٣) إلا أنه قال فيه: «يامعشر من أسلم بلسانِهِ، ولم يَدْخُل الإيمانُ قلبه: لا تؤذوا المسلمين، ولا تُعيِّروهم، ولا تطلبوا عثراتهم».

ذكر محاسن الموتى

وأحقُّ الناس بأن نسترَ عوراتهم، ونغفرَ زلاَّتهم، ونكفَّ عن مساويهم إن لم نذكرْ محاسنهم، أولئك الذين ترحّلوا عنا إلى ربِّهم، وهو أعلم بهم.

وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبيُّ ﷺ: «لا تسبُّوا الأموات؛ فإنهم قد أفْضَوا إلى ما قدَّموا»[١].

وروى أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم، وكفُّوا عن مساويهم»[٢].

وبعد فهذه حَسَنَةٌ من حَسَنَات الإسلام، وأَثَارةٌ من هديه عليه الصلاة والسلام، في سَترِ عورات المؤمنين والمؤمنات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٣].

طوبى لمَنْ شَغَله عيبُه عن عيوب الناس

فطوبى لِمَنْ شَغَلَه عيبُهُ عن عيوب الناس[٤]، وكفَّ لسانَه إلاّ عن خير، وعلِمَ أنَّ وقته ـ وهو رأس ماله ـ لا يتَّسع للواجبات، فَضْلاً عن الهنات والمُهاترات، ثمّ وقف قليلاً عند ما قال بعض السلف: أدركنا أقواماً لم تكن لهم عيوب فذكروا عيوب الناس، فذكر الناس لهم عيوباً، وأدركنا أقواماً كانت لهم عيوبٌ، فكفُّوا عن عيوب الناس، فَنُسِيَتْ عيوبُهم. والله المستعان.

* * * * *

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٠)، والترمذي (١٠١٩).

(٣) اقتباس من الآية ٥١من سورة المائدة.

(٤) اقتباس من حديث رواه الديلمي في «الفردوس» من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، فلم يعدل عنها إلى البدعة» والحديث ضعيف جداً.

مكان النُّصح في الإسلام *

ـ ١ ـ

٥٩ـ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم»[١].

٦٠ـ وعنه رضي الله عنه قال: «بايعتُ النَّبيَّ ﷺ على السَّمْع والطاعة، فلقَّنني ـ فيما استطعتُ[٢] ـ والنُّصْح لكلِّ مسلم». رواهما الشيخان[٣].

مكانة جرير في الصَّحابة

روى الشيخان هذا الحديث بروايات عدَّة، لمناسباتٍ مختلفة، عن جرير رضي الله عنه.

وجريرٌ أحدُ الصحابة الأجلاَّء ذَوي التاريخ الحافل بالمناقب العليَّة والهمم الأبيّة، وإنْ تأخَّر إسلامه ـ كما قيل ـ إلى السنة العاشرة.

كان سيِّد قومه بَجيلة، وَوَفَد على النبيِّ ﷺ ليبايعه على الإسلام فأسلم،

---

* مجلة الأزهر، العددان الأول والثاني، السنة التاسعة والعشرون (١٣٧٧= ١٩٥٧).

(١) أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦) كلاهما في كتاب الإيمان.

(٢) قال النووي في «شرح مسلم»: والرواية بفتح التاء، وقال صاحب «الفتح»: رويناه بفتح التاء وضمها. (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٠٤) في كتاب الأحكام، ومسلم (٥٦) في كتاب الإيمان، وسيأتي ذكر موضع الحديث في الصحيحين.

وما حَجَبَهُ النبيُّ ﷺ منذ أسلم، وما رآه إلا تبسَّم[١]، وشكا إليه أنه لايثبُت على الخيل، فضرب بيده الكريمة على صدره، وقال: «اللهم ثبِّته، واجْعَلْه هادياً مَهْدِيّاً»[٢]، وحجَّ مع النبيِّ ﷺ حَجَّة الوداع، فاختاره أن يستنصت له الناس كي يخطبهم خُطبته الجامعة.

وبعثه ﷺ إلى ذي الخَلَصَة ـ بيتٌ كان فيه صنم لدَوْسٍ وخَثْعمٍ وبجيلة وغيرهم ـ فهدمه[٣].

وخرج مع أنسٍ في سفر، فكان يخدم أنساً مع أنه أكبرُ منه سنّاً، ويقول: لمَّا رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ أشياء، آليتُ ألاَّ أصحب أحداً منهم إلا خدمته..

وكان رضي الله عنه رجلاً طُوالاً وسيماً، حتى قال فيه عمر رضي الله عنه: جريرٌ يوسُفُ هذه الأمة.

ووجد عمر يوماً رائحةً في مجلسه، فقال: عزمتُ على صاحب هذه الرائحة، إلا قام فتوضأ، فقال جرير: اعزم علينا جميعاً يا أمير المؤمنين. قال: عليكم كلِّكم عزمت، ثم قال: ياجرير، مازلت سيِّداً في الجاهلية والإسلام.

ومن دلائل سيادته وعظيم نصحه وورعه: أنه كان إذا اشترى شيئاً أو باع يقول لصاحبه: اِعلم أنَّ ما أخذنا منك أحبُّ إلينا ممَّا أعطيناك، فاختَر.

وروى الطبراني: أنَّ غلامه اشترى له فرساً بثلاثمائة دينار، فلمَّا رآه جاء إلى صاحبه، فقال: إنَّ فرسك خيرٌ من ثلاثمائة، فلم يزل يزيده حتى أعطاه ثمانمائة.

---

(١) أخرج البخاري (٣٠٣٥) و (٦٠٨٩)، ومسلم (٢٤٧٥) عن جرير بن عبد الله قال: «ماحجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، وما رآني إلا ضحك».

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٥) (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٣) انظر الحديث في البخاري (٤٣٥٥)، ومسلم (٢٤٧٦).

موضع الحديث في صحيح مسلم

روى مسلمٌ هذا الحديث ـ بروايتيه هاتين، وبينهما رواية ثالثة مختصرة ـ في «كتاب الإيمان» عقبَ الحديث المشهور، الذي رواه تميم الداري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الدّين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١]. وليس لتميم الداري حديثٌ ما في صحيح البخاري عن النَّبيِّ ﷺ، وليس له في صحيح مسلم غيرُ هذا الحديث «الدين النصيحة»[٢]، ونرجو أن نشرحه في الجزء الآتي بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

مواضعه في صحيح البخاري

وأما البخاري فرواه كذلك في «كتاب الإيمان» بالرواية الأولى، في باب قولِ النبيِّ ﷺ: «الدين النصيحة...»، وأتبعها في الباب نفسه برواية ثانية تُبيِّن سببه فقال: عن زياد بن عَلاَقَة قال: سمعت جريرَ بن عبد الله يقول ـ يوم مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: عليكم باتِّقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينةِ، حتى يأتيَكم أمير، فإنما يأتيكم الآن. ثم قال: استَعْفُوا لأميركم، فإنه كان يحبُّ العفو، ثم قال: أما بعد؛ فإني أتيتُ النَّبيَّ ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليَّ: «والنُّصح لكلِّ مسلم»، فبايعتُه على هذا، وربِّ هذا المسجد إني لناصحٌ لكم، ثمَّ استغفر ونزل[٣].

وكان المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة في خلافة معاوية، ولمَّا حضرته

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) وحديثه يبلغ ثمانية عشر حديثاً في السنن الأربعة، منها في «صحيح مسلم» (٢٩٤٢) في الفتن وأشراط الساعة حديث الجسَّاسة، وهي الدابة التي رآها في جزيرة البحر، وسمِّيت بذلك لأنها تجسُّ الأخبار للرجال.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨).

الوفاة استَنَاب عنه ابنه عروة، وقيل: استناب جريراً؛ ولذا خطب.

وكانت وفاة المغيرة سنة خمسين، وتوفي جرير سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين.

والمسجد الذي يشير إليه جرير في قَسَمِه بربِّه ـ إنه لناصحٌ لهم ـ هو مسجد الكوفة؛ إذ كانت خطبته به، وقيل: هو المسجد الحرام، ويؤيِّده ما جاء في رواية الطبراني: «وربِّ الكعبة». وأياً ما كان الأمر، فقد وفىً رضي الله عنه بما بايع عليه النبيَّ ﷺ في كلِّ شأن من شؤونه عامّة وخاصّة، لم يدَّخِر في ذلك وسْعاً، ولم يأل جهداً.

ثم رواه البخاري في باب «البيعة على إقامة الصلاة»، من كتاب «مواقيت الصلاة»[1]، وفي باب «البيعة على إيتاء الزكاة»، من كتاب «الزكاة»[2]، ورواه في باب: هل يبيع حاضر لباد؟ من كتاب «البيوع»، ولفظه فيه:

«بايعتُ رسولَ الله ﷺ على شهادةِ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسَّمع والطاعة، والنُّصْح لكلِّ مسلم»[3].

كما رواه في أوائل «كتاب الشروط»[4]، ثم رواه أخيراً بالرواية الثانية التي اخترناها مع الرواية الأولى، في باب: «كيف يبايع الإمام الناس، من كتاب «الأحكام»[5].

---

(١) البخاري (٥٢٤).

(٢) البخاري (١٤٠١).

(٣) البخاري (٢١٥٧).

(٤) البخاري (٢٧١٥).

(٥) البخاري (٧٢٠٤).

جانب من فقه الإمام البخاري

وإنما ذكرنا مواضعه من صحيح الإمام البخاري؛ تبييناً لجانبٍ من فقه البخاريِّ رحمه الله، ودقيق صنعه في تكرير الحديث الواحد في غير موضع من كتابه؛ وتحقيقاً لرغبة المُستزيدين من فقه الحديث وشرحه.

لمَ لمْ يذكر الصَّوم والحج في المبايعة؟

ولم يذكر الصَّوم والحجَّ في المبايعة؛ وهما ركنان من أركان الإسلام الخمسة؛ اكتفاءً بأهم الأركان ومعظمها، على أنهما داخلان في عموم المبايعة على السمع والطاعة.

تقييد السمع والطاعة بالاستطاعة

وتقييدُ السمع والطاعة بالاستطاعة، موافقٌ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾[1].

وتلقينه ﷺ[2] من كمال رأفته ورحمته بأمته؛ لئلا يتكلَّفوا من الأمر ما لا يطيقون، فيقعوا في العُسْر والحرج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[3] وفي ذلك إشارةٌ إلى رفع المُؤاخذة بالخطأ والنسيان وما أكُره عليه المرء.

الرجال والنساء سواء في حق النُّصح

والمسلمة كالمسلم في وجوب السمع والطاعة والنُّصح؛ لأنَّ النساء شقائق الرجال وأخواتُهم في التكليف العام.

بل إنَّ للكافر على المسلم حقَّ النُّصْح والإرشاد، وحقُّ الكافر على المسلم

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٢) أي: إلقاء الكلام عليه وسماعه منه قوله: «فيما استطعتُ».

(٣) سورة الحج: ٧٨.

في النُّصح والدعوة إلى الحقِّ، ولا سيما إذا رَغبَ في الهداية بلسان الحال أو المقال، وإنمَّا خصَّ المسلم، لأنَّ حقَّه أَوْجَب، واستجابتَه أقرب، وأُخوَّته أعظم شأناً وألصق جواراً.

أما بعد؛ فهذه مبايعةٌ نبويَّة على الدِّين كلِّه عامَّةً، وعلى النصيحة منه خاصَّة؛ لأنها عماده وملاكه ... وتفصيل هذا في الجزء الآتي إن شاء الله.

* * * * *

مكان النُّصح في الإسلام

ـ ٢ ـ

منزلة هذا الحديث من السنة

منزلة هذا الحديث من السنة، بمنزلة سورة (العصر) من الكتاب المبين؛ أجملَ الدينَ كلَّه، أصولَه وفروعَه، في هذه المبايعة الجامعة التي اختتمها بالنُّصح لكلِّ مسلم، كما أجْمَلت السُّورةُ الكريمة الدين كلَّه، أصولَه وفروعَه كذلك، في الإيمان وعَمَل الصَّالحات، ثم اختصَّت من بين الصَّالحات بالذكر، تواصي المؤمنين بالحقِّ، وتواصيهم بالصبر، وفصَّل الكتاب ما أجْمَلته السورة، كما فصَّلت السنة ما أجمله الحديث.. وقام الدين الحنيف كاملاً شاملاً صالحاً لكلِّ زمان ومكان، على كتاب الله وسنة رسوله معاً، لا يزيغ عنهما إلاَّ هالك.

المسلمُ الحقُّ ناصحٌ ومنصوح

والنُّصح لكلِّ مُسلم يقْتضي أن يُخلصَ كلٌّ من المسلمين لأخيه، كائناً من كان، ويُبادله النصيحة ما استطاع إليها سبيلاً، فيكون كلٌّ منهم ناصحاً ومنصوحاً.

وهذا التناصح الشَّامل والمتبادل، هو التواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر، في سورة العصر، التي بينَّت أبلغ بيان وآكدَه أنهما ركنا السعادة والفوز في الحياتين، بعد الإيمان بالله والعمل الصالح جميعاً.

النُّصح عام وخاص

ومهما تختلفُ درجاتُ النُّصح، وتتعدَّد مناحيه وشؤونُه في الدين والدنيا، فإنّه نصحان، عام وخاص:

فأما النُّصح العام، فهو في أبواب الحلال والحرام ممَّا يستوي فيه الخاصَّة والعامَّة، والعالمِ وغير العالم، وهذا لا يُعْذر أحدٌ بجهله، فإنَّ الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وإنَّ من الحرام البيِّن: الغش في المعاملة، والخديعة، والنفاق في النصيحة.

وهذا النوع من النصيحة فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم.. وعلى كل جاهلٍ أن يتعلمَ الضروري من دينه؛ ليعمل به وينصح فيه، وإلا كان آثماً ومقصِّراً، وبعيداً عن أخلاق المؤمنين وسيماهم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

وأما النُّصْح الخاص، فهو في دقائق الفقه، وأسرار الشريعة، ومسائل الاجتهاد والاستنباط، وما إليها من مُعْضلات السياسة، ومُشْتبهات الأمور، وتدبير المُلك في حدود ما أنزل الله على رسوله..

وتلك مرتبة خاصَّةٌ لا ينهض بأعبائها إلا أُولو الأمر من الأئمة المجتهدين، والعلماء الراسخين، ممَّن اختارهم الله حملةً لشريعته، وحُماةً لملَّته، وورثةً لنبيِّه ﷺ، فهم بهديه يهتدون، وعلى بصيرةٍ من ربِّهم يهدُون، عَلِمُوا وَعَلَّموا، وبيَّنوا ولم يكتموا، ونصَحُوا للهِ ورسولِه، فَجَزاهم الله عن نبيِّه وأمَّتِهِ خيرَ ما يَجزي الناصحين المُخلصين.

ثمَّ خَلَف من بعدهم خُلوفٌ خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً بما انحرفوا عن الجادة، واحتالوا وتأوَّلوا.. ولكن لا تزال من بينهم طائفةٌ متفقِّهةٌ في دين الله، ظاهرةٌ على الحقِّ، ناصحةٌ لله ورسوله، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمر الله.

---

(١) سورة التوبة: ٧١.

ولئن جاز أن يكون هذا النوع الخاص من النُّصح موضعَ بحث بين العلماء ـ في أنه فرضُ كفاية أو فرضُ عينٍ على كلٍّ مستطيعٍ له ـ فإنه لا جدال في أنَّ النُّصح في الحديث مُطْلَقٌ، وأنَّ الحديث يدعو كلَّ مسلم ألا يألوَ جهداً في النصيحة على قدر علمه ووسعه: ولايكلِّف الله نفساً إلا وسعها، وإلى هذا البحث عودةٌ نرجو أن تكون بمشيئة الله قريباً[١].

* * * * *

(١) في ختام هذا الحديث استعرض المؤلف منهاج السنة في مجلة الأزهر منذ صدورها إلى وقت كتابته هذا الحديث، وقد تقدَّم نقل كلامه في مقدمة الكتاب بعنوان: منهاج السنة في مجلة الأزهر ص٧٢ ـ ٧٥. فاستَغْنَيْتُ عن إعادته هنا.

الدين النَّصيحة *

٦١ـ عن تميم الداري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامَّتهم»[١]. رواه مسلم.

منزلة النصيحة من الدين

بدأنا أحاديث النُّصح في الإسلام بحديث جَرير بن عبد الله رضي الله عنه: «بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكل مسلم»[٢] وبيَّنا كيف كانت منزلة هذا الحديث من السُّنَّة، بمنزلة سورة (العصر) من الكتاب المبين.

ونظرةً في حديث تميم هذا ـ الذي وعدنا أن نُقَفِّيَ به على حديث جرير ـ تُبيِّن أنه أَولى أحاديث النُّصح بسابقه، وأدناها إلى أن تكون فاتحةً بيانه وتفصيله، فيما يأتي بعده إن شاء الله من بيان وتفصيل.

وحديث تميم ـ في إيجازه الجامع وإجماله الرائع ـ يُبيِّن منزلة النصيحة من الدين، فيجعلها عمادَه ومَلاكَه، بل يجعلها الدينَ كلَّه أصولَه وفروعَه وآدابه.

وتلك هي خصال الإسلام والإيمان والإحسان، في حديث جبريل عليه السلام، الذي قال العلماء فيه: إنه من السنَّة، بمنزلة الفاتحة من الكتاب، وقد

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد التاسع والعشرون (١٣٧٧ = ١٩٥٧).

(١) أخرجه مسلم (٥٥) في كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).

قال صلوات الله وسلامه عليه في خاتمة هذا الحديث: «هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم»[١]، فجعل تلك الخصال كلّها ديناً.

وإذا كان حديث تميمٍ هذا مُجْملاً، بالقياس إلى ما سواه من أحاديث النَّصيحة المفصَّلة، فإنّه على إجماله وإيجازه، جِماعُها وعمادُها، وإليه مردُّها في مقْصِدِها ومَغْزاها..

منهاج التربية النبويَّة

وإمامُ المربِّين ﷺ، يُربِّي أمَّته بالإجمال، ثم التفصيل. ويُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، مُتدرِّجاً في البيان تَدرُّجِ التنزيل، ثم يُتبع هذا التفصيل إجمالاً جامعاً في بيانٍ رائع، هو الشَّمسُ ساطعةً، والنهارُ دليلاً.

فهل يعلم أساطين التربية، وعلم النفس والاجتماع، في أرجاء دنيانا الحديثة، أنَّ منتهى ما بلغوه من أُسس، وما وضعوه من قواعد، وما طاروا ـ به فرحاً وتيهاً ـ من كشف اجتماعيٍّ، زعموا أنه جديدٌ، أو نهجٍ تربوي اتَّفقوا على أنه رشيد.. هل يعلمون أنَّ ذلك كله ـ وما هو أقرب منه نفعاً، وأعظمُ منه رشداً ـ من المبادىء الأولى في منهاج التربية النبويَّة، التي جاء بها مُعلِّم الناس الخير، ومُخْرِجهم من الظلمات إلى النور، وهاديهم إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم؟!.

إجمالٌ ثم تفصيل

بيَّن الحديث إجمالاً موقعَ النصيحة من الدين، ثم بيَّن تفصيلاً لمن تكون النصيحة، ثم ترك تفصيل ما ينبغي للناصح والمنصوح، لأحاديث أخرى تأتي في مواطنها بعون الله تعالى وتوفيقه.

والنصيحة أجمعُ كلمةٍ وأدلُّها على إخلاصِ الناصحِ، وعنايتِه بالمنصوح له، وقيامِه بكلِّ ما ينبغي له، من وجوب الخير، قولاً وعملاً. لا جَرَم أنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٨) بلفظ: «فإنه جبريل، أتاكم يعلِّمكم دينكم».

النصيحة إذاً تختلف باختلاف المنصوح.

النَّصيحة لله تعالى: صدقُ الإيمان به، وصحَّةُ الاعتقاد في وحدانيَّته، وإخلاص النيَّة في عبادته، والحبُّ فيه والبغضُ فيه، وموالاةُ مَنْ أطاعَهُ ومعاداةُ مَنْ عَصَاه، وَوَصْفُهُ بكلِّ كمال، وتنزيهُهُ عن كلِّ نقص.

والنَّصيحة لكتاب الله تعالى: إجلالُه وتعظيمُه، وتعلُّمُه وتعليمُه، والعملُ به، والتأدُّبُ بأدبه، والوقوفُ عند حدوده، والذبُّ عنه، والدعاءُ إليه، والإنفاقُ في سبيله.

والنصيحة لرسول الله ﷺ: تصديقُه، والإيمانُ بكلِّ ما جاء به، وتعظيمُه وتوقيرُه، وإحياءُ سنَّته، ونشرُ دعوته، والاقتداءُ به، والتأدُّبُ بآدابه، وإيثارُه على المال والولد والنَّاس أجمعين.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذه النصائح الثلاث متلازمةٌ مترابطة، ويمكن أن تغنيَ إحداها عمّا عداها.. ولكنها ذُكرت كلُّها متعاطفة؛ لتعظيم حقِّ الله، وحقِّ كتابه، وحقِّ رسوله، وتوكيدِ ما ينبغي لكلٍّ من الإخلاص والتوقير.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين، فهي طاعتُهم في غير معصية الله عز وجل، ومعاونتُهم على البرِّ والتقوى، وحبُّ صلاحهم ورشادهم، وإعزازُهم بعزَّة الله ورسوله والمؤمنين، وحبُّ اجتماع الكلمة لهم، وبغضُ التفرُّق والاختلاف عليهم، ودعوتهم إلى الخير، والتلطُّف معهم في الإبعاد عن الشَّرِّ، وحفظُ عهدهم وبيعتهم، ما أقاموا الصَّلاة.

أئمة المسلمين صنفان

ومن أئمة المسلمين: فقهاؤهم وعلماؤهم، الداعون إلى الخير، والآمرون بالمعروف، والنَّاهون عن المنكر.. لهم حقُّ الطاعة والامتثال، والتوقير والإجْلال، والأخذ عنهم فيما فقُهوا من الكتاب والسنة، ورووْا عن أعلام هذه الأمة..

وجملة القول: أنّ أئمة المسلمين هم الصنفان اللذان إذا صلَحوا صلَح الناس،

وإذا فسدوا فسد الناس، ونرجو أن نبيِّن مالهم وما عليهم في حديث خاص.

وأما النصيحة لعامة المسلمين، فتعليمُهُم وإرشادُهُم والرِّفق بهم، وحبُّ الخير لهم، ودفعُ الأذى عنهم، والزهدُ عما في أيديهم، وإصلاحُ السيرة والسَّريرة فيهم، وقضاءُ حاجاتهم، والعفو عن مسيئهم، والدعاءُ بإصلاح دينهم ودنياهم.

هذه كلماتٌ مجملة في هذا الحديث الجامع الذي نحسِب أنه أصلٌ لكلِّ حديث بعده في النُّصح والدعوة، مما نعرض لهم بعدُ إن شاء الله.

نظرة في حياة تميم

بقيت نظرةٌ لا غنى عنها، في حياة تميمٍ رضي الله عنه، راوي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، فإنَّ بينه وبين هذا الحديث نسباً يكاد يتميَّزُ به عن أصحاب رسول الله ﷺ.. ولو أنّا تقصَّينا البحث ما وسعنا الجهد، عن كلِّ ما امتاز به صحابيٌّ في روايته، إذاً لانتهينا إلى آيات وعجائب في علم النفس والتربية والاجتماع، تُضاف إلى كنوزنا الفريدة، التي نجهلها وهي بين أيدينا.

هو تميمُ بن أوس.. ويكنَّى أبا رُقيَّة، بابنة ليس له سواها، يُنسب إلى جدِّه الدار بن هانىء[1]، ويقال: الديري، نسبةً إلى الدير الذي كان يتعبَّد فيه قبل الإسلام، فإنه كان نصرانياً وأسلم سنة تسع من الهجرة، ورُويَ له عن النبيِّ ﷺ ثمانية عشر حديثاً، روى مسلم منها حديثه هذا.

وفي صحيح مسلم أنَّ رسول الله ﷺ روى عنه قصة الجسَّاسة[2] ـ دابة

---

(١) قال الحافظ الذهبي في «سير النبلاء» ٢ :٤٤٢: «والدار: بطن من لَخْم، ولَخْم: فَخِذ من يعرُب بن قحطان».

(٢) تفسير هذا أنَّ النبيَّ ﷺ حدَّث أصحابه عن المسيح الدجال والجسَّاسة، في آيات الساعة، فلما أسلم تميم، قصَّ على النبيِّ ﷺ شيئاً من ذلك ممَّا تعلَّمه من الكتب السماوية السابقة قبل تحريفها، فأعجبته ﷺ من تميم هذه الموافقة، فحدث بها على أثر الصلاة أصحابه...

=

معدودة في آيات الساعة ـ وتلك منقبة شريفة لتميم، لا يشاركه فيها غيره، وتدخل في رواية الأكابر عن الأصاغر.

قَدِمَ تميمٌ المدينة، وغزا مع النبيِّ ﷺ، وظلَّ بالمدينة إلى أن انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان رضي الله عنه، وسكن فلسطين.

كان كثيرَ التعبُّد والتهجُّد، قام ليلةً بآية واحدة حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[1]

أوائل تميميَّة

وتميم أوّل مَنْ أسرج السِّراج في المسجد[2]، وأوّل من قصَّ في صدر الإسلام بمسجد رسول الله ﷺ بإذنٍ من عمر، ثمّ بإذنٍ من عثمان، رضوان الله عليهم.

والقَصَصُ تذكيرُ الناس، وترقيق قلوبهم بالمواعظ المؤثِّرة، وكثيرٌ منه مدخول بعد الصَّدر الأول، وربّما عرضنا لتفصيل شيءٍ منه بعد. واللهُ المستعان على النصيحة له، ولكتابه، ولرسله، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

* * * * *

انظر: كتاب الفتن وأشراط الساعة في آخر صحيح مسلم. (طه). ورقم الحديث (٢٩٢٤).

(١) سورة الجاثية: ٢١.

(٢) أخرج ابن ماجه (٧٦٠) بإسناد ضعيف، عن أبي سعيد ، قال: أول من أسرج في المساجد تميمٌ الداري. وفي سنده خالد بن إياس متّفق على ضعفه.

الوَصَاة بكتاب الله عزَّ وجل*

ـ ١ ـ

٦٢ـ عن طَلْحَةَ بن مُصَرِّف قال: سألت عبدَ الله بن أبي أوْفى رضي الله عنهما: هل كان النبيُّ ﷺ أوصى؟فقال: لا، فقلتُ: كيف كُتِبَ على النَّاس الوصيَّة، أو أُمِرُوا بالوصيَّة؟! قال: أَوْصَى بكتابِ اللهِ.

رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١].

جماع الوصايا

بيَّنَّا في الحديث السابق أنَّ النصيحة لكتاب الله تعالى، إجلالُه وتعظيمُه، وتعلُّمه وتعليمه، والعملُ به، والتأدُّب بأدبه، والوقوف عند حدوده، والذبُّ عنه، والدعاء إليه، والإنفاق في سبيله[٢].

هذه النصيحة، هي جماع الوَصاةِ بهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد التاسع والعشرون (١٣٧٧=١٩٥٧).

(١) رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٠)، وفي المغازي (٤٤٦٠)، وفي فضائل القرآن (٥٠٢٢)، ومسلم (١٦٣٤) في كتاب الوصية.

(٢) لمناسبة إشراف الأزهر المعمور على جمعيات تحفيظ القرآن الكريم بأرض الكنانة، أعزَّها الله وسائر بلاد المسلمين بكتابه. وهذا العنوان هو ترجمة الامام أبي عبد الله البخاري للحديث في «فضائل القرآن» [فتح الباري ٨: ٦٨٥] غير أنا اخترنا لفظ روايته له في أوائل «الوصايا» (٢٧٤٠)، وقد رواه رواية ثالثة في باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٦٠)، والروايات الثلاث متقاربة (طه).

من بين يديه ولا من خلفه.

والوصيَّةُ بكتاب الله عزَّ وجلَّ، هي ـ بلا ريب ـ عينُ الوصية بحقوق الله وحقوق رسوله، بل هي عينُ الوصية بحقوق المسلمين بعضهم على بعض، أئمتهم وعامتهم جميعاً.

بقاء المسلمين ببقاء هذا الكتاب

إنَّ المسلمين في مَشَارق الأرض ومغاربها: عزَّهم ومَجْدَهم، بل بقاءهم على ظهر البسيطة، دَيْنٌ في أعناقهم لهذا الكتاب الذي تعهَّد الله بحفظه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

فَلْينظر المسلمون ـ أفراداً وجماعاتٍ، شعوباً وحكوماتٍ ـ كيف يقضون هذا الدَّيْن، نَظْرَتَهم إلى البقاء والفناء، أو نَظْرَتهم إلى المقامِ الكريم، والذلِّ المقيم!!

فواللهِ الذي يُمْسِك السَّموات والأرضَ أنْ تزولا، لولا هذا الكتاب لذهب الإسلام والمسلمون إلى غير رَجْعَةَ، ولذهب على أثرِهما ما في الأرض جميعاً ـ إِي وربي إنَّه لحقٌّ ـ ومِنْ أصدق الشواهد على ذلك، رفعُ هذا الكتاب آية من آيات الساعة[2]!!!

---

(١) اقتباس من الآية ١١١ من سورة التوبة.

(٢) أخرج ابن ماجَهْ في كتاب ذهاب القرآن والعلم ٢ :١٣٤٤ (٤٠٤٨) بسند قويٍّ ـ كما قال الحافظ في «الفتح» ١٣ : ١٦ ـ والحاكم في «المستدرك» ٤ : ٤٧٣ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يُخرِّجاه، ووافقه الذهبي، عن حُذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْرُسُ الإسلام كما يُدرَسُ وشْيُ الثوب، حتى لا يُدْرى ما صيامٌ، ولا صلاة، ولا نُسُك، ولا صدقة؟ ويُسرى على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية..»

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَيُنْزَعَنَّ القرآن من بين أظهركم، يُسْرى عليه ليلاً، فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيءٌ». رواه الطبراني، ورجاله =

فرية مسطورة

كان بعض أشياع عليٍّ رضي الله عنه، وكرَّم الله وجهه، أشاعوا أنَّ النبيَّ ﷺ أوْصى بالخلافة لعليٍّ من بعده، وأنّ الصِّدِّيق ثم الفاروق رضوان الله عليهما انتزعاها منه.. ووضعوا في هذه الفِرْية أكاذيب لا تزال مَسْطورةً إلى اليوم، يُخدع بها وينخدع، مَنْ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾[1].

وقد انبرى لردِّ فريتهم حَمَلة العلم، وأمناء هذه الأمة من سلفها الصالح إلى يومنا هذا..

بل إنَّ علياً نفسَه رضوان الله عليه يُكذِّبهم، ويتبرأُ منهم، ويَرُدُّ عليهم، ولم يَدَّعِهَا لنفسه قط، لا قبل خلافته ولا بعدها، ولا ادَّعاها له أحدٌ من أصحابه وأبنائه.

وهذا أبو جُحَيفة رضي الله عنه يقول: قلتُ لعليٍّ رضي الله عنه: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلا كتاب الله؟ فقال:لا، والذي فَلَقَ الحبة، وبرأ النسمة، لا أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل[2]، وفكاك الأسير، وألاَّ يقتل مسلم بكافر[3].

وعنه كرَّم الله وجهه: ما خَصَّنا رسولُ الله ﷺ بشيءٍ لم يعم الناس كافَّةً إلا ما في قِراب سيفي هذا، ثم أخرج صحيفة مكتوبة[4].

وقالت عائشة رضي الله عنه ـ وقد ذكروا أن علياً كان وصيّاً ـ: متى أوصى

رجال الصحيح، غير شدَّاد بن معقل، وهو ثقة كما في «مجمع الزوائد» ٧: ٣٢٩. وقال ابن حجر في «الفتح» ١٣: ١٦: سنده صحيح، ولكنه موقوف.

(١) اقتباس من الآية ٧ من سورة البقرة.

(٢) أي الدية؛ لأنهم كانوا يعطون فيها الإبل، ويعلِّقونها بفناء دار المقتول بالعقال، وهو الحبل. والمراد: أن بالصحيفة أحكام الدية ومقاديرها (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٧).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٨٧).

إليه رسول الله ﷺ؟! فقد كنت مُسْنِدَتُهُ إلى صَدْري ـ أو قالت حجري ـ فدعا بالطَّسْت، فلقد انحنث ـ مال ـ في حجري، وما شعرت أنه مات! فمتى أوصى إليه[١]؟! كلٌّ هذا ثابت في الصحيحين وغيرهما..

ترويج هذه الفرية بين صديق جاهل أو عدو مخاتل

وهؤلاء الذين يزعمون الوصيَّة لعليٍّ رضي الله عنه من الأصدقاء الجَهَلة، الذين يتنقصونه ويذمُّونه من حيث يظنُّون تعظيمَه وتكريمه! وذلك بأنهم نسبوه مع شجاعته وعُلوِّ همته وصَلابته في دين الله عزَّ وجل، نسبوه مع هذا كلِّه إلى المُصَانعة والمُدَاهَنَة والتقيَّة، والجُبْنُ عن المطالبة بحقِّه، وهو قادرٌ عليه، والله مُؤيِّدهُ وناصرهُ!! إنَّ هذا لهو العَجْز الشَّائن الذي يحمي الله أولياءه وأهل بيته منه.

لقد كان رضي الله عنه يتطلَّع إليها، ويريدها لذات الله عزَ وجل، ولكنَّ الله الحكيم العليم لم يُردها له، ولو أرادها، لأعلن بها الأمين المأمون صلوات الله وسلامُهُ عليه، ولصاحتَ بها الدنيا صَيْحة الحق في الآفاق مُدويَّة.

ولقد استحثَّه عمُّه العباس أن يسألها النبيَّ ﷺ، والفرصةُ في ظنِّه مواتية، فأبى.

روى البخاريُّ أنَّ العباس أخذ بيد عليٍّ، فقال له: أنت بعد ثلاث عبد العصا! وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوهَ بني عبد المطلب عند الموت.

اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فَلْنسأله: فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا.

فقال عليٌّ: «إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فَمَنَعْناها، لا يُعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤١)، ومسلم (١٦٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٧).

إساءة وإيذاء

إنَّ هؤلاء الذين يزعمون أنه صلوات الله عليه وسلامه أوصى إلى عليٍّ بالخلافة، وانتزعها منه أبو بكر وعمر، لَيُؤْذون رسول الله ﷺ في أصحابه وأهل بيته، قصدوا إلى هذا الإيذاء أم لم يَقْصدوا، ويُسيئون إلى دين الحق والعدل! أرادوا أم لم يريدوا... ثم لن يبلغوا من ذلك مأرباً...

تثبُّت واستيثاق

لمَّا شاعت تلك الفرِية وذاعت، وعمل على ترويجها صديقٌ جاهلٌ أو عدوٌّ لدين الله مُخَاتل، أحبَّ طلحة بن مُصَرِّف أن يستبينَ ويستوثقَ من أحد علماء الصحابة وأئمتهم: عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

طلحة بن مُصَرِّف

وطلحة بن مُصَرِّف أحد كبار التابعين وخيارهم، اتَّفقوا على إمامته وجلاله وورعه، ووفور علمه بالقرآن وغيره. وكان يُسمَّى سيد القرَّاء، ولمّا أجمعوا على أنه أقرأ أهل الكوفة غدا إلى الأعمش يقرأ عليه؛ ليذهب ذلك الاسم.

عبد الله بنُ أبي أَوْفى

وأما عبد الله بن أبي أوفى فهو الصحابيُّ ابن الصحابي رضي الله عليهما.

شهد بيعة الرِّضوان وخيبر وما بعدهما من المشاهد مع رسول الله ﷺ، ولم يزل معه بالمدينة حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، ثم تحوَّل إلى الكوفة، وهو آخر من توفي من الصَّحابة بها(١).

وكان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهمَّ صلِّ عليهم، فلمَّا أتاه

---

(١) توفي سنة ستٍ وثمانين. وقيل: بل توفي سنة ثمان وثمانين، وقد قارب مئة سنة، رضي الله عنه.

أبو أوفى[١] بصدقته قال ﷺ: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى»[٢].

الوصيَّة المُفْتراة

لا يَجْهل طلحة أنَّ النبيَّ ﷺ أوصى عند موته بثلاث. وأنَّ آخر ما تكلَّم به: «**الصَّلاة، وما ملكت أيْمَانُكُم**»[٣]، ممَّا نُفَصِّله قريباً إن شاء الله، وإنما أراد الوصيَّة الخاصَّة المزعومة، وفهم ذلك منه بحقٍّ عبد الله رضي الله عنه، فنفى نفياً باتاً تلك الوصيَّة المُفْتَراة دون تردُّد.

الوصية الوافية الشافية

ثم أثبت الوَصاةَ بكتاب الله تعالى، وهي الوصيَّة الوافية الشافية التي ينطوي فيها كلُّ ما عداها من الوصايا النبويَّة، وهذا هو سرُّ اقتصاره ـ في الإجابة ـ عليها.

وما أجدرنا ـ نحن والنبيُّ ﷺ يوصينا بما فيه رفعتنا ومَجْدنا ـ أن نتواصى برفعتنا ومجدنا وحياتنا خيراً، والله المستعان على البقية.

* * * * *

---

(١) واسمه: علقمة بن خالد بن الحارث.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٧) في الزكاة، وفي المغازي، وفي الدعوات، ومسلم (١٠٧٨) في الزكاة.

(٣) رواه أحمد ١: ٧٨(٥٨٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٥٨)، وأبو داود (٥١٥٦) وابن ماجه (٢٦٩٨)، وأبو يعلى (٥٩٦) وهو حديث صحيح. رجاله ثقات رجال الصحيح. وانظر شرح المؤلف له في حديث: «آخر الكلام النبوي» ص ٧٨٠ ـ ٧٨٤.

الوَصاة بكتاب الله عز وجل *

ـ ٢ ـ

٦٣ـ عن طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبد الله بن أبي أوْفى: هل أوصى رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، قلت: فَلِمَ كُتب على المسلمين الوصيَّة؟! أو: فلمَ أُمِروا بالوصيَّة؟! قال: أوصى بكتاب الله عز وجل.

رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[١]

الوصية في صدر الإسلام

كانت الوصيَّة حقاً مفروضاً للوالدين والأقربين في صدر الإسلام، على كلّ من ترك مالاً، وذلك قوله جلّ سلطانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

فلمَّا نَزَلت آيات الفرائض نَسَخت الوصية للوارثين، وأضْحَت المواريث المقدَّرة فريضةً من الله يأخذها أهلها من غير وصيَّة ولا مِنَّة، وخطب ﷺ في

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، السنة التاسعة والعشرون، ١٣٧٧=١٩٥٧.

(١) رواه البخاري (٢٧٤٠) في الوصايا، و(٤٤٦٠) في المغازي، و(٥٠٢٢) في فضائل القرآن، ومسلم في كتاب الوصية برقم (١٦٣٤)، وقد اخترنا في الجزء الماضي لفظ البخاري في كتاب الوصايا، وبيَّنا أنه رواه في موضعين آخرين: في مرض النبيِّ ﷺ ووفاته، وفي فضائل القرآن.. والمناسبات في المواطن الثلاثة واضحة (طه).

(٢) سورة البقرة: ١٨٠.

ذلك فقال: «إنَّ الله أعطى كلَّ ذي حقٍ حقَّه فلا وصيَّة لوارث»[١].

وصارت الوصيَّة بشيءٍ من المال لغير الوارثين قُربةً من القرب المندوبة لمَنْ كان ذا فضل وسَعَة، وأعظَمَ النبيُّ ﷺ شأنها حتى كاد يُلحقها بالحقوق الواجبة، فقال فيما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما: «ما حقُّ امرىءٍ مسلمٍ له شيءٌ يُوصي فيه، يبيتُ ليلتَيْن إلا وَوَصِيَّتُه مكتوبةٌ عنده»[٢].

ميراث الأنبياء

لا جَرَم أنَّ الوصيَّة إنّما تكون فيما يصحُّ أن يُورثَ، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يورِّثوا مالاً، وكل ما تركوه فإنما هو صدقةٌ محبوسة على الأمة، شأنُها شأنُ الوقف المُحبس، وإنَّما أورثوا النبوَّة والعلم والهدى والحكمة، ومن ذلك قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٣].

وقوله سبحانه حكايةً عن نبيِّه زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٤].

مطالبة السيدة فاطمة عليها السلام بميراثها

وجاءت السيِّدة فاطمة إلى أبي بكر رضي الله عنهما، فقالت: مَنْ يرثك؟ قال: أهلي وولدي. قالت: فما لي لا أَرِثُ أبي؟ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه أحمد ٥ :٢٦٧ (٢٢٢٩٤) والترمذي (٢١٢٢) وأبو داود: (٢٨٧٠)، والنسائي (٣٦٤١)، (٣٦٤٣) كلهم من حديث أبي أمامة الباهلي مرفوعاً وبأسانيد حسنة، وأخرجه ابن الجارود (٩٤٩) من طريقه عن أبي أمامة وغيره بإسناد صحيح. انظر: التعليق على المسند ٣٦: ٦٣٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

(٣) سورة النمل: ١٦.

(٤) سورة مريم:٥_٦.

«لا نُورَث»[١]، ولكنِّي أعولُ مَنْ كان رسول الله ﷺ يعوله، وأنفقُ على من كان ينفق عليه.

وفي الصحيحين عن عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّ فاطمة عليها السلام ابنة رسول الله ﷺ والعباس أتيا أبا بكر، يلتمسا ميراثَهما من رسول الله ﷺ، يطلبان أرضيهما من فَدَك[٢] وسهمَهما من خيبر، فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نُورَث، ما تركْنا صدقةٌ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»، والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته، فَهَجَرَتهُ فاطمةُ رضوان الله عليها، فلم تكلِّمْه حتى ماتت! [٣]

صَلابة الصِّديق وشدته في دين الله

وهذا أحدُ الأدلة التي لا تُحصى على صلابة أبي بكر رضي الله عنه، وشدَّتِه في دين الله عزَّوجَلَّ، مع بلوغه الغاية التي لا مَطْمَعَ وراءها في حُبِّ النبيِّ ﷺ وابنتِه وآلِ بيته، وافتدائه إيَّاهم بماله ونفسه.

لم يترك رسول الله ﷺ مالاً يوصي به

وروى مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء[٤].

وروى البخاري عنها، قالت: توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٠٨).

(٢) بفتحتين: قرية بخيبر، على ثلاث مراحل من المدينة، وكانت حبساً لأبناء السبيل، وأما خيبر فكانت ثلاث أجزاء: جزأين بين المسلمين، وجزءاً نفقة أهله، فما فضل منهم جعله بين فقراء المهاجرين (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٢) (٣٧١١) (٤٠٣٥) (٤٢٤٠) (٦٧٢٥)، ومسلم (١٧٥٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٣٥).

ذو كَبدٍ إلا شطرَ شعيرٍ في رَفٍّ لي، فأكلت منه، حتى طال عَليَّ فكلته، ففني[1].

المراد بالوصيَّة

لعلَّ هذه الأدلة الواضحة على أنه ﷺ لم يترك مالاً يوصي فيه ـ وهي قليل من كثير ـ تُرجِّح ما اقتصرنا عليه في الجزء السابق من أنَّ طلحة سأل عن الوصيَّة المزعومة: وصيته ﷺ بالخلافة.. ولا مانع أن يريدَ الوصيَّة بالمال، ويؤيِّد ذلك تعجُّبُهُ من عدم وصيَّته ﷺ مع أمر الله ورسوله بها! وأيًّا ما كان المسؤولَ عنه من خلافةٍ أو مالٍ، فقد نفاه ابن أبي أوفى رضي الله عنه نفياً باتّاً من غير تردُّد.

أمانة الرواة وتحرِّيهم في نقل الحديث

و «أو» التي بين الاستفهامين، للشكِّ من الراوي عن طلحة: هل قال: فَلِمَ كتب على المسلمين الوصيَّة؟ أو قال: فَلِمَ أُمِروا بالوصية؟ وهي من الأدلة القائمة على أمانة الرواة وتحرِّيهم في نقل الحديث، ممَّا لم يعهد في غير الأمة المحمديَّة.

أجمع الوصايا خيراً وبِراً

ولمَّا عجب طلحة من عدم وصيَّته ﷺ بمال أو خلافة، مع أنه أوْلى الناس بالوصيَّة، أجابه ابنُ أبي أوفى بأنَّ الوصيَّة لن تفته ﷺ فهو أولى الناس بالخير، وأسبقهم إليه، وأحرصهم عليه، فَلْيَطِبْ نفساً، وليطمئنَّ فؤاداً، ولْيَعلم أنَّ هناك وصيَّة أوصى بها، هي أجمعُ الوصايا خيراً، وأعظمها ذُخراً وبِراً، هي الوَصاة بكتاب الله عزَّ وجل: تعلُّماً وتعليماً، وفهماً وتفهيماً، ودرساً ونشراً ومهما تكن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٧)، ومسلم (٢٩٧٣). وأخرج الإمام أحمد ٥: ٤١٤ (٢٣٥٠٨) والطبراني في الكبير (٣٨٥٩) عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً: «كيلوا طعامكم يُبارك لكم فيه». فلعلَّها رضي الله عنها نسيت التسمية عند الكيل، فنُزعت بركة الطعام، وللتسمية سرٌّ عظيم على رُغم أنف الجاحدين، أو لعلها كالَتْهُ لمُجَرَّد الاختبار ذاهلة عن فضيلة الامتثال، والعلم عند الله تعالى (طه).

من وصيَّة في خير فإنها مُقْتَبَسة منه أو متَّصلة به نصًّا أو استنباطاً.

وصاياه ﷺ

هذا هو سرُّ اقتصاره على الإجابة بهذه الوصيَّة الجامعة الشافية، وإلا فقد أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة وما مَلَكت أيمانكم.

الوصاة بالصحابة رضي الله عنهم

ووصَّى بالمهاجرين والأنصار، وأوصى بأصحابه خيراً، وقال: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»[١] ... ولم يعرف تاريخ الخليقة ـ ولن يعرف ـ مَنْ يُداني رسول الله ﷺ في كرم صُحبته، ومحافظته على أصحابه ووصيَّته بهم.

الوصيَّة بسنته والمحافظة عليها

وأوصى بسنته والمحافظة عليها، فقال: «ألا إني أُوتيت الكتاب ومثلَه معه. ألا يوشك رجلٌ شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه»[٢]. والأريكة: السرير.

وفي هذا الأسلوب أبلغُ ردٍّ على هؤلاء الغواة الحمقى، الذين يزعمون أنهم استغنَوا بكتاب الله عن سنة رسوله ﷺ، وما هو إلا الضلال والخُبث. والكتاب العزيز نفسُه يردُّ عليهم حماقتهم وضلالتهم إذ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣].

والحقُّ أنَّ هؤلاء يكيدون للإسلام بطرح شطره الثاني، طمعاً في أن يسهلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠)، (٢٥٤١).

(٢) أخرجه أحمد ٤ : ١٣١ (١٧١٧٤)، و أبو داود (٤٦٠٤).

(٣) سورة الحشر: ٧.

عليهم شطرُه الأول: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

ثلاث وصايا

لما اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعُه، وكان ذلك يوم الخميس[2] أوصى أصحابه بثلاثٍ: أن يُخرجوا المشركين من ﷺ جزيرة العرب، وأن يُجيزوا الوفد بنحو ما كان يُجيزهم به. قال الراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو سعيد بن جبير: ونسيت الثالثة[3]، فقيل: هي الوصيَّة بالقرآن، وقيل: هو تجهيز جيش أسامة، وقيل: أن لا يُتَّخذ قبرُه وثناً. وكلُّ هذه الوصايا في جملتها وتفصيلها مُنْطَوٍ في كتاب الله تعالى.

وأحاديث الوَصاة بالكتاب العزيز والعنايةِ به، من الشُّهرة بمكان عظيم، ومن أشهرها ـ ولعل ابنَ أبي أوفى رضي الله عنهما يشير إليه في إجابته ـ ما رواه مالك في «موطئه» عن النبيِّ ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بهما: كتابَ الله، وسنةَ رسول الله ﷺ»[4].

حقٌّ مفروض

ألا إنَّ حقاً مفروضاً على كلِّ من يؤمن بالله وكتابه أن يكون له سهمٌ ـ بقدر وسعه ـ في المحافظة على القرآن الكريم، والعناية به والدعوة إليه، ونشره في بقاع الأرض. فإن لم يكن ذلك لإيمانه بالكتاب وحقِّ الكتاب العزيز عليه،

---

(١) سورة التوبة: ٣٢.

(٢) في الثامن والعشرين من شهر صفر، وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين الذي يليه، ثاني ربيع الأول لتمام عشر سنين من الهجرة (طه). والراجح أنه في الثاني عشر من ربيع الأول كما في «سلوة الكئيب بوفاة الحبيب» لابن ناصر الدين الدمشقي ص١٧٠ ـ ١٧٢.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٣١)، ومسلم (١٦٣٧).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ: ٢: ٨٩٩.

فليكن لفضل القرآن ورحمته وإنقاذه؛ فإنَّ حياة العالم رهنُ هذا الكتاب، الذي لولاه لذهب الإسلام والمسلمون إلى غير رجعة كما قلنا في الجزء الماضي، ولذهب على أثرهما مَنْ في الأرض جميعاً.

أين مكاننا من القرآن؟

فلينظر المسلمون أئمة وعامة أين مكانهم من القرآن؟ وأين مكان القرآن منهم؟ قبل أن يشكوهم الصادق المصدوق إلى ربِّه، كما شكا المشركين إليه من قبل، فقال: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[1].

* * * * *

(١) سورة الفرقان: ٣٠.

مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم *

٦٤ـ عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قَبَّل رسُولُ الله ﷺ الحَسَنَ بنَ عليٍّ، وعندَهُ الأقْرع بن حَابس التَّميمي جالساً، فقال الأقرع: إنَّ لي عَشَرةً من الوَلد ما قَبَّلتُ منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثمَّ قال: «مَنْ لا يَرحَمُ لا يُرحَمُ»[1].

٦٥ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: تُقبِّلون الصِّبيان؟! فما نقبّلُهم، فقال النبيُّ ﷺ: «أوَ أَمْلِكُ لك أنْ نَزَع الله من قلبك الرحمة؟!» رواهما الشيخان[2].

المفردات:

الأقرع بن حابس: مِنْ سادات العرب وحُكَّامهم في الجاهلية، قَدِمَ على رسول الله ﷺ في وَفْد من بني تميم فأسلموا، وكان من المُؤلَّفة قلوبهِم، وكان فيه مع حُسْن إسلامه رضي الله عنه، نزعةٌ من خشونة البادية. شهد مع النبيِّ ﷺ حُنيناً وفَتَح مكة والطائفِ، وشهد مع خالد بن الوليد أكثر وقائعه حتى اليمامة. واستُشْهد في خلافة عثمان رضي الله عنه. وسمِّي بذلك لقَرَعٍ كان في رأسه.

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد السابع عشر (١٣٦٥ = ١٩٤٦).

(١) برفع الفِعلين على أنَّ «مَنْ» موصولة، وبجزمهما على أنها شرطيَّة، والعبارة تفيد العموم على كلا الوجهين.

(٢) الأول: أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧)، ومسلم في فضائله ﷺ (٢٣١٨).

والثاني: أخرجه البخاري في الأدب أيضاً (٥٩٩٨)، ومسلم في فضائله ﷺ (٢٣١٧).

والوَلد، والوُلد: يجيء للواحد والجمع، والذكر والأنثى، وقد يُجمع على أولاد.

* * * * *

حنان الجدِّ الرحيم

بينما الأقْرع بن حابس جالسٌ عند النَّبيِّ ﷺ ـ وكان حديثَ عهدٍ بالإسلام ـ أبْصَرَه يُقبّل سِبْطه ورَيْحانتَه[١] الحسنَ بن عليٍّ رضي الله عنهما، في مداعبةِ الأبِ الرَّحيم، وحنانِ الجدِّ الكريم، فقال الأقرع، وقد أخذته دهشةٌ من حنانٍ لم يألفه، وبرٍّ لم يعرفه: إنَّ لي عَشَرةً من الأولاد، ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه النبيُّ ﷺ نظرَ المُتعجِّب، ثم ردَّ عليه هذا الردَّ الحكيم.

وجاء أعرابيٌّ ـ قيل إنَّه قَيْس بن عاصم التميمي، وقيل: إنه عُيينة بن حِصْن الفَزَاري ـ فشهد هذه المُداعَبة الرحيمة، فمَا تَمَالك أن قال في خشونة الأعراب وجَفْوَتهم: أتقبِّلون صبيانكم؟! فوالله ما نُقبِّلهم[٢]، فما كان منه صلوات الله وسلامه عليه إلا أن أنكرَ عليه قَسْوتَه، مُعتذراً عمَّا لا يملك له من ردِّ رحمةٍ نزعها الله منه، وحنانٍ حرَمه الله إيَّاه.

وقيل: إنَّ هذا الأعرابي هو الأقرع نفسُه، قال المقالتَيْن جميعاً، وأجابه النبيُّ ﷺ بالجوابَيْن جميعاً. ثم روى أبو هريرة رضي الله عنه شطراً، وروت

(١) السِّبط بالكسر: ولد الولد، والرَّيحان يُطلق على نَبْت طيِّب الريح، وعلى الرزق، ويقال للولد أو ولده: ريحانته، لأنه يقبَّل ويُشَم، أو لأنه رزق من الله عز وجل، وفي حديث البخاري (٥٩٩٤): «هما ـ يعني الحَسَنَيْن ـ رَيْحَانَتايَ في الدنيا» (طه).

(٢) ثبت هذا القَسَم في رواية الإسماعيلي (طه).

عائشة رضي الله عنها الشطر الآخر.

على أنه لا مانعَ أن يكون التساؤل قد وقع من الثلاثة جميعِهم، والإجابةُ كانت لهم كذلك، ويَعضُد هذا ما جاء في رِواية مسلم عن عائشة من إسناد القِصَّة إلى أناس من الأعراب.

قانون عام خالد

وأجلُّ ما يعنينا في الحديثَيْن أنَّه صَلَوات الله وسلامه عليه، لم يكتف بالدعوة العمليَّة إلى الحنان والرحمة، حتى أرسلها حكمةً جامعةً، وشِرعةً ساطعةً، وقانوناً عامّاً خالداً: «من لا يَرْحَمِ لا يُرحَم» أي: من لا يتَّصف بالرحمة، أومن لا يَرحم خَلقَ الله، فليس أهلاً لأن تنالَه رحمة الله؛ لأنَّها ـ وإنْ وَسِعَت كلَّ شيءٍ ـ مُحرَّمةٌ على الأشقياء الذين نُزِعَتْ من قلوبهم، فلم تجد إليها سبيلاً.

رحمة عامة شاملة

فليست الرحمةُ إذاً مَقْصورةً على الولد والأهل والأحبَّة، بل ليست مقصورة على الأَناسي، وإنما هي عامةٌ شاملة لجميع الخَلْق، فتتناول جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، كما تتناول البهائم والطيور وكلَّ دابة في الأرض.

ويدخل في الرَّحمة بها تعهُّدها بالإطعام والسَّقي، والتخفيف عنها في الحَمْل، وعدم العدوان عليها بالضرب والأذى، وما إلى ذلك ممَّا يتَّصل بالعدل والرفق.

أوْلى الخَلْق بالرحمة

وإذا طُلب إلى العبد الرحمة بجميع الخلق، فأوْلاهم بها نفسُه التي بين جَنْبَيه؛ ورحمتُها بامتثال أوامر الله، واجْتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده؛ حتى يكون ذلك وقايةً لها من سَخَطِ الله وغضبه، وسبيلاً إلى رحمته ورضوانه.

ومن الحماقة أن يَرْحَمَ المرءُ غيرَه ولا يرحم نفسَهُ، ثم يزعم لها أنها أحبُّ

الأشياء إليه، وآثرُها لديه! وقد غَفَلَ أو تغافل عن أنه جنى عليها جنايةً نكراء، لا يُكفِّرها إلاَّ أن يحملَها على الجادَّة، ولو أن يقسوَ عليها بعض القسوة!.

ومَنْ يك حازماً فليقس أحياناً على من يُرحم.

ومن المهمَّات هنا أن ننبِّه على أنَّ الأمر بالرحمة العامة، وتوكيد طلبها، لا يعارض ما جاءت به الشرائع من تأديب الطفل ولو يتيماً، والزوج إذا كانت ناشزة، والمتعلِّم وغيره عند الحاجة. ولا يعارض إقامةَ الحدود على العُصاة وتعزيرَهم، وجهادَ الكفار والغِلْظَة عليهم؛ فإنَّ في هذا كلِّه من الرحمةِ بهم في مستقبل أمرهم، والرحمة بالأسرة والمجتمع، ما لا تعدُّ الرحمة بالترك في جانبه شيئاً مذكوراً، بل الرحمة بالترك والتفريط صُوريّة فحسب، إذ هي في حقيقة أمرها قسوة ليس وراءها قسوةٌ؛ لما تُفضي إليه من فسادِ أمْرِهم، وشقاء الأسرة والمجتمع بهم.

ومن الرحمة بالمريض أنْ تعالجَه بالدواء، ولو كان مُرّاً، بل بالكيِّ أو البتْر إذا لم يكن بدٌّ منها لسلامة بقيَّةِ الجسم.

وكذلك لا يُعارض إباحةَ القِصَاص، والدفاع عن النفس، وذبح ما يُذبح، وصَيْد ما يُصاد.

وإذا كان في ترك القِصَاص رحمةٌ بالقاتل، ففي أدائه رحمة بوليِّ القتيل، وشفاءٌ لنفسه من سَوْرة الحزن والألم، ورحمةٌ بالأمة، ووقايةٌ لها من شرور الآثمين.

وليس الحيوانُ ولا الطيرُ المأكول ممَّا يستطيع الدفاع عن نفسه، فإنْ تَرَكهما الإنسان رحمةً بهما لم ترحمهما الجوارح والكواسر.

على أنَّ الشريعة لم تنسَ الرحمة عند الذبح أو القتل حتى النَّفَس الأخير، ولعلَّ هذه اللحظة هي أحقُّ الأوقات بالرحمة وأجدر؛ فقد روى مسلم عن شدَّاد بن أوْس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، ولْيُحدّ

أحدُكم شَفْرَتَه وَلْيُرحْ ذبيحتَهَ»[١].

أساس الأخلاق

لم يدعُ الإسلام إلى الرحمة على أنها من الفضائل الكماليَّة التي يُغْني عنها غيرها، بل دعا إليها على أنها من الأسس والقواعد التي يقوم عليها بناء البيت والأسرة، وتعتمد عليها سعادة الفرد والجماعة؛ لذلك بوَّأها من المكارم ذروتَها وسنامها، وجعل السعيد كلَّ السعيدِ من رُزقها، والشَّقيَّ كلَّ الشقيِّ من حُرمها، وجَعَلَ حظَّ الأفراد والأمم من الخير والسعادة على حَسْب نصيبهم منها.

وهل أدلّ على ذلك من أنَّ الله تعالى كَتَب على نفسه الرحمة التي غلبت غضبه، والتي وَسِعَت كلَّ شيء، وَوَصف نفسَهُ ونبيَّه بها، وَدَعانا إلى أن نسميه باسمه مَقْروناً برحمته، في طعامنا وشرابنا ومنامنا، وسائر شؤوننا وأحوالنا؟!. ما ذلك إلا لِنَتَربَّى على الرحمة تربيةً عمليةً حتى تختلط بها قلوبُنا، وتمتزجَ بها نفوسنا، فلا نَصدُر إلا عنها، ولا ننتهيَ إلا إليها.

حاجة البشرية إلى إنقاذ

إنَّ العالم اليوم ـ وقد طَحَنته الحروبُ وأشْقَتْهُ القسوة ـ لَيبحث عن منفذٍ يُخَلِّصُهُ من بلاياه، ويَنْتشلُه من وِهَاده، ومُحالٌ أن يجدَ ضالَّته التي ينشد، وأمنيته التي يتمنَّى، إلا في ظلال الإسلام وتعاليمه، ومَبْدؤها الرحمة، وإن شكَّ في ذلك فليجرِّب، فإن لم يكسب من هذه التجربة ـ ومحال ألا يكسب ـ فليس بخاسر شيئاً.

* * * * *

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

الواصلُ والمُكافىء *

٦٦ـ عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «لَيْسَ الواصلُ بالمُكَافىء، ولكِنَّ الواصلَ الذي إذا قُطِعَتَ رَحِمُه وَصَلَها». رواه البخاري[1].

الرَّحم عامَّة وخاصَّة

الرَّحم: عامَّة وخاصَّة، وكلٌّ ممَّا أمر الله به أن يُوصَل، في غير مُحَادَّة لله ورسوله: فأما الرَّحِم خاصَّة، فهي القرابة على اختلافِ درجاتها، فإذا اشتدت، فإنَّ قطيعتها لغير الله أعظم جرماً، كما أنَّ صلتها لله أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

صلة الرحم العامَّة والخاصَّة

وتكون صلة الرحم العامة بالعدل والإنصاف، وَتَأْدية الحقوق الواجبة ثم المُسْتَحَبَّة. وتمتاز صلة الرَّحم الخاصَّة بمزيد العناية في النفقة والمودَّة والتناصح والتسامح، وتفقُّد أحوالهم، والتغافل عن زلأَّتهم، والسَّعي في مصالحهم، في حدود الوُسْعِ والطاقة، ولاسيِّما أهل الصلاح منهم والاستقامة.

سيد الواصلين في قومه

فأما الكفار والفجار، فأهمُّ صلتِهم بذلُ الجهد في إصلاحهم.. ثمَّ إنذارهم بالقطيعة إنْ تمادَوْا عنهم في غيِّهم.. مع إعلامهم بأنَّ القطعَ في الله تعالى هو عينُ

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد الثلاثون، سنة(١٣٧٨).

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩١)في كتاب الادب. والرواية بتشديد «الكن»، ويجوز تخفيفها. وأكثر الروايات في «قطعت» بفتحات، وفي بعضها بضم القاف وكسر العين (طه).

الوصل، ومع الدعاء لهم بظهر الغيب أن يهديَهم الله إليه صراطاً مستقيماً.

وقد نال سيِّد الواصلين ﷺ من أذى قومه ما لم يَنَلْه أحدٌ، فعفَّ وعفا، وقال: «اللهمَّ اهد قومي فإنَّهم لا يعلمون»(١).

ووصَّى صلوات الله وسلامه عليه، فشدَّد الوصيَّة بأهل بيته خيراً، وقال في بعض رحمه: «إنَّ آل أبي فلانٍ ليسوا بأوليائي، إنما وليِّي الله وصالح المؤمنين، ولكنَّ لهم رحم أبلُّها ببلالها»(٢).

ولما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(٣) دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، [يا بني مُرَّة ابن كعب أنقذوا أنفسكم من النار]، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار! فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أنَّ لكم رحماً سأبُلُّها ببلالها»(٤). رواه مسلم عن أبي هريرة

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧)، (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢). ولفظه عند البخاري من حديث عبد الله قال: «كأني أنظر إلى النبيِّ ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وانظر ص٥٦٨.

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

(٣) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٤) البِلاَل بالفتح والكسر مصدر «بلَّ» كـ«ردَّ»، ويجوز على الكسر أن يكون جمع «بلل» كـ«جَمَل». شبَّه قطيعة الرحم بالحرارة، وشبَّه صلتها بالماء الذي ينديها ثم يطفئها، وهو من بديع التشبيه، ومنه الحديث: «بلُّوا أرحامكم ولو بالسلام» وانظره: في الجامع الصغير(طه). رواه البزار عن ابن عباس، والطبراني عن أبي الطفيل، والبيهقي عن أنس وسويد بن عمرو، وقيل: ابن عامر الأنصاري. والحديث حسن كما في «صحيح الجامع الصغير».

رضي الله عنه[١]

وجاءه رجل فقال: يا رسول الله: إنَّ لي قَرابةً أصلُهم ويقطعونني، وأُحسنُ إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحلُمُ عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم مادمت على ذلك»[٢].

رحم القرابة

والرَّحمُ الخاصَّة هذه هي موضوع حديثنا هذا والحديث السابق، وهي التي تُراد عند الإطلاق، وقد أعظم الله شأنها، ورفع مكانها، حتى اشتقَّ اسمها من اسمه، وصفتَها من صفته، وأجابها وهي في مقام العائذ به من القطيعة: «أما تَرْضَيْنَ أنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَك، وأقطَعَ مَنْ قَطَعَك؟ قالت: بلى يا رب! قال: فهو لك»[٣].

ثمَّ قَرَنها بذكره، في مقام تقْواه ومراقبته، فقال جلَّ سلطانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٤] ولو لم يكن لها من عظيم الشأن عند الله إلا هذا لكفى.

رحم الدين

وأما الرَّحِمُ عامة، فهي رَحِمُ الدين الحقِّ..

وقد تَقْوى هذه الرَّحم حتى تكون أعظم من الرَّحم الخاصَّة شأناً وأعلى مكاناً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤) وما بين معكوفتين سقط من الأصل.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٨) في كتاب البر والصلة من حديث أبي هريرة وقوله ﷺ: «تُسِفُّهُمُ الملَّ» أي: الرماد الحار، شبَّه ما يلحقهم من آثام القطيعة بما يلحق طاعم الرماد الحار من الغيظ والألم، وقد تكفَّل الله للواصل المطعم بالبر والمعونة والرعاية والكفاية.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٤) سورة النساء: ١.

فإذا تعارضت الرَّحِمَان في رغبةٍ، قُدِّمت رَحِمُ الدين على رَحِمِ القرابة، فلا طاعة لمخلوق ـ كائناً من كان ـ في معصية الخالق؛ والله ورسوله أَوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ومن الوالدين والأقربين.

وهذه الرحم العامة شعب وضروب شتى:

فمنها رَحِم العلم، ومنها رَحِم العمل، ومنها رَحِم الجوار، أفراداً وأمماً، وممالك وشعوباً. وأرفعُها درجةً وأعظمها قُرباً، ما اجتمعت فيه هذه المعاني كلها، ثمَّ هي بعد ذلك درجاتٌ لا تُحصى عدداً.

رَحِمُ الأخوة العظمى

وهذه الرَّحم العامة في حقيقة أمرها، واختلافِ شُعَبها، تُمثِّل الجانب الأعظم، من رَحِمٍ أعمَّ وأشمل، رَحم الأخوة العظمى، والإنسانيَّة الكبرى، التي خلقها الله من نفسٍ واحدة، وخلق منها زوجها، وبثَّ منها رجالاً كثيراً ونساء.. ثمَّ جعلهم شعوباً وقبائل؛ ليعرف بعضُهم بعضاً، فَيَصِلوا أرحامهم، ويتبيَّنوا أنسابهم، ويتعاونوا على البرِّ والتقوى.

وكما تختلف الأرحام قُرْباً وبُعْداً، يختلف الواصلون كذلك ضيقاً ووَسعاً، وقدرةً وعجزاً، ولا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1].

أصناف الناس في معاملتهم للأرحام

ومهما يختلف الناس في معاملتهم للأرحام، فهم أصناف ثلاثة:

١ ـ **صنف قاطع** ـ وعياذاً بالله منه ومن القطيعة معاً ـ وحَسْبُ هذا وعيداً

---

(١) سورة الليل: ٥ ـ ١٠.

على عظيم إثمه وكبير جرمه، قولُ الصادق المصدوق صلوات الله عليه وسلامه: «لايدخل الجنة قاطع» رواه الشيخان عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه[١].

٢ ـ وصنفٌ مكافىء، وهو الذي يَصِلُ مَنْ وَصَلَه، ويقْطع مَنْ قَطَعه، فهو في جملة أمره واصل، وإنْ كان يُقارض ويُبادل، فإنَّ في المبادلة صلة، وإن لم تكن كاملة.

وإنما ألغى صلوات الله وسلامه عليه صلة المكافىء، ولم يعد صاحبها في الواصلين حقاً؛ لأنَّ الصِّلة على سبل المُبادَلة فقط، ليست من تمام المكارم التي بُعثَ لها صلوات الله عليه؛ ولأنَّ صاحبها ليس من الراشدين الكاملين، الذين يعدُّهم المُربِّي الأعظم ﷺ، لأن يكونوا سادةً وقادةً في خير أمّةٍ أُخرجت للناس.

نفي الشيء أو إثباته مراداً منه جنسه الكامل

ونفيُ الشيء أو إثباته مراداً منه جنسه الكامل، من الأساليب المعروفة على ألسنة المربين والبلغاء، ومن ذلك قول بعض السلف: ليس الإحسان أن تُحسن إلى مَنْ أحسنَ إليك؛ فإنَّ ذلك متاجرة، وإنما الإحسان أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك.

وأبلغ من هذا قول إمام المربِّين وأبلغ الناطقين ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشَّديد الذي يملك نفسَه عند الغضب»[٢]، «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»[٣]، «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفَّف»[٤]. روى

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

الشيخان ثلاثتها عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أفضل الأصناف

٣ ـ وصنف واصل، وهو المتفضِّل، وهو مراد النبيِّ ﷺ ومقصوده الأعظم في هذا الحديث.

ذلك الصنف الثالث أقلُّ المتقين عدداً، وأكثرهم إحساناً ورَشَداً، ذلك هو الأتقى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1].

* * * * *

(١) اقتباس من الآيات ١٨ ـ ٢١ من سورة الليل.

الإصلاح بين الناس *

٦٧ـ عن أمِّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيط رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فيَنْمي خيراً، أو يقول خيراً». قالت: ولم أسمعْه يُرَخِّص في شيءٍ مماً يقوله الناس إلا في ثلاث: يعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأتَه، وحديث المرأة زَوْجَها. رواه الشيخان[1].

المفردات:

نمى الحديث: ينميه (بالتخفيف)، بلَّغه على وَجْه الإصلاح والخير؛ ونمَّاه ينمِّيه (بالتشديد فيهما): بلَّغه على وَجْه الإفساد والشر. و«أو» للشكِّ من الراوي في أيِّ اللفظين قال النبي ﷺ، وهي تدل ـ كما قلنا في أمثالها ـ على العناية والضبط، وتحرِّي ألفاظه صلوات الله وسلامه عليه؛ وفي هذا أبلغ ردٍّ على من يزعم أنَّ الأحاديث المروية بألفاظها قليلة معدودة.

أهمية الإصلاح بين الناس

أمرٌ عظيم الشأن، جليل الخطر، أعظمَه العرب في الجاهلية، ورفع النبيُّ ﷺ مكانه في الإسلام؛ ذلك هو الإصلاح بين الناس.

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد الثامن عشر (١٣٦٦).

(١) ورواه البخاري (٢٦٩٢) في كتاب الصلح، ومسلم (٢٦٠٥) في البرِّ والصِّلَة إلا أن قوله: «ولم أسمعهُ يُرخِّص» الخ مما انفرد به مسلم في إحدى روايات الحديث.

طبائع الناس متفاوتة، ورغباتهم متضاربة، وأهواؤهم شتى؛ فلا جرم أنهم يتنازعون ويتقاتلون ما بقي على ظهر الأرض نفسٌ منفوسة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

آثار الخلاف في الأسر والجماعات

وغنيٌّ عن البيان ما تنطق به الشواهد، وما تكشف عنه الحوادث من آثار الخلاف في الأُسر والجماعات، والأحزاب والأمم.

إنّه ليقعُ في الأسرة الواحدة بين الزوجين أو بين الأخوين، فيُظلم البيت، وتُقطع الأرحام، وتُشرَّد الأطفال، وتَسوءُ الحال.

وإنه ليقع بين الجارَيْن أو الشَّريكين أو الصاحبَيْن، فينصرم حبل المودّة، وتنفصم عُروة المحبة، ويَغْلي مِرْجَل العداوة والبغضاء؛ وكفى بذلك تنغيصاً للعيش، واضْطراباً في الحياة!.

وإنه ليقع بين الحزبَيْن أو البلدَيْن، فيكون الطِّعان واللعان، والزُّور والبُهتان، حتى تتعطَّل وتقع الأمة في الهاوية!.

وإنَّ الخلاف ليكون ـ وما أسوأ ما يكون ـ بين الأُمَّتين أو القِطَرين، فيسوء الجوار ويعمُّ الدمار، وتشتعل نار الحرب التي تُهلك الحَرْث والنَّسل، وتأتي على الأخضر واليابس، فلا تأبى أن تحصد شيخاً فانياً أو طفلاً باكياً!.

إزالة آثار الخلاف

وإذا كان الخلاف في أغلب أحيانه شرّاً لا بدَّ منه، وداءً لا محيصَ عنه، فمِن رحمة الله بعباده، وقد ابتلاهم به ـ وله الحكمة البالغة ـ أن يرشدهم إلى

---

(١) اقتباس من الآيتين ١١٨ و١١٩ من سورة هود.

دواء يَطِبُّه، فيزيل سَوْرته[١]، ويُخفِّف وَطْأته، إنْ لم يَسْتأصل شأفته، ويذهب به. وقد يُجري الله على أيدي الأُساة[٢] من المُصلحين خيراً كثيراً، وغُنْماً كريماً، وآثاراً حميدةً.

من أجل ذلك نَدَب الله إلى الإصلاح، وحضَّ عليه في غير آية من كتابه، حتى قضى بأنه لا خير في كثير من كلام الناس ونجواهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٣] ورغَّب فيه النبيُّ ﷺ، حتى جعله أفضل الصَّدقات، وفضَّله على نوافل العبادات.

وروى الطبرانيُّ عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصَّدقة: إصلاح ذات البين»[٤].

وروى الترمذي وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بأفضل من درجة الصيام والصَّلاة والصَّدقة؟» قالوا: بلى، قال: «إصلاحُ ذاتِ البَيْن، فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْن هي الحَالِقة، لا أقولُ تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[٥].

---

(١) يَطِبُّه: أي: يداويه ويعالجه. والسَّوْرة: الغضب.

(٢) الإساءة: جمع آسي، وهو الجرَّاح والطبيب.

(٣) اقتباس من الآية ١١٤ من سورة النساء.

(٤) أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» ص ١٣٥، والبخاري في «التاريخ الكبير» ٣: ٢٩٥، والطبراني في «الكبير» ـ كما في «نصب الراية» ٤: ٣٥٥ـ، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ١: ٤٠٠، ومن طريقه القضاعي في «مسند الشهاب» ٢: ٢٤٤، والبيهقي في «الشُّعب» ٧: ٤٩٠ كلهم من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨: ٨٠، والسيوطي في «الجامع الصغير» ٢: ٣٤٩ وضعَّفه. وحسَّنه المنذري في «الترغيب» ٣: ٤٨٩ لحديث أبي الدرداء الآتي.

(٥) رواه أحمد في المسند ٦ :٤٤٥(٢٧٥٠٨)، وأبو داود (٤٩١٩)، والترمذي =

الكذبُ في الإصلاح بين المُتخاصمَيْن

ومن أوضح الدلائل على خطر الإصلاح، وجليل شأنه، وعظيم عناية النبي ﷺ به، أن رخَّص في الكذب فيه، مع أن الكذب شُعبةٌ من شُعَب النفاق والتي لا تجتمع هي والإيمان أبداً.

والكذب في الإصلاح أن يُبلغ المُصْلحُ كلاً من الخَصْمَيْن ما لم يَقُلْهُ صاحبُه، قَصْداً إلى تأليف القلوب، وتقريبِ المودَّة؛ حتى يحلَّ الوئام محلَّ الخصام، والوفاق محلَّ الشِّقاق. وذلك من أسْمَى المقاصد التي جاءت بها الشرائع، والأديان، وبُنيت عليها سعادة الإنسان.

الكذب بين الزوجين

وموضعٌ آخر رخَّص النبيُّ ﷺ في الكذب فيه، وهو حديث الرجلِ زَوْجَهُ، وحديث المرأةِ زوجها: كأن يُثني كلٌّ منهما على صاحبه بما ليس فيه؛ توطيداً لعقدة الزواج والألفة، وتوثيقاً لآصِرَة المحبة والمعاشرة.

الكذب في الحرب

وموضعٌ ثالث وهو الحرب، والكذب فيها سلاحٌ حاد، يعرفه كلٌّ من المُتحاربين، ويستعمله للإيقاع بصاحبه والتنكيل به، ما أمكنه الخداع وواتَتْه الفرصة، ورُبَّ كَذْبةٍ أنقذت دولةً، وهَوَتْ بأخرى. و«الحرب خدعة»[1].

الحكمة في الترخيص بالكذب

وبعد، فلا بدَّ لهذا الترخيص الذي رخَّص النبيُّ ﷺ من حكمة سامية، ولا بدَّ

(٢٥٠٩) وصحَّحه، وابن حبان (٥٠٧٠).

(١) لفظ حديث رواه البخاري (٣٠٣٠) ومسلم (١٧٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه. و«خدعة» مثلثة الخاء، كهمزة. قال في القاموس: وروي بهنَّ جميعاً (طه).

لمن عرض لهذا الحديث ـ وهو حديثُ مَنْ لا ينطق عن الهوى ـ أن يحاول كشفَ القناع عنها؛ ليكون من هدي نبيِّه، صلوات الله وسلامه عليه، على بصيرة.

ذم الكذب وامتداح الصدق

لقد جاءت الشرائع والقوانين قاطبةً بذمِّ الكذب، وامتداح الصدق، مساوقة للفطرة، وموافقة للعقل. وأجمع الناس على ذلك قديماً وحديثاً، حتى عدُّوا من أصدق القول وأحكمه ما قال ابن المقفَّع: «رأس الذنوب الكذب؛ هو يؤسِّسُها، وهو يتفقَّدها ويثبتها».

أما الإسلام فإنه لم يرفع من فضيلة كما رفع فضيلة الصدق، ولم يَشِن من رذيلةٍ، كما شان من رذيلة الكذب. وحَسْبُكَ ما جاء في حديث الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ الصِّدقَ يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنَّة، ولا يزال الرجلُ يصدق ويتحرَّى الصِّدق حتى يكتبَ عند الله صدِّيقاً. وإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار. ولا يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذَّاباً»[١].

وما جاء في «الموطأ» عن صفوان بن سُليم رضي الله عنه أنه قيل للنبيِّ ﷺ: أيكون المؤمن جَبَاناً؟ قال: «نعم». قيل: أفيكون بخيلاً؟ قال: «نعم». قيل: أفيكون كذاباً؟ قال: «لا»[٢]. فإذا كان هذا بعض ما جاء عن النبيِّ ﷺ، في ذمِّ الكذب والتحذير منه، فكيف يرخِّص فيه في هذه المواطن الثلاثة؟!.

مراعاة المصلحة

لقد بنُي الإسلام على أسس ثابتة، ومناهج محكمة، تكفَل لمن استَمْسَك بها في جملتها وتفصيلها، سعادة الآخرة والأولى؛ ذلك لأنه لم يقف فيما أمر

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢: ٩٩٠.

ونهى، وأحلَّ وحرَّم، موقف التنطُّع والجمود، ولم يذْهَب مذهب السَّرَف والمغالاة، وإنما سار على المَصْلحة أنَّى كانت. فبَيْنا هو يرفع شأن الصِّدق إلى أنْ يجعله رأس الفضائل، تراه يُحرِّمه إذا أدَّى إلى ضررٍ أو فساد، كما حرَّم الغيبة، وجعل المغتاب آكل لحم أخيه ميتاً، وحرَّم النميمة وأخبر بأنه «لايدخل الجنَّة نمام»[1].

الكذب حرام إلا لضرورة ملحة أو رخصة مسوِّغة

وبينما هو يخفض شأن الكذب إلى أن يجعله رأس الرذائل، تراه يُحلُّه، بل يوجبُه إذا أدَّى إلى حَقْن دمٍ مَصُون، أو حفظ حقٍّ واجب.

فإذا اختفى امرؤٌ من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله، وسأل إنساناً عنه، وَجَبَ على المسؤول أن يكذب في إخفائه، وكذا لو كانت عنده وديعةٌ وأراد الظالم أن يغتصبها وَجَبَ الكذب في إخفائها، ولو حَلَفَ في سبيل ذلك؛ إعظاماً للدماء وصَوْناً للحقوق. فالكذبُ حرامٌ إلا لضرورةٍ مُلِحَّة أو رُخصةٍ مُسوِّغة. ومن قواعد الشريعة: أنَّ الضرورات تبيح المحظورات.

تقدير المصلحة وتحديدها

غير أنَّ الإسلام لم يَدعْ للناس أن يُقدِّروا المصلحة، ويحدِّدوا الضرورة، وإنما تولَّى هو تحديدها، ونصَّ على مواضعها؛ لئلا يترك مجال التأويل فسيحاً، تتلاعب به الأهواء والشهوات.

للوسائل حكم الغايات

ولا يرتاب أحدٌ بعد الذي قدَّمنا من آثار الخصام، أنَّ الكذب في سبيل الوئام والسلام حسنٌ محمود، بل هو خيرٌ من الصِّدق حينئذ، ومن المعروف:

---

(١) لفظ حديث أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه. وكفى به تهديداً للنمَّام ودليلاً على مَقْت السِّعاية (طه).

أن للوسائل حكمَ الغايات.

أمّا الكذب بين الزَّوجَيْن في تقارض الود، وتبادل المحبة ـ لا فيما يُسقط حقاً، أو يُفْضي إلى باطلٍ ـ فهو من وسائل السعادة الزوجيَّة التي توصي بها الأديان، ولاسيما دين الإسلام، ثم هو في جملته يرجع إلى الإصلاح، وإن شئت فقل: هو وقايةٌ للزوجين من الشقاق ومساوئ الأخلاق. والوقاية خيرٌ من العلاج.

وأما الكذبُ في الحرب، فهو في حقيقة الأمر ليس كذباً؛ لأنَّ حال المُتَحَاربَيْن تنادي بألاَّ يُصَدِّق أحدُهما صاحبَه، وإنْ كان صادقاً، وبأن يأخذ حَذرَه منه ما استطاع.

التحرُّز من الكذب بالتعريض والتورية

على أنه يجمل بمن تحلَّى بفضيلة الصِّدق ألاَّ يألوَ جهداً في التحرُّز من الكذب المُرَخَّص فيه، بالتعريض والتورية[1]، صَوْناً للسانه عن الكذب الصُّراح.

ومن ذلك ما حكى الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، إذ قال لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[2] حين أراد أن يتخلَّف عنهم ليُحَطِّم أصنامهم، فظنُّوه مريضاً فتركوه، وما به إلا مرضُ الغيظ من أصنامهم التي اعتزم تحطيمها.

ومن ذلك قول أبي بكر رضي الله عنه، وقد سُئل عن رفيقه وهو مهاجر مع النبيِّ ﷺ: مَنْ ذا؟ فقال: هادٍ يَهْديني السبيل[3].

---

(١) بأن يكون لكلامه معنيان يريد أحدهما وهو صادق فيه، ويفهم السامع المعنى الآخر وهو غير ما يريد (طه).

(٢) سورة الصافات: ٨٩.

(٣) رواه أحمد ٣ :١٢٢(١٢٢٣٤) (١٣٢٠٥) (١٤٠٦٢)، وأبو يعلى (٣٤٨٦) كلاهما من حديث أنس رضي الله عنه، وهو حديث صحيح. انظر التعليق على «المسند» ١٩ : ٢٦٤و =

ألا إنَّ الإصلاح بين الناس خَصْلةٌ من خِصال الشَّرف والمروءة، وَخَلَّةٌ من خِلال الفَضْل والنُّبْل، وجزءٌ من شرائع الأنبياء والمرسلين، بل هو عمادُ دعوتهم، وأساس رسالتهم.

وما أحوجَ هؤلاء البشر ـ وقد اصْطَخَبَتْ بينهم المعارك، واشتعلت فيهم نيران الخصومة ـ إلى مَنْ يَنْهَجُ في إصلاحهم منهجَ النبيِّين، ويستارُ فيهم سيرة الصادقين المخلصين، ﴿وَمَا ذَالِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[1].

* * * * *

.٢١ : ٤٥١

(١) اقتباس من الآية ١٧ من سورة فاطر.

اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا *

٦٨ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنه كانَ إذا أتاهُ السَّائلُ، أو صاحبُ الحاجة قال: «اشْفَعُوا فلْتؤجروا، وليقْضِ الله على لسانِ رسوله ما شاء». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري في كتاب الأدب[1].

زكاة السيادة

في خاتمة الحديث أَهَبْنا ـ وما زلنا نُهيب ـ بالكُبَراء والسَّادة، أن يؤدُّوا زكاة السيادة بالإصلاح النقيِّ الجليِّ، وبالشفاعة الحسنةِ الخالصة، وبالدعوة الجَادَّة الصَّادقة إليهما، ما استطاعوا إلى الجِد والصِّدق سبيلاً.

وفي هذا الحديث نرجو أن نُوْلي الشفاعة الحسنة بعضَ ما أوْلاها الإسلام، ورسولُ السلام، صلوات الله وسلامه عليه، من رفيع الذكر، وعظيم الأجر، وبليغ العناية.. شأنه في تربية الفضائل، وتنمية المكارم، ودعمِ خصال العفو والصَّفح والإحسان، ومدِّ ظلال المروءة والفضل والرِّضوان، وتهيئةِ حياةٍ طيِّبة مباركة، للذين يعملون السوء بجهالة، ثم يتوبون من قريب.

الشفاعة الحسنة

والشفاعة الحسنة التي يأمر بها الشفيعُ المُشفَّع أمَّته صلوات الله وسلامه

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الخامس والعشرون، (١٣٧٣).

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢) في باب قول الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾، ومسلم (٢٦٢٧).

عليه، هي نفسُها التي يدعو الله إليها عباده في مُحكَم كتابه؛ إذ يقول جلّ ثناؤه: ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾[١].

وأجمع ما يُقال في بيانها: إنها التوسُّط، ابتغاءَ وَجْهِ الله تعالى في جَلْبِ نفعٍ للناس، أو دفعِ ضُرٍّ عنهم، في غير معصيةٍ للهِ تعالى ولا حدٍّ من حدوده بعد أن يبلُغَ الإمام.

الشفاعة السَّيِّئة

فأمَّا الوساطة في حدٍّ الله بعد بلوغ الإمام، أو في معصيةٍ من معاصيه، أو مع رشوةٍ أو هديّة، فهي الشفاعة السَّيِّئة التي نهى الله ورسوله عنها، وحمَّل صاحبها كِفْلاً منها؛ لأنَّها تُجرِّئ الناس على ارتكاب المحارم، واقتحام المآثم، والتلاعب بدين الله تعالى.

وقد اشتدَّ غَضَبُ النَّبيِّ ﷺ على أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وهو حِبُّه وابنُ حِبِّه، لمَّا كلَّمه في شأن فاطمة بنت الأسود المخزومية[٢] أن يرفعَ عنها الحدّ، وكانت قد سرقَت حُليّاً في غزوة الفتح، فأهمَّ قريشاً شأنها، لشرفها وخيفةَ الفضيحة عليها، ثم اختاروا أُسامة شفيعاً لها عند رسول الله ﷺ، وقالوا: ومن يجترئ عليه إلاّ حِبُّه وابنُ حِبِّه؟! فلمَّا كلَّمه أسامة فيها تلوَّن وجهه ﷺ، وأنكر عليه، وقال: «أتشفعُ في حدٍّ من حدود الله؟!» فقال أسامة: استغفرْ لي يا رسول الله.. فلمَّا كان العشيّ قام رسول الله ﷺ فاختَطَب على عادته في الأمر الجَلَل! فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أيُّها الناس، إنَّما هلك الذين من قبلكم، أنهم

---

(١) سورة النساء: ٨٥.

(٢) شَرَحَ الشيخ الجزيري رحمه الله حديث المرأة المخزوميَّة شرحاً مبسوطاً في الجزأين: الأول والثاني من المجلد التاسع؛ بيَّن فيه الحِكمة في الحدود الشرعية، ومدى الشفاعة فيها (طه).

كانوا إذا سَرَق فيهمُ الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وايْمُ الله، لو أنَّ فاطمة بنتَ محمدٍ سَرَقَت، لقطعتُ يدَها»، ثمَّ أمر بها فقطعت[١].

وقد تابت رضي الله عنها، فأحسنت توبتها، وكانت تأتي أمَّ المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، فترفع حاجتها إلى النبيِّ ﷺ.

الشفاعة في الحدود

وما شَرَع الله الحدودَ إلا لكسر شوكةِ الظالمين، والقضاءِ على الفساد والمفسدين. لا جرم أنَّ الشفاعة فيها عند الحاكم عونٌ لهذا الفساد والظلم، ولا جَرَم أن قبول الحاكم الشفاعة حينئذٍ إضعافٌ لهيبته، وإهدارٌ لسلطته، بل لسلطان الله في الأرض[٢]، والله يَزعُ بالسُّلطان ما لا يزعُ بالقرآن[٣].

ستر العورات وإقالة العثرات

أمَّا الشفاعة في العقوبة التي لم تبلغ الحد، أو في الحدِّ قبل أن يبلغ الحاكم، ولا سيما الشفاعة لأرباب المروءة والحياء، الذين لم يستمرئوا العيوب، ولم يُصرُّوا على الذنوب، فإنَّها تدخل في سَتْر العورات، وإقالة العَثَرات، والإصلاح بين الناس، وتلك من مكارم الأخلاق.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) في هذا اللفظ نظر، نعم وَرَدَ في الحديث عن أنس مرفوعاً: «إنما السلطان ظلّ الله ورمحه في الأرض» قال السخاوي في «المقاصد الحَسَنة» ص ١٠٥: «رواه أبو الشيخ والبيهقي والديلمي عن أنس مرفوعاً: «إذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان، فلا تدخلها، إنما السلطان...» وذكره.

وفي لفظ للديلمي وأبي نعيم وغيرهما من جهة قتادة عن أنس مرفوعاً: «السلطان ظلّ الله ورمحه في الأرض» وهما ضعيفان.

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» ٤: ١٠٧ من قول عمر بن الخطاب: «لما يزع الله بالسُّلطان أعظم ممَّا يزع بالقرآن».

وقد روى عَمْرو بنُ شُعيب عن أبيه عن جَدِّه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تعافَوْا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وَجَب»[١].

ولَقِيَ الزبيرُ رضي الله عنه سارقاً فشفع فيه، فقيل له: حتى يبلغَ الإمام، فقال: إذا بلغ الإمامُ فلعن الله الشافعَ والمشفَّع.

وكلُّ ما جاء عن المعصوم ﷺ، من فضائل الذَّبِّ عن المسلم والسَّتر عليه والإغضاء عنه، وما إلى ذلك من نَجْدةٍ ومروءةٍ ودفاع، فموضعُهُ ولا رَيْب في غير حدود الله إذا بلغت الإمام، أو نائبه من الحكام.

ولقد كان النبيُّ ﷺ أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاءً، و«ما كان يُخيَّر بين أمرين إلا اختار أيْسَرَهُما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم لنفسه قط، إلاّ أن تُنْتَهَك حُرماتُ الله، فينتقم لله بها»[٢].

أعظم الجرائم التي تُبطل الشفاعةَ الحسنة

ومن أعظم الجرائم التي تسوِّئ الشفاعةَ الحسنة وتُبْطل أجرها، أن تُباعَ وتُشترى بهديّة أو رشْوة أو عَرَض من الدنيا.

والشافعُ و المشفَّع كلاهما يقترفان بذلك أمراً جسيماً، إلى ما يَجْتَلبان من حقارةٍ ودناءةٍ، ويَسْتَوْجبان من لعنةِ الله والنَّاس في الدنيا والآخرة.

ضروبٌ من الشفاعة الحَسَنَة

وتنتظم الشَّفاعةُ الحسنةُ التحريضَ على الصَّدقات للفقراء والمساكين، وتفريجَ الكُربات عن المكروبين، وقضاءَ الحاجات لأصحابها، ولا سيّما العاجزين.

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٧٦)، والنسائي (٤٨٨٥)، (٤٨٨٦)، وقوله: «تعافوا» أمر بالعفو، وهو التجاوز عن الذنب، أي: أسقطوا الحدود فيما بينكم، ولا ترفعوها إليَّ، فإنه متى علمتُها أقمتُها.

(٢) اقتباس من حديث رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومن ذلك: التوسُّط في الإقالة من بيع لمُضْطَر، والإنْظَار إلى مَيْسَرة في دَيْنٍ على مُعْسر؛ وأما التوسُّط في تخفيف الدَّين عن المَدين، أو إبرائه منه، أو تأديته عنه ـ من غير منٍّ ولا أذى ـ فذلك من كرائم الشفاعات وعظائم المروءات.

ومن ذلك: التوسُّط في إعانة اللاجئين، وإجارة المُسْتجيرين، وينبغي لهذين الصنفين من الشفاعة حديثٌ خاص.

أعجبُ الشَّفاعات وأحبُّها

ومن أعجب الشفاعات الحسنة وأروعها، وأحبِّها إلى الله ورسوله، وأرجاها في القبول، شفاعةُ الأخ المسلم لأخيه في الغيب، وما نفع أخٌ أخاه بمثل شفاعة، أو دعوة يدعو له بها في ظهر الغيب؟.

تلك خلَّةٌ من خلال الملائكة المقرَّبين ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[1].

ومن شدَّة فرح الملائكة بدعاء المسلم لإخوانه في ظهر الغيب، أنَّها تُؤَمِّنُ على دعائه، وتدعو له بمثله.

ففي صحيح مسلم أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «دعوةُ المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ، عند رأسه ملكٌ موكَّل، كلَّمَا دعا لأخيه بخيرٍ، قال الملك الموكَّل به: آمين، ولك بمثل»[2].

مواقف كريمةٌ لأم سلمة

ومن عيون الشفاعة في ظهر الغيب: شفاعةُ أمِّ سَلَمة رضي الله عنها لأصحاب رسول الله ﷺ في صُلْح الحديبية، فقد دخل عليها مُغْضباً مهموماً

---

(١) اقتباس من الآية ٧ من سورة غافر.

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٣) في كتاب الذكر من حديث أمِّ الدرداء رضي الله عنها.

وهو يقول: هلك المسلمون، أمرتُهم بالأمر فلم يفعلوا!! فقالت: يارسول الله لا تلمْهُم؛ فإنَّهم قد دخلهم أمرٌ عظيم ممَّا أدخلت على نفسك من المشقَّة في أمر الصُّلح ورجوعهم بغير فتح، فاخرج إليهم يا رسول الله، ولا تُكلِّم أحداً منهم حتى تنحرَ بُدنك، وتدعوَ حالقَك فيحلقك.

فخرج ولم يكلِّم أحداً منهم حتى نحرَ بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلمَّا رأوا ذلك قاموا فنَحَروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً[1].. وجَلا الله عنهم الكَرْب الذي كاد يقتلهم وسلَّمهم منه بأمِّ المؤمنين أم سلمة.

ولا يتنبَّه لهذه الشفاعة العجيبة الرائعة إلا الأخيار الأبرار، ممَّن لهم في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، فقد ضَرَبَ صلوات الله وسلامه عليه أعلى الأمثال في الشفاعة بأمَّته والدعاء لهم بظهر الغيب في أشدِّ الأوقات وأحرجها، وأولاها بالتشفِّي والانتقام!!.

شفاعات نبوية

ناداه مَلَك الجبال فسلَّم عليه، ثم قال: يا محمد، إنَّ الله قد سمع قول قومك، وما ردُّوا عليك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك ربُّك لتأمرني بأمرك، إنْ شئتَ أنْ أطبقَ عليهم الأخْشَبَيْن[2] فعلت. فقال ﷺ: «بل أرجو أن يَخرجَ من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا شريك له»[3].

ولما كُسرت رَباعيَّته، وشُجَّ وجهُهُ الشَّريف يوم أحد، شقَّ ذلك على أصحابه شقًّا شديداً، وقالوا له: لو دَعَوْتَ عليهم! فقال: «إنّي لم أُبعث لعَّاناً،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١)، (٢٧٣٢) من حديث طويل.

(٢) هما جَبَلا مكة أبو قبيس، ومقابله قعيقعان. وكان ذلك في أثناء عودته من الطائف مهموماً حزيناً (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

ولكن بُعثت داعياً ورحمة، اللهمَّ اهْدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون»[(١)].

وقد أعطى الله كلَّ نبيٍّ دعوةً دعا بها في الدنيا فاستُجيبت، واختبأ النبيُّ ﷺ دعوتَه شفاعةً لأمته يوم القيامة.

أمرُه ﷺ بالشفاعة عنده

ومن اللّطائف التي يجدر بنا أن نقفَ عندها ونتأمَّلها مليًّا ما يشير إليه بعضُ شُرَّاح الحديث، من أنه صلَوات الله وسلامه عليه يأمر أصحابَه بالشَّفاعة عنده مع علمهم بأنّه مُستغنٍ عنها؛ لأنَّ عنده شافعاً من نفسه، وباعثاً من كرمه ورأفته ورحمته، فما ظنُّك بالشفاعة عند غيره، ممَّن يحتاج إلى بعثٍ على الخير وتحريك الهمَّة؟!.

لا جَرَم أنه صلوات الله وسلامه عليه مُتَخَلِّقٌ بأخلاق ربِّه، إذ يقول له وهو ساجدٌ يوم الفزع الأكبر: «يا محمَّد، ارفع رأسك، سَلْ تعط، واشفع تشفع..»[(٢)].

ولم يكتفِ صلوات الله وسلامه عليه بالاحتفال بالشفاعة الحسنة والدعوة إليها وتقبُّلِها قَبولاً حسناً، دون أن يشفعَ هو نفسه لدى أصحابه كلَّما دعا داعي الإنسانية المُثْلى، والمروءة الفُضْلى، واستجابت لأهلها مكارم الأخلاق!.

وحَسْبنا ـ ونحن نخاف السآمة كما كان يخافها ﷺ على أصحابه ـ أن نشيرَ

---

(١) أخرج مسلم (٢٥٩٩) الشطر الأول منه، ولفظه عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله! ادع على المشركين: قال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بُعثت رحمة». وأما قوله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» فقد أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣ :٢١٤ من حديث سهل بن سعد، وفي «الشعب» ٢ :١٦٤ (١٤٤٨)، وأصله في الصحيحين.

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢) (٦٥٦٥)، (٧٤٤٠)، (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٢).

إشارةً خاطفة إلى مَثَلين اثنين:

١ ـ شفاعته في وفد هوازن

بعد ليالٍ من غزوة الطائف، قَدِمَ عليه صلوات الله وسلامه عليه وفدُ هوازن[١] مُستَشفعين به أن يردَّ إليهم نساءَهم وأبناءهم: «أمَّا ما لِيَ ولِبني عبد المطلب فهو لكم»، ثم شفع لهم عند أصحابه أن يردُّوا عليهم سَبْيَهم، فقبلَ شفاعته المهاجرون والأنصار، وقالوا: ما كان لنا فهو لله ورسوله. وامتنع جماعةٌ من الأعراب، فقال ﷺ: «من تمسَّك منكم بحقِّه فله بكلِّ إنسانٍ ستُّ فرائض من أوَّل سبي أُصيبه» ففرحوا واستجابوا[٢].

٢ ـ شفاعته في بريرة

وأعجبُ من هذه شفاعته في بَريرة، وهي أَمَةٌ كانت تخدم أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت عائشة تُعينها على تحريرها من الرِّق، فلمّا عتقت وهي تحت زوجها مُغيث ـ وكان عبداً لآل المغيرة من بني مخزوم ـ أضحى لها الخِيار، بحكم دين الحريَّة والسَّماحة، أن تفارقَه، وقد فعلت. فكان مغيثٌ يطوف خلفَها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، حتى قال ﷺ لعمِّه العباس: «ألا تعجب من حُبِّ مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً!»، ثمّ قال ﷺ لها: «لو راجعته!» قالت: يا رسول الله أتأمُرني؟ قال: «إنّما أنا أشفع». قالت: لا حاجةَ لي فيه[٣].. ونقف هنا مليًّا ساكتين خاشعين، ثمَّ نردِّد قولَه تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾[٤].

---

(١) في «شرح المواهب اللدنية» [٤ :٦] عن الواقدي أنهم كانوا أربعة وعشرين بيتاً، قدموا مسلمين، وجاؤوا بإسلام مَنْ وراءهم مِنْ قومهم (طه).

(٢) رواه أحمد ٢: ٢١٨ (٧٠٣٧) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو حديث حسن.

(٣) رواه البخاري (٥٢٨٣) في الطلاق.

(٤) سورة آل عمران: ١٦٤.

الشفاعة والمشيئة

ولم يفت المربِّي الأعظم ﷺ، وهو يدعو أمَّته إلى الشَّفاعة ـ بأبلغ العبارات وأوْجَزِها ـ أن ينبِّههم على أمرين خطيرين كثيراً ما يحول أحدُهما أو كلاهما دون الشفاعة: خوفهم ألاَّ تُقْبل، واحتجاجُهم على قضاء الله النافذ، وَفْقَ مشيئته المُحَجَّبة؛ ليعلِّمهم أنَّ من أتى الشفاعة من بابها، فله أجرُها كاملاً غير منقوصٍ، وافقت قضاءَ الله على لسان رسوله المعصوم ﷺ، أو خالَفَتْ، وأنَّ الغيب لله وحده، لا ينبغي لأحدٍ أن يتَّكل عليه، ولا أن يحتجَّ به..

حاجة الحاكم والمحكوم إلى الشفاعة

وأخيراً، ليعلِّمَ الأمَّةَ والأئمة جميعاً، خطر الشفاعة الحسنة، وعظيمَ منزلتها، حتى لا يَجْبنَ الأفرادُ والجماعات أن يتقدَّموا بها، ولا يتعاظمَ الولاةُ والحكام أن يستمعوا إليها، وحتى يكونوا جميعاً بنياناً قويًّا يشدُّ بعضُه بعضاً، وجسداً واحداً، إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعى له سائره بالسَّهر والحُمَّى! وما أحوج الحاكم والمحكوم إلى أن يكون بعضُهم لبعضٍ ناصراً وظهيراً.

* * * * *

الوصاة بالجار والمرأة *

٦٩ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يُؤذي جاره، واسْتوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهُنَّ خُلِقْنَ من ضِلَع، وإنَّ أعوج شيء في الضِّلَع أعلاه، فإن ذهبتَ تُقيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتُهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ؛ فاسْتوصُوا بالنساء خيراً» رواه الشيخان[1].

المفردات:

كان: تأتي كلمةُ كان في مثل هذا المقام، للدلالة على توكيد المعنى المراد، وربطه برباط الدَّوام والاستمرار، أي: مَنْ قويَ إيمانُه، بأنَّ الله خالقه ومجازيه في يومٍ لا رَيْبَ فيه، واستمرَّ على ذلك واطمأنَّ قلبه به، كان جاره في مَأْمن من أذاه. وهذا أولى من القول بزيادتها؛ لأن الزيادة من غير معنى عبثٌ يُنزَّه عنه كلام البلغاء فَضْلاً عن كلام الله ورسوله.

والنساء: اسم جمعٍ للمرأة لا واحدَ له من لفظه، ومثله النسوة، وقيل: إنَّ الأول جمعٌ للثاني.

واستوصوا بهنَّ: أي اطلبوا الوصيَّة بهنَّ من أنفسكم، أو اطلبوا الوصيَّة من

---

* مجلة الأزهر، العددان التاسع والعاشر، المجلد السابع عشر، سنة (١٣٦٥).

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٥) (٦٠١٨) (٦١٣٦) في كتاب النكاح، ومسلم (٤٧) في الإيمان، إلا أنَّ البخاري جمع بين الوصاة بالجار والمرأة في هذه الرواية (٥١٨٥)، وستأتي الحكمة في جمعِ النبيِّ ﷺ بينهما في حديث واحد. وقيل: إنهما حديثان جمع بينهما الراوي، وأفرد مسلم كلاً على حِدَة (طه).

غيركم بهنَّ، ويلزم لذلك أن تحافظوا أنتم عليهنَّ؛ لأنَّ من وصَّى غيره بأمرٍ كان هو أحرص عليه. وقيل معناه: اقبلوا وصيَّتي فيهنَّ، واعملوا بها وارفقوا بهن. فالسين والتاء على هذا ليست للطلب، بل للقبول والمطاوعة، كأحكمته فاستحكم، ورجَّح هذا المعنى صاحبُ «الفتح».

والضِّلَع: بكسر أوله وفتح ثانيه وقد يُسكَّن، واحدة الأضلاع، وهي تؤنَّث وتُذكَّر؛ ولذا عاد الضمير هنا إليها مذكَّراً. وفي رواية أخرى: «المرأة كالضِّلَع إنْ أقمتها كسرتها، وإن استمتعتَ بها، استمتعت بها وفيها عوج»[١]، وقد عاد الضمير إليها مؤنثاً[٢]. وسيأتي تأويل خلقها من الضِّلَع.

* * * * *

عناية الإسلام بالجار

عني الإسلام بالجار والإحسان إليه عنايةً لم يُعرفْ، ولن يُعرفَ، لها مثيل في تاريخ الأخلاق والاجتماع. ذلك بأنَّ الإسلام يأمر بالتحابِّ والتوادِّ والتعاون على البرِّ والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان.

وإذا كان سُوءُ الجوار يدعو إلى الشِّقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، فإنَّ حُسْنَ الجوار يدعو إلى البرِّ والخير ومَحَاسن الأخلاق.

ومتى تنافس الجيران في المكارم، وتعاونوا على الفضائل، فبشِّرهم بحياةٍ طيِّبةٍ وعيشٍ هنيء. وهذا بعض ما جاء به مَنْ بعثه الله ليُتَمِّم مكارَم الأخلاق.

لقد بلغ من عنايته ﷺ بالجوار أن نفى الإيمان ـ مُقْسماً بالله ثلاثاً ـ عمَّن لا

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٤).

(٢) ويجوز أن يعود إلى المرأة، وربما أيَّده ما بعده.

يأمنُ جارُه شرَّه وغوائلَه[١].

فقد روى الشيخان عن أبي شريح وأبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يؤمنُ»، قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمنُ جارُهُ بوائقَه»[٢].

من دلائل العناية بالجوار

ومن دلائل العناية بالجوار: ما رواه الشيخان أيضاً عن ابن عمر وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم قالا: قال رَسُول اللَّهِ ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه سيُوَرِّثه»[٣].

ومن دلائل العناية بالجوار ـ وما أكثرها ـ: اختلاف الأساليب النبوية في الوصيَّة بالجار والحرص عليه، فمنها ما جاء في البخاري: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره»[٤].

ومنها ما جاء في مسلم: «فليُحسن إلى جاره»[٥].

ومنها ما جاء مفصّلاً لهذا الإكرام والإحسان في أحاديث كثيرة، يُؤيِّد بعضُها بعضاً، منها ما أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قالوا: يا رسول الله: ما حقُّ الجار على الجار؟ قال: «إن استَقْرضَكَ أَقْرضتَهُ، وإن استعانك أعنْتَه، وإن مرض عُدْتَه، وإن احتاجَ أعطيته، وإنْ مات اتَّبعت جنازته،

---

(١) لأن إيذاء الجار لا يتَّفق مع الإيمان الحق، بل هو من مُوجبات الكفر، والعياذ بالله (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦) وأحمد ٢ :٢٨٨(٧٨٧٨). وزاد أحمد قالوا: يارسول الله، وما بوائقُهُ؟ قال: «شرُّهُ». وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٤) (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٤) (٢٦٢٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

(٥) أخرجه مسلم (٤٨).

ولا تستطيلَ عنه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تُؤذيه بريح قِدْرِك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهةً فأهدِ له، وإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا تُخرج بها ولدك؛ ليغيظ بها ولده»(١).

وإذا كان الجار يشمل المُسلمَ والكافر، والعابدَ والفاسق، والصَّديق والعدوَّ، والنافع والضَّار، والقريبَ والأجنبي، والغريبَ والبلديَّ، والأقربَ والأبعد، إلى أربعين داراً من كلِّ جانبٍ، فإنَّ الإحسان إليه يختلف باختلاف السَّعَة والحال، وكلّما كان أقرب جواراً كان أعظم حقاً.

أخرج الطبرانيُّ عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «الجيران ثلاثةٌ: جارٌ له حقٌّ، وهو المشرك: له حقُّ الجوار. وجارٌ له حقَّان، وهو المسلم: له حقُّ الجوار وحقُّ الإسلام. وجارٌ له ثلاثة حقوق، مسلم له رحم: له حق الجوار والإسلام والرَّحِم»(٢).

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: «يا رسول الله، إنَّ

---

(١) عزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٧٦٨) للخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١٠٤) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه عن النبي ﷺ.

قال الحافظ المنذري: ولعلَّ قوله: أتدري ما حقُّ الجار إلى آخره في كلام الراوي غير مرفوع، لكن قد روى الطبراني عن معاوية بن حيدة قال: قلت: يا رسول الله. ما حقُّ الجار عليَّ؟ قال: «إنْ مَرِضَ عُدْتَهُ، وإنْ ماتَ شيَّعتَهُ، وإن استَقْرضَكَ أقْرَضْته، وإنْ أعْوَزَ سترته» فذكر الحديث بنحوه. ا.هـ كلام المنذري. وحديث معاوية بن حيدة فيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف. انظر: «مجمع الزوائد» ٨: ١٦٥.

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢ :٢١٢: أخرجه الحسن بن سفيان والبزار في مسنديهما، وأبو الشيخ في كتاب «الثواب»، وأبو نُعيم في «الحلية» من حديث جابر. وابن عدي من حديث عبد الله بن عمر، وكلاهما ضعيف.

وقال الحافظ الهيثمي في «المجمع» ٨ :١٦٤: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي، وهو وضَّاع.

لي جارين، فإلى أيِّهما أهدي؟» قال: «إلى أقربهما منك باباً»[١].

كفُّ الأذى عن الجار

وأقلُّ ضروب الإحسان إلى الجار: كفُّ الأذى عنه، ودفع سيِّئته بالتي هي أحسن، كما يشير إليه هذا الحديث.

وكفُّ الأذى عن الجار أساس خيرٍ كثير، وفَضْلٍ عظيم، اللهمَّ إلا أن تُنتهك حُرمات الله، فينتقم للهِ بها، وليس هذا من الإيذاء في شيء، بل هو من الإصلاح والخير، وممَّا يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من صفات المؤمنين.

الوصيَّة بالنساء

ولما كانت المرأة من الرجل، أقرب الجيران صِلَة، كانت أعظم حقاً، وأوْلاهم بحُسْن المعاملة وكرم الجوار، ومن ثمَّ خصَّها النبيُّ ﷺ بمزيد العناية إذ كرّر الوَصاةَ بها[٢]، ووكَّد العطف عليها، والتجاوز عن هفواتها. وعلَّل ذلك بأنها خُلِقَت من ضِلَع أعوج، ولا سبيل إلى تَقْويمها إلا أن تكسر، وكَسْرها طلاقها. فمن ابتغى لها كمالاً مطلقاً، فقد طلب المحَال، وسَبَحَ في عالم الخيال، وأضاع جهدَه سُدىً؛ فَلْيُسَدِّد ولْيُقَارب، ولْيَتَغَافل عن هناتها ما لم تتعدَّ طَوْرها، وتُسْرف في غيِّها، وإلا هذَّبها بالحكمة والموعظة الحسنة، وقوَّمها بما يدعو إليه العدل والإنصاف، دون أن يتعدَّى حدود الله.

معنى خلق المرأة من ضِلَع

وفي خَلْق المرأة من ضِلَع تأويلان: قيل: إنَّ حَوَّاء خُلقَت من ضِلَع

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٥٩).

(٢) يؤثر عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّ الزوجة هي المرادة بالصاحب بالجَنْب في قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء:٣٦] (طه).

آدم عليه السلام، أي: أُخرجت منه كما تخرج النَّخلة من النواة. وبهذا قال كثيرٌ من العلماء[١]، واختاره صاحب «قَصص الأنبياء»[٢]، في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٣].

وهذا ما جاء في «التوراة» التي بين يدي الكتابيِّين الآن: «فأوقع الإله الربُّ سُباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدةً من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً وبنى الربُّ الإله الضِّلَع التي أخذها من آدم امرأةً، وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، تُدعى امرأة؛ لأنها من امرئ أخذت».

والتأويل الثاني: أنَّ الكلام على التشبيه والتمثيل، أي: أنّها خُلقت خَلقاً فيه اعوجاج، كأنها أُنشئت من أصل معوج، فلا سبيل إلى الانتفاع بها إلا بمداراتها والصَّبر عليها، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٤] تمثيلاً لما طُبِعَ عليه الإنسان من العَجَلة والطَّيْش، حتى كأنَّ العَجَل مادةٌ أنشئ الإنسان منها.

واختار هذا الوجْه بعض المُحققِّين من القُدَامى والمُحْدَثين. ويَعْاضدها فيما ذهبوا إليه ما جاء في رواية البخاري، التي ذكرناها آنفاً: «المرأة كالضِّلَع» الخ، هذا إلى ضعف الأدلة على الوجه الأول وعدم قيامها على ساق؛ وقد أُمرنا ألا نُصدِّق أهل الكتاب ولا نُكذِّبهم، فيما لم يَرِدْ فيه عندنا نصٌّ صريح.

ففي حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تُصدِّقوا

---

(١) وقيل: معناه من جنسها وعلى صورتها وهيئتها، فلا تعرُّض إذاً للمادة التي أُخذت منها المرأة (طه).

(٢) قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار ص٢٥.

(٣) سورة النساء: ١.

(٤) سورة الأنبياء: ٣٧.

أهل الكتاب، ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله»[١]. وهذا يُرَجِّح عندنا أن نُفوِّض أمر المرأة الأول إلى بارئها عزَّ وجل.

وأياً ما كان خَلْقُها، فلا جدال أنَّ المقصود من الحديث بيان ضعف المرأة، وما جُبِلَت عليه من العوج والاضْطراب، فهي معذورةٌ ـ فيما تأتي وتَذَر ـ إلى مدى غير قريب.

وإذا كان أمرها كذلك، فحقٌّ على صاحبها أو وليِّها أن يأخذَها بالرِّفق والحِلْم والأناة، وأن يُساعدها على صفاءِ العيش، واستقرار الحياة.

وفي قوله ﷺ: «**وإنَّ أعوج شيء في الضِّلع أعلاه**» إشارة إلى أنَّها خُلِقت من أشدِّ أجزاء الضِّلع اعوجاجاً، فيكون ذلك أدعى إلى العطف عليها والرفق بها؛ أو إشارة إلى موضع الأذى منها، وهو لسانها الذي ينبغي لها أن تتَّقيَه، ولصاحبها أن يَتَصَامَّ عنه ما استطاع.

ثمَّ أشار ﷺ إلى أنه مهما بالغ في الرِّفق بها لا يتركها وشأنها، وإلا فَسَدَت وأفسدت، واستعصى علاجها، بل ينبغي تقويمها وتعديلها كما يُقوَّم الضِّلع المعوج، فلا يبالغ في تقويمه فيُكْسر، ولا يهمله كلَّ الإهمال فيظلَّ دهره أعوج.

ثمَّ كرَّر الوصيَّة بها مبالغةً في الرفق، وإعذاراً إلى الرجال.

ونرجو أن يعتبر الغُلاةُ في شأنِ المرأة بهذه الوَصاة النَّبويَّة وأمثالها، وينظروا بعين الإنصاف إلى هذا التَّحليل النفسي الدقيق، وإلى هذه الرحمة المحيطة الشاملة، وإلى تلك الحكمة البالغة في حُسْن المعاملة، وكَرَم الجوار، ثمَّ ليحكموا بعد ذلك للإسلام أو عليه، في نظره إلى المرأة وأين وضعها؟!.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٥).

مراعاة حقّ الحَافظَيْنِ

وقد يكون من الحَسن أن نختم الحديث بتلك الإشارة اللطيفة، التي أشار إليها صاحب «بهجة النفوس» إذ قال رحمه الله: «وإذا وكَّد النبيُّ ﷺ حقَّ الجار مع الحائل بينه وبين جاره، وأمر بحفظِه وإيصال الخير إليه، وكفِّ أسباب الأذى والضَّرر عنه، فإنه ينبغي أن يُراعى حقُّ الحافظَيْن اللذين ليس بينه وبينهما جدارٌ ولا حائلٌ، فلا يُؤْذيهما بإيقاع المخالفات، في مرور الساعات؛ فقد جاء أنهما يُسَرَّان بوقوع الحسنات، ويَحزنان لوقوع السَّيِّئات؛ فينبغي مراعاةُ جانبهما وحفظُ جوارهما بالتكثير من الطاعات والابتعاد عن المعاصي، فهما أولى برعاية الحق من سائر الجيران»[١].

* * * * *

(١) بهجة النفوس وتحلِّيها بمعرفة مالها وما عليها، لابن أبي جَمْرة الأندلسيِّ ٤ :١٦٥. وابن أبي جَمْرة هو: عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأندلسي المتوفى سنة ٦٩٥ رحمه الله تعالى. كما في «الأعلام» للزركلي ٤ : ٨٩.

الجوار في الإسلام *

ـ ١ ـ

٧٠ـ عن أمِّ هانئ رضي الله عنها قالت: ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدتهُ يغتسل وفاطمة ابنته تَسْتُره، فسلَّمت عليه، فقال: «من هذه؟» فقلت: أنا أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالب؛ فقال: «مرحباً بأُمِّ هانئ». فلَمَّا فَرَغَ من غُسلِهِ قام فصلَّى ثمانيَ رَكَعات مُلْتَحفاً في ثوبٍ واحد، فقلت: يا رسول الله، زعم ابنُ أُمِّي عليٌّ أنه قاتلٌ رجلاً قد أَجَرته ـ فلانُ ابنُ هُبَيْرة ـ فقال رسول الله ﷺ: «قد أجَرْنا مَنْ أجَرْتِ يا أمَّ هانئ». قالت أمُّ هانئ: وذلك ضُحى. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[1].

من معاني الجوار

للجوار معانٍ متقاربة في لسان العرب

منها ـ وهو أسبقها إلى الذهن، وأشهرها في العرف ـ: مجاورة الناس بعضهم لبعض، في سكن أو عمل.

والجوار بهذا المعنى على درجاتٍ ومراتب، بعضها ألصق من بعض؛ وأدناها جوار الزوجة، وقد بيَّنا كيف عنيَ الإسلام بالجار والمرأة عنايةً لم يُعرف ـ ولن يعرف ـ لها مثيلٌ في تاريخ الأخلاق والاجتماع.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الخامس والعشرون، (١٣٧٣ = ١٩٥٤).

(١) أخرجه البخاري (٣١٧١) في باب أمان النساء وجوارهن، من كتاب «الجهاد»، ومسلم (٣٣٦) في كتاب صلاة المسافرين وقَصْرها: باب استحباب صلاة الضحى. والحديث في «الموطأ» ١ :١٥٢ في قصر الصلاة، باب صلاة الضحى.

ومنها ـ وهو موضوع حديثنا هذا ـ : إجارةُ المُستجير بتأمين مخافته، وإغاثة لهفته، حتى يبلغَ مأمنه مُطْمئناً وادعاً.

وإحسان الجوار ـ على كلِّ معنًى من معانيه ـ في الذِّروة من مَعَالي الهِمَم ومكارم الأخلاق.

الجوار في الجاهلية

وكان العرب في الجاهليَّة يذبُّون عن الجوار، ويمنعون مَنْ حالفهم أو استَجار بهم، مِمَّا يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وكانوا يقولون في معرض الفخر والثناء: فلان منيع الجار، حامي الذِّمار؛ بَيْد أنهم كانوا يسرفون في حماية الجار إسرافاً جائراً، يجاوز حدودَ العدل والإحسان، ويطرح بهذه المنقبة الكريمة في متاهة العسف والعدوان!.

كانوا يبذلون المُهَج والأرواح، ويشنُّون الحروب والغارات، انتصاراً لِمَنْ حالف أو استجار، مُحقّاً كان أو مُبْطلاً، ظالماً كان أو عادلاً!.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   للنائباتِ على ما قال برهانا

تهذيب الإسلام للجوار

فلما جاء الإسلام بالهُدى والنُّور، والشفاء لما في الصُّدور، هذَّب أخلاقهم، وأكملَ آدابهم، ونفى منها الخَبَث والرِّجْس كما ينفي الكير خبثَ الحديد، وأقرَّ ـ فيما أقرَّ من مكارم الأخلاق ـ حُسْنَ الجوار، وحماية الذِّمارِ في غير منٍّ ولا أذى، ولا بغي ولا عدوان.

بل فرض على الناس فيما فرض، أن ينصرَ كلٌّ منهم أخاه ظالماً أو مظلوما[1] ... فلَمَّا عرتهم الدهشة من دعوتهم إلى نصر الظالم، بيَّن لهم بياناً

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُر أخاك ظالماً أو =

عجباً لم يكن ليخطر لهم على بال، بيَّن لهم أن ليس نصر الظالم ما ألِفوهُ في الجاهلية الأولى، وإنما هو كفّه عن الظلم، والأخذ على يديه حتى يَرعَوِيَ، فذلك نصرٌ له أيُّ نصر، على داعي الشهوة والهوى، والاعتساف والطغيان!.

الجوار في الحرب

ولقد بلغ من عناية الإسلام بالجوار وحبِّه له، أنْ أجاز لكلِّ مسلم أن يجيرَ في الحرب ويؤمِّن، رجلاً كان أو امرأة، عبداً كان أو حراً، وجعل ذمامهم وأمانهم كشيء واحد، فلو صدر أمان من أحدهم ـ كائناً من كان ـ لعدوٍّ، فليس للإمام ولا للقائد ولا لغيرهما من أُولِي الأمر أن ينقضَهُ، وذلك قولهُ صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الشيخان: «ذمَّة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين!»[1] وحَدثَ في عهد عمر رضي الله عنه أنَّ عبداً أمَّن أهل بلد بالعراق، فكتب إلى عمر قائد الجيش أبو عبيدة بن الجراح يستشيره في هذا التأمين، فكتب له أمير المؤمنين: «إنَّ الله عظَّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، فوفّوا لهم، وانصرفوا عنهم».

النبيُّ ﷺ يُجيُر مَنْ أجَارت أمُّ هانئ

وهذه فاختة شقيقة عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، راوية هذا الحديث، يجير النبيُّ ﷺ مَنْ أجارَتْ، ويُؤمِّن مَنْ أمَّنت.

كانت فاختة من ذوات الرأي الجَزْل، والأدب الجم في عقائل قريش... فلَمَّا أسلمت عام الفتح فرَّق الإسلام بينها وبين زوجها هُبيرة بن أبي وَهْب

مظلوماً». فقال رجلٌ: يارسول الله، أنصرُه إذا كان مظلوماً، أفرأيتَ إن كان ظالماً: كيف أنصره؟ قال: «تحجزه أو تمنعه عن الظلم، فإن ذلك نصره» رواه البخاري (٢٤٤٣)، والترمذي (٢٢٥٦).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).

المخزومي، الذي هَربَ عند فتح مكة إلى نجران مُشركاً، فلم يزل بها حتى مات. وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين[1]، أصغرهم هانئ الذي اشتهرت كنيتُها به.

وكان النبيُّ ﷺ قد أهدر دم خمسة عشر رجلاً وامرأة، أمعنوا في الكَيْد للإسلام والإفساد في الأرض، لكن تداركتهم ـ إلاَّ قليلاً منهم ـ مع فظاعة جرمهم، نعمةُ الجوار في الإسلام، وشفاعة الصَّحْبِ الكرام، عند مَنْ أرسله الله رحمة للعالمين.

فرَّ من هؤلاء ـ وعدَّتهم أحد عشر ـ جُعْدة بن هُبيرة، ورجلٌ آخر من أحماء أمِّ هانئ[2]، لم يُذكر في حديث البخاري، وكلاهما من بني مخزوم[3]، فرَّا إليها، واختبآ في بيتها، فتوعَّدهما عليٌّ، وأقسم ليقتلنَّهما، إنفاذاً لإيعاد النبيِّ ﷺ، وجزاءً لما اجْتَرَحا من الحِنْث العظيم!!.

لكنَّ أخته أجارَتْهُما ومَنَعَتْهُما منه، ثم ذهبت تشكوه إلى الرؤوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) هم: عمرو بن هُبيرة، وجعدة، وهانئ، ويوسف. كما في «السير» ٢ :٣١٢.

(٢) أي: من أقارب زوجها.

(٣) قال الزرقاني في حاشيته على «المواهب» ٢ :٣٢٦: والرجلان: الحارث بن هشام ابن المغيرة القرشي المخزومي، شقيق أبي جهل، من مُسْلمة الفتح، استشهد في خلافة عمر، روى له ابن ماجَهْ، وله ذكرٌ في الصحيحين، أنه سأل عن كيفيَّة الوحي.

وزهير بن أبي أمية المخزومي أخو أم سلمة أم المؤمنين، قال ابن إسحاق: كان ممَّن قام في نقض الصحيفة، وأسلم وحَسُن إسلامه.

وقيل: إن الثاني جُعْدة بن هبيرة، وفيه: إنه كان صغير السنِّ، فلا يكون مقاتلاً عام الفتح حتى يحتاج إلى الأمان، ولا يهمُّ عليٌّ بقتله. وجوَّز ابن عبد البر أنَّ جعدة ابنٌ لهبيرة من غير أمِّ هانئ مع نقله عن أهل النسب أنهم لم يذكروا له ولداً من غيرها. انتهى.

صلاة الضحى وصلاة الشكر لله عز وجل

صادفته يغتسل، والزَّهراء رضوان الله عليها تَسْتُره، فسلَّمت من وراء حجاب، فسأل عنها وحيَّاها بأحسن من تحيَّتها، حتى إذا اغتسل قام فصلَّى ثمانيَ ركعات: صلاة الضحى كاملة، أو صلاة الشكر لله جلَّت آلاؤه على ما أنعم عليه من نعمة الفتح، أو الصَّلاتين معاً، في ثوبٍ واحد مشتملاً عليه.

لا جَرَم أنَّ علياً ابن أمِّها وأبيها، ولكنها نسبَته إلى الأمِّ فحسب، كما قال هارون يستعطف أخاه موسى عليهما السلام: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾[1] توكيداً لحرمة القرابة، وتوسُّلاً بوشيجة الرَّحم التي آوتهما، والبطن الذي ضمَّهما في قرارٍ مكين..

تقول: إنَّ أَولى قرابتي بِرَعي عهدي وذِمَّتي، هو أخي، ولكنه توعَّد بنكث جواري وقطع رَحِمي! ونِعْمَ الحكَمُ أنت.. فاستجاب لها صلواتُ الله وسلامُه عليه، وطَمْأنها بأنه قد أجار هو نفسه مَنْ أجارَتْ، وأمَّن هو مَنْ أمَّنت، فلتقرَّ عيناً، ولتَطِب نفساً.

النبيُّ ﷺ يُجيرُ مَنْ أجارته ابنته زينب

ومثلٌ آخر: زينب[2] كبرى بناته ﷺ، يفرِّق الإسلام بينها وبينِ زوجها وابن خالتها: أبي العاص بن الربيع[3]، ويحتال عليه كفار قريش أن يُطلِّقها، فيمتنع،

---

(١) سورة طه: ٩٤.

(٢) توفيت سنة ثمان من الهجرة، وغسلتها أمُّ عطية، فأعطاهنَّ حَقْوَهُ أي: إزاره ـ كما في «صحيح البخاري» ـ (١٢٥٤) وقال: «أشعرنها إياه»، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّها ويثني عليها، رضي الله عنها، عاشت نحو من ثلاثين سنة.

(٣) صهر رسول الله ﷺ، وهو والد أُمامة التي كان يحملها النَّبيُّ ﷺ في صلاته، وهو ابن أخت أم المؤمنين خديجة، أمه هي هالة بنت خويلد. ومات أبو العاص في شهر ذي =

ويقول: والله لا أفارق صاحبتي، ولا أحبُّ أنَّ لي بها امرأة من قريش، فتُهاجر هي، ويبقى هو كافراً بمكة، حتى يقع أسيراً في قافلة يسوقها على بُكرة أبيها زيد بن حارثة إلى النبيِّ ﷺ في السنة السادسة من الهجرة.

وهنالك يستجير أبو العاص بزينب التي طوَّقته بصنيعتها؛ إذ افتدته ـ وهو أسيرٌ ببدر ـ بقلادتها التي حَلَّتها بها ليلةَ عرسها أمُّها أمُّ المؤمنين خديجة، فَتَعدُ خيراً، ثُمَّ تنادي بعد صلاة الفجر: إني قد أجَرْتُ أبا العاص ابن الربيع، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «أيُّها الناس: هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، قال: «فوالذي نفسي بيده ما علمتُ بشيءٍ ممَّا كان حتى سمعت الذي سمعتم، المؤمنون يدٌ على مَنْ سواهم، يُجير عليهم أدْناهم، وقد أجَرْنا مَنْ أجارت»[(١)].

ثم يعود أبو العاص إلى مكة فيؤدِّي الحقوق إلى أهلها ـ وكان من المعدودين في رجال مكة تجارةً وأمانة ومالاً ـ ويؤوبُ إلى المدينة مُسلماً

الحجة سنة اثنتي عشرة في خلافة الصِّدِّيق كما في «السير» ١ :٣٣٤.

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» ١: ١٥٧، ١٥٨، وابن سعد ٨ :٣٢ عن ابن إسحاق، حدثني يزيد بن رومان.. وأخرجه الحاكم ٤ :٤٥ من طريق ابن وَهْب، أنبأنا ابن لهيعة، عن موسى بن جبير الأنصاري، عن عمران بن مالك الغفاري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أمِّ سلمة زوج النبيِّ ﷺ، أن زينب بنت رسول الله ﷺ أرسل إليها أبو العاص بن الربيع أنْ خذي لي أماناً من أبيك، فخرجت، فأطلعت رأسها من باب حجرتها، والنبيُّ ﷺ في الصبح يصلي بالناس، فقالت: ياأيها الناس: إني زينب بنت رسول الله ﷺ، وإني قد أجرْتُ أبا العص، فلما فرغ النبيُّ ﷺ من الصلاة، قال: «ياأيها الناس، إنه لا علم لي بهذا حتى سمعتموه، ألا وإنه يجير على المسلمين أدناهم» ورجاله ثقات.

وقوله ﷺ: «المؤمنون يدٌ على مَنْ سواهم» أي: ذوو يد. يعني قدرة واستيلاء على غيرهم من أصحاب الملل. وقد روى البخاري في العلم (١١١)، والجهاد (٣٠٤٧)، ومسلم (١٣٧٠) في الحج من حديث عليٍّ رضي الله عنه في صحيفته التي كانت في قراب سيفه: «..وذمَّةُ المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم..».

مُحسناً، فيردُّ عليه الرسولُ الأكرم ﷺ زوجَه، ويُثني عليه ثناءً كريماً.

متى تعرف المسلمة مكانها في الإسلام؟

مَنْ لنا بأن تَفْقَهَ نساؤنا مكان المرأة في الإسلام، وكيف حاطها برعايته، ومنحها من الكرامة والتَّجِلَّة ما تحسدها عليه المرأة الغربية، ولو فطنت الغربية لمزايا الإسلام وآدابه لَسَعَتْ إليه سعيَ أختها الشرقية للمظاهر والمدنية أو أشد سعياً؟!.

لم يكن الإسلام الذي هذَّب الجوار وجمَّله، ودعا إليه صفيّاً زاكياً، ليقبل منه ما ينقض عهداً، أو يُفسد وداً، أو يوقظ فتنةً، أو يُحرِّك ضغينةً، أو يهيج سلاماً وأمناً.

وكيف وهو دين الوفاء والإخاء، والوئام والسَّلام، والصُّلح والإصلاح، والرُّشد والفلاح؟!

وردَّ اللاجئين والمُستجيرين في صلح الحديبية، وقد جاؤوا مسلمين خائفين ـ وفاءً بالعقد وحفاظاً على الشرط ـ بعضُ الشَّواهد الصادقة على ما تقول[1]. ولولا مخافة السآمة لكان لنا في تفصيل هذا الإجمال، مَجَال أيُّ مجال.

نعم، كان للمرأة إذا هاجرت من دار الكفر إلى دار الإسلام، حباً لله ورسوله، لا بُغْضاً لزوج ولا طلباً لآخر، ولا التماساً لدنيا؛ كان للمرأة إذاً شأن آخر غير شأن الرجل رِفْقاً بها، ورحمةً بضَعفها، وخوفاً عليها أن تفتن في دينها

---

(١) مثل ردِّ ابي جندل بن سهل بن عمرو، وأبي بصير بن أسيد الثقفي، كما في صحيح البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٣٧١) (٢٣٧٢).

أو عِرضها[١]. فمَنْ لنا ـ مرةً أخرى ـ بأن تَفْقَهَ نساؤنا مكان المرأة في الإسلام، وكيف يصونُها من الشُّرور والآثام؟!.

الكلمة الأخيرة للإسلام

وأخيراً ـ وليس آخراً كما يقول الباحثون ـ لو نظر أعداء الإسلام نظرةَ تقديرٍ وإنصاف إلى الجوار في الإسلام، لما تردَّدوا أن يستجيروا به، ويلتجئوا إليه، وهنالك يرون رأيَ العين أعزَّ مانع للجارِ، وحامٍ للذِّمار[٢].

* * * * *

---

(١) لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ..﴾ [الممتحنة: ١٠].

(٢) الذِّمار: ما يلزمك حفظه وحمايته.

الجوار في الإسلام*

ـ ٢ ـ

٧١ـ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «من قتل مُعاهداً لم يَرَح رائحةَ الجنَّة، وإنَّ ريحَها تُوجد مِنْ مَسيرة أربعين عاماً».

٧٢ـ وعن عمر رضي الله عنه قال: «وأُوصيه ـ يعني الخليفة بعده ـ بذمَّة الله وذمَّة رسوله ﷺ: أن يُوفَّى لهم بعهدهم؛ وأن يُقاتَلَ مِنْ وَرَائهم؛ ولا يُكَلَّفوا إلاَّ طاقتهم» رواهما البخاري[1].

عزَّة المجير في الإسلام

لم نكن مبالغين حين قلنا في ختام الحديث الماضي: لو نظر أعداءُ الإسلام نظرة تقديرٍ وإنصاف إلى الجوار في الإسلام، لمَا تردَّدوا أن يستجيرُوا به، ويلتجئوا إليه، وهنالك يَرَوْنَ رأيَ العين أعزَّ مانع للجار، وحامٍ للذِّمار، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنهم لو أنصفوا الإسلام، أو أنصفوا أنفسهم لما تردَّدوا ساعةً في أن يهتدوا بهديه، ويستقيموا على طريقته، وأن يقولوا كما قال الحواريُّون من قبل: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ

---

* مجلة الأزهر؛ العدد التاسع، المجلد الخامس والعشرون؛ (١٣٧٣).

(١) الحديث الأول رواه البخاري(٣١٦٦) في باب «إثم من قتل معاهداً بغير جرم»، من كتاب «الجزية»، والحديث الثاني رواه البخاري (٣٠٥٢) في باب «يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون»، من كتاب «الجهاد». وراحَ يَريح، وراحَ يَراحُ، وأراحَ يُريح: إذا وَجَدَ رائحة الشيء، والثلاثة قد رُوي بها الحديث، كما في «النهاية» ٢: ٢٧٢ لابن الأثير.

ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[١].

ذلك بأنَّ الإسلام لم يعد الجوار فيه مجرَّد نافلة فاضلة، أو فضيلة مكمِّلة، وإنَّما عدَّ فيه الجوار عقداً محتوماً يوجب احترامه، وعهداً مسؤولاً يحتِّم الوفاء به. هذا إلى ما يضيفه الإسلام على المُجير ـ وإنْ قلَّ شأنه ـ من معاني الإعزاز والتكريم لأتباعه، ممَّا لا يوجد له نظيرٌ في قانونٍ دوليٍّ على وَجْه المعمورة..

وأيُّ عِزَّةٍ وَعَظَمةٍ وَمَنَعَةٍ يشعر بها الجنديُّ العاديُّ من جنود الإسلام وهو يوقن أنه ذو حقٍّ أن يجيرَ من استجار به، ويحمي من التجأ إليه؛ ويرى أنَّ قانون الإسلام الحربي تكفَّل له بهذا الحق أحْسَنَ كفالة، وضَمِنَه له أحسنَ ضمان.

تقدير الإسلام للإنسانيَّة

لا جَرَم أنه حينئذٍ يستعمل هذا الحق في خير وجوهه وأدناها إلى المصلحة العامة؛ ليكون دائماً موضعَ ثقةِ الإسلام والمسلمين به. وكفى بهذا تقديراً للإنسانية في منهاج الإسلام، الذي جاء ناشراً للسلام، ومتمِّماً لمكارم الأخلاق[٢].

منهج الإسلام في معاملة غير المسلمين

إنَّ غير المسلمين في منهاج الإسلام أصناف ثلاثة: مُحارِبون، ومُعاهِدون، وذميِّون. وكلٌّ من هؤلاء ذَاقَ ـ أو عرف ـ من حلاوة الجوار في الإسلام، ما كان كفيلاً بأن يجذبه إليه، لولا حوائل الكِبْر و البغي و الحسد، وغوائل العِناد والعصبيَّة والجُحود.

---

(١) سورة آل عمران: ٥٣.

(٢) بسط هذا المعنى السيد محب الدين الخطيب في مجلته «الفتح»، وهو يوازن بين كبرياء الجندي البريطاني المصطنعة، وعزَّة المسلم المجاهد الحقَّة في مقال عنوانه: جوار العروبة وذمَّة الإسلام. انظر العدد (٨٣٠) مفتتح العام السابع عشر (طه).

فأما المحاربون، فسبيلُه معهم أن يدفعَ كَيْدهم، ويردَّ عدوانهم، ويقاتلهم كما قاتلوا أهله؛ حمايةً لدعوته، ودفاعاً عن حَوْزته، ولذلك يشتدُّ نكير الإسلام على مَنْ يقاتل مَنْ لا يدَ له في القتال ولا رأي من النساء والصبيان، والعَجَزة والرُّهبان، فإنَّ هؤلاء ومَنْ إليهم في حماية الإسلام ورعايته، يقيهم ويحميهم ما استطاع إلى الحماية سبيلاً.

إجارة الإسلام رُسُل المحاربين

وكذلك يُجيرُ الإسلامُ رُسلَ العدوِّ المُحارب، فلا يعرض لهم بسوء ولا أذى، ولو جاؤوا مُنْذِرين بالحرب، مُستهزئين بالإسلام، فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء ابن النَّوَّاحة وابنُ أُثال، رسولا مُسَيْلِمة إلى النبيِّ ﷺ، فقال لهما: «أَتَشْهدانِ أني رسول الله؟» قالا: نشهد أنَّ مُسَيْلِمة رسولُ الله، فقال ﷺ: «آمنت بالله ورسُله، لو كنت قاتلاً رسولاً، لقتَلْتكما». قال عبد الله: فمضت السنَّة على أنَّ الرسل لا تُقتل[1].

وروى أحمد وأبو داود عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: بعثتني قريش إلى النبيِّ ﷺ، فلَمَّا رأيت النبيَّ ﷺ وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله: لا أرجع إليهم، قال: «إني لا أُخيس بالعهد، ولا أحبس البُرُد، لكن ارجع إليهم، فإنْ كان في قلبك الذي فيه الآن، فارجع»، فرجع أبو رافع، ثم أقبل إلى رسول ﷺ فأسلم[2].

وفي إجارة الإسلام لرسل المحاربين وحمايتهم، دعوةٌ إلى هدايته، ونشرٌ لرسالته، في سياسةٍ رشيدة، وخطَّة حميدة. وقد تردَّد بين النبيِّ ﷺ وقريش

---

(١) رواه أحمد ١ : ٣٩١ (٣٧٠٨)، ١ : ٣٩٦ (٣٧٦١). وهو حديث صحيح كما في التعليق على «المسند»، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) رواه أحمد ٦ : ٨ (٢٣٨٥٧)، وأبو داود (٢٧٥٢).

جماعةٌ من الرسل واحداً بعد واحد، فرأوا من مكارم أخلاقه ومعاملته لأصحابه ما لم يَرَوْه عند كسرى ولا قيصر، فأخبروا قومهم بذلك. وكان لهذا وأمثاله أعظم الآثار في نشر الدعوة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

معاملة الإسلام للمعاهدين والمستأمنين

وأما المعاهدون فهم الذين أُبرمت بينهم وبين المسلمين معاهدة وميثاقٌ على السِّلم، ومنهم المُسْتأمنون الذين دخلوا في جوار الإسلام بتأمينِ واحدٍ من أهلِهِ، على ما بيَّنا في الحديث السابق.

وسبيل الإسلام مع هؤلاء أن يُوفي لهم بعهدهم كاملاً غيرَ منقوص، وأن يستقيمَ لهم ما استقاموا للمسلمين.

ومن هؤلاء المستأمنين: مَنْ يستجير بنا ليسمع كلام الله ويتعلَّم شرائع دينه، حقٌّ علينا أن نؤمِّنه ليكون على بيِّنة من الأمر، ثم نحميه حتى يبلغ منزلَه الذي يأمن فيه ويسكن إليه، ائتماراً بأمر السلام المؤمن عزَّ سلطانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[1].

ومن عجيب أمر الإسلام في الوفاء بالمعاهدات ـ التي أضْحَتْ حبراً على ورق في الدول الكبرى ـ أنه لا يبيح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين الذين حُرِموا التمتُّع بسلطاننا، على المعاهدين من الكفار، وقد كان الرجل يفرُّ بدينه مسلماً لائذاً بالمسلمين في عهد الحديبية، فيردُّه النبيُّ ﷺ إلى قومه الكافرين ويقول له: «إنَّ بيننا وبين القوم عهداً، وإنَّ الله جاعلٌ لك فَرَجاً ومَخْرَجاً»[2]، وكانوا

---

(١) سورة التوبة: ٦.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤: ٣٢٥ (١٨٩١٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» ٥: ٢٢٧ (١٨٦١١)، مِنْ حديث طويل، وإسناده حسن. كما في التعليق على «المسند».

عاهدوا النبيَّ ﷺ فيما عاهدوه، أن يردَّ إليهم من جاء منهم مسلماً، على حين لا يردُّون من جاء من المسلمين كافراً..

وقد حَمَى الله المؤمنين أن يرتدَّ أحدٌ منهم عن دينه، كما صدَّق رسوله، فجعل لهم مَخْرَجاً وفَرَجاً، بتحلُّل المشركين أنفسهم واستغاثتهم من هذا الشرط؛ لأنه كان عليهم وحدهم بلاءً وشراً..

عناية الإسلام البالغة بأهل الذمة

وأما الذميُّون فهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم في حقيقة الأمر معاهدون من طراز آخر، لهم ذمَّة الله وذمَّة رسوله، وعهدُ الله وعهدُ رسوله، في جوار الإسلام ورعايته، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، نحميهم وندافع عنهم، ونقاتل مَنْ يعتدي على دينهم أو أنفسهم وأموالهم، ولا نكلِّفهم من الجزية ـ التي أمر الله بها أن تُؤْخَذ منهم ـ ما لا طاقة لهم به، فمن ضيَّع حقّاً من حقوقهم هذه أو أعان على ضياعه، فقد ضيَّع ذمَّة الله وذمَّة رسوله، وانتهك حُرمة الإسلام والمسلمين! ومن قتل واحداً منهم كان جديراً بسَخَطِ الله ورسوله، خليقاً بأن يتوعَّده الصَّادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه بما يتوعَّد به التارك لدينه، فلا يدخل الجنة ولا يشمُّ ريحها، وإنَّ ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً.

ومن المُقرَّر في قواعد الشريعة: أنَّ مرتكب المعصية المُجْمَع على تحريمها مرتدٌّ عن دينه إن استحلَّها، وإلاَّ فهو آثمٌ متخلِّفٌ عن ركْب الطائعين، إلى رضوان الله تعالى إلاَّ مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً.

الجزْية على الذمِّيين والزكاة على المسلمين

وليست الجزية التي فرضها الله تعالى على أهل ذمته إلا جزاءً يسيراً، لا يكاد يُكافئ ما يلتزمه المسلمون من إعانتهم والدفاع عنهم والسَّهر على مصالحهم، وهي أيْسَر من الزكاة التي فرضها الله على الموسرين من المسلمين،

وأمر نبيَّه صلوات الله وسلامه عليه أن يأخذها منهم؛ لأن فريضة الزكاة عامَّةٌ على كلِّ مُوسر، وإنْ كان طفلاً أو امرأة؛ وأمَّا الجزية فلا تؤخذ ـ كما قال الماوردي في «الأحكام السلطانية» ـ إلاَّ من الرجال الأحرار العقلاء، مع أنَّ حماية المسلمين شاملةٌ لأهل الذمة جميعاً.

ليست الجزية كالضرائب

ومعاذ الله والإسلام أن تكون الجزية كالضَّرائب التي يفرضها الفاتحون والمستعمرون على من يتغلَّبون عليهم. بل تلك مغارم فادحة يُثقلون بها كواهلهم، ويمصُّون بها خيرات بلادهم! وما نظنُّ أهل الكتاب يجهلون هذا، وكثيرٌ منهم يعرفون الكتاب كما يعرفون أبناءهم، ولكنَّه تهاون المسلمين وانتهاكهم لحرمات الله ورسوله، ثم تجرُّؤ الكتابيِّين عليهم واعتداؤهم، جزاءً وفاقاً!.

ومصداق هذا ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كيف أنتم إذا لم تجتْبُوا ديناراً ولا درهماً»؟! فقيل له: وكيف ترى ذلك كائناً يا أبا هريرة؟! قال: إي والذي نفس أبي هريرة بيده، عن قول الصادق المصدوق. قالوا: عمَّ ذاك؟ قال: «تُنتهك ذِمَّة الله وذِمَّةُ رسوله ﷺ، فيشدُّ اللهُ عزَّ وجل قلوبَ أهل الذمة، فيمنعون ما في أيديهم»[1].

وما رواه أبو داود عن ثَوْبان رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يوشك الأممُ أن تَدَاعى عليكم كَمَا تَدَاعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها!» فقال قائل: ومِنْ قلَّة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟! قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السَّيْل، ولينزعنَّ اللهُ من صدور عدوِّكم المَهَابةَ منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهْن!» فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْن؟ قال: «حُبُّ الدنيا

---

(١) رواه البخاري معلَّقاً (٣١٨٠) في الجزية والموادعة.

وكراهيَةُ الموت!!»[١].

عناية دولة الإسلام بجوار أهل الذمَّة

وبعد، فهل بلغ أهلَ الذمَّة عامَّة أنَّ دولةَ الإسلام وأئمَّة المسلمين، عنوا بجوارهم والإحسان إليهم، عنايةً لم تعرفْها ـ ولن تعرفها ـ دولةٌ أخرى على وَجْه البسيطة ولو كانت تدين بدينهم؟!.

وهل بلغهم أنَّ اليهود ـ وهم أشدُّ الناس عداوةً للذين آمنوا ـ كانوا يعيشون في جوار الرسول ﷺ والمسلمين، في رَغَدٍ من العيش آمنين مطمئنين، حتى نَقَضُوا عهدهم، و نَكَثُوا أيْمَانهم، و خانوا الله ورسوله في كلِّ مرة، ثُمَّ أخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين؟!.

خليفة المسلمين يوصي بأهل الذمَّة وهو يودع الدنيا

وهل بلغهم أنَّ خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ الذي أجلى اليهود من جزيرة العرب إلى الشام تنفيذاً لوصيَّة النبيِّ ﷺ ـ أوصى وشدَّد في الوصية بإحسان الجوار لأهل الذمة والرفق بهم، تنفيذاً لوصية الرسول ﷺ كذلك، ويبلغ من عنايته بهذه الوصيَّة أن تكون منه في سكَرات موته، وهو يودِّع هذه الدار، ويُقْبل على الله و الدار الآخرة!! وأن تكون في سلك وصيته الجامعة للخليفة بعده، بالمهاجرين الأولين، وبالأنصار الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان، في حديث رواه البخاري في آخر كتاب «الجنائز»[٢]، وبسطه في مناقب عثمان رضي الله عنه[٣]!!.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) في كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم على الإسلام.

(٢) (١٣٩٢)، واقتصر في كتاب الجهاد (٣٠٥٢) على بعض الذي سقناه هنا لمناسبة الباب، ولا مانع من اختصار الحديث بقدر المناسبة (طه).

(٣) مناقب عثمان رضي الله عنه (٣٧٠٠).

وأخيراً، هل بلغ أقباط مصر أنَّ الرسول الأكرم ﷺ خصَّهم من أهل الكتاب بوصيّةٍ كريمة بالغة؛ لأنَّ لهم ذِمَّةً وصهراً؟!.. ذلك ما نرجو أن نفصِّله ببعض التفصيل في الحديث القادم إن شاء الله، ومن الله سبحانه العون والتوفيق.

* * * * *

الجوار في الإسلام*

ـ ٣ ـ

٧٣ـ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّكم ستفتحون مِصْرَ، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسِنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّةً ورَحِماً ـ أو قال: ذِمَّةً وصِهْراً ـ فإذا رأيتَ رَجُلَيْن يختصِمان فيها في موضع لَبِنَة، فاخرج منها» قال: فرأيتُ عبدَ الرحمن بن شُرَحْبِيل بنِ حَسَنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لَبِنةٍ، فخرجتُ منها. رواه مسلم[١].

المفردات:

القيراط: جزء من الدينار والدرهم والأرض وغيرها. قال بعض الحُسَّاب: القيراط في لغة اليونان حبة خرنوب، والحُسَّاب يقسمون الأشياء أربعةً وعشرين قيراطاً؛ لأنه أوَّل عدد له ثُمن وربع ونصف وثُلث صحيحات. والقيراط يُذكر قديماً في بلاد العرب وغيرها، وفي البخاري: «كنت أرعاها ـ الغنم ـ على قراريط لأهل مكة»[٢]، إلا أنه في مصر أكثر ذكراً وتسميةً؛ فلهذا خصَّها بتسميته صلوات الله عليه وسلامه.

ويقال: إنَّ أهل مصرَ كانوا يستعملون القيراط في السَّبِّ وإسماع المكروه، فيقولون: أعطيت فلاناً قراريط، يعنون: سَبَبْتُهُ وأسمعته ما يكره! ومردُّ هذا إلى

---

* مجلة الأزهر؛ العدد العاشر، المجلد الخامس والعشرون (١٣٧٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٣) في فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط (٢٢٦٢).

التاريخ، فإنْ صحَّت روايته؛ فمناسبة الجمع بين الوصية بهم وتسمية القيراط، أنَّ في القوم بذاءةً، فإذا فتحتم بلادهم ـ وأنتم بإذن الله فاتحوها ـ فأحسنوا إليهم، واستوصوا بهم خيراً، ولا يجرمنَّكم سوء مقالهم على الإساءة إليهم.

والذمة: العهد والأمان والحرمة. وتقدَّم القول في حرمة أهل الذمة في الحَديث السابق.

والرَّحِم: القَرابة. **والصِّهْر**: القرابة، وحرمة الختونة، وقد صَاهَرهم وصاهر فيهم، وأصْهر بهم وإليهم: صار فيهم صِهْراً[1].

* * * * *

قبط مصر وصلتهم بالإسلام

وقبطُ مصرَ يمتُّون للمسلمين ونبيِّ المسلمين صلوات الله عليه وسلامه بسببين عظيمين ـ ولهم بذلك شرفٌ أيُّ شرف ـ بآجر ـ أو هاجر ـ أمُّ أبي العرب إسماعيل عليه السلام، وهي التي أهداها جبَّار مصر إلى سارة لمَّا عصمها الله منه، فوهبتها للخليل صلوات الله عليه، في حديثٍ طويل..[2]

---

(١) كما في «القاموس المحيط». وقال ابن الأثير في «النهاية» ٣: ٦٣: «الصِّهر: حُرمة التَّزويج. والفرق بينه وبين النَّسب: أنَّ النَّسب ما رَجَع إلى ولادة قريبةٍ مِنْ جهة الآباء، والصِّهر ما كان مِنْ خِلطةٍ تُشبه القرابة يُحدثها التزويج».

(٢) أخرجه أحمد ٢: ٤٠٤ (٩٢٤١)، والبخاري (٢٢١٧) (٢٦٣٥)، والنسائي (٨٣١٦)، وهو حديث طويل كما ذكر المؤلف، إلا أنه لَمْ يرِدْ فيه ذكر هبتها لإبراهيم عليه السَّلام، على أن الهبة ذكرها ابن حجر في «الفتح» ١٢: ٣٩٥ في معرض شرحه حديث رؤيا إبراهيم في كتاب التعبير.

ثُمَّ بمارية القبطية، أمِّ إبراهيم ـ ولدِ خاتم النبيِّين عليهم صلوات الله وسلامه ـ أهداها إليه نائب ملك الروم وحاكم مصر في هدايا أخرى عظيمة.. وذلك لمَّا بعث إليه ﷺ رسولَه حاطبَ بن أبي بلتعة رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام، كما كان يدعو ملوك الدنيا وعظماءَها في صلح الحديبية.. فقال الحاكم خيراً، وقاربَ الأمر ولم يسلم، وكان يعلم من نعته في الكتب القديمة أنه يقبل الهديَّة، ولا يقبل الصَّدقة، فتودَّد إليه بإهدائه وإكرام رسوله حاطب، وقد عرض حاطبٌ الإسلام على مارية فأسلمت في طريقها، وأكرمها النبيُّ ﷺ إكراماً عظيماً وأكرمها الخليفتان بعده، ورعيا حرمتها حقَّ رعايتها، إلى أن جاوَرَتْ ربَّها في خلافة أمير المؤمنين عمر سنة ست عشرة، فحشر الناس ليشهدوا جنازتها، ثُمَّ صلَّى عليها ودفنها بالبقيع..

تراجم الصحابة المذكورين في الحديث

والمذكورون في هذا الحديث جميعاً من أصحاب رسول الله ﷺ:

فأما أبو ذر الغفاري (واسمه جُنْدُب) فهو من السَّابقين الأوَّلين، رابع الإسلام أو خامسه، أوَّل من نادى بأعلى صوته بالشهادتين بجوار الكعبة.. فأكبَّت عليه قريشٌ يضربونه حتى كادوا يقتلونه، أصدقُ الناس لهجةً بشهادة الرسول ﷺ[1]، وكان من المُبرِّزين في الزهد، ذاهباً إلى أنَّ ما زاد على الحاجة من مالٍ فهو كنزٌ، وحاول أن يحمل الناس على زهده هذا، فَشكَاه معاويةُ إلى عثمان ـ وكان بالشام حينئذٍ ـ فاستَقْدَمه عثمان، ثُمَّ أشار إليه بأن يسكن الرَّبَذَة بالقرب من المدينة، فلم يزل بها حتى جاور ربَّه سنة اثنتين وثلاثين.

---

(١) أخرج الترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أقلَّت الغبراء، ولا أظلَّت الخضراء من رجلٍ أصدَقَ لهجةً من أبي ذر». والحديث قويٌّ بشواهده.

وصلى عليه عبد الله بن مسعود، وكان مُقْبِلاً من المدينة إلى الكوفة، فلَمَّا دُعِيَ إلى الصَّلاة عليه، بكى طويلاً، وقال: أخي وخليلي، عاش وحده، ومات وحده، ويبعث وحده، طوبى له[١].

وأما شُرَحْبيل بن حَسنَة فهو من مهاجرة الحبشة، وحَسَنَةُ أُمُّه، ولها صحبةٌ وهجرةٌ مع أبيها إلى أرض الحبشة كذلك..

وأما عبد الرحمن وربيعة، فهما أخوان شقيقان، ابنا شُرَحبيل بن حَسنَة، وكلاهما شَهِدَ فتح مصر مع أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنهم، كما يشهد بذلك هذا الحديث الصحيح، وكما نقل السيوطي جازماً في «حُسْنُ المحاضرة»[٢].

وأما شُرَحبيل فقيل: إنه شهد فتح مصر مع ولديه، وقيل: إنه أحد أمراء أجناد الشام، ومات بها سنة ثمان عشرة، أي قبل فتح مصر بنحو عامين..

معرفته ﷺ بطبائع البشر وسياسة الأفراد والأمم

واختصاصُ النبيِّ ﷺ أبا ذرٍّ رضي الله عنه بأمره أن يخرج من مصر حينما يرى رَجُلَيْن متنازعَين في موضع لَبِنةٍ[٣] منها؛ دليلٌ واضحٌ على عراقته صلوات

---

(١) إسناده ضعيف، لضعف بُريدة بن سفيان، فقد ضعَّفه البخاري والنسائي..، وذكره الحافظ في «الإصابة» ٧: ١٠٩ عن ابن إسحاق، وضعَّف سَنَده.

(٢) ذكر السيوطيُّ رحمه الله في «حُسْن المحاضرة» ١ :١٩٧(٩٥) ربيعة بن شرحبيل بن حسنة، ثم ١ :٢١٦ (١٦٩) أخاه عبد الرحمن، ونقل في ترجمة عبد الرحمن عن «التجريد» للذهبي ١ :٣٤٩(٣٧٠٢) قوله: «له رواية وشهد فتح مصر». وهذا تحريف صوابه: له رؤية، هكذا في «التجريد»، وهو مقتضى صنيع الحافظ في «الإصابة» إذ ذكره في القسم الثاني، ومثله حال أخيه ربيعة، فإنَّ الحافظ ترجمه في القسم الثاني أيضاً.

(٣) اللَّبِنَة مثل كَلِمة، ما يُعمل من الطين ويُبنى به.

الله عليه وسلامه، في أصول التربية الإلهيَّة، والسياسة النفسيَّة، والعلم المُلْهَم بطبائع البشر، وسياسةِ الأفراد والأمم، وتأدية رسالات الله على خير وَجْهها وأكمله..

ذلك بأنَّه يعلم أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه، ذلك العريق في الزُّهد، الحادُّ الدعوة، الحارُّ الإيمان واللهجة، لن يطيقَ أن يرى الناس يَبْنون ما لا يسكنون، ويجمعون ما لا يأكلون، وهو ساكت!! إذاً فلا بد أن يثور، ولا بدَّ أن يفرِّق مال الله في عبادِ الله ـ وقد فعلها غيرَ مرة ـ ولن يطيق الناس ثورتَه الصَّادقة تلك..

أرأيت الذي يصرخ بالشَّهادتين في آذان المشركين لا يباليهم، والمسلمون حينئذٍ بضْعُ أنفسٍ، فما كان من المشركين إلاَّ أن قاموا فضربوه حتى أضْجَعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه، فقال: ويلكم! ألستم تعلمون أنه من غفار، وأنَّ طريق تجارتكم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم.. ثم عاد من الغد إلى مثلها فضربوه، وثاروا إليه، فأكبَّ العباسُ عليه فأنقذه.. فقال له رسول الله ﷺ: «هل أنت مُبلِّغ عني قومك، عَسى اللهُ أن ينفعَهُم بك، ويأجرك فيهم»، فعاد فأسلم أخوه أنيس وأمُّهما، وأتَوا قومهم فأسلم نصفُهم.. ثم أسلم باقيهم حينما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة.. في حديثٍ طويلٍ مُعْجب[1]!!.

ألا إنَّ خيراً لأبي ذرٍّ رضي الله عنه، ومَنْ كان مثله في صدق لهجته، وعميق إيمانه وزهده ـ ولن يكونه ـ أن يعتزل الناس، فيعيش وحده، ويموت وحده[2].. وبهذا أمره الصَّادق المصدوق صلوات الله عليه وسلامه[3]، ليريحَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٣) في فضائل الصحابة، وأحمد ٥ :١٧٥ (٢١٥٢٥) على شرط مسلم.

(٢) اقتباس من حديث تقدَّمت الإشارة إلى ضعفه ص٥٩٨.

(٣) أمره ﷺ بترك الإمارة، وقال له ـ مع قوة أبي ذرٍ في بدنه وشجاعته ـ: « ياأبا ذر إني =

ويستريح، ويحمي نفسه التي أمره الله بإمساكها، أن تشتعلَ بحرارة الإيمان فتحرقه!.

ثم تأدَّب معاوية وذو النُّورَيْن صهر النبيِّ ﷺ بأدبه، وصَنَعا معه ما يَجْمُل به، فحماه الأوَّل من الناس، وحمى الناسَ من شُعلَة إيمانه المتَّقد، وأعاشه الآخر وحده رحمةً به وإشفاقاً عليه!!.

من آيات النبوة

بعد هذا التمهيد الطويل الذي اضْطُررنا إليه ـ ولم نجد بداً منه ـ يرى الناظر في هذا الحديث ـ بيُسْرٍ وسهولة ـ آياتٍ من آيِ النُّبوَّة، في بشارة عظيمة، ووَصَاةٍ نبويَّةٍ كريمةٍ، أشرنا إليها في ختام الحديث السابق:

فأما آيات النبوَّة فإنَّها تتجلَّى في إنبائه ﷺ أمته بفتح مصر، وإنبائه أبا ذرٍّ رضي الله عنه، بأنه سيرى رجُلَيْن يختصمان في شبر من أرضهما، وأمره حينئذٍ أن يخرج منها خشيةَ أن تمتدَّ ثورتُه، فتكون فتنة، وقد تحقَّق ذلك كله، ورآه أبو ذر وغيره رأي العين.. وذلك لا يُتصوَّر البتة إلا بوحيٍ من العليم الخبير عزَّ وجل. وما أشبهه بما أنزل على النبيِّ ﷺ في أمر الروم، من أنهم سيَغلِبون في بضع سنين، بعد أن غُلِبوا في أدْنى الأرض[1]، ولا يفرَّق بين الوحْيَيْن إلاَّ أنَّ ذاك وحيٌ غير مَتْلو، وهذا وحيٌ وقُرآنٌ يُتلى.

أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تَأمَّرَنَّ على اثنين، و لا تَوَلَّين مال يتيم». أخرجه مسلم (١٨٢٦) في الإمارة. قال الذهبيُّ في «السير» ٢ :٧٥: «فهذا محمولٌ على ضعف الرأي، فإنه لو وَلِي مال يتيم، لأنفقه كلَّه في سبيل الخير، ولترك اليتيم فقيراً. فقد كان لا يستحب ادِّخار النَّقدين. والذي يتأمَّر على الناس، يريد أن يكون فيه حِلْمٌ ومداراة، وأبو ذرٍّ رضي الله عنه، كانت فيه حِدَّةٌ، فنصحه النبيُّ ﷺ».

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

وقد صدَّق الله نبيَّه، وأرى أمته ما أنبأهم به في عهد أمير المؤمنين عمر، على يد الصحابي الهمام، والقائد المقدام عمرو، عليهما رضوان الله عزَّ وجل.

بشارة للمسلمين والقبط

وأما هذه البشارة العظيمة فإنَّها تتجلَّى في هذا الإنباء بالغيب، إذ يَعِدُ النبيُّ ﷺ صحابته وأمته بهذا الفتح.. ونخطئ خطأً عظيماً، في حقِّ النبيِّ ﷺ إذا قَصَرْنا البشارة على المسلمين وحدهم، بل نخطئ خطأً عظيماً في حقِّ التاريخ نفسه، فإنها ـ وايم الحق ـ بشارة عامة، للمسلمين والقبط، مَنْ سَعِدَ منهم بالإسلام ومن لم يسعد به.

فأمَّا الذين سُعِدوا بالإسلام وآمنوا، وكانوا يتَّقون، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١].

وأما الذين لم يُسْعَدوا بالإسلام، فلهم البُشرى في الدنيا فقط، إذْ أنْجاهم الله على أيدي الهُداة العادلين، الذين وعدهم الله لَيَستخلفنَّهم في الأرض، من أولئك الطّغاة الجائرين، الذين فرَّقوهم أحزاباً وشِيَعاً، وساموهم سوءَ العذاب، من أكاسِرَةِ العجم، وقَيَاصرة الرُّوم، ونوَّابهم في مصر.

القبْط بين الروم والفرس

كانت مصر قبل الفتح الإسلامي في طريق الهَلاَك والدَّمار، لا يُنْجيها منه شيءٌ، فأعلاها: مهرجان لعصابات اللصوص، وقطاع الطريق، والغُزاة من بلاد النوبة والبدو، وأسفلُها: ميدان للشَّغَب ومُلتقىً للفتن والثورات من كلِّ فجٍّ، ولا همَّ لحكامها إلاَّ جمع المال لخزائن الملوك ومَنْ إليهم..

---

(١) اقتباس من الآية ٦٤ من سورة يونس.

وكانت إذا انتقلت من حكم الفرس إلى حكم الروم، فكأنَّما رُفع عنها التعذيب بالسِّياط، ليحلَّ بها تعذيبٌ آخر من لَسْع العقارب على حدٍّ تعبير «بتلر» الإنجليزي، صاحب «فتح العرب لمصر».

هذا إلى إكراهٍ في دينهم ومذاهبهم، وتحويلهم ـ مُرْغَمين ـ إلى نِحَلٍ يكرهونها أشدَّ الكُرْه، ومذاهبَ يُبْغضونها أشدَّ البغض، وفي ظُلَلٍ من التنكيل والتعذيب والعَسْف.

القبط في جوار الإسلام

فلمَّا جاء نصر الله والفتح، أنقذهم الله من هذا البلاء العظيم والجَوْر، ومتَّعهم الإسلام الذي لا إكراه فيه، بظلِّه وجواره، في نظامٍ كريم من الأمن يكفُل حرية الحياة والمِلْك والعقيدة والثروة، ممَّا لا يمكن أن يحلُموا به في غير الإسلام وجواره..

قبط يُعجبون بالإسلام فيدخلون فيه

ولقد أسلَمَ كثيرٌ من أولئك المُعجبين بالإسلام وفضائله ممثَّلة في المسلمين الصَّادقين، إسلاماً حقّاً لا نفاق فيه، ولا تقيَّة معه، وإلا فماذا كان يمنعهم أن يظلُّوا على مسيحيَّتهم، وليس هناك من يُكرههم على تركها، ولو كان إمام المسلمين نفسه؟! وليس لهم مَغْنمٌ في ترك المسيحيَّة إلى الإسلام بعد أن علمَ الكافَّة ـ فيما قدَّمنا في الأحاديث السَّابقة ـ أنَّ عِبْء الجِزْية المُقدَّرة على الذمِّين، أيْسَرُ من عبء الزَّكاة المفروضة على المسلمين.

بل مَنْ ذا الذي يُجبرهم على الإسلام، ونبيُّ الإسلام يُوصي بأهل الذمَّة عامة ـ والقبط خاصَّة ـ خيراً وحسناً؛ لأنَّ لهم فوق الذمَّة والعهد رَحِماً أمرَ الله بها أن تُوصَل، وَصِهْراً أمرَ الله به أن يُجَلَّ ويُكرم؟! وهو صلوات الله عليه وسلامه أوْصَلُ النَّاس للرَّحِم وإن قُطِعَت، وأحْفَظُ النَّاس للمُصَاهرة وإن بَعُدَت، ولا يرضى عن أمَّته إلاَّ أن يكون لهم فيه أسوة حسنة؟!.

بين الفتوحات الإسلامية والفتوحات الأخرى

ألا إنَّ الفتوحات الإسلامية ـ وإنْ حادَت في القليل النادر عن طريقها المستقيم ـ خيرٌ مقاماً وأحْسَنُ ودًّا وعهداً، من الفتوحات الأخرى، وإن تراءَتْ في القليل النادر أنها أَوْسَعُ حُرِيَّةً، وأعظم مدنيَّةً، وما هي إلا السُّمُّ النَّاقع، والداءُ العُضَال..

بهذا شَهِدَ المُنْصِفُون من المؤرِّخين والباحثين من غير المسلمين، وعليهم عوَّلنا فيما كتبنا من موازنةٍ بين الفريقين، والله يقولُ الحقَّ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[1]

* * * * *

(١) من أهم مراجعنا في هذا الحديث بعد الصحيحين وشروحهما:

١ ـ حُسْن المُحَاضرة، للسيوطي.

٢ ـ الرسالة الخالدة، للدكتور عبد الرحمن عزام.

٣ ـ فتح العرب لمصر، للدكتور بتلر، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد (طه).

وَصِيَّةٌ نَبَوِيَّة *

٧٤ـ عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «يا عبدَ الرحمن بن سَمُرَة، لا تَسْأَل الإمارة؛ فإنك إنْ أُوتيتَها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإنْ أُوتيتها من غير مسألة أُعنتَ عليها. وإذا حَلَفْتَ على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك، وَأْتِ الذي هو خيٌر». رواه الشيخان[1].

عبد الرحمن بن سَمُرة

عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه، أحدُ القادة الفاتحين، والولاة المحنَّكين، الذين أبلوا في الإسلام بلاءً حسناً. هو قرشيٌّ عَبْشميٌّ، يقال: كان اسمه الجاهلية عبد كُلال، أو عبد الكعبة، فغيَّره النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

أسلم يوم الفتح، وشهد غزوة تبوك، وافتتح سِجِسْتان وكابُل وغيرهما في خلافة عثمان رضي الله عنه.

حكمته ﷺ في وصاية أصحابه

رأى فيه النبيُّ ﷺ رغبةً في الإمارة وتطلُّعاً إليها، وكان من سُنَّته صلوات الله وسلامه عليه، أن يُوصي كلَّ امرئٍ بما يتوسَّم فيه أو يصلح له، فحذَّره أن يسألها، أو أن يسعى لها؛ لأنَّ أمرَها خطير، وحسابَها عسير، وعبْئَها شاقٌّ لا يحتمله إلا مَنْ يَسَّرها الله له، وأعانه عليها، فأدَّى أمانتها، وقام بحقِّها، وإنه وايمُ اللهِ عظيمٌ.

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد السابع عشر (١٣٦٥ = ١٩٤٦).

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٢) في الأيْمان والنذور، ومسلم (١٦٥٢) في الأيْمان.

من أمارات توفيق الله في الإمارة

ثم بيَّن له أنَّ من أمارات توفيق الله لها، وإعانتِه عليها، أن تجيءَ إليه مُنقادةً ذَلولاً، غير حريص عليها ولا مُتشبِّث بها؛ وإذاً يقيم حقَّ الله فيها، لا يخاف إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربَّه، ولا يبالي أغضِب الناس أم رضوا؛ لأنَّ عليه من الله حافظاً، وله منه ولياً ونصيراً؛ ولأنه لا يندم عليها إنْ أدبرت، كما لم يحفل بها حين أقبلت.

من علامات الإخفاق في الإمارة

كما بيَّن له أنَّ من علامات الإخفاق فيها، أن يحرص عليها راغبُها حتى تكون شُغْلَهُ الشَّاغل، وجُهْدَه الدائب؛ وإذاً فهو يفتديها بنفسه ونفيسه، وقد يشتريها بدينه وعرضه.

وجديرٌ بمثل هذا أن يتخلَّى الله عنه، وأنْ يكِلَهُ إليها، حتى تكون وَبَالاً عليه في الدنيا، وَنكالاً عليه في الآخرة.

سياسة الرسول ﷺ ألاَّ يُولِّيَ الإمارة مَنْ يحرص عليها

لهذا كان مِنْ هَدْيه ﷺ ألاَّ يُولِّي العمل مَنْ يسأله أو يحرص عليه. وذلك من السياسة الرشيدة؛ لأنَّ من اشتهى شيئاً، وجدَّ في طلبه يصرف همَّته إليه لا مَحَالَةَ، ويعمى أو يتعامى عن طريق الرُّشْد والمصلحة، فلا يصاحبه توفيق، ولا تُؤَازره كفاية، وفي الأثر: «حبُّك الشيء يُعمي ويُصم»[1].

---

(١) رواه أبو داود مرفوعاً وموقوفاً برقم (٥١٣٠)، ولم يصب مَنْ حكم عليه بالوضع. وانظر: «كشف الخفاء» [١ :٣٤٣] (طه). والحديث رواه أحمد مرفوعاً ٥ :١٩٤(٢١٦٩٤) من حديث أبي الدرداء، وإسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وأورده السيوطي في «الدرر المنتثرة» (١٨٦) وقال: الوقف أشبه. والحديث صحيح موقوفاً. وقد أخرجه موقوفاً البخاري في «التاريخ» ٢ : ١٠٧ والبيهقي في «الشُّعب» (٤١٢)، وإسناده صحيح.

القضاء والوصاية

ومثل الإمارة في ذلك: القضاء والوِصَاية وما إليها، مِن كلٍّ ما فيه هَيْمَنَةٌ وحُكم، وتوليةٌ وعَزْل، وكان صلوات الله وسلامه عليه يحُذِّر أصحابه، ولا سيما الضعفاء منهم، أن يطلبوها؛ رحمةً بهم أن يتورَّطوا في سوء مغبَّتها، ووخيم عاقبها.

متى يجوز طلب الإمارة؟

وإنما يُكره طلبُ الإمارة وما إليها ما لم تتعيَّن على ذي الكفاية، ولم يكن هناك من يقوم مقامه أو يملأ فراغه، وإلاّ جاز له طلبُها والسَّعيُ إليها، بل كان واجباً عليه محتوماً؛ إحقاقاً للحقِّ وإقراراً للعدل.

وقد رغب يوسُفُ الصِّدِّيق عليه السلام إلى مَلِك مصر أن يولِّيه خزائنها، وزكَّى نفسه بما هو حق: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1]؛ لأنه لم يجد أحداً سواه يقوم على خزائن الدولة بالحفظ والعلم، والتدبير والقسط؛ ولهذا أجابه الملك إذ تبيَّن صدقَ مقالته، وعظيمَ كفايته، فسلَّم إليه مقاليدَ الأمور، وشؤونَ الملك.

امتناع كثير من السلف عن القضاء

فأما مَنْ وجد غيره أهلاً لأن يقومَ بهذا العبء، فلا عليه أن يتخلَّى عنه، وإن طُلبَ منه. ومن أجل هذا نَعذِرُ كثيراً من الأئمة رضي الله عنهم حُملوا على القضاء، وأوُذوا في سبيله، ولكنهم اتَّقَوا الفتنة، وبالغوا في المَخَافة، حتى آثروا الجَلْدَ والسِّجن والموت فيه أحياناً، على هذا المنصب الذي يخشون الزَّلل فيه.

ولقد كنَّا نودُّ ـ ونحن نعذرهم ونجلُّهم ـ أن يتقبَّلوا هذه الولاية إذ جاءتهم

---

(١) سورة يوسف: ٥٥.

عن غير مسألة؛ ليكونوا مُثُلاً تُحتذى في القضاة المقْسطين، اللهمَّ إلا أن يكون لهم من العذر ما لم نُحط به خُبْرا، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[(١)].

طريق التحلُّل من يمين يحول دون الخير

ولمّا كان الشَّغفُ بالإمارة أو الزهد فيها، ممَّا يدعو المرء أحياناً إلى الحَلف ليطلبنَّها إذا فاتته، أو لَيَمْتَنِعَنَّ عنها إذا جاءته، أوصاه ﷺ في وصيَّةٍ حكيمةٍ جامعة، بأنه إذا حَلَف على شيءٍ، فظهر له غيره خيرٌ منه، فَلْيكفِّر عن يمينه، وليفعل الذي هو خيرٌ؛ فإنَّ لليمين مَخْرَجاً وهو الكفارة، وأما الخير فقد يفوت ولا عِوَض له.

قصة الرَّهْط الأشعريين

ومن هذا القبيل ما رواه الشيخان من قصَّة أبي موسى، إذْ جاء إلى النبيِّ ﷺ في رَهْط من الأشعريين يستحملونه في غزوة تبوك، في ساعة العُسْرة، فقال: «والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه». فما لبثوا أن دعاهم النبيُّ ﷺ وقد وافته غنيمةٌ من إبل، فأعطاهم ستة أبعرة غُر الذُّرا[(٢)]، فخشوا أن يكونوا تغفَّلوا النبيَّ ﷺ يمينه، فقالوا له: استَحملناك فحلفت ألاَّ تحملنا، ثم حملتنا، أفنسيت يا رسول الله؟ قال: «انطلقوا فإنّما حملكم الله، إني والله ـ إن شاء الله ـ لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خيرٌ، وتحلَّلتها»[(٣)].

---

(١) اقتباس من الآية ٧٦ من سورة يوسف.

(٢) ذروة كل شيء أعلاه، والمعنى: أنها بيض الأسنَّة، وفي بعض الروايات ـ مسلم (١٦٤٩) ـ: أنه اشتراها من سعد. والتوفيق بينهما: أنه قَسَم الغنائم، ثم ابتاع نصيب سعد ليحملهم عليه. هذا والقصة مبسوطة ميسورة في كتاب الأيمان وغيره من الصحيحين (طه).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥٥)، ومسلم (١٦٤٩).

أيُّ الأمرين يُقدَّم: التكفير أم فعل ما هو خير؟

وللفقهاء هنا بحثٌ طويلٌ في أيِّ الأمرين يُقَدَّم: آلتكفير ـ كما يُؤْخذ من رواية عبد الرحمن ـ أم فعل ما هو خير ـ كما يُؤْخذ من رواية أبي موسى ـ؟.

وقد كفانا الإمام النووي المؤنة إذ جمع أطراف المسألة رحمه الله، فقال: «أجمعوا على أنه لا تجب على الحالف الكفَّارةُ قبل الحِنْث، وعلى أنه يجوز تأخيرها عن الحِنْث، وعلى أنه لا يجوز تقديمها على اليمين.

واختلفوا في جوازها بعد اليمين وقبل الحِنْث، فجوَّزها مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأربعة عشر صحابياً وجماعاتٌ من التابعين، وهو قولُ جماهير العلماء، ولكن قالوا: يُسْتَحبُّ كونُها بعد الحنث. واستثنى الشافعي التكفير بالصوم، فقال: لا يجوز قبل الحِنْث؛ لأنه عبادة بدنية، فلا يجوز تقديمها على وقتها كالصَّلاة والصوم.

وقال أبو حنيفة وأصحابه وأشهب المالكي: لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث بكلِّ حال. ودليلُ الجمهور ظواهر الأحاديث، والقياس على تعجيل الزكاة»[1].

وإذا جاز لنا أن نقرِّب شقَّة الخلاف ذهبنا إلى ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله من تخيير الحالف: إنْ شاء قدَّم الكفَّارة على الحِنْث، وإن شاء أخَّرها. فالتقديم والتأخير كلاهما في روايات الصَّحيحَيْن، وهي تقْتضي عدم الترتيب. فالأمرُ واسعٌ، ولا حَرَج فيه.

والذي يَقْصد إليه صاحبُ الشَّرع صلوات الله وسلامه عليه ألاَّ يتنطَّع مُتنطِّع بَدَرَتْ منه يمينٌ، فيجعلَها حائلاً دون البرِّ والتُّقى والإصلاح بين الناس. وأما طريق التحلُّل منها فسهلٌ يسير.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١١: ١٠٩.

سبب إيجاز المؤلف رحمه الله في استنباط الأحكام الفقهية

وبعد: فلعلَّ في هذه الإلمامة من الأحكام الفقهية التي تُستنبط من الحديث، مَقْنَعاً لأفاضل القُرَّاء الذين يرغبون إلينا أن نبسط الأحكام الشرعية في باب السنة، ونتوسَّع فيها إلى أمدٍ بعيد؛ وعُذْرُنا إليهم في الإيجاز أنَّ الأحكام مبسوطة في كتبها، ميسورة لراغبيها.

وأكبر العلم أنَّ من توسَّع في الأحكام قصَّر في نواحٍ مهمة من الأخلاق والآداب، والسياسة والاجتماع، ممَّا يجدر بخَلَفِ هذه الأمة أن يثيروها من كنوز السنة كما أثار سلفهم من قبل ثروتَها الواسعة في الفقه والأحكام.

* * * * *

تَخيُّر العاملين *

٧٥ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: دخلت على النبيِّ ﷺ أنا ورجلان من بني عمِّي، فقال أحد الرجُلَيْن: يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاَّك الله عزَّ وجل، وقال الآخر مِثلَ ذلك؛ فقال: «إنَّا، والله، لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه»[١].

٧٦ـ وعن أُسَيْد بنِ حُضَيْر رضي الله عنه أنَّ رجلاً من الأنصار خلا برسول الله ﷺ، فقال: ألا تستعملني كما استعملتَ فلاناً؟ فقال: «إنَّكم ستَلْقَون بعدي أَثَرةً، فاصْبِروا حتى تَلْقَوْني على الحَوْض». رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[٢].

سياسته ﷺ في تخيُّر عُمَّاله

عرضنا في حديث سابق لهدي النبيِّ ﷺ في تقدير الأكفاء من صحابته[٣]، والاستعانة بهم على بناء أمة قوية رشيدة، جديرة بأن تكون خيراً من أمم الأرض جميعاً ـ موضع القدوة والإمامة ـ مصداقاً لقول بارئها جلَّ ثناؤه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٤].

ونعرض في هذين الحديثين لهديه صلوات الله وسلامه عليه، وحُسْنِ

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢).

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٩) في كتاب الأحكام، ومسلم (١٧٣٣) في الإمارة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٩٢) في مناقب الأنصار، ومسلم (١٨٤٥) في الإمارة.

(٣) انظر: حديث حقوق الأكفاء ص٨٩٩.

(٤) سورة آل عمران: ١١٠.

سياسته في تخيُّر عُمَّاله، وتوجيه كلٍّ منهم إلى الوِجْهة التي أعدَّها الله لها، والانتفاعِ بالموهبة التي مازَهُ الله بها، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١). فهو صَلَواتُ الله وسلامُهُ عليه ـ بشهادة ربِّه ـ مُعلِّمُ أمَّته الأول، وإمامُها الأمثل، وقائدُها الأعلى، وأُسوتها الحَسَنَة، في كلِّ ما جاءت به شريعتُه الباقية الدائمة، وما دَعَت إليه رسالتُه العامة الخالدة: من إقامة دينهم، وولاية أمرهم، وسياسة دولتهم، ورعاية مصالحهم، في الحَضر والسَّفَر، والسلم والحرب . . .

أوفى الناس من الفضائل والمكارم

لا جَرَم أنَّ هذه أعباء جسام، وشؤون عظام، لابدَّ أن يعاون الإمامَ الأعظم فيها ولاةٌ وأمراء وقوَّاد وعمَّال، وقضاةٌ وهداة؛ يمثِّلونه في حفظ الدين وسياسة الدنيا العامة، وفيما وسَّد إلى كلٍّ منهم خاصَّة.

ولئن قضى ربُّك أن يجعل عباده درجات، وأن يقسم بينهم الكفايات، فقد قضى ـ بشهادة المعصوم ﷺ ـ أن يكون أصحابه أوفى الناس من الفضائل والمكارم حظاً، وأعظمهم سَداداً ورشداً، كما هدى خاتَم النبيين، لفضائل الرسل السابقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(٢)

معرفته ﷺ بأصحابه

وكان صلوات الله وسلامه عليه أدرى الناس بأصحابه، وأعلمَهم بما يصلُح

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٢) اقتباس من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

له كلٌّ منهم، وبما يجدُر به أن يتولاَّه ويُحسن البلاء فيه.

فرُبَّ شيخٍ وقورٍ يصومُ النهار ويقوم الليل، ويُسْتسقى بوجهه الغمام، لا رأيَ له في الحرب.

ورُبَّ فتىً مُحنَّك ضِرغَام، يقودُ الجيوش، ويخوضُ المعارك، وينازل الفُرسان والأبطال، لا خِبرة له بإدارة الأموال وحساب الخراج.

ورُبَّ قويٍّ في الدين، راسخ في اليقين، لا يغني في ولايةِ أمرٍ يسير، غناءَ مَنْ هو أقلَّ منه شأناً، وأضعف منه يقيناً.

ومن هنا كانت معرفة الرجال، وتوزيع الولايات والأعمال ـ على ما تقتضيه المصلحة الخالصة والسياسة الراشدة ـ من أخصِّ صفات الأئمة الهادين، والوُلاة المُقْسطين، وفي المقام الأول منهم أنبياء الله ورُسله؛ فقد عرَّفهم الله سبحانه طبائع النفوس، وسياسة البشر، وكلَّ ما تحتاج إليه الدعوة؛ ليدعوا إلى الله على بيِّنة وبصيرة.

خصلتان للنجاح في الأعمال

على هذا الأساس جرت سياسته ﷺ في شؤون الدولة الإسلامية. ومن عرف أنَّ خُلُقَه القرآن ـ يرضى برضاه ويسخط بسخطه، ويتأدَّب بأدبه ـ عَلِمَ أنَّ هديَهُ في الإمارة والولاية على الجيوش والبُلدان والصَّدقات وغيرها من مرافق الدولة، هو هديُ القرآن الكريم نفسه، الذي يفرض أوَّل ما يفرض تحقيق خُلَّتين لا مناصَ منهما للنجاح في الأعمال وأدائها على وجهها كاملةً غير منقوصة، تانكم القوَّة، والأمانة، وإن شئتم فقولوا: الحفظ، والعلم، كما قالت ابنة الشيخ الكبير[1] في شأن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ

---

(١) المشهور أنه النبيُّ المرسل شعيب عليه السلام، وعليه أكثر المفسرين (طه). والصحيح خلافه، انظر: التتمة الثانية ص٩٤٩.

ﵟٱلۡأَمِينُﵞ[١] وكما قال قبلها يوسُف الصِّدِّيق عليه السلام لِملك مصر: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[٢].

القوة والعلم

والقويُّ على الأمر الذي يُسند إليه هو العليم به، البصير بمَداخله ومخارجه، القديرُ على إحكام خطَّته، وإنفاذ سياسته، على مقْتضى العلم والحكمة، والمصلحة العامة، وإيثار الحقِّ والعدل على نفسه وأهله والناس أجمعين.

وليس القويُّ بالفظِّ الغليظ، ولا بالمتكبِّر الجبَّار، الذي يتسلَّح بسلاح العَظَمة والجبَروت ساعةً من نهار، ثم يلقيه مهزوماً أمام الشهوات والأهواء. ولقد رأينا رأيَ العين أنَّ أصلبَ القادةِ عوداً، وأقومَ الهداة طريقاً، أرقُّهُمْ قلباً، وألينُهُم جانباً، وأوْلاَهُم بالرعيَّة حباً ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[٣].

الأمانة والحفظ

والأمين على الأمر هو الحفيظ عليه، والحريصُ على أدائه كما حُمِّل، الذي يُدرك ـ بإخلاصه لله عزَّ وجل، ثم بصدقه ونصحه وكياسته ـ ما لا يدرك الخائن بإخلاصه لنفسه، ثم بكذِبه وغشِّه وشطارته[٤].

والإمام الأعظم ونوَّابه، ومَنْ يعاونه في سياسة الدولة من بطانته وأهل

---

(١) سورة القصص: ٢٦.

(٢) سورة يوسف: ٥٥.

(٣) اقتباس الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٤) شطر فلان على أهله من بابي قتل وظرف: ترك موافقتهم وأعياهم لؤماً وخُبْثاً (طه).

مشورته، أحوجُ الناس إلى التخلُّق بالقوة والأمانة، والحفظ والعلم، والتطبُّع بها حتى تكون منهم بمنزلة الخَليقة الثابتة، والسَّجيَّة المتأصِّلة، وإلاَّ فخيرٌ لهم أن يتنحَّوْا عن سياسة الأمة طائعين، قبل أن ينحِّيهم الأقوياء والأمناء يوماً مُكرَهين مَدْحورين.

عدم تولية العمل أحداً سأله

ومن دقائق السياسة النبويَّة التي يَجْحَدُها أو يجهلها من لا يقدِّر النبيَّ ﷺ قدْرَه، ألاَّ يولِّيَ العمل أحداً سأله أو حرص عليه، ولا سيما إن كان من يغني غَنَاءَهُ كفايةً ورُشْداً، بلْه مَن يفْضُله ويزيد عليه. وذوو الكفايات في العهد النبوي أكثر من أن يحصيهم العد.

اختلاف موقفه ﷺ مِنَ السَّائلين الإمارة

ومن هذه الدقائق التي تطالع الناظر في السنة النبوية، أنه صلوات الله وسلامه عليه إنْ آنس من السائل رِفقاً ولطفاً، وكان في سؤاله أقرب إلى العَرَض والاستشارة، تلطَّف في إجابته، وبيَّن له وَجْه المعذرة في الرد؛ وإن آنس منه إلحافاً وحِرصاً اقتصر على إجابته بمجرَّد الرد؛ ليعلِّمه أنَّ الحفيَّ بالسؤال والحريصَ على الأمر قلَّما يواتيه التوفيق والرُّشد، وأنَّ من آتاه الله الإمارة عن غير مسألة أعانه عليها، ومَنْ آتاه الإمارة عن مسألة وطلبٍ وكَلَه إليها، ومن وكَله الله إلى غيره فالويل له!.

وما قصَّة أبي موسى الأشعري، وأُسيد بن حضير الأنصاري إلاَّ شاهدان من الشواهد التي لا تُحصى على صدق هذا الهدي الحكيم النبوي:

قدم على أبي موسى رجلان من أبناء عمومته الأشعريين، فقالا: انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فإنَّ لنا إليه حاجة، ولم يُخبراه ما هي؟ ولم يسألهما عنها. وما إنْ ذهب بهما إليه صلوات الله وسلامه عليه حتى سألاه أن يؤمِّرهما على بعض البلدان التي جعلها الله تحت يده، فقال النبيُّ ﷺ: «ما تقول يا أبا موسى أو يا

عبد الله بن قيس؟» كأنه يلومه في أمرهما، فاعتذر له أبو موسى مُقْسماً بمن بعثه بالحقِّ إنهما لم يُطلعاه على ما في أنفسهما، فقبل عذره وصدَّقه، وقال لهما: «إنَّا لن نستعمل على عملنا مَنْ أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى»[1].

فبعثه على اليمن، ثُمَّ أتبعه معاذ بن جبل، فكان كلاً منهما على عمل مُستقلٍّ، وكانا يتزاوَرَان ويتعاوَنَان، ويتذاكران قيام الليل ...

ولم يولِّ هذين الأشعريَّيْن عملاً حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى صلوات الله عليه. وكذلك الحرص على الأمر مع الإصرار عليه لا يزيد طالبه إلاَّ بُعداً عنه.

فلقد كان خيراً منهما أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله عنه، وهو نفسه الذي خلا برسول الله ﷺ، وفلانٌ الذي يعنيه هو عمرو بن العاص رضي الله عنه، كما قال صاحب «الفتح»[2]، وكأنه كنَّى في الموضعين، ولم يصرِّح رمزاً إلى معانٍ من الآداب واللُّطف لا تخفى على ذي لب.

لم يكن أُسيدٌ حريصاً على طلب الوِلاية ولا مُصرًّا، بل كان إلى العَرض والاستشارة أقرب منه إلى الطلب والحرص، ولذا لم يجبه الرسول ﷺ بما أجاب به الأشعريَّيْن، وإنَّما أفهمه بلطف أنَّ مصلحة المسلمين العامة ـ وهي مُقدَّمة على المصالح الخاصة ـ تقتضي ألَّا يوليَه العمل، لا غَمْطاً لحقِّه، ولا نَقْصاً بفضله، ولا إيثاراً لغيره عليه، فقد عَلِم الناس من هم الأنصار، ومكانهم من رسول الله ﷺ؟! وقد كان أُسيد من أفاضلهم وأسبقهم إلى الإسلام، وحَسْبه شرفاً أنه أحد النقباء ليلة العقبة، وأنه ممَّن ثبت يوم أحد، وأن أبا بكر رضي الله عنه لَمْ يكن يقدِّم أحداً مِنَ الأنصار عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٣) في استِتَابَة المُرتدِّين، ومسلم (١٧٣٣) في الإمارة.

(٢) الفتح ٧: ١٤٧.

بَيْد أن الرسول ﷺ اختار عَمْراً لكفايته النادرة في الحرب، وعظيم بلائه ودهائه فيها، وسياسته في ولاية الأمور. وفتوحاتُه وبلاؤه في الإسلام أشهر مِنْ أنْ تُذكر.

المزيَّة لا تقتضي الأفضليَّة المطلقة

وما أجدره بشهادة عمر رضي الله عنه وقد رآه ذات مرة يمشي، فقال: ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشيَ على الأرض إلا أميراً.

وما كان اختياره ﷺ عمراً أو تأميره إيَّاه على العُمَرَيْن والسَّابقين مِنْ أصحابه ليقدِّمه عليهم في الفَضْل، إنما هي مصلحة المسلمين فوق كل شيء. ومن القضايا الثابتة: أن المزيَّة لا تقتضي الأفْضَليَّة[1].

من أعلام نبوَّته

ثُمَّ زاد أُسيداً طمأنينةً بأنَّ الإيثار للهوى وللحظوظ الدنيوية لن يكون في عهده ﷺ، وإنما يقع بعده حينما تفتح الدنيا، ويتنافسون فيها، وإنَّ عليهم حينئذٍ أن يصبروا ويرضوا، خشية الأحداث والفتن، وسيلقَونه ﷺ على حوضه المورود راضياً عنهم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، وإخباره ﷺ بهذا ونحوِه مِنْ أعلام نبوَّته.

مصلحة الأمة

هكذا كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون مِنْ بعده يُوَلُّون الأقوياء الأمناء شؤون الدولة، ويُؤْثِرون مصلحة الأمة على ما سواها، لا يبالون أن يكون الأمير صغيراً وكبيراً ما دام للإمارة أهلاً، وحَسْبنا ما قدَّمنا في أسامة بن زيد رضي الله

---

(١) انظر ما كتبته حول هذه العبارة في التتمة الأولى ص٩٤٧.

(٢) اقتباس من الآيتين ٨٨ ـ ٨٩ من سورة الشعراء.

عنهما، في الحديث السابق.

حَزم العُمَرَيْن وورعهما

غير أن العُمَرَيْن رضي الله عنهما، بالغا في الحزم والورع واتِّقاء الشبهات، فأغْلَقا في وَجْهِ الأهل والأقارب باب الولايات، حتى فتحه ذو النُّورَيْن رضي الله عنه، فلَمَّا عوتِب في ذلك أجاب بأن له في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، فقد ولَّى أُولي الكفايةَ مِنْ أقاربه، وبأنَّ الخليفتين بعده منعا أقاربهما في الله عز وجل، فإن طريقة الخليفتين أحكم وأحزم، وطريقة ذو النورين ـ على شاكلته ـ أرفق وأرحم. أما الرسول الأكرم ﷺ فهو المؤيَّد المعصوم الذي لن تحوم حوله شبهة، ولن يقترب مِنْ ساحته هوى.

خطر الحرص على الولايات والتنافس فيها، وتولية غير ذوي الكفايات

إنَّ الحرص على الولايات والتنافس فيها، وتولية غير ذوي الكفايات والأمانة، كل ذلك أدَّى إلى سَفْك الدماء، وهتك الأعراض، واستباحة الأموال، وظهور الفساد في البرِّ والبحر! بل أدَّى إلى قتل الكفايات وإهدارها، والطمع في رياسة الأعمال وسياسة الأمم بالرَّشا والنفاق والدهاء والمكر!!

متى يجب طلب الإمارة؟

وإنه ليؤذن لأُولِي الكفايات حينئذٍ أن يطلبوا الإمارة، ويحرصوا عليها قَصْداً إلى الإصلاح ما استطاعوا. بل يجب عليهم الطلب والحرص وجوباً لا رخصة فيه إذ لم يكن من ولايتهم بدٌّ. وحقٌّ عليهم أن ينبِّهوا على أنفسهم إذا لم يُنبِّه عليهم أحد.

ومن هنا قال يوسُف الصِّدِّيق عليه السلام لملك مصر: ﴿ٱجۡعَلۡنِى عَلَىٰ

خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[١]. وربَّما أوحى الله إليه أن اطلب ذلك من الملك لتؤدِّي رسالتك كما أدَّاها آباؤك من قبل، وقد جعلتُ الملكَ طَوْعَ يمينك جزاء ما اتَّقيت وصَبَرت!.

بل إنَّ حقاً محتوماً على القادرين من الأمة، وأُولِي الغيرة فيها والحرص عليها أن ينقذوها من الفساد والطغيان ما استطاعوا إلى الإنقاذ سبيلاً، ثم لا يمكِّنوا من وِلايتها ورعايتها إلا قوياً أميناً حفيظاً عليها، يهديها إلى الحق، ويُبصِّرُها طريقَ الرُّشد، ويفتحُ لها أبواب المَجْد والكرامة ...

اختيار العاملين المخلصين

وعلى وليِّ الأمَّة الذي تختَارُه قائداً لها وإماماً ألاَّ يألوا جهداً في اختيار العاملين المخلصين في نُصحه وإعلاء كلمة الله فيها، ولن يكون إلاَّ كما وصف الفاروق رضي الله عنه إذ قال: «لا يصلح أن يليَ أمور الناس إلاَّ حصيفُ العقل، وافر العلم، قليل الغِرَّة[٢]، بعيد الهمة، شديد في غير عنف، ليِّن في غير ضعف، جواد في غير سرف، لا يخاف في الله لومة لائم».

واستشار عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعض صفوته في قومٍ يستعملهم، فقال له: عليك بأهل العذر، قال: «ومن هم»؟ قال: الذين إن عدلوا فهو ما رجوتَ، وإن قصَّروا قال الناس: اجتهد عمر.

خيار الولاة وشرارهم

والقول الفَصْل في خيار الوُلاة وشرارهم، ما رواه مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خيار أئمَّتكم: الذين

---

(١) سورة يوسف: ٥٥.

(٢) الغِرَّة: الجهل والغفلة.

تحبُّونهم ويحبُّونكم، وتصلُّون عليهم، ويصلُّون عليكم[١]، وشرار أئمتكم: الذين تُبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم». قال: قلنا: يا رسول الله، أفلا نُنابذهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»[٢].

* * * * *

---

(١) أي: تدعون لهم ويدعون لكم.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

الجزاء من جنس العمل *

٧٧ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ تَحَلَّم بحُلُمٍ لم يَرَهُ كُلِّفَ أن يَعْقِد بين شَعِيرَتَيْن، ولن يَفْعَلَ؛ ومن استَمَعَ إلى حديثِ قوْمٍ وهم له كارهون ـ أو يَفرُّون منه ـ، صُبَّ في أُذُنه الآنُكُ يوم القيامة، ومَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ، وكُلِّفَ أن يَنْفُخَ فيها، ولَيْسَ بنافخ».

رواه البخاري[1]

المفردات:

تَحَلَّم: تكلَّف الحُلْم وافتراه. والحُلْم بضم الحاء وسكون اللام، وقد تُضمُّ أيضاً: ما يراه النائم، ولكن غلبت الرُّؤْيا على ما يراه من الخير والشيء الحَسَن، وغلبَ الحُلْم على ما يراه من الشرِّ والقبيح والأضْغاث، وهي الأخلاط التي لا تعبير لها.

والمراد بالعقد بين الشعيرتَيْن: فَتْل إحداهما بالأخرى، وربطها بها، وهي من قبيل المستحيل.

و«أو»: في مثل هذا الموضع؛ للشكِّ من الراوي في أيِّ الجملتين قال النبيُّ ﷺ، وهي من دلائل التحرِّي في الرواية، والعناية بضبطها، والمحافظة على ألفاظ الحديث.

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد السابع عشر (١٣٦٥).

(١) في كتاب التعبير (٧٠٤٢) باب من كَذَب في حُلُمه.

والآنُك ـ بالمد وضمٍّ النون ـ: الرَّصاص المُذَاب.

والمراد بالنفخ في الصُّورة: إحياؤها، وهو من باب المستحيل أيضاً.

* * * * *

موبقات ثلاث

هذه موبقاتٌ ثلاث، نهى عنهنَّ النبيُّ ﷺ فيما نهى، وقَرَنَ كلَّ واحدة منهنَّ بجزائها؛ ليكون ذلك أبْيَن للإثم، وأبلغَ في الزَّجر، وأقْطَعَ للمعذرة، وأجْدر ألا يَقْربها مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ومَنْ كان يخشى الفضيحة بين يدي الله ورسوله.

المُوبقة الأولى: الافتراء في المَنَام، وإراءة العَيْن ما لم تره، وهذا من أقبح فنون الكذب وأشدِّها، وأبغضها عند الله عز وجل.

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن من أفْرى الفِرى[1] أن يُرِيَ عينه ما لم تر»[2].

دَرَكات الكذب

والكذب دَرَكات بعضها أسفل من بعض، فأهونُه ـ وإنْ كان عظيماً ـ ما كان على الناس، حاشا النبيَّ ﷺ، وتختلف شناعتُه باختلاف آثاره وما يقصد منه، وأشدُّه ما كان على الله ورسوله.

---

(١) جمع فرية، وهي: الكذبة العظيمة التي يُتَعَجَّب منها. ونسبة الكذبات إلى الكذب للمبالغة، نحو قولهم: ليل أليل(طه).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٣).

فأما الكذب على الرسول ﷺ ـ وهو صاحب الشَّرع ـ فهو كذبٌ في دين الله، وجُرأةٌ على رسول الله، بل هو كذبٌ على الله عزَّ وجل. وليس المجال هنا لبسط القول في خطر هذا الكذب ووخيم آثاره[١].

وأما الكذب على الله سبحانه ـ ومنه التحلُّم ـ فهو أشدُّ جُرماً، وأعظم قُبحاً. وما ظنُّك بمَنْ لا يبالي بالفِرْية على مَلِك الملوك، ومَنْ يعلمُ السِّرَّ وأخفى؟.

وإنّما كان التحلُّم من قبيل الكَذب على الله تعالى؛ لأنَّ الرؤيا الصادقة ـ كما ثبت في الصِّحاح[٢]ـ جزءٌ من النبوة[٣]. والنبوَّة لا تكون إلا وحياً، والكاذب في رؤياه يزعم أنه ـ تعالى ـ أراه ما لم يُره، وأعطاه جُزءاً من النبوة لم يعطه إيَّاه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾[٤].

من أجل ذلك كان الكذب في الرؤيا أعظم إثماً من الكذب في اليقظة، وإنْ كان الكذبُ في اليقظة ـ في بعض أحيانه ـ أشدَّ ضرراً وأعظمَ خطراً.

ولمَّا تكلَّف المُتَحَلِّم الكَذِبَ على الله في الدنيا، كَلَّفه الله في الآخرة ضرباً من ضروب المستحيل، إذ يُدفع إليه شعيرتان ليعقدَ بينهما وليس بعاقد أبداً، وإنما هو التعذيب بهذا النوع جزاءاً وفاقاً.

ولعلَّ في إيثار الشَّعر على غيره ـ والعلمُ عند الله ـ إشعار المُتَحَلِّم بأنه افترى الكذب في شعوره، فكانت عاقبته نكالاً وَخِزْياً.

---

(١) انظر شرح حديث: «من تعمَّد عليَّ كذباً..» في مَثَل من الحَيْطة والحذر في الرواية.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ٩: ٣٠ ـ ٣١ الطبعة الأميرية (طه).

(٣) الرؤيا جزءٌ من النبوة حقيقة إن كانت من نبيٍ، وإلا فهي جزءٌ على المَجَاز، لأنها تشبه جزء النبوَّة في الصِّدق والإخبار بالمغيّبات (طه).

(٤) اقتباس من الآية ٩٣ من سورة الأنعام.

والموبقة الثانية : الاستماع إلى حديث قوم وهم لذلك كارهون.

صفةٌ من أقبح الصفات، وعادةٌ من أسوأ العادات، مبعثها دناءة في النفس، وتبلُّد الحسِّ، وشَغَفٌ بالتطلُّع على العورات والأسرار.

ولو فهم هذا المُتَسَمِّع لأدْرك أنَّ القوم ما أسرُّوا قولَهم أو انتحوا به ناحية؛ إلا لرغبتهم في كتمان الحديث وطيِّه عنه.

ومن أجل ذلك لم يكن على مَنْ تَسَمَّع لقوم حَرَجٌ، إذا جَهَروا بالحديث، أو دَعَتْ حالُهم إلى المُشَارِكة فيه.

فأمّا ذلك المُتَطفِّل الذي انتهكَ حُرُماتِ الناس، وَصَرَفَ نعمة السَّمع إلى غير ما خُلقت له، فجزاؤه العدل أن تُملأ أذنه بالرصاص الذي أعدَّه الله له، كفاءَ ما استَرَقَ من السمع وانتهك من الحرمة: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

آدابٌ كريمة وأخلاق قويمة

لقد كان النبيُّ ﷺ حريصاً على شعور الفرد والجماعة، فحفظ لكلٍّ حقاً وفرض على كلٍّ أدباً، وجَعَل من أدب الفرد ألاّ يستمع إلى حديث الجماعة إلا بإذنهم[2]، كما فرض على الجماعة ألا تتناجى دون واحدٍ إلا بإذنه[3]؛ لأنَّ ذلك يُحزنه ويحمله على سوءِ الظنِّ بجماعته، ويُوقد فيه من نيران الألم والحقد ما يهدم الكيان ويُصَدِّع البنيان!.

---

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) للحديث الذي يشرحه المؤلف: «..ومن استمع إلى حديث قوم، وهم له كارهون ـ أو يفرُّون منه ـ، صُبَّ في أذنه الآنُك يوم القيامة».

(٣) روى البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣) (٢١٨٤)، ولفظه عند مسلم من حديث ابن مسعود مرفوعاً قال ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يُحزنه».

آدابٌ كريمةٌ وأخلاقٌ قويمةٌ، يفرضها النبيُّ ﷺ على أمَّته؛ لتدوم لها وَحدتها قويةً نقيةً سليمة.

وثالثة الأثافي: تصوير الصور الحيوانية ذوات الروح.

وقد جاء في ذمِّ المُصَوِّرين أحاديث كثيرةً لا تدع للشكِّ مجالاً في أنَّ التصوير من أُمَّهات الكبائر؛ لأنَّه مُضَاهاةٌ للخالق عزَّ وجل، ومحاولةٌ للتشبُّه به سبحانه، وذريعةٌ إلى عبادة غيره، وإن لم يقصد المُصَوِّر شيئاً من ذلك.

مفاسد التصوير

وقد تضافرت الأخبار بأنَّ قوم نوح عليه السلام ما عَبَدوا أصنامهم ـ ولا سيَّما وَدّاً وسُواعاً ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً ـ إلا مِنْ بعد أن صُوِّروا تبرُّكاً بهم، فلمَّا طال عليهم الأمد عُبدوا من دون الله عزَّ سلطانه!.

هذا قليلٌ من كثير من مفاسد التصوير في العقيدة، وأما مفاسده في الأخلاق والآداب، فَحَسْبُكَ أنه العامل الأول في انحلال الرجولة، وإماتة الغَيْرة، وإحياءِ الخَلاعة، وإيقاظِ الفتنة، إلى مَخَازٍ كثيرة استطار شرُّها، وأعيا علاجها!.

ومن العَجَب العاجب أن تَستمرئ شرذمةٌ من الناس ـ أو أشباه الناس ـ هذه المَخَازي، فتدعو إليها، وتُشَجِّع عليها، وتجد من العابثين والماجنين مرتعاً خصيباً، ثم تقحم العلم والذوق في هذا السُّخف، الذي يتبرّأ منه العلم والذوق والمروءة!.

الترخيص في التصوير الذي تدعو إليه الضرورة والحاجة

نعم إنَّ دين الله ـ وهو العام الخالد الذي ضمن للناس سعادتهم، وَوَسع حاجتهم إلى أن تقوم الساعة ـ لا يقف عقبةً في سبيل العلم النافع والمصلحة الخالصة من شوائب الضلال والهوى.

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت ألعب بالبنات عند

رسول الله ﷺ، وكان لي صُوَاحبُ يلعبن معي»[١] فإذا رخَّص رسول الله ﷺ في تصوير اللعب والتدريب بها، أفلا يُرخِّص في التصوير الذي تدعو إليه ضرورة المجتمع وحاجاته؟!.

ألا إنَّ يُسْرَ الحنيفيَّة السَّمْحَة، ورعايتَها لمصالح المجتمع لا يَأْبيان التصوير، للمقاصد العلمية الصحيحة، كتعليم الطب والجراحة، وصَوْن الأمن وما إليها، فَمَنْ أفرط أو فرَّط فقد تعدَّى حدودَ الله، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٢].

وقد كَـفَتْنا مجلة الأزهر مؤونة البسط في أحكام التصوير وتفصيله[٣]، ولا نحبُّ أن نعيد حديثاً.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٠)، ومسلم (٢٤٤٠).

(٢) اقتباس الآية الأولى من سورة الطلاق.

(٣) المجلد الأول، ص٧٨١ـ ٧٩٠، والمجلد الثاني عشر، ص٣٢٨ـ ٣٣٢ (طه).

مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها *

٧٨ـ عن النُّعمان بن بَشير رضيَ الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حُدود الله، والواقعِ فيها، كَمَثَل قومٍ استَهَمُوا على سفينة، فأصابَ بعضُهم أعلاَها، وبعضُهم أسفلَها. فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء مرُّوا على مَنْ فَوْقَهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نصيبنا خَرْقاً، ولم نُؤْذِ مَنْ فوقنا، فإنْ يتركوهم وما أرادوا هَلَكُوا جميعاً، وإنْ أخذوا على أيديهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعاً». رواه البخاري[1].

المفردات:

الحدُّ: المنع، ومنه سُمِّي البوَّاب الحداد، وكذلك السَّجَّان، والحاجز بين الشيئين؛ لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدَّى أحدهما على الآخر، ومنتهى الشيء وغايته؛ لأنه يردُّه ويمنعه عن التمادي، هذا في لسان العرب.

وأما في لسان الشرع: فقد أُطلقت الحدود على العقوبات المُقدَّرة الرادعة عن المحارم المغَلَّظة، كحدود الزِّنى والسرقة وشرب الخمر، ومن هذا قول النبيِّ ﷺ لِحِبِّه أسامة: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!» يعني في قطع المرأة التي سَرَقت، وقصَّتُها في الصحيحين[2].

وأُطلقت على محارم الله ومعاصيه؛ لأنَّ الله منع منها؛ أو لأنه جعلها

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد السابع عشر (١٣٦٥).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٣) في كتاب الشركة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) في كتاب الأنبياء، ومسلم (١٦٨٨) في الحدود.

نهايات لمَا أباح لعباده، فلا يجوز لهم أن يعتدوها، بل لا ينبغي لهم أن يقربوها؛ لأنَّ من رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه[١].

من هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «إني آخذٌ بحُجَزكم،[٢] اتَّقُوا النار، اتَّقُوا الحُدود» قالها ثلاثاً. أخرجه الطبراني والبزّار[٣].

وأُطلقت الحدود كذلك على جملة ما أذن الله لعباده فيه، سواء أكلَّفهم إيَّاه أم أباحه لهم، وليس وراء ما حدَّ لهم ممَّا أذن فيه إلا ما حظر ومنع.

وقد تُطلق على جملة ما شرَعَ الله لعباده ممَّا أمر ونهى، وأحلَّ وحرَّم، ومنه

---

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، والترمذي (١٢٠٥) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) المراد: مانعكم وحافظكم من الهَلَكة ، وهو من الكنايات البديعة، وأصل الحجزة: معقد الإزار والسراويل (طه).

(٣) أخرجه أحمد ١ :٢٥٧ (٢٣٢٧) بلفظ: «أنا فرطكم على الحوض، فمن وَرَدَ أفلح، ويؤتى بأقوام، فَيُؤْخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أيْ ربٍّ، فيقال: مازالوا بعدك يرتدُّون على أعقابهم» وإسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سُلَيْم. وقد جاء بإسناد صحيح مطوَّلاً في «المسند» برقم (٢٠٩٦)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» ١١: ٣٣ (١٠٩٥٣) و«الأوسط» (٢٨٧٤) ولفظه من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إني آخذ بُحَجزكم، أقول: اتَّقوا النار، اتَّقوا الحدود، فإذا متُّ تركتكم، وأنا فَرَطكم على الحوض، فمن وَرَدَ فقد أفلح، فيُؤتى بأقوام، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: ربِّ. فيقول: إنهم لم يزالوا بعدك يرتدون على أعقابهم»، ورواه البزّار، كما في «كشف الأستار» ٤: ١٧٦ (٣٤٨٠)، لكن ليس فيه اللفظة المذكورة: «اتقوا الحدود». وفي إسناده ـ كما قال الهيثمي في «المجمع» ١٠ :٣٦٤ـ: ليث بن أبي سُلَيْم، وهو صدوق في نفسه، لكن ضعيف الحديث، لاختلاطه الشديد، وإن كان الهيثمي يتسامح فيوثِّقه، لكن يُعِلُّ حديثه بالتدليس.

ورواه البزار في «مسنده» ١ :٣١٤(٢٠٤) في مسند عمر بن الخطاب، لا ابن عباس رضي الله عنهم، وفيه طول، وأوَّلُهُ: «إني مُمْسِك بحُجَزكم، هلمَّ عن النار، وأنتم تهافتون فيها..» وإسناده حسن.

قوله تعالى في الثناء على المؤمنين الصَّادقين الذين اشترى منهم أنفسم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[1]. ونرى أنَّ هذا أنسب المعاني الأربعة هنا، وأوْلاها بالمُراد في هذا الحديث[2].

والقيام على حدود الله: رعايتُها وحفْظُها، وإحلالُ ما أحلَّ، وتحريمُ ما حرَّم منها، ويتمثَّل ذلك جلياً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير.

والوقوع فيها: التهاون بها والتَّردِّي في مخالفتها.

والاستهام على السفينة: الاقْتراعُ بضرب السِّهام ليأخذَ كلٌ نصيبه منها.

وجمهور العلماء على جواز القُرعَة والاحتكام إليها، ولذا استدلَّ البخاري بهذا الحديث على القُرعَة بين الشركاء عند القسمة.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أراد سفراً أَقْرعَ بين نسائه، فأيَّتُهُنَّ خرج سهمُها خَرَج بها معه[3]، وليس هذا مجال التبسُّط فيها[4].

---

(١) سورة التوبة: ١١٢.

(٢) أطلنا بعض الشيء في تفسير بعض الحدود لأهميتها، وكثرة ورودها في الكتاب والسنة، ومن أراد المزيد فليرجع إلى «لسان العرب»، وإلى «جامع العلوم والحكم» لابن رجب [١ :٢٠٧ـ٢١٠](طه).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٤) وقد وفَّى الكلام على القُرعة وحكمها وكيفيتها ابن القيم في كتبه «الطُرق الحكمية» (طه).

الأخذ على اليد: المنعُ، يُقال: أخذتُ على يد فلان، إذا منعته عما يريد، كأنك أمسكت يده.

* * * * *

ركاب أعلى السفينة وأسفلها

يمثِّل النبيُّ ﷺ هُداة الأمة وقادتها، وأُولي الرأي فيها، من العلماء، العاملين، والحكام المصلحين، والحكماء الراشدين، بمن يركبون أعلى السفينة ويُشْرفون على مَنْ تحتهم من الأوْشَاب والأخلاط، ومَن يُخشى منهم أن يَعثَوا في أسفل السفينة فسادا، أو يُحدثوا بها حَدَثاً، فيهلك مَنْ فيها جميعاً. اللهمَّ إلا أنْ يُراقبَها أولئك عن كَثَب ويفطنوا لِعَبَثهم وفسادهم، ويأخذوا على أيديهم كما يأخذ الأب الرحيم على يد ولده الطفل، وقد همَّ أن يلعب بالنار، فيحرق نفسه وأهله في غَرارة وسذاجة، وكما يحول الوصيُّ الصالح بين السفيه وشهواته الجامحة ورغباته الطائشة، وقد أخذ المال يُبَدِّده يميناً وشمالاً، وهو لا يقدِّر سوء العاقبة، ولا يحسب لنفسه ولا لذويه حساباً.

مسؤولية الخاصّة وأولي الأمر

وإذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يُعفي العامة والمفسدين في الأرض من تَبِعَة الإثم وعاقبته، فإنه بلا رَيْبَ يُحمِّل الخاصَّة وأُولي الأمر أكبر نصيب منها، فعليهم أن يضربوا على أيدي المعتدين، وأن يدعوهم إلى التي هي أقوم، وألا يُمكِّنوهم من العَيْث والفساد، والتهاون بحدود الله وشرائعه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. فإنْ هم فعلوا أيَّدَهُم الله وسَدَّدهم، وفاز الفريقان بالأمن والطُّمأنينة والسَّعَادة في الدارَين، وإنْ هم قَعدوا عن هذا الواجب، وألقَوْا حبل هؤلاء الضالِّين على غاربه، وتركوهم وما أرادوا، هلك الفريقان

جميعاً، وباؤوا بغضب الله وسخطه في الدنيا والآخرة. هؤلاء بما كسبت أيديهم، وأولئك بسكوتهم على المنكر ورضاهم عنه. وقد قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]. حذَّر عباده جلّ شأنه أن يقعوا في بلاء المعصية وعقوبتها العامة التي تجرف مرتكبها والساكت عليها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله عزّ وجل المؤمنين ألاّ يقرُّوا المنكر بين أظهرهم، فيعَمَّهم الله بالعذاب، فيصيب الظالم وغير الظالم.

وروى أبو داود عن عَديٍّ بن [ابن عديٍّ] بن عَميرَة الكندي، [عن العُرس][2] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا عُمِلت الخطيئةُ في الأرض، كان مَنْ شَهِدَها فأنكرها كمَنْ غاب عنها، ومَنْ غاب عنها، فَرَضِيَها كان كمَنْ شَهِدَها»[3].

عاقبة السُّكوت عن المنكر والرضا به

ومن البلايا العامة ـ ونعوذ بالله منها ـ أن تشيعَ في الناس شائعةُ السكوت عن المنكر، بل الرضا عنه والطمأنينة إليه، حتى لقد أوشك أن يكون المعروف منكراً، والمنكرُ معروفاً. يقول الضعيف: ليس لي من الأمر شيء، ويقول القوي: نحن في زمن الحرية، وكلُّ امرئ وما يختار لنفسه! وهكذا ضاعت الأمة بين اثنين كان عمر رضي الله تعالى عنه يبرأ إلى الله منهما: جَلِدٍ فاجر، وضعيفٍ ثقة.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٥.

(٢) سقط من الأصل، وهو في سنن أبي داود. والعُرس بن عَميرة الكندي، صحابيٌّ، روى عنه ابن أخيه عديُّ بن عدي. كما في «الكاشف» (٣٧٦٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٤٥) في كتاب الملاحم.

وكان حقاً على الفريقين أن ينظروا في مغبَّة السكوت على المنكر، وسوء عاقبته، وأنها لا تقف عند هلاك الظالمين خاصّة.

وإذا كان من القسوة أن يُترك المرءُ غيرَه للهلاك، وهو قادرٌ على دفعه عنه، فمن الحُمْق والسُّخْف أن يُهلك نفسَهُ معه طائعاً مختاراً!!.

وإنَّ لنا في الذين كفروا من بني إسرائيل لَعبرةً؛ لعنهم الله على لسان أنبيائهم ومَقَتَهم، بتعدِّيهم حدود الله، وسكوتهم عن المنكر حتى باض وعشَّش وأفرخ، وانتشر في الأرض فملأها ظلماً وظلاماً وزُوراً وبهتاناً!.

قصَّ اللهُ ذلك على رسوله، وبيَّنه الرسول ﷺ لأمته، حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم، ثمَّ ليعلموا أنَّ النهيَ عن المنكر، حفاظُ الدين، ورباطُ الآداب والفضائل.

روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوَّل ما دخل النقص على بني إسرائيل: أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتَّقِ الله ودَعْ ما تصنع، فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَهُ وشريبَهُ وقعيدَهُ[1]؛ فلمَّا فعلوا ذلك، ضرب الله قلوبَ بعضِهم ببعضٍ، ثمَّ قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[2].

ثم قال ﷺ: «كلا والله، لتأمرنَّ بالمعروف، وتنهونَّ عن المنكر، ثم لتأخذُنَّ

---

(١) الأكيل والشريب والقعيد: المؤاكل والمشارب والمجالس، وهذا البناء فعيل بمعنى مُفاعِل.

(٢) سورة المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

على يد الظالم، ولتأطِرُنَّه على الحقِّ أطْراً، ولَتَقْصُرُنَّه على الحقِّ قَصْراً[1]، أو ليضْربنَّ الله قلوبَ بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم»[2].

ولقد رأينا من آثار غضب الله ـ وعياذاً به ـ كالذي رأى بنو إسرائيل أو قريباً منه، فاللهمَّ توبةً وهدايةً، إنك على كلِّ شيء قدير.

استدلال خطأ

وطائفة أخرى تتباطأ عن المنكر أن تدفعَه، وتنهى عنه، مُسْتَنِدَةً إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾[3]. وَحَسْبُنا أن نُذكِّرهم في هذه الآية بما قاله أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، إذْ صَعِد على منبر رسول الله ﷺ، فَحَمِدَ الله تعالى، وأثنى عليه، ثم قال: «أيُّها الناس: إنكم لَتَتْلون آيةً من كتاب الله سبحانه، وتعدُّونها رخصة، واللهِ ما أنزل الله تعالى في كتابه أشدَّ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ﴾[4] الآية، والله لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو لَيَعُمَّنَّكم اللهُ تعالى بعقاب»[5].

---

(١) لتأطِرُنَّه، الأطْر: العَطْف، أي: لتعطفُونَهُ وتردُّونه إلى الحقِّ الذي خالفه.

ولتقْصُرُنَّه، القَصْر: الحبْس، يقال: قَصَرْتُ نفسي على الشَّيء، أي: حَبَسْتُها عليه. كما في «جامع الأصول» ١: ٣٢٩.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وفي سنده عند الجميع انقطاع، لأن أبا عبيدة بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من أبيه كما نصَّ عليه غير واحد. وفي الباب عن أبي موسى عند الطبراني، قال الهيثمي في «المجمع» ٧: ٢٦٩: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) سورة المائدة: ١٠٥.

(٤) سورة المائدة: ١٠٥.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الطبري في «تفسيره» ١١: ١٠٥ (١٢٨٧٧) بتحقيق أحمد شاكر.

فالترخيص في عدم النهي عن المنكر بهذه الآية، وضعٌ لها في غير موضعها، كما جاء في رواية أخرى عن الصِّدِّيق رضي الله عنه[١]. وإنما يلزمُ المرءُ نفسَه بعد أن يؤدِّيَ ما فرض الله تعالى عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير.

أما بعد؛ فإنه لن تقومَ لأمةٍ قائمةٌ إلا إذا تَعَاضَدَت وتآزَرَت، وتعاونت على البرِّ والتقوى، ولم تتعاون على الإثم والعدوان، وكانت كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً.

هذا ما شهد به التاريخ، وأيّدته المشاهدات، وهذا ما أقرَّه العلم والاجتماع، وهذا ما قرَّره مَنْ لا ينطق عن الهوى منذ أربعة عشر قرناً.

* * * * *

---

(١) أخرجه أحمد ١: ٢ (١) و٥ (١٦) و٧ (٢٩)، وأبو داود (٤٣٣٨) في الملاحم، والترمذي (٢١٦٨) في الفتن، و(٣٠٥٧) في التفسير، وابن ماجَهْ (٤٠٠٥) في الفتن، وابن حبان (٣٠٤). قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن صحيح، وقد رواه غير واحد عن إسماعيل بن أبي خالد نحو هذا الحديث مرفوعاً، وروى بعضهم عن إسماعيل، عن قيس، عن أبي بكر قولَهُ، ولم يرفعوه.

عقوبة السَّارق *

٧٩ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ الله السَّارق، يَسْرِقُ البيضةَ فَتُقْطَعُ يده، ويَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يدُه». رواه الشيخان[1].

المفردات:

اللعن من الله: الطَّرد والإبْعاد من الرحمة.

السرقة: أخذُ المال من حِرْزه ـ خفْيَةً ـ بغير حق.

والبيضة والحبل: معروفان. والمراد تحقيرُ أمر السَّرقة، وأنَّ سرقةَ الشيء الحقير ولو لم توجب في الشرع قطعاً، تجرُّ إلى سرقة ما يُوجب القطع والنكال. وشذَّ من قال: إنّ المراد بالبيضة بيضةُ الحديد، وهي ما يضعها المقاتل على رأسه وقايةً وجُنَّة، وبالحبل حَبل السفينة وما أشبهه.

* * * * *

جريمة وضيعة

السَّرقة ـ ونعوذ بالله تعالى ـ من الجرائم الوضيعة، التي اتَّفقت الشرائع والقوانين، بل الفِطرُ والعقول، على ذمِّهْا، وتهجينِ أمرها، وتحقير مرتكبها؛

---

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد السابع عشر (١٣٦٥ =١٩٤٦).

(١) رواه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧) كلاهما في الحدود.

ذلك بأنه لا يتردَّى فيها إلا مَنْ كان دنيءَ النفس، وضيعَ القدر، ساقطَ المروءة، قد هوى من أوْج الإنسانية إلى دَرْك الحيوانية، فكان وبالاً على نفسه، وشراً على بني جنسه.

حكمة الشريعة في عقوبة السارق

من أجل ذلك كانت عقوبةُ السارق والتنكيلُ به من الأمور التي فَرَضَتْها القوانينُ الإلهيَّة والوضعيَّة؛ حمايةً للمجتمع من عَبَثِ العابثين، واغتيالِ الخَوَنة الآثمين.

غير أنَّ شريعةً من الشرائع لم تبلغ من الحكمة والعدل في التأديب والزَّجر، وحماية الفرد والجماعة من عدوان هذه الجريمة، ما بلغت الشريعة الإسلامية؛ لعن الله السارق والسارقة على لسان رسوله، وأمر بقطع أيديَهما في كتابه(١)، ووسمَهما بِمَيْسَم الهَوَان في الدنيا والآخرة. فَمَنْ ذا الذي يرى هذا النَّكال الأليم، والخزي المقيم، وتُحدِّثه نفسه باجْتراح تلك المُوبقة فَضْلاً عن التردِّي فيها؟! اللهمَّ إلا مَنْ كان بترُه والاعتبارُ به خيراً له وللجماعة من بقائه سليماً!.

ولا نريد أن نطيلَ القول في حكمة قطع يد السارق وآثاره، ولا فيما جرَّه التهاون بحدود الله من اضْطرابٍ وفوضى، وذُعر ومخافة، فإنّنا جميعاً نرى ذلك رأيَ العَيْن، ونلمسُهُ لمْسَ اليد.

عقوبة السارق قديماً وحديثاً

بَحْسبنا أن نُجْمل القول إجمالاً في أحكام السَّرقة قديماً وحديثاً؛ لِتستبين حكمة الإسلام ورحمتُه وعنايتُه بالإصلاح فيما فَرَض من عقوبة، وإن تخيَّلتها الأهواء والشَّهوات وحشية قاسية! ثم لِيَعْلَمَ المتعنِّتون أنَّ الإسلام هو دينُ الله

---

(١) قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

العامُّ الخالد، الكفيلُ بحاجاتِ الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

كانت عقوبةُ السارق في شريعة إبراهيم ومَنْ بعدَه من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام أن يُسْتعبد ويُسْترق، وبهذا أجاب أبناء يعقوب عليهم السلام لمَّا سُئلوا عن جزاء من سَرَق صُواع[1] الملك ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾[2].

وكانت عقوبته في أهل مصر أن يُضربَ ويغرَّم ضعْفَي ما سرق، ولكنَّ الله تعالى علَّم يوسفَ عليه السلام من حُسْنِ الحيلة ولطفِ السياسة أن يأخذ أخاه عنده بِشرْعة بني إسرائيل، لا بِشرْعة الملك، وذلك قوله جل ثناؤه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾[3].

وكانت عقوبته عند قدماء الرومان أن يُقتلَ إذا عُثر عليه، وهو متلبِّس بالجريمة[4].

وكان جزاءُ السَّارق في حكومة العرب ـ ولاسيما قريشاً ـ أن تُقطعَ يده في قليل الأموال وكثيرها، ويُقال: إنَّ أوَّل مَن قَطَعَ هو الوليد بن المغيرة، ثمَّ جاء الإسلام فقرَّر هذه العقوبة وثبَّتها وعدَّلها، إذ جعلها في ربع دينار[5] فصَاعداً، أو ما يساوي ذلك من الفضة والعَرَض، ثمَّ حَاطَها بحيطةٍ بالغة حكيمة، فلم يقطع في سَرقةٍ، للسارق فيها شائبةُ ملكٍ أو شبهة، ولا في زمن جَدْبٍ أو مَجَاعة على تفصيل في ذلك، كلُّه معروفٌ في موضعه.

---

(١) لغة في الصاع الذي يُكال به، وقيل: هو الإناء الذي يُشرب فيه (طه).

(٢) سورة يوسف :٧٥. لا ريب أن شريعة الله تعالى لكلِّ أمة هي غاية الحكمة والمصلحة لها حتى جاءت خاتمة الشرائع صالحةً لكلِّ زمان ومكان إلى يوم القيامة (طه).

(٣) سورة يوسف: ٧٦.

(٤) بذلك أنبأنا عَلَمٌ من أعلام القانون في مصر: علي بك بدوي (طه).

(٥) لأن القطع في أقل من ذلك حَيْفٌ تَتَنزَّه الشريعة عنه، الدينار يساوي ثلاثة أخماس الجنية المصري الذهبي تقريباً (طه).

وإذا صحَّ ما نقلناه عن العرب في القطع، فلا عَجَبَ أن يُقرِّره الإسلام وَيُعدِّله؛ لأنه لم يجيء هادماً لكلٍّ ما قبله، وإنما جاء مُصلحاً لما فَسَد، ومكمِّلاً لما نقص، ومثبِّتاً لمكارم الأخلاق، وهادياً للتي هي أقوم.

شبهات أصحاب القوانين الوضعية

ولم تزل الحكومة الإسلامية قائمةً على حدود الله، متمتِّعةً بآثارها من الأمن والطمأنينة والرَّخاء والسكينة، حتى جاءت القوانين الوضعية فَطَغَت عليها، واستَبْدَلَت بالقطع في السَّرقة تغريماً أو حَبْساً على حسب الجريمة كمّاً وكَيْفاً، مُحتجَّةً بأنَّ القطع قَسْوةٌ لا تليق بعصر المدنية، ولا بالكرامة الإنسانية، وبأنَّ فيها تعطيلاً للأيدي العاملة، وتكثيراً لطائفة الزَّمْنَى والمُشَوَّهين.

هذه خلاصة ما يستند إليه أصحابُ الشرائع الوضعية، ومَنْ لفَّ لفَّهم، جاهلين أو مُتجاهلين حكمةَ الله فيما شَرَعَ لعباده، وفيما فَرَض عليهم من حدود، سَعدَ من تمسَّك بها وحافظ عليها سعادةً لا تكفُلُ بعضَها قوانينُ أهل الأرض جميعاً، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً.

ولعلَّ أولَ مَنْ فتح لهم باب الشُّبهة والاعتراض على قطع يد السارق أبو العلاء المعري[1] إذ قال، وذلك مما يُؤيِّد الذاهبين إلى مروقه وإلحاده:

يـدٌ بخمـس مـئين عَسْـجد وديَـتْ ... ما بالهـا قُطعـت في ربـع دينـار؟!

وَعَمِيَ هذا المسكين عن فرقِ ما بين دِيَتها في الجناية عليها، وجزائها في تعدِّيها وخيانتها، وأنَّها «لمَّا كانت أمينةً كانت ثمينة، فلما خانَت رخصت

(١) أبو العلاء أحمد بن سليمان، والبيت في «اللزوميات» ١ :٣٦٩ وفيه: «فُدِيَتْ» بدل «وُدِيَتْ»، وتتمَّته:

تنـاقضٌ مالنـا إلا السـكوت لـه ... فنسـتعيذ بارينـا مـن النـار

وهانَت»[١]، وبهذا المعنى يُجيبه عَلَم الدين السَّخاوي[٢]، ولله درُّه:

عــزُّ الأمانــة أغلاهــا وأرْخَصَــها ذلُّ الخيانة فافهم حكمـة البـاري

الردُّ على شبهات أصحاب القوانين الوضعية

إنَّ الشُّبهة التي يثيرها أصحاب القوانين الأرضية أهونُ من أنْ نكلِّف أنفسنا الردَّ عليها، فإنَّ بلاد الحجاز قد أضْحَت مَضْرِب المثل في الأمن والطمأنينة، بفَضْل إقامةِ حدود الله فيها، وقد كانت أسوأ الأمثال في الاضْطراب والفَوْضى والفساد في الأرض.

إنَّ يداً واحدة تُقطع غير مأسوف عليها، كفيلةٌ بهذا الأمن دهراً طويلاً.

---

(١) نسب ابن كثير في «تفسيره» ٣ :١١٧١ هذا الجواب إلى القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله، ونسبه الشّربيني المتوفى سنة ٩٧٧ إلى ابن الجوزي كما في «مغني المحتاج» ٤ :١٥٨.

(٢) نسب هذا البيت لعَلَم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ الصَّفدي في «الوافي بالوفيات» ٧ :١١٠، و «نكت الهميان» ص١٠٧، و «الغيث المسجم» ١ :٨٢ـ٨٣، والآلوسي في «روح المعاني» ٦ :١٣٤، والمشهور أنَّ الذي أجابه هو القاضي عبد الوهاب المالكي المتوفى سنة ٤٢٢ كما في «الذخيرة» للقرافي ١٢ :١٨٥، و «القواعد» للتقيِّ الحصْني ١ :٣٣٦ـ٣٣٨، والحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٢ : ٩٨، والشربيني في «مغني المحتاج» ٤ :١٥٨ كما في كتاب «القاضي عبد الوهاب في آثار القدماء والمحْدَثين» ص١٧٩، ٢٧٦، ٢٧٨، ٣١٣، ٣٤٩، للأخ الدكتور عبد الحكيم الأنيس وفقه الله ورعاه.

وجواب القاضي عبد الوهاب، هو:

صيانةُ العضو أغلاها وأرخصـها صيانةُ المال فافهم حكمة الباري

وَشَرْحُ ذلك ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ في «الفتح» ١٢ :٩٨: «إن الدية لو كانت ربع دينار، لكثُرت الجنايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثُرت الجنايات على الأموال، فظهرت الحكمة بين الجانبين، وكان في ذلك صيانة من الطرفين».

والعَجَب أن يُوجبَ هؤلاء بَتْر العضو الفاسد من الجسم إبقاءً عليه ووقايةً له، ولا يُسيغونَ قطعَ يدٍ أثيمة وقايةً له ولأمته من شرِّها، وما بالهم يغارون على كرامة المجرم ويألمون له، وهو لم يغرْ على نفسه، ولم يألم لها؟!.

أما الحَبْس أو التغريم، فليست بالعقوبة التي تكفُّ المجرم وتردعه، بل ربَّما أغْرته على أن يعثيَ في الأرض مُفْسداً!.

وكم من مجرمٍ أَلِفَ السُّجون حتى إذا غابَ عنها حَنَّ إليها!.

وإنْ شئتَ أن تزدادَ عَجَباً، فانظر إليهم يُشجِّعون على إزهاق النفوس في تجارب التدمير والتخريب، ويثنون على مَنْ أهلك نفسَه في هذا السبيل، ثم يعدُّون بتر العضو الخائن وحشيةً وجموداً!.

أما بعد، فقد شرع الله هذه الحدود ـ وهو العليم بمصالح عباده ـ؛ علاجاً لأمراض القلوب، وإصلاحاً لفساد النفوس، وتوطيداً لقواعد الأمن والسلام، وقد عرفَ ذلك وقدَّره المنصفون والباحثون، ولعلَّهم يُنادون بإقامتها، والمحافظة عليها، إنْ أرادوا للعالم طمأنينةً شاملة، وسعادةً دائمةً.

* * * * *

الفصل السابع

السيرة النبوية

١ ـ صفته ﷺ في التوراة (١ ـ ٢).

٢ ـ صفحة من الجهاد النبوي.

٣ ـ قبسٌ من أدب النبوة.

٤ ـ من أعلام النبوة.

٥ ـ لا هجرة بعد الفتح.

٦ ـ الجوار الأعظم.

٧ ـ بدلٌ من الهجرة.

٨ ـ رجال صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه.

٩ ـ دعوى الجاهلية.

١٠ ـ راية الإسلام.

١١ ـ عيد الجلاء الأول (١ ـ ٣).

١٢ ـ مَثَلٌ من حِلْم النبيِّ ﷺ.

١٣ ـ التطهير في الإسلام (١ ـ ٣).

١٤ ـ عيد الدستور.

١٥ ـ آخر الوصايا النبويَّة (١ ـ ٢).

١٦ ـ آخر الكلام النبويِّ.

صفته ﷺ في التوراة *

ـ ١ ـ

٨٠ ـ عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «أجَل، والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيُّها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيْتُكَ المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيِّئة السيِّئة، ولكن يعفو ويغفر؛ ولن يَقْبضَه اللهُ حتى يقيمَ به الملَّة العَوْجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أَعْيُناً عُمياً، وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفاً». رواه البخاري(١).

المفردات:

أَجل: حرف جواب كـ«نعم»، إلا أنه أحسن منه في التصديق، و«نعم» أحسن منه في الاستفهام.

والحرز: الموضع الحصين، وفي أحاديث الدعاء: «اللهم اجعلنا في حرز حارز» أي: كهفٍ منيع.

والأميُّون: هم العرب؛ لأنَّ أكثرهم لا يقرأ ولا يكتب، كأنهم على الحال التي ولدتهم عليها أمهاتهم.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد الخامس عشر، ربيع الأول (١٣٦٣=١٩٤٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع في الأسواق (٢١٢٥)، وفي التفسير (٤٨٣٨)، وأخرجه أيضاً في كتاب «الأدب المفرد» (٢٤٦) (٢٤٧).

والفظ: الجافي الكريه الخُلق. مُستعار من الفظِّ وهو ماء الكرش، وَحَسْبُكَ أنه لا يُشرب إلاَّ في أشدِّ ضرورة.

والغليظ: القاسي القلب الخشن المعاملة.

السَّخَّاب: بالسين، وربما رُوي بالصاد: الصَّيَّاح، الكثيرُ اللغَط والجلَبة.

القلب الأغلف: هو الذي لا يعي، كأنه حُجِبَ عن الفهم كما يُحجب السكين ونحوه بالغلاف.

* * * * *

عناية عطاء بن يسار بالبحث عن شمائل النبيِّ ﷺ

من أجل ذكرى المولد النبويِّ الكريم تخيَّرنا هذا الحديث الجامع لخُلاصة أوصافه ﷺ في التوراة، والتنويه باسمه قبل أن يُطالع العالم مُحَيَّاه.

لقد كان عطاء بن يسار مولى أمِّ المؤمنين ميمونة رضي الله تعالى عنها ـ وهو من أئمة التابعين وثقاتهم ـ معنيًّا بالبحث عن شمائل النبيِّ ﷺ ونعوته في الكتب السماوية؛ ولقد سأل فيمن سأل عنها عبد الله بن سَلاَم، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم.

عبد الله بن سَلام

أما عبد الله بن سلام؛ فلأنه عالم أهل الكتاب وحَبْرهم، وأعرف بالنبيِّ ﷺ منه بابنه ـ كما قال لعمر رضي الله عنه ـ؛ إذ رأى أوصافه في التوراة رأيَ العيْن، فلم تُشبْهُ فيه شائبةُ ريْب، أما ابنه فإنه لا يدري ماذا تصنع النساء؟! وقد آتاه الله أجره مرتين، وشهد له النبيُّ ﷺ بالجنة.

عبد الله بن عمرو

أما عبد الله بن عمرو؛ فلأنه من أعلام الصحابة وأجلَّتهم، وأكثرهم حفظاً للحديث[١] واطّلاعاً على غيره، قال فيه أبو هريرة ـ وهو مَنْ هو ـ: ما كان أحفظ لحديث رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يعي بقلبه وكنت أعي بقلبي، وكان يكتب وأنا لا أكتب؛ استأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فأذن له[٢].

وحَسْبك ما رواه أحمد والبغوي عنه قال: رأيت فيما يرى النائم كأن في إحدى يدي عَسَلاً، وفي الأخرى سمناً وأنا ألعقهما، فذكرت ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «تقرأ الكتابين: التوراة والقرآن»[٣]. فكان يقرؤهما عالماً بما فيهما؛ ولذا عُدَّ بحقٍّ أشهر مَنْ قامت عليهم النهضة الفكرية، في الأقطار الإسلامية.

خلاصة أوصافه ﷺ في التوراة

وقد تضمَّن حديثه هذا بضعة عشر نعتاً من نعوته المَبْثُوثة في القرآن

---

(١) يبلغ ما أسند سبع مئة حديث، اتَّفقا له على سبعة أحاديث، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين كما في «سير أعلام النبلاء» ٣: ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري (١١٣) ولفظه من حديث وهب بن منبِّه عن أخيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: «ما من أصحاب النبيِّ ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنَّه كان يكتب ولا أكتب».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» ٢: ٢٢٢ (٧٠٦٧). قال الذهبي في «السير» ٣: ٨٦: ابن لَهيعَة ضعيف الحديث، وهذا خبرٌ منكر، ولا يُشرع لأحدٍ بعد نزول القرآن أن يقرأ التوراة ولا أن يحفظَها، لكونها مبدَّلةً مُحرَّفَةً منسوخة العمل، قد اختلط فيها الحقُّ بالباطل، فلتُجْتَنَبْ. فأما النظر فيها للاعتبار والردِّ على اليهود، فلا بأس بذلك للرجل العالم، قليلاً. والإعراض أولى.

الكريم، صلوات الله وسلامه عليه.

أنَّ الله أرسله شاهداً: لِمَنْ آمنَ مِنْ أمته بالتصديق، وعلى مَنْ كفر منهم بالتكذيب، أو شاهداً للرسل قبله بالبلاغ.

ومبشِّراً: للمطيعين بجنَّات النعيم.

ونذيراً: للعاصين بنار الجحيم. وهذا موافق لقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[(١)].

وَحِرْزاً للأميين: يتحصَّنون بك من غوائل الدهر، أو من سَطْوة العجم، أو من عذاب الله ما دمت فيهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[(٢)]، فهم بك في حِصْن حصين وأمنٍ مقيم؛ وإنما خَصَّ العرب بالذكر لشرفهم، أو لإرسالهم بين أظهرهم، وإلا فلا جدال أنَّ دعوته عامة، ورسالته إلى الناس كافة.

أنت عبدي: المُكَمَّل، شرَّفتك بالعبودية، ولقَّبتك بها في أجلِّ المواطن وأسماها، وأشرف المنازل وأعلاها، وخيَّرتك بين أن تكون نبياً ملكاً أو نبيًّا عبداً، فاخترتَ ـ وما أجلَّ ما اخْتَرتَ ـ أن تكون نبياً عبداً؛ فأنت عبدي الكامل.

ورسولي: الخاتم، الذي أرسلتك رحمةً للعالمين، وجعلتُ رسالَتكَ خالدةً إلى يوم الدين.

سَمَّيْتُك المتوكِّل: لعظيم ثقتك بي، وكريم اعتمادك عليَّ، وجميل صبرك فيَّ، تَقْنعُ باليسير وتجودُ بالكثير، وتفوِّض أمرك كله إليَّ.

ليس بفظٍّ جاف، ولا غليظ قاس: بل اللِّين شيمتُه، والرفق سَجِيَّتُه، ما لم

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٥.

(٢) سورة الأنفال: ٣٣.

يُؤْمَر بالشدَّة والغلظ، فإذا أُمر بهما فما أجدره بمعالجة نفسه ومخالفة طبعه، امتثالاً لأمر الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

ولا نستطيع هنا أن نحصيَ مواقف لينه ورِفقه حيث ينسى رحمتَه الرحيمُ، ويتميَّز من الغيظ الحليمُ. وحسبنا أن عاتبه الله في غير آية، رحمةً به أن تضرَّه الرحمة، ونهاه أن تذهب نفسه على الكافرين حسرات.

وهذا الجزء من التوراة يوافق قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[2].

ولا سَخَّاب في الأسواق: وما حاجته إلى الصَّخَب واللغط، وهو مَجْبولٌ على الرفق والتواضع؛ مطبوعٌ على السكينة والوقار؟! وإذا كان هذا شأنه في الأسواق ـ وهي مَدْعَاةُ الصِّياح والجَلَبة ـ فهو في غيرها أعظم وقاراً وأجلّ حِلماً.

ولا يدفع بالسيئة السيئة: امتثالاً لأمره تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]، وكان ﷺ خُلُقه القرآن.

ولكن يعفو ويغفر: فلا يرضى خلقُه العظيم ألاَّ يجزيَ السيئة بمثلها، وإنما يَسْترها فلا يُجابه بها. وقُصَاراه عند التأديب والإرشاد أن يقول في خطبته: «ما بال أقوام يصنعون كذا وكذا». هذا كلُّه ما لم تُنتهك حُرمات الله، فإذا انتُهكت حرماتُ الله، فإنه ينتقم لله بها.

ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به: ملَّة إبراهيم حنيفاً، ويعيدها سيرتها

---

(١) سورة التوبة: ٧٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) سورة فصلت: ٣٤.

الأولى، من بعد أن عوجها العرب، وبدَّلوها تبديلاً.

وقد صدق الله وعده، ونَصَرَ عبده، ومنَّ به على المؤمنين، فاجتمعوا على كلمة الله، واعتصموا بحبل الله، وكانت لهم أعينٌ لا يبصرون بها الهدى، وآذان لا يسمعون بها الحق، وقلوبٌ عليها أقفالها.

ولا نَدَعْ هذا الوصف الحقَّ الجميل قبل أن نتمَّه ببقيّة من رواية ابن إسحاق، لا تنقص عنه حقاً وجمالاً:

قال الله: «أُسدِّده بكلِّ جميل، وأَهَبُ له كلَّ خُلُق كريم، ثم أجعل السكينة لباسَه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمةَ مَعقولَه، والصِّدق والوفاء طبيعته، والمعروف خُلقَه، والعدلَ سيرتَه، والحقَّ شريعته، والهدى إمامَه، والإسلام مِلَّتَه، وأحمد اسمه؛ أَهدي به بعد الضلالة، وأُعلِّمُ به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأُسمِّي به بعد النُّكرة، وأكثِّر به بعد القلَّة، وأُغني به بعد العَيْلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأُؤلِّف به بين قلوبٍ مختلفة، وأهواء متشتِّتة وأممٍ متفرِّقة، وأجعل أمَّته خيرَ أمةٍ أُخْرِجَت للناس»[1].

* * * * *

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٣ :١٣٤ عند تفسير آية الأعراف: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ..﴾ وعزاه إلى ابن أبي حاتم في «تفسيره»، ـ ولم أجده عند هذه الآيةـ، ولأبي نعيم في «الدلائل» برقم (٣٣)، لكنه من كلام وهب بن منبِّه، من رواية عبد المنعم بن إدريس بن سنان، عن أبيه، عن وهب. وعبد المنعم اتُّهم بالكذب. نعم، أوله معطوف على ماقبله، والذي قبله من كلام كعب.

صفته ﷺ في التوراة *

- ٢ -

نعتُه ﷺ في الأمم السابقة

فمن ذلك: ذكره ﷺ في الأمم السابقة، والتنويه به قبل مبعثه، بل قبل موته بأجيال. وقد تواتر أنّ أهل الكتاب كانوا يتناقلون خبر بَعثته صلوات الله وسلامه عليه، ويتذاكرون البشارات به من كُتُبهم. وربّما أشار إلى عراقة ذكره، وقدم تاريخه قبل اليهود والنصارى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[1].

أخذ الميثاق على النبيين

قال عليٌّ وابنُ عباسٍ رضي الله عنهم: ما بَعث الله نبيًّا من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق: لئن بعث اللهُ محمداً وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمَّته: لئن بُعِث محمدٌ وهم أحياء ليؤْمنُنَّ به ولينْصرُنَّه.

ولعلَّ حكمة هذا الميثاق مع علمه تعالى بأنَّه لن يبعث محمداً ﷺ في حياة أحدٍ منهم، هي الحفاوة به، والعناية برفعة ذكره، وتعظيم قدره، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال طاووس والحسن وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يُصَدِّق بعضهم

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الخامس عشر، ربيع الثاني (١٣٦٣ = ١٩٤٤).

(١) سورة آل عمران: ٨١.

بعضاً. وهذا -كما قال ابن كثير- : لا يضاد الأوّل ولا ينافيه، بل يستلزمه ويقتضيه[١].

وإنما اقتصر القرآن الكريم في بيان صفته ﷺ على التوراة والإنجيل؛ لأنهما أقرب الكتب إليه، وهو مُصَدِّقٌ لما بين يديه، ولأنهما قد نَسخا ما سبقهما، كما أنَّ القرآن نسخهما؛ وإلاَّ فقد جاء وصفه ﷺ في الزبور وسائر الكتب السماوية، كما قال المُفسِّرون والمؤرِّخون. ويُؤْثر عن بعض السلف أنهم كانوا يطلقون التوراة على ما عدا القرآن، فتشمل ـ على هذا ـ الكتب السماوية السابقة جميعاً.

دفع شبهة

وقد يخطر بالبال أنَّ هذا النعت إنما كان في التوراة قبل البَعثة المحمديَّة، أما بعد البعثة، فلا أثر له. ولكنك لا تزال ترى دلائل نبوَّته ﷺ في الكتابين باهرة، وأعلام رسالته بين سطورهما ظاهرة، على الرُّغم من اختلاف الترجمات، وتعاقب الدهور والأوقات. ومهما يؤول أوصافَه أهلُ الكتابين، فلن تزال ألسنتهم تنطق بمعجزاته، وكتبهم تشهد بآياته ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وفي «إظهار الحق»[٣] و«قصص الأنبياء»[٤] من الأخبار التي تنطبق عليه ﷺ وعلى البلد الذي يخرج منه، ما يُغني عن مصادر كثيرة، ومؤلَّفات جمّة. ولولا محاولة تأدُّبنا بأدبه صلوات الله وسلامه عليه في جمع الكَلِم لأوردنا الكثير من الشواهد.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ : ٧٢٨.

(٢) اقتباس من الآية ١٤٦ من سورة البقرة.

(٣) ٢ :٣٦٢_٤٣٢للعلامة المجاهد محمدرحمة الله الهندي المتوفى سنة ١٣٠٨.

(٤) ص٤٤٩_٤٥١للعلامة المؤرخ عبد الوهاب النجار المتوفى سنة ١٣٦٠.

النظر في الكتب القديمة

ودلَّ الحديث على إباحة النظر في الكتب القديمة، وإنْ بدَّلها أهلُها وحرَّفوها، بل على طلب ذلك ممَّن يُحِقُّ الحق ويدعو إليه، ويُبْطل الباطل ويحذّر منه.

وقد وقع هذا في العهد النبوي والذي بعده، دون إنكار ولا نهي. وإنما نهى النبيُّ ﷺ عن النظر في تلك الكتب والأخذ عن أهلها قبل اسْتِتْبَاب الأحكام، واستقرار الإسلام؛ خشيةَ الفتن. فلمَّا انقشعت أُذِن لهم في الاطلاع والبحث؛ لما فيه من جليل الفائدة، وجزيل العائدة.

نعم مَنْ خُشِيَ عليه التباسُ الحقِّ بالباطل، أو إضاعةُ وقته فيها من غير طائل، فقد حقّ عليه أن يعدل عن ما يضرُّه إلى ما ينفعه.

دخول الأسواق والحسبة فيها

وأشار الحديث إلى أن دخول الأسواق والمشي فيها لا يُعارض جلال النبوَّة، ولا يُؤَثِّر في وقار المروءة، وإن كانت ـ كما جاء في الصحيح ـ «أبغض البلاد إلى الله»[1].

ولا رَيْب أنَّ دخوله ﷺ في السوق إنما هو لتفقُّد أهلها، ونهيهم عن منكرات التجارة، وإرشادهم إلى كرم المعاملة، وقد ثبت أنه ﷺ أوَّل من احتسب[2] في الأسواق، لا عمر رضي الله عنه، كما قال أكثر من كتب في «الحسبة».

---

(١) رواه مسلم (٦٧١) ولفظه من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها».

(٢) احتسب فلان على فلان: أنكر عليه قبيح عمله (طه).

رعاية الأمة وتفقد شؤونها

وإذا كان مَشْيُه صلوات الله عليه في الأسواق عنوانَ العظمة في التواضع، فهو إلى ذلك مثلٌ رائع للولاة والحكام في رعاية الأمة، وتفقُّد شؤونها في أحوالها ومعاملاتها، كتفقد شؤونها في عبادتها وتربيتها. وقديماً سَخِرَ الكفّار: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1] فقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2].

من أدب الخطاب

وفي العدول عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: «**ليس بفظ...**» مما يسمَّى في علوم البلاغة بالالتفات؛ تأديبٌ كريم، وتعليمٌ قويم؛ إذ لم يُجَابه نبيَّه ﷺ بما يكره، وإن كان منفيًّا. ولعلَّ في هذا الإجلال عِبرةً لقوم لا يتأدَّبون مع رسول الله ﷺ، والأدبُ معه صلوات الله وسلامه عليه بعض ما فرض الله له من التشريف والتكريم.

وعدٌ كريم

وفي ختام هذا الحديث وعدٌ كريم بأنه تعالى لن يقبض خاتم النبيين إليه قبل أن يعيد به ملَّة أبيه إبراهيم عليهما السلام، بعد أن اندرست، ويقيمها به بعد أن تعوَّجت.

وذلك أنَّ بعضَ العرب كانوا على الرُّغم ممَّا زعموا أنَّهم على ملَّة أبيهم إبراهيم يتخبَّطون في ضلالة الشِّرك، ويتَّخذون من دون الله آلهةً، ولم يبق على

---

(١) سورة الفرقان: ٧.

(٢) سورة الفرقان: ٢٠.

دين الخليل إلاّ نفرٌ قليل.

ولا حاجة هنا إلى الإفاضة في هجرة إسماعيل وأبَويه، ونسبة العرب المستعربة إليه؛ فقد صحَّت فيهما الآثار، وتواترت بهما الأخبار، وأشار إليهما الكتاب العزيز.

أهمية التعرُّف على سيرته ﷺ

وبعد، فإنّ ذنباً لا يغفر، ووَصْمَة لا تُمْحى، أن يعرف الأجانب من سيرة نبيِّنا ﷺ وكريم شمائله، أكثر مما نعرف.

وكان حقًّا على أتباعه ـ وبخاصة أُولي العلم منهم ـ أن يحيطوا بسيرته علماً، وألاَّ يألوها دراسةً وفهماً، فهي وسيلةُ الاهتداء بهديه والاقْتداء به ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

* * * * *

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

صفحة من الجهاد النبوي *

٨١ ـ عن عروة بن الزُّبير أنَّ عائشةَ رضي الله عنها زوج النبيِّ ﷺ، حدَّثته أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟! فقال : لقد لقيتُ من قومك! وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذْ عَرَضت نفسي على ابن يَالِيل ابن عبد كلال، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسَحَابة قد أظلَّتني، فنظرتُ، فإذا فيها جبريل : فناداني، فقال : إنَّ الله عـزَّ وجل قد سَمعَ قولَ قومِك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم. قال : فناداني مَلَكُ الجبال، وسلَّم عليَّ، ثم قال : يا محمد، إنَّ الله قد سمع قول قومك، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إنْ شئت أنْ أُطْبق عليهم الأخْشَبَيْن، فقال رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يُخرج اللهُ من أصْلابهم من يعبدُ الله وحده لا يُشْرك به شيئاً.

رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[١].

المفردات :

العقبة : الطريق الوعر في الجبل، والمراد بها هنا: عَقَبة الطائف، حيث التقى النبيُّ ﷺ بابن يالِيل في نَفَرٍ من أكابر ثقيف يدعوهم إلى الإسلام.

وابن عبد ياليل: ـ بوزن هَابيل ـ واحدٌ من رجال مكة والطائف وسادتهما

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد السابع والعشرون (١٣٧٥ = ١٩٥٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١) في بَدْء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) في الجهاد والسِّيَر.

الذي عناهم المشركون، إذ قالوا فيما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

والقرن: الجبيل المنقطع عن الجبل، وأُضيف إلى الثعالب؛ لأنها كانت تأوي إليه، ويُسمَّى قرن المنازل أيضاً؛ لنزول المسافرين عنده، وهو ميقات أهل نجد، على يوم وليلة من مكة.

والأخشب: الجبل الخَشِنُ العظيم، والأُخْشَبان: جَبَلا مكة المطيفان بها: أبو قبيس وقعيقعان الذي يُقابله.

* * * * *

أعظم الغزوات بلاءً وشدَّة

غزا النبيُّ ﷺ بضعاً وعشرين غزوة، كانت غزوة أحد أعظمها وَقْعاً وأشدُّها بلاءً!! وممَّا زاد في شدَّتها وبلائها أنَّ الدولةَ كانت للمسلمين في أول الأمر لمّا استَمكسوا بأمر رسول الله ﷺ، وثبتوا في مواقفهم. ثمَّ دارت الدائرة عليهم لمَّا تركوا مواقفهم، ونسوا أمر قائدهم، وشُغلوا بالغنائم يجمعونها، ظانِّين أنَّ الكفار قد ولَّوا الأدبار إلى غير رَجْعة، ولكنَّ أعداء الله اهْتَبَلوا منهم هذه الفرصة، فكرُّوا عليهم حين غَفْلة، وأثْخَنوهم قتلاً وجرحاً، وكادوا لهم كيداً دفيناً!!.

أحداثٌ جسام

في هذه المَعْمَعَة خَلُصَ المشركون إلى رسول الله ﷺ، فَقَذفوه بالحِجَارة

---

(١) سورة الزخرف: ٣١.

حتى وقع لشقِّه، وكُسرت رَبَاعيَّتُه، وشُجَّ وجهه، ووقع في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الراهب قد حفرها، وغطَّاها؛ ليقع فيها المسلمون، واضْطروه بهذا الإيذاء المحيط إلى أن يقول: «كيف يُفلح قومٌ خضَّبوا وجْه نبيِّهم وهو يدعوهم إلى ربِّهم؟ فأنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾»[1].

هذه بعض الأحداث الجِسَام التي ابتُلي بها النبيُّ ﷺ في غزوة أُحد، والتي ظنَّت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها أعظم المصائب التي أصابته في ذات الله عز وجل!!.

بَيْد أنها أرادت أن تَسْتوثق لِمَا ظنَّت، فأعلمها صلوات الله وسلامه عليه أنه لقيَ من قومها ما لقيَ ممَّا لا يحيط به وصفٌ، وأنَّ ما أصابه في رحلته إلى الطائف أدهى وأمر!.

من آثار الجهر بالدعوة

قد عُلم أنه صلوات الله عليه لما جاهر بالدعوة إلى ربِّه، أخذ قومه يُؤذونه ويكيدون له حتى إذا فقد زَوجه أمَّ المؤمنين خديجة، وعمَّه وأقربَ الناس إليه أبا طالب ـ وكانا أكبر نصيب له في تبليغ رسالته، وأعظم ظهير له من بين عشيرته ـ أمْعَنوا في الإيذاء والكيد، ونالوا منه ومن أصحابه ما لم ينالوه من قبل، وبلغ من وقاحتهم أن نثروا التراب على رأسه الشريف وتجاذَبوه، وهم يقولون له: أنتَ الذي جعلتَ الآلهة إلهاً واحداً؟!.

فنون من الكيد والإيذاء

وأشدُّ من هذا ما حَدَّثنا به ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه الشيخان قال: بينما رسول الله ﷺ عند الكعبة، وأبو جهل وأصحاب له جلوسٌ، وقد

---

(١) آل عمران:١٢٨. والحديث في صحيح مسلم برقم (١٧٩١).

نُحِرَت جَزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيُّكم يقوم إلى سَلا جزور بني فـلان[١]، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟! فانبعث أشقى القـوم (عقبـة بـن أبي مُعَيْط)، فأخذه، فلمّا سَجَد النَّبيُّ ﷺ وَضَعه بين كتفيـه. قـال: فاسْتضـحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظرُ، لو كانت مَنَعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد مـا يرفـع رأسـه. فـانطلق إنسـان، فـأخبر فاطمـة، فجاءت هي وجُويرية، فطرحته عنه، ثُمَّ أقبلت عليهم تشتمهم[٢].

وأشدُّ من ذلك وأفظع ما حدَّثنا به عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ـ فيما رواه البخاري ـ وقد سأله عروة بن الزبير: عن أشدِّ ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بيْنا رسول الله ﷺ يصلي بفِنَاء الكعبة، إذ أقبل عُقْبة بن أبي مُعَيْط، فأخذ بمَنْكِب رسول الله ﷺ، فلوى ثوبه في عُنُقِه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، فأخذ بمَنْكبه، ودَفَع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[٣].

وكذلك أخذوا يتابعون الكيْدَ والإيذاء، حتى همُّوا بإخراجه والفتك به!!.

رحلة الطائف

وكذلك أجمع أمره على الرحلة إلى الطائف، ليس معه بعد الله إلا خادمه زيد بن حارثة رضي الله عنه.

كان له ﷺ في ثقيف بالطائف رَحِمٌ وقرابة، فرأى أن يدعوهم إلى الإسلام، عَسَى أن يستجيبوا له، فإن لم يفعلوا، فلا أقلَّ من أن يحموه من قريش، ويستجيبوا للرَّحِم والقُربى، فإن لم يفعلوا، فلا أدنى من أن يكتموا

---

(١) الجزور: الناقة، والسلا: لفافة الجنين، وتسمَّى في الآدميات مشيمة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠) (٥٢٠) (٣٨٥٤) (٣٩٦٠)، ومسلم (١٧٩٤).

(٣) سورة غافر: ٢٨. والحديث في صحيح البخاري (٤٨١٥).

خبره؛ لئلا يُشمتوا به قريشاً، ويزيدوها طغياناً وكفراً ...

ألأم من اللؤم وأقبح من القبح

لكنَّ ثقيفاً كانت ألأمَ من اللؤم، وأقبح من القبح، وأشدَّ من كفار قريش فجوراً ونُكْراً، وكان مثلُهم مع النَّبيِّ ﷺ كَمَثَل المُستَجير بعمرو عند كربته[1]..!

لم يستجيبوا له، ولم يرقُبوا فيه رَحِماً ولا قُربى، ولم يكتموا خبره حين استكتمهم، بل ردُّوا عليه أقبح ردٍّ في استهزاء وسخرية! وشيّعوه بالحجارة تُدمي عَقِبَهُ حتى اختضبت نعلاه بالدم! وكلَّما قعد إلى الأرض يستنشق نسيماً من الرَّوْح، أخذوا بِعَضُدَيه، فأقاموه ليمشي، فيرضخوه بالحجارة تارةً أخرى، وهكذا دواليك بين صَفَّين من هؤلاء الكَفَرة الفَجَرة، يتبعه عبيدهم وسفهاؤهم الذين أغْرَوْهم؛ ليسبُّوه ويصيحوا به، ولقد شُجَّ رأسُ زيدٍ شجًّا، ونال من الأذى في وقاية رسول الله ﷺ ما لا يكافئه إلا رضوان الله عليه.

ظلال الشجرة

مشى رسول الله ﷺ وَرِجْلاه تَسيلان دماً، ونفسُه الكريمة تفيض هَمّاً وغمّاً، والسُّفهاء خلفه يتَّبعونه، حتى مرَّ في طريقه ببستانٍ لعتُبة وشَيْبة ابني ربيعة، وكانا فيه، فاستَظلَّ في ظلٍّ شجرة من أشجار عنبه، وهنالك رجعوا عنه.

ضراعة وابتهال

فزع رسول الله ﷺ إلى ربِّه يدعوه ويشكو إليه ضَعْف قوته، وقلَّة حيلته وهوانه على الناس، ويَضْرع إليه ألا يَكِلَهُ إلى أحدٍ من خلقه، في دعاءٍ مشهور ختمه بقوله: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غَضَبُك، أو يحلَّ بي سخطك، لك العُتْبى حتى

---

(١) مثل يُضرب لمن هَرَب من أمرٍ مكروه فوقع في أشدّ منه. قال الشاعر:

المستجير بعَمْرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

ترضى،[1] ولا حول ولا قوة إلا بك!!»[2].

قطف عنب

هناك تحرَّكت لهُ رَحِمُ عتبة وشَيْبة؛ لأنهما من عبد مناف، فَبَعَثا له بِقِطَفٍ من عِنَب مع غلامهما النصراني عدّاس، فسمَّى اللهَ تعالى قبل أن يأكل، فأثارت هذه التسمية عَجَب عدّاس في قصَّةٍ نعرض لها في الحديث الآتي إن شاء الله.

أرْوَع الأمثال في مقابلة السوأى بالحُسنى

انطلق صلوات الله عليه وسلامه حيرانَ هائماً، لا يدري أين يتوجَّه من شدَّة ما أصابه، حتى إذا أفاق ممَّا هو فيه، بَشَّرَه الله ـ على لسان ملائكته ـ بأن أمر الانتقام من هؤلاء الأقوام في يده، فما عليه إلا أن يأمر، وما كان على الموكّلين بأمر الله إلا أن يكونوا رهن إشارته.

لكنَّ الرؤوفَ الرحيمَ ـ الذي ما انتقم لنفسه قط ـ صلوات الله وسلامه عليه أجاب بهذا الجواب الحكيم النبوي الخالد: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبدُ اللهَ وحدَه لا يشرك به شيئاً»[3].

دخوله ﷺ في جوار المُطعم بن عدي

لم يَخْفَ على قريش أمر هذه الرحلة وما لقيَ صَلَواتُ الله وسلامه عليه من هَوْلٍ وكربٍ. فلا مناصَ من أن يَحُولوا بينه وبين مكة، إن لم يكونوا قد بيَّتوا له ما هو أشد، لكنَّ الله الذي يُؤَيِّد دينه بالرجل الفاجر، سخَّر له شريفاً من

---

(١) العتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب، والمعنى: أني لا أزال أطلب رضاك إلى أن ترضى (طه).

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» ٦ :٣٥: «رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق مدلِّس ثقة، وبقية رجاله ثقات»، وأخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» ٢ :٢٧٥(١٨٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

أشرافهم؛ ليدخل البلد الحرام في جواره، وليطوف بالبيت الحرام آمناً مطمئنًّا ذلك هو المُطْعم بن عَدي[1].

أما بعد، فلا يزال في الفؤاد كَلامٌ لا يخفى على ذي لُبٍّ، وحَسْبُنا أنا عرضنا صفحة من جهاد نبِّينا الكريم، ذي الخُلق العظيم ﷺ، عبرة وذكرى ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

* * * * *

(١) انظر شرحه لحديث «الجوار الأعظم» ص٦٨٠.

(٢) اقتباس من الآية ٥٥ من سورة الذاريات.

قبسٌ من أدب النُّبوَّة *

٨٢ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خيرٌ من يونس بن متَّى» ونسبه إلى أبيه. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري(١).

٨٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «من قال: أنا خيرٌ من يونس بن متى فقد كذب». رواه البخاري(٢).

قَبَسٌ من الأدب الأسمى

عرضنا في الجزء الماضي لرحلة النبيِّ ﷺ إلى الطائف، وما لقيَ فيها من فنون الإعنات والكَيْد والأذى!!.

ومَنْ يعرض لهذه الرحلة الأليمة الجاهدة، فلا بدَّ من أن يعرض لعدَّاس رضي الله عنه، وهو يُؤْنس رسول الله صلوات الله عليه بعض الإيناس، ويُسَرِّي عنه بعض التَّسْرية.

وإذا ذَكرَ عدَّاساً، فلا بدَّ له ـ بحكم تداعي المعاني ـ أن يَذكر قصَّةَ نبيٍّ الله يونس، وأدب خاتم النبيين معه. وإنه لَقَبَسٌ من الأدب الإلهي الذي أدَّب الله به نبيَّه فأحسن تأديبه، وكمَّلَهُ به فأكملَ تهذيبَه، ثمَّ قال له قول الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد السابع والعشرون، (١٣٧٥=١٩٥٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٥) في كتاب الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٧) في الفضائل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٠٤).

خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١].

مكان عدَّاس من الصحابة

قلنا في الحديث الماضي: إنه ﷺ لما اشتدَّ عليه الأذى عَمَد إلى بستان لعُتْبة وشَيْبة ابنَيْ ربيعة، فاستَظَلَّ بظلٍّ شجرةٍ من أشجار عِنَبِه، وهناك تحرَّكت له رَحِمَهُمَا، فَبَعَثَا له مع عدَّاس غلامهما بِقَطْفٍ من عِنَب، فلمَّا سمَّى الله تعالى قبل أن يأكل، قال عدَّاس: والله إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومنْ أيِّ البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟» قال: نصرانيٌّ من أهلِ نينوى[٢]، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «من قرية الرجل الصَّالح يونس ابن متى»! فقال عدَّاس: وما يدريك ما يونسُ بن متَّى؟! فقال ﷺ: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبيٌّ. فأكبَّ عدَّاسٌ على النبيِّ ﷺ يُقبِّله

فلما رجع إلى ابنَيْ ربيعة، قالا له: وَيْلَك يا عدَّاس! مالك تُقبِّل هذا الرجل؟! قال: يا سيِّدي ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا، لقد أعلمني بأمرٍ لا يعلمه إلا نبيٌّ، قالا له: وَيْحَك يا عدَّاس! لا يَصْرِفنَّك عن دينك[٢].

لكنَّ الله تعالى قد كَتَبَ له السَّعادة، فَجَعَله من المؤمنين السَّابقين والصَّحابة الأوَّلين. رضوان الله عليهم جميعاً.

صاحب الحوت عليه السلام

تلك قصة عدَّاس مع النبي ﷺ، وأما قصة يونس عليه السلام مع قومه فقد

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) بأرض الموصل شمالي العراق. قال ابن الأنباري: سمِّيت بذلك لأنها وصلت بين الفرات ودجلة (طه).

(٢) أخرج القصة ابن هشام ١ : ٤٢١، والطبراني ـ كما في «مجمع الزوائد» ٦ :٣٥ ـ بسند صحيح عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، والبيهقي في «الدلائل» ٢: ٤١٥ - ٤١٧ من مرسل الزهري، فيتقوّى به.

جاءت في سورة (الأنبياء، والصَّافَّات، ونون).

وقد روى الثقات في تفسيرها: أنه لما دعا قومه إلى الله تعالى أَبَوْا عليه، وتَمَادَوْا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مُغَاضِباً لهم، ظانّاً أنَّ الله لن يُضيِّق عليه في بطن الحوت، أو أنه تعالى لنُ يَقدِّر عليه ما قَدَّر، والغيبُ لا يعلمه نبيٌّ مرسل، ولا مَلَكٌ مُقَرَّب.

قوم يونس

وكان قد أوعد قومه بالعذاب بعد ثلاث، فلمَّا تحقَّقوا ذلك منه، وهم يعلمون أنَّ النبيَّ لايكذب خَرجوا إلى الصَّحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تَضَرَّعوا إلى الله تعالى وَجَأروا إليه. وَرَغَت الإبل وفُصْلانها، وخارَت البقر وأولادها، وثَغَت الغنم وسِخَالها، فكشف الله عنهم العذاب، ومتَّعهم إلى أنْ فارقوا الدنيا، راضين مرضيين.

في بطن الحوت

وأما يونس عليه السلام، فإنَّه ذَهَب بعد أن غاضَب قومه، فركب مع قومٍ في سفينةٍ، فلجَّت بهم وخافوا الغرق؛ فاقْترعوا مراراً على مَنْ يُلقونه من بينهم، يَتَخَفَّفون منه، فلم تقع القرعة إلا عليه، فتجرَّد عليه السلام من ثيابه، وألقى نفسه في البحر، فالتقمه حوتٌ عظيم أوحى الله إليه ألا تأكل له لحماً، ولاتهشم له عظماً، فإنه ليس لك رزقاً، وإنما بطنك له سجنٌ. فمكث في بطنه ما شاء الله أن يمكث، ثمَّ أوحى الله إليه أن يلقيه بالعَرَاء وهو سقيم: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1][2].

وقد عاتبه الله تعالى على تعجُّله، ونهى خاتَمَ أنبيائه ألا يَتَعَجَّل، كما تَعَجَّل

---

(١) سورة الصافات: ١٤٣، ١٤٤.

(٢) اعتمدنا فيما سقناه من هذه القصة على تفسير الحافظ المؤرخ الإمام ابن كثير (طه).

صاحب الحوت، فيستحق اللومَ الذي أصابه[١].

وليس يعنينا من قصَّة صاحب الحوت عليه السلام أن نستوفَيها في هذا المقام، وإنَّما يعنينا منها ذانكم الأمران: العتاب والنهي؛ فإنهما مثار الحديث.

أفضل المرسلين

لقد أخبرنا الله تعالى أنه فضَّل بعض النبيِّين على بعض، ورفع بعضَهم درجات، وأخبرنا خاتم النبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنه سَيِّد ولد آدم ولا فخر، وأنَّ الله أعطاه مالم يُعطِ أحداً من الأنبياء قبله، وأنَّ الله اصْطَفَاه على العالمين، وأبقى رسالته إلى يوم الدين.

حدَّثنا بهذا كلِّه تحدُّثاً بنعمة ربه عليه. لكنه صلوات الله وسلامه عليه خاف علينا أن نفخَر بهذه الفضائل، ونُباهي بها، حتى نتَّخذها سبيلاً إلى المُفاضلة بين إخوانه المُرسلين، والمُجَادلة فيهم، وليس بعد المُفَاضَلَة والمُجَادَلة إلا الإهانة والتنقيص، وهنالك الطَّامَّة والخُسران المبين!!.

النهي عن المفاضلة

من أجل مخافته تلك ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ نهانا أن نشتغل بهذا التفضيل، أو نجادل فيه جدالاً يُفضي بنا إلى الانتقاص من مقام الرسالة أو الحطِّ من قَدْر النبوَّة، فسدَّ بذلك مَنْفذاً من منافذ الشيطان إلى فتنةٍ داهمةٍ وشرٍّ مُستطير!.

مجادلة في العصر النبوي

ولقد وقع شيءٌ من هذا الجدال في العصر النبويِّ، ولولا حكمة النبوَّة لكان الأمر خطيراً جِدُّ خطير.

---

(١) في قوله تعالى في سورة القلم: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

عَرَض يهوديٌ سلعة له، فأُعطي بها ثمناً كرهه، فقال: لا أبيعها به، والذي اصْطَفى موسى عليه السلام على البشر، فَلَطَمهُ رَجُلٌ من الأنصار، وقال له: تقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟! فشكا اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ وقال: يا أبا القاسم، إنَّ لي ذِمَّة وعهداً! فَغَضِبَ رسول الله ﷺ حتى عُرف الغضبُ في وجهه، ثم قال: «لا تفضِّلوا بين الأنبياء»[1]. ثم أثنى على كليم الله بما هو أهله، بعد أن نهاهم عن التفضيل بين أنبياء الله تعالى سداً لذرائع الفتنة، وحرصاً على مقامهم الكريم أن يُمَس.

لم خصَّ الله يونس بالذكر من بين سائر الأنبياء عليهم السلام؟

ويشتَدُّ النَّهيُ وتعظُم المَخَافة، وتنفتح منافذ الشيطان إلى الفتنة، إذا اعتمد الجدال في التفضيل على الأمرين السَّابقين آنفاً، في شأن يونس عليه السلام: عتابُ الله له، ونهيُ نبِّينا ﷺ أن يكون مثله. ومن أجل هذا خصَّه النَّبيُّ ﷺ بالذكر بين سائر الأنبياء، ونَسَب مَنْ يُفضِّل أخاه عليه إلى الكذب والافتراء؛ لأنه راعٍ حَوْل الحمى، ومَنْ رعى حول الحِمى يوشك أن يقع فيه.

سدُّ الذرائع المُفْضية إلى الفتنة

والنَّبيُّ ﷺ يقرِّر بهذا النهي قاعدةً من قواعد الشرع، وركناً من أركان الدين الحنيف، وهي قاعدة سد الذرائع المُفْضية إلى مُحرَّم، وإن لم تكن هي في ذاتها محرَّمة؛ إذ أنَّ تفضيل بعض الأنبياء على بعضٍ من الأمور الجائزة في نفسها؛ بل من الأمور الواجب اعتقادها موافقةً للكتاب السنة، ولكنها تُمنع حينما تجرُّ إلى الفتنة والحميَّة. وإذا كان سدُّ الذرائع في الفروع واجباً حقاً، فإنه في الأصول أخْلَق، وفي مقام النبوَّة أوْجَب وأحق[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(١) لهذا الحديث صلة وثيقة بتمثيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على المسرح، وقد نَشَرت فيه إدارة التفتيش بالأزهر مقالاً ضافياً في جزء رجب من العام الماضي (طه).

عتاب الله لأنبيائه

وهو ﷺ يبيِّن في هذا التعليم النبويِّ الكريم أنَّ معاتبة الله لأنبيائه على بعض ما يصدر منهم، لا تغضُّ من أقدارهم، ولا تنقص من رتبتهم، وإنَّما يُؤاخذهم الله بها؛ لأنها خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامهم، ورفيع مكانهم، وإنْ لم يُؤاخذ بها مَنْ سواهم من الذين أنعم الله عليهم، وربَّما كان موضع العَتْب عليهم مَحْمَدَةً لغيرهم، ومن هنا قيل: «حَسَنات الأبرار سيِّئات المُقرَّبين»[1].

الأدب مع أنبياء الله ورسله

أما بعد: فإنَّ الأدب مع أنبياء الله ورسله، هو من صميم الأدب مع الله عزَّ وجل، الذي اصْطَفَاهم لتبليغ رسالته، وإخراج الناس من الظُّلمات إلى النور بإذنه.

وأوْلى الناس بالنبيِّين خاتمهم، وأوْلى الناس بهم والتعريف بحقوقهم هو خاتَمُهم صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم. وقد علَّمنا وسدَّد، وبلَّغنا وأشْهَد، فأدِّبنا اللهمَّ بأدبِهِ، واجْزِهِ عنا خيرَ ما تجزي نبياً عن أُمَّتِهِ.

* * * * *

---

(١) تكرر هذا القول في كتب العلم والتفسير، ولا سيما في إثبات عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وما يكون منهم في رفيع مقامهم بالنسبة إلى من سواهم. وانظر هذه المقولة ـ على سبيل المثال ـ في «تفسير الخازن» في المواطن الآتية: ٢ :١٢٨، ١٥٦، ٣٣١ و ٣ :٢١، ٣٨، ٢٥١ و ٤ :٣٦، ١٣٨، ١٤٥، ٣٨٩.

من أعلام النبوَّة *

٨٤ ـ **عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لمَّا كذَّبني قريش قمْتُ في الحِجْر، فَجَلا الله لي بيتَ المَقْدس، فَطَفِقْتُ أُخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»**. رواه الشيخان[1].

المفردات:

الحِجْر: هو الفَضَاء الواقع بين الحَطيم وحائط البيت، تحت ميزاب الرحمة تجاه الشام، وهو ما يُسمَّى بحِجْر إسماعيل. ويقال: إنه وأمَّه هَاجِرُ عليهما السلام مدفونان به.

والحطيم: قَوْسٌ مبنيٌّ، طرفاه إلى زاويتي البيت الشمالية والغربية. وقد يُطلق كلٌّ من الحطيم والحِجْر على الآخر.

وَجَلا وجلّى: كشف وأظهر. **وطَفِقْتُ**: شرعت وأخذت، وهو من أفعال المقاربة.

* * *

رحلتان عظيمتان قدسيَّتان

تعوَّد المسلمون أن يحتفلوا في ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر الحرام

---

* مجلة الأزهر، الجزء السابع، المجلد السادس عشر (١٣٦٤ = ١٩٤٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٦) في مناقب الأنصار، ومسلم (١٧٠) في الإيمان بلفظ: «كذَّبتني».

بذكرى آيتين من أعظمِ آياتِ النبوَّة، وهما الإسراء والمعراج. وكلتاهما رحلةٌ عظيمةٌ قدسيَّةٌ لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، قُبيل هجرته إلى المدينة.

أما أُولاهما: فأرضيَّة، مَبْدؤها المسجد الحرام بمكة، ومُنتهاها المسجد الأقصى بالشام. وكلا المَسْجِدَيْن مَهْبطٌ من مَهَابط الوحي، ومعهَدٌ من معاهد النبوَّات التي كانت ـ ولا تزال ـ مَثَابةً للقاصدين، ومنارَ هدايةٍ للمسترشدين.

وأما أُخراهما: فسماويَّةٌ عُلوية، تبدأُ بالمسجد الأقصى، إلى السَّموات السَّبع، إلى سِدْرة المُنتهى، إلى المستوى الأعلى، حيث يُسمَع صريف الأقلام تجري في ألواح الملائكة، إلى المقام الذي لا ينبغي لأحد سواه.

وليس قصدُنا أن نفصِّل أنباء هاتين الرحلتين، وما كان فيهما من أسرار وعجائب، ولا أن نبيِّن زمنهما سنةً وشهراً وليلة، ولا أن نعرضَ لما انتابهما قديماً وحديثاً من خلاف وآراء، وهل كانتا يقظةً بروح النبي ﷺ وجسمه، كما هو قول المُحقِّقين من العلماء سَلَفاً وخَلَفاً، أو كانتا مناماً، أو بالروح دون الجسم؛ كما يرى شُذوذٌ من الناس، ليس هذا من قصدنا؛ فإنَّ ذلك كله مُدوَّن مسطورٌ، خصَّه كثير من المؤلفين والباحثين بكتُب ورسائل، لم تدع قولاً لقائل.

وإنما نقصد بعون الله تعالى إلى بيان شيءٍ من الحِكَم والأسرار في هاتين الرحلتين، وإلى موقف الناس منهما، ثمّ إلى بيان المنهج القويم إزاءَ معجزات الرسل كافّة لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع.

التَّسْرِيَة عنه ﷺ والربط على قلبه

دعا النبيُّ ﷺ قومه بمكة سراً وجهراً، واحتمل في سبيل الدعوة من ألوان الأذى، وضروب الألم في النفس والجسد، ما تَشيب له الأطفال، وتنفطر لهوله الجبال. واشتدَّ إيذاءُ قريش له ولأصحابه، عَقِبَ وفاة زوجه خديجة، وعمِّه أبي طالب، قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان لهما في تسليته والتخفيف عنه أثرٌ بالغ وفَضْل مذكور.

فكان من رحمته تعالى به، وفَضْله عليه، أن يُسْرِيَ به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأن يعرُجَ به من المسجد الأقصى إلى السموات العلا، لِيريَه من آيات ربِّه ما يُنْسيه كلَّ همٍّ وغمٍّ، وما يُعينه على احتمال الأذى بالغاً ما بَلَغ في سبيل الله والهجرة إليه، فقد علم الحكيمُ العليمُ أنه مُفارِقٌ داره وموطنه، مُؤْثِرٌ رضا مولاه على النَّفْس والنَّفيس والأهل والولد، وقد نبَّأه بذلك ورقة بن نوفل في بَدء الوحي، لما ذهبت به خديجة وأخبره عليه السلام خبر ما رأى، إذ قال: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ليتني أكون جَذَعاً[1] إذْ يُخرجك قومك». فَعَجِبَ صلوات الله وسلامه عليه وقال: «أوَمُخْرِجيَّ هم؟!» قال: «نعم، لم يأتِ أحدٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودِيَ، وإنْ يُدركني يومُك أنْصُرك نَصْراً مؤزَّراً»[2].

ماضٍ عسيرٌ، كلُّه همٌّ وعنَاءٌ، ومستقبلٌ خطير، كلُّه شدَّةٌ وبلاء.

أفليس من آيات الله أن يُمتِّع حبيبَهُ بهاتَيْنْ الرحلتين لِيَربطَ على قلبه، ويُسرِّيَ من همِّه وكربه؟!.

تشريفه ﷺ وتكريمه في الملأ الأعلى

وحكمةٌ أخرى، وهي تشريفه صلوات الله عليه وتكريمه في الملأ الأعلى؛ إذْ رأى ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، واستمتع بما لم يخطر على قلب بشر.

وَحسْبكم أن احتفلت بمقْدَمِه ملائكةُ السَّماء، ومَثَّل الله له صَفْوة الأنبياء، وأوْحى إلى عبده ما أوْحى، ففرض عليه الصَّلواتِ المكتوبة، خمسين في الأجر وخمسة في الأداء.

---

(١) جَذَعاً، أي: شاباً قوياً حتى أبالغ في نصرك. ونُصِبَ على الحال (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٣) في كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٦٠) في كتاب الإيمان.

مِحْنةُ الناس واختبارهم

وحكمة إلهيَّةٌ بالغة، تلك التي نَطَقَ بها القرآن الكريم، وهي محنة الناس واختبارهم؛ ليميز الله الخبيثَ من الطيِّب، والكاذب من الصَّادق؛ وليزداد المؤمنون إيماناً، والكافرون رِجْساً وكفراناً. وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [١].

ولقد تَجلَّت هذه الفتنة حينما غدا ﷺ في صبيحة مَسْراه، إلى المسجد الحرام، فأخبر قُريشاً بما رأى، فكذَّبوه وسخروا منه. فَمِنْ مُصَفِّق وواضع يده على رأسه تعجُّباً وإنكاراً. وارتدَّ ناس من ضَعَفَة الإيمان، وسعى رجال إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: إنْ كان قال ذلك فقد صدق، فقالوا: تُصَدِّقه على ذلك؟! قال: إني أُصدِّقه على أبْعَدَ من ذلك، أُصَدِّقه بخبر السَّماء غَدوةً أو رَوْحةً، فسُمِّي الصِّدِّيق من يومئذ[٢].

وكان في القوم مَنْ يعرف بيتَ المقْدس، فاسْتَنْعتوه إيَّاه، فكُرب كُربة لم يكرب مثلها قط ـ كما في رواية مسلم[٣] ـ لكنَّ الله تداركه برحمته فجلَّى له البيت، ورفَعَ عنه الحُجُب، فطفق ينظرُ إليه، وينعتُه لهم باباً باباً وموضعاً موضعاً، حتى قالوا: أمَّا النعتُ فقد أصاب فيه[٤]. ثمَّ أخذوا يسألونه عن أشياء كثيرةٍ، وهو يجيبهم جواب مَنْ شاهدها عَياناً، فما كان جوابهم ـ وقد أخذ منهم العَجَب ـ إلا أن قالوا: هذا ساحرٌ مبين.

---

(١) سورة الإسراء: ٦٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٣ :٦٢ـ٦٣ وصحَّحه، وأقرَّه الذهبي.

(٣) صحيح مسلم (١٧٢) من حديث أبي هريرة في كتاب الإيمان.

(٤) قول المشركين أخرجه أحمد ١ :٣٠٩(٢٨١٩). بلفظ: «فقال القوم: أما النَّعْتُ، فواللهِ لقد أصاب».

موقف المشركين وأشياعهم من المعجزات

هذا موقف المشركين قديماً إزاء الإسراء والمعراج، بل إزاء معجزات الرُّسل جميعاً، وهو موقف أشياعهم المعاندين في كلِّ عصر وجيل، ولا يؤمنون بآية ولا يصدِّقون بحجَّة. وأمثلُهم من يَستَبْعد أو يُؤوِّل تأويلاً سخيفاً تتبرأُ منه اللغةُ، وتتجافى عنه الحقائق، وينفر منه الذوق السليم. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[١].

ربَّما يكون للماضين بعضُ الشُّبه؛ لوقوفهم عند المادة، وجمودهم عند المشاهد الملموسة. ولكن ما هو عُذْرُ الجاحدين في عصرنا الحاضر، عصرِ المدنيَّة والنُّور كما يصفون.

وهاهو ذا العلمُ قد أقرَّ حقائقَ ثابتةً، ونظرياتٍ مستفيضةً، كانت تُعدُّ فيما مضى بعض أفانين الخيال، وأساطير الأقوال. وهاهي ذي القوى الكمينة في هذا الكون لا تزال تتكشَّف لعلمنا كلَّ يوم عن جديد.

خطر التزيُّد في دين الله والغلُوِّ في رسله

وإذا كان هؤلاء قد تنكَّبوا الرَّشاد، وأمْعَنوا في العنَاد، فهناك فريقٌ من الناس يُصدِّقون بكلِّ ما يسمعون، ويؤمنون بكلِّ ما يَقرؤون، دون استهداء بعقلٍ رجيح، أو استِمْسَاك بخبرٍ صحيح، أو استِرشاد بعليمٍ أمين، أو رجوعٍ إلى ثَبْتٍ ثقة[٢].

وَمِنْ هؤلاء من يغلو فَيَصْطنع لرسول الله معجزات وآيات ما أنزل الله بها من سلطان. وقد يزعمون أنَّ في هذه الفِرَى تقرُّباً إلى الله ورسله. وما دَرَوْا أنَّ في

---

(١) سورة يونس: ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) الثبت، بفتح الباء وقد تُسكَّن: الحجَّة، والضابط الثقة، وبسكونها: المتثبت في أموره (طه).

الحقِّ غُنيةً عن الباطل، وأنَّهم أساؤوا وهم يحسبون أنهم محسنون.

وَرَحِمَ الله رجال الحديث إذ قاموا مُشَمِّرين عن ساعد الجِدِّ، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وأكاذيب الجاهلين.

إنَّ خطر المُتزيِّدين في دين الله والغالين في رسل الله، لا يقلُّ عن خطر المكذِّبين بآيات الله، والجاحدين لجلال الله، وإنْ تظاهر كثيرٌ منهم بالبحث عن الحقائق، أو تعلَّق بشفيعٍ من حُسْن النِّية.

لقد غلا في حُبِّ المسيح عليه السلام قوم فكفروا، وأسرف في بغضه قومٌ فمرَقوا، وقَصَدَ آخرون، فوقفوا عند حدود اللهِ وآمنوا بآيات الله، فكانوا مثلاً في الصَّادقين، وقدوةً في الصَّالحين.

ولقد أدرك النبيُّ ﷺ أمته أن تزلَّ فتمدحه بالباطل، كما زلَّت النصارى من قبل، فقال: «لا تُطروني كما أَطْرَتِ النَّصارى ابن مريم، فإنَّما أنا عبده، فقولوا: عبدُ الله ورسوله»[1]. فجزاه الله عن أَمَّته خيرَ ما جزَى نبيّاً عن أمته.

وحَسْبُ الفريقَيْن من الذمِّ، واللعنة، والظلم، أن سوَّى الله بينهما في آيات من كتابه؛ ثم جمع بينهما في قَرَن[2]، فقال جلَّ سلطانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

المنهج الحق

ولا يَحْسَبَنَّ جاهلٌ أو غافل أننا ننكر التأويل إذا كان حقاً تُؤيِّده الدلائل والآيات، أو نُسارع إلى الطعن في الأخبار إذا لم يَرْوِها الأثبات. إنما ندعو إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) من معاني القَرَن بالتحريك: الجَعْبَة، والحبل يُجمع به البعيران، والبعيرُ المقرونُ بآخر، كالقرين. انظر «القاموس».

(٣) سورة الأنعام: ٢١.

النَّصفة والحَيْطة والعدل فيما نأخذ أو ندع، مُحْترزين ما استطعنا عن الإسفاف في استبعاد الأحاديث الصحيحة وتأويلها، فَضْلاً عن ردِّها وتكذيبها، مستعيذينَ بالله من الجُرأة والدعوى.

أدب المؤمنين

وهذا هو الأدب الذي أدَّبنا به النَّبيُّ ﷺ بإزاء ما يبلغنا عن أهل الكتاب في كلِّ أمرٍ جائزِ الوقوع، لم يرد فيه تكذيبٌ ولا تصديق ممَّن لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه.

روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رَسُول اللَّه ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[1]. الآية.

فإذا كان هذا هو المنهاج النبويُّ القديم فيما يتردَّد بين الصِّدق والكَذِب عن أهل الكتاب، فكيف بروايات الثقات عن الصَّادق المصدوق؟!.

الأمور ثلاثة

وقُصارى القول: أنَّ الأمور ثلاثةٌ: أمرٌ استَبَان أنه الحقُّ فَلْنَتَّبِعْهُ، وأمرٌ استَبَان أنه الباطل فَلْنتجنَّبْهُ، وآخرُ لم يؤيِّده البرهان، وإنْ دخل في حظيرة الإمكان، فَلْنُفَوِّضْه إلى الله عزَّ وجل، ضارعينَ إليه ضَراعةَ أُولي الألباب: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[2].

* * * * *

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦، والحديث رواه البخاري (٤٤٨٥).

(٢) سورة آل عمران: ٨.

لا هجرة بعد الفتح*

٨٥ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النَّبي ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونية، وإذا استُنفرتم فانفِروا». رواه الشيخان [١].

المفردات:

الهجرة في أصل اللغة: الترك، ثم غلبت على الخروج من أرضٍ إلى أرض، وقد شاعت في انتقال المسلمين الأوَّلين من مكة إلى المدينة، فلا يكاد يُفهم عند إطلاقها غير هذا المعنى؛ فإذا أُطلق ذكر الهجرتين، فالمراد بهما: هجرة الحبشة والمدينة. **والهجرة في الشرع**: ترك ما نهى الله عنه.

والجهاد في اللغة: المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. **وفي الشرع**: بذل الجهد في قتال الكفار. ويُطلق على مجاهدة النفس، والشيطان والفسَّاق. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾[٢].

والاستنفار: الاستنْجاد والاستنْصار، واستنفر الإمام الرعيَّة فنفرت؛ أي: دعاها إلى الحرب والنُّصرة، فأجابت وخرجت.

* * * * *

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد الخامس عشر، محرم (١٣٦٣= ١٩٤٤).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣) في الجهاد، ومسلم (١٣٥٣) في الحج.

(٢) سورة الحج: ٧٨.

سبب الهجرة

صدع النبيُّ ﷺ بما أُمِر، فلقيَ هو وأصحابه من سُخرية المشركين، وضروب إيذائهم ما يزلزل أيسرُه عظماءَ الرجال، ويا لَيْتَ الخطْبَ وقف عند السُّخرية والإيذاء!.

إذاً لاحتملوه في ذات الله، بالغاً ما بلغ وكائناً ما كان، ولكن ما الحيلة وقد امتدت يد البلاء إلى دين الله، وحالت بين المؤمنين وبين أوامر الله؟.

لا بدَّ لهم إذاً من هجرة الوطن، والفرار بدينهم من الفتن، وبهذا أمر أصحابه صلوات الله وسلامه عليه.

هاجر المسلمون إلى الحبشة، ثمَّ إلى المدينة، ثم هاجر ﷺ هو وصاحبه بعد ثلاث عشرة سنة، حمل فيها من الأهوال، ما تأبى أن تحملَه الجبال!.

مَكَانة الهجرة

لا غروَ أن كانت الهجرة منقبةً يسمو بها الأوَّلون، وأمنيةً يتمنَّاها الآخرون؛ ولكن ما الحاجة إليها بعد أن جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً؛ وأمِنوا على دينهم وأنفسهم وأموالهم؟! فليشرح النبيُّ ﷺ بحديثه هذا صدوراً كانت حَرِجة، ولينزع وساوسَ كانت مُخْتلجَة، وليبيِّن لمن حزَنه أن لم يكن من السابقين بالمهاجرة، ولا من التابعين بالمناصرة، أنَّ الهجرة قد ارتفع حكمها، ولكن بقي بدلُها، وهو الجهاد والنية؛ فخذوا من العدوِّ حذركم، وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة، حتى إذا جدَّ الجد، واستنفركم الإمام لإعلاء كلمة الله، وحماية دين الله، فلا تهنوا ولا تجبنوا، بل انفروا خِفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، فإن فاتكم هذا الجهاد فلا تفتكم نيَّته، فَرُبَّ نيَّةٍ خيرٌ من عمل، ولكلٍ امرئ ما نوى.

قالت عائشة رضي الله عنها، وقد سألها عُبيد بن عمير الليثي عن الهجرة: «إنما كانت الهجرة، قبل فتح مكة والنبيُّ ﷺ بالمدينة، أمَّا اليوم فلا هجرة. كان

المؤمنون يفرُّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافةَ أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث يشاء، ولكن جهاد ونية»[١].

حكم الهجرة

نعم، كانت الهجرة فرضاً في الإسلام، على مَنْ أسلم وكان قادراً عليها؛ لِيَسْلَم من أذى الكفار، ويأمن على دينه؛ ولِيعاون إخوانه المسلمين ويكثِّرهم، ثم لِيجاهد مع النبيِّ ﷺ ويتعلَّم منه شرائع الإسلام وأحكامه.

وقد أعظم الله تعالى شأنَ هذه الهجرة، حتى قطع الموالاة والنُّصْرة بين مَنْ هاجر ومَنْ لم يهاجر، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾[٢].

أما العاجزون عن الهجرة، من أسير ومريضٍ ومَنْ إليهما، فقد قَبِلَ الله عذرَهم، وعفا عنهم، واستثناهم من الذين ظلموا أنفسهم وباؤوا بسخطه؛ لأنهم المستضعفون حقاً: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[٣]. على أنَّ أحداً من هؤلاء الضعفاء إذا كلّف نفسه ما لم يكلَّف، فخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، فقد وقع أجره على الله.

ومازال الأمر كذلك حتى فُتحت مكة، فنُسخ فرضُ الهجرة، وبقي فرضُ الجهاد والنية.

حكم الإقامة في دار الكفر

وعلى هذا فلا حرج ـ منذ الفتح إلى أن تقوم الساعة ـ على مَنْ أقام في دار

---

(١) رواه البخاري (٤٣١٢) في المغازي.

(٢) سورة الأنفال: ٧٢.

(٣) سورة النساء: ٩٨.

الكفر مسلماً قادراً على عبادة ربِّه، سالماً من الأذى في دينه. بل قال الماوردي: إنَّ إقامة هذا أفضل من رحلته؛ إذ يُرجى من وراء إقامته دخول غيره في دين الله. وهو قولٌ حقٌّ تؤيِّده دلائل الشريعة، لكن لمَنْ نوى بإقامته إظهارَ الحقِّ والدعوة إليه، وكان أهلاً لذلك، وإلاّ فهجرته مستحبَّة، لتكثير المسلمين ومعونتهم، وجهاد الكفار، والأمن من غدرِهم، والراحة من رؤية المنكر بينهم.

وقصارى القول: أنه لا تجب عليه الهجرة ما لم يُفتن.

ويذهب ذاهبون إلى وجوب الهجرة من بلاد الشرك، على المسلم القادر مطلقاً، مُستندين إلى مثل قوله صلوات الله وسلامه عليه: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين»[١].

«لا تنقطعُ الهجرة حتى تنقطعَ التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[٢].

ولكنَّ الحقَّ ما قاله صاحب «الفتح»: إنَّ هذا فيمن خشيَ الفتنة على دينه[٣]. وهذا الذي أشارت إليه عائشة رضي الله عنها، من قبل[٤].

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، والنسائي (٤٧٨٠).

(٢) رواه أحمد في المسند ٤ :٩٨(١٦٩٠٦)، وأبو داود (٢٤٧١)، والنسائي في الكبرى (٨٦٥٨)، كلهم من حديث أبي هند البَجَلي يرويه عن معاوية، وهو حديث ضعيف لجهالة أبي هند البجلي، فقد انفرد بالرواية عنه عبد الرحمن بن أبي عوف الجُرشي، وقال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف، لكن احتجَّ به النسائي على قاعدته. وقال ابن القطان: مجهول. وللحديث شاهد حسن عند أحمد برقم (١٦٧١) يرويه بسنده عن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص. انظر: المسند، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٣) فتح الباري ٧: ٢٧٠ _ ٢٧١.

(٤) انظر: ص٦٧٥ ـ ٦٧٦.

الهجرة إلى الله ورسوله

وكما تنبغي الهجرة من دار الكفر للقادر المتمكِّن من إقامة دينه، تنبغي كذلك للجهاد، والحج، وطلب العلم، وابتغاء الحلال من الرزق، والنظر في ملكوت السموات والأرض، والعمل على ما يرفع من شأن المسلمين، ويعلي مكانهم. وكلّ هذا من قبيل الهجرة إلى الله ورسوله.

فإذا تعيَّن شيء منه فلا جدالَ أنه فرضٌ محتوم لا يثَّاقل عنه مؤمن بالله ورسوله. ومن المؤسف المؤلم أن يسبقنا الأجانب إلى الهجرة ودركِ أسرارها، حيث ينشدون الرفعة لبلادهم، والعزة لأُممهم، ونحن لا نزيد على أن نتفكَّه بالنظر إليهم، كأنهم ما غادروا الديار وكابدوا الأسفار، إلاَّ ليستمتعوا مثلنا ويلهوا!.

المهاجر الحق

وبعد؛ فلئن مضت هذه الهجرة الحسنة لأهلها، وذهبت بجلالها وفضلها، فإنَّ الهجرة المعنوية لهي أعلى منها شأناً، وأجلّ قدراً وأجراً؛ تلك هي هجرة الروح حيث يزكِّي المرءُ نفسه، ويطهِّر قلبه، باجْتناب المآثم، واجْتناء المكارم؛ تلك هي الهجرة كلُّ الهجرة التي بيَّنها الرسول الكريم في جوامع كلمه؛ إذ يقول صلوات الله وسلامه عليه: «المسلمُ مَنْ سلمَ المسلمون منْ لسانه ويده، والمهاجر من هجرَ ما نهى الله عنه»[1] رواه البخاري.

مكانة الجهاد وأقسامه

أما الجهاد، وما أدراك ما الجهاد؟! فهو حِصْن الإسلام ومُنَّته، وعصمة الدين وجُنَّته[2]؛ اختار الله له خاصَّة أوليائه، وبشَّرهم بجليل نعمِهِ وعطائه

---

(١) أخرجه البخاري (١٠) في الإيمان.

(٢) المنَّة: القوة، والجُنَّة: السُّتْرة، وكلُّ ما وقى من سلاح وغيره.

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

وآخران لهما منزلة وفضل؛ هما جهاد النفس والهوى، وجهاد المنافقين والظلمة. والناس درجات مختلفة باختلاف تفاوتهم في جهادهم؛ ولذا كان ﷺ أكمل الخلق مرتبةً، وأرفعهم درجة؛ لأنه استوى على صنوف الجهاد كلِّها، فجاهد في الله حقَّ جهاده، بالقلب والجَنان، والدعوة والبيان، والسيف والسِّنان، ولم يألُ جهداً في نصر الله وإعلاء كلمته. وانظر في شمائله تفصيل هذا كله.

مكانة النية من العمل

وأما النِّية فهي من الأعمال بمنزلة الرُّوح من الجَسَد، وحَسْبها فضلاً أنها تُغني عن العمل، دون أن يغني عنها عمل: «إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى»[٢].

* * * * *

(١) سورة النساء: ٩٥.

(٢) تقدَّم تخريجه وشرحه تحت عنوان: «إنما الأعمال بالنيات» ص ٤٢٣.

الجوار الأعظم *

٨٦ ـ عن أبي بكرٍ الصِّديق رضي لله عنه قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين، ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا؛ فقلت: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم نظر تحت قَدَمَيْه لأبْصَرَنا؛ فقال: ما ظَنُّك يا أبا بكرٍ باثنيْنِ اللهُ ثالثُهُما؟!.

رواه الشيخان[1].

أجلُّ جوار وأعظمُه

إذا كان عظَمُ الجوار، على مقدار عِظَم الجار[2]، فلا رَيْبَ أنَّ جوار الله عزَّ سلطانه، أجلُّ جوار وأعظمه، وأنَّ حِماهُ تعالى شأنه أعزُّ حمىً وأكرمُه؛ وأين جوار الخلق أجمعين من جوار الخلاَّق العظيم؟! بل أين حمى العبيد، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، من حمى الملك المجيد ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[3]

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد السادس والعشرون، (١٣٧٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة (٣٦٥٣)، وفي كتاب مناقب الأنصار (٣٩٢٢)، وفي كتاب التفسير (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) في فضائل الصحابة.

(٢) كان (الجوار في الإسلام) الذي اختتمنا بأحاديثه الثلاثة عامَنا الغابر خاصاً بجوار الأنام، وأما هذا الجوار الذي افتتحنا به عامنا الحاضر، فإنه خاصٌّ بجوار ذي الجلال والإكرام، والعزة التي لا تُرام (طه).

(٣) اقتباس من الآية ٢ من سورة الفرقان.

الجوار الإلهي درجات

إنَّ ذلك الجوار الأعظم الذي نعنيه، هو الذي عَنَاه الرسول الأكرم ﷺ في حديثه هذا لصاحبه الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه.. وهو الجوار الخاصُّ الذي يختصُّ الله به عبادَهُ المقرَّبين، من النبيِّين والصِّدِّيقين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وهو على درجات لا يُحصيها إلاَّ مَنْ أحاط بما لديهم و أحصى كلَّ شيء عدداً..

المعيَّة الإلهيَّة الخاصَّة

وهو جوار المعيَّة الخَاصَّة، والصُّحبة الربانيَّة المقدَّسة، التي حرَّمها الله على أعدائه؛ لأنهم نسوا الله فَنَسِيَهم، وأعرضوا عنه فأعرض عنهم، واقرؤوا ـ إن شئتم ـ قولَه عزَّ جاره: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[1]

المعيَّة الإلهيَّة العامة

وثَمَّ جوارٌ إلهيٌّ آخر، وهو جوار المعيَّة العامَّة الشَّاملة، معيَّة إحاطته تعالى بخلقه، علماً، وقدرةً، وجزاءاً، لا تخفى عليه منهم خافية، تلك المعيَّة التي يشير إليها جلَّت قدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2] وينبئُ عنها قوله تعالت عظمتُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ

---

(١) سورة الأنبياء: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) سورة ق: ١٦.

ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وشتَّان ما بين الجِوَارَيْن: فذاك جوارُ التكريم والتأييد والتَّسديد، وهذا جوار المحاسبة والإنذار والتهديد..

الأسباب لا تُلغى

ولا يضير هذا الجوار الكريم وأهله أن يأخذوا في أسبابه، وأن يَعدُّوا العدَّة له، ما داموا بربِّهم معتصمين، وعلى ربِّهم متوكِّلين، فإنَّ الاعتصام بالله تعالى والتوكُّل عليه أساسُ هذا الجوارِ وعمادُه، وقد أمر الحكيم العليم الذي ربَط الأسباب بالمسبَّبات، والوسائل بالغايات، أمرَ عباده ألاَّ يُلْغوا هذه الأسباب، فيُلْغوا معها حكمته؛ وألاَّ يغلوا فيها، فَيَجْحدوا بهذا الغلوِّ مشيئته وقدرته..

وهذا سيِّد المتوكِّلين، يأخذ مع أوَّل الصِّدِّيقين، بكلِّ أسباب النجاة، في هجرتهما إلى الله.. حتى إذا أحسَّ الصِّدِّيق وَقْع أقدام الكفار فوق الغار، أَلِمَ وَحَزن، وخَشيَ أن يُصابَ الرسول ﷺ بأذى لا يستطيع أن يدفعه أو يحمله ـ وهو أول من يفتديه بنفسه وماله ـ طَمْأنه صلوات الله عليه وسلامه بأنَّ الله معهما، وأنَّهما اثنان الله ثالثهما، وقد اعتصما به وحده دون خلقه، فلو أنَّ السَّموات السبع ومن فيهنَّ، والأرضين السَّبْع ومن فيهنَّ، كادوا لهما لَجَعَلَ لهما من هذا الكَيْد فَرَجاً ومَخْرجاً..

الأخذ بالأسباب في أعلى مقامات الجوار

وقد ظاهر صلوات الله عليه في الحرب بين درْعَيْن، وكان يُصلِّي في الحرب صلاةَ الخوف بطائفةٍ بعد طائفة، وهم آخذون حِذْرَهم وأسلحتهم، مع أنهم جميعاً في أعظم الجوار، وأمنع الحِمى.

---

(١) سورة المجادلة: ٧.

بل لا يضير هذا الجوار الكريم وأهله أن يكونوا ـ بجوارحهم لا قلوبهم ـ في جوار أحد الناس وضمانه، ما دام هذا الجوار سبباً كريماً مشروعاً، ووسيلةً سائغةً للخير والهداية. لا جَرَمَ أنَّ المُجير مع المجار، كليهما في جوار الله حينئذ..

ولمَّا عاد ﷺ من الطائف لم يستطع دخول مكة ـ لمَّا علمت قريش من توجُّهه إلى الطائف يستنصر بأهلها عليهم ـ إلا بجوار المُطْعِم بن عَديٍّ، وكان جوارُهُ هذا يداً حفظها له النبيُّ ﷺ، وذكرها بعد موته[1].

مقامات خاصَّة

على أنه قد تعرض للمتوكِّلين الصَّادقين نَفَحاتٌ إلهيَّة تأخذ بقلوبهم وأنفسهم، فلا يستطيعون لها مَدْفعاً، وهم معذورون إذ ينسون في هذه الأحوال جميع الأسباب، ولا يذكرون إلا العزيز الوهاب.. وقد يأخذون في الأسباب، ثم يرفضونها بكلِّ شَمَمٍ وإباء، اعتزازاً ببارئهم وبارئ الأرض والسماء.

ومن هذا ما وقـــع للصِّدِّيق نفسِـه رضـــوان الله عليه مع ابن الدُّغُنَّة لمَّا لقيه ـ وقد أجمع أمره على الهجرة إلى الحبشة ـ فقال له: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، وأريد أن أسيحَ في الأرض وأعبد ربي! فقال ابن الدُّغُنَّة: مثلُك يا أبا بكر لا يَخْرُج ولا يُخْرَج، وَوَصَفَهُ بما وَصَفَتْ به خديجةُ رسولَ الله ﷺ أوَّل ما رأى الملك، وقال لها: لقد خشيت على نفسي.. وانتهى الحديث بجواره إيَّاه على أنْ يعبد ربَّه في داره، ولا يَسْتعلِنَ بصلاته.. غير أنَّ أبا بكر كان

---

(١) أخرج أحمد في «مسنده» ٤ :٨٠ (١٦٧٣٣)، والبخاري (٣١٣٩) و(٤٠٢٤) عن جُبير بن مطعم عن النبيِّ ﷺ: «لو كان المُطْعِم بن عَديٍّ حيّاً فكلَّمني في هؤلاء النَّتنى أطلقْتُهم» يعني أُسارى بدر. أي: أطلقهم بلا فداء.

رجلاً بكَّاءً لا يملك عينيه، فأفزع ذلك أشراف قريش، وسعَوا إلى ابن الدُّغُنَّة أن يستردَّ جواره أو يُسِرَّ أبو بكر صلاته وقراءته.. فردَّ أبو بكر جوار ابن الدُّغُنَّة قريرَ العين بجوار الله عزَّ وجل..[1]

غير أنَّ هذه مقاماتٌ خاصَّة محدودة، لا ينبغي أن يُقاسَ عليها، ولا أنْ يُدعى أحدٌ إليها.. ولبسط القول فيها مجال آخر..

جوار الشيطان سراب

وإذا كان جوار الرحمن أعظم الجوار وأكمله، كان جوار الشَّيطان بلا رَيْب أحقر الجوار وأسفله، فكم زيَّن في الدنيا ووعد بأنه جار، فلَمَّا جدَّ الجد تبرَّأ ونكص وولَّى الأدبار.. وهو في الآخرة أشدُّ تبرؤاً ونكوصاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾[2].

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[3].

* * * * *

(١) الحديث أخرجه البخاري (٣٩٠٥) في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه.

(٢) سورة عبس: ٣٤ـ ٣٥.

(٣) سورة الانفطار: ١٩.

بدل من الهجرة *

٨٧ ـ عَنْ أَبِي سَعِيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاء أَعْرَابِيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَن الْهِجْرَة، فَقَالَ: «وَيْحَكَ! إنَّ الْهِجْرَةَ شَأْنُهَا شَديدٌ، فَهَلْ لَكَ منْ إبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَتُعْطي صَدَقَتَها؟» قَال: نَعَمْ. قَال: «فَهَلْ تَمْنَحُ منْهَا شَيْئاً؟» قَال: نَعَمْ. قَال: «فَتَحْلُبُها يَوْمَ وِرْدِهَا؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَاعْمَلْ منْ وَرَاءِ الْبِحَارِ؛ فَإنَّ اللهَ لَنْ يَتِرَكَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئاً». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[1].

منهاج الحنيفيَّة السَّمْحَة

قد يبدو جديداً في هذا العهد الجديد، أن ننتقلَ من أحاديث الهجرة وشؤونها، وحِكَمِها وأحكامها، وما يتَّصل بها من روائع أخبارها وأسرارها، وبدائع إيثارها وآثارها، إلى ما يعادلها من صالح الأعمال، وحميد الخصال؛ فقد أسهمت هذه المجلة في مجلَّداتها الأربعة والعشرين، بنصيب غير قليل من تلك الشؤون، ومنها ما كتبناه مستهل العامين: الخامس عشر والتاسع عشر في حديثي الصحيحين: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهاد ونية ...»[2]، و«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى...»[3].

ويسيرٌ على مَنْ تأمَّل في سياسة الحنيفيَّة السَّمْحَة، أن يَلْمَسَ في منهاجها

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد الخامس والعشرون، محرم (١٣٧٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٣) في كتاب الشهادات، ومسلم (١٨٦٥) في الإمارة.

(٢) انظر: شرح حديث: «لا هجرة بعد الفتح» ص ٦٧٤.

(٣) انظر: شرح حديث: «إنما الأعمال بالنيَّات» ص ٤٢٣.

الحكيم القيِّم، من كلِّ عُسْرٍ يُسْراً، ومن كلِّ ضيقٍ فَرَجاً، ومن كلِّ شاقٍّ بدلاً. وحَسْبُنا حديث ذلك الأعرابي شاهداً إلى أن يَمُنَّ الله ببسط الشواهد في أحاديث أخرى.

رُبَّ مقيم خيرٌ من مهاجر

ظنَّ هذا الأعرابي أنَّ الهجرة إلى المدينة ومصاحبةَ النبيِّ ﷺ فيها، أمرٌ محتوم على كلِّ مسلم، وعَزَب عنه أنها متعذِّرة على مثله أو متعسِّرة، أو أنها إنما تجب على القادر عليها مخافةَ الفتنة في دينه، فأمَّا من كان مثله فلا بأس بأن يقيمَ مكانه ويعبد ربه؛ فلمَّا سأل الرسول ﷺ أن يبايعَه على الهجرة رقَّ له صلوات الله وسلامه عليه ورحمه، وهو بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ، وأخبره أنَّ الهجرة شيءٌ عظيم، لا يقدر عليه إلاَّ من يوطِّن نفسه على الصَّبر والجَلَد وبذل النَّفْس والنَّفيس في سبيل الله.

ورُبَّ قارٍّ في وطنه يعمل ويتصدَّق خيرٌ من مهاجر، ورُبَّ مهاجر ليس له من هجرته إلاَّ نَصَب الجسم وشقاء النفس!.

ثمَّ عرَّفه صلوات الله وسلامه عليه أنَّ للهجرة بدلاً يقوم مَقَامها في عظيم الأجر والمثوبة، لمَنْ أَصْلَح نيَّته وأَحْسَنَ عمله؛ بدلاً يختلف باختلاف كلٍّ وما خُلق له.

والأعرابُ: أهل المال الراعي: الإبل، والبقر، والشاء؛ والأُولى أكرمُ أموالهم، ولا سيما الحمراء؛ فبدل هجرتهم أن يؤدُّوا حقوقها كاملة غير منقوصة، من صدقاتها الواجبة، ونوافلها المُسْتحبَّة، وليعملوا بعد ذلك أينما كانوا، ولو مِنْ وراء البحار[1]؛ فإنَّ الله تعالى لن ينقص أجرَ عامل مثقال ذَرَّة:

---

(١) الشُرَّاح على أنَّ البحر هنا: القرية أو البلد، ومنه: «وكتب لهم ببحرهم»، ولكنا نختار أن يكون على حقيقته، وأنَّ العبارة جارية مجرى المثل للأمكنة التي تحول بينها البحار =

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[١].

حقوق النَّعَم

بيَّنَ النبيُّ ﷺ في حديثه هذا أهمَّ حقوق النَّعَم: أن تُؤَدَّى زكاتها، وأن يمنح منها، وأن تُحلَب على الماء يوم وِرْدها. ومن حقِّها ـ كما بيَّن النبيُّ ﷺ في أحاديث أخرى ـ: إعارة دلوها، وإعارة مَحِلِّها[٢]، وحَمْلٌ عليها في سبيل الله.

فأما زكاتها وزكاة سائر الأموال، فهي فريضةٌ محتومة لا رَيْب فيها، بل هي ثالث أركان الإسلام الخمس.

وكفى مانعُ الزكاة إثماً وخزْياً أنَّ الله يعذِّبه بماله في الدنيا والآخرة، فهو في دنياه حارسٌ مَهينٌ ذليلٌ خائفٌ، وفي أُخراه أشدُّ مهانةً وذلاًّ، يوم يُحْمى على الذهب والفضة في نار جهنم، فتُكوى بها جبهته وجَنْبه وظهره، وتجيء الإبل أو البقر أو الغنم أعظم ما تكون وأسمنَه، تطؤه بأخفافها، وتنطحه بقرونها، كلَّما جازت آخرها، وَرَدَت عليه أُولاها، حتى يقضي بين الناس[٣].

عطية الرقبة للمنافع

وأما **المنحة والمنيحة**: فهي العطيَّة، وتقع على وجهين: عطية الرقبة بمنافعها من الحيوان والنَّعم والذهب والورِق والأثاث وما إلى ذلك، وهذه هي الهبة؛ وعطية الرقبة للمنافع زماناً من اللبن والشَّعر والوبر والثمار ونحوها، على أن تُردَّ الرقبة إلى صاحبها، وهذه الثانية هي المراد هنا.

شقة وبعداً، وأكبر علمنا أنه ﷺ صاحب هذا الابتكار البديع (طه).

(١) سورة النساء: ٤٠.

(٢) أي: الموضع الذي تحلُّ فيه.

(٣) اقتباس من حديث رواه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧) في الترهيب من منع الزكاة.

صنائع المعروف

والمنائح من الصنائعِ الجليلة الشأن، العظيمةِ الخطر، التي لا يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم.

ومِّما جاء في فَضْلها والحثِّ عليها ما رواه الأئمة: أحمد والترمذي وابن حبَّان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مَنَحَ منيحةَ لبنٍ أو وَرِق، أو هَدَى زُقاقاً[١]، كان له مثل عِتْق رقبة»[٢].

وإنما كان له هذا الأجر لأنه أحيا نفساً، أو نفَّس كَرْباً، والجزاء من جنس العمل.

وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ألا رجل يمنح أهل بيتٍ ناقةً، تغدو بِعُسٍّ، وتروح بعُسٍّ، إنَّ أجرها لعظيم»[٣]. والعُسُّ: الإناء الضخم.

وقد كانت معيشة النبيِّ ﷺ وأصحابه أوَّل ما قدموا المدينة، تعتمدُ على هذه المنائح، أراد الأنصارُ أن يقاسموهم أموالَهُم وديارَهُم، حتى عرضَ بعضهم أن ينزل عن إحدى زوجتَيْه فيطلِّقها ليتزوَّجها أخوه المهاجري عَقِب عدَّتها، فأَبَوا إلاَّ منيحة المنفعة..

وفي هذا تقول أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عليها لابن أختها عروة: إنْ كنَّا

---

(١) قوله ﷺ: «منح منيحة وَرِق»، يعني به قرض الدرهم، وقوله: «أو هدى زقاقاً» إنما يعني به هداية الطريق، وهو إرشاد السبيل. كما في «الترغيب» (١٣١٨).

(٢) أخرجه أحمد ٤ : ٢٨٥ (١٨٥١٦) (١٨٥١٨)، ورواته مُحتجٌّ بهم في الصحيح، والترمذي (١٩٥٨) وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان (٥٠٩٦)، وقد شُرِح هذا الحديث في الجزء الثاني مِنَ المجلد الثاني من مجلة الأزهر (ص:١٠٤ ـ ١١٣) بقلم الأستاذ حسن منصور رحمه الله تعالى. وسيصدر مع مجموعة الأحاديث الأخرى قريباً بعون الله.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٢٠).

لننظر إلى الهلال، ثُمَّ الهلال، ثلاثة أهلَّة في شهرين، وما أُوقِدَتْ في أبياتِ رسول الله ﷺ نارٌ، فيقول: يا خالة! ما كان يُعيشُكُم؟ فتقول: الأسودان؛ التمرُ والماء، إلاَّ أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار، كانت لهم منائحُ، وكانوا يمنحونَ رسولَ الله ﷺ من ألبانها، فيسقينا(١).

فضل الأنصار

ويروي الترمذي وأبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: لمَّا قدم النبيُّ ﷺ المدينة أتاه المهاجرين، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قوماً أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل، من قومٍ نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المَهْنأ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه، فقال النبيُّ ﷺ: «لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتُم عليهم»(٢).

وحَسْب الأنصار ـ بدلاً من الهجرة ـ هذه الصنائع التي كتبها الله لهم، وأثنى بها عليهم. ثم بشَّرهم نبيُّه صلوات الله عليه وسلامه بأنه لا يحبُّهم إلاَّ مؤمن، ولا يبغضهم إلاَّ منافق، وأنَّ من أحبَّهم أحبَّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله(٣).

ثم إعلانه بأنه لولا الهجرة لكان امرأً من الأنصار (٤)... أيُّ بدلٍ هذا؟! وأيُّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٧) في كتاب الهبة وفضلها، ومسلم (٢٩٧٢) في كتاب الزهد والرقائق.

(٢) أخرجه أحمد ٣: ٢٠٠ (١٣٠٧٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٧)، والترمذي (٢٤٨٧)، وأبو داود (٤٨١٢)، وهو صحيح على شرط الشيخين.

(٣) روى البخاري (٣٧٨٣) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم (٧٥) في الإيمان، والترمذي (٣٨٩٦) في المناقب عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في الأنصار: «لا يحبُّهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فَمَنْ أحبَّهم أحبَّه الله، ومَنْ أبغضهم أبغضه الله».

(٤) روى البخاري (٣٧٧٩) عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: «لو أن الأنصار =

فضلٍ هذا؟! تالله لولا أنَّ النُّصرة تابعةٌ للهجرة، لقلنا: إنَّ الأولى خيرٌ من الآخرة.

تخصيص حَلْب النَّعم يوم وِردها

وأما تخصيص حَلْبِها بيوم وِرْدها؛ فَلِلْرفق بالماشية، والتيسير عليها، ولتمكين المساكين والمحاويج من لبنها، وانتفاعهم به، ولتعميم البرِّ، وإشاعة الخير، وبثِّ التعاون جَهْرةً في أشدِّ المواطن حاجةً إليه، فكم من فقير محتاج منقطع لا يسأل الناس إلحافاً، يموت جوعاً ولا يَرْزأ أحداً شيئاً، فإذا أوى إلى وِرد الماشية تفطَّن له أصحابها، فمنُّوا عليه ممَّا منَّ الله عليهم من فَضْله.

صَدَقة السرِّ وصَدَقة الجَهْر

وإذا كانت صَدَقةُ السرِّ أفضلَ من صدقة الجهر؛ لأنها أقرب إلى إخلاص المعطي والسَّتر على المُعطى، فإنَّ صدقة الجهر أفضل؛ لأنَّها أدعى إلى الاقتداء وأعون على إذاعة البرِّ والتقوى؛ وما أصاب موضعه ـ مع صدق النية ـ فهو خيرٌ وأبقى، «ولكلِّ امرئ ما نوى».

هل في المال حقٌّ سوى الزكاة؟

ذلك، وللعلماء بحثٌ هنا فيما عدا الزكاة من هذه الصنائع وأمثالها: هل هي حقوقٌ مفروضة فرض الزكاة، أوهي من مكارم الأخلاق ونوافل البر؟

والذي نختاره أنها من المكارم المُسْتحبَّة، ما لم تدعُ إليها ضرورة واجبةٌ، فتكون حينئذ حقاً محتوماً على المُصَلِّين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾

سلكوا وادياً أو شعباً لسلكتُ واديَ الأنصار، ولو لا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار».

وروى الترمذي (٣٨٩٥) عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار».

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[١].

بدل الهجرة في الأمم الإسلامية

وإذا كان هذا هو بدل الهجرة من أعرابيٍّ واحد في إبله، فكيف يكون البدل من الأمم الإسلامية، منفردةً ومجتمعةً، وفي كلٍّ منها من العلماء والأغنياء والسَّاسة والقادة والكُتَّاب والخطباء والشُّعراء، مَنْ لو أدَّوْا ما افترض عليهم من هذا البَدَل، لَمَا طمع فيهم من كان بالأمس في كنفهم وتحت رعايتهم؟!.

زكاة العلم والمعرفة

الحقُّ أنَّ بدل الهجرة ليس جديداً، فلقد قرَّر الرسول ﷺ هذا البدل ـ حقاً محتوماً واضحاً لا لَبْسَ فيه ـ يوم قال في كلمته الجامعة الساطعة: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا اسْتنفرتم فانفروا**»[٢].

ولقد حذَّر الله ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]!! فهل آن لأمةِ محمدٍ ﷺ ـ وقد جرَّبوا عاقبة خلافه مراراً ـ أن يستجيبوا له مرَّة، فَيُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ويؤدُّوا زكاةَ ما أنعم الله عليهم من علم ومعرفة، ليعودوا كما كانوا سادةَ الدنيا وملوك الآخرة؟!.

ألا قد بلغت.. اللهمَّ فاشْهَد.

* * * * *

(١) اقتباس من الآيات ٢٣ ـ ٢٥ من سورة المعارج.

(٢) انظر شرحه لهذا الحديث تحت عنوان: «لا هجرة بعد الفتح» ص٦٧٤.

(٣) اقتباس من الآية ٦٣ من سورة النور.

رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا الله عليه *

٨٨ ـ عن أنس رضي الله عنه قال: «غاب عمِّي أنسُ بنُ النَّضْر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أوَّل قتالٍ قاتَلتَ المشركين، لئن الله أشهدَني قتالَ المشركينَ، ليَرَيَنَّ الله ما أصنَعُ. فلمَّا كان يومُ أُحُدٍ، وانكشف المسلمون، قال: اللهمَّ إني أعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ، وأبرأُ إليك ممَّا صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ، ثم تقدَّم، فاستقبله سعدُ بن معاذ، فقال: يا سعدُ بنَ معاذ، الجنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ! إني أَجدُ ريحَها من دون أُحُد! قال سعدٌ: فما استطعت يا رسول الله ما صنَعَ.

قال أنسٌ: فوجدنا به بضْعاً وثمانينَ ضربةً بالسيف، أو طعنةً برمحٍ، أو رَميةً بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مَثَّل به المشركون، فَمَا عَرَفَهُ أحدٌ إلاَّ أُختُه بِبَنَانِه.

قال أنسٌ: كنَّا نَرى ـ أو نَظنُّ ـ أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيه، وفي أشباهِه من المؤمنين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾[1]، إلى آخر الآية».

وقال: «إنَّ أخته ـ وهي تُسمَّى الرُّبَيِّع ـ كَسَرَت ثنيَّةَ امرأةٍ، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ بالقصاص؛ فقال أنسٌ: يا رسولَ الله، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا تُكسَرُ ثنيَّتُها، فَرَضُوا بالإرش وتَركوا القِصَاصَ. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عباد الله مَنْ لَو

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد التاسع عشر (١٣٦٧).

(١) سورة الأحزاب: ٢٣.

أقسم على الله لأبرَّه». رواه الشيخان[١].

المفردات:

البَنان: الأصابع، وقيل: أطرافها، وهي الأنامل، واحدتها بنانة.

والثنيَّة: واحدة ثنايا الفم. وهنَّ أربع في مقدمه: ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل. **وأَرْش الجراحات**: ديتُها، وجمعُه أروش.

وإبْرارُ القَسَم: تصديقُه وعدم تحنيثه.

* * * * *

كتائب الفداء

إذا صحَّ للأمم الحديثة أن تفخَرَ بما تسمِّيه في نظامِ جنديَّتها بالكتائب الفدائيَّة، أو فِرَق الموت، فإنَّ الإسلام أولى منهنَّ بذلك، وأحقُّ.

ونُبادر بأنَّا لا نذكرُ هذه النُّظم الحديثة بجانب النظم الإسلامية، إلاَّ كما نذكر الشقاء بجانب السعادة، والضلالة بجانب الهداية، والموت بجانب الحياة؛ والضدُّ ـ كما يقول علماء النفس ـ أقرب خطوراً بالبال إلى ضدِّه. وإلاَّ فأين من يُلقي بيده إلى التَّهلكة في سبيل الاستعمار والغَلَب والجَشَع، واستلاب الأموال والأعراض، والبطش بالضعفاء والمساكين، ممَّن يُرحِّب بالموت في سبيل الله، وإعلاء كلمته، وإحقاق الحقِّ ونُصرته؟!.

وأين من يقذف بجسمه طعمةً للحرب على غرَّة، انتصاراً لعقيدة آثمة، أو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٥) في الجهاد، ومسلم (١٩٠٣) في الإمارة.

إجابةً لثورة جامحة، ممَّن يبذل نفسه مطمئنةً راضيةً، ابتغاءَ مرضاة ربِّه، وشوقاً إلى نعيمه وقربه؟!. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾(١).

كان الإسلام غنياً بهؤلاء الفدائيين، بل كان كلٌّ أتباعه مَثَلاً في تفْديته بالنفس والنفيس ـ على درجات بينهم ـ إذا مُسَّت دعوةُ الحق، أو أُهينت كلمة الصِّدق، أو انتهكت حُرمة العهد والذِّمام، أو فُصِمَت عروةُ الحلف والوئام.

وهذا أنس بن النَّضْر رضي الله عنه ـ أحد السابقين الأوَّلين والأبطال الفدائيين ـ يكبرُ عليه أن يغيب قهراً عن غزوة بدر، أوَّل غزوة أُسِّس عليها مَجْد الإسلام، وشهدها النبيُّ عليه الصلاة والسلام، فيتمنَّى على الله أن يعوِّضه خيراً مما ضاع منه، وأن يُشهده موقعةً يبلي فيها بلاءً حسناً، ويُري ربَّه فيها ـ وهو أعلم به ـ أنه وفيُّ العهد، صادقُ الوعد، قد باع نفسه وماله لله، لا يبتغي شيئاً غير فضله ورضاه؛ ثم يجلس إلى رسول الله ﷺ فيذكر له أمنيته، ويوثِّق لديه عهده، حتى إذا جاءت غزوة أحد، وما أدراك ما غزوة أحد؟! أُصيب بها الغزاة ببعض ما كسبوا، وأثابهم الله غمًّا بغم بما انحرفوا، وكادت الدائرة تدور عليهم بما تعجَّلوا، ولولا فَضْل الله عليهم ورحمته لذهبت ريحهم، وامَّحَت آثارهم.

جاءت هذه الغزوة فَصَدَقَ المسلمون حَمْلَتَهُم في مَعْمَعان الحرب، وأثْخَنوا أهل الشِّرك تَقْتيلاً وتنكيلاً، حتى ولَّوا مدبرين خاسرين؛ هناك برقت لهم غنائمُ المشركين عن كثب، فامتدَّت إليها عيونهم، وتطلَّعت لها نفوسهم، فنسوا أمر الرسول ﷺ بألاَّ يبرحوا مكانهم، ولو كانت العاقبة لهم، وهنالك أحاط المشركون بهم، وقد رأوهم اشتغلوا بدنياهم عن آخرتهم، فأعملوا فيهم سيوفهم، حتى كادوا يظفرون بهم!.

---

(١) اقتباس من الآية ١٨ من سورة الرعد.

الفدائيُّ الوفيُّ

وَبَيْنا الجيش منكشفٌ مُضْطرب، قد تمزَّقت صفوفه، وانفرط عِقدُه ـ جاء الفدائيُّ الوفيُّ أنسُ بن النضر رضي الله عنه، يفي بنذره، ويبرُّ بقسمه، ويستقبل الموت استقبالاً رهيباً لم يعرف التاريخ مثلَه، حتى إذا لقي سعد بن معاذ منهزماً ـ وهو مَنْ هو شجاعةً وثبات جأش ـ صاح به: واهاً لريح الجنة، إني لأجد ريحها وربِّ النضر عند هذا الجبل[1]!. وما هي إلا أنفاس معدودة حتى دخل الجنة فرحاً مستبشراً ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

قال سعدٌ ـ وهو يصف للرسول ﷺ إقدامَ أنس وحُسْن بلائه ـ : واللهِ ما استطعتُ يا رسول الله ـ على عظيم بلائي ـ أن أصنع صنيعه، أو أن أبلي بلاءه.

وقال ابن أخيه أنسُ بن مالك: ولقد وجدنا به أكثرَ من ثمانين ثُلمة، ما بين ضربةٍ بسيف، وطعنة بسنٍّ، ورمية بنَبْل، ولقد شوَّهه المشركون تمثيلاً وتقطيعاً، فلم يعرفه أحدٌ إلا أخته الرُّبيِّع بنت النَّضْر، عرفته بِبَنَانه، وكان حَسَنَ البَنان جميلَها. قال أنس: فكنَّا أصحابَ رسول ﷺ نرى أنَّ هذه الآية الكريمة قد نزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[3].

---

(١) واهاً: كلمة تدل على الإعجاب أو التلهُّف، كأنه يعجب بريح الجنة، وقد تمثَّلها أو أكرمه الله بشذاها. والنَّضر: يجوز أن يكون ابنه الصغير الذي تركه في رعاية الله مؤثراً عليه الجهاد في سبيله، وأن يكون أباه الذي كان يبره ويكرمه (طه).

(٢) سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٣.

ولَيْتَ شعري فيمن تنزل هذه الآية، إن لم تنزل في مثل هذه الصَّفوة التي اصْطفاها الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته؟!.

ولم تُنسِ أنساً رضي الله عنه دهشةُ الموقف ورهبتُه، أن يعتذر لربِّه وهو ماضٍ في سبيله، عن المسلمين الذين تفرَّقوا، وتبرَّأ من المشركين وقد تجمَّعوا[1]، وأن يكون مثلاً عالياً في صدق اللقاء، والصبر على البلاء، واستعجال اللحاق بالشهداء.

فضل أنس بن النضر ومنزلته عند الله

ومنقبةٌ أخرى يرويها أنس بن مالك عن عمِّه رضي الله عنه، تدلُّ على ما له عند الله من فضل ومنزلة: تلك أنَّ أخته الرُّبيِّع خاصمت جاريةً من نساء الأنصار ـ أغضبَتْها في شيء ـ، فلطمتها فكسرت ثنيَّتها، فدُعي أهلُها إلى الصلح فأبوا إلاَّ القِصَاص، وتحاكموا إلى النبيِّ ﷺ، فقال: «كتاب الله القصاص»، وهو صلوات الله عليه لا تأخذه في الحقِّ لومة لائم، ولو كان أقرب الناس إليه؛ فقال أنسٌ وهو يرجو العفو: أتُكسر ثنية الرُّبيِّع يا رسول الله؟! والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيَّتُها. فبينما هو يراجع رسول الله راجياً من فَضْل الله، ورسول الله ﷺ يراجعه؛ عفا أهلُ الجارية عن القصاص، ورضوا بالدية، وصَدَق الله من صَدَقه، ووفَّى لمن وفَّى له، ومَنْ أوفى بعهده مِنَ الله؟! وأرسلَها رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً وحكمة بالغة: «إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأَبرَّه».

لقد كانت الأمة الإسلامية مرفوعةَ الرأس، مسموعةَ الكلمة، عزيزةَ الجانب، أيامَ أنْ كان فيها أمثالُ أنس بن النَّضْر رضي الله عنهم، ممَّن يستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يُحييهم، لا يتخاذلون ولا يتواكلون، ولا يهينون ولا

---

(١) وما أجمل تعبيره في جانب الأولياء «بالاعتذار»، وفي جانب الأعداء «بالتبرؤ»، وأنه كان غير راضٍ عن صنيع الفريقين جميعاً (طه).

يضعفون، فإذا مازلُّوا زلَّةً، فسرعان ما يرجعون وينيبون، ويتَّخذون من الشدائد عِبراً رائعات، وعظات بالغات، ومناراً من الشُّبهات والظلمات. ثم ضعفت التربية الإسلامية رُوَيْداً رُوَيْدا لما استنام المسلمون إلى الدَّعَة، واطمأنوا إلى الراحة، واستراحوا إلى الترف، والترف آفةُ الأمم، وقاتل الهمم!.

مصيبة المصائب

وكانت مصيبة المصائب أن تركوا الجهاد لما خدعهم الأعداء بالمدنيَّة، ورموهم بالعصبيَّة، وأعدُّوا لهم ما استطاعوا من قوة، وهم في غَمْرة ساهون، حتى إذا تمكَّنوا منهم، انقضُّوا عليهم من حيث لا يشعرون!.

ألا فليتنبَّه المسلمون وليستيقظوا، وليعودوا إلى تاريخهم الأوَّل ومَجْدهم المؤثَّل، ولا سبيل إلى ذلك ـ إن شاؤوا ـ إلاَّ إذا جاهدوا في سبيل الله، وأعلوا كلمة الله، واتَّبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم.

* * * * *

دعوى الجاهلية *

٨٩ ـ عن جابر رضي الله عنه يقول: غَزَونا مع النبيِّ ﷺ، وقد ثاب معه ناسٌ من المهاجرين حتى كَثُروا، وكان من المهاجرين رجلٌ لعَّابٌ، فكسَع أنصاريًّاً، فَغَضبَ الأنصاريُّ غضباً شديداً حتى تداعَوا، وقال الأنصاري: يا لَلأنصار! وقال المُهَاجريُّ: يا لَلمُهاجرين، فخرج النبيُّ ﷺ فقال: «ما بالُ دعوى أهل الجاهلية؟!»، ثم قال: «ما شأْنهم؟» فأُخبر بكَسْعَةِ المهاجريِّ الأنصاريَّ، قال: فقال النبيُّ ﷺ: «دَعُوها فإنَّها خبيثة». وقال عبدُ الله بن أُبيٍّ ابن سَلولَ[1]: أقد تَدَاعَوْا علينا؟! لَئِنْ رَجَعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ!. فقال عمر: ألا نقتلُ[2] يا رسول الله هذا الخبيث؟! فقال النبيُّ ﷺ: «لا يَتَحدَّث النَّاسُ أنه كان يقتل أصحابه». رواه الشيخان[3].

المفردات:

ثاب: رجع، وقيل: اجتمع. **لعَّاب:** مزَّاح، بصيغة المبالغة من اللعب، وقيل: كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبش.

كَسَعه: كَمَنَعه، ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه.

---

* مجلة الأزهر العدد الرابع، المجلد التاسع عشر، (١٣٦٧).

(١) أمُّ عبد الله بن أُبي، ولذا تثبت ألف ابن الثانية وينون أبي، لأنها صفة أخرى لعبد الله لا لأبي (طه).

(٢) روي بالنون، وبالتاء.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥١٨) في المناقب، ومسلم (٢٥٨٤) في كتاب البرِّ والصِّلة.

تداعوا: استغاثوا وَدَعا بعضهم بعضاً بدعوة الجاهلية، وهي أن يقولوا عند الحرب: يا آل فلان، أو يا لفلان ، فيجتمعوا لنصرة المستغيث ولو كان ظالماً.

* * *

حرص الإسلام على سلامة الأمة ووحدتها

لم يحرص الإسلام على شيء حرصه على سلامة الأمة ووحدتها، وشَدِّ بنيانها واجتماع كلمتها؛ وهو لذلك يُحذِّرها كلَّ الحذر، ويُشفق عليها كلَّ الإشفاق، ممَّا يُوهن أمرها، أو يُضْعف شأنها، أو يَثْلم هَيْبتها، أو يجرح كرامتها وعزَّتها، ومن تأمَّل قليلاً في قواعد الإسلام ودعائمه، وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه، وحِكَمِه وأحكامه، وَجَدَ أسمى غاياته، وأجلَّ مقاصِدِه، أن تكون أمَّتُهُ أجمع الأمم كلمةً، وأعظمها قوةً وأرفعها مكاناً.

وحَسْبُكَ أن تنظرَ إليه، وقد دَعَا بمختلف الأساليب وأقواها، إلى الائتلاف والتَعاون والتحابِّ حتى نفى الإيمان عمَّن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه[١]، ووعد المتحابِّين بأنَّ لهم منابر من نور يوم القيامة[٢]، وأنَّ الله يظلُّهم في ظلِّه يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه[٣].

---

(١) روى البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه».

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٣٥) ولفظه: «لا يبلغ العبدُ حقيقة الإيمان حتى يحبَّ للناس ما يحبُّ لنفسه».

(٢) روى الترمذي (٢٣٩٠) عن معاذ رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابُّون في جلالي، لهم منابرُ من نور يغبُطهمُ النبيُّون والشهداء» وقال: حديث حسن صَحيح.

(٣) روى البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) وغيرهما عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سبعةٌ يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظِلُّه..» وذكر فيه: «ورجلان

=

وأمر بالتواضع حتى لا يبغي أحدٌ على أحد[1]؛ وأذهب عن المؤمن ـ بعد أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ـ عُبِّيَّة[2] الجاهلية وفخرها بالآباء والأحساب، فكلُّهم بنو آدم، وآدم من تراب[3]، لا فَضْل لعربيٍّ على عجميٍّ ولا أبيض على أسود إلاَّ بالتقوى[4].

ورغَّب في إصلاح ذات البين، وقال: «إنَّ فساد ذات البَيْن هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدين»[5].

وشدَّد النكير على الفتن ما ظهر منها وما بَطَن، حتى لقد بلغ من نكيره على من أيقظ فتنة أو دعا إليها أن تبرَّأ منه حيّاً وميتاً، فقال: «ليس منا مَنْ دعا إلى عصبيَّة، وليس منا مَنْ قاتل على عصبيَّة، وليس منا مَنْ مات على

تحابَّا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه».

(١) روى مسلم (٢٨٦٥)، وأبو داود (٤٨٩٥)، وابن ماجَهْ (٤١٧٩) عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا حتى لا يفخَرَ أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد».

(٢) بضم العين المهملة وكسرها، وتشديد الباء والياء: الكِبْر والفخر. وهذا وما بعده اقتباسٌ من صحاح كتب السنة (طه).

(٣) روى أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:«... إنَّ الله أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وَفَخْرَها بالآباء. إنما هو مؤمن تقيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ، الناسُ بنو آدَمَ، وآدَمُ خلق من تراب».

(٤) أخرج أحمد في «المسند» ٥ :١٥٨(٢١٤٠٧) عن أبي ذر رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «انظر، فإنَّك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى» تفرَّد به أحمد وهو صحيح لغيره.

وروى أحمد أيضاً ٤ :١٤٥(١٧٣١٣) عن عقبة بن عامر، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليس على أحدٍ فَضْلٌ إلا بالدين أو عمل صالح» وإسناده حسن.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥١١).

عصبيّة»(١)، وقال: «من حَمَل علينا السلاح فليس منا»(٢).

منهجه ﷺ في سياسة الأمة وحرصه على وحدتها

وهذه قصَّةٌ تُبيِّن منهجه ﷺ في سياسة أمته، وحرصه البالغ على اتحادها وائتلافها، والحَيْلولة بينها وبين نَزَغَات الشيطان، ونَزَوات الشهوة، ومُضلاَّت الهوى.

روى أصحاب السِّيَر والمغازي أنَّ بني المُصْطلق اجتمعوا لحرب النَّبيِّ ﷺ فخرج إليهم حتى لقيَهم على ماء من أمواههم، يقال له: المُرَيْسيع، فهزم الله تعالى بني المُصْطلق وأمكن منهم.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمرهم، وَرَدَت واردةٌ من الناس تستقي الماء، وتذود الخيل والإبل، فاشتدَّ الزحام حتى اقتتل أجير لعمر بن الخطاب يُدعى جَهْجَاه بن مسعود الغفاري، وحليفٌ لبني عوفٍ يسمَّى سنان بن مسعود الجُهني، فصرخ الجُهَنيُّ: يا لَلأنصار، وصَرَخ الغفاري: يا لَلْمهاجرين!، فثارت حميَّة ابن أُبيٍّ ـ رأس المنافقين ـ، وعنده رَهْط من قومه، وقال: أوَقد فعلوها؟ نَافرونا في ديارنا، وكاَثرونا في بلادنا؛ والله ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلاَّ كما قال الأُوَل: سمِّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل، ثم أقبل على رهطه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحلَلْتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم؛ أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحوَّلوا إلى غير بلادكم!.

---

(١) هي المدافعة عن العشيرة ظلماً وعدواناً، والحديث رواه أبو داود (٥١٢١) عن جُبير بن مطعم.

(٢) رواه البخاري (٦٨٧٤)، (٧٠٧١)، ومسلم (٩٨)، (١٠٠) عن أبي موسى وابن عمر رضي الله عنهم.

تنبَّهت الفتنة، وهاج هائج الشر، وبُلِّغ النبيَّ ﷺ الخبر[١] وكانت له معذرةٌ ـ دونها كلُّ معذرة ـ في قتل رأس النفاق والشِّقاق وسوء الأخلاق، ولا سيما بعد أن استأذنه الفاروق في قتله، ثم ابنه عبد الله رضي الله عنه لما قيل له خطأً: إنَّ النبيَّ ﷺ يريد قتل أبيك![٢].

لكنه صلوات الله عليه وسلامه ـ وقد آتاه الله الحكمة، وبعثه ليتمِّم مكارم الأخلاق ـ سَلَك ما هو حقيقٌ به وبخير أمة أُخرجت للناس. فنهى عن العصبيَّة، وأخبر أنها خبيثة مُنْتنةٌ لا تجلْب إلاَّ الوبال والنَّكال، وخُبْث الفعال، وأخبر عمر أنَّ قتل هذا الخبيث ليس من الخير للمسلمين، ولا للدعوة الإسلامية، فإنَّ دعاة السُّوء سيشيعون أنَّ محمداً ـ وحاشاه ـ يقتل أصحابه؛ لأن عبد الله بن أُبي كان يظهر الإسلام والصُّحبة، ويبطن النفاق والكفر!

ثم ما أجمل أن يأمر ﷺ ابنه عبد الله ـ وهو من خيرة صحابته ـ أن يرفق بأبيه، ويُحسن إليه ـ وقد همَّ بأن يحمل رأسه إلى النبيِّ ﷺ ـ حسماً للفتنة، وسبقاً إلى الطاعة، وإيثاراً لمرضاة الله ورسوله على أقرب الناس إليه وأمسِّهم به![٣].

ثُمَّ أمر ﷺ بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه، ليشتغل كلٌّ بنفسه، ويلهوَ

---

(١) بلَّغه زيد بن الأرقم. وانظر قصَّته، وتصديقَ الله له في صحيح البخاري (٤٩٠٠) (٤٩٠١) (٤٩٠٢) في تفسير سورة (المنافقين)، ومسلم (٢٧٧٢) في أول صفات المنافقين

(٢) موقف عبد الله بن أُبي من أبيه رواه الطبراني من طريق عروة بن الزبير، وقال الهيثمي في «المجمع» ٩ :٣١٨: رجاله رجال الصحيح.

(٣) روى البزار من حديث أبي هريرة قال: مرَّ رسول الله ﷺ بعبد الله بن أبي، وهو في ظلِّ أطم ـ أي: بناء مرتفع ـ فقال: عَبَّر علينا ابن أبي كبشة ـ يعني بذلك رسول الله ـ فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: يا رسول الله، والذي أكرمك لئن شئت لآتينَّك برأسه . فقال: «لا، ولكن برَّ أباك وأحسن صحبته». قال الهيثمي في «المجمع» ٩ :٣١٨: رواه البزار ورجاله ثقات.

عمّا يضرم نار الحقد والخصام[١].

قصة اليهودي قيس بن شاس

وقصَّةٌ أخرى لا تقلُّ عن هذه شأناً إن لم تزد عليها، يرويها المفسِّرون وأصحاب السِّيَر أيضاً. قالوا: مرَّ قيس بن شاس اليهودي بنفرٍ من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدَّثون فيه، فغاظه ما رأى من إلفتهم وصلاح ذات البَيْن بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية؛ وكان شيخاً عظيم الكُفر، شديدَ الضغينة على المسلمين، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلة[٢] بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذاً من قرار!

و أمر شاباً يهودياً كان معه أن يذكِّرهم يوم بُعاث[٣]، وينشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار ـ وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على بني عمِّهم ـ ففعل عدوُّ الله فعلته، فتكلَّم القوم عند ذلك وتنازعوا، حتى تواثبوا، وقالوا:السِّلاحَ السِّلاحَ!

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، وقال: «يا معشر المسلمين! أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهُركم، بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع عنكم أمر الجاهلية، وألَّف بينكم؟!» فألقوا السلاح، وبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع النبيِّ ﷺ سامعين مطيعين؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن

---

(١) معالجة رسول الله ﷺ للفتنة التي أثارها المنافقون في هذه الغزوة رواها ابن هشام في السيرة ٢ :٢٩٠ـ ٢٩٢ والحديث رجاله ثقات، ولكنه مرسل.

(٢) أم الأوس والخزرج، وهما في الأصل أبناء عم (طه).

(٣) بالعين وبالغين كغراب، ويثلث، موضع بقرب المدينة. «القاموس».

﴿يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]. قال جابر: ما رأيت يوماً أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم[٢].

هذا قليلٌ من كثير من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى الألفة والوحدة، وجهاده في نَبْذ الشِّقاق والفرقة، وحُسْن بلائه في لمِّ الشَّعث وجمع الكلمة.

فهل آن لأمته، ولاسيما حَمَلة شريعته، أن يستنُّوا بسنته، ويهتدوا بهديه؟! ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣].

* * * * *

(١) سورة آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» ٥ :٦٣٢، وعبد الرزاق في «التفسير» ١ :١٧٣، وزاد السيوطي في «الدر» ٢ :١٠٣ عزوه لابن أبي حاتم بإسناد صحيح، إلا أنه مرسل.

(٣) سورة الأحزاب: ٢١.

راية الإسلام *

٩٠ ـ عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطينَّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يُحِبُّ اللهَ ورسولَه، ويُحبُّه الله ورسولُه». قال: فباتَ الناس يَدُوكُون ليلتهم: أيُّهم يُعطاها.

فلمّا أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها: فقال: «أين عليُّ بن أبي طالب؟» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه! قال: «فأرسلوا إليه»، فأُتي به، فبَصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فبَرَأ حتّى كأنْ لم يكن به وَجَعٌ، فأعطاه الراية. فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «انفُذ على رَسْلِكَ حتى تنزلَ بساحتهم، ثمّ ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فَوَاللهِ لأَنْ يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يَكونَ لك حُمْرُ النَّعَم». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[1].

يدوكون: يخوضون ويموجون، ومنه وقع الناس في دَوكة، بفتح الدال، وتضم.

انفُذ على رَسْلِك: امْضِ على هَيْنَتك متَّئداً غيرَ عَجِل، ففي الأناة سلامٌ وحكمة.

حُمْرُ النَّعَم: هي الإبل الحمراء، أعزُّ أموال العرب، وأكرمُها عليهم، ومن

---

* مجلة الأزهر، العددان ١٥ و١٦، المجلد السادس والعشرون، سنة (١٣٧٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠) في المغازي، ومسلم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة.

هنا ضربوا المثل بها في نفاسة الشيء وعزَّته.

* * * * *

خروجه ﷺ إلى خيبر

قدم رسول الله ﷺ المدينة على أثر صُلح الحديبية، ومكث بها عشرين ليلةً أو قريباً منها، ثمَّ خرج إلى خيبر، وكان الله عزَّ وجل وعده إيَّاها في سورة الفتح، وقد نزلت مرجعَه من الحديبية.

خيبر ويهودها

وخيبرُ واحة كبيرة خِصْبة، ذاتُ حُصون منيعة، ومزارعُ وَفيرة، ونخلٌ كثير؛ ولا يجتمع سكانها في صعيد واحد، بل يتفرَّقون في وِديان متقاربة، ويقيمون في بيوت مُحصَّنة، تحيطُ بها النخيل وحقول القمح. وتقعُ خيبر على نحو مائة ميلٍ من المدينة إلى جهة الشام..

وكانت خيبر ـ كسائر بلاد اليهود قديماً وحديثاً ـ وِكراً للدسائس والفتن التي يطيِّرونها في الناس كافَّةً، والعرب منهم خاصَّةً!.

وكان يهود خيبر أعرق اليهود في الخِداع والمكر، حتى ضُرِبَ بهم المثل في ذلك. وكانوا إلى هذا الخُبْث رجالاً أشدَّاء محاربين ذوي بأس.

كان هؤلاء الخَوَنة الفَجَرة أشدَّ من هيَّج الأحزاب وألَّبهم على رسول الله ﷺ وأصحابه في غزوة الخندق، فلم يكن لرسول الله ﷺ بدٌّ من القضاء على هذه الأفاعي السَّامَّة، والشياطين الماردة، وهكذا أعدَّ صلوات الله عليه العُدَّة لقتالهم، وأبْلى هو وأصحابهُ بلاءً مبيناً.

وهكذا صَدَقهم الله وعده إذ قال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

دعوة نبوية

واستجاب الله دعاءَ رسوله ﷺ لمَّا دعاه، وقد أشرف على خيبر بعد مسيرة ثلاثة أيام:

«اللهمَّ ربَّ السَّموات وما أَظْلَلْنَ، وربَّ الأرضين وما أَقْلَلْنَ، وربَّ الشياطين وما أضْلَلْنَ، وربَّ الرياح وما ذَرَيْنَ، فإنَّا نسألك خيرَ هذه القرية، وخيرَ ما فيها، ونعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ أهلها، وشرِّ ما فيها»[2].

بشارة نبوية

فلمَّا كان يومُ خيبر، وعَزَم الأمر، أخذت النبيُّ ﷺ الشقيقة ـ وهي ضربٌ من الصُّداع شديدٌ ـ فلم يخرج يومئذٍ؛ فأخذ الراية الصِّدِّيق، وقاتل قتالاً أشدَّ، ثم رجع ولم يُفتح له! فلمَّا كان الغداة أخذها الفاروق، وقاتل قتالاً أشدَّ، ثم رجع ولم يُفتح له، واستشهد محمود بن مسلمة، فقال ﷺ: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح الله له»، وقال لمحمد بن مَسْلَمة: «يفتح الله على يديه فيمكِّنُه من قاتل أخيك»[3]!.

بات أصحابُ رسول الله ﷺ ليلتهم يموجون ويختلفون ويتمنَّون، فما من رجلٍ منهم عامة، والمقرَّبين من رسول الله ﷺ خاصَّة، إلا تمنَّى أن يكون ذلك الرجل، حتى قال عمر رضي الله عنه: ما أَحبَبْتُ الإمارة إلا يومئذ. ولِم لا، وهذه شهادة المعصوم صلوات الله عليه؟! إنَّها لَشَرفٌ ليسَ وراءَهُ شَرَف، ومنزلةٌ

---

(١) سورة الفتح: ٢٠.

(٢) رواه النسائي في اليوم والليلة (٥٥٤)، وابن السُّنِّي (٥٢٤).

(٣) رواه البخاري (٢٩٤٢)، (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

لا تُضَارِعُها منزلة.

من أعلام النبوة

ولما كان الغد بعث ﷺ إلى ابن عمِّه عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان أرمد شديد الرَّمد لا يُبصر، فجيء به، وقد عَصَب عينيه، فتَفَل فيهما أو في راحته صلوات الله عليه، ودعا له فبرأ كأنْ لم يكن به شيء[1]، وكان دعائه له: «اللهم اكفه الحرَّ والبرد»[2]، فلم يرمد رضي الله عنه قطُّ حتى مضى لسبيله، وكان يلبس في الحرِّ الشَّديد، الثوب المَحْشوَّ الثَّخين، فلا يبالي، ويلبس في البرد الشديد، الثوبَ الخفيفَ ،ولا يبالي!

وبعد أن عقدَ لعليٍّ لواءه صلوات الله عليه، وأوصاه بما يُوصي به أُمراء الجيش من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأَناة في القتال؛ إلا إذا لم يكن من الجِدِّ في القتال بدٌّ.

خَرِبَتْ خيبر

بعد هذا مضى سيف الله على بركة الله وهَدْيِ رسول الله ﷺ، ولم يزل الجيش بقيادة أميره، ينتقل بإذن الله مِن نصرٍ إلى نصر، ومِن فتحٍ إلى فتح، حتى خربت خيبر، وساء صباحُ المنذَرين.

وانْجلَت هذه الموقعة الكبرى عن قتل بضْعةٍ وتسعين من عدوِّ الله وعدوِّ الناس أجمعين، واستشهاد بضعة عشر من سادة المجاهدين. أما الغنائم فسل عنها التاريخ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3].

---

(١) من عجائب الأقدار ان أكتب هذا الحديث وأنا أرمد، وأُسلّمه للمجلة وقد منَّ عليّ الله بالشفاء (طه).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٨٣٤٥) من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

(٣) اقتباس من الآية ١٤ من سورة فاطر.

الحكمة في فتح خيبر على يدي عليٍّ دون صاحبيه

وإذا حُبّب إلينا أن نلتمس حكمة الله في الفتح على يدي عليٍّ دون صاحبَيْه، وهما مُقدَّمان في الإسلام عليه، أصبنا من هذه الحكمة عَجَباً!

إنَّ علياً من رسول الله ﷺ بمنزلة هارون من موسى، كما أخبره بذلك لما استخلفه على المدينة في غزوة تبوك[١]، وإنه عَلَمٌ من أعلام أهل البيت..وقد خرج من المدينة وهو أرمد، وكان له العذر الحقُّ أن يتخلَّف، ولم يكن لِيدور بخَلَده أن يطمع في الإمارة أو يتطاول إليها، ولم تكن إمارته لِتخطر على بال أحد ؛ وأشدُّ ما يغيظ اليهود أن يجعل الله مذلَّتهم على أيدي المسلمين كافَّة، وعلى يد النبيِّ ﷺ وأهل بيته خاصَّة؛ فأراد اللهُ العليُّ القدير أن يجمع إلى معجزة كتابه، آيات مُبيِّنات على صدق نبيِّه وإكرامِ أهل بيته، ولن ينقص ذلك كلّه من قدر الشيخَيْن ومكانهما شيئاً.

ساعة قبل قيام الساعة

أما بعد، فإنَّ العالمَ كلَّه شرقيَّه وغربيَّه يموج في هذه الأيام ويضْطرب، ولليهود ـ قاتلهم الله ـ في هذا المَوْج والاضْطراب، مواقدُ فتن، ومراجلُ إحَن، ومكايد عداوة، ولن يَهْدأ العالم يوماً حتى يُقْضَى عليهم فيموتوا، وإنَّ ساعتهم ـ قبل أن تقوم الساعة ـ لآتية لارَيْبَ فيها، وسيُخْرِبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين أولاً، وسيقول المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[٢]. وإنَّ لنا إن شاء الله كرّة عليهم، ثمَّ كرّة.

فتنة أكابر مجرميها

وإذا قَضَتْ حكمةُ الحكيم العليم، أن يجعل بعض الناس لبعض فتنة،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

(٢) اقتباس من الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.

فقد قَضَتْ حكمتُه جلَّ وعلا أن يجعل شرَّ هـذه الفتنـة أكـابر مجرميهـا مـن هؤلاء الكفرة الفَجَرة، الذين قـالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾(١)، فلعنهم الله وغَضِبَ عليهم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾(٢)، ثم تأذَّن ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾(٣).

ولا نقصد الآن إلى تفصيل أخبارهم، فإنها طويلة الذيل، وكلُّها شرٌّ لا خيرَ فيه، وغدرٌ لا وفاء معه، ومكرٌ سيءٌ يحيق بهم كـلَّ حـين، دون أن يتَّعظـوا أو يرعَـوُوا، وأنَّـى لهـم ذلـك؛ وقـد قَسَـتْ قلـوبهم، ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؟!(٤).

ألا رَجُلٌ يحبُّ الله ورسوله.. يفتح الله على يديه

وإنما الذي نقصد الآن إليه، ونستعين الله عليه؛ أنْ يمُنَّ على هذا العالم الإسلامي المُسْتَضْعَف، ويريد به خيراً. فيمنعه الجدل، ويمنحه العمل، ويجعل له من عدوِّه الألدِّ واعظاً ومُعتبَراً، ثمَّ يعطي الراية المحمديَّة رجلاً أو رجالاً منهم، يحبُّون اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهم الله ورسوله، يفتح الله على أيديهم، وينصرُهُم نَصْراً عزيزاً مؤزَّراً.

والذي بيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير، إنه لفاعلٌ ذلك، وخيراً من ذلك، إذا غيَّرنا ما بأنفسنا، ونَصَحنا لله ورسوله، واعتصمنا بحبل الله جميعاً.

* * * * *

---

(١) اقتباس من الآية ٩٣ من سورة البقرة.

(٢) اقتباس من الآية ٦٠ من سورة المائدة.

(٣) اقتباس من الآية ١٦٧ من سورة الأعراف.

(٤) اقتباس من الآية ٧٤ من سورة البقرة.

عيد الجلاء الأول *

ـ ١ ـ

٩١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحنُ في المسجِدِ خَرَجَ النبيُّ ﷺ فقال: «انْطَلِقوا إلى يَهُودَ. فَخَرَجنا، حتى جِئْنا بَيْتَ المِدْراس، فقال: أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا، واعْلَمُوا أنَّ الأرضَ للهِ ورسولِهِ، وإنِّي أُريد أن أُجْلِيَكُمْ من هذه الأرض، فمن يَجِدْ منكم بمالِهِ شَيْئاً فَلْيَبِعْهُ، وإلا فاعْلَموا أنَّ الأرضَ للهِ وَرَسولِه». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري(١).

المفردات:

المِدْراس: صيغةُ مبالغة من الدرس، أو اسمُ مكانٍ منه، والمعنى: أنّهم جاؤوا بيت الحَبْر العالم الذي يدِّرس لهم كتابهم، وهو التوراة؛ أو جاؤوا البيت الذي يقصده اليهود للدراسة والتعليم، من إضافة العام إلى الخاص، مثل: مسجد الجامع، كما يقول النحاة. وفي بعض روايات الحديث: «حتى جئنا المِدْراس»، وهي تُرجِّح المعنى الثاني.

وباء «**بماله**» للبدل والمقابلة، أي: إنَّكم مُكْرَهون على الجَلاء بحقٍّ، ولا مناصَ منه، فَمَنْ وَجَدَ منكم بدل ماله شيئاً ـ ولا سيِّما إذا لم يستطع نقله ـ فَلْيبعْهُ.

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، السنة الثامنة والعشرون (١٣٧٦ = ١٩٥٦).

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٧) في باب إخراج اليهود من جزيرة العرب من كتاب الجزية والموادعة، ومسلم (١٧٦٥) في الجهاد والسِّير.

شرُّ الناس مكاناً:

شرُّ الناس مكاناً، وأبعدُهم فتنةً وطُغياناً، وأشدُّهم عداوةً للناس كافةً، وللذين آمنوا خاصَّة، هم اليهود.

وإذا كان في مُكْنة[1] عدوٍّ واحد أن ينقضَ حَبْل أمةٍ بأسرها؛ ليفسد عليها أمرها، ويُوقد نار العداوة والبغضاء بينها؛ فكيف لأحزابٍ تحزَّبت، وطوائف تجمَّعت، وكلُّهم - مجتمعين ومفترقين - أعدى الأعداء، وأشقى الأشقياء، وأحسد الناس للناس على ما آتاهم الله من فضله؟!!

هذه حقائق جلاَّها كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبيَّنها رسولٌ يعرفه اليهود أنفسهم كما يعرفون أبناءهم أو أشد؛ ولذلك كانوا يستنصرون به، ويستفتحون على الذين كفروا، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

ثمَّ آمنَ الناس جميعاً بهذه الحقائقِ، شُعوباً ودُولاً، فأخذوا يُقتِّلونهم تَقْتيلاً، ويُشَرِّدونهم في الأرض تَشْريداً، ويَسُومونهم سوءَ العذاب، لمَّا رأوا رأي العين من صِدق الله ورسوله فيهم.. وإذا كانت الشواهد على إفسادهم في الأرض في كلِّ زمان أكثر من أن تُعَد، فحَسْبُنا أن نشير إشارةً عاجلة لما صنعه واحدٌ منهم بغياً وحسداً!!

من فِتَنِ اليهود

كان شاس بن قيس اليهودي شيخاً من شيوخ الكفر والطعن على المسلمين، فمرَّ بنفر من الأوس والخزرج، وهم في مجلسهم يتحدَّثون، فغاظه ما رأى من أُلفتهم، وصلاحِ ذات بينهم في الإسلام، بعد أن كان من أمر

---

(١) المكنة: القدرة والاستطاعة، والقوّة والشدّة.

(٢) اقتباس من الآية ٨٩ من سورة البقرة.

عداوتهم ما كان. فقال: والله ما لنا معهم، إذا اجتمعوا من قرار.

فأمر شاباً من اليهود كان معهم، أن يعمد إليهم فيجلس معهم، ويُذكِّرهم يومَ بُعاث، وكان يوماً اقْتتلت فيه الأَوْسُ والخزرج، وكان الظفر فيه للأوْس، ففعل الشابُّ ما أُمر به، فثار القوم وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيِّ، وتَقَاولا.. وغَضِبَ الفريقان جميعاً، وتنادوا: السِّلاحَ السِّلاحَ!! حتى بلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج فيمن معه من أصحابه المهاجرين، فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله. أدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله تعالى إلى الإسلام وأكرمكم به». فعرفوا أنّها نَزْعةٌ من الشيطان، وكَيْدٌ من إخوانه، فألقوا السلاح.

وأنزل الله تعالى فيما أنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[1][2].

شأن اليهود مع المحسن إليهم

لو لم يسئ اليهود إلى قوم يساكنونهم، أو ينزلون بأرضهم - وهذا فرضٌ مُحال - لكان للقوم العذر في إجلائهم وتطهير البلاد منهم؛ لأنهم طُبعوا على اللُّؤم والغدر والكَيْد والأذى، ما وجدوا إلى كلٍّ أولئك سبيلاً... فكيف بمن يُحسن إليهم ويكفرون إحسانه، ويُمضي عهودَهم وينكثون عهدَه، ويدفعُ الضرَّ عنهم ويتربَّصون به الدوائر؟!!.

هكذا كان شأنهم مع رسول الله ﷺ منذ أن هاجر من مكة إلى المدينة، حتى

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٠.

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» ٥ :٦٢٧، وعبد الرزاق في «التفسير» ١ :١٧٣، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» ٢ :١٠٣ لابن أبي حاتم، بإسناد صحيح إلا أنه مرسل. وقد جاء من مرسل عكرمة، أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص١١٦، وزاد الشوكاني عزوه في «فتح القدير» ١ :٦٠٢-٦٠٣ لابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وفي إسناده رجل مُبهم.

أجْلاهم ما شاء الله أن يجليَهم... ثمَّ أوصى في مرض موته بإخراج المشركين من جزيرة العرب، وألا يَبْقينَّ دينان فيها. وسيأتي إن شاء الله بعض تفصيله.

مَعْدِنُ اللؤم

وإذا كان الله جلَّت حكمته قد كتب على اليهود الجلاء منجَّماً، فإن أوّل ما كان منه في العهد النبويِّ، جلاء يهود المدينة، وهم بنو قينُقاع وبنو النَّضير وبنو قُريظة، وكان النبيُّ ﷺ صَالَحهم، وكتبَ بينهم كتاب أمن، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، على ألاّ يحاربوه ولا يُظاهروا عليه عدواً، ولكنَّ معدن اللؤم لا يستقر حتى ينقض!.

أخذوا ينقضون العهد تِبَاعاً، فلم يكن بُدٌّ من غزوهم، ثمَّ إجلائهم تِباعاً كذلك ... وكانت غزوة كلٍّ طائفة منهم وجلاؤه عَقِبَ غزوة من الغزوات الكبار: بدرٍ وأحد والخندق.

بنو قينقاع

فأما بنو قينقاع، فقد غَصُّوا بانتصار النَّبيِّ ﷺ في بدر، وأظهروا ما كانوا يكنُّون من الغيظ والحَسَد لهُ، وَهَدَّدوه وأصحابَه بأنهم هم الناس في الحرب، وكانوا أشْجَعَ يهود.. فتوجَّهت إليهم جنود الله يقودُهم عبد الله ورسوله ﷺ على رأس عشرين شهراً من مهاجره، وحاصروهم في حصونهم أشدَّ الحصارِ وأعظمه، وقذَفَ الله في قلوبهم الرُّعب حتى ذلّوا، وسألوا رسول الله ﷺ أن يَجْلوا من المدينة، ولهم النساء والذرِّية، وللمسلمين أموالهم.

فَجَلَوْا إلى أذْرِعات من بلاد الشام، ولم يحُلْ عليهم الحَوْل حتى هلكوا.

بنو النَّضير

وفي شهر ربيعٍ الأول من السنة الرابعة[1]، لَحِقَ بنو النَّضير بإخوانهم في

---

(١) قال الزهري عن عروة: «كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد» علّقه =

نقض العهد والجلاء، وكانوا ائْتَمَروا بالنبيِّ ﷺ ليقتلوه، فأنذرهم وأجَّلهم عشراً، ليخرجوا من المدينة ولا يساكنوه بها.. فتحصَّنوا، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ﴾(١). وامتنَّ الله على المؤمنين؛ بأنه هو الذي أخرجهم من ديارهم لأوّل الحشر(٢). وقد سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفَّ عن دمائهم، فأجْلاهم بنفوسهم وذراريهم، على أنَّ لهم ما حملت الإبلُ إلا السلاح، وقد جَلاَ معظمهم إلى خيبر، وجَلاَ بعضهم إلى الشام.

بنو قُريظة

ثمَّ لحق بنو قريظة بإخوانهم في نقض العهد من قبل، وكانوا أشدَّ اليهود عداوةً لرسول الله ﷺ وأغلظَهم كفراً، وأقْذَعَهم سبّاً وفُحشاً.

فَمَا إنْ رَجَعَ ﷺ من غَزاةِ الخندق في أواخر سنة خمسٍ، وهمَّ أن يخلع لباس الحرب حتى جاءَهُ جبريل، فقال: وضعت السلاح، فإنَّ الملائكة لم تضع أسلحتها بعد، فانهض بمَن معك إلى بني قُريظة؛ فإني سائرٌ أمامك أُزلزل بهم

البخاري قبل الحديث (٤٠٢٨) في المغازي، باب حديث بني النضير. وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد. وقد وافق ابنَ إسحاق جلُّ أهل المغازي كما قال الحافظ في «الفتح» ٧ :٣٣٠_٣٣١. وقد ذهب إلى تأييد الرأي الثاني ابن القيم في «زاد المعاد» ٣ :٢٤٩، فقال: «وزعم محمد بن شهاب الزهري أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أحد، والتي كانت بعد بدر بستة أشهر هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية، وكان له مع اليهود أربع غزوات؛ أولها: غزوة بني قينقاع بعد بدر، والثانية: بني النضير بعد أحد، والثالثة: قريظة بعد الخندق، والرابعة: خيبر بعد الحديبية» انتهى.

(١) اقتباس من الآية الثانية من سورة الحشر.

(٢) قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ..﴾ [الحشر: ٢] وذلك أول إخراج لهم من جزيرة العرب إلى الشام.

حصونهم، وأقذفُ في قلوبهم الرعب[١].

ولم يكن من بني قُريظة إلا أن تَحصَّنوا بحصونهم التي لم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً. فهزمهم الله شرَّ هزيمة بعد أن نازل حُصونَهم جندُ الله خمساً وعشرين ليلةً، حاصروهم فيها حصاراً لم يعرفْه تاريخهم من قبل. حتى إذا رأوا أنه لا مَنَاصَ من هلاكهم جوعاً، طلبوا إلى الرسول ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النَّضير من الجلاء بالأموال والذراري، فأبى.

ولمَّا شفع فيهم رجال من الأوْس، قال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم»؟ فقالوا: نعم ... ثم حكم سعد رضي الله عنه – وكان جريحاً بسهم أصابه في غزوة الخندق – بأن تُقتل الرجالُ وتُسْبى النساء والذُّرِّيَّة، فقال صلوات الله عليه: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله يا سعد»[٢]. وهكذا طَهَّر الله أرض نبيِّه من قوم لن يفيد فيهم ميثاقٌ ولا عهد.

جلاؤهم في العهد النبويِّ

أَجْلى الله الطوائفَ الغادرةَ الفاجرةَ، من أرض نبيِّه الطاهرة المُطهَّرة، فَمَنْ هم هؤلاء اليهود الذين خَرَج إليهم النبيُّ ﷺ في جماعة من أصحابه، ومنهم راوي الحديث أبو هريرة رضي الله عنه؟.

ضاق المجال عن إجابة هذا السؤال، فموعدنا الجزء التالي بمشيئة الله عزَّ وجل.

* * * * *

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (٤١١٧) في المغازي، ومسلم (١٧٦٩) في الجهاد من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٢١) في المغازي، ومسلم (١٧٦٨) في الجهاد والسيِّر.

عيد الجلاء الأول *

ـ ٢ ـ

٩٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحنُ في المسجد خَرَجَ رسول الله ﷺ فقال: «انْطَلِقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المِدْراس، فقام النبيُّ ﷺ فناداهمُ فقال: يا معشر يهود، أسلِموا تَسْلَموا، فقالوا: بلَّغت يا أبا القاسم، قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك أُريد، أسْلموا تَسْلَموا، فقالوا: قد بلَّغت يا أبا القاسم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك أريد، ثم قالها الثالثة، فقال: اعلموا أنَّما الأرض لله ورسوله، وإني أُريد أن أُجْليكم من هذه الأرض، فَمَنْ وَجَدَ منكم بماله شيئاً فَلْيَبِعْهُ، وإلاّ فاعلموا أنّما الأرض لله ورسوله»

رواه الشيخان واللفظ للبخاري[1].

مَنْ هؤلاء اليهود؟

مَن هؤلاء اليهود الذين خرج إليهم النَّبيُّ ﷺ في جماعة من أصحابه، ومنهم ـ رضوان الله عليهم ـ أبو هريرة راوي الحديث؟.

ختمنا الجزء السابق بهذا السؤال، على أن نجيب عنه في هذا الجزء، مستعينين بالله عزّ وجل.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، السنة الثامنة والعشرون (١٣٧٦=١٩٥٦).

(١) أخرجه البخاري (٧٣٤٨) في كتاب الاعتصام، ومسلم (١٧٦٥) في الجهاد والسِّير.

تفرُّد أبي هريرة برواية الحديث ومواضعه في صحيح البخاري :

رواه عنه البخاري في ثلاث مواضع

في باب «إخراج اليهود من جزيرة العرب»، من كتاب «الجهاد»[(١)]، وقد آثرنا لفظه في الجزء السابق. والمناسبة بينه وبين الباب والكتاب ظاهرة.

وفي باب «بيع المكره ونحوه في الحق وغيره»، من كتاب «الإكراه»[(٢)]، مُشيراً إلى أنَّ إجلاء اليهود إنَّما هو على كُرْه منهم واضْطرارٍ لا اختيار لهم فيه. فبيع ما يبيعون من أموالهم إذاً ماض لا بأس به، ولا شُبهة فيه.

وفي باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من كتاب الاعتصام[(٣)]، واخترنا روايته في هذا الجزء.

دقة الإمام البخاري في تراجمه

وقد أشار البخاريُّ بهذه الترجمة إلى إمْعَان اليهود في الجَدَل، والهروب من الحُجَّة التي دَمَغَتهم، كما أشار إلى مُجادلته ﷺ لهم بالتي هي أحسن، في إفْحام وإلزام..

ولا نريد أنْ نطيل في صنيع الإمام البخاري ودقته في تراجِمه، واستنباط المعاني الدقيقة الجمَّة من الحديث الواحد، إذ يكرره في غير موضع، وإنما هي لَمْحةٌ دَعَت إليها مناسباتٌ يقتضيها شرحُ الحديث وبيانه.

ورواه مسلمٌ عن أبي هريرة في باب «إجلاء اليهود من الحجاز»، من كتاب

---

(١) البخاري (٣١٦٧).

(٢) البخاري (٦٩٤٤).

(٣) البخاري (٧٣٤٨).

«الجهاد والسير»[١].

وقد روي الحديث في غير الصحيحين[٢]، و أكبر علمنا أنه لم يروِه أحدٌ من الصَّحابة سوى أبي هريرة رضي الله عنه.

قدوم أبي هريرة المدينة

وإذا كنا نقرأ في ترجمته و سيرته رضي الله عنه أنه قَدِمَ المدينة، وبايع النبيَّ ﷺ على الإسلام عام خيبر، أيقنَّا ـ ولا مِرْية ـ بأنَّ أمر هؤلاء اليهود كان بعد الفراغ من أمر بني قَينُقاع، وبني النَّضير، وبني قُريظة، ويهودِ خَيبر جميعاً.

وإذا روينا عنه أنه شَهد خَيبر، فذلك بعد الفراغ من قتال يهودها، كما رُوي عنه أيضاً، ولا تعارض بين الروايتين، بل إنَّ الثانية تعضُدُ الأولى وتكمِّلها.

فهل أولاء بقايا كانوا قد تَخَلَّفوا بالمدينة أذلاّء بعد الفراغ من شأن الطوائف الثلاثة، فأجْلاهم النبيُّ ﷺ من أرض المدينة تطهيراً لها؟.. والمراد من الأرض إذاً أرضُ المدينة [٣] ،أو هم فريقٌ من يهود خيبر كانت لهم في المكر و الغدر اليد السُّفلى.

معاملة أهل خيبر

كان ﷺ بعد فتح خيبر همَّ بإجلاء اليهود جميعاً. فقالوا: يا محمد دعنا نكونُ في هذه الأرض، نُصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم. ولم يكن

---

(١) مسلم(١٧٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود في الخراج (٣٠٠٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» في كتاب السِّيَر (٨٦٣٤)، وهو في «مسند أحمد» ٢ :٤٥١(٩٨٢٦) و«شرح مُشكل الآثار» للطحاوي (٤٢٧٨).

(٣) فيما يظهر، ولامانع من أن يكون المراد: أرض الحجاز (طه).

لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمانٌ يقومون عليها، وكانوا هم لايفرغون للقيام عليها، فأعطاهم خيبرَ، على أنَّ لهم الشطر من كلِّ زرع، وكلِّ ثَمَرٍ، مابدا لرسول الله ﷺ أن يُقرَّهم.

روى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ لما ظهر على خيبر، سألته اليهود أن يُقرَّهم بها على أن يكفُوه عملها، ولهم نصف الثمرة، فقال لهم: «نقرُّكم بها على ذلك ماشئنا»[(١)].

السياسة الحكيمة العليا

ليس في هذا العقد تأبيد ولاالتزام من قِبله صلوات الله وسلامه عليه، بل هو صريحٌ في إقرارهم وإجلائهم متى شاء. وهذه من السياسة الحكيمة العليا: صدقٌ وصَرَاحة، وحزمٌ وكياسة، ونظرٌ إلى مَصْلحة الأمة دون أدنى مِساس بالخُلُق العظيم، والمنهج القويم. وشتَّان ما بين هذا الهدي النبوي الحكيم، وتخبُّط إخوان الشياطين، فيما يسمُّونه بالمعاهدات أو القوانين الدولية!!

الإنذار الأخير

كانت خيبر واحةً كبيرةً، تقع على نحو مائة ميل من المدينة إلى جهة الشام، ولم يكن سُكَّانها مجتمعين في صعيدٍ واحد، بل كانوا متفرِّقين في وِديانٍ متجاورة، ومتحصِّنين بحصونٍ منيعة، وسط النخيل وحقول القمح.

وكانت مركزاً لدسائس اليهود الذين هاجروا إليها. ومن هنا كان النبيُّ ﷺ يحذرُهم، ومن هنا أقرَّهم ﷺ ماشاء الله أن يُقرَّهم، كما هو العهد الصريح معهم، ثمَّ أنذرهم بالجلاء.

وإذا كانت له ﷺ الخِيرة التامَّة في إقرارهم، فلابدَّ ـ مع هذا ـ أن يكونَ قد رأى منهم دسّاً وخُبثاً قبيل هذا الإنذار..

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٥) (٢٣٢٨) (٢٣٣٨)، ومسلم (١٥٥١).

والمراد من الأرض إذاً أرضُ الجزيرة العربية كلِّها.

وسواء أجلاهم النبيُّ ﷺ بالفعل، أم اكتفى بإنذارهم هذا؛ فقد عَرفوا أنَّ كَيْدهم لايخفى على الله ورسوله، وأنهم مُهدَّدون في كلِّ ساعةٍ بطردهم من الجزيرة شرَّ طِردة.

لاجَرَمَ أنهم كانوا يعملون الحيلة، ويجدِّدون الوسيلة؛ لتخلِّصهم من النبيِّ ﷺ، جاهلين أو متجاهلين ماأصاب إخوانهم من قبلُ جزاءً وفاقا، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1].

العدوُّ الألد

ولاجَرَم أنه ﷺ كان يتابع أخبارَهُم، ويعلم حقَّ العلم أنَّهم العدوُّ الألد له، والعقبةُ الكؤود في سبيل دعوته، فلن يستطيعَ تبليغَها ـ كما أمره الله تعالى ـ إلاَّ إذا اطْمأنَّ عليها، وعلى الجزيرة العربية وسكّانها. ولاسبيل إلى هذه الطمأنينة بعهودٍ طالما نَقَضُوها، ومواثيقَ طالما حلُّوها.. وإنما السبيل الذي لاسبيل غيره أن يُسْتأْصَلوا من الجزيرة.

ولهذا الاستئصال كان يتحيَّن ﷺ أنسب الأوقات وأحراها.

وسنرى في المقال الثالث والأخير إن شاء الله تعالى تفصيل ذلك، وكيف أراح الله الجزيرة العربية من بلائهم بإتمام جلائهم منها؛ إنفاذاً لوصيَّة النبيِّ ﷺ وهو يودع هذه الدنيا!!

* * * * *

---

(١) اقتباس من الآية ٤٣ من سورة فاطر.

عيد الجلاء الأول *

ـ ٣ ـ

٩٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بينا نحن في المسجد؛ إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: "انطلقوا إلى يَهود، فَخَرَجنا معه حتى جئناهم، فقام رسول الله ﷺ فناداهم، فقال: «يامعشر يهود، أسْلموا تسْلموا»، فقالوا: قد بلَّغت ياأبا القاسم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك أريد، أسْلموا تَسْلموا»، فقالوا: قد بلَّغت يا أبا القاسم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك أريد»؛ فقال لهم الثالثة، فقال: «اعلموا أنَّما الأرض لله ورسوله، وأني أريد أن أُجْلِيَكم من هذه الأرض، فَمَنْ وَجَد منكم بماله شيئاً فَلْيَبِعْهُ، وإلا فاعلموا أنَّ الأرض لله ورسوله». رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[1].

المثل الأعلى في العدل

لن تقوم لدعوة إصلاحية قائمةٌ، مالم تَحْمِها قوةٌ عادلة من كَيْد الكائدين وعدوان المعتدين..

وما شهد التاريخ ـ ولن يشهد ـ أصدقَ من الإسلام في دعوته، ولا أرحمَ منه في معاملته، ولا أعدل منه في قوَّته، مع أشدِّ الناس عدواةً له وصداً عن سبيله..

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، السنة الثامنة والعشرون ١٣٧٦=١٩٥٦

(١) أخرجه البخاري(٣١٦٧) في كتاب الجهاد، و مسلم (١٧٦٥) في كتاب الجهاد والسير.

وهل ظَفِرَ التاريخ قبل الإسلام، بمثل هذا العدل الخالد العام؛ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؟[1].

ومن أراد على ذلك دليلاً عملياً، فهذا شاهدٌ واحد من آلاف الشواهد العمليَّة على ما نقول.

بهذا قامت السموات والأرض

لمَّا همَّ رسول الله ﷺ بإجلاء يهود خيبر، سألوه أن يُقرَّهم بها على أن يكفوه عملها، ولهم شَطْرُ ما يخرج منها من الثمر والزرع، فأقرَّهم على ذلك ماشاء، دون أن يتقيَّد بأجَلٍ معلوم، فكان يُرسل إليهم رسولَه عبدَ الله بن رواحة رضي الله عنه؛ لتقدير الثمر وتحديد الشطر، وكان مُنصفاً عادلاً، وكان يقسم ويُخيِّرهم في القسم، لكنهم ضاقوا بإنصاف عبد الله ذَرْعاً، فأرادُوا أن يُرشوه، فجمعوا له حُليّاً من حُليِّ نسائهم، فقالوا: هذا لك، وخفِّف عنا وتجاوز لنا في القسم، فقال لهم: ياأعداء الله، تُطعمونني السُّحت! والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الناس إليّ، ولأنتم أبغضُ إليَّ من القردة والخنازير، ولايحملني بغضي إيَّاكم وحُبي إيَّاه على ألاَّ أعدل. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض!!![2]

الذين ظلموا أنفسهم

فلو أنَّ اليهود أنصفوا أنفسهم، وأوفوا بعقودهم مع الله ورسوله، لوفَّى لهم الله ورسوله، فعاشوا في ظلِّ الإسلام آمنين مطمئنين في هذه الدنيا على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأولادهم، لن ينالهم أبداً فيها أذى.

فأمّا لو اتَّبعوا الرسولَ النبيَّ الأُميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة

---

(١) سورة المائدة: ٨

(٢) الحديث أخرجه ابن حبَّان (٥١٩٩)، والبيهقي في «السنن» ٦ :١١٤، و «دلائل النبوَّة» ٤ :٢٢٩_٢٣١ من حديث عبد الله بن عمر، وإسناده صحيح.

والإنجيل، لآتاهم الله أجْرَهم مرَّتين، ولأحياهُم حَيَاةً طيِّبة، ولأتمَّ عليهم نعمته في الدنيا والآخرة..

ولكن ماذا يؤمِّل الإسلام ورسول السَّلام، فيمن أكلوا السُّحت، وعَبَدوا العِجْل، وقَتَلوا الأنبياء، وقالوا: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء؟!!!

الإنذار الجامع والبلاغ الأخير

مع هذا كلِّه عاملهم صلوات الله وسلامه عليه أحسن معاملة، وجاملَهم أعظمَ مجاملة، حتى إذا لم يزدهم العفوُ والإحسانُ إلاّ طغياناً وكفراً، ولم يزدهم الحِلْم والإجمال إلا لؤْماً وغدراً؛ أنذرهم بهذا البلاغ الأخير: أسلموا تَسْلموا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. وإلاّ فلا عَيْش لكم في هذه الأرض، التي آوَتْكم وأظلَّتكم، فَجَحَدتم فَضْلَها، وخُنْتم أهلها، وحاربتم الله ورسوله فيها.

أنذرهم هذا الإنذار الجامع الحاسم ثلاثاً، وفي كلِّ مرّة يُجيبون في لُؤْم وخُبْث: قد بلَّغت يا أبا القاسم، خِبّاً[1] وهرباً من الأمر الذي لامناص منه، وهو الطرد من هذه الأرض، إنْ لم يُسلموا لله ربِّ السَّموات وربِّ الأرض، ربِّ العالمين...

إبعاد المفسدين

لقد أرادوا أن يخدعوا الرسول صلوات الله وسلامه عليه بهذه الإجابة، فما على الرسول إلاّ البلاغ، وقد بلَّغ غير مرَّة، فلْيدَعْهم بعد أن أدَّى أمانته، وبلَّغ رسالته، ولكنَّهم جهلوا ـ أو تجاهلوا ـ أنه قد أجمع أمره في هذه المرَّة على واحدٍ من اثنين لا ثالثَ لهما: فإمّا إسلامُهم ليَسْلَموا هم، وإمَّا إجلاؤهم لِتسْلَم البلاد منهم.

---

(١) أي: خداعاً وغشاً.

وإذا كان من شِرعة الإسلام أن لاإكراه في الدين، فإنَّ من شِرعته إبعاد المفسدين.

علم أعداءُ اللهِ وعبادِهِ، بل أعداءُ أنفسِهم، أنَّ الأمر جِدٌّ، وأنهم عاملون في خيبر وما حولها، على شطر ما يخرج منها إلى أجل مُسمًّى عند الله تعالى، فإذا جاء أجلُهم أخرجهم من ديارهم كما أخرج إخوانهم لأوَّل الحشر.

ومن أجل ذلك أقرَّهم صَلَوات الله وسلامه عليه في خيبر ماشاء الله أن يقرَّهم؛ لئلا يتقيَّدَ بموعدٍ محدَّد كما قلنا من قبل.

ومن أجل ذلك أوصى أصحابه ـ فيما أوصى ـ وهو يودِّع هذه الدنيا: ألاّ يبقى دينان في جزيرة العرب[1]؛ اهتماماً بإقرار السلام وحماية الإسلام، في مهده الأوّل ومقرِّه الأصيل.

آخر الوصايا النبوية

والمُراد من جزيرة العرب في الوصيَّة النبويَّة: الحجازُ خاصَّة؛ مكةُ والمدينةُ واليمامةُ وما إليها، لاتِّفاق الخلفاء الراشدين منهم على إقرار اليهود والنصارى باليمن مع أنه من جزيرة العرب.

وإنَّما أجْلى عمر رضي الله عنه نَصَارى نَجْران من بلاد اليمن، لنَقضهم العهد بأكلهمُ الربا، وكان مُشْترِطاً عليهم في كتاب صُلحهم مع النبيِّ ﷺ ألا يأكلوه. وعَقْد الذمَّة ينتقض بأكل الربا إذا كان مشروطاً على الذميِّين ألاَّ يقربوه.

حرص الخلفاء الراشدين على إنفاذ وصيته ﷺ

لاجرم أنَّ الخلفاء الراشدين ـ ولاسيما الصدِّيق والفاروق ـ رضوان الله

---

(١) أخرجه أحمد ٦ :٢٧٥(٢٦٣٥٢)، وهو حديث صحيح لغيره، قال الهيثميُّ في «المجمع» ٢: ٣٢٥: «رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط»(١٠٦٦)، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرَّح بالسماع» وانظر: حديث آخر الوصايا النبويَّة ص٧٧٣.

عليهم، كانوا جِدَّ حريصينَ على إنفاذ وصيَّته ﷺ بعد أن لحق بالرفيق الأعلى.

بَيْد أنّ الصِّدِّيق شُغِلَ عن إجلائهم بقتال المرتدين ومانعي الزكاة على الرُّغم من قِصَر خلافته! فأنفذها الفاروق في نزوةٍ من نَزوات عدوانهم، وحلقةٍ من سلسة غدرهم.

محاولتهم قتل عبد الله بن عمر

ولقد كانت لهم في هذه الوَصاة أناةٌ، وفي هذا الطَّرد سَعَة، ولكن ليس غريباً على الذين يُخْربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، أن يَسْتعجلوا العذاب بظلمٍ عظيم!.

ذلك بأنَّ اغتيال مَنْ ظَفِروا به من المسلمين جِبِلَّةٌ فيهم، ولهم في ذلك صَحَائفُ سود!! فَبَيْنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُشرف على ماله بخيبر ذات ليلة، ألقَوْه من فوق بيتٍ وهو نائم، ففدعوا[1] يديه ورجليه! ولارَيْبَ أنهم أرادوا قتله، كما قتلوا في العهد النبويِّ عبدَ الله بن سهل، ثم أنكروا وحلفوا اليمين الفاجرة. فلم يشأ النبيُّ ﷺ أن يُبطل دمه، بل أدى ديته من عنده.

من دلائل النبوة

ولما بلغ اعتداؤهم أمير المؤمنين رضي الله عنه، قام في أصحاب رسول الله ﷺ خطيباً، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال: نُقرُّكم ما أقرَّكم الله، وإنَّ عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدى عليه من الليل، ففُدِعت يداه ورجلاه، وليس هناك عدوٌّ غيرهم، هم عدوُّنا وتُهمَتُنا، وقد رأيت إجلاءَهم.

فلما أجمع عمر على ذلك أتاه رأس اليهود: أحدُ بني أبي الحَقيقِ فقال: يا أمير المؤمنين، أتُخرجنا وقد أقرَّنا محمدٌ على الأموال، وشَرَط ذلك لنا؟! فقال

---

(١) الفدع: اعوجاج الرسغ من اليد والرجل، حتى تنقلب الكف والقدم (طه).

عمر: أظننتَ أني نسيتُ قولَ رسول الله ﷺ: «كيف بك إذا أُخرجت من خيبر تعدو بك قلوصُك[1] ليلةً بعد ليلة»؟! فقال عليه ـ لعنة الله ـ: كانت هذه هَزيلة من أبي القاسم! فقال عمر: كذبتَ يا عدوَّ الله.

فأجْلاهم رضي الله عنه إلى نواحي الشام، وأعطاهم قيمة ماكان لهم من الثمر مالاً وإبلاً وعروضاً[2].. ولم يقتص منهم لابنه، وقد أحدثوا به عاهة؛ لأنه لم يعرف من الذي دفعه!.

ألا إنه لو لَمْ يُوصِ النبيُّ ﷺ بطرد اليهود من الحجاز، لكان طردهم منه حقاً محتوماً على خلفاء المسلمين وأمرائهم، فكيف وقد أخبر بذلك؟!. فكان إخباره هذا آيةَ صدقٍ من آياتٍ نبوَّته، وبِشارةَ حقٍّ بين يدي وصيَّته.

المثل الأسفل في الكفر

أمّا ما كان من طردِهم بعد هذا الجلاء وتشريدِهم، واضْطهادهم في مَشَارق الأرض ومغارِبها ـ فقد أُلِّفت فيه أسفارٌ شتَّى، يرى فيها الرائي ـ لأوَّل نظرة ـ أنَّ إحسانَ الإسلام إليهم فاق كلَّ إحسان، فكان جزاؤه منهم كفراناً فوقَ كلِّ كفران!!.

ذلك دَيْدَنُ مَنْ لعنهم الله، وغَضِبَ عليهم، وجَعَلَ منهم القرَدَةَ والخنازيرَ، وعَبَد الطاغوتَ، أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل[3].

* * * * *

---

(١) القلوص: الناقة الصبور الفتية (طه).

(٢) روى هذه القصة بكاملها الإمام البخاري في صحيحه برقم(٢٧٣٠).

(٣) اقتباس من الآية ٦٠ من سورة المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

مَثَلٌ من حِلْم النَّبيِّ ﷺ *

٩٤ ـ عن عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه قال: لمَّا كان يومُ حنين آثر النبيُّ ﷺ أناساً في القِسْمة، فأعطى الأقرع بن حابسٍ مئةً من الإبل، وأعطى عُيينةَ مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، فآثرهم يومئذٍ في القسمة، فقال رجل: والله إنَّ هذه القِسْمة ما عُدِلَ فيها، وما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله! فقلت: والله لأُخبرَنَّ النبيَّ ﷺ، فأتيتُه فأخبرتُه، فقال: «فَمَنْ يعدلُ إذا لم يعدل اللهُ ورسولُه؟! رَحِمَ الله موسى؛ قد أُوذِيَ؛ بأكثر من هذا فصبر». رواه الشيخان[1].

المفردات:

حنين: اسم وادٍ قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضْعَةَ عشر مِيلاً من جهة عرفات. نُسبت إليه هذه الغَزَاة المشهورة، التي قصد إليها النبيُّ ﷺ عَقِبَ فتح مكة في بضْعة عشر ألفاً، والتي تعدُّ بحقٍّ مجمع عبر وأمثال وحكم وأحكام، وعظات إلهيَّة بالغة، ودروس نبويَّة حكيمة، إلى ما ابتُلي به النبيُّ ﷺ من جَفَاء الأعراب وغلظتهم، وإيذاء المنافقين وعَنَتِهم، ممَّا يُعدُّ الصَّبر على مثله عَلَماً من أعلام النبوَّة.

والأقرع بن حابس: أحدُ الأشراف في الجاهلية والإسلام، واسمه فِراس، وإنما لُقِّب الأقرع لقَرَعٍ كان برأسه، وهو من المُؤلَّفة قلوبهم، وقد حَسُن إسلامه[2].

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد الثامن عشر (١٣٦٦).

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠) في كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٠٦٢) في كتاب الزكاة.

(٢) وتقدم مزيد بيان في ترجمته عند شرح حديث: «من لا يَرحم لا يُرحم» ص٥٤٣.

وعُيينة بن حِصْن: كان سَيِّدَ قومه على حُمْقٍ فيه، ولذا لقَّبه النَّبيُّ ﷺ بالأحمق المُطاع. أسلم قبل الفتح، ثمَّ ارتدَّ في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم عاد إلى الإسلام(١)، وكان من المؤلَّفة قلوبهم كذلك.

قال رجلٌ: هو مَعتب بن قُشير من بني عَمْرو بن عَوْف، وفي إحدى روايات البخاري أنه من الأنصار(٢)، وهذا في ظاهر الأمر، وإلا فهو من المنافقين بلا رَيْبَ؛ إذ لا يؤذي رسول الله ﷺ إلا كافرٌ أو منافق.

* * * * *

حِلْمُهُ ﷺ وعفْوه

من أجل ذكرى الميلاد النبويِّ الكريم، ضربنا هذه القصة مثلاً لحِلْم النبيِّ ﷺ واحتماله، وصبره على الأذى، وكَظمه للغيظ، وتسلّيه بإخوانه النبيين، مصدِّقاً لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾(٣).

غزوة حنين

لقد كانت غزوة حُنين من أعظم الغزوات شأناً في الإسلام، وأكثرها خيراً وبركةً على المسلمين، على الرُّغم ممَّا أُوذوا فيها إيذاء بليغاً؛ ولقد بلغت غنائمهم من العِظَم ما لم يحلم به غازٍ من قبل، ومن أجل ذلك

---

(١) في «الأم» للشافعي أن عمر رضي الله عنه قتل عُيَيْنة على الردة، فإنْ ثَبَت ذلك فلا يعدُّ من الصَّحاب، لُقِّب عُيينة لأنَّ شجَّةً أصابته، فجحظت عيناه. ويقال: كان اسمه حذيفة. هذا، وفي «القاموس» جحظت عينه كمنع: خرجت مقلتها أو عظمت (طه).

(٢) البخاري (٤٣٣٥).

(٣) سورة الأنعام: ٩٠.

اشرَأبَّت الأعناق إليها، وارتفعت الأبصار نحوها، وتعلَّقت الأعراب برسول الله ﷺ يَسْألونه حتى اضْطَروه إلى سَمُرة خَطفتْ رداءه، فوقف وقال: «أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العَضَاه نَعَماً لقسمته بينكم[١] ثمَّ لا تجدونني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً»[٢].

غنائم حُنين

قَسَم النبيُّ ﷺ هذه الغنائم حيث أراه اللهُ عزَّ وجل، فأعطى قوماً، ومَنَع آخرين، ومَاز أشراف العرب ورؤساءَهم في العطيَّة، فأعطاهم مئة مئة من الإبل؛ تأليفاً لقلوبهم، وتثبيتاً لإيمانهم، ورغبةً في إسلام أشياعهم، ومن هؤلاء: الأقْرع بن حابس التَّميمي، وعُيينة بن حِصْن الفَزَاري؛ ومنهم حكيم بن حزام الذي أسلفنا قصته مثلاً عالياً في تربيته ﷺ لأصحابه[٣].

قسمة حكيمة

وكان من حكمته صلوات الله وسلامه عليه، وقد عصمه الله من المَيْل والهَوى، أن يُبيِّن وَجْهَ العدل في هذه القسمة؛ خشية أن تزلَّ قدمٌ بعد ثُبوتها، أو تزيغَ قلوبٌ بعد اطمئنانها، فيقول: «إني لأُعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحبُّ إليَّ من الذي أُعطي، ولكني إنَّما أُعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجَزَع والهَلَع، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جَعَل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عَمْرو بن تَغْلِب»[٤]. قال عمرو: فوالله ما أحبُّ أنَّ لي بكلمةِ رسول الله ﷺ حُمْر النَّعم!.

---

(١) السَّمُرة واحدة السمر، والعَضَه: كشَفَه، واحدة العَضَاه، وكلاهما من أشجار البوادي الشائكة، والنَّعم: الإبل، وأعزُّها عندهم الحمراء.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

(٣) انظر: اليد العليا خير من اليد السفلى.

(٤) أخرجه البخاري (٩٢٣)

خطبته ﷺ في الأنصار

ويبلغه أنّ الأنصار عَتَبوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، وهم حَمَلة الدعوة إلى الإسلام، وأُولو الفضل في المناصرة والجهاد، فيجمعهم في قُبَّةٍ وحدَهم، ثم يخطبهم فيقول: «يا معشر الأنصار، ما حديثٌ بلغني عنكم؟» قال فقهاؤهم: أمّا رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منّا حديثةٌ أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ! يُعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفُنا تقْطر من دمائهم! فيقول صلوات الله عليه وسلامه: «إنَّ قريشاً حديثو عهدٍ بجاهليةٍ ومصيبة، وإني أردتُ أنْ أَجبرَهم وأتألَّفهم، أَمَا تَرْضَوْن أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟!» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار شِعباً، لسلكت وادي الأنصار أو شِعبهم»[1]. ثم قال: «اللهمَّ ارحم الأنصار، وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناء الأنصار!»[2]، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

كلمة فاجرة

لم تُعجب هذه القسمةُ الحكيمة مَنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَه، ممَّن اندسَّ في الأنصار، ولبس لباسهم؛ ولم يتمالك أحدهم ـ غيظاً وحنقاً ـ أن قال تلك الكلمة الفاجرة، التي ازداد بها كفراً على كفره، قالها على مَسْمَعٍ من خادمِ رسول الله ﷺ ورفيقِه في حِلِّه وتَرْحاله: عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه.

رأى أمينُ رسول الله ﷺ حقاً عليه مفروضاً أن يبلِّغه ما سمع؛ ليأخذ حِذْره

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٠) و(٤٣٣٧)، ومسلم (١٠٥٩) والشِّعب: بالكسر، الطريق إلى الجبل.

(٢) هذه الزيادة عند الترمذي من حديث أنس (٣٩٠٢)، (٣٩٠٩).

ممَّن يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، ولا يألو المسلمين خَبَالاً!

وحقٌّ ما رأى عبد الله رضي الله عنه، فإنَّ طعناً في رسول الله ليس كطعن في غيره، ومَنْ مسَّه بسوء فقد حَلَّ دمُه، فإن عَفَوْا عنه فَلِحِكَمٍ بالغةٍ لا يتَّسع المقام لبسطها.

إبلاغ الحديث على وجه الإصلاح

وقد استنبط العلماء من نقل عبد الله، وإقرار النبيِّ ﷺ إيَّاه، أنَّ إبلاغ الحديث على وَجْه الإصلاح جائزٌ، لكن على شريطة صدق النيَّة، وتمييزِ المصلحة من المَفْسَدة، أما من التبس عليه الأمر، أو عَلِقت به شائبة الهوى، فطريقُ السَّلامة أن يُمْسك خشيةَ أن يزلَّ. ومَنْ لنا بمبلِّغٍ كعبد الله علماً وفهماً، أو مُبَلَّغٍ كرسول الله أناةً وحِلْماً؟!.

كياسة ابن مسعود

ولقد كان يسيراً على ابن مسعود أن يُنكر على هذا المنافق، أو يَجْهَر بأمره تنكيلاً به، ولكن أَبت له كياستُه وأمانته، ثمَّ مخافته للفتنة إلاّ أن يُسرَّ حديثَه إلى النبيِّ ﷺ، ويدع الأمر له يتولاه بحكمته، فما كان جوابه ﷺ ـ وقد شقَّ عليه الأمر وتغيَّر وجهُه كأنَّه الصِّرف[1] ـ إلا أن ترحَّم على أخيه موسى عليه السلام، وتأسَّى بما آذاه قومه به، ممَّا لا يصبر على مثله إلاَّ أُولو العزم من الرسل.

الحليم يملك نفسه عند الغضب

يالها من إساءةٍ بالغة، تُهيج غيظَ الحليم، وتَذهب بلُبِّ الكريم، ولكنها لا تخرج رسول الله ﷺ ـ وحاشاه ـ عن وَقاره ومَهَابته، ورُشْده وحكمته.

لا جَرَم أنه غَضِبَ وتغيَّر، فليس من شَرط الحليم ألاّ يغضب ولا يتغيَّر،

---

(١) الصِّرف: بكسر الصاد، صبغٌ أحمر يصبغ به الجلد، وقد يسمَّى الدم صرفاً. والعبارة مقتبسة من رواية مسلم (١٠٦٢).

بل ربُمَّا كان الحليم أشدَّ الناس غضباً إذا استُغْضب، ولكن من شرطه أن يملك نفسه عند الغضب.

ولقد كان ﷺ أملك الناس لنفسه، بل ما كان غضبُه قطّ إلا لله والحقِّ، وما انتقم لنفسه قط إلا أن تُنتهك حرماتُ الله، فينتقمَ لله بها.

وبعد؛ فهذا مَثَلٌ يصوِّر لنا جانباً يسيراً من سيرة خَاتمَ النبيين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فإذا احتفل المسلمون بعيد مولده، فلْيَذكُروا سيرتَه الطاهرة، ولْيدرُسوا خُلقَه العظيم، ثم ليدعوا جانباً هذه المظاهر السَّاخرة، والصُّور الهازِلة، فقد كان ﷺ يحبُّ معاليَ الأمور وجِدَّها، ويكره دنيَّها وسَفْسَافها؟.

* * * * *

التطهير في الإسلام[1]

ـ ١ ـ

٩٥ ـ عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه ـ وكان شَهِدَ بدراً، وهو أحد النُّقباء ليلَةَ العَقَبة ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال ـ وحَوْلَهُ عصابَةٌ من أصحابه ـ: «بايعوني على أنْ لا تُشْركوا باللهِ شَيْئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلوا أولادكُم، ولا تأتُوا بِبُهْتانٍ تَفْتَرونَهُ بين أيديكُم وأرجلكُم، ولا تَعْصُوا في معروف. فَمَنْ وفَّى منكم فأجْرُهُ على الله، ومَنْ أصابَ من ذلك شيئاً، فَعُوقبَ في الدنيا فهو كفَّارةٌ له؛ وَمَنْ أصابَ من ذلك شيئاً، ثمَّ سَتَره الله فهو إلى الله، إنْ شَاءَ عَفَا عنه، وإنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»، فبايعناه على ذلك. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[2].

عناية الإسلام بالتطهير

لقد عني الإسلام بالتطهير بطناً وظهراً، وسِرًّا وجهراً، وحسّاً ومعنى؛ في النيَّات والسُّلوك والعقائد والأعمال والأحوال، وسائر شُعَبه وشرائعه كلِّها، جليلها ودقيقها، فرضها ونفلها، في الأفراد والجماعات، والرجال والنساء والأطفال، والأُمم والشعوب، وفي السفر والحضر، والسِّلم والحرب.

لم يَدَع صغيرةً ولا كبيرة في هذه الشؤون ـ عامَّةً وخاصَّةً ـ إلاَّ جعل التطهير

---

(١) مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٨) في كتاب الإيمان، ومسلم (١٧٠٩) في الحدود.

أساساً لها أو مرتبطاً بها.

وهل للإسلام إلاَّ أوامر تُمتَثَل، ونَواهٍ تُجتَنَب؟! وما الأوامر في الإسلام إلاَّ الفضائل أو الخير؛ مُمَثَّلاً في شُعبه ومناهجه ودرجاته، وما المناهي فيه إلا الرذائل أو الشر؛ مُمَثَّلاً في ضروبه وأبوابه ودَرَكاته.

بين الشريعة الرَّبانيَّة والشرائع الوضعيَّة

ألا فَلْيعلم من لم يكن يعلم أنَّ ضروب التطهير قديماً وحديثاً في الشرائع الوضعية كافَّة، لم يبلغ معشار ما بلغه في الإسلام، بل لم يبلغ فيها ما يبلغه القشر من لبِّه، ولا الزَّبَد من زُبْده، وأين تدبير العباد الضعفاء وتطهيرهم، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، من تدبير الحكيم الخبير وتطهيره، وهو الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، وخلق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً؟!.

إنَّ التَّطهير في الإسلام ـ إلاَّ ما تدعو الضرورة إليه ـ أمرٌ اختياري يُوكل إلى العبد حتى يُزكِّي نفسه بنفسه من غير جَبْر ولا إكراه، وما هو إلاَّ الإرشاد والبيان، والدعوة والبرهان: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[4].

وأما التطهير في الشرائع الوضعية فإنه إجباريٌّ، يُوكَلُ أمرُه إلى ذوي النفوذ والسُّلطان، يَتَولَّونه بالعنف والقوَّة، ويأخذون فيه بالشدَّة والظِّنَّة. ولا يستوي

---

(١) سورة الكهف: ٢٩.

(٢) سورة الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٤) سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.

تطهيرٌ أُسِّس على الطَّوْع والاختيار، وآخر أُسِّس على الكُرْه والاضطرار.

جماع الموبقات وأصول المهلكات

وفي هذا الحديث الجامع يروي عبادة بن الصَّامت، رضي الله عنه: كيف بايع النبيَّ ﷺ على التطهير من ستة خبائث هُنَّ جماعُ المُوبقات، وأصول المهلكات، في خير أُمّةٍ أُخرجت للناس، والعصابة ـ ومثلها العصبة ـ هي الجماعة بين العشرة والأربعين.

من مناقب عبادة

ذكر البخاريُّ لعبادة رضي الله عنه مَنقبَتَيْن من أجلِّ مَناقِبه، ليُرِيَنا أيَّ إنسان كان راوي هذا الحديث؟! ذكر أنه شهد بدراً. وحَسْبُك في فَضْل أهل بدر ما جاء في الصِّحاح أنَّ رسول الله ﷺ قال: «... لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1]، وذكر أنه أحدُ النقباء ليلة العقبة.

وجملة القول في أخبار العقبة ـ وهي في طريق الذاهب من مكة إلى مِنىً ـ أنَّ النبيَّ ﷺ لما يَئِسَ من قومه، أخذ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج، يدعوهم إلى الله تعالى، وقبل الهجرة بعامين لقي ستةً من الخزرج، فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأسلموا وحملوا الإسلام إلى المدينة. ويذكر بعض أهل السِّيَر والمَغَازي أنَّ منهم عبادة.

البيعة الثانية والثالثة

فلمَّا كان العام المُقْبل لقيَهُ من الأنصار اثنا عشر رجلاً: خمسة من السابقين، وسبعة غيرهم أسلموا جميعاً. وهذه هي البيعة الثانية، وكان فيها عبادةُ نقيباً.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).

فلما كان العام الذي يليه قدم من المدينة جمٌّ غفير من الأوس والخزرج، وبايعه منهم سبعون رجلاً وامرأتان، واختار منهم ـ اقتداء بالقرآن ـ اثني عشر نقيباً، أحدهم عبادة، وجعلهم كفلاءَ على قومهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم. وهذه هي البيعة الثالثة.

بيعة الفتح

وكانت بيعتهم في العَقَبة على الإيواء والنُّصرة، وأن يمنعوه ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم[١]، لا على التطهير من هذه المُوبقات الست التي ينتظمها هذا الحديث كما ظنَّ كثير من المحدِّثين وأهل السِّير، وإنَّما كانت المبايعة التي في الحديث هنا بعد فتح مكة، وبعد أن نزلت آية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾[٢] فبايع النبيُّ ﷺ النساء، ثمَّ بايع الرجال.

ومرجع الالتباس على مَنْ ذهب إلى أنَّ هذه البيعة كانت في العقبة قبل الهجرة، أنَّ عُبادة بايع البيعتَيْن جميعاً، إلى غيرهما من المُبايعات، وكانت بيعة العقبة من أجلِّ ما يُمتَدَح به؛ ولذا أشار إليها البخاريُّ في هذا الحديث، وكان يذكرها عبادة تنويهاً بما منَّ الله عليه، فلمَّا أشير إليها في مقدمة البيعة التي هنا، وهي على مثل بيعة النساء، توهَّم مَنْ لم يقف على جليَّة الأمر أنَّ بيعة العقبة وبيعة الفتح سواء.

خرِّيج مدرسة الطُّهر والتَّطهير

وإذا كان عبادة ـ راوي هذا الحديث ـ واحداً من المُتخرِّجين في مدرسة

---

(١) انظر حديث جابر بن عبد الله في بيعة العقبة في مسند أحمد ٣ :٣٢٢(١٤٤٥٦)، وابن حبان (١٦٨٦)، والحاكم ٢ :٦٢٤_٦٢٥ وصحَّحه ووافقه الذهبي. قال الحافظ في «الفتح» ٧ :٢٢٠ رواه أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم.

(٢) سورة الممتحنة: ١٢.

الطُّهر والتَّطهير، والتحرُّر والتَّحرير، فحقٌ علينا أن نأتيَ على بعض صفاته وأخباره؛ لنتبيَّن كيف تُربِّي المدرسةُ الطاهرة أبناءَها؟! وكيف تُؤتي الشَّجرةُ الطيِّبة أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربها؟!.

عبادة بن الصامت

آتى اللهُ عُبادةَ رضي الله عنه بَسْطَةً في العلم والجسم، والقوَّة والشَّجاعة والصَّلابة في دين الله عزَّ وجل، ومن أجل ذلك كان يُجلُّه الفاروق رضي الله عنه ويُكرمه، حتى بلغَ من إجلاله إيَّاه أن قال له على إثر مقدَمه من الشام لنزاعٍ بينه وبين معاوية: ارجع إلى مكانك، فقبَّح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك، وكتب إلى معاوية: لا إمْرَةَ لك على عُبادة.

ومن إجلاله إيَّاه أنه أمدَّ عمرو بن العاص بأربعة آلاف في فتح مصر، فلمَّا أبطأ عليه الفتح أمدَّه بأربعة آلاف أخرى، وأمَّر على كلِّ ألفٍ واحداً من أربعة: عبادةَ، والزُّبيرَ بن العوام، والمقدادَ بن الأسود، ومَسْلَمة بن مَخْلد، وكتب إليه: قد أنفذت إليك أربعةَ آلاف على كلِّ ألف منهم رجلٌ مقام ألف، فصار معك اثنا عشر ألفاً[١]، و«لا تُغلب اثنا عشر ألفاً من قلّة»[٢].

---

(١) ليس عَجَباً أن يعدَّ الواحد منهم ألفاً بالقول، فباب المجاز واسع، وإنَّما عده ألفاً بالحساب والفعل وبناء الحكم المنطقي (طه).

(٢) اقتباس من حديث رواه أحمد في المسند ١: ٢٩٤ (٢٦٨٢)، والترمذي (١٥٥٥)، وأبو داود (٢٦١١)، وابن حبان (٤٧١٧)، ولفظه عند أحمد من حديث ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السَّرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلَّة».

والحديث رجال إسناده ثقات، وقد اختلف في وصله وإرساله. قال أبو داود: الصحيح أنه مرسل. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا يسنده كبيرُ أحدٍ غير جرير بن حازم، وإنما رُوي هذا الحديث عن الزهري عن النبِّي ﷺ مرسلاً. وانظر التعليق على مسند أحمد، =

شَهِدَ رضي الله عنه بعد بدر أُحداً، وبيعة الرضوان، والمشاهد كلَّها.

أولئـكَ آبـائي فجـئني بمثلـهم | إذا جمعتنـا يـا جريـرُ المجـامع

التطهير من رجْس الشِّرك

عَاهَدَ النبيُّ ﷺ صحابتَه وأمّته ـ أوّل ما عاهد ـ على **التطهير من رِجس الشِّرك** في كلِّ صورةٍ من صوره؛ لأنه منبع كلِّ بلاء، وموطن كلِّ داء، لا يُرفع معه إلى الله عمل، ولا يزكو في أرضه نَبْتٌ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[1].

وقد اتَّفقت رسالات الله كلُّها على أنَّ الشِّرك أكبرُ الكبائر، وأشدُّ الموبقات، وأعظم الظلم؛ لأنه جُحودٌ للرب، وإهدارٌ للعقل، وإمعانٌ في كفر النِّعم والمُنعم، واستحبابٌ للعَمَى والضلال المبين.

التطهير من السَّرِقَة

وعاهدهم على **التطهير من السَّرِقة** قليلها وكثيرها، ولُعِنَ السارق؛ لأنه يسرق البيضة فتُقطع يده، ويَسرق الحبل فتُقطع يده[2].

والسَّرِقة كَسْبٌ خبيث غير مشروع، مَضْيَعَةٌ للشرف والمروءة، ومَجْلَبَةٌ للخزي والعار، مزرعة للبَطالة والدناءة والكسل، موجبة لِلَّعْنَةِ والنَّكال في الدنيا والآخرة.

طبعة مؤسسة الرسالة ٤ :٤١٩.

(١) اقتباس من الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) وهو معنى حديث متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧) ولفظه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» لأنَّ سرقة ما لا قطعَ فيه تُجرِّئ على ما فيه القطع، ومنهم من أخذ بظاهر الحديث، فجعل القليل والكثير سواء في إقامة الحد (طه). انظر ص٦٣٤.

البعد عن الزِّنى

وعاهدهم على ألاَّ يقربوا الزِّنى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]، وكان فاشياً في الجاهلية على أنحاء شتى. وهو أعظم هتكاً للأعراض، ونشراً للأمراض، وهدماً للبيوت والأسر، وقتلاً للأحساب والأنساب، وخيانةً للأمانات، ومَقْتاً عند الله والناس!.

قتل الأولاد ووأد البنات

وكانوا يقتلون أولادَهم خشيةَ الفقر أو العار، وشاع فيهم وَأْد البنات إسرافاً في الكراهية لهنّ دون ذنب جَنَيْنَه!. والوأدُ هو قذف البنت في حفرة أعدَّت لدفنها بالحياة. وفي هذه الجريمة الشَّنعاء يقول تبارك وتعالى؛ تبكيتاً لصاحبها: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[2].

جريمةٌ تقْشعرُّ لها الأبدان، وتشيبُ من هَوْلها الولدان، وتصف أفظعَ صورة لقسوة الإنسان!! وهي بعد ذلك قطيعةٌ للرَّحم، وعدوانٌ على المخلوق الضعيف الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه شيئاً، واتِّهام للخلاَّق الرازق ذي القوَّة المتين ـ مَنْ بيده مفاتيح الرزق وخزائن السَّموات والأرض ـ بأنه عاجزٌ عمَّا تكفَّل به!!

واجتماع هذه الجرائم البشعة في قتل الولد هو سرُّ التَّخصيص في النهي، وإن كان القتل كلّه منكراً، ولكنْ كفرٌ، دون كفر، وظلمٌ دون ظلم، ونظير هذا الزنى بحليلة الجار، ونكاح امرأة الأب، وكلاهما إلى الفاحشة قطيعة وسوء أدب، وهذا هو سرُّ إضافة «المقت» في قوله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا

---

(١) اقتباس من الآية ٣٢سورة الإسراء.

(٢) سورة التكوير:٨ـ ٩.

وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1].

وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا نبيَّ الله! أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعلَ لله ندًّا وهو خلقك»، قلت: ثمَّ أيّ؟ قال: «أن تقتلَ ولدك خشيةَ أن يطعم معك»، قلت: ثمَّ أي؟ قال: «أن تزانيَ حليلة جارك»[2].

النهي عن البهتان

وإتيان البُهتان هو اخْتلاق الزُّور والكذب الذي يَبْهت مَنْ يُرمى به، ويدهشه لشِدَّة هَوْله وفظاعته!.

وخصَّ الأيدي والأرجل بالذكر؛ لأنَّهما الأداة في معظم الأفعال، إذ هما العوامل أو الحوامل للمباشرة والسَّعي، وقد يُعاقبُ الشخصُ بجريمة قوليَّة فيقال: هذا بما كَسَبت يداك، وإن كان الكاسب هو اللسان.

وقيل: كنَّى عن الذاتِ بالأيدي والأرجل لأنها بينهما، فالمعنى: لا تأتوا ببهتان تُنْشئونه من قِبَل أنفسكم، أو من قِبَل ضمائركم وقلوبكم.

وأظهر ما يكون البهتان في نساء الجاهلية، وكانت إحداهنَّ تلتقط المولود وتقول للرجل: هذا ولدي منك زوراً وإفكاً! ومن هنا استدلَّ بعض المُحقِّقين على سَبْق بيعة النساء، وسَوْقِ بيعة الرجال على منهاجها.

الطاعة في المعروف

ثم يختم النبيُّ ﷺ مبايعته بالوصيَّة البليغة الجامعة، التي تنهى عن كلِّ قبيح ذُكر أو لم يُذكر، كما تتضمَّن الأمر بكلِّ حَسَنٍ جميل من مكارم الأخلاق التي

---

(١) سورة النساء: ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٧) في التفسير، ومسلم (٨٦) في الإيمان.

بُعث لإتمامها صلوات الله وسلامه عليه.

والتقييد بالمعروف مع أنَّه صلوات الله وسلامه عليه لا يأمر به، لتَنْبيه أمَّته على أنه لا طاعة لمخلوق ـ وإن عَظُم ـ في معصية الخالق جلّ وعلا، وفي هذا أبلغ ردٍّ على مَنْ زعم أنَّ طاعة أولي الأمر واجبةٌ من غير قَيْد ولا شرط.

الناس فرق ثلاث

وبعد أن وفَّى رسول الله ﷺ هذه الأمور الست التي عاهدهم عليها، بيَّن لهم أنَّ الناس فيها فرقٌ ثلاث: فرقة توفي بعهد الله إذا عاهدت، فجزاؤها إلى الله عزَّ وجل، ونِعمَّا هو، وفرقةٌ تقصِّر ثم تطهَّر، وفرقة إلى الله أمرها، وفي علمه عاقبتها.

وإذا ضاق المقام عن بيان هذه الفرق، فموعدنا الجزء الآتي بعون الله ومشيئته.

* * * * *

التطهير في الإسلام*

- ٢ -

درجات الناس في الوفاء بالعقود

بعد أن عاهدَ النبيُّ ﷺ أصحابَه وأمَّته على التطهير من هذه المُوبقات الست - أصول الرذائل، وجماع المآثم - بيَّن أنهم في الوفاء ببيعته على ثلاث درجات، بين كلِّ درجة ودرجة من التفاوت والفَضْل ما لا يقدِّره إلاَّ الله عزَّ وجل، بل إنَّ أهل الدرجة الواحدة في الفضل والمنزلة ليسوا سواء.

أما أهل **الدرجة الأولى**: فقد وفَّوْا بعهد الله كاملاً غير منقوص، فوفَّى الله لهم بعهده، وضَمِنَ لهم على لسان رسوله أجراً عظيماً، وهو النعيم المقيم، والمقام الكريم ورضوان من الله أكبر ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

وأما أهل **الدرجة الثانية**: فهم الذين اقْترفوا من هذه المُوبقات ما عدا الشِّرك الأكبر؛ فإنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به. غير أنَّ الله طهَّرهم بإقامة الحاكم الحدَّ عليهم؛ إذ يقطع يد السارق، ويجلد أو يرجم الزاني، ويقتل القاتل، ويجلد القاذف. وهكذا كانت العقوبة ماحيةً لذنب صاحبها، مُطَهِّرةً له، حتى يلحق بالسابقين، ولا حَرَج على فَضْل الله سبحانه.

وأمّا أهل **الدرجة الأخيرة**؛ فهم الذين اقْتَرفُوا من هذه المُوبقات شيئاً - ما

* مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢ = ١٩٥٣).

(١) سورة الحديد: ٣١.

عدا الشِّرك الأكبر ـ إلاّ أنّ الله تعالى سَتَرهم، فإنْ تابوا وأحسنوا، فإنَّ الله يتقبّل توبتَهم فضلاً منه وكرماً، وإلاّ فأمرُهم مُفَوَّض إلى ربِّهم، إن شاء غَفَر لهم، وإن شاء عذَّبهم.

سَتْر الله وعفوُه وواسع مغفرته ورحمته

وليس عَجَباً أن يغفر الله لِمَنْ تاب إليه وأناب، ولو بلغت ذنوبُه عنان السماء، أو أدركته منيَّتهُ قبل أن يعمل بعد توبته عملاً صالحاً، وَحَسْبُنا من الشَّواهد الكثيرة على هذا ما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه في الحديث القدسي عن النبيِّ ﷺ عن ربِّه عزَّ وجل قال: «يا ابن آدم، إنَّك ما دَعَوْتَنِي ورَجَوْتَنِي، غَفَرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي.

يا ابنَ آدم لو بلغت ذنوبُك عَنان السماء، ثمَّ استغفرتني غفرتُ لك.

يا ابنَ آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثمَّ لقيتني لا تُشْرِكُ بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرةً»[1].

قصة القائل تسعة وتسعين نفساً

وما رواه الشيخان[2] وغيرهما عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب، فسأله: هل له من توبة؟ فقنَّطه من رحمة ربِّه، فكمَّل به المئة. ثمَّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على عالم، فسأله كما سأل صاحبه، فقرَّبه من رحمة

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٤) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ونقل الإمام النووي عنه في آخر «الأربعين النووية» أنه قال: حسن صحيح.

والعَنان: السَّحاب وزناً ومعنى، **وقُراب الأرض** ـ بالضم ويجوز الكسر ـ: هو ما يُقَارب مَلأَها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

ربِّه، ليعلم أنها أوسع من ذنبه، وأمره أن يهجرَ هذه الأرض التي عصى الله فيها إلى أرض سمَّاها له، ليعبد الله بها مع قوم عابدين، ولكنه قضى نحبه في نصف الطريق! فاختصمت في شأنه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فكان قضاء الله الرحيم، الذي يغفر الذنب العظيم، للأوَّلين على الآخرين[١].

قصة الكِفْل

ومن هذا القبيل قصَّة الكِفْل: أخرجها الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال: رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم رجل يُسمَّى الكِفْل، وكان لا يَنْزِع عن شيء، فأتى امرأة علم بها حاجةً، فأعطاها ستين ديناراً، فلَمَّا أرادها على نفسها، ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: لأنَّ هذا عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلاَّ الحاجة! فقال: أنت تفعلين هذا من مَخَافة الله تعالى؟ فأنا أحْرى بذلك، فاذهبي ولك ما أعطيتك، ووالله لا أعصيه بعدها أبداً؛ فمات من ليلته! فأصبح مكتوباً على بابه: إنَّ الله قد غفر للكفل»[٢]. فَعَجِبَ الناس من ذلك حتى أوحى الله إلى نبيٍّ زمانهم بشأنه».

---

(١) اكتفينا بمعنى الحديث إجمالاً لشهرته في مواطن كثيرة، أقربها «رياض الصالحين» (طه).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٦)، وسياق المؤلف له بمعناه. ولفظه مِنْ حديث ابن عمر قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يُحدِّث حديثاً لو لَمْ أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدَّ سبع مرات، ولكني سمعته أكثر مِنْ ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفْل مِنْ بني إسرائيل لا يتورَّع مِنْ ذنبٍ عمله، فأتته امرأةٌ، فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلَمَّا قعد منها مقعد الرجل مِنْ امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يُبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته؟ اذهبي فهي لك، وقال: لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات مِنْ ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غفر للكفل». قال الترمذي: هذا حديث حسن.

الأدب مع الله تعالى

بل ليس عَجَباً أن يغفرَ الله تعالى لمَنْ شاء من عباده الذين ماتوا قبل أن يتوبوا ممَّا اجْترحُوا من كبائر الإثم ـ إلاَّ الشِّرْك ـ وليس لنا أن نحكمَ على أحدٍ مُعيَّن من أهل التوحيد بالنار بالغةً ما بلغت ذنوبه وسيِّئاته؛ فإنَّ هذا سوء أدبٍ مع الله عز وجل، وافْتياتٌ على شؤونه، وانتهاكٌ لحرماته.

وفي الصحيح: أنَّ رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله تعالى: «مَنْ ذا الذي يَتَألَّى عَليَّ ألاَّ أغفر لفلان؟! فإني قد غَفَرتُ له، وأحبطتُ عَمَلَك!»[1].

مُوجبات المغفرة والرحمة

وجاء في الصحيحين وغيرهما: أنَّ بغيًّا رأت كلباً في يومٍ حارٍّ يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من شدَّة العطش والحرِّ، فَنَزَعت له موقها (خفها) فملأته ماء وسَقَتْه، فشكر الله لها وغفر لها به[2].

ورَويا مثل هذه القصَّة عن رجلٍ كان يمشي بطريق، فاشتدَّ عليه العطش فوجد بئراً فشرب منها، فإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثَّرى من العطش! فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فملأ خفَّه من البئر، وسقَى الكلب، فشكر الله له وغفر له بما صَنَع[3].

وأعجب من هذين ما رواه الشيخان وغيرُهما عن الصَّادق المَصْدوق صلوات الله وسلامه عليه قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجدَ غصْنَ شوك على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١). وقوله: «**يتألَّى**» أي: يحلِفُ ويُقسم. **وأحبط عملَه**: أفسدَه وأبطَله، فلا يُقبَل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).

الطريق، فأخَّره، فشكر الله تعالى له، فغفر له»[١].

وأكبر الظنِّ أنَّ هؤلاء جميعاً تداركهم الله بفضل منه ورحمة قبل أن يتوبوا، وجَائزٌ أن يكون الله قد منَّ عليهم فوفَّقهم للتوبة حين وفَّقهم لهذا الصَّنيع الذي شكره لهم، وجَعَله مع التوبة سببَ مغفرته ورضوانه.

وأيًّا ما كان الأمر، فلا تزال للملوك أسرارٌ، ليس من أدب العبيد أن يتجسَّسوا عليها، بَلْه أن يقتحموا حِماها.

وإذا لم يحل لأحد أن يحكم على آخر من أهل القِبلة بعذاب الله وسخطه، فلا يحلُّ له كذلك أن يحكمَ لأحدٍ ـ بالغةً ما بلغت حسناته وخيراته ـ بنعيم الله ورضوانه، ما عدا المبشَّرين بالجنة على لسان المعصوم صلوات الله عليه وسلامه؛ فإنَّ الأعمال بالخواتيم، ولا يعلمها إلا علاَّم الغيوب سبحانه.

غير أنَّ سَتْر الله لعبده وكَنَفه عليه في الدنيا أمارةٌ على كَنَفِهِ عليه ورضاه عنه في الأُخرى.

ومن دلائل هذا: ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدْنَى المؤمنُ يوم القيامة من ربِّه حتى يضع عليه كَنَفَه ـ أي: سترَه ورحمتَه ـ فيقرِّرُه بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: ربِّ أعرف، قال: فإنِّي قد سَتَرتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفِرُها لك اليوم، فيُعطى صحيفَةَ حَسَناتِهِ»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨). قال النووي في «شرح مسلم» ١٧ : ٨٦: «والمراد بالدنوِّ هنا: دنوُّ كرامةٍ وإحسانٍ، لا دُنوُّ مسافةٍ، والله تعالى منزَّهٌ عن المسافةِ وقربها» انتهى.

الخوف من الله والرجاء فيه

ولا يَغُرَّنَّ أحداً ما تُوسوسُ به نفسُه، أو ما يخادعه به شيطانُه، من سَعَة فَضْل الله تعالى وعظيم رحمته؛ فإنَّ ذلك من الحقِّ الذي يُراد به الباطل، ومن الخير الذي يتوسَّل به إلى الشرِّ والأذى.

فَمَن تلا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[1] وقد قيل: إنها أرجى آية في القرآن الكريم، فَلْيَتْلُ بعدها: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2]

ومَنْ روى أحاديث الرجاء في الله، فَلْيرو معها أحاديث الخوف من الله.

ومَنْ أحسَنَ الظنَّ به سبحانه، فَلْيُحسن الأدبَ معه؛ فإنَّ قوماً غرَّتهم الأمانيّ، وقالوا: نحن نحسنُ الظنَّ بالله تعالى، وكَذَبوا؛ لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل[3].

ومُجْمَل القول في هذا المقام: أنْ يتأدَّب العبدُ مع ربِّه بأدب الخوف منه والرجاء فيه، فلا يَطْغى خوفُه حتى يقنطَ من رحمته، ولا يطغى رجاؤه حتى يتهاونَ في طاعته، فإذا أحسَّ بقُرب قدومه على مَوْلاه، فَلْيغلِّب الرَّجاء فيه، وَلْيُحْسِن الظنَّ به، ولْيُوقِن أنه قادمٌ على أرحم الرَّاحمين وأكرم الأكرمين.

درجات الناس في التطهير من المُوبقات

وبعد، فالناس في التطهُّر أو التطهير من الموبقات على طبقات، لا يحصيها إلا مَنْ فضَّل بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات:

---

(١) سورة الرعد:٦.

(٢) سورة الرعد:٦.

(٣) اقتباس من آثار الحَسَن البصري، وليس حديثاً كما ظنَّ بعض أهل العلم(طه). والعجيب أنَّ المؤلف رحمه الله أورَدَهُ مرفوعاً، وعزاه إلى «التاريخ الكبير» للبخاري، وقد نبّهت على وهمه في التعليق على حديث: ظن العبد بربِّه ص٣٧٧.

فمنهم من قَوِيَ إيمانُه، وعَظُمَ يقينه، حتى جاد بنفسه ـ في سبيل تطهيرها ـ للهِ عزَّ وجل.

ماعز بن مالك الأسلمي

ومن هؤلاء ماعزُ بنُ مالك الأسلمي رضي الله عنه، أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ظلمتُ نفسي وزنيت، وإني أريد أن تُطَهِّرني، فردَّه.

فلَمَّا كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فردَّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «هل تعلمون بعقله بأساً؟ تُنكرون منه شيئاً؟» فقالوا: ما نعلمه إلا وفيَّ العقل، مِنْ صالحينا فيما نرى. فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة، حفر له حفرةً، ثم أمر به فرُجم[١].

المرأة الجُهنيَّة

ومن هؤلاء: امرأة من جُهَيْنة، أَتَتْ رسولَ الله ﷺ، وهي حُبْلى من الزِّنى، فقالت: يا رسول الله، أَصبْتُ حدًّا فأقِمْهُ عليَّ، فَدَعا نبيُّ الله ﷺ وليَّها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وَضَعَت فائْتني بها» ففعل، فأمر بها فشدَّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلَّى عليها، فقال عمر: أتصلِّي عليها وقد زَنَت؟! فقال ﷺ: «لقد تابت توبةً لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جَادَت بنفسها لله عزَّ وجل؟!»[٢].

المرأة الغامدية

وأعجب من هذه امرأة من غامد ـ بطن من جُهَيْنة ـ قالت: يا رسول الله!

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٦).

إني قد زَنَيْتُ فطهِّرني، فردَّها، فلَمَّا كان من الغد قالت: يا رسول الله لِمَ تردُّني؟! لعلَّك إن تردَّني كما رَدَدت ماعزاً، فوالله إني لحُبْلى، فلَمَّا رآها لا تريد السَّتْر على نفسها، أمر بالإحسان إليها حتى تلد وتُرضع ولدها وتفطمه، حتى جاءت به، وقد أكل الطعام، فدفعه لرجل من المسلمين، ثم أمر بها فرُجمت، وكان ممَّن رجمها خالد بن الوليد، فنضح الدم على وجهه، فسبَّها، فسمع النبيُّ ﷺ سبَّه إيَّاها، فقال: «مَهْلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبةً لو تابها صَاحبُ مَكْسٍ لغُفر له»[١].

وصاحب المَكْس ـ أو الماكس ـ هو الذي يَجْبي الضرائب من الناس بغير حقٍّ. والمكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات؛ لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده.

وفي مسند الإمام أحمد وغيره عن عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «لا يدخلُ الجنة صاحب مكْسٍ»[٢]، قالوا: هو العشَّار، الذي يأخذ العشر على ما كان يأخذه أهل الجاهلية، كان يأخذ من التجار إذا مرُّوا به مكساً باسم العُشر.

وأما مَنْ يَعْشُرهم[٣] على ما فَرَضَ الله سبحانه فَحَسَنٌ جميل، وقد عَشَرَ جماعةٌ من الصحابة للنبيِّ ﷺ، وللخلفاء بعده، فكانوا يأخذون عُشْرَ ما سقته السَّماء، وعُشْرَ أموال أهل الذمَّة في التجارة.

وأعجب من هؤلاء جميعاً رجلٌ تلقَّى امرأة تريد الصلاة، فَغَشِيهَا وقضى

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

(٢) أخرجه أحمد ٤: ١٤٣ (١٧٢٩٤)، وأبو داود (٢٩٣٧)، والدارمي (١٦٦٦)، وابن خزيمة (٢٣٣٣) وهو حديث حسن لغيره.

(٣) عَشَرهم يَعشُرهم بالضمِّ عُشراً بضم العين: أخذ عُشْر أموالهم، ومنه العاشر والعشَّار بالتشديد «مختار».

حاجته غَصْباً، فَصَاحت! فانطلق؛ فانطلق خلفه عصابة من المهاجرين، فأخذوا رجلاً دلَّت عليه غلطاً، فأتوها به، فقالت: نعم، هو هذا، فلما أمر النبيُّ ﷺ به ليُرْجم، قام صاحبها الذي وقع عليها، فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، فقال لها: اذهبي فقد غفر الله لك، وقال للرجل قولاً حسناً، وأمر بالذي تجَلَّلها أن يُرْجَم، فَرُجِم، فقال: لقد تاب توبةً لو تابها أهل المدينة لقُبِل منهم[1]!.

ومن الناس من لم يقدر على تطهير نفسه جَهْراً، أو قدر عليه، ولكنه آثر سَتْر الله تعالى، فطهَّر نفسه فيما بينه وبين ربِّه سرًّا، ومنهم من تولَّى الله تطهيره بما ابتلاه من ضروب المِحن والبلايا!!.

وإذا ضاق المقام عن استيفاء البيان فموعدنا الجزء التالي وبه الخاتمة إن شاء الله تعالى.

* * * * *

---

(١) أخرجه أحمد ٦ :٣٩٩(٢٧٢٤١)، والترمذي (١٤٥٢)، وأبو داود (٤٣٧٩).

التطهير في الإسلام *

ـ ٣ ـ

٩٦ ـ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسولُ الله ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ: «أَلاَّ نُشْرِكَ بالله شَيْئاً، وَلاَ نَسْرِقَ، وَلاَ نَزْنِيَ، ولاَ نَقْتُلَ أَوْلادَنَا، وَلا يَعْضَهَ بَعْضُنَا بَعْضاً[1] فَمَنْ وفَّى منْكم فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ حَدّاً فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى الله، إنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ». رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[2].

المبايعة بعد فتح مكة

رجَّحنَا في صَدْر البيان لهذا الحديث أنَّ المبايعة على التطهير من هذه الموبقات الست كانت بعد فتح مكة، وبعد آية المُمْتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [3].

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢= ١٩٥٣).

(١) أي لا يرميه بالعَضيهة وهي البهتان والكذب، فالجملة هنا معنى الجملة الأخرى: «ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم» (طه).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (١٨)، وفي مناقب الأنصار (٣٨٩٢)، (٣٨٩٣)، وفي المغازي (٣٩٩٩)،وفي التفسير (٤٨٩٤)، وفي الحدود (٦٧٨٤)، (٦٨٠١)، وفي الديات (٦٨٧٣)، وفي الفتن (٧٠٥٥)، وفي الأحكام (٧١٩٩)، (٧٢١٣)، ومسلم في كتاب الحدود(١٧٠٩).

(٣) سورة الممتحنة:١٢.

فبايع النبيُّ ﷺ النساء، ثُمَّ بايع الرجال على وَفْق مُبايعتهنَّ، اقتداءً بالقرآن الكريم.

وكنَّا سقنا في كلٍّ من المقالَيْن السَّابقَيْن لفظ البخاري لهذا الحديث في كتاب «الإيمان»؛ لأنه أوْفى الروايات وأدلّها على فَضْل هذه البيعة والمبايعين؛ ثُمَّ بدا لنا في هذا المقال الأخير أن نختار رواية مسلم في كتاب «الحدود»، تأييداً لما رجَّحناه، وتمهيداً لذكر مبايعات النساء ومكانهنَّ في الإسلام.

مبايعات النساء على التطهير

لقد بايعنَ الرسول ﷺ وبايعهنَّ غير مرة: في مكة بعد الفتح، وفي المدينة.

أخرج الإمام مالك في «موطَّئِه» عن أُمَيْمة بنت رُقَيقة[1] رضي الله عنها أنها قالت: أتيتُ رسولَ ﷺ في نِسوة بايعنه على الإسلام، فقلنَ: يا رسول الله: نبايعُك على أنْ لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بهتاناً نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، فقال رسول ﷺ: «فيما استَطَعْتُنَّ وأطَقْتُنَّ»، قالت: فقلن: الله ورسوله أرْحَم بنا من أنفسنا، هَلُمَّ نبايعك يا رسول الله. فقال رسول ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إنمَّا قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة»[2]. ومِمَّن بايعنه بمكة، صلوات الله وسلامه

---

(١) بقافين مصغرة كابنتها، وفي بعض النسخ: «رقية» وهو تحريف، صحابيَّة، وأمها رُقَيقة هاشمية، وأختها خديجة بنت خويلد (طه).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢: ٩٨٢) في البيعة، والترمذي (١٥٩٧) في كتاب السِّير، باب ماجاء في بيعة النساء. وقال: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر. وسألت محمداً ـ أي البخاري ـ عن هذا الحديث، فقال: لا أعرف لأُميمة بنت رُقيقة غير هذا الحديث، وأُميمة امرأة أخرى لها حديث عن رسول الله ﷺ.

عليه، هند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

ففي حديث أسماء بنت زيد قالت: كنتُ مع النسوة المبايعات، وكانت هند بنت عتبة[1] في النساء، فقرأ ﷺ عليهنَّ الآية، فلَمَّا قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، قالت هند: وكيف نطمعُ أن يَقبَل منَّا ما لم يقبله من الرجال؟! فلَمَّا قال: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت: والله إنِّي لأُصيب الهَنَة من مال أبي سفيان لا يدري، أيحلُّ لي ذلك؟ فقال أبو سفيان: ما أصبتِ من شيء فيما مضى وفيما غَبَرَ فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عُتبة»، قالت: نعم، فاعفُ عمَّا سلف يا نبيَّ الله، عفا الله عنك.

فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، فقالت: أَو تَزني الحُرَّة؟! تعني أنَّ الحرَّة لا تزني أو لا ينبغي لها أن تقْترف هذه الفاحشة! فإنَّها لا يتردَّى في بُؤْرتها إلاَّ الأمة وأشباهُها من السَّاقطات، وإلاَّ فليس يخفى على مثلها أنَّ ذواتِ الرايات في الجاهليَّة كُنَّ حرائر!.

فقال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾، فقالت: ربَّيناهم صغاراً وقتلتَهم كباراً! تعني ما كان من أمر ابنها حَنْظلة بن أبي سفيان، فإنه قتل في يوم بدر، فَضَحك عمرُ حتى استلقى، وتبسَّم رسول ﷺ.

ويُروى أنها قالت: قتلتَ الآباء وتُوصينا بالأولاد! فضحك رسول الله ﷺ.

فقال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ﴾، فقالت: والله إنَّ البهتان لأمر قبيح، ولا يأمر الله تعالى إلا بالرُّشد ومكارم الأخلاق.

فقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾، فقالت: والله ما جلسنا مَجْلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيَك في شيء![2]. ولم يروَ عن امرأةٍ من المبايعات على كثرتهنَّ ما

---

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة القرشيَّة العبشميَّة زوجة أبي سفيان، أسلمت يوم الفتح.

(٢) عزاه ابن كثير في «تفسيره» ٨: ٣٥٠٥ للطبري، وقال: هذا أثر غريب، وفي بعضه =

روي عن هند في جرأة مراجعتها لرسول الله ﷺ، وشدَّة تعقيبها عليه، وإذا صحَّت هذه الجرأة في المراجعة فلحَدَاثة عهدها بالجاهلية، مع حِدَّةٍ في اللسان وقوَّةٍ في الجَنَان، ثُمَّ لمكانة ابنة زوجها أم المؤمنين رَمْلَة[1] ـ رضي الله عنها ـ من النبيِّ ﷺ.

مكانة المرأة في الإسلام

واحتفال القرآن العظيم والنبيِّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه، بمبايعة النساء، وتعليمهنَّ وإرشادهنَّ، والاستماع إليهنَّ، ثُمَّ مبايعة الرجال على منهاجهنَّ، أعظم دليل على إنقاذ المرأة من وَهْدتها، وإعلاء الإسلام لمكانتها، والسُّموِّ بها إلى أوْجِ العزَّة والكرامة، بعد أن كانت من سَقْط المتاع!!.

ولو أنَّ المرأة عَرَفت في الإسلام مكانتها، لَشكَرت نعمةَ الله عليها، بالتزام حدودِه وآدابه، واستْمساكها بهديه وكتابه، ولكنها بدَّلت نعمة الله كفراً، فسُلبت نعمة المعرفة والهداية، وتخبَّطت في متاهة الضلالة والغَواية، فلم يكن عجباً ـ وقد ركِبَتْ رأسها، ومشت مُكبَّةً على وجهها ـ أن تبيعَ ما ملَّكها الإسلام من مُلك عظيم، ببهرجٍ من المدنية الكاذبة، وَزَبْرج[2] من الحضارة الفاتنة الصاخبة، حتى خسرت نفسها ودينها ومكانها جميعاً!!.

بَيْد أنَّ باب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه لمَنْ شاءت أن تثوبَ إلى رُشدها، وتتطهَّر من رِجْسها، وتنظر بنور الإسلام إلى تاريخها، مستعينةً بالله تعالى أن يعيدها سيرتها الأولى.

نكارة، والله أعلم؛ فإنَّ أبا سفيان وامرأته لمَّا أسلما لم يكن رسول الله ﷺ يجفهما، بل أظهرا الصفاء والود له، وكذلك كان الأمر مِنْ جانبه ﷺ.

(١) كنيتها أمُّ حبيبة، وأمُّها صفية بنت أبي العاص بن أميمة عمة عثمان رضي الله عنه.

(٢) البهرج: الباطل، والزبرج: الزينة والذهب والسَّحاب. اهـ. نهاية.

متى يحسن ستر العورات؟

وبعد، فقد بيَّنا في المقال السابق درجات الناس في التطهير من الموبقات، وضربنا أروع الأمثال بأناس جادوا بأنفسهم لله عزَّ وجل، وذكرنا فيمن ذكرنا أناساً لم يقدروا على تطهير أنفسهم جهراً، أو قدروا ولكنَّهم آثروا سَتْر الله، فطهَّروا أنفسهم فيما بينهم وبينه سرّاً؛ رأوا أنه تعالى سِتِّيرٌ يحبُّ الستر، وأنهم ما كان لهم أن يكشفوا سَتْر الله عنهم وقد سدله عليهم وجمَّلهم، فباتوا لله ضارعين باكين، قانتين مستغفرين، مُستكثرين من الصَّالحات والخيرات، مطمئنين إلى أنَّ الحسنات يُذهبن السيِّئات.

ومن شكرِ نعمة الله تعالى على عبده في ستر فضائحه ومساويه ـ وما أعظمها من نعمة ـ أن يستر عورة أخيه، ويَعفَّ عن ذكرها ما استطاع إلى السَّتر سبيلاً، فقد روى أبو داود والنسائي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من رأى عورةً، فسترها، كان كمَن أحيا موءودةً»[١].

وفي حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ومَنْ ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة»[٢]، ولكن لا يَحسنُ السترُ إلاَّ على ذي مروءة تعدُّ هفواته، ويُرجى منه الخير وقَبول النصيحة؛ وأما من لا يرعوي عن غيِّه، ولا يُبالي نُصح النَّاصحين، ولا هداية الهادين، فإنَّ السَّتر عليه لا يزيده إلا غيّاً وضلالاً!.

التطهير بالمحن والبلايا

وآخرون أراد الله بهم خيراً، فَعَجَّل عقوبتهم في الدنيا بما ابتلاهم من ضروب المِحن والبلايا، حتى يلقَوْا ربَّهم مُطهَّرين أبراراً.

فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) تقدم تخريجه ص٥١٣.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

«ما يزال البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وَوَلَدِهِ وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»[١].

وروى الترمذي أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة»[٢].

وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمَنْ رضيَ فله الرِّضا، ومن سَخِطَ فله السُّخْط»[٣].

وروى الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «ما يصيب المسلمَ من نَصَب، ولا وَصَب[٤]، ولا همّ ولا حَزَن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[٥].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٦] بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، ففي كلِّ ما يصاب به المسلم كفارةٌ، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم ٤ :٣١٤ وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) في كتاب الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجَهْ (٤٠٣١)..

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وهو الحديث السابق نفسه.

(٤) النَّصَب: التعب، و الوَصَب: المرض.

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٦) سورة النساء:١٢٣.

(٧) أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

متى تكون النكبات والمصائب مطهِّرات؟

وإنما تكون النكبات والمصائب ـ على اختلاف ضروبها ـ مُطهِّرةً ومُكَفِّرَةً، إذا صَبَرَ المُصابُ عند الصَّدمة الأولى، راضياً بقضاء الله وقَدَرِه، مؤمناً بأنَّ ما أصابه لم يكن لِيُخطِئَهُ، وأن ما أخْطَأَهُ لم يكن ليصيبَهُ؛ فإنَّ أمرَ المؤمن كلَّه خيرٌ: إنْ أصابَتْه سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيراً له[1].

ومن آثار عمر رضي الله عنه: «الصَّبر والشُّكر مطيَّتان لا أُبالي أيَّهما ركبت»[2]. يبيِّنُ رِضوان الله عليه أنَّ شأن المؤمن في كلِّ أحيانه أن ينتقل من خيرٍ إلى خيرٍ، ومن أجرٍ إلى أجرٍ.

الأخذ بالأسباب

ولا يَقْدح في الإيمان والصَّبْر والرِّضا، أخذُ المصاب بالأسباب المشروعة من التداوي والسَّعي وما إليهما، بل رُبَّما كانت واجبةً يُثاب عليها، ولا يجوز التهاون فيها، وكلٌّ من عند الله، وكلٌّ بقضاء الله حتى العَجْزُ والكَيْس. وللتفصيل مقام غير هذا.

فإذا جزَع العبد، ولم يرضَ بقضاء الله تعالى كان كلُّ ما أصابه عقوبةً معجَّلة في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[3].

---

(١) اقتباس مِنْ حديث رواه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩)، ولفظه مِنْ حديث صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير. وليس ذاك إلا للمؤمن، إنْ أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له».

(٢) «البيان والتبيُّن» للجاحظ ٣ :١٢٦. وفي «كنز العمال» ٣ :٧٥١(٨٦٥٢) أن عمر رضي الله عنه سمع رجلاً يقول: إني أستَنْفق نفسي ومالي في سبيلك. فقال عمر: أولا يسكت أحدكم، فإن ابتلي صَبَر، وإنْ عُوفي شكر.

(٣) اقتباس من الآية ١٢٧ من سورة طه.

ردُّ حقوق العباد

ولنْ يتمَّ تطهيرُ العبد إلاَّ بتخلِّيه عن التَّبِعَات والمظالم، وردِّ الحقوق إلى أهلها ما استطاع إلى الردِّ سبيلاً، فإنْ عَجَز فَلْيكثر من الاستغفار لهم، والتصدُّق ـ ما استطاع ـ عنهم؛ فإنَّ ذلك أدنى أن يُرضيَ اللهَ ويرضيَ خصومَه عنه، وإلاَّ فَوَيْلٌ له، ثُمَّ وَيْلٌ له يوم يطالبه غرماؤه بديونٍ لا قِبَل له بها، ثم يكبُّه الله على وجهه، وقد خَسِرَ الدنيا والآخرة!.

إنَّ ذلك هو المفلس الذي عناه النبيُّ ﷺ، حين سأل أصحابه، فقالوا: هو مَنْ لا درهم له ولا متاع، فقال: «إنَّ المفلس من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شَتَم هذا، وقَذَف هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسَفَك دمَ هذا، وضَرَب هذا؛ فيُعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُه قبل أن يقضيَ ما عليه، أُخِذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثُمَّ طرح في النار». رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه»[١].

القول الفَصْل في مبايعات الصوفية

ذلك، والصوفية وأرباب الطُّرق يعتمدون على أحاديث المبايعات في مبايعاتهم المختلفة، وأخذ العهود والمواثيق على المريدين في التوجيه والسلوك.

والقولُ الفصل فيما يعملون هم أو غيرهم من عمل، أن يُعرض على كتاب الله، وهدي نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فما وافقهما فهو الرُّشد والهدى، وما خالفهما فهو الغيُّ والهوى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨).

(٢) سورة النساء: ٦٥.

لا جَرَم أنَّ البيعة على الاستقامة والهداية، وما جاء به النبيُّ ﷺ، من أمرٍ ونهيٍ، وَوِرْدٍ وذكرٍ، وفرضٍ ونفلٍ، من غير إرهاقٍ ولا تنطُّع، ولا تكاسل ولا تواكل ولا ذلَّة ولا مهانة؛ فهي تجديدٌ لما بايع النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه أصحابه، وأخذهم به وربَّاهم عليه، وذلك من العهود المسؤولة، والأمانات المحمولة، والعقود التي لا يوفي بها إلاَّ القويُّ الأمين.

من أمثال هؤلاء النَّفر الذين يروي مسلم حديثهم عن عَوْف بن مالك الأشْجَعي رضي الله عنه فيقول: كنَّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ»؟ وكنَّا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فَبَسَطْنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فَعَلامَ نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتُصلُّوا الصَّلوات الخمس، وتسمعوا، وتطيعوا...» وأسرَّ كلمة خفيَّة، قال: «ولا تسألوا الناس شيئاً»، فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوطُ أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إيَّاه[1].

دعوة إلى إصلاح الطرق

إنَّ رجال الطرق في مصر وغيرها من بلدان الإسلام، كَثْرةٌ ذات شأن، وثروةٌ ذات بال، وهم مسؤولون بين يدي الله والتاريخ عن تربية أتباعهم، فعليهم أن يُطهِّروا أنفسهم، ويأخذوها بالتي هي أقوم، وأن يكونوا قادةً للناس يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويهدون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والهدي النبوي فيما يأتون ويذرون، لا عصبية ولا هوى، ولا ابتداع ولا انحراف، وإنما هو التعاون على البرِّ والتقوى، وإيثار الحق أينما كان.

وعلى وُلاة الأمور من العلماء والحُكَّام أن يعاونوهم، ويهيِّئوا لهم أسباب

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

الرَّشاد والسَّداد.

وقد عَلم الناسُ أنَّ نفراً من أُولي الفضل قد استجابوا في هذه الأيام لدعوةٍ طالما وجَّهها كثيرٌ من ذوي الغَيْرة الإسلامية لإصلاح هذه الطرق، وتنقيتها ممَّا يشينها من البدع والخرافات والانحراف عن دين الله الحنيف.

وهاهم أولاء، ينتظرون ما وراء هذه الإجابة من خير ورشد وهداية إلى الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين(١)، والله المستعان، وعلى الله قَصْد السبيل.

* * * * *

(١) نرجو أن يكون لنا بحثٌ في إصلاح هذه الطرق في مناسبة قريبة إن شاء الله (طه).

عيد الدُّستور *

٩٧ ـ عن طارق بن شهاب قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كِتَابكُم تقرؤُونها، لو علينا نزلت ـ معشر اليهود ـ لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[١].

فقال عمر: إنِّي لأعلمُ اليومَ الذي نزلَتْ فيه، والمكانَ الذي نزلَتْ فيه؛ نَزَلَت على رسول الله ﷺ بعرفاتٍ في يوم جُمعة. رواه الشيخان[٢].

الاحتفال بإكمال الدين

تحتفل الأمم والحكومات الدستوريَّة باليوم الذي ظفرت فيه بدُستورها الوضعي، ويفخرون بأنَّ لهم عيداً دستورياً مقدَّساً هو رمز جهادٍ طويل، وعنوان حياةٍ سعيدة!.

فأحببنا أن ندلَّهم على عيد أعظم وأجل، وهو عيدُ الدستور السَّماوي الذي احتفل فيه الإسلام احتفالاً مدوِّياً جامعاً بإكمال الدين وإتمام النعمة، وإعلام الإنسانيَّة بأنه دينُ الله الذي لا يُبتغى غيره، ولا يُقبل من أحدٍ سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣].

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد الثاني والعشرون (١٩٥٠).

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥)في الإيمان، ومسلم (٣٠١٧) في التفسير.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه في مدَّة رسالته، وهي ثلاثٌ وعشرون سنة؛ قضى منها ثلاث عشرة بمكة، وعشراً بالمدينة.

وفي السنة العاشرة التي لحق فيها بالرفيق الأعلى حجَّ حَجَّة الوداع، ولم يحج بعد الهجرة غيرها[١]. ووقف معه بعرفة مئة ألف أو يزيدون، وشهدوا جميعاً هذا الحفل الإسلامي الرائع الجامع الذي لا يشهد التاريخ مثله أبداً، ووافق الوقوف يوم العيد الأسبوعي «خير يوم طلعت عليه الشمس»[٢] بشهادة الصَّادق المَصْدوق رسول الله ﷺ.

بشائر ثلاث

وبعد عصر هذا اليوم الذي جمع الله فيه للمسلمين عيدين عظيمين: عيد الجمعة وعيد عرفة ـ وإن شئت فقل عيد الأضحى ـ نزلت هذه الآية الكريمة تبشِّر المسلمين ببشائر ثلاث، هنَّ جماع المجد والعزِّ والخير كلِّه: بلوغ دينهم مبلغ الكمال في حدوده ومعالمه، وفرائضه وأحكامه، وحلاله وحرامه؛ وإتمام نعمة الله عليهم بالنَّصر والعزَّة والتمكين في الأرض، ودخولهم البلد الحرام آمنين مظفرين؛ واختيار الإسلام من سائر الأديان ديناً لهم، رضيَهُ الله وأحبَّه وأظهَرَه على الدين كلِّه، وجعل السعادة ـ كلَّ السعادة ـ في الاهتداء بهديه، والشَّقاوةَ كلَّ الشقاوة في المخالفة عن أمره.

آخر ما نزل من القرآن

كان بين نزول هذه الآية وبين انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى واحدٌ وثمانون يوماً نزل فيها عليه آية الكلالة[٣] آخر سورة النساء؛ وسورة

---

(١) وأما قبل الهجرة فكان يحج كل عام، قبل الرسالة وبعدها (طه).

(٢) رواه أحمد ٢: ٤٠١ (٩٢٠٧)، ومسلم (٨٥٤).

(٣) الكلالة: من مات ولم يترك أصلاً ولا فرعاً.

النصر، وآيات الربا. وقد قيل في كلٍّ من هذه الآية وما نزل بعدها: إنَّه آخر ما نزل من القرآن، وهذا على حسب علم القائل وفهمه.

والحق أنَّ آخر ما نزل بالإطلاق ولم ينزل بعده شيءٌ من القرآن البتَّة، قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]. فقد تُوفيَ رسول الله ﷺ على إثر ليال بعدها!.

ما قارب الشيء يُعطى حكمه

أيّاً ما كان الأمر، فلن يعارض نزولُ هذه الآي من بشارة إكمال الدين شيئاً؛ فإنَّ ما قارب الشيء يُعطى حكمه، ولا سيما إذا كان التمام موثوقاً به، لا يحوم حوله شكٌّ ولا ريبة، وذلك كما يقول الملك ـ وهو على طرف التمام من الغلبة والنصر ـ: تمَّ لي ما أردت، وكما يقول المُعنى بالصلاة لأول وقتها ولمَّا يدخل: دخل الوقت.

بَهَرت اليهود لهذه البشائر، وهم أشدُّ الناس عداوةً وحسداً للإسلام والمسلمين، فأرادوا أن يُعْنِتوهم بما ظنُّوا أن لا جواب عنه، ويغيظوهم بما حَسبوا أن لا شفاء منه! وغاب عنهم أنَّ الله خاذلُهم على يد الفاروق، مَنْ أعزَّ به الإسلام، وجَعَل الحقَّ على لسانه وقلبه؛ قدَّموا أحدهم وهو كعب الأحبار[2]

---

(١) سورة البقرة: ٢٨١.

(٢) لأنه أعلمهم بالشرائع وأدراهم بالتوراة، ولما رضوا به نسب إليهم القول فيما جاء من الروايات: قالت اليهود لعمر: ... الخ، وأسلم كعب في عهد عمر رضي الله عنه، وفي إسلامه مقال نفوِّض فيه الأمر إلى الله عز وجل (طه).

قال الذهبي في «السير» ٣ :٤٨٩ـ٤٩٣ عن كعب الأحبار: هو كَعْب بن ماتع الحِمْيريُّ اليمانيُّ، العلاَّمة الحَبْر، الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبيِّ ﷺ، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر رضي الله عنه، فجالس أصحاب محمد، فكان يُحدِّثهم عن الكتب الإسرائيليَّة، ويحفظ عجائب، ويأخذُ السُّنن عن الصحابة، وكان حَسَنَ الإسلام، متين الديانة، من نبلاء

=

ولم يكن أسلم بعد، فوجَّه لأمير المؤمنين مقالته في لهجة المتعنِّت أو الفرح أو الشامخ. فما كان من الفاروق إلاَّ أن أفحمه بجوابٍ لا يقال إنه مُسْكت فحسب، بل ـ ولا مبالغة ـ أنه قاصمُ الظهر، يبهت منه الذي كفر!.

أجابه أمير المؤمنين بأنَّ مُنزِّل القرآن ـ وقد أحاط بكلِّ شيء علماً ـ أنزل هذه الآية الكريمة في عيدَيْن عظيمَيْن لا في عيد واحد، وفي أكرم مكان وأعظم حَفْلٍ شهده التاريخ. فنحن لا نتَّخذ يوم نزولها عيداً من تلقاء أنفسنا، ولا نَبْتدع في دين الله ما ليس منه كما تصنعون؛ ولكنَّا نتَّخذ يوم نزولها عيداً بشرع الحكيم العليم، الذي هدانا إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم.

بين الدستور السَّماوي والدستور الأرضي الوضعي

هذا هو عيد الدستور السَّماوي الذي ورَّثه الله المُصْطَفَين من عباده، وكتب فيه سعادة الدارين لمن ينصفون أنفسهم، ويستعملون عقولهم، ولا يدنِّسون فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ولكن ما الحيلة في أقوام ركبوا رؤوسهم، واتَّبعوا أهواءهم، وعَمَوا أو تعامَوْا عن هذا النور المبين والهَدْيِ الحكيم، فراحوا يطلبون حقوقهم في دستور أرضي لا يُغني من الحقِّ والسعادة شيئاً؟!!.

إنَّ الدستور الوضعي ـ كما يقول واضعوه ـ هو مجموع القواعد والقوانين التي تُبيِّن سلطة الحاكم، وحقوق المحكوم، وعلاقة كلٍّ منهما بالآخر، وطُرق توزيع السلطة واستعمالها؛ وكلٌّ هذا تكفَّل به الدستور السَّماوي، وبيَّنه أتمَّ بيان وأحسنه، وقام بتطبيقه المسلمون الأوَّلون ـ رعاةً ورعيَّة ـ على خير وَجْهٍ وأكمله،

العلماء، وكان خبيراً بكتب اليهود، له ذَوْق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة. سكن بالشام بأَخَرة، وكان يغزو مع الصحابة. توفي بحمص ذاهباً للغزو في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه، فلقد كان من أوعية العلم.

أيَّام كانوا ملوكَ الدنيا وسادةَ العالم، وأيام كانت شعوبُ أوربا خاضعةً لملوك وأمراء يزعمون أنهم موكَّلون بمصالح البشر، اصْطفاهم الله للحكم بين الناس، فعليهم للملوك السمع والطاعة، وليس على الملوك لهم حقٌّ ولا واجب!.

ولقد ناضلت هذه الشعوب نضالاً عنيفاً، جرت فيه الدماء، وأُزهقت فيه الأرواح، حتى نالت حقوقها المسلوبة، وَحُرِّيَّتها المغصوبة، بعد ثورات عواصف حطَّمت فيها الشعوب معاقل الظلم والاستعباد، ودكَّت صروحَ العَسْف والاضطهاد!..

وكان آخر مَغْنمٍ لهذا الكفاح الطويل المتواصل تلك الدساتير الوضعيَّة التي اصْطَلَحوا عليها.. ثُمَّ قدَّسوها تقديساً؛ لو ظفر منهم ببعضه الدستور السماوي، لعاشوا في رَغَدٍ مِنَ العيش، لن ينالوه في ظلٍّ تلك الدساتير أبداً!!!

مغانم الخير والعز والظفر

أما بعد، فإذا كانت الأمم الغربية قد ناضلت وقاتلت في سبيل دستورها الوضعي حتى كتبته بدماء الثورة. فقد منحَنا الله دستوراً أجلَّ وأعظم، نغنَم به مغانم الخير والعز والظفر، دون أن نخسر شيئاً.

وإذا كانت الأمم الغربية تبتهج بدستورها وتفرح، فإنَّ المسلم الحقَّ، بدستوره الحقِّ، أعظمُ ابتهاجاً وأشدُّ فرحاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

* * * * *

---

(١) سورة يونس: ٥٧ ـ ٥٨.

آخر الوصايا النبوية *

ـ١ـ

٩٨ ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس؟! ثمَّ بكى حتى خَضَبَ دَمْعُه الحَصْباء! فقال: اشتدَّ برسول الله ﷺ وَجَعُهُ يوم الخميس، فقال: « ائْتُوني بكتابٍ، أكتبْ لكم كتاباً لن تضلُّوا بعده أبداً »، فتنازعوا - ولا ينبغي عند نبيٍّ تنازع - فقالوا: هجَّر رسول الله ﷺ؟ قال: « دَعُوني، فالذي أنا فيه خيرٌ ممَّا تدعونني إليه ». وأوصى عند موته بثلاث: « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كُنت أجيزهم »، ونسيت الثالثة.

رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[١]

حرصُ النبيِّ ﷺ على أُمته

لم تبلغ أمَّةٌ من الأمم، ما بلغته أمة النبيِّ ﷺ، من حرصه عليهم، ورأفته ورحمته بهم، وقد بَلَغ هذا الحِرص البليغ أشدّه، حينما اقتربت هجرته صلوات الله وسلامه عليه، من هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى مع إخوانه النبيين، وتابعيهم من الصِّدِّيقين والشُّهداء الصَّالحين.

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس المجلد التاسع والعشرين، سنة ١٣٧٧ = ١٩٥٧.

(١) في جوائز الوفد من كتاب الجهاد (٣٠٥٣)، ورواه في إخراج اليهود من جزيرة العرب من كتاب الجهاد أيضاً (٣١٦٨)، وفي باب كتابة العلم من كتاب العلم (١١٤)، وفي مرض النبي ﷺ ووفاته من كتاب المغازي (٤٤٣١)، وفي قول المريض: قوموا عني، من كتاب المرضى (٥٦٦٩)، وفي كراهية الخلاف من كتاب الاعتصام (٧٣٦٦). وأما مسلم فرواه في كتاب الوصية (١٦٣٧).

انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى في يوم الاثنين ثاني يومٍ من ربيع الأول لتمام السنة العاشرة من هجرته، حوالي اليوم الثمانين من حجة وداعه، بعد أن مرض بضعة عشر يوماً، اشتدَّ مرضه في الأربعة الأخيرة منها!.

أعظم الوصايا

وقد أحسَّ صلوات الله وسلامه عليه دنوَّ أجله في حَجَّة الوداع، إذ أنزل الله عليه في يوم عرفتِها وكان يومُ الجمعة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

لذا قال في خطبة هذه الحجة الجامعة: «أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري، لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً...»[2] ثم وصَّاهم أعظم وصيَّة وصَّى بها نبيٌّ أمتَّه، ونَصَحَهم أصدقَ نصيحة نَصَحَ بها رائدٌ أهله، وجعل للنساء وحقوقهن أوضح مكان في خطبته. وربما كانت خطبه ووصاياه بعد ذلك تبياناً أو تفصيلاً لهذه الخطبة الشاملة.

مبدأ اشتداد وجعه ﷺ

وكان مبدأ اشتداد وجعه ﷺ يوم الخميس الأخير من صفر. ذلك اليوم الذي ذكَّر ترجمان القرآن، بوفاة النبيِّ عليه السلام، فذكر المصيبة التي هَوَّنت كلَّ مصابٍ بعدها، ثم بكى حتى سالت دموعه على خَدَّيْه، فبلَّلت ما بين يديه من الحَصَى، وذكر إلى تلك المصيبة مصيبةً أخرى في ظنِّه، هي الحَيْلولة بينه ﷺ وبين كتابه الذي همَّ به...

---

(١) سورة المائدة: ٣ وقد شرحنا حديث نزول هذه الآية الكريمة بعنوان «عيد الدستور»، وبيَّنا ما نزل بعدها، وأنه لا يعارض إكمال الدين، وإتمام النعمة (طه). انظر ص ٧٦٢.

(٢) أخرج خطبة حجة الوداع الإمام أحمد في «المسند» ٤ : ٨٠ الميمنيَّة (١٦٧٣٨) ط الرسالة، والدارمي (٢٣٨) من حديث جبير بن مطعم. وانظر أيضاً: سيرة ابن هشام ٤ : ٦٠٣ فالنصُّ الذي ذكره المؤلف مذكورٌ فيها بلفظه.

الاختلاف والتنازع في الحَضْرة النبويَّة

ذلك بأنه بدا له ﷺ أن يُمليَ على أصحابه كتاباً هادياً لا يضلُّون بعده أبداً، فاختلفوا وتنازعوا وكَثُر اللغط، وانقسم الرأي:

فريق يقول: قرِّبوا له يكتب لكم كتابكم[1].

وفريق يقول ما قال عمر: إنَّ رسول الله ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتابُ الله حَسْبُنا. وثالث يقول: أهجَّر رسول الله ﷺ؟! استفهموه ماذا يريد أن يكتب؟[2] يردُّ بمقالته هذه على عمر ومَنْ معه، يقول: إنَّ رسول الله ﷺ جادٌّ في طلب الكتاب الهادي الرشيد، لا يهزل ولا يهذي وحاشاه، ومَنْ حال بينه وبين كِتابه، فكأنه يظنُّ به الهُجْر، وهَجَر المريض هُجراً (بضم الهاء) إذا هَذَى، فقال كلاماً غير مُتَّزن ولا منتظم.

كلامُ الأنبياء حقٌّ وصدقٌ، وهذا محال على الأنبياء صلوات الله عليهم؛ لأنَّ كلامهم حقٌّ وصدق، وعدلٌ وَجِدٌّ، في الصِّحة والمرض، والرِّضا والغضب، فما لكم تحولون بينه وبين ما يريد؟! فالاستفهام بالهمز ـ ظاهراً أو مضمراً ـ إنكاريٌّ ولا ريب.. وسائغٌ أن يكون مراد الفريق الثالث هجرته ﷺ واستعداده للقاء ربِّه، ويؤيِّده ما بعده.

لا ينبغي التنازع عند رسول الله ﷺ

فلمَّا اختصموا دون أن يجتمعوا على رأي، قال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «قُوموا عنِّي، ولا ينبغي عندي التنازع ...» أي: اتركوني وشأني، فما أنا من فيض الله وإنعامه، وتأهُّبي للقائه وإكرامه، أفضل وأجلُّ مما بدا لي.

---

(١) كانوا أكثر ما يكتبون على عظام الكتف، ولذا جاء في إحدى روايات مسلم: إيتوني بالكتف والدواة (طه).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣١) (٥٦٦٩)، ومسلم (١٦٣٧).

وما كان لهم أن يختلفوا بين يدي النَّبي ﷺ ، لولا رحابة صدره، وصدر الحنيفية السَّمْحَة التي بُعِثَ بها. ولولا شدَّة وجعه وحاجته إلى السكون والطمأنينة لاحتمل اختلافهم، ولم يأمرهم أن يقوموا عنه....

أمرُه ﷺ من قبيل الاجتهاد والإرشاد

على أنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما علموا أنَّ أمره الأول بأن يأتوا بكتاب لم يكن على سبيل الفرض المحتَّم، ولم يكن ممَّا أُوحي إليه ﷺ ، وإلاّ لم يكن ثمة مَنَاصٍ منه، وإنّما كان من قبيل الاجتهاد والإرشاد والمصلحة العارضة التي استَبَان بعد الاختلاف أنَّ الخِيْرَة في تركها.

من الاختلاف يُسْرٌ ورحمة

وربما كانت دعوته إلى الكتاب اختباراً لهم وامتحاناً؛ لينظر كيف يكون شأنهم بعده، وكيف يكون اختلافهم في شريعته التي تركها بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. فألفاهم يختلفون للحق ابتغاء الوصول إليه، ولا يختلفون في الحقِّ بعد ما تبيَّن. والاختلاف ابتغاء الحق مع الاجتهاد فيه: يُسْرٌ ورحمة؛ والاختلاف في الحقِّ بعد ما تبيَّن: هلاكٌ ونقمة، وقد حمى الله أهل السنة والجماعة أن يضلوا أو يزيغوا..

ثم ألفى عمرَ وقد اجتهد فأصاب، وهداه الله للحكمة وفصل الخطاب، وكم له رضي الله عنه في العهد النبويِّ وبعده من مواقف تُنْبئُ عن قوة دينه، وسلامة يقينه، وعظم فقهه عن الله ورسوله.. فلينتقل إذاً صلوات الله وسلامه عليه، إلى الرفيق الأعلى راضياً مُطْمئناً؛ ما دام في أصحابه من جعل اللهُ الحقَّ في قلبه وعلى لسانه، يهتدي به ويهدي إليه.

أمنية ترجمان القرآن

بَيْد أنَّ ترجُمان القرآن رضي الله عنه غادر هذه الدنيا، مهموماً حزيناً، مُوقناً أنَّ الرزيَّة كلَّ الرزيَّةِ ما حال بين رسول الله ﷺ وكتابه؛ لأنه يكون بلا ريب

نُصحاً واضحاً لا مجال فيه لخلاف، لا سيما إذا تناول ما اختلف فيه الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاته ﷺ، فكانت أُمنيَّته رضي الله عنه أن يكتب هذا الكتاب؛ ليكون حكَماً فاصلاً.

وكأنه غَفَلَ رضي الله عنه ـ على سَعَة علمه وبصره ـ عن أنَّ الخلافَ أمرٌ لا مَحيص عنه، وأنَّ فيه خيراً وَسَعةً ورحمةً، ما كان له وجهٌ صحيح من السنة الهادية، والحجَّة الرشيدة، وأنه ﷺ قد وسَّع بهذا الخلاف على أُمَّته، في حياته وبعد مماته، وأنه لم يعنِّف أحداً ممَّن قال لهم: «لا يُصَلينَّ أحدُكم العَصْرَ إلا في بني قُريظة»، فأدركهم العصر في الطريق، فصلَّى بعضهم، وتأخَّر بعضهم حتى أتى بني قريظة فصلَّى فيها[1].

خوف الفاروق رضي الله عنه

لقد خاف الفاروق رضي الله عنه ـ إلى إشفاقه على النبي ﷺ ـ أن يكتب كتاباً لا مجال للاجتهاد فيه، فيختلفوا في الحقِّ لا للحق، أو يعجزوا عن إنفاذه فيستحقُّوا العقوبة، ثمَّ ذكر مع خوفه هذا كتاباً أنزله الله تبياناً لكلِّ شيء، فقال مقالته الكافية الشافية: حَسْبُنا كتابُ الله[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦)، مسلم (١٧٧٠). ولفظه عند البخاري من حديث ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: «لا يُصلينَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضَهم العصرُ في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلِّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبيِّ ﷺ فلم يُعَنِّفْ واحداً منهم. وانظر شرح هذا الحديث في مثل اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ص٨٦٧ ـ ٨٧٥.

(٢) قال أستاذنا العلامة الأديب الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى في كتابه «أخبار عمر» ص: ٤٥ في تأويل مسلك عمر رضي الله عنه: «والذي أراه أن عمر قد تعوَّد خلال صحبته الطويلة للرسول ﷺ أن يُبديَ له رأيه لما يعلم من إذنه بذلك ولرضاه عنه، وقد مرَّ في أخبار صحبته مواقف كثيرة كان يقترح فيها على رسول الله أموراً، ويطلب منه أموراً، ويسأله عن أمور، فكان الرسول ﷺ يقرُّه على ما فيه الصَّواب، ويردُّه ﷺ عن الخطأ، فلما قال =

ولعله خاف رضي الله عنه أن يفتح هذا لكتاب باباً لمن في قلوبهم مرض، يدخلون منه للطعن في الدين، فيزعمون فيه نقصاً أو زيادة؛ اتِّباعاً لأهوائهم، فيكون اختلافٌ لا اتفاق معه، وشرٌّ لا خير فيه، وهذه هي القاصمة!!

ألا إنَّ قول الفاروق أسدّ، وإنَّ رأيه أهدى وأرشد، ولذا وافقه المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم، ورضي عنه.

وإذ ضاق هذا الجزء عن إتمام الشرح، فَلْنُرجئه للجزء الآتي إن شاء الله.

* * * * *

الرسول ﷺ: «ائتوني أكتب لكم كتاباً» اقترح عمر على عادته التي عوَّده الرسول، أن يكتفيَ بكتاب الله، فأقرّه الرسول ﷺ على ذلك، ولو كان يريد الكتابة، لأسكت عمر، ولأمضى ما يريد» انتهى.

آخر الوصايا النبوية[1]

ـ ٢ ـ

٩٩ ـ عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوم الخميس! وما يوم الخميس؟! ثمَّ بكى حتى بلَّ دمعه الحَصَى! فقلت: يا ابنَ عباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعه فقال: «ائْتُوني أكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعدي»، فتنازعوا ـ وما ينبغي عند نبيٍّ تنازع ـ، وقالوا: ما شأنه؟ أهجَّر؟ استفهموه؟ قال: «دعوني فالذي أنا فيه خير، أوصيكم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أُجيزهم»، قال: وسكت عن الثالثة، أو قالها فأُنسيتها. رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[2].

إعلام النبيِّ ﷺ أمَّته بالبلاء قبل نزوله

لما قَفَل النَّبيُّ ﷺ من حَجَّة الوداع، أخذَ يُضاعف اهتمامه بشؤون أمته، علاوةً على شُغله الشاغل بلقاء ربِّه: وقد أراد أن يشعرهم بقرب هذا اللقاء تمهيداً له، وتأدُّباً بأدب الله عز وجل لعباده، في إعلامهم بالبلاء قبل نزوله؛ رأفةً بهم ورحمة، فَجَلَس على المنبر يوماً فقال: «إنَّ الله خيَّر عبداً بين الدنيا

---

(١) مجلة الأزهر، العدد السابع، المجلد التاسع والعشرون، سنة (١٣٧٧= ١٩٥٨).

(٢) رواه البخاري (١١٤) في كتاب العلم، و (٣٠٥٣) في الجهاد، و(٣١٦٨) في الجزية والموادعة، و (٤٤٣١) في المغازي، و(٥٦٦٩) في كتاب المرضى، و (٧٣٦٦) في كتاب الاعتصام، ومسلم (١٦٣٧) في كتاب الوصية.

وبين ما عنده، فاختار ما عند الله». فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وكان أعلمَ أصحاب رسول الله ﷺ بما يريد. فقال: «يا أبا بكر لا تَبْكِ! إنَّ أمنَّ الناس عَليَّ في صُحبته ومالِهِ أبو بكر، ولو كنت مُتَّخذاً من أُمَّتي خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر»[1].

إشارة إلى خلافة الصديق

لم تكن هذه الخُطبة النبويَّة الحكيمة مهاداً للمصاب الأعظم فحسب، بل كانت إلى ذلك عماداً لاختيار أبي بكر، كي يَضْطلع بالأمر من بعده؛ فإنَّه بما جمع الله له من المزايا ـ التي لم يهبها لغيره ـ أقدر أصحابه على احتمال هذا العبءِ الجسيمَ وَأَوْلاهم به.

ولقد همَّ ذات يوم صلوات الله وسلامه عليه، أن يعهدَ للصدِّيق عهداً صريحاً لا مَجَال للجدال فيه، ولكنه عَدَل عمّا همَّ به[2]؛ اكتفاءً بالإشارة الواضحة في خطبته؛ ولئلا يكون العهد أو الاستخلاف سُنَّةً متبعة، تُغلق باب الاجتهاد والشُّورى والنُّصح للأمة، وتفتح عليها من أبواب الهوى والشرِّ ما لا طاقة لها به.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦) في كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، ومسلم (٢٣٨٢) في فضائل الصحابة.

(٢) روى مسلم (٢٣٨٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكرٍ، وأخاك، حتى أكتُبُ كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى مُتمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

وروى البخاري (٥٦٦٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ أو أردت، أن أُرسل إلى أبي بكر وابنِهِ وأعهد؛ أن يقول القائلون، أو يتمنّى المتمنُّون، ثم قلت: يأبى الله، ويدفع المؤمنون، أو يدفعُ اللهُ، ويأبى المؤمنون».

فهل كان يريد صلوات الله وسلامه عليه، أن يُسَجِّل في الكتاب الذي دعا إليه، ما همَّ به قبل ثم عَدَل عنه، مِن خلافة أبي بكر ليس غير، أو يضمّ إليه من بعده من الخلفاء على الترتيب، إلى عهدٍ بعيد أو قريب، أو يجمع إلى ذلك من مهمَّات الدين وأصول السياسة ما لا يقبل اختلافاً ولا تأويلاً؟!

خوفه ﷺ على أمته

فقد كان يخاف على أُمته شرَّ الاختلاف وضلالَ التأويل، كما كان يخاف عليهم ـ أشدَّ الخوف ـ فسادَ ذات البيْن، فإنَّ فساد ذات البيْن هي الحالقة!!

ومن هنا كان لا يفتأ يأمرهم بتقوى الله والسمع والطاعة لمن يتولَّى أمرهم ويقودُهم بكتاب الله تعالى، ولو كان عبداً حبشياً كأنَّ رأسه زبيبة[1]، ما أقام الصلاة ولم يأمر بمعصية. فإن ترك الصلاة[2] أو أمر بمعصية فلا سمعَ ولا طاعة[3]. كما كان يوصي الولاة بالعدل والرفق، ويُبشِّر مَنْ رَفَق منهم بأمَّته أن يرفق الله به، وينذر من شقَّ منهم على أمته أن يشق الله عليه[4]، ومن غشَّ أمته ولم يتب أن يحرِّم الله عليه الجنة[5]!!!.

---

(١) حديث رواه البخاري (٦٩٣)، ولفظه من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا. وإن استعمل حبشي، كأنَّ رأسه زبيبة».

(٢) حديث رواه مسلم (١٨٥٤)، ولفظه من حديث أمِّ سلمة زوج النبيِّ ﷺ. عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟ قال: «لا. ماصلوا».

(٣) حديث رواه البخاري (٧١٤٤)، مسلم (١٨٣٩)، ولفظه عند البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره، مالم يؤمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة».

(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).

ثلاث وصايا

وأيًّا ما كان الذي يريدُ كتابتَه صلوات الله وسلامه عليه، فقد كفانا مؤونته بما ترك فينا، ممَّا لو تمسَّكنا به لن نَضِلَّ أبداً: كتابَ الله، وسنة رسوله ﷺ.

على أنه استبدل بالكتاب الذي عَدَل عنه، ثلاثَ وصايا تعتمد عليهنَّ الأمة في سلامة بنائها، وحفظ كيانها، ودعم قوّتها، واجتماع كلمتها.

إخراج المشركين من جزيرة العرب

والمراد بالمشركين: كلُّ من لم يرتضِ الإسلام ديناً، والمراد من جزيرة العرب: الحجازُ خاصَّة، مكةُ والمدينةُ واليمامةُ وما إليها.

لا جَرَم أنَّ الفتنة مع المشركين أينما حَلُّوا، فبقاؤهم في مَهْد الإسلام، وموطنه الأوّل، ممَّا يثيرُ عواصف الفتن، ويهيج كوامنَ الإحَنِ[1]، ويرجع بالوبال على المشركين أنفسهم. فإخراجهم من الحجاز إذاً حمايةٌ لهم ورحمةٌ بهم، ذلك إلى الوقاية من شرٍّ فتنتهم، وسوء طويَّتهم.

ولقد شُغِلَ الصِّدِّيق عن إنفاذ هذه الوصيَّة بقتال المرتدين ومانعي الزكاة، حتى أنفذها الفاروق رضي الله عنه، كما أشرنا إلى ذلك في حديث جلاء اليهود[2].

إجازة الوفد

والإجازةُ: العطيَّة، وكانت جائزةُ الفرد على عهده ﷺ أُوقِيَّةً من فضة، وهي أربعون درهماً.

والمقصود: إكرام الوافدين على البلاد الإسلامية، وإعانتهم من بيت

---

(١) الإحن: جمع إحنة، وهي الحقد والضِّغْن.

(٢) انظر: عيد الجلاء الأول ص٧٢٥ ـ ٧٢٧.

المال، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، كلٌّ على حَسْب مكانته ومنزلته، في غير إسراف ولا معصية.

وذلك بابٌ عظيم من أبواب الفضل والبرِّ الذي يدعو إليه الإسلام، ويحضُّ عليه، وفيه من تأليف القلوب، وبشاشة النفوس، ورعاية المصالح العامة؛ فالإسلام أحقُّ به وأهله.

الوصية الثالثة

قال راوي الحديث: وَسكت عن الثالثة، أو قالها فأُنسيتها.

وقد روى الحديث سفيان بن عُيينة عن سُليمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ، فجائز أن يكون كلٌّ من هؤلاء الرواة هو القائل، والذي روى عنه هو الساكت.

وفي «سنن أبي داود»: قال ابن عباس: «وسكت عن الثالثة»[١] الخ.. إلا أنّ صاحبَ «الفتح» لم يذكر هذا الوجه، ورجّح أن القائل هو سليمان، فالساكت اذاً هو سعيد[٢]... و لا يعنينا من هذا الخلاف إلا صيغة الشَّك التي تُنبئ بتحرِّي الرواة، وبلوغهم الغاية القُصْوى في أمانة النقل.

وبعد، فماذا عسى أن تكون هذه الوصية الثالثة؟.

أهي: إنفاذ جيش أسامة بن زيد لغزو الروم؟.

ويؤيِّده أنَّ الصحابة رضي الله عنهم لمَّا اختلفوا في إنفاذه على أبي بكر رضي الله عنه، أخبرهم بأنه ﷺ عهد إليه بإنفاذه عند موته![٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٢٩).

(٢) فتح الباري ٧: ٧٤١.

(٣) انظر: شرح حديث «حقوق الأكفاء» ص٨٩٩.

أم هي: وَصاته بكتابِ الله عز وجل؟.

ولا رَيْب أنها أجمع الوصايا وأعظمها، ويدلُّ لذلك ما قدَّمناه قريباً.

أم هي قوله: «لا تتَّخذوا قبري وثناً»؟[1]

ويؤيِّده أنَّ هذا النهي جاء في «موطّأ» مالك، مقروناً بالنهي عن بقاء دينَيْن بأرض العرب[2].

أم هي: الصلاة وما مَلَكَتْ أيمانكم؟.

ويؤيِّدها أنها آخر ما تكلَّم به النبيُّ ﷺ، كما في سنن أبي داود والنسائي ومسند الإمام أحمد[3].

---

(١) لم يرد بهذا اللفظ في كتب السنة، وإنما جاء بلفظ: «لا تتَّخذوا قبري عيداً»، وبلفظ: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً».

أما الأول، فقد رواه أحمد في «المسند» ٢ :٣٦٤(٨٨٠٤)، وأبو داود (٢٠٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتَّخذوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ..».

وأما الثاني، فقد رواه أحمد في «المسند» ٢ :٢٤٦(٧٣٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتَّخذوا قبور أنبيائهم مَساجِدَ» وإسناده قوي.

(٢) الموطأ ٢: ٨٩٢.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» ١: ٧٨ (٥٨٥)، وأبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٨٩) كلهم من حديث عليٍّ وبإسناد حسن.

وله شاهد من حديث أم سلمة عند ابن ماجه (١٦٢٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وآخر من حديث أنس عند ابن ماجه أيضاً (٢٦٩٧). قال عنه البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن لقصور أحمد بن المقداد (شيخ ابن ماجه) عن درجة أهل الحفظ والضبط، وباقي رجال الإسناد على شرط الشيخين.

آخر وصاياه ﷺ

لقد ثبت أنَّ هذه الوصايا كلها كانت أواخر كلامه صلوات الله وسلامه عليه، وهو يودِّع هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى، لكنَّ خاتمتها الحقيقية لا «النسبيَّة» هي الصَّلاة وَمَا ملكت أيمانكم، لا جَرَم أن في هذه الخاتمة من الحكم النبويَّة، واللمحات الربانيَّة، ما نرجو قريباً أن نقتبس ـ بتوفيق الله ومشيئته ـ قَبَساً مُشْرِقاً منه.

* * * * *

آخرُ الكلام النبوي *

١٠٠ ـ عن عليّ رضي الله عنه قال: كان آخرُ كلام النبيِّ ﷺ: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ، اتَّقُوا اللهَ فيما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم». رواه أبو داود[1]

الصَّلاةَ: منصوبٌ على الإغراء، أي: الزموا الصَّلاة أو احفظوها. **وملك اليمين**: هم الرقيق. وأغْرَبَ من قال: الزكاة كما سيأتي، وفي الإغراء إيجازٌ وتأكيد، فالتكرير إذاً لمزيد التأكيد.

توفيق بين حديثين

لا خلاف بين حديث عليٍّ هذا وحديث عائشة في الصحيحين وغيرهما،

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد التاسع والعشرون(١٣٧٧).

(١) أخرجه أحمد ١: ٧٨ (٥٨٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٥٨)، وأبو داود (٥١٥٦)، في «الأدب» باب في حقِّ المملوك، ورواه ابن ماجَهْ (٢٦٩٨) في «الوصايا» باب «هل أوصى رسول الله ﷺ»، وله شاهد من حديث أم سلمة عند ابن ماجه (١٦٢٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ولفظه: أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «الصلاةَ وما ملكت أيمانكم» فما زال يقولها حتى ما يَفيضُ بها لسانه (أي: ما يقدر على الإفصاح بها). ومن حديث أنس عند أحمد٣: ١٩٦ (١٢١٦٩) قال: «كانت عامَّة وصيَّة رسول الله ﷺ حين حَضَره الموتُ: «الصَّلاةَ وما مَلَكَت أيْمَانكم، الصَّلاةَ وما مَلَكَت أيْمَانكم» حتى جعل رسول الله ﷺ يُغَرغِرُ بها صَدْرُه، وما يكاد يفيضُ بها لسانه. وهو حديث صحيح رجاله ثقات. وانظر: تخريج المسند ١٩: ٢٠٩.

قال البغوي في «شرح السنة» ٩: ٣٥٠: يفيص هو بالصاد غير المعجمة، يعني: ما يبين كلامه، يقال: فلان ما يفيصُ بكلمة: إذا لم يقدر على أن يتكلم ببيان، وفلان ذو إفاصة، أي: ذو بيان.

قالت: كان رسول الله ﷺ يقول ـ وهو صحيحٌ ـ: إنه لم يقبض نبيٌّ قط حتى يرى مَقْعَدَه في الجنة، ثم يُخيَّر. فلمَّا نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي غشيَ عليه ساعةً، ثم أفاق فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى». قلت: إذاً لا يختارنا. وعرفت الحديث الذي كان يحدِّثنا به، وهو صحيح. قالت عائشة: فكانت تلك آخر كلمة تكلَّم بها رسول الله ﷺ قوله: «اللهم الرفيق الأعلى»[1].

لا خلاف بين الحديثين في أن كلاً منهما كان آخر كلامه صلوات الله وسلامه عليه، وهو يودِّع هذه الدنيا، إلا أنَّ الحديث الأول كان آخر كلامه، وهو يوصي أمَّته، والحديث الآخر كان آخر كلامه وهو يناجي ربَّه، وذلك بعد أن مَسَحَ وجهه بيده من ماء كان في علبة بين يديه، وهو يقول: «لا إلـه إلا الله، إنَّ للموت سكرات»[2]!!.

وسيلة وغاية

وكأنَّ الصِّلَةَ بين الحديثين هي الصِّلة بين المقدِّمة ونتيجتها، والوسيلة وغايتها، فلا ريب أنَّ الوسيلة إلى الرفيق الأعلى، إنما هي تقوى الله تعالى، في تأدية حقوقه وحقوق عباده. وقد جاءت كلُّها في رسالات الله بيِّنةً واضحة، إنْ أُجملت تارةً فقد فُصِّلت تارةً أخرى.

خلاصة رسالته العامة الخالدة

لَبثَ خاتمُ النَّبيين صلواتُ الله وسلامه عليه نيِّفاً وعشرين عاماً، يؤدِّي الأمانة، ويُبلِّغ الرسالة، ويُجاهد في الله حقَّ جهاده، ولا يفتُر ولا يهَنُ، حتى حجَّ حجَّة الوداع، وخطب فيها خطبته الجامعة، التي بيَّن فيها لأمته، خلاصةَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، مسلم (٢٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

رسالته العامة الخالدة.

فلمَّا قَفَل من حَجَّة الوداع أخذ يُضاعف اهتمامه لشؤون أمته، علاوةً على اهتمامه بلقاء ربِّه، وخافَ عليهم أن يتنافسوا في الخلافة والملك، وفي زهرة الحياة الدنيا، فتهلكهم كما أهلكت من كان قبلهم، وتُلهيهم عن مقوِّمات العزَّة والسعادة في الدنيا والآخرة.. فلم يزل يتعهَّدهم بوصاياه وهدايته، حتى ودَّعهم آخر وداع بوصيته الخاتمةِ الحاسمة، أجمعِ جوامع الكلم، وأبلغِ مقوِّمات الأمم، وأهدى سبيل إلى الحياة الطيِّبة الكاملة، والسعادة الأبدية الشاملة: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وصيَّة مؤكدة

إنَّها وَصيَّةٌ مُؤكّدةٌ، بأن يُحْسِنَ العبدُ صِلَتَهُ بخالقه ومالكِهِ ومولاه العليِّ الأعلى.

وإنها وصيَّةٌ مؤكَّدة، أن يُحسِنَ العبدُ صِلَته بمَمْلوكه وخادمه ومولاه الأدنى.

وإنَّ مَنْ أَحسَنَ هاتين الصِّلتَيْن فَخَافَ مقامَ ربِّه، وراعى حقَّ خادمه، فقد تمَّ دينُه، وكَمُلَت مروءَتُه، وعَظُمَت سيادَتُه، وسَعَتْ إليه الدنيا صَاغِرةً، وكان جديراً بالعزَّة والكرامة، وبالاستخلاف في الأرض، والعِمَارة الصَّالحة فيها.

حقوق الله وحقوق عباده

إنَّ أمانة الله ورسالته ـ التي أدّاها أنبياؤه، وبلَّغها رسله، وقام عليها بعدهم مَن اصْطَفَاهم الله لوراثة كتابه، وحمَّلهم أمانة وحيه ـ إنما تعتمد في جملتها وتفصيلها على حقوق الله وحقوق عباده.

فركَّز النبيُّ الخاتَم ﷺ حقوقَ الله في الصَّلاة؛ إذ كانت قيامها وعمادها ومِلاك أمرها كله، مَنْ أقامها فهو لغيرها أشدُّ إقامة، ومَنْ أضاعها فهو لغيرها أكثر إضاعة. ولن ترجوَ من تارك الصلاة خيراً أبداً، وإن كان عند الناس عظيماً،

لا لنفسه ولا لغيره، لا في دين ولا دنيا، وكيف يُرجى الخير ممّن حادَّ اللهَ ورسولَهُ، ومَنْ هو للكفر أقرب منه للإيمان؟!!.

رعاية الضعفاء

وركَّز صلوات الله وسلامه عليه، حقوق عباد الله في رعاية الضعفاء منهم وتقوى الله فيهم، بالعدل في معاملتهم، والإحسان إليهم.. ومن اتَّقى الله في العبيد والضعفاء، فهو أجدر بأن يتقيَهُ في الأحرار والأقوياء، مُوقناً بأنهم جميعاً إخوانه، لا فَضْلَ لأحدٍ منهم على أحد إلا بالتقوى.

ومن غريب الشرح وطريفه، ما قيل في مُلك اليمين هنا إنه الزكاة، ويؤيِّده أنَّ الصلاة قلَّما تفارقها في الذكر، ولكنَّ المعروف والمألوف في لسان العرب والشرع، أجدر بالفهم، وأحقُّ بالعلم.

أحقُّ الناس عملاً بهذه الوصية النبوية

ألا إنَّ أحقَّ الناس عملاً بهذه الوصيَّة النبويَّة الخاتِمة، ودعوةً إليها، وأخذاً على أيدي المُفرِّطين فيها، هما الصنفان اللذان إذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس: العلماء والأمراء..

أعظم خطر يهدد الدول الإسلامية

وإنَّ التهاون في شأن الصلاة، وفي رعاية الضعفاء من عباد الله، أعظم خطراً يهدِّد الدول الإسلامية بِسَلْبِ عزَّتها وكرامتها، ويُنذرها بأن يتخلَّى الله عنها ويكلها إلى غيره، ومن يتخلَّ الله عنه ويَكِلهُ إلى غيره فقد أهانه، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[١].

أما بعد، فمنذ عهد غير قريب وأنا أستخير الله تعالى، وأترضَّى رسولَ الله

---

(١) اقتباس من الآية ٢٢ من سورة الحج.

ﷺ(١) ، أنْ أُودِّع الكتابة في هذا المكان إلى أجلٍ مسمًّى عند الله عزَّ وجل، وها أنذا أستأذن أُسرةَ المجلة وقراءها.. حتى يأذن الله لي بالعود، والعَوْد إن شاء الله أحمد ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

* * * * *

(١) قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].

الفصل الثامن

الشَّمائل النبويَّة

١ ـ من صفات القائد ﷺ.

٢ ـ منهج النبيِّ ﷺ في العبادة.

٣ ـ الحياء النبوي.

٤ ـ من أدب النبوَّة.

٥ ـ مسامرة نبويَّة (١ ـ ٢).

٦ ـ سيِّدُ الأزواج ﷺ (١ ـ ٣).

من صفاتِ القائد *

١٠١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسَنَ النَّاس، وكان أجوَدَ النَّاس، وكان أشجعَ النَّاس؛ ولقد فَزِعَ أهلُ المدينة ذات ليلة، فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ، في عُنُقِه السَّيف وهو يقول: «لم تُراعوا. لم تُراعوا». قال: وجدناه بحراً، أو إنه لبحر. قال: وكان فرساً يُبَطَّأُ. رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[1].

حاضر العالم الإسلامي ونهضاته

في حاضر العالم الإسلامي نهضات إصلاحيَّة مُتعدِّدة النواحي، فمنها التشريعي، ومنها التهذيبي، ومنها الاقتصادي، ومنها التوجيهي، إلى غير أولئك ممَّا يكمِّل بعضه بعضاً، ويشدُّ بعضه أَزْرَ بعض، ويتعاون في جملته وتفصيله على البعث والتحرير، والإنشاء والتعمير، أو حينما نحاول إحسان الظنِّ ـ على إعادة مَجْد الإسلام وإحياء فضائله الأولى ـ والأعمال بالنيَّات ولكلِّ امرئ ما نوى.

قادة النهضات

لا جَرَم أنَّ لكلِّ نهضة من هذه النهضات قائداً مسؤولاً عنها، وعن مدى إخلاصه وإصلاحه فيها، ثمَّ عن مدى توجُّهه وتوجيهه إلى الخير حتى يُنْجزه في

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٢ = ١٩٥٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٠) في الجهاد، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل.

أقرب زمن مستطاع، من أقرب طريق مشروع، فكم من مشروعات نافعة أماتها البطء فيها، أو الحقد الدفين على مبتكريها، أو كثرة الخلاف والتعقيد في طرائق إنقاذها!! وعلى قدر المُهمَّة المُلقاة على عاتق القائد مسؤوليته، وعلى حسبها يكون حسابه أمام الله والتاريخ!.

المسلمون إلى خير ولكن الضعف في القيادة

ولما كان من الحقائق التي شاع العلم بها في العالم الإسلامي بالعشرين السنة الأخيرة أنَّ المسلمين إلى خير ولكن الضعف في القيادة ـ كما جاء في الجزء السابق لهذه المجلة، على لسان رئيس تحريرها الجليل[1] ـ أحببنا أن نذكِّر قادتنا بشيءٍ من صفات قائدهم الأعلى، غير مُدافع ولا مُنازع، صلوات الله وسلامه عليه، عسى أن يتَّخذوا منها نبراساً يضيء لهم طريق القيادة المثلى، ويهديهم في كلِّ نهضة إصلاحية للتي هي أقوم.

القائد الأعلى

وفي مقدِّمة هذه الصِّفات التي نذكِّر بها قادَتَنا: الجودُ، والشجاعة. وقد بلغ فيهما، وفي غيرهما صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى، والغاية القصوى، مما لا مَطمَع لأحد ـ كائناً من يكون ـ أن يدانيه فيها، بل أن يساويه.

فإذا كان صلوات الله وسلامه عليه ـ بنعمة ربه ـ أحسن الناس، في كلِّ صفةٍ من صفات الخير، وكلِّ فضيلة من مكارم الأخلاق؛ فذلك لأنَّه تعالى شأنه أدَّبه فأحسن تأديبه، وهذَّبه فأكمل تهذيبه، وآتاه ما لم يُؤْتِ أحداً من خلقه، وأثنى عليه بما هو أهله ما لم يثن على أحدٍ من قبله..

جوده ﷺ وشجاعته ومصدرهما

وإذا كان ﷺ أجْوَدَ الناس؛ فذلك لأنه أوثق الناس بربِّه، ولا ريب أنَّ كرم

---

(١) الأستاذ محبُّ الدين الخطيب رحمه الله تعالى.

العبد وإنفاقه على قدر ظنِّه بسيِّده، وحَسْبُك: أنه ما سُئل عن شيء قط فقال: لا[١]، إن كان عنده أعطاه وإلا سكت، أو قال لسائله: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شيءٌ قضيناه»[٢].

وقد قال له عمر ذات مرة: ما كلَّفك الله ما لا تقْدر عليه، فرُئيت الكراهيةُ في وجهه ﷺ حتى إذا قال له رجلٌ من الأنصار: أنفق يا رسول الله، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، تبسَّم وعُرفِ البِشْر في وجهه، وقال: «بهذا أمرت»[٣].

شجاعتُه عليه الصَّلاة والسلام

وإذا كان ﷺ أشْجَعَ الناس كافَّةً؛ فلأنه أجود الناس كافَّةً؛ وذلك لأن الجود والشجاعة صفتان متحالفتان لا تكادان تفترقان، وينبوعهما هو الثقة بالله تعالى والإيمان به.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١)، والترمذي في «الشمائل (٣٥٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) سيأتي تخريجه من حديث عمر. وقوله: ابتع عليَّ: اشترِ إلى أجل، وأنا أدفع الثمن عند حلول الأجل.

(٣) رواه الترمذي في «الشمائل» (٣٥٣)، والبغوي في «الأنوار في شمائل النبيِّ المختار» (٣٦٧)، وأخرجه البزار (٣٦٦٢)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٣٩٠)، والخرائطي في «المنتقى من مكارم الأخلاق» (٢٧٨) وغيره، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠ :٢٤١-٢٤٢ وقال: رواه البزار وفيه: إسحاق بن إبراهيم الحنيني، وقد ضعَّفه الجمهور، ووثَّقه ابن حبان، وقال: يخطئ». ولفظه من حديث عمر بن الخطاب: أن رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ يسأله، فقال النبيُّ ﷺ: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءني شيءٌ قَضَيْتُهُ». فقال عمر: يارسول الله! قد أعطيتَهُ، فما كلَّفك الله ما لا تقْدر عليه، فكره النبيُّ ﷺ قولَ عمر، فقال له رجلٌ من الأنصار: يا رسول الله أنفق، ولا تخفْ من ذي العرش إقلالاً، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وعُرف البِشْر في وجهه لقول الأنصاري، ثُمَّ قال: «بهذا أُمرت». والحديث إسناده ضعيف، فيه هارون بن أبي موسى بن أبي علقمة المديني عن أبيه هارون. وهارون لا بأس به، ولكنَّ أباه مجهول.

وما من شُجاع إلا وقد أُحصيت عليه هفوةٌ، أو عُدَّت عليه كَبْوة، إلا سيِّد الشجعان ﷺ، فقد فرَّت الفرسان من حوله غير مرة وهو مُقْبلٌ لا يبرح، وثابتٌ لا يُدبر ولا يتزحزح.

ومن آيات شجاعته: ما رواه أنس رضي الله عنه في هذا الحديث من أنَّ أهل المدينة اضْطَربوا وفزعوا ذات ليلة، وظنُّوا أن عدواً أغار عليهم، فأسرع أناسٌ من شُجعانهم نحو الصِّياح الذي سمعوا، فما راعهم إلاَّ أن يجدوا رسول الله ﷺ عائداً بعد أن استْبرأ الخبر، واستَكْشَف الأمر واطمأنَّ على المدينة وأهلها، ثم طمأنهم وأزال مخافتهم.

ومن عجيب فروسيَّته وشجاعته: أن يركب فرساً لأبي طلحة معروفاً بالبطء والعَجْز، وسوء السَّيْر، يمتطيه عارياً من السَّرج، فيثبت عليه وهو متقلِّد سيفه في عنقه، ثم ينقلب الفرس سريعاً ببركته ﷺ كأنه بحر.

أبو طلحة الأنصاري

وأبو طلحة هو زَيْد بن سَهْل الأنصاري الخزرجي، زوج أم سُليم والدة أنس بن مالك، خادم رسول الله ﷺ، وراوي هذا الحديث، كان من فُضلاء الصحابة وشجعانهم، وذوي الجُود والكرم منهم، وكان رامياً مشهوراً، يجْثو بين يدي رسول الله ﷺ في ميدان الحرب، ويقول: نفسي لنفسك الفِدَاء، وَوَجْهي لوجْهك الوقاء.

ثم ينثر كنانته بين يديه، وكان يتطاول بصدره ليقي به رسول الله ﷺ، ويقول: نحري دون نحرك[(١)].

---

(١) روى البخاري (٣٨١١) في فضائل الأنصار، ومسلم (١٨١١) في الجهاد والسِّيَر من حديث أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أُحد، انهزم الناس عن رسول الله ﷺ، وأبو طلحة بين يَدْيه مُجَوِّبٌ عليه بجَحَفَة، وكان رامياً شديدَ النَّزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمرُّ معه الجَعْبَة من النَّبْل، فيقول رسول الله ﷺ: انثرها لأبي طلحة. ثم يشرف =

ولا رَيْب أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ تخلَّقوا بخُلُقه، وبلغوا من الشجاعة والكرم والفضل، بمقدار حبِّهم له وإيمانهم به. وذلك ميزانٌ سليمٌ مستقيم، تُوزن به فضائلُ مَنْ بعدهم إلى يوم القيامة.

أثر الجود والشجاعة في بناء المَجْد

وبعد، فلسنا بسبيل تفصيل جوده وشجاعته ﷺ، وعظيم أثرهما في صادقي الإيمان به من أمته، فقد تكفَّلت بذلك المؤلفات الكثيرة في سيره وشمائله، وإن لم تبلغ الغاية في شرح مكارمه وفضائله.. ولكنا بسبيل الدعوة إلى التخلُّق بأخلاقه العامة، وبهاتين الفضيلتين منها خاصَّة، إن كنا جادِّين في نهضاتنا، صادقين في عَزَماتنا، واثقين بعون الله لنا على احتمال التَّبِعَات الجِسَام المُلقاة على عواتقنا.

وأجدرُ الناس بقَبول هذه الدعوة والاستجابة لها هم قادتنا وأُولي الأمر منا، إن كانوا يؤمنون بأنه صلوات الله وسلامه عليه هو قائدهم الأعلى، وأنهم لن يحقِّقوا لأُممهم ما يرجون لها من العزَّة و السِّيادة، إلاَّ إذا كانوا تحت رايته، مُسْتظلِّين بظلِّ هدايته.

الشجاعة والكرم في أوسع معانيهما وأبعد مراميهما

وإذا ذكرنا الشجاعة فلا نعني بها مجرَّد الشَّجاعة الحربيَّة التي تُفسَّر بأنها ثباتُ القدم عند مواقع القتال، ومكافحة الأبطال، وإنما نعني بها الشجاعة في أوسع معانيها وأبعد مراميها، ولا سيما الشجاعة الأدبيَّة التي تقصد إلى مُنَاصَرة الحق، وإظهاره في إخلاصٍ وصدق، دون مبالاة بذي جاهٍ أو سلطان.

ولن تُؤْتي هذه الشجاعة أُكلها، إلا إذا تقبَّلناها من أهلها، وشجَّعناهم على

إلى القوم. فيقول أبو طلحة: يانبيَّ الله بأبي أنت، لا تُشرف، يُصيبُكَ سهمٌ، نحري دون نحرك». ومعنى: مُجَوِّبٌ؛ أي: مُتَرِّسٌ عليه يقيه بها. ويقال للتُّرس أيضاً: جَوْبة. وانظر بقية أخبار أبي طلحة في حديث: مسامرة نبويَّة، ص٨٢٤ ـ ٨٢٥.

المُضيِّ فيها، ما كانوا إلى الخير داعين، وإلى الحقِّ قاصدين، ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[1].

وإذا ذكرنا الكرم فلا نعني به ما يُنفق من أموالٍ طائلة في مظاهر الفخر والأُبَّهة؛ فإنَّ ذلك إسراف وتبذير، عظيم الضَّرر، وخيمُ العاقبة. وإنما نعني به الأَريَحيَّة للإنفاق في سبيل الله، وتحرير الوطن، وإحياء مَوَات الأمة، وإزاحة ما ضُرِب عليها من الذلة والمسكنة.

إنَّ هذه المُثُل العليا التي ندعو إليها القادة والمشرفين على نهضاتنا الحاضرة، وفي مقدِّمتها الشجاعة والكرم والتضحية والبذل ليست من أمهات الفضائل وحَسْب، ولا من صفات القائد المثالي وكفى، ولكنها إلى ذلك كلِّه من الدعائم الأساسية الأولى، لتحرير الشعب، وإنقاذ الوطن، وبناء المَجْد.

* * * * *

(١) اقتباس من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

منهج النبيِّ ﷺ في العبادة *

١٠٢ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النَّبيِّ ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبيِّ ﷺ؟! قد غَفَر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أُصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنِّي أصومُ وأُفطر، وأُصلِّي وأَرقد، وأتزوَّج النساء، فَمَنْ رَغبَ عن سُنَّتي فَلَيْسَ منِّي». رواه الشيخان[1].

المفردات:

الرَّهْط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة. وفي رواية مسلم: «نفر»، وهم من الثلاثة إلى التسعة. **تقالُّوها**: عدُّوها قليلة.

والمراد بذنبه: ما فَرَط منه خلاف الأَوْلى بالنسبة إلى مقامه الكريم، وهو من قبيل: (حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين). وإذا كان العتاب على قَدْر المحبَّة، فإنَّ الذنب على قدر المنزلة.

وتُطلق **السُّنَّة**: ويرادُ بها ما سنَّه ﷺ لأمته ممَّا يقابل الفرض. وتطلق ويراد

---

* مجلة الأزهر، الجزء الثامن، المجلد الخامس عشر، شعبان (١٣٦٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) كلاهما في كتاب النكاح.

بها: السِّيرة والطريقة، وهذا هو المراد هنا[1].

والرغبة عنها: العدول والإعراض؛ فإن كان على وجهٍ من التأويل عُذِرَ صاحبُه، ولكنه بسبيل الوقوع في شَرَكِ التعمُّق والتنطُّع، وإن كان عن بغضٍ وكراهية، فالله بريءٌ من الكافرين ورسوله، و عياذاً بالله من ذلك!!.

مقامان كريمان

النبيُّ ﷺ خليفةُ الله في أرضه[2]، وأمينُه على وحيه، وسفيرُه إلى أمَّته؛ يأخذ عن ربِّه، ويعلِّمهم، ويستضيءُ بنورِهِ، ويرشدهم، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

مقامان كريمان، يقضي أولهما أن يكون المثل الأعلى في القانتين، ويقضي

---

(١) أي: الطريقة المشروعة المتَّبعة في الدين، والمنهج النبويُّ الذي يشمل الاعتقادات والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وغيرها. أما معنى (السنة) بما يقابل الفرض والواجب، فهو من الألفاظ الاصطلاحية الفقهية، والفرق بين المعنيين والاستعمالين ظاهر، وانظر في مدلول لفظ (السنَّة) في حديث النبيِّ ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين ماكتبه الأستاذ العلامة المحقِّق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في كتاب: «السنة النبويَّة وبيان مدلولها الشرعي».

(٢) في هذه العبارة نظر، لأنَّ الاستخلاف يتضمَّن معنى تفويض المسْتخلِف لخليفته فيما هو من خصائصه. والنبيُّ منبَّأ من علوم ربانية بالوحي، والرسولُ مكلَّف أن يبلِّغ رسالة ربه، والخلافة فيها معنى التوكيل والإنابة، والله عز وجل هو الوكيل على كلِّ حي. وقد خاطب نبيَّه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢] ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧] فالرسول ﷺ ليس وكيلاً على الناس، بأيِّ معنى من معاني الوكالة. أفيكون خليفة عن الله، والخلافةُ أوسع في صلاحيتها من الوكالة؟! وهذا كله بالنسبة إلى رسول الله ﷺ، أفضل خلق الله، وخاتم رسله، فكيف يكون حال سائر الناس؟!.

(٣) اقتباس من الآية ١٦ من سورة المائدة.

ثانيهما أن يكون القدوةَ المُثلى في الهُداة المرشدين، وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه.

المَثَلُ الأعلى في القانتين

كان في مقام العبودية، وهو أحبُّ مقام إليه، يصل ليله بنهاره في خدمة مولاه، ويقوم من الليل حتى تتورَّم قدماه، وإذا قيل له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر؟! قال: «أفلا أكون عبداً شكورا؟!»[١].

القُدوة المُثْلى في الهُداة المرشدين

وكان في مقام الهدى والإرشاد يترفَّق بصحابته، ويدعوهم إلى الأخذ بالأيْسَر من الأمور ما لم يكن إثماً، ويُحذِّرهم التكلُّف والتعمُّق، ويقول لهم: «خُذوا من العمل ما تطيقون؛ فإنَّ الله لا يملّ حتى تملُّوا»[٢].

ويقول لعبد الله بن عمرو، وقد شدَّد على نفسه: «صُمْ وأفطر، ونم وقُم؛ فإنَّ لجسدك عليك حقاً، وإنَّ لعينك عليك حقاً، وإنَّ لزوجك عليك حقاً، وإنَّ لِزَوْرك عليك حقاً»[٣].

ويشكو إليه حَنْظَلة غَفْلته ومداعبتَهُ أهله، ويحسب ذلك نفاقاً، فيهوِّن عليه، ويقول: «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»[٤]، ثلاث مرات.

ثمَّ كانوا إذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم، وإذا ذكروا الطعام ذكره معهم[٥]،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠) في التهجُّد، ومسلم (٢٨١٩)و (٢٨٢٠) في صفة القيامة والجنةو النار.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٠)، ومسلم (٧٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٥)و (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

(٥) روى الترمذي في «الشمائل النبوية» (٣٤٣) عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: دخل =

وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم، وما طلب من تاجر أن يترك تجارته، ولا إلى صانع أن يهمل صناعته، بل أقرَّهم على أسبابها، ودعاهم إلى إتقانها، وأمرهم بتقوى الله فيها. وكان يتخوَّلهم بالموعظة؛ خشيةَ السآمة عليهم. وكان أحبَّ العمل إليه أدومه وإن قلَّ؛ «فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[1].

نفرٌ على زيد بن ثابت، فقالوا: حدِّثنا أحاديث رسول الله ﷺ. قال: ماذا أحدِّثكم؟ كنت جارَهُ، فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليَّ فكتبته له، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكلُّ هذا أحدِّثكم عن رسول الله ﷺ.

(١) اقتباس من حديث عزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة»: ٢٩١، و«الأجوبة المرضيَّة» ١ : ١٠ ـ ١٥ للبزار (٧٤) والحاكم في «علومه» ص٣١٤ (٢٢٠)، والبيهقي في «سننه» ٣: ١٨، ١٩. وغيرهم كلهم من طريق محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً بلفظ: «إنَّ هذا الدين متينٌ، فأوْغِل فيه برفق، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله، فإن المُنْبتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى».

ثم قال السَّخاوي: «وهو ممَّا اختُلف فيه على ابن سوقة في إرساله وَوَصْله، وفي رفعه وَوَقْفه، ثم في الصَّحابي: أهو جابر أو عائشة أو عمر؟ وقال الدارقطني: ليس فيها حديث ثابت. ورجَّح البخاري في «تاريخه» ١ :١٠٢ـ١٠٣ من حديث ابن المنكدر الإرسال. وأخرجه البيهقي أيضاً ٣ :١٩، والعسكري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فيه، لكن بلفظ: «فإن المنبتَّ لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى» وسنده ضعيف أيضاً. وهو عند ابن المبارك في «الزهد» (١٣٣٤)من حديث عبد الله بن عمرو ولكن وقفه. ولفظه: «إنَّ دينكم دين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المُنْبتَّ...»، ولهما شاهدٌ عند العسكريِّ من حديث الفرات بن السَّائب عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة، عن عليٍّ رفعه: «إنَّ دينكم دينٌ متينٌ فأوغل فيه برفق، فإنَّ المُنْبَتَّ لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع»؛ وفرات ضعيف، وهو عند أحمد ٣ :١٩٩ (١٣٠٥٢) من حديث أنس رفعه، لكن ليس فيه جملة الترجمة، وهو على اختصاره أجود ممَّا قبله». انتهى.

ولفظه في «مسند أحمد» من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول اله ﷺ: «إنَّ هذا الدين متينٌ، فأوغلوا فيهِ بِرِفقٍ» وهو حَسَنٌ بشواهده. وانظر شواهده في التعليق على «المسند» ٢٠ :٣٤٦ـ٣٤٧.

خُطة عمليَّةٌ مُثلى

ولم يكفه ﷺ أن يأخذَهم بهذا المنهج الحكيم حتى أكملَه بخطة عمليَّة مُثلى، لا تَدَع لمتنطِّع مجالاً، ولا لمتعمِّق عذراً؛ وذلك أنه كان يترك النافلة وهي أحبُّ إليه، ويقتصد في الطاعة وفي ازدياده منها قرَّة عينيه؛ إمَّا راهباً أن تُفرض عليهم، وإما راغباً أن يترفَّق بهم، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

خَفيَ هذا الذي جَلَوْناه لك على كثير من الناس، ومنهم نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ في بادئ الرأي، إذْ قاسوا المنزلة عند الله والزُّلفى إليه بمقياس الجِدِّ والنَّصب، لا بمقياس الحَرَج والعنت.

ذهبوا يسألون أمهات المؤمنين عن عبادته ﷺ في السرِّ ـ كما في رواية مسلم ـ فلمَّا أُخبروا أخذهم جانبٌ من العجب، كأنهم استقلُّوها بالنسبة إلى أنفسهم، وهنالك اعتذروا عن النبيِّ ﷺ بأنَّ الله قد غفر له، وآتاه ما لم يُؤتِ أحداً غيره، فلا عليه ألاَّ يزداد، وهذا مكانه من الله عز وجل.

ثمَّ أصرُّوا على أن يأخذوا أنفسهم بالأشقِّ من العبادة؛ فواحدٌ يُلزم نفسه قيامَ الليل كله لا يذوق فيه نوماً، وآخر يفرض على نفسه صيام الدهر كله، لا يفطر إلاَّ يوماً حرّم الله صومه، وثالثٌ يترهَّب، فلا يتزوَّج أبداً؛ يبغي بذلك التفرُّغ لعبادة ربه.

ظنُّوا أنَّ هذا طريق السَّبْق إلى الدَّرجات العُلا، وأنَّ بُعْدَ الشُّقَّة بينهم وبين الرسول ﷺ تُسوِّغ لهم ما ذهبوا إليه.

القَصْد في العبادة

فما أنْ علم صلوات الله عليه بما اعتزموا حتى اشتدَّ عليهم في العتاب الذي ترى، وأبان لهم أنَّ القَصْد في العبادة، أزكى للنفوس، وأضمن لها في تحصيل ما تَصْبوا إليه من سبق وفضل.

القيام بواجب الشكر

ثمَّ نَقَضَ حكمهم أنَّ المغفور له لا يحتاج إلى مبالغةٍ في العبادة، بأنه بها أجْدر وأحق؛ قضاءً لحقِّ النعمة، ووفاءً بواجب الشكر، بَيْد أنه يقتصد في الأعمال؛ ليكون القدوةَ المثلى فيما يدعو إليه.

الإخلاص والصدق

وحكمة أخرى: أن يعلموا أنَّ رفعة الدرجات عند الله إنّما هي بالإخلاص وصدق الرغبة في العمل وإن قلّ، لا بالكثرة منه والتعمُّق فيه؛ فكم من قائمٍ ليس له من قيامه إلا التَّعب والسهر، وكم من صائمٍ ليس له من صيامه إلاَّ الجوع والعطش[١].

ما هو الإحسان؟

وليس الإحسان، وهو أعلى المقامات، أن تُكثرَ العمل، وإنما «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنّه يراك»[٢].

ثم ختم عتابهم بأشد ما يكون من الزَّجْر، إذ تبرّأ من المتنطِّعين الذين رغبوا عن سنَّته، ونكبوا عن مَحَجَّته، ولا يزيغ عنها إلا هالك.

حكم وأحكام

وبعد؛ فلا يزال في الحديث حِكَمٌ وأحكام، من حقِّه علينا أن نشير إلى طائفة منها:

---

(١) اقتباس من حديث رواه أحمد في «المسند» ٢: ٣٧٣ (٨٨٥٦)، وأبو يعلى (٦٥٥١)، وابن خزيمة (١٩٩٧). وهو حديث إسناده جيد، ولفظه عند أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، وربَّ قائمٍ حظه من قيامه السهر».

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨) (٩) (١٠) من حديث طويل في سؤال جبريل النبي ﷺ.

السرُّ في اختصاص أمهات المؤمنين بالسؤال

فمن ذلك: أنهم اختصُّوا أمهات المؤمنين بالسؤال؛ لأنهنَّ أدرى بعبادته ﷺ في السرِّ، وهي التي يقصدون إليها. وأما عبادته في العلن فهي معروفة لهم.

وكان هذا السؤال بعد الحجاب؛ لأنَّ حادث الرهط سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[١] وإنما نزلت سورة المائدة في حجَّة الوداع في السنة العاشرة، وكان الحجاب في ذي القعدة من السنة الخامسة.

من الأساليب المثلى في التربية

ومنها: أنَّه ﷺ واجههم بالعتاب بعد التثبُّت ممَّا قالوا؛ رفقاً بهم وستراً عليهم، ثمَّ حذَّر أصحابه كافَّةً أن يزلُّوا في هذا التعمُّق، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟» كما في رواية مسلم[٢].

وهذا طريق التوفيق بين روايتي الشيخين؛ إذ اقتصرت الأولى على اختصاص الرَّهْط بالعتاب، واقْتصرت الثانية على التعميم في الخطاب.

وتلك هي الطريقة المثلى في التربية والتعليم، مادام في الدنيا تهذيبٌ وإرشاد.

الإقسام بالله سبحانه في الأمور المهمة وإظهار الفَضْل والمنزلة عند أمن الرياء

ومنها: الإقسام بالله عزَّ وجل في الأمور المهمَّة ذوات البال توكيداً وتثبيتاً.

وإنَّ من الخير والحكمة إظهار الفضل والمنزلة تلبيةً لدواعي التهذيب والتقويم، وبخاصَّة عند أمن الرياء.

---

(١) سورة المائدة: ٨٧.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠١).

التمتُّع بالطيِّبات لا ينافي الورع

وفي الحديث ـ عدا فضْل النكاح والترغيب فيه ـ دعوةٌ إلى التمتُّع بالحلال الطيِّب، وأنه لا يُجافي الورع والتُّقى، بل إنَّ العدول عنه هو المجافاة للورع والتقى. وللعلماء في هذا بحثٌ طويل.

والحقُّ الذي تؤيِّده الدلائل، ويشهد به الحسُّ أنَّ المباحَ في ذاته لا ضَرَرَ فيه، ولا ذمَّ يلحق متناوليه، وإنما يعرض له ما يجعله ذميماً منهياً عنه، كما يعرض له ما يجعله حميداً مندوباً إليه.

وكيف يكون رفض ما أحلَّ الله لعباده ورعاً وتقى، وهو جلَّت آلاؤه يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾؟[1].

وقد كان السَّلف الصالح يتناولون الطيِّبات ولا يتحرَّجون منها، بل كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يذمُّون المباحات ولا يرفضونها.

وهذا أزهد البشر صلوات الله وسلامه عليه ـ وهديهُ أكمل الهدى، وطريقهُ أقْوَمُ الطرق ـ كان يحبُّ الحلواء والعسل[2]، ويأكلُ اللحمَ ويختصُّ بالذراع، وكانت تعجبه[3]، وكان يُستعذَب له الماء، وينقع له الزبيب والتمر، وأخبر أنه حُبِّب إليه النِّساء والطِّيب[4]، وكان ينهى عن الترهُّب والغلوِّ حتى عدّ فاعلَها

---

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦٨)، ومسلم (١٤٧٤)، والترمذي (١٨٣١) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (١٨٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرج أحمد ٣ :١٢٨(١٢٣١٨) (١٣٠٨٨) والنسائي في سننه (٣٩٣٩) من حديث
=

خارجاً عن سنته. والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة مستفيضة.

نعم ما كان يتكلَّف من هذه المباحات شيئاً ولا يتشهّاه، ولكنه إذا وجده لم يكن يرفضه ولا يأباه.

وفصْل الخطاب: أنَّ خَطَر المباح إنَّما هو من ناحية ما يعرض له من التوسُّع فيه والاشتغال به، وقلَّما نرى مُنْغمساً في الترف عَرَفَ الله حقَّ معرفته، وشكره حقَّ شكره.

ويؤيِّد هذا ما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له: «إيَّاكَ والتنعُّم، فإنَّ عباد الله ليسوا بالمتنعِّمين»رواه أحمد والبيهقي؛ ورواة أحمد ثقات.[1]

فقَصْد السبيل: ألاَّ يُسْرف المرء في الطيِّبات حتى تفضي به إلى الترف والبطر والوقوع في الشُّبهات، وألاَّ يُشدِّد على نفسه حتى يأخذ منه التنطُّع، ويزحف إليه المَلَل، وكلا الأمرين مُجَافٍ للحنيفيَّة السَّمْحة، والمنهج الحق

أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «حبِّب إليَّ من الدنيا: النساءُ، والطيب، وجُعلَ قرَّة عيني في الصلاة» ومما ينبَّه إليه: أنه اشتهر الحديث على الألسنة بزيادة: «ثلاث» عقب قوله: «حُبِّب إليَّ من دنياكم». وهذه الزيادة شاذة غير محفوظة، ولم ترد في شيء من طرق الحديث، وهي زيادة مُفْسدةٌ للمعنى؛ لأن الصلاة ليست من أمور الدنيا، وإنما هي من أهم شؤون الآخرة.

(١) أخرجه أحمد ٥: ٢٤٣ (٢٢١٠٥)، وقول المؤلف: رُواة أحمد ثقات. فيه نظر؛ لأنَّ فيه بقية بن الوليد، وهو مدلِّس تدليس تسوية، وقد عنعن، فإسناده ضعيف. وانظر: التعليق على المسند ٣٦: ٤٢.

نعم، وَرَدَ من حديث أبي عثمان عبد الرحمن بن ملّ الهندي قال: «جاءنا كتاب عمر ونحن بأذْرَبيجان: يا عُتبة بن فرقد، إيَّاكم والتنعُّم، وزيِّ أهل الشرك...» رواه أحمد ١: ١٦ (٩٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبو يعلى (٢١٣) و(٢١٤)، ومن طريقه البيهقي في «السنن الكبرى» ١٠: ١٢٨ (٢٠١٩٩).

الذي جاء به الرسول ﷺ. والكيِّس مَنْ ساس نفسه وأخذها بالتي هي أقوم.

حرص الرسول وأصحابه على الخير

وفي الحديث: حرصُه ﷺ على أمَّته، ورأفتُهُ بهم، وعنايته بتربيتهم، وحرصُ أصحابه رضي الله عنهم على تتبُّع مناهجه، وتقصِّي سيرته، وهكذا تكون سيرة الحكماء المربِّين مع الطلاب الراشدين.

سؤال النِّساء وإباحة مخاطبتهنَّ

والحديث يرفع الحَرَج في سؤال النساء، ويبيح مخاطبتهنَّ والتلقِّي عنهنَّ في أدبٍ ووقار من وراء حجاب.

ولعلَّ في ذلك عبرة لقوم أسرفوا في السفور ففتحوا لهنَّ الباب، وعِظة لآخرين تنطَّعوا في الحجاب، فحرَّموا عليهنَّ ردَّ الجواب. وكلاهما ناكبٌ عن الصِّراط المستقيم، وعن سيرة أغْيَر الناس أجمعين.

* * * * *

الحياء النبوي *

١٠٣- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاء مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وكَانَ إذَا كَرِهَ شَيْئاً عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ». رواه الشيخان، واللفظ لمسلم[١].

المُفْردات:

العذْراء: البِكْر، من العُذْرة، وهي جِلْدة البِكارة.

الخِدْر: السِّتْر وزناً ومعنىً، وأخدرت الجارية: لزمت الخِدْر، وأخدرها أهلها وخدَّروها: سَتَروها وَصَانوها عن الامتهان والخروج لقضاء حوائجها.

* * * * *

مكانة الحياء النبوي

حاولنا أن نُبيِّن في الجزء الماضي مكانَ الحياء من الإيمان[٢]، ونحاولُ أن نبيِّن في هذا الجزء مكانَ الحياء النبويِّ من الإنسان الكامل الذي صنعه الله على عينه، وصاغه بيده الكريمة من مكارم الأخلاق.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد الخامس والعشرون (١٣٧٣).

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٢) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٣٢٠) في الفضائل، والترمذي في شمائل النبيِّ ﷺ (٣٥٨).

(٢) انظر: الحديث الأول: شُعبُ الإيمان ص ١٠٥.

ومهما نبلغ الجهدَ من هذه المحاولة، فلن نُصيب منها إلاَّ بمقدار ما نلمُّ من أخلاق هذا الإنسان الكريم، الذي أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، ثم أثنى عليه بقوله الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

دَرَجات الحياء

من الحياء ما هو غَرْزيٌّ جِبلِّي، ومنه ما هو تربويٌّ مكتسب. ويقع هذا الثاني على أنحاء ووجوهٍ شتى، أبلغها ابن القيم في «مدارج السالكين» عشرة: حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحي من نفسه.

أجمل ابن القيم هذه الوجوه، ثم أخذ يفصِّلها تفصيلاً[2].

سموُّ الحياء النبوي

وسنرى بعد أن نعرضَ طرفاً يسيراً من سيرته صلوات الله وسلامه عليه، كيف آتاه الله تعالى، من الحياء الجبلِّي أعدله وأجمله، ومن الحياء الكَسْبي ـ على اختلاف وجوهه ـ أجزله وأكمله؟!.

وكيف كان حياؤه يُهيمن عليه في سرِّه وجهره، وسائر معاملته: مع ربِّه، ونفسه، وأهله، وعشيرته، وصحابته، وأمَّتِه، منذ نشأته الأولى، إلى أنْ ألحقَه الله بالرفيق الأعلى؟!.

ثم كيف كان هذا الحياء النبويُّ العجيب، لا ينال ـ من بعيد أو من قريب ـ شجاعتَه وإقدامه ودعوته إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وغضبَه للهِ عزَّ

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) انظر: مدارج السالكين ٢: ١٤٤.

وجل، وتعظيمه لحُرمات الله، وشدَّة غَيْرته على دين الله، وجهاده للكفار والمنافقين وغِلظته عليهم كما أمره الله سبحانه؟!.

عظمة هذا الحياء واتِّساقه مع الفضائل النبوية

ولئن صحَّ ما قيل: إنَّ الشجاع لا يكون حيياً ـ لأنَّ الحياء يمتُّ إلى الجُبن بنسب ـ فإنَّ هذا لا ينبغي لمَنْ جمَّله الله بالمكارم، وزيَّنه بالفضائل، وجعلها فيه ـ كاملة مكمَّلة ـ على اتِّساق وتَضَافُر، لا يبغي بعضها على بعض، ولا تنقص واحدةٌ من صاحبتها فتيلاً.

وممَّا لا مَوْضع للجدل فيه أنه كان صلوات الله وسلامه عليه أعظم الناس شجاعةً وإقداماً، مع أنه كان أشدَّهم حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء!.

والصواب: أنَّ **الحياءَ** وسطٌ بين الخجل والوقاحة، وهو من الفضائل التي تنتظمها العفَّة ـ كما قال ابن مَسْكويه ـ وليس الجُبْنُ منه في شيء، **والخجل**: حَيْرة النفس لفرط الحياء، **والوقاحة**: لجاج النفس في تعاطي القبيح.

وأيّاً ما كان الحياءُ، فإنه محمودٌ ما لم يُفضِ بصاحبه إلى مَنْقَصَة، أو يحول بينه وبين مَكْرُمة. وما كان حياءُ النبيِّ ﷺ ـ على شدَّته ـ ليحول بينه وبين مكرمة ولا فضيلة، بل كان على العكس من حياء الناس، يظاهره على الفضائل، ويعاونه على المكارم، في رفقٍ وأناة، وعلم وحكمة.

حياء العبودية مع الله عز وجل

هانحن أولاء نقرأ من معاملته ﷺ لربِّه وعبادته له، أنه كان يقوم الليل حتى تورَّمت قدماه، فيقال له: يا رسول الله أتكلَّف هذا، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟!»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨١٩)، (٢٨٢٠).

وسمِّ هذا إنْ شئت حياءَ العبودية، وهو مزيجٌ من المحبَّة والخوف ومشاهدة التقصير في حقِّ العليِّ الكبير جلَّ ثناؤه، وإنَّ العبد إنْ جدَّ في عبادته فهي دون ما ينبغي لجلال وجهه، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه.

وإن شئت فسمِّه **حياء الإجلال، وهو حياء المعرفة**، وعلى حسب معرفة العبد بربِّه يكون حياؤه منه، لا جَرَم أنه ﷺ أعرف الناس بربِّه، وأعلمُهم به، وأخشاهم له.

حياؤه ﷺ مع الناس

ونقرأ فيما نقرأ من معاملته للناس، أنه لم يُجابه أحداً قط بما يكره[1]، حياءً وكرم نفس؛ فإذا أتى أحدٌ ما لا يحب تغيَّر وجهُه، وعُرف ذلك منه[2]. وإذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «ما بال أقوام يصنعون كذا، أو يقولون كذا؟»[3] ينهى عن الشيء ولا يُسمِّي فاعله[4].

دخل عليه رجل به أثرُ صُفرة كرهها، فلما خرج قال: «لو قلتم له يغسل هذا»[5].

---

(١) كما دلَّ على ذلك حديث أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ قلَّما يواجه رجلاً في وجهه بشيء يكرهه» أخرجه أبو داود (٤١٨٢)، والترمذي في الشمائل (٣٤٦).

(٢) لأن وجهه ﷺ كالقمر ليلة البدر، وما يكرهه كالغَيْم يبدو عليه (طه).

(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: مابال فلان، ولكن يقول: «مابال أقوام يقولون كذا وكذا»؟ أخرجه البخاري (٦١٠١) في الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، وأبو داود (٤٧٨٨).

(٤) كما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) مِنْ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد في «مسنده» ٣: ١٣٣ (١٢٣٦٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٣٧)، وأبو داود (٤١٨٢)، (٤٧٨٩)، والترمذي في «الشمائل» (٣٤٦)، وهو حديث حسن.

=

ولم يكن ـ لشدَّة حيائه ـ يُثبت بصرَه في وجه أحد، وكان يكنِّي عما اضطره الكلام إليه ممَّا يكره، وما عُرف عنه تصريحٌ بمباشرة النساء قط، اللهم إلاَّ في حدود الله عزَّ وجل كما في حديث الذي اعترف بالزِّنى، وجاء إليه ليطهِّره بإقامة الحد، فقال له: «لعلَّك قبَّلت أو غَمَزت أو نظرت»، فلما رآه مُصرًّا قال: «أفعلت كذا؟» لا يكني[1]. وسبب هذا التصريح الذي لا مناص منه؛ أنه كان يَدْرأ الحدود بالشبهات.

وما رُؤي مادّاً رجلَه بين أصحابه قط، وما كان في جدِّه ومزحه، فاحشاً ولا مُتفحِّشاً، ولا سَخَّاباً بالأسواق[2]، وما جزى بالسِّيئة سيِّئة، ولكن كان يعفُو ويصفح[3]، وما انتقم لنفسه قط إلا أن تُنتهك حرمات الله بها[4]، وكان يبدأ أصحابه بالسلام والمصافحة، ولا يَنْزِع يده قبل أن ينزعَها مَنْ صافحه[5]، وربَّما

ولفظه عند أحمد مِنْ حديث أنس بن مالك: أن النَّبيَّ ﷺ رأى على رجلٍ صفرةً، فكرهها، قال: «لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة». قال: وكان لا يكاد يواجه أحداً في وجهه بشيءٍ يكرهه.

(١) مِنْ حديث رواه البخاري (٦٨٢٤).

(٢) الفحش والتفحُّش: النطق بالألفاظ الفاحشة المتَّصلة بالعورات، وما يجب ستره من الأفعال، والسَّخب في الأسواق: رفع الصوت فيها.

(٣) روى الترمذي في «السنن» (٢٠١٦) وقال: حسن صحيح، وفي «الشمائل» (٣٤٧) وابن حبان (٦٤٤٣) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحِّشاً، ولاصخَّاباً في الأسواق، ولا يَجْزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح».

(٤) روى البخاري (٣٥٦٠) و (٦١٢٦) و(٦٧٨٦) و (٦٨٥٣)، وفي «الأدب المفرد» له (٢٧٤)، ومسلم (٢٣٢٧)، وأبو داود (٤٧٨٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: مارأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمةٍ ظُلمها قط. مالم يُنتهك من محارم الله شيء، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان من أشدِّهم في ذلك غضباً»

(٥) روى الترمذي (٢٤٩٠)، وابن ماجه (٣٧١٦) عن أنس: ان رسول الله ﷺ كان إذا
=

استوقفته الأَمَة أو العجوز في الطريق وكلَّمته، فلا ينصرف قبل أن تفرغ من حديثها[١].

وما مسَّت يدُه يدَ امرأة قط، إلاَّ أن تكون زَوْجاً أو محرماً[٢]، وما ضَرَبَ بيده الشريفة خادماً ولا امرأة[٣].

وخدمه أنس رضي الله عنه عَشْرَ سنين ـ مدة إقامته بالمدينة ـ فما قال له مرةً: أفٍّ! ولا لشيءٍ صنعه: لمَ صنعته؟ ولا لشيءٍ تركه: لم تركته؟[٤].

وفي هذا دليلٌ على كياسة أنسٍ ونباهتِه وفطنته، وحُسْن اختيار أمِّه لرسول الله ﷺ، فقد قَدِمت به صبياً يتيماً لا يعدو العاشرة، وقالت له: هذا خُوَيْدمك

استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يدَه، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُر مُقدِّماً رُكْبَتَيْه بين يدي جليسٍ له. وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(١) روى مسلم (٢٣٢٦) في الفضائل، وأبو داود (٤٨١٨) عن أنس رضي الله عنه قال: إنَّ امرأةً عَرَضت لرسول الله ﷺ في طريقٍ من طرق المدينة، فقالت: يارسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أمَّ فلان اجلسي في أيِّ سكك المدينة شئت ثم أجلس إليك». قال: ففعلت، فقعد إليها رسول الله ﷺ حتى قضت حاجتها.

(٢) روى البخاري (٤٨٩١) في كتاب التفسير، ومسلم (١٨٦٦) عن عائشة رضي الله عنها: ما مسَّت يدُهُ يدَ امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهم إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك».

(٣) روى مسلم (٢٣٢٨)، وأبو داود (٤٧٨٦)، والترمذي في «الشمائل» (٣٤٨) من حديث عائشة، قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يُجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة.

(٤) رواه أحمد في «المسند» ٣: ١٩٥ (١٣٠٢١)، والبخاري (٦٠٤١)، وفي «الأدب المفرد» له (٢٧٧)، ومسلم (٢٣٣٠)، وأبو داود (٤٧٧٤)، والترمذي في «السنن» (٢٠١٥) وقال: حسنٌ صحيح، وفي «شمائل النبيِّ ﷺ» (٣٤٥). وهو حديث صحيح على شرط مسلم.

أنس، فتقبَّله رسول الله ﷺ منها، ولم يحدِّثنا التاريخ ـ ولَنْ يحدِّثنا ـ بمثل ما حدَّثنا به من أدب هذا الخادم، ومكَارَم ذلك المخدوم، ولكن كثيراً ما حدَّثنا أنه إذا حَسُنت أخلاقُ أحدهما ساءَت أخلاق صاحبه!.

وفي قصَّة زواجه بابنة عمَّته زينب بنت جحش ـ كما أمره الله تعالى ـ مَثَلان بليغان من شدَّة حيائه، وكرم نفسه صلوات الله وسلامه عليه: أوحى الله إليه أنَّ زيد بن حارثة ـ وكان يتبنَّاه قبل الرسالة ـ سيُطلِّق زينب ويتزوَّجها هو ﷺ، ليبطل الله على يديه شريعةً فاسدة من شرائع الجاهلية، وهي تحريم نكاح حليلة المتبنَّى، وكان زيدٌ كثيراً ما يشكو تعاليَها وترفُّعَها عليه إلى رسول الله ﷺ، فيقول له: «أمْسكْ عليكَ زَوْجَك»، ويستحي أن يخبره بما قضى الله في شأنهما؛ انتظاراً للأمر الفَصْل من الله عزَّ وجل. وقد عاتبه ربُّه على شدَّة هذا الحياء التي جاوزت الأولى به(١).

ولو كان ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي ـ وحاشاه ـ لكتم هذه الآية التي اشتدَّت في العتاب عليه شدَّةً لم تبلغها شدة في القرآن الكريم كله(٢).

حياء الكرم

وابتلي هذا الحياء النبوي بثلاثة نفر تخلَّفوا عن القوم الذين طعموا في وليمة زينب، بعد أنْ زوَّجه الله إياها: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾(٣).

جلس هؤلاء النَّفر يتحدَّثون ويسمرون، والنبيُّ ﷺ يتهيَّأ للقيام، ثم يقوم

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

(٢) أخرج الترمذي (٣٢٠٥) من طريق داود بن أبي هند، عن الشَّعبي، عن عائشة قالت: «لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية».

(٣) اقتباس من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب.

فينصرف القوم أرسالاً، وهؤلاء في مجلسهم وسمرهم لا يتحرَّكون! حتى تنبَّهوا آخر الأمر إلى تردُّده ﷺ، والحياء يكسو وَجْهه دون أن يُحرجهم بكلمة، وعلى أثر خروجهم نزلت آية الحجاب: [(١)] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[(٢)]. ويُسمِّي ابن القيم هذا الضَّرْب من الحياء «حياء الكرم».

حياء الشَّرف والعزَّة

وكان صَلَوات الله وسلامه عليه، يستحي ممَّن سأله، حتى ليخيَّل لمن يراه أنَّ المعطي هو الآخذ، وهذا حياءُ الشَّرف والعزَّة، وهو حياء النفس العظيمة الكبيرة، إذا صَدَرَ منها ما هو دون قدرها من بذلٍ أو عطاء أو إحسان، حتى إنَّ بعض الكرام لا تُطاوعُه نفسه بمواجهته لمَنْ يعطيه حياءً منه.

وقد بلغ من حيائه هذا أنه: ما سُئل شيئاً قط، فقال: «لا»[(٣)]، إمَّا أن يجيب سؤاله أو أكثر منه، وإمَّا أن يردَّ سائله بمَيْسور من القول، إن لم يكن عنده شيء، كذلك الذي سأله فقال: «ما عندي شيءٌ، ولكن ابتَع عليَّ فإذا جاءنا شيء قَضَيْناه»[(٤)]، وكان يُعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقة.

حياؤه ﷺ في بيته وخلوته

وأما حياؤه في بيته وخلوته، فَحَسْبك أنه ما عابَ طعاماً قط؛ إن اشتهاه

---

(١) انظر قصة هؤلاء في صحيح البخاري في تفسير سورة الأحزاب ٦ :١٤٩، ومسلم في النكاح (١٤٢٩).

(٢) سورة الأحزاب: ٥٣.

(٣) روى البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قط، فقال: لا.

(٤) تقدَّم تخريجه عند حديث: من صفات القائد ص٧٨٧.

أكله وإلا تركه، وما رأى أحدٌ من نسائه عورته قط، وهذه عائشة أحبُّ نسائه إليه تقول: «ما رأيتُ منه ولا رأى منِّي»[1]، وقد طَوَت العورة وسترتها في تعبيرها هذا، حياءً وأدباً مُقْتَبسيْن من مكارم النبَّوة.

حياؤه ﷺ في النشأة الأولى

ذلك طَرَفٌ يسيرٌ من أنباء حياته ﷺ، منذ أن شرَّفه الله تعالى بالنبوَّة إلى أن ألحقه بالرفيق الأعلى.

وأما حياؤه في النشأة الأولى، فَحَسبُنا ما حَدَّث به أصحابه قال: «ما هممت بشيءٍ ممَّا كان أهل الجاهلية يفعلونه غير مرَّتين، والله يحول بيني وبين ما أريد؛ قلت لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الشاب، فخرجت حتى سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست أنظر، فضُرب على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت ولم أقضِ شيئاً؛ ثم عراني مرة أخرى مثلُ ذلك، ثم لم أهمَّ

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في شرحه للأصل السابع بعد المئة من «نوادر الأصول» دون إسناد، وكذلك القرطبي في «تفسيره» ٢ :٢٢٤ لآية النور: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، وهو في كلام المناوي في «الفيض» ٢ :٢٢٤(١٧١٨) أثناء شرحه لحديث «إن الله تعالى جعلها لكَ لباساً، وَجَعَلك لها لباساً، وأهلي يَرَوْن عورتي، وأنا أرى ذلك منهم»، وذكره السيد أحمد بن الصَّدِّيق الغماري في «المداوي» ٢ :٢٧٨ وقال: «الصحيح عن عائشة رضي الله عنها من قولها: مارأيت ذلك منه، ولا رأى مني» ولكن لم يذكر مَنْ رواه. نعم أخرج أحمد في «مسنده» ٦ :٦٣ (٢٤٣٤٤)، والترمذي في «الشمائل» (٣٥٩)، وابن ماجه (٦٦٢) و (١٩٢٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما نظرت إلى فرج النبيِّ ﷺ قط، أو: ما رأيت فرج النبيِّ ﷺ قط، والحديث ضعيف لجهالة مولى عائشة. قال البوصيري في «مصباح الزجاجة»: «هذا إسناد ضعيف، مولى عائشة لم يُسَمَّ».

بعد ذلك بسوء، حتى أكرمني الله برسالته»[1].

هذا قليلٌ من كثير ممَّا رواه الثقات الأثبات من أنباء هذا الخُلق النبويِّ العظيم، ولكن فيه لِمَنْ أراد أن يأتسيَ أسوةٌ حسنة وبلاغ.

* * * * *

---

(١) أخرجه البزار ٣: ١٢٩(٢٤٠٣)، وقال الهيثمي ٨: ٢٢٦: رجاله ثقات، والحاكم في «المستدرك» ٤: ٢٤٥ وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ١: ٢٣٦، والبيهقي في «الدلائل» ٢ :٣٣، وابن حبان في صحيحه ٨: ٥٦ (٦٢٣٩)، وذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢: ٢٨٨ وعزاه للبيهقي، وقال: هذا حديث غريب جداً، وقد يكون عن عليٍّ رضي الله عنه نفسه، ويكون قوله في آخره: «حتى أكرمَني الله عز وجل بنبوَّته» مقحماً، وقال الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» ١٧: ٢٠٨(٤٢١٢): رواه محمد بن إسحاق في السيرة. وهذه الطريق حسنة جليلية، ولم أره في شيءٍ من المسانيد إلا في مسند إسحاق هذا، وهو حديث حسن متَّصل، ورجاله ثقات» وذكره الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» ٢: ١٩٩، وقال: رواه ابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، والبزار، وابن حبان، ونقل عن الحافظ ابن حجر أنه قال: إسناده حسن متصل.

من أدب النبوة *

١٠٤ـ عن عمر بن أبي سَلمَة رضي الله عنهما يقول: كنتُ غلاماً في حَجْر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصَّحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ ممَّا يليك». فما زالت تلك طِعْمتي بعد. رواه الشيخان[1].

المفردات:

الغلام: الصَّبيُّ من حين يُولَد إلى أن يشبَّ.

وحَجْر الإنسان ـ بالفتح وقد يكسر ـ: حِضْنه. وهو في حِجْره أي: في كَنَفه وحمايته.

والصَّحْفَة: إناءٌ كالقَصْعَة المَبْسُوطة، يُشبع الخمسة ونحوهم، وقيل: يُشبع العشرة كالقصعة سواءً. **وطيش اليد فيها**: امتدادُها في نواحيها.

والطِّعمة ـ بكسر الطاء ـ: اسم لهيئةِ الأكل وصفته.

* * * * *

---

* مجلة الأزهر، العدد الثالث، المجلد السابع عشر، (١٣٦٥ = ١٩٤٦).

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦) في الأطعمة، ومسلم (٢٠٢٢) في كتاب الأشربة.

تربية الناشئ اليتيم

من أجل ذكرى المولد النبويِّ الكريم، أحببنا أن نذكرَ طرفاً من تأديبه ﷺ لرَبيبِه الناشىء اليتيم: عمر بن أبي سلمة، ذلك الذي حَظِيَ ـ ويا نِعْمَ ما حظي ـ بكفالة مَنْ آواه الله يتيماً، ونشّأه كريماً، وآتاه خُلُقاً عظيماً، وجَعَلَه بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً.

لا جَرَمَ أنه أسْعَدُ الأيتام حظاً، وأطْيَبُهم عيشاً، وأوْفَاهُم نصيباً. وتلك دعوة أبيه، تفتَّحت لها أبوابُ السماء، وصَبْرُ أمِّه، كافأه الله بخير الأزواج وأكرم الآباء. ولا عَجَبَ، فإنَّ لصلاح البيوت آثارَه الجليَّة في الأموات والأحياء.

وما ظنُّك ببيتٍ حاز شَرَفَ السَّبْق في العروبة والإسلام، وكان من البيوتات القلائل إذا عُدَّت بيوت الكرام.

أبو سلمة وأسرته

مات عميدُ البيت أبو سَلَمة رضي الله عنه، لأربعِ سنين خَلَوْن من الهجرة؛ متأثراً بجراحةٍ أصابته في غزوة أحد، عن أربعة من الولد: سَلَمة، وعمر، ودُرَّة، وزينب.

وكان من السَّـابقين الأوَّلين من المهاجرين. وَصَحِبَتْهُ زوجُه وابنة عمِّه[١] أمُّ سلمة في هجرته إلى الحبشة. ثم تبعته إلى المدينة، فكانت أَسْبَقَ النساء إلى الهجرتين. وكان آخر ما أوصاها به أن تبتغي الزَّوجَ الصَّالح من بعده.

وكان من دعائه لها: اللهمَّ ارزق أمَّ سَلَمة من بعدي رجلاً خيراً مني، لا يُحزنها ولا يُؤْذيها.

وممَّا حدَّثها به أنه سمع من رسول الله ﷺ حديثاً عَجَباً. سمعه يقول: «ما

---

(١) حذيفة أحد المُحلِّقين في سماء الجود، كان إذا سافر لا يرافقه أحد ومعه طعامُه؛ ومن ثمّة لقَّبوه بزاد الراكب (طه).

من عبدٍ يُصاب بمصيبة، فيفزع إلى ما أمر الله به، فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعُونَ، «اللهُمَّ أْجُرْني[1] في مصيبتي، وعَوِّضني خيراً منها إلاّ آجَرَهُ الله في مصيبته، وأخْلَفَ له خيراً منها»[2].

قالت رضي الله عنها: فلمَّا مات أبو سلمة، ذكرتُ الذي حدَّثني عن رسول الله ﷺ، فاسترجعتُ، وقلت: اللهمَّ عندك أحتَسِبُ مصيبتي هذه، ولم تطب نفسي أن أقولَ: اللهمَّ أخْلف لي خيراً منها، وقلت: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؟ ثم إني قلتها. قالت: فقد عاضني الله خيراً من أبي سلمة، وأرجو أن يكون الله قد أَجَرني في مصيبتي.

زواج رسول الله ﷺ بأمِّ سلمة

ولمَّا بلغ الكتابُ أَجَلَه، خطبها عمر فردَّته، ثمَّ خطبها رسول الله ﷺ وبينه وبينها حجاب، فقالت: أي رسول الله، إني امرأة قد أدبرت مني سنِّي، وإني أمُّ أيتام، وإني شديدةُ الغَيْرة. فأجابها صلوات الله وسلامه عليه: أمَّا ما ذكرت من سنِّك، فأنا أكبر منك سنّاً، وأما ما ذكرت من غَيْرتك فَسَأَدْعو الله أن يذهبها، وأما ما ذكرت من أيتامك فإنَّ الله يكفيهم، فقالت لابنها سلمة: زَوِّج رسولَ الله ﷺ[3].

---

(١) الأجر: الثواب، وأجره الله من بابي ضرب ونصر، وآجره إيجاراً: مثله «مختار».

(٢) أخرجه مسلم (٩١٨)، وأبو داود (٣١١٩)، والترمذي (٣٥١١). وقال القاضي عياض في «إكمال المعلم» ٣: ٣٥٨: «وقولها في الحديث: «اللهمَّ أْجُرني...» وقوله: «إلا أجره الله»: يقال بالمد وبغير المد، حكاه صاحب «الأفعال». وقال الأصمعيُّ: وهو مقصورٌ لا يُمد، وهو الذي حكاه أكثر أهل اللغة . ومعنى «آجره الله »أي: أثابه على عمله، ووفَّاه أجره عليه».

(٣) أخرجه النسائي (٣٢٥٤). وقد رواه بقريب من هذا اللفظ إلا أنه جاء في آخره: قالت لابنها عمر: زوِّج رسول الله ﷺ.

من حكم تعدد أزواج النبي الكريم ﷺ

لو أنَّ المجال يتَّسع لحِجَاج هؤلاء المارقين الذين يَلْغون في تَعَدُّد أزواج النبيِّ الكريم صَلَوات الله وسلامه عليه، جاهلينَ أو مُتجاهلينَ الحِكَم العالية والآداب السامية، لَحَاجَجْناهم حتى يَصْرُعَ الحقُّ الباطل، ويكْسَحَ النُّورُ الظلام ... ولكن حَسْبنا أن نقولَ لهم، إنْ لم يُصِمُّوا آذانهم:

هذا أبو سلمة رضي الله عنه، ابن عمّة النَّبيِّ ﷺ[١]، وأخوه في الرَّضاع[٢]، ومن السَّابقين الأوَّلين الذي أبلوا في الإسلام بلاءً حسناً.

وهذه زوجُه أمُّ سَلَمة، البرَّة التقيَّة الحصيفة العاقلة، من السَّابقات الفُضْليات إسلاماً وهجرةً، وجهاداً ونُصرةً، بلغ من وفائها لزوجها أنها لا ترى أحداً من المسلمين خيراً منه، حتى ردَّت الصِّدِّيق والفاروق، خيرَ الناس على وَجْه الأرض بعد النبيِّين. وكادت تردُّ النبيَّ صلوات الله وسلامه عليه، لولا أن تداركَتْها عنايةُ الله، وكُتِبَت عنده من أمَّهات المؤمنين.

وهؤلاء أيتام أربعة طابوا أصولاً وفروعاً، ونشؤوا في بيتٍ عزَّ جانبُه حيناً من الدهر، ثمَّ عَلَتْه ذلَّة بفَقْد عُمْدَتِهِ، وترميل ربَّته[٣].

أليس من المكارم المحمودة، أن يُؤْويَ النَّبيُّ ﷺ هذا البيت إليه، فيكون لأخيه خيرَ خَلَفٍ لخير سَلَف، ولأمٍّ ولده من بعده زَوْجاً كريماً، ولهؤلاء الصِّبية الذين ذاقوا مرارة اليتم أباً؟!.

تالله إنْ لم يكن هذا ديناً لقد كان خُلقاً عظيماً. ومَنْ أولى بهذا ممَّن بُعث ليتمِّمَ مكارم الأخلاق؟! ألا إنَّ هذا قليلٌ من كثير من الحِكَم التي يعرفها

---

(١) برَّة بنت عبد المطلب كما في «الإصابة» و«الاستيعاب» (طه).

(٢) أرضعتهما ثُويبة مولاة أبي لهب كما في الصحيحين (طه).

(٣) اقرأ نسب هذا البيت في «الإصابة» (ج:٢ ـ ٤) (طه).

المنصفون ـ بل الجاحدون ـ فيما أحلَّ الله لنبيِّه ﷺ من أزواج.

تربية النبي ﷺ اليتيم وتنشئته على الفضائل

وأراد النبيُّ صلوات الله عليه وسلم أن يضربَ المثل عملاً في تربية اليتيم، وتنشئته على الفضائل، كي لا يكون على الأولياء حَرَجٌ إذا نَصَحوا لله ورسوله، وأدَّبوا اليتيم لمصلحته وخيره، لا يبتغون قَهْراً، ولا يُضْمِرون شرّاً.

إرشاده إلى أهم آداب الطعام

فأرشد عمر وهو يأكل معه، ولا يُراعي أدب الأكل، إلى خِلالٍ ثلاث، هنَّ آداب الطعام:

الأولى: أن يُسَمِّيَ الله تعالى، طرداً للشيطان، وجَلْباً للبركة، وعنواناً على النِّعمة، وشكراً لذي الجلال والإكرام.

الثانية: أن يأكل بيمينه؛ فإنَّ الأكل بها أَعْون في غالب الأمر وأمكن. واليمينُ مأخوذة من اليُمْن وهو البركة، فهي وما نُسب إليها وما اشْتُقَّ منها محمودةٌ لغة وشرعاً. ويكره الأكل بالشمال؛ لأنها تعالج النجاسة والقذارة، وقيل: يَحرُم الأكلُ بها، لما جاء في صحيح مسلم من حديث سَلَمة بن الأكوع رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله، فقال: «كُلْ بيمينك»، قال: «لا أستطيع»، قال: «لا استطعت»! فما رفعها إلى فيه بعد[١].

الثالثة: أن يأكل ممَّا يليه؛ لأنَّ في أكله مما يلي جليسه سوءَ عشرة، وتركَ مروءة، لِتقذُّر النفس ممَّا تخوضُ فيه الأيدي، ولا سيِّما المائعات.

وفي أكل المرء ممَّا يليه بعثٌ على القناعة وحُسْن الأدب، ومُساعدةٌ على إجادة المَضْغ؛ ولهذا أكبرُ الأثر في الهضم والانتفاع بالطعام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢١).

وقد رخَّص كثيرٌ من العلماء في التمر والفواكه ونحوهِما أن يتناولَ المرء من الموضع الذي يشاء؛ لأنه لا قَذَر حينئذ ولا استقذار.

هذا وللطعام والشراب خصالٌ أخرى كالحَمْد والاعتدال، مَبْثوثةٌ في كتب السنة والآداب، مَيْسُورةٌ للراغبين في مكارم الأخلاق.

وفي الحديث منقبةٌ كريمةٌ لعمر رضي الله عنه، إذ امْتَثَل أمر النَّبيِّ ﷺ، وتأدَّب بأدبه، وسارَ على نهجه، وتلك نعمةٌ منَّ الله تعالى بها عليه قابلها بالشكر والثناء.

* * * * *

مُسَامَرةٌ نبويَّة *

ـ ١ ـ

١٠٥ـ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ أَحْسَنَ الناس خُلُقاً. وكان لي أخٌ يقال له: أبو عُمَير ـ قال: أَحْسِبُه ـ فطيم، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عُمَيْر، مافعل النُّغَير»؟ نُغَرٌ كان يلعبُ به، فربَّما حَضَر الصَّلاةَ، وهو في بيتنا، فيأمُرُ بالبِسَاطِ الذي تحتَهُ، فيُكْنَس ويُنْضَح، ثم يقوم ونقومُ خلفه، فَيُصلِّي بنا.
رواه الشيخان واللفظ للبخاري[١].

المفردات:

فطيم: مفطوم عن الرَّضاعة، رُويَ مرفوعاً؛ صفةً لأخٍ، بعد وصفه بالجملة، وجملة أحسبه معترضة بين الصفة والموصوف، ورُويَ منصوباً؛ مفعولاً ثانياً لأحسب.

والنُّغَر: ـ كصُرَد ـ طائر يشبه العُصفور أحمر المنقار. وقد يُسمَّى صعوة ـ واحدة الصعو ـ أصغر من العصفور، ويأتي ذكرها في الشرح.

والبساط: ما يبسط ويفرش، «وكان بساطهم من جريد النخل»، كما في صحيح مسلم[٢]. والنَّضح بالماء: الرَّشُّ به.

---

* مجلة الأزهر، العددان ١١و١٢، المجلد السادس والعشرون، سنة (١٣٧٤).

(١) رواه البخاري (٦١٢٩)و (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠) ولم يذكر أمر الصلاة.

(٢) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١: ٤٥٧ (٦٥٩).

قضيَّةٌ جامعة قاطعة

كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خُلقاً. قضيَّةٌ جامعة قاطعةٌ، تجمعُ الخيرَ كلَّه، وتصدق الصِّدقَ كلَّه، وتنطق بأنه ـ ﷺ ـ بَلَغَ من المكارم غايةً لم يُدركها أحدٌ قبله، ولن يَطْمع فيها أحدٌ بعده؛ لأنها غاية الغايات، والذِّروة العُليا من أرفع الدرجات. وليست هذه شهادةٌ يشهدها أنس بن مالك وحده، خادم النَّبيِّ ﷺ، بل يشهدُها كذلك أزواجه أُمَّهات المؤمنين رضوان الله عليهنَّ.

أعرف الناس بالزوج

والخَدم والأزواج أعرف الناس بالمخدوم والزوج، ولو كانت واحدة لقلنا: زوجٌ تُحبُّ زوجها وتُثني عليه، ولو كانت اثنتان أو ثلاث أو أربع لافترضنا المحال واقعاً، وقلنا: اتفقنَ كلُّهنَّ جُمْعٌ على هذا الحبِّ والثناء!! فكيف وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ وفي عصمته الطاهرة تسعٌ، كان بينهنَّ من المنافسة والغَيْرة مالايحتمله بشرٌ، إلا أن يكون نبيًّا أيَّده بالمعجزات خالقُ القُوى والقُدر؟!

معجزة لم تُدوَّن

اللهمَّ إنَّ في هذا الاحتمال وحده لَمُعجزةٌ من معجزات نبيِّك، ولو لم تدوَّن في الأسفار، وإنَّ في هذا الجَمْعِ الذي أبَحْتَه لنبيِّك ـ دون أمَّته ـ لشاهدُ صدْقٍ على أنه صَفْوةُ الأخيار. وما لنا نستشهد بغيرك، وأنت خيرُ الشاهدين؟! أدَّبته فأحسَنْتَ تأديبَه، وهذَّبته فأكمَلْت تهذيبَه، ثمَّ بعثته ليتمِّم مكارم الأخلاق، وقلتَ فيه، وقولك الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ولسنا الآن في مقام التفصيل لهذه القضية الجامعة، فذلك ما لا سبيلَ إليه في مقالٍ أو مقالات، وإنمَّا نحن بصَدَد فُكاهةٍ من هذه الفكاهات النبويَّة التي

---

(١) سورة القلم: ٤.

سُقْناها؛ للاستجمام والاسترواح. وربما أحبَّ القرَّاء أن نسوق شيئاً منها كلَّما عَرَض للقلوب مِلالٌ أو كلالٌ؛ فإنها تملُّ الأبدان.

دعابة نبويَّة

كان صلوات الله وسلامه عليه يمزح ولا يقول إلا حقاً، وكان مزاحه القُدوة المُثلى، والأسوة الحُسنى في الصِّدق والرفق واللطف. لا يتأمَّل أحدٌ أدنى تأمُّل فيما حُفظ عنه من السَّمَر والمفاكهات، إلا وجدَ كلاً منها منطوياً على أدب وعلم وحِكمةٍ، فضلاً عن الترويح للنفس، والإمتاع للسمع، والبشاشة للفؤاد.

زيارته ﷺ بيوت أصحابه

كان ـ صلوات الله عليه ـ يزورُ أصحابه في بيوتهم، يُكرمهم، ويعلِّمهم، ويطمئنُّ عليهم، ويبعث فيهم من جَلال النبوَّة سناءً، ومن جمالها نوراً وضياءً.

وكان يختصُّ بيت خادمه أنسٍ بمزيدٍ من الزيارة؛ رحمةً منه وحناناً؛ وقد أشار أنس إلى هذا الاختصاص في إحدى روايات الحديث إذ قال: إنْ كان النبيُّ ﷺ ليخالطنا، حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغَير؟![1].

بيت كريم

كان أبو عُمير أخاً لأنس من أمِّه: أمِّ سُليم. وأبوه هو: أبو طلحة؛ زَيْد بن سهل الأنصاري، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]: إنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء وإنها صدقةٌ، أرجو برَّها وَذُخْرها، فقال ﷺ: «بخ بخ يا أبا طلحة، ذلك مال رابح...»، ثم أمره أن يجعلها بين الأقربين[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣).

(٢) سورة آل عمران: ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٦٤١)، ومسلم (٩٩٨).

وبيرحاء هذه حديقةٌ كانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

ولأمِّ سليم وزوجها أبي طلحة في الإسلام، ونصرة النبيِّ عليه الصلاة والسلام شأنٌ عجيب، خليقٌ بأن يدرَّس في مناهج التربية الإسلامية!!.

زار هذا البيتَ الكريم ذاتَ يوم صلوات الله عليه وسلامه، فألفى أبا عُميرٍ حزيناً، فقال لأمه: ما لي أرى ابنك خائرَ النفس؟! فقالت: ماتت صَعْوته التي كان يلعب بها، فَسَرَّى عنه النبيُّ ﷺ بهذه المُداعبة: يا أبا عُمَير، ما فعل النُّغَير؟!

صبرٌ عجيب

ويقضي الله الذي لا رادَّ لقضائه أن يشتكيَ أبو عُمَيْر ثمَّ يموت كما مات طائره!!

وهنا تتجمَّل أُمُّه بصبرٍ عَجَب! وكلُّ شأن من شؤونها في الإسلام عَجَبٌ!.

يرجع أبو طلحة إلى بيته، فيسأل: ما فعل ابني، فتجيبه صادقةً حاذقةً: هو أسكن ممَّا كان. ثم تُقدِّم إلى زوجها عشاءه فيأكل ويشرب، ثم تصنع له أحسن ما كانت تصنع، حتى إذا نام وتغشَّاها، قالت له: يا أبا طلحة، أرأيت لو أنَّ قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟! قال: لا؟ قالت: فاحتسب ابنك! فغضب، وقال: تركتِني حتَّى تلطَّخت، ثم أخبرتني بابني! فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان. فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما في ليلتكما**» فحملت أمُّ سُليم، فولدت غلاماً، فقالت: يا أنس، لا يرضعه أحدٌ حتى تغدوَ به على رسول الله ﷺ، فجاء أنس فوضعه في حِجْره، فَدَعا صلوات الله عليه بتمرات من تمر المدينة، أو عجوة من عجوتها ـ لِيُحنِّك الصبي ـ فلاكَهَا حتى ذابَتْ، ثمَّ قذفها في في الصبي، فجعل يتلمَّظها، وجعَل صلوات الله عليه يقول: «انظروا إلى حبِّ الأنصار التمر»! فَمَسَح وجهه،

وسمَّاه عبد الله[1].

جزاء الصَّبر والرِّضا

وعاش عبد الله هذا إلى أنْ جاء من أولاده عَشَرَةٌ بَرَرَةٌ كَمَلَةٌ، ما منهم إلا من دَرَس القرآن والعلم وحَمَله. إنَّه لجزاءُ الصَّبر والرِّضا في هذه الدنيا، ولَجَزاءُ الآخرة أَوْفى وأعجبَ.

أليس هذا البيت ـ بيت خادم النَّبيِّ ﷺ، بله بيت المخدوم ـ عَجَباً من العَجَب، علماً وهُدىً وتربيةً؟!!

أوليس عجيباً أن نَدَعه دون أن نعود إليه مرّةً أخرى، فنقتبس من نور النبوَّة مشرقاً على هذه التربية الرشيدة الهادية؟! بلى، إنَّا عائدون إن شاء الله.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

مسامرة نبويَّة *

ـ ٢ ـ

سرُّ اختصاص بيت أنس بزيارته ﷺ

قلنا في الجزء الماضي: «كان صلوات الله عليه يزور أصحابه في بيوتهم، يُكرمهم ويُعلِّمهم ويطمئنُّ عليهم، ويبعثُ فيهم من جلال النبوَّة سَنَاءً، ومن جمالها نوراً وضياء، وكان يختصُّ بيتَ خادمه أنس بمزيدٍ من الزيارة؛ رحمةً منه وحناناً». فما سرُّ هذا الاختصاص؟.

أعمدة البيت الثلاثة

لقد اجتمع في بيت خادمه من الفَضْلُ والنُّبل والمزايا ما لم يجتمع في بيتٍ غيره.

قام هذا البيتُ الكريمُ على أعمدة ثلاثة، كل منهم ـ رضوان الله عليهم ـ أمَّةٌ وحده، وكلٌّ منهم أنصاريٌّ خزرجيٌّ نجَّاريٌّ، ينتهي نسبُهُ إلى بني النَّجَّار، أخوال النَّبيِّ ﷺ أو أخوال جدِّه عبد المطلب. في عبارة أدق: أبو طلحة: زيد بن سهل، وزوجه أم سُليم: أم أنس، وابنها أبو حمزة: أنس بن مالك بن النَّضر.

أبو طلحة الأنصاري

فأما أبو طلحة، فهو من نُقباء الأنصار وأعلامهم، شَهِدَ العَقَبة وبدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ ، واستمرَّ بين يديه يوم أُحد، يحوز عنه بجَحَفته. وكان شديدَ الرمي، فَنَثَر له ﷺ كنانته بين يديه، وكلَّما هَمَّ ﷺ أن

* مجلة الأزهر، العددان ١٣ و١٤، المجلد السادس والعشرون، سنة (١٣٧٤).

ينظر إلى القوم ليرى مواضع النَّبْل قال له: يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمي! لا تُشرف يُصبْك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك، ويتطاول ـ رضي الله عنه ـ بصدره يقي رسول الله ﷺ[1]. وقَتَلَ وحده يوم حُنين عشرين مُشركاً، وكان لا يكاد يصوم نفلاً على عهده ﷺ من أجل الغزو، ثم صام بعده أربعين سنة لا يفطر إلا يوم أضحى أو فطرٍ. وقد قدَّمنا في الجزء الماضي بعض شأنه في الخير والإنفاق مما يُحب.

أمُّ سُليم

وأما أمُّ سُليم فهي من فُضْليات السَّابقات إلى الإسلام، والغازيات في سبيل الله. أسلمت، ورسول الله ﷺ بمكة، وبايعته حين مَقْدمه إلى المدينة، فأغضب إسلامُها زوجها مالك بن النَّضْر، وزاده غَضَباً أنها كانت تلقِّن أنساً كلمة التوحيد، وهو طفلٌ رضيع، فَجَعل ينطق بها أوَّل ما ينطق، وزوجها يقول لها: لا تُفسدي عليَّ ولدي! ثم خرج عنها يائساً إلى الشام، فكان فيها مصرعه.

نِعْمَ المهر الإسلام

فخطبها أبو طلحة ـ وهو مشرك ـ، فقالت: أما إنِّي فيك لراغبة، ولكنك كافرٌ وأنا مسلمة، فإن أسلمتَ، فإنِّي لا أريد منك صداقاً غيره. فأسلم، وجاءها، فقالت: حتى يبلغ أنس، ويجلس في المجالس. فيقول: جزى الله عني أمي خيراً، لقد أحسَنَتْ ولايتي، فلمَّا كَبُر أنس، قال لها أبو طلحة: لقد جلس أنسٌ وتكلَّم، فقالت: يا أنس، زوِّج أبا طلحة.

---

(١) أخرج أحمد في «مسنده» ٣ :١٠٥ (١٢٠٢٤) عن أنس قال: كان أبو طلحة يرمي بين يدي رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرفع رأسه من خلفِه لينظُرَ إلى مواقع نَبْلِه. قال: فتطاول أبو طلحة بصدره، يقي به رسول الله ﷺ. وقال: يارسول الله نَحْري دون نحرك. وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر حديث: «من صفات القائد» ص٧٩٠.

مشاركتها في الجهاد

كانت أمُّ أنس تَصْحَبُ رسولَ الله ﷺ في غزواته، فتداوي الجرحى، وتسقي العطاش، وربما جَاوَزَت ذلك، فانغمرت في الجيش غازية، ولها في الحرب حديثٌ عجب!

شهدت حُنَيْناً مع رسول الله ﷺ، ومعها خنجرٌ، قد حزمته على وَسَطِها، وإنها يومئذٍ حاملٌ بعبد الله بن أبي طلحة ـ الذي ألممنا بطرفٍ من أمره في الجزء الماضي ـ فقال أبو طلحة: يا رسول الله، إنَّ أمَّ سليم معها خنجر! فقالت: يا رسول الله، أتَّخِذْه؛ إنْ دَنَا مني أحدٌ من المشركين بَقَرْتُ به بطنه، فتبسَّم صلوات الله عليه، وقال: يا أمَّ سليم، إنَّ الله قد كفى وأحسن[1].

خادمٌ يفخر بخدمته

وأما أنسٌ، فقد سبقت له السَّعادة بخدمة النَّبيِّ ﷺ، وكان يفخر بهذه الخدمة، وحُقَّ له. كنَّاه صلوات الله عليه أبا حمزة ببقلةٍ كان يَجْتنيها[2]، ومازَحَه بقوله له: «يا ذا الأُذُنَيْن»[3]، وهي مَزْحة جمعت بين الحقِّ والحكمة والطرافة، وفيها إشارةٌ لطيفة إلى ما ينبغي أن يتحلَّى به الإنسان عامة، والخادم المُهذَّب خاصَّة، وهو أن يكون ما يسمع ـ وقد خَلَقَ الله له أذنين ـ ضِعْفَ ما يتكلَّم، وقد خلق له لساناً واحداً.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٩) في الجهاد والسِّير.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩١٨)، والطبراني (٦٥٦) وفي سنده جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» ٣ :١١٧ (١٢١٦٤) (١٢٢٨٥) (١٣٥٤٤) (١٣٧٣٨)، وأبو داود (٥٠٠٢)، والترمذي في «السنن» (١٩٩٣)، وفي «الشمائل» (٢٣٥)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. والحديث وَرَدَ بطرق عدة ارتقى بها إلى درجة الحسن كما في التعليق على «المسند» ١٩ : ٢٠٧.

دعوةٌ نبوية

تنبَّهتْ أمُّه إلى شرَف هذه الخدمة، فما إنْ قَدِمَ ﷺ المدينة، حتى قدمته له ـ وهو غلامٌ لم يتجاوز العاشرة ـ وقالت: خُوَيْدِمُكَ أنس، فَقبِلَهُ وسُرَّ به. ودَخَل على أمِّه ذات يوم، فأتَتْهُ بتمرٍ وسمنٍ، فقال: «أعيدوا سمنكم في سقائكم، وتمركم في وعائكم، فإني صائم»، ثم قام في ناحية البيت، فصلَّى بنا غير المكتوبة، فدَعَا لأمِّ سُليم وأهل بيتها، فقالت: يارسول الله، إنَّ لي خُوَيْجَةً، قال: «ما هي»؟ قالت: خادمك أنس، فما ترك خيرَ آخرةٍ ولا دنيا إلا دَعَا به، ثم قال: «اللهمَّ ارزقه مالاً وولداً، وبارك له فيه».

قال أنس: فإنِّي لَمِنْ أكثر الأنصار مالاً، وحدَّثتني ابنتي أُمَيْنَةُ: أنَّه دُفن لِصُلبي ـ إلى مَقْدَم الحَجَّاج البصْرَةَ ـ تسعةٌ وعشرون ومائة[1].

وكانت أرضه تُثمر في السنة مرَّتين. واتفق العلماء على أنه تجاوز المائة.

كياسة صبيٍّ وأمانته

ومن مفاخر كياسته وأمانته ـ وهو صبيٌّ لم يبلغ الحلم ـ ما رواه مسلمٌ عن ثابت عنه، قال: أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، فسلَّم علينا، فبعثني في حاجته، فأبطأتُ على أُمِّي، فلمّا جئت، قالت: ما حَبَسَك؟ فقلت: بعثني رسول الله لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سرٌّ، قالت: لا تُخبرنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحداً. قال أنس: والله لو حدَّثتُ به أحداً لحدَّثْتُكَ به يا ثابت[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٢) في الصَّوم: باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨٢)، وقد شرحه المؤلف في فضيلة كتمان السر ص٥٠٢.

وحَسْبُكَ أنه خَدَم النبيَّ ﷺ عشر سنين، فما قال له: أف قط، ولا لشيء صَنَعَه لِمَ صنعتَهُ؟ ولا لشيءٍ تركه لمَ تركتَهُ؟[1].

هذه ترجمةٌ كاملةٌ مُجْملة لبيت خادم النبيِّ ﷺ، فهل رأيتَ أو سمعتَ أعجب من هذا البيت؟! وهل أيقنتَ أنه خليقٌ بأن يُكرمه النبيُّ ﷺ بمزيدٍ من زيارته ومخالطته والاستراحة إليه، والسؤال عن خادمه وأهل خادمه، والصَّلاة في بيتهم والدعاء لهم، كما يُصلِّي في بيته ويدعو لأهله على سواء؟!

سببان آخران لاختصاص هذا البيت بزيارته ﷺ

وثمت سببان آخران لاختصاص هذا البيت الكريم، بمزيد من الزيارة والتكريم:

أحدهما: ما قاله جمعٌ من الأئمة ـ وفي طليعتهم الإمام النوويُّ ـ رحمهم الله، قالوا: إنَّ أمَّ سليم وأختها أم حرام ـ وكانتا في دارٍ واحدةٍ ـ كانتا خالتَيْن من الرَّضاع للنبيِّ ﷺ، والخالة بمنزلة الأم، فكان يرى في كلٍّ منهما أماً حنوناً ذات شرف وسنّ، يتحدَّث إليها ويَسْتَرْوِحُ بالجلوس عندها.

وثبت في الصحيحين: أنه كان يدخل على أمِّ حرام فيَطعم عندها، ويَقيل في بيتها[2]؛ وما ذاك إلا لأنها وأختها ـ كلتيهما ـ محرم منه.

نعم هو معصوم مُنزَّه صلوات الله وسلامه عليه، ولكنَّ الأمر ليس أمر عصمة فحسب، بل هو ـ إلى العصمة ـ أمرُ تربية وتهذيب، وقد بعثه الله معلِّماً متمِّماً لمكارم الأخلاق، وبلغ من حَيْطته مع عصمة الله له «أنَّ يَدَه لم تمسَّ يد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨٢)، (٦٢٨٣).

امرأة قط»، إلا أن تكون زَوْجاً أو محرماً[1].

الثاني: ما رواه البخاري عن أنس في كتاب الجهاد أنَّه ﷺ لم يكن يدخل بيتاً بالمدينة ـ غير بيت أمِّ سُليم ـ إلا على أزواجه، فقيل له، فقال: إني أرحمُها، قُتل أخوها معي[2]. أي: مع عسكري، أو على إمرتي وطاعتي؛ لأنه لم يصاحبه في هذه السريَّة وإنما أمره بصحبتها. ولعلَّه خصَّ أمَّ سليم؛ لأنَّ وَجْدَها على أخيها حَرام بن مِلْحان كان أشدَّ وأعمق، وإلا فكلتاهما أختٌ له، وكذلك أختهما الثالثة: أم عبد الله.

حرام بن مِلْحان

وقد استشهد حرام في سرية القرَّاء السبعين، الذين أرسلهم النبيُّ ﷺ في إمارة المنذر بن عَمْرو إلى أهل نجد في السنة الرابعة، فساروا حتى إذا نزلوا بئر معونة ـ بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم ـ بعثوا حراماً إلى عامر بن الطُّفيل ـ سيد بني عامر ـ بكتاب رسول الله ﷺ، فلم ينظر فيه، بل وَثَبَ على حرام فَقَتَله، ثمَّ اسْتَصْرَخَ عليهم قبائل من بني سليم: ـ رِعْلاً وذكوان وعصَيَّة ـ، فغدروا بهم جميعاً إلا واحداً وقع بين القتلى، وآخراً كان في سَرْح القوم.

شهداء بئر معونة

لما بلغه ﷺ نبؤهم خَطَب في أصحابه، فقال: «إنَّ إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربَّنا بلِّغ قومنا، أنَّا لقينا ربَّنا، فرضينا عنه ورضيَ عنا»[3]! وحَزن عليهم صلوات الله عليه حزناً شديداً، وأقام يدعو على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨٨)، ومسلم (١٨٦٦)، وأبو داود (٢٩٤١)، والترمذي (٣٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٤)، ومسلم (٢٤٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٩٣)، ومسلم (٦٧٧).

الغادرين بهم شهراً في الصلاة.

فكان صلوات الله عليه يَجبُر كَسْر هذا البيت، الذي فَقَدَ ركناً من أعزِّ أركانه، بزيارته والصَّلاة فيه، تخفيفاً وترويحاً وتَسْريةً، وتعليماً لأمَّته، وتربيةً وتزكيةً، فقد أرسله ربُّه رحمةً للعالمين، وهدايةً للمُعلِّمين، وأُسْوةً حسنةً لِمَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً.

* * * * *

سَيِّدُ الأزواج *

ـ ١ ـ

١٠٦ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غِرْتُ على أحدٍ من نساء النبيِّ ﷺ، ماغِرْتُ على خديجة، وما رأيتها؛ ولكن كان النبيُّ ﷺ يكثر ذكرها، وربَّما ذبح الشَّاةَ، ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعث بها في صدائق خديجة. فربما قلت له : كأنه لم يكن في الدنيا امرأةٌ إلا خديجة! فيقول : إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[1].

أعرف الناس بالمخدوم والزوج

قلنا في هذا المكان لمناسبة من الخلق النبويِّ العظيم[2]:

«والخدم والأزواج أعرف الناس بالمخدوم والزوج، ولو كانت واحدة لقلنا: زوجٌ تُحبُّ زوجها وتُثني عليه، ولو كانت اثنتان أو ثلاث أو أربع لافترضنا المحال واقعاً، وقلنا: اتفقن كلُّهنَّ جمْعٌ على هذا الحبِّ والثناء !! فكيف وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفي عصمته الطاهرة تسعٌ كان بينهنَّ من المنافسة والغيرة ما لايحتمله بشرٌ، إلا أن يكون نبيّاً أيَّده بالمعجزات خالق القوى والقُدَر؟!».

---

* مجلة الأزهر، العدد الثامن، المجلد السابع والعشرون، سنة (١٣٧٥).

(١) رواه البخاري (٣٨١٦) في مناقب الأنصار واللفظ له، ومسلم (٢٤٣٥) في فضائل الصحابة.

(٢) انظر: مسامرة نبويَّة ص٨٢٠.

أعزُّ البيوت وأكرمها وأسعدها

وإذا لم يتَّسع المقام هناك للبسط والتفصيل، فإننا نحاول هنا ـ بعون الله وتوفيقه ـ أن نُجَلِّيَ ـ في شيء من البَسْط والتفصيل ـ خُلُقَ النَّبيِّ ﷺ في بيته، ومع أزواجه أمَّهات المؤمنين واحدةً واحدة؛ ليعلم من لم يكن يعلم أنَّ بيوت النَّبيِّ ﷺ ـ على تواضعها وكَفَافِ عيشها ـ أعزُّ البيوت وأكرمها، وأسعدها في الآخرة والأولى.

أساس السعادة الزوجيَّة

وأنَّ السعادة الزوجيَّة ليست في زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وإنما هي في كَرم المُعاملة، وحُسْن المُعاشَرة، ومكارم الأخلاق وطهارتها. ثم ليعلم من لم يكن يعلم أنَّ سيِّدَ الأزواج جميعاً، والمثلَ الأعلى في الوفاء للناس عامة، ولأزواجه خاصَّة، هو مَنْ بَعَثه الله لِيُتَمِّمَ مكَارمَ الأخلاق.

سيِّد الأزواج وأوْفاهم

هو سيِّدُ الأزواج وأوْفَاهُم بلا رَيْب، سواءٌ منهم من اقْتصر على واحدة، ومَنْ زاد عليها في حياتها أو بعد مماتها. وهو مصداق قوله صلوات الله عليه وسلامه: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»[1].

وقوله ﷺ: «خياركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي»[2]. رواهما الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما وصحَّحهما.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٩٢). والحديث أورده عن عائشة فقط. ولفظه: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه». ومعنى قوله «فدعوه»: أي: اتركوا ذكر مساوئه.

أساس معاملته ﷺ

ومردُّ هذا المَثَل الأعلى في الوفاء والفَضْل إلى أنَّ معاملته ﷺ ـ للناس عامّةً، ولأزواجه خاصَّة ـ لم يَبْنها قط، وما ينبغي له أن يبنيَها، على أساس المنفعة العاجلة، أو المتعة الزائلة؛ فإنَّ هذه معاملة التجَّار، لا معاملة الأبرار، فَضْلاً عن معاملة المُصْطَفَيْن الأخيار. وإنما أساسها الفضيلة في أَوْج رفعتها، والمكارم في ذِرْوة سنامها.

سيِّدة الزوجات

وإذا كان صلوات الله وسلامه عليه هو السَّيِّدَ الأول للأزواج جميعاً؛ فإنَّ كلَّ زوج معه ـ منفردة به، أو ذات ضَرَّة أو ضرائر ـ سيدة للزوجات كلهنَّ جمع، على ما يعتريها من غَيْرة تزلُّ الحليم الرشيد أحياناً، حاشاه صلوات الله عليه وسلامه.

على أنّ كلَّ واحدة منهنّ، قد استمدَّت هذه السيادة الزوجيَّة، أو جانباً منها، من مَعدِن المكارم، ويُنبوع الفضل والفضيلة، صلوات الله عليه، وعلى سائر النبيِّين إخوانه.

أحد عشر كوكباً

لقد بنى الله بمحمد ﷺ وأهله للعالمين أحد عشر بيتاً، هي في حقيقة الأمر ـ لا مجازه ـ أحد عشر كوكباً، تختلف عن كواكب السماء الدنيا: بأنها لاتأفل أبداً، وبأنَّ ليلها كنهارها، تهدي السَّائرين على ضيائها في الدُّجُنَّةِ[1] الحالكة، كما تهديهم في الشَّمس المُشْرقة على سواء.

وإذا كان من حقِّ الإنسانية على النَّاس كافَّةً أن يستضيئوا بكواكبها، فأحقُّ هذا الحقِّ وأوجبه، على أقرب الأقربين إليها، وهم خير أمّة أُخرجت للناس،

---

(١) أي: الظلمة.

ولاسيما المعنيين منهم بالشؤون الاجتماعية، والحياة الزوجية في هذه الأيام.

إنهم إن استضاؤوا بها، فسوف يُخَفِّفون من غلْوائهم في تعدُّد الأزواج وتقييد الطلاق، وسيعلمون حقَّ العلم أنَّ الشأن إنما هو شأنُ التربية المنزلية، والحياة الزوجية، في حدود ما أنزل الله، من إمساكٍ بمعروف، أو تسريح بإحسان، ومن الزواج بواحدة أو أكثر من واحدة، ما قامت الحياة على أساس العدل ومكارم الأخلاق.

بيت النبوَّة الأول

والآن فلنبدأ بالبيت الأول: بيت أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها؛ لأنه أعرق البيوت فَضْلاً ونُبلاً، وأسبقها تاريخاً وزمناً؛ ولأنه الذي قدَّمه الله لنبيِّه وادَّخره له، لِيُواجِهَ به أحْرَجَ الأوقات، وأشدَّ الأزمات!!.

خديجة رضي الله عنها

كانت تُدعى في الجاهلية الطاهرة، كما كان النبيُّ ﷺ يُدعى الأمين، اختصَّ كلٌّ منهما بلقبه لبلوغه الغاية فيه. وكانت إلى مكارمها النادرة، ونفسها الطاهرة، ذات مَجْدٍ تليد، وثراءٍ عريض، وعقلٍ راجح، وفهمٍ راسخ، وبصرٍ بالأمور عَجَب.

وحَسْبُكَ أنَّ السَّادةَ من العرب، كانوا يزدادون شَرَفاً بالزواج منها أو الانتماء لها. حتى حَظِيَ بهذا الشرف اثنان: أبو هالة النبَّاش من سادة بني تميم، وعتيق بن عائذ القرشي من سادة بني مخزوم، وقد ماتا عنها كلاهما، أحدهما بعد سابقه، من بعد أن أعقب الأول منها هنداً وهالة، وهما رجلان صحابيان. وأعقب الثاني منها هنداً، وهي صحابية.

أكرم زوج وأعظم أم

ثم زهَّدها الله في الرجال على شدَّة رغبتهم فيها، حتى إذا بلغت أشُدَّها واسْتَوَتْ، وبلغت أربعين سنة، فأضْحَت أكرم زوج في الوجود، وأعظم أمّ في

الخليقة، وأعقل وزير وأخلصه في النُّصح والصحبة. رغبت هي في أن تكون زوجاً لسيِّد الأزواج، بل لسيِّد العالمين جميعاً.

هكذا تفرَّسَت، وهكذا صَدَّق الله فِراستَها، فأعدَّها لأمرٍ عظيم، لم تك تصلح إلا له، ولم يكُ يصلح إلا لها.

مُثُلٌ من المَكارم العليا

لا نريد أن نتقصَّى تاريخ هذا الزواج المثالي مبدأً ونهايةً، فقد كفتنا مئونة هذا التقصِّي صِحَاح السيرة والشمائل.

وحَسْبُها فَضْلاً ونُبْلاً أنها كانت أسرع الناس إلى هواه، ولا يهوى إلا الخير خالصاً، وأنَّها أوَّل مَنْ آمن به، واستجاب لدعوته، وأوَّل من بشَّره وثبَّته في رجْفة الوحي، إذ رجع بالآيات الأولى من غار حراء يرجف فؤاده، وتَضْطرب بوادره[١]، حتى دخل على الزوج الحنون، والأم الرؤوم، وهو يقول: زمِّلوني زمِّلوني، لقد خَشِيتُ على نفسي.

وأخبرها الخبر، ويالَهُ من خبر، فما كان جوابها إلا أن قالت: كلا، أبْشر، فوالله لا يخْزِيك الله أبداً، فو الله إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَصْدقُ الحديث، وتحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتُقْري الضيف، وتعينُ على نوائب الحق[٢]، ثم

---

(١) **البوادر**: جمع بادرة وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق، تضطرب عند فزع الإنسان.

(٢) **الكَلُّ**: العاجز الذي لا يستقلُّ بأمره. **والمعدوم والمُعْدَم**: الفقير الذي لا مال له. **وكسبه وإكسابه**: إعطاؤه والإنفاق عليه. **وقرى الضيف**: إكرام مثواه. **ونوائب الحق**: كوارثه ونوازله، ووصفتها بالحق لأنها تكون في غيره.

وَصَفَتْه بأصول المكارم التي أخذ بمجامعها، وارتقى إلى ذروتها.. وأقسمت مطمئنة بفطرتها وتجربتها، على أنَّ صاحب هذه المكارم لن يضيِّعه الله أبداً، بل يكرمه بحسن العُقْبى. (طه).

انطلقت به إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل، فأكَّد بشارتها، وصدَّق فراستها، في حديث الصحيحين، وهو أشهر من أن يُذكر[١].

قضى سيِّد الأزواج قبل البعثة المحمدية خمسة عشر عاماً، يعدل كل يوم منها دنيا الأمانة والطهارة، والبرِّ والوفاء، وما شئتَ من خلال الفَضْل والنُّبل، وكلٌّ منهما لذلك مَوْئل وأهل، ثم قَضيا بعد البعثة عشرة أعوام كاملة، كلٌّ يوم منها من أيام الله، فلا يَقْدر قَدْرها، ولا يُحصي ثناءها، إلا هو سبحانه، تباركت آلاؤه، وجلَّت نعماؤه.

وهنا نرجو قبول المعذرة، إذ نُمسك بالقلم بعد هذه المقدِّمة التي لابدَّ منها بين يدي هذا الحديث الخطير، حديث الغيرةِ بين أمَّهات المؤمنين، وخيرِ نساء العالمين.

وعسى الله أن يأتيَ بفتح من عنده، وعَوْن على البيان بإذنه، وموعدنا الجزء التالي إن شاء الله.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

سيِّدُ الأزواج *

ـ ٢ ـ

في العام العاشر من بعثة النَّبيِّ ﷺ، وفي الشهر الذي تُوفي فيه عمُّه أبو طالب، لَبَّت خديجة نداءَ ربِّها راضيةً مرضيَّةً، تاركةً وراءها فراغاً لم يُملأ بعد.

ذلك بأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يفْقِد بِموتها شريكةَ حياته الأولى، ورائدةَ بيته المُثلى، وأمَّ ولده الفُضلى وحسْب، ولكنه فقد بموتها أكبرَ عونٍ له ـ من بعد الله عزَّوجل ـ على تبليغ الرسالة، واحتمال أعباء الدعوة، كما فقد المؤمنون الأوَّلون بموتها أماً لم تلدهم، ولكنها أوْلى من أمَّهاتهم اللائي وَلَدْنَهم براً، وأقرب لهم نفعاً.

عام الحزن

لقد حزن النبيُّ ﷺ على وَزيرَيْه أشدَّ الحزن وأعظمه، حتى سمَّى سنةَ وفاتهما عام الحزن! وما بلغ حزنُهُ على موتِ أولاده معشار ما بلغ عليهما!!

ولكن ماذا يفيدان من الحزن، وإن كان الحزين إمام الصَّابرين؟!

أحفظ الناس للصنيعة

إذاً فلا بدَّ من مكافأة الجميل بأجمل منه، ومجازاة الصنيعة بأحسنَ منها، ومَنْ أوْلى بذلك من إمام الشاكرين؟!.

وفي مكافأته وشكره يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الترمذي: «ما

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد السابع والعشرون، سنة ١٣٧٥.

لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها[1]ما خلا أبا بكر؛ فإنّ له عندنا يداً يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة»[2].

فأما عمُّه أبو طالب فقد بذل الجهد في مكافأته وهدايته، جزاء ما قدَّم له وللإسلام، من أياد جسام، وقد بسطنا القول في ذلك[3].

وأما أمُّ المؤمنين خديجة رضوان الله عليها، فنُرجِىء القول في مكافأتها إلى بيت النبوَّة الثالث، بيت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما.

أولاد النَّبيِّ ﷺ

وأولاد النَّبيِّ ﷺ ـ في أصحِّ الروايات وأشهرها ـ سبعة: القاسم، وهو أولهم، وبه يكنَّى صلوات الله وسلامه عليه، وإبراهيم وهو آخرهم، وعبد الله، ويقال له: الطاهر والطيِّب؛ وزينب وهي كبرى بناته الأربع، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

وكلُّ أولاده من خديجة رضي الله عنها، إلا إبراهيم، فمن مارية القبطية[4] التي أهداها وأختَها سيرين فيما أهدى إلى النبيِّ ﷺ، صاحبُ مصر والإسكندرية، جريج بن مينا الملقَّب بالمقوقس، أهداهما في السنة السابعة من الهجرة. وقد وهب النبيُّ ﷺ سيرين لحسان بن ثابت رضي الله عنه.

وقد احتسبَ النبيُّ ﷺ جميعَ أولاده ما عدا فاطمة الزهراء ـ أحبّ أهله إليه

---

(١) هكذا الرواية بالياء في الماضي، وأما الآتي فروي بالياء كذلك، وروي بالهمز. (طه).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦١). وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) في قصة أبي طالب ص١٦١ ـ ١٧٠.

(٤) ولد إبراهيم سنة ثمان من الهجرة، وتوفي رضيعاً، ودُفن بالبقيع، وقال النبيُّ ﷺ: «إن له مرضعاً في الجنة». وأما أمُّه مارية رضي الله عنها، فتوفيت سنة ست عشرة في خلافة عمر رضوان الله عليه، وقد حشر الناس ليشهدوا جنازتها، وصلى عليها، ودفنها بالبقيع. (طه).

ـ فإنها عاشت بعده ستة أشهر[١].

سيِّدة نساء أهل الجنة

وكان النبيُّ ﷺ أخبرها في مرض موته أنها أوَّل أهله لحوقاً به، وبشَّرها بأنها سيِّدة نساء أهل الجنة[٢] بعد مريم بنت عمران[٣].

وكان إذا أراد سَفراً جعلها آخر العهد به، ثمَّ صلَّى ركعتين، وإذا قَدِمَ من سفر جعلها أوَّل العهد به، بعد أن يبدأ بالمسجد، فيُصلِّي ركعتين.

سبب فضل فاطمة الزهراء على أخواتها

ومن لطائف ما قيل في سبب فَضْلها على أخواتها، بل على أمِّها، أنهنَّ مُتْنَ في حياتِهِ صلَوات الله عليه، فكُنَّ في صحيفته، ومات هو في حياتها، فكان في صحيفتها وميزانها، ولا يَقْدر مقْدار ذلك إلا الله عز وجل.

القاسم وعبد الله

واحتسبت خديجة ابنيها: القاسم وعبد الله، وقد وُلِدا بمكة، القاسم قبل النبوَّة، وعبد الله بعدها، وماتا رضيعَيْن كإبراهيم.

وتركت رضي الله عنها بناتها الأربع، وقد أكرمهنّ الله بالإسلام والهجرة، وأدخلهنَّ في السابقين الأولين. وقد تزوَّجن كلُّهنّ؛ وتوفاهنَّ الله في بيوتِ أزواجهنَّ![٤].

---

(١) وعاشت أربعاً أو خمساً وعشرين سنة.

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٣) (٦٢٨٥)، ومسلم (٢٤٥٠) كلاهما عن عائشة مرفوعاً. وهو عند البخاري بلفظ: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة».

(٣) أخرج الحاكم في «مستدركه» ٣ :١٥٤ عن أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ: «فاطمةُ سيِّدة نساءِ أهل الجنة، إلا ماكان من مريم بنت عمران» وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٤) بيَّنا بعض الحكم في وفاة أولاده قبله ﷺ، فانظرها ص ١٣٧. (طه).

زينب الكبرى

فتُوفيت زينب عند زوجها وابن خالتها أبي العاص بن ربيع[١]، وكان النبيُّ ﷺ يذكره، ويُثني عليه في مصاهرته، فيُحسن الثناء، ويقول: «حدَّثني فَصَدَقني، ووعدني فوفَّاني»[٢].

وقد حفظت له الجميل فافْتَدَته بعِقْدِها لما أُسر يوم (بدر) قبل إسلامه، في قصة رقيقة معروفة[٣].

وولدت له علياً، وكان رديفَ النبيِّ ﷺ على ناقته يوم الفتح، وقد مات صغيراً، وولدت له أُمامة التي حَمَلها صلوات الله وسلامه عليه في صلاة الصبح على عاتقه، فكان إذا ركع وَضَعها، وإذا رفع رأسَهُ من السُّجود أعادها[٤].

وقد تزوَّجها عليٌّ كرَّم الله وجْهَه، بعد خالتها ـ فاطمة الزهراء ـ بوصيَّةٍ منها[٥].

رُقَيَّة وأم كلثوم

وكانت رُقية زوجاً لعُتْبة، وأمُّ كلثوم زوجاً لأخيه عُتَيْبة ابنَيْ أبي لهب، عَقَدا عليهما ولم يدخلا، فلمَّا أنزل الله تعالى سورة أبي لهب، قال لهما أبوهما:

---

(١) هو ابن أخت أم المؤمنين خديجة، أمه هالة بنت خويلد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٩) (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٣) في حديث أخرجه أحمد (٢٦٤٢٥)، وأبو داود (٢٦٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٥٠٨٨) (٥٤٦٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣) كلاهما من حديث أبي قتادة الأنصاري.

(٥) تزوَّج بها عليُّ بن أبي طالب في خلافة عمر، وبقيت عنده مدَّة، وجاءته الأولاد منها، وعاشت بعده حتى تزوَّج بها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطَّلب الهاشمي، فتوفيت عنده، بعد أن ولدت له يحيى بن المغيرة، ماتت في دولة معاوية بن أبي سفيان، ولم ترو شيئاً. كما في «السير» ١ : ٣٣٥.

رأسي من رؤوسكما حرام إن لم تُفارقا ابنَتَي محمدٍ، ففعلا، فأَبْدَلَهما الله خيراً منهما عثمان[1].

فاطمة الزهراء

وتُوفِيَتْ فاطمة الزهراء عند عليٍّ كرَّم الله وجهه، وَوَلَدت له حَسَناً، وحُسيناً، ومُحسناً ـ وقد مات صغيراً ـ، وأُمَّ كلثوم، وزينب.

الذُّرِّيَة الطاهرة

وكما قضى الله ألاَّ يكون لخاتم النبيين ولدٌ إلا من خديجة، قضى سبحانه ألاَّ يبقى له عَقِبٌ إلا من ابنتها فاطمة، انتشر نَسْلُه الشريف منها، من قِبلِ السِّبْطَيْن: الحسن والحسن، ليس غير.

تزوَّج رسولُ الله ﷺ وهو بِكْر، خديجةَ رضي الله عنها وهي ثيِّب، وانتقلت إلى جوار ربِّها، وقد بلغت بضعاً وستين سنة، وبلغ هو بضعاً وخمسين.

الشأن في زواجه ﷺ

ولو كان صلواتُ الله عليه يقْصد من زواجه ما يقصده العامة ـ وحاشاه ـ منْ مَتَاعِ الحياة الدنيا، لاختار غير واحدة من الأبكار المُعْجِبات الرائعات حُسْناً وجَمَالاً وسنّاً، في زَهرة حياته ونَضْرة شبابه. وما مِنْ بيتٍ من بيوتات العرب في الجاهلية والإسلام، إلا وهو يُؤْثر رغباتِه، ويَتَسابقُ في مَرْضاته. ونحسَبُ أنَّ سَوْق الأدلة على ذلك، كسَوْق الأدلة على الشَّمس، وقد دمغت رأس منكرها في وَضح النهار.

---

(١) تزوَّجت رقيَّة من عثمان، وَوَلَدت عبد الله، وبه كان يكنَّى، وبلغ ست سنين، ومات. مرضت قبيل بدر فخلَّف النبيُّ ﷺ عليها عثمان، فتوفيت والمسلمون ببدر. فلما توفيت تزوَّج عثمان بأختها أمِّ كلثوم في ربيع الأول سنة ثلاث، فلم تلد له. وتوفِّيت في شعبان سنة تسع كما في «السِّيَر».

الشأنُ إذاً في زواجه صلوات الله وسلامه عليه، أجلُّ من الدنيا ومتاعها، بل أعظم من النفس وحاجاتها؛ لأنه من الشؤون الإلهية العليا، في سياسة الدعوة المُخْلصة، التي تفنى فيها النفس، فلا تبالي بما تلقى في ذات الله.

والشأن إذاً للعقل والروح، والفضل والنُّبل، وتوثيق العُرا وشدّ الأواصر، وجَمْع القلوب على كلمة الله.

وكذلك كان أساسُ اختياره ﷺ ، أو اختيار الله له فيما أَمَره أو كَتَبَ له من الأزواج.

زوجٌ لاتُعوَّض

لم يخطر على باله يوماً أن يتزوَّج على خديجة رضي الله عنها، حتى إذا استجابت لربِّها، أحوجَ مايكون صلوات الله وسلامه عليه إلى سكنها وعونها، ـ فكَّر فيمن عسى أن تُخفِّف عنه من شدائد الدعوة وأعبائها، وما نحسبه عليه صلوات الله وسلامه فكَّر فيمن يُعوِّض خديجة، فإنَّ خديجة ـ كما تدلُّ دلائل أحواله ومقاله ـ لاعِوَض لها.

وإنه ﷺ لكذلك، إذ جاءته خَولة بنت حكيم، فقالت له: ألا تتزوَّج؟ قال: من؟ قالت: إنْ شئْتَ بكراً، وإن شئْتَ ثيِّباً، أما البكر فابنةُ أحبِّ الخلق إليك عائشة، وأما الثِّيِّب فَسَوْدَةُ بنت زَمْعةَ، قد آمنَتْ بك واتَّبعتك. قال: اذهبي فاذكريهما عليَّ.

فذهبت إلى سَوْدة فقالت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت سودة: وماذاك؟ قالت: إنَّ رسول الله ﷺ أرسلني إليك لأخطبك عليه، فَفَرحت سَوْدة بهذه الزِّيجَةِ الكريمة، وأشارت على خَوْلة أن تستأذن أباها، وكان شيخاً كبيراً، فأَذِنَ من فوره.

سَوْدَةَ بنت زَمْعَة

كانت سَوْدة بنت زَمْعَةَ ـ وهي قرشيَّةٌ عامريةٌ ـ تحت ابن عمِّها السَّكران بن

عمرو، أسلم معها قديماً، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، فلمَّا قَدِما مكة ماتَ زوجها ، فكان النبيُّ ﷺ خيرَ عوضٍ لها.

بيت النبوة الثاني

وبنى النَّبيُّ ﷺ على سَوْدة قبل أن يبنيَ بعائشة، فكانت سَوْدة صاحبة بيته الثاني، وكانت تقيَّةً سخيَّةً مَرِحة، تُضحك الرسول ﷺ بالشيء أحياناً، وخَشيَتْ أن يُطلِّقها صلوات الله عليه، لِكِبَر سنِّها وبُطْئها، فسألته أن يُمسكها، وأن يجعل يومها لعائشة[١]، وأخبرته أنها تريد أن تُحشرَ في أزواجه، وأنها لا تريد ما تريده النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ﴾[٢].

من بركات سودة رضي الله عنها

لاجَرَم أنَّ هذا التسامح للضرَّة، والتيسير في المعاشرة، إحدى بركات سودة. ومن عظيم بركاتها إيلاف[٣] قومها بهذه الزِّيجة، حتى نالوا شَرَفَ الإسلام والصحبة.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٣) في الرضاع: باب جواز هبتها نوبتها لضرتها.

(٢) سورة النساء: ١٢٨.

(٣) الإيلاف: مصدرُ «آلف» يقال لغة: آلف فلان الشيء، أي: ألِفَهُ. والإلْفُ: اجتماعٌ مع التئام. كما في «مفردات الراغب» ص٨١.

سَيِّدُ الأزواج *

ـ ٣ ـ

البيت الثالث : الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق

بنى النبيُّ ﷺ بيته الثالث بالصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة. عَقَد عليها بمكة، وبنىٰ عليها بالمدينة في السنة الثانية. وسنزور معكم هذا البيت الكريم بعد أن نمرَّ مرَّ الكرام على بيوت أمَّهات المؤمنين.

البيت الرابع : حفصة بنت عمر

وبنى صلوات الله عليه بيته الرابع بالصَّوَّامة القوَّامة[1]: حفصة بنت عمر بن الخطاب[2] ـ وزيره الثاني ـ في السنة الثالثة بعد غزوة أحد، وكانت تحت خُنَيْس بن حُذافة القرشي السَّهمي، وهاجرت معه في المهاجرين الأوَّلين، وقد شَهِدَ

---

* مجلة الأزهر، العدد العاشر، المجلد السابع والعشرون، سنة (١٣٧٥).

(١) أخرج في «المستدرك» ٤ :١٥ عن قيس بن زيد أن النبي ﷺ طلق حفصة، فدخل عليها خالاها قدامة وعثمان ابنا مظعون، فبكت.. وجاء النبي ﷺ، فقال: «قال لي جبريل: راجع حفصة، فإنها صوَّامة قوَّامة، وإنها زوجتك في الجنة» ورجاله ثقات غير قيس بن زيد، فإنه تابعيٌّ صغير مجهول. ثم إنَّ في المتن وهماً، فإن عثمان بن مظعون مات قبل أن يتزوَّج النبيُّ ﷺ حفصة، لأنه مات قبل أحد بلا خلاف، وزوْجُ حفصة قبل النبي ﷺ مات بأحد، فتزوجها النبي ﷺ بعد أُحد. كما في التعليق على «السير» ٢ :٢٣١.

(٢) وكان دخول النبيِّ ﷺ بها، ولها نحو من عشرين سنة. وتوفيت سنة إحدى وأربعين عام الجماعة.

بدراً، ثمَّ توفي بعدها من جراحات أصابته بها[١].

مكافآت نبويَّة

فكافأها النَّبيُّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وأقرَّ عين أبيها بزواجها، وكان قد عَرَضها على صاحبَيْه أبي بكر وعثمان، فاعتذرا اعتذاراً رقيقاً في قصةٍ كريمةٍ من قَصَص الأكرمين[٢].

البيت الخامس: زينب بنت خُزَيْمة

وبنى النَّبيُّ ﷺ بيته الخامس بزينب بنت خُزَيْمة بن الحارث الهلالية، وكانت تُدعى في الجاهلية أمَّ المساكين؛ لكثرة إطعامها إيَّاهم ورأفتها بهم، وزادها الإسلام عطفاً وإحساناً إليهم.

استُشهد زوجها عبد الله بن جحش رضي الله عنه، في غزوة أحد، فكافأها صلوات الله عليه بأن تكون من أمَّهات المؤمنين، وبنى عليها في رمضان من السنة الثالثة، وانتقلت إلى جوار ربِّها بعد بضعة أشهر، ولم يمت في حياته ﷺ إلا خديجة وأمُّ المساكين، وقد صلَّى عليها رسول الله ﷺ، ودفنها بالبقيع.

البيت السادس: أمُّ سَلَمة

ثم بنى ﷺ بيته السادس بذات العقل الراجح، والرأي الصَّائب أم سلمة، هند بنت أبي أميَّة المخزومية[٣].

---

(١) بل كانت وفاته رضي الله عنه إثر جراحات أصابته بأحد، وقد شهد بدراً وأحداً، وأصابته جراحة يوم أحد فمات منها. كما في «الإصابة» ٢ :٢٩١.

(٢) انظرها في صحيح البخاري (٤٠٠٥) في النكاح، باب عرض الإنسان بنته أو أخته على أهل الخير. وانظر: فضيلة كتمان السرِّ، ص٥٠٥ ـ ٥٠٦.

(٣) وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين. عُمِّرت حتى بلغها مقتلُ الحسين الشهيد، فوجمت لذلك، وغُشي عليها، وحزنت عليه كثيراً، ولم تلبث بعده إلا يسيراً، وتوفيت سنة إحدى وستين. وعاشت نحو من تسعين سنة. كما في «السير».

كان أبوها من أجْواد العرب المشهورين[١]، وكان زوجها وابن عمِّها عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وهو من السابقين الأوَّلين، وهو ابن عمَّة رسول الله ﷺ، وأخوه من الرَّضاعة، وكانت تحبُّه وتُجلُّه، حتى إنَّ أبا بكر وعمر خَطَباها بعد وفاته من جرح أصابه في غزوة أحد فلم تَقْبل. فلم يكن خَلَفٌ لزوجها، ولا كافل لأيتامها، خيراً منه ﷺ.

موقف رائع لأمِّ سلمة

وحَسْبها، بل حَسْب الأمة منها موقفها الرائع في صُلح الحديبية، حين كاد المسلمون يهلكون، إذْ تباطؤوا في التحلُّل من عمرتهم كما أمرهم ﷺ، فأشارت بأن يبدأ صلوات الله عليه بالحَلْق، ففعل، وامتثلوا[٢]، وكشف الله بها الكُربة التي ليس وراءها كربة!!

البيت السابع: زينب بنت جحش

ثم بنى صَلواتُ الله عليه بيته السابع بابنة عمَّته أُميمة: زينب بنت جحش، وهو بناءٌ إلهيٌّ بأمر الله عزَّ وجل، لم يكن لنَبيِّه بهذا البناء من حاجة، إلا أنه سبحانه أراد أن يُبطل ضلالة التبنِّي في الجاهلية، وتسويتهم المُتَبَنَّى الدَّعي بالابن الحقيقيِّ في الميراث، وتحريم زوجه على المتبنِّي.

وكانت زينب زوجاً لزيد بن حارثة حِبِّ النَّبيِّ ﷺ، ومَنْ أنعم الله عليه بالإسلام، وأنْعَمَ عليه نبيُّه بالإعتاق والتبنِّي والتزويج بابنة عمَّته.

فلمّا قَضَى زيدٌ منها وَطَراً ـ لحكمةٍ بالغة ـ بمحض رغبته، زوَّجها الله رسوله:

---

(١) لقبه: زاد الراكب، أبو أمية بن المغيرة.

(٢) حديث مشورة أم سلمة على رسول الله ﷺ في الحَلْق والنَّحر، أخرجه البخاري (٢٧٣١) (٢٧٣٢) في كتاب الشروط.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[١].

لاجَرَم أنها زيجةٌ إلهيَّةٌ، وآيةٌ من آيات النبوّة، تُخْرس الزنادقة والمُتَقَوِّلين، ومَنْ لفَّ لفَّهم من أعداء النبيِّ الكريم ﷺ. ولقد حقَّ لزينب أن تُباهيَ أمَّهات المؤمنين بأنهنَّ قد زوَّجَهُنَّ أولياؤهنَّ، وأما هي، فقد زوَّجَها الله من فوق السموات السبع[٢].

كانت رضوانُ الله عليها أَطول أمَّهات المؤمنين يداً[٣] بالبذل والإحسان والصَّدقة وصلة الرحم، وكانت صَنَاع اليدين: تدبُغُ وتخْرُزُ، وتتصدَّق في سبيل الله. وكانت أسرع أمّهات المؤمنين لحاقاً بالنبيِّ ﷺ[٤].

البيت الثامن: جُوَيْرية بنت الحارث

وبنى صلوات الله عليه بيته الثامن ببرّة[٥] بنت الحارث، سيِّد بني المُصْطلِق.

وكان أبوها وقومه قد جمعوا الجموع لقتاله ﷺ في «المُرَيْسيع» ماء

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٧.

(٢) أخرج البخاري (٧٤٢٠) في التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ من حديث أنس: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكن أهاليكن، وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سموات. وفي رواية للبخاري (٧٤٢١) من حديث أنس قال: نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش، وأطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً، وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ، وكانت تقول: إنَّ الله أنكحني من السماء.

(٣) روى مسلم (٢٤٥٢) في فضائل الصحابة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولُكنَّ يداً» قالت: فكُنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتَصَدَّق.

(٤) توفيت سنة عشرين وصلى عليها عمر.

(٥) كان اسمها: بَرَّة، فحوَّل رسول الله ﷺ اسمها إلى جويرية، كما في صحيح مسلم (٢١٤٠).

لخُزاعة، فأحاط بهم المسلمون، وأخذوهم أسرى بعد قتل عشرة، منهم: مسافع بن صفوان زوج بَرَّة، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تشكو إسَارَها، وترجو رحمة الله على يده، وهو صلوات الله عليه أكرم الأكرمين لعزيز قومٍ ذل، فلم يكد يسمع شَكاتها حتى اصْطَفاها لنفسه، ثم أعتقها وألحقها بأُمَّهات المؤمنين وسمَّاها جُويرِيةَ.

بركتها على قومها

وما أنْ تسامع الناس بهذه المَكْرمة النبويَّة حتى أعتقوا ما بأيديهم من الأسرى، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ !! ثم أسلم بنو المُصْطلق وسيِّدُهم من بعد أن أسلم العَتْقى جميعاً، وكانوا مائة أهل بيت أو يزيدون!.

فهل عُرف في تاريخ الدنيا امرأة أعظم بركة على قومها من جويريَةَ؟!. وهل عُرِفَ في تاريخ الدنيا أعظم أو أكرم من هذه الصنيعة النبوية؟!. أولَيست آية أخرى من آيات النبوة ؟!.

البيت التاسع : رَمْلة بنت أبي سفيان

ثم بنى ﷺ بيته التاسع بأمِّ حبيبة رَمْلة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، وكان هو وزوجه هند من ألدِّ أعدائه ﷺ.

إصْهارٌ نبويٌّ إلى أشدِّ الناس عداوة

أسلمت رَمْلة قديماً بمكة، وهاجرت مع زوجها عُبيد الله بن جحش إلى الحبشة الهجرة الثانية، فتنصَّر زوجها بالحبشة ومات بها، وثَبَتَت هي على إسلامها، فرَقَّ النبيُّ ﷺ لكربتها، وكافأها على ثباتها في غربتها، وأرسل إلى النجاشي ليخطبها عليه، فأصدقها عنه أربعمائة دينار مع نفائس من الهدايا. ولمَّا عادت إلى المدينة بنى عليها.

وقد قَصَد صلوات الله عليه ـ فوق صنيعه هذا ـ إلى تأليف أبويها وقومها بني عبد شمس: أعداء قومه بني هاشم. وقد وقع هذا الزواج من أبيها موقع الغبطة والرِّضا.

البيت العاشر : صفيَّة بنت حُيي

أما بيته العاشر، فقد بناه بسيدة بني قُريظة والنَّضير [١] جميعاً: صفية بنت حُيَي بن أخطب.

كانت زوجاً لسلام بن مشكم القُرَظي، ثم لكنانة ابن أبي الحُقيق، فَقُتل عنها، وهو عروس بخيبر، فحماها صلوات الله وسلامه عليه من الذُّلِّ بعد العز، ومن الرقِّ بعد السِّيادة.

اصْطَفاها لنفسه، ثم أعتقها وتزوَّجها، وجعل عِتْقَها صَدَاقَها، وَوَصَل بهذا الصَّنيع العريق في المكارم رَحِماً وصهراً، إلى بني إسرائيل عامّة[٢]، وإلى إخوانه النبيِّين منهم خاصَّة، ولكنَّ سفاكي الدماء، وقَتَلة الأنبياء، ومُوقدي نار الحرب والبغضاء، يَجْحدون الإحسان، ويقابلون النِّعم بالكفران!.

البيت الحادي عشر : مَيْمُونة بنت الحارث

ثم بنى بيته الحادي عشر ـ وهو آخر بيوت النبوَّة ـ بمَيْمونة بنت الحارث الهلالية[١]، كانت في الجاهلية زوجاً لمسعود بن عَمْرو الثقفي، ففارقها، وخَلَفه عليها أبو رُهم ابن عبد العُزَّى، فتوفّي عنها. فجعلت أمرها إلى أختها أمِّ الفَضْل وزوجها العباس عمِّ النبي ﷺ، فرغَّبه فيها العباس، ليربط بين العباسيين وخاتم النبيين صلوت الله وسلامه عليه، بأقوم رباط، وأحكمه نسباً وصهراً.

---

(١) لأن أمها كانت بنت سيد قريظة، وأباها سيد بني النَّضير. (طه).

(٢) وقد وصل في هذا العام أقباط مصر بمارية التي أهداها إليه المقوقس (طه) انظر حديث: الجوار في الإسلام: «إنكم ستفتحون مصر، ..» ص٥٩٥.

(١) وهي أخت أمِّ الفضل زوجة العباس، وخالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس.

زيارة كريمة عاجلة

هذه زيارةٌ كريمةٌ عاجلةٌ لبيوت أمهات المؤمنين، قَبَسنا ممَّا فيها من آيات الله والحكمة؛ لنعود ـ كما وعدنا ـ إلى بيت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، فنقبس منه قَبْسةً أخرى.

ولسنا نطمع، ولن نطمع أن نذكر كثيراً ولا قليلاً من فضائل هذا البيت الكريم وشمائله، فذلك ما لاسبيل إليه في مجلدات، فضلاً عن صفحات، وإنما هي لمحةٌ خفيفة وقورٌ، من بناء الله ونبيِّه ﷺ لهذا البيت، ولمحة أخرى مما كان بين الطاهرة والمبرَّأة!

روابط الإلفة والمودة

أما البيت وبناؤه، فقد علم الناس جميعاً أنَّ الإصهار من أحكم الأُسس في روابط الألفة والمودّة، إن لم يكن أقومَ أساسٍ وأشدّه، وقد علم الناس جميعاً ـ حتى المكابرون منهم ـ أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد أبلوا أعظم البلاء في الإسلام دعوةً وحمايةً، على اختلاف درجاتهم عند الله عزوجل.

وإذا لم يكن من المُسْتطاع أن يُصاهرهم جميعاً ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ على حدة، فإنَّ من المستطاع أن يُصْهِرَ إلى كثيرٍ من كبرائهم والسابقين منهم، فَيَسْري شرفُ هذه المُصَاهرة إلى الشعوب والقبائل، كما سَرى شرف الحجر الأسود إليهم، حينما وضعه في رِدائِهِ، وأمرهم أن يأخذوا بأطرافه.

هكذا فعل صلوات الله عليه كلَّما صاهر. ولم يكن به إلى تعديد النساء من حاجةٍ إلا إرضاءً لربِّه، وَصِلةً لِرَحِمِه، ونشراً لدعوته.

وأحقُّ مَنْ وُصِلَ بهذه المُصَاهرات الكريمة، خلفاؤه الراشدون، أسبق الناس إسلاماً، وأعظمهم بعد الأنبياء مقاماً، وأرسخهم في دعوة الحق إقداماً.

وشائج من الجمال والنُّبل

وقد أكمل الله إصهاره إلى أبي بكر، بوشائج من الجمال والجلال، والعلم

والفضل، والذكاء والنُّبل، وما شئتَ من خِلال الخير والبرِّ، في خير عقيلة بِكْر.

وكأنَّ الله صنَع الصِّدِّيقة على عينه، لِيُسِرَّ بها نبيَّه ﷺ، ويقرَّ بهذا السرور عين أبي بكرٍ.

وكانت رضوان الله عليها ـ إلى ماخصَّها الله به ـ بعيدة الهمَّة، طمَّاحةً إلى ذِرْوَةِ المجد، لم يكفها أنْ حَظِيت بأسمى مكانة بين صواحبها لدى النبيِّ ﷺ، حتى رغبت أن تحتلَّ من قلبه المكان الأوَّل، مكان الصِّدِّيقة الأولى، والحبيبة الفُضْلى، التي لايفتأ يذكرها ويُبشِّرها، ويُكرم من أجلها خلائلها، ويُثني عليها ثناءً كريماً يُسابق الدهر.

محاط الثناء وخالد الذكر

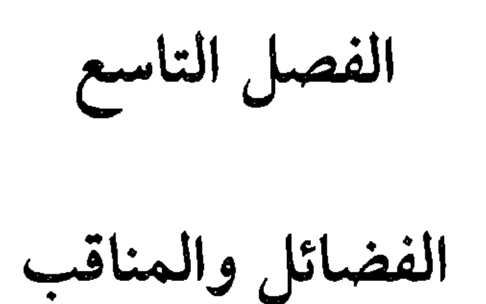
وعبثاً حاولت الصِّدِّيقة بحُسن الدَّلِّ، ولطفُ الحِيَل، وفنون الذكاء والنُّبْل، أن تقنعَ سيِّدَ الأوفياء، وأكرمَ النُّبلاء، بأنَّ الله أبدله خيراً من خديجة.

فَلْتُلق السَّلَم إذاً، ولا تجادل في الحقِّ بعد ما تبيَّن، ولْتَعلم أنَّ المجادلة والمنافسة، والغيرة ـ من أعقل العقائل، وفُضْلى الفواضل، ومَنْ لها قدمُ الصِّدق، وفَضْل السَّبْق ـ لا تزيد صاحبتها التي لم ترها، إلا صِدقاً من عاطر الثناء، وخالد الذكر.

إنصاف عجيب نادر

رضي الله عن الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، لم تمنعها غَيْرتُها من صواحبها، ولا منافستها لهنَّ، أن تذكر فضائلهنَّ، وتروي عن النبيِّ ﷺ ثناءه عليهن، وذلك من الإنصاف العجيب النادر الذي لايُعرف إلا في مضارب البيت العريق، ومعادن الكرم العتيق.

* * * * *



الفصل التاسع

الفضائل والمناقب

١ ـ خير القرون (١ ـ ٢).

٢ ـ مثل من اختلاف الصحابة.

٣ ـ خصومة الأكابر (١ ـ ٢).

٤ ـ الإصلاح بين الأكابر.

٥ ـ حقوق الأكفاء.

خير القرون *

ـ ١ ـ

١٠٧ ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «خَيْرُ الناس قَرْني، ثمَّ الذين يَلُونَهُم، ثمَّ يجيءُ أقوامٌ تَسْبِقُ شَهَادةُ أَحَدِهم يَمينَه، ويَمينُه شَهَادتَه»[١].

١٠٨ ـ وعن عِمْران بن حُصَيْن رضي الله عنهما يقول: قالَ رسول الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتي قرني، ثمَّ الذين يَلُونهم، ثمَّ الذين يَلُونهم ـ قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنَيْن أو ثلاثة ـ ثمَّ إنَّ بعدكم قوماً يَشْهَدون ولا يُسْتَشْهدون، ويخُونون ولا يُؤْتَمنون، ويَنْذُرونَ ولا يَفُون، ويظهرُ فيهم السِّمَن». رواهما الشيخان[٢].

المفردات

الناس: المراد بالناس في الحديث الأول: أمَّته ﷺ، كما بيَّنه الحديث الآخر، وإلا فخيرُ الناس عامّةً هم الأنبياء على اختلاف درجاتهم، صلوات الله وسلامه عليهم.

والقرن: أهل كلِّ زمان؛ سُمُّوا بذلك لاجتماعهم مُقْترنين في عصر واحد.

---

* مجلة الأزهر، العدد الأول، المجلد السابع عشر (١٣٦٥).

(١) البخاري (٢٦٥٢) في الشهادات، ومسلم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، في الشهادات، ومسلم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة.

واختلف أهل اللغة في تحديده، فمنهم من حَدَّه بأربعين سنة، ومنهم من حدَّه بسبعين، ومنهم من حدَّه بمئة وهو المشهور، ومنهم من زاد أو نقص. والحقُّ أنَّ مدَّة القرن تختلف باختلاف الأعمار لأهل كل زمان. والمراد بقرنه ﷺ: صحابته، وهم كلُّ مَنْ صَحِبَه أو رآه ـ ولو ساعة ـ زمن نبوَّته، مؤمناً به، ومات على ذلك. والذين يلونهم هم التابعون. والذين يلونهم هم تابع التابعين، رضي الله عنهم أجمعين.

والنَّذر: ما أَوْجَبَه العبدُ على نفسه تطوُّعاً من عبادةٍ أو صدقة، وفعلُه من بابَي ضَرَب ونَصَر، وبهما رُوي الحديث. ووفَّى بنذره يفي وفاء، وأوفى به يوفي إيفاءً: أدَّاه، وباللغتين كذلك جاء الحديث.

* * * * *

فَضْل المهاجرين والأنصار

في مطلع كلِّ عام هجري، يذكر المسلمون أصحابَ رسول الله ﷺ، وكيف أُوذوا في سبيل الله، وأُخرجوا من ديارهم بغير حقّ، إلا أنْ يقولوا ربُّنا الله. ثمَّ صُبَّ عليهم العذابُ من كلِّ صَوْب، واصْطَلح عليهم البلاءُ من كلِّ أَوْب. فلم يَزِدْهم ذلك إلا إيماناً بدينهم، وتصديقاً لنبيِّهم، وبذْلاً للمُهَج والأرواح؛ ابتغاءَ مَرْضَاة ربِّهم. للمهاجرين منهم فَضْلُ الفداء والهجرة، وللأنصار منهم فَضْلُ الإيواء والنُّصرة. وبهم جميعاً أعزَّ الله الإسلام والمسلمين، وأعلى كلمته إلى يوم الدين، وضرب المثل سيَّاراً في العالمين، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1].

---

(١) اقتباس من الآية ٢٨ من سورة الفتح، وفي كلام المؤلف تلميح إلى سورة الفتح،
=

التحذير من بغض الصحابة وسبِّهم

وإذا كانوا أعلى الناس بعد النبيين منزلةً، وأرفعهم مكانةً، بشهادة الله ورسوله، فلا عَجَبَ أن يُعلن سيِّد الأوفياء ﷺ بفَضْلهم، ويحضَّ على الاقتداء بِهم، ويحذِّر من مَقْتهم وسبِّهم، ويقول فيما رواه الترمذي: «الله!! الله!! في أصحابي، لا تتَّخذوهم غَرَضاً[1] بعدي، فمَنْ أحَبَّهم فَبِحُبِّي أحبَّهم، ومَنْ أبغضهم فببُغْضي أبغضهم، ومَنْ آذاهم فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد آذى الله، ومَنْ آذى الله يوشك أن يأخذَه»[2].

ويقول فيما رواه الشيخان: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أحدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولانصيفه»[3].

ولعلَّ في هذا مُزدَجراً لقومٍ يتناولون بعض الصحابة بالذمِّ والتجريح، فَيَتَعدَّوْنَ حدَّ الأدب، ويتناسَوْن أنهم يُؤذون اللهَ ورسوله!.

من حقوق الصحابة رضي الله عنهم

لا نقول بعصمة الصحابة رضوان الله عليهم، فتلك منزلة الأنبياء لا يبلغها غيرُهم، ولكنَّا نقول: إنَّ لهم علينا حقوقاً وذِمَماً هي ـ ولا مراء ـ من حقوق النَّبيِّ ﷺ على سائر أمته.

ومنها: أن نَقْبلَ من مُحْسِنهم، ونتجاوزَ عن مُسيئهم، فإنْ لم نتدارس الحسنات، فلا أقلَّ من أن نتغاضى عن الهَفَوات؛ فإنها ليست شيئاً مذكوراً بجانب ما قدَّموا لله ورسوله. فإن لم يكن بُدٌّ من ذكر حقائق التاريخ، واستنباط

وما فيها من ثناءِ الله عليهم، وضربهِ المَثَلَ بهم.

(١) الغرض: الهدف، أي: لا تجعلوهم هدفاً ترمونهم بأقوالكم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) والمد: مكيال وهو رطلان، أو ملء الكفين الوسطين، والنصف مثلثة، والنصيف: أحد شِقَّي الشيء. اهـ. قاموس.

عِبَرِه وعظاته، فلتكن مقرونة بأدب الاعتذار، مع الإجلال والإكبار، وذِكر فضْل الصُّحبة التي لا عِدْلَ لها ولا كِفَاءَ إلا رضوان الله عزَّ وجلَّ.

قصة عمر مع حاطب بن أبي بلتعة

ولعلك واجدٌ في قصة عمر وحاطبٍ وأمثالها، ما يَشْفي صَدْرَك، ويثبِّت فؤادك، ويُطَمْئنك لما نقول.

بَعَثَ حاطبٌ رضي الله عنه إلى ناسٍ من المشركين، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ في غزوة الفتح، فلمَّا أظهر الله نبيَّه على الأمر اعتذر بأنه ما فعل فعلته التي فعل؛ إلا ليَصْطَنع إلى قريش يداً يحمون بها قرابته عندهم، إذا لم يكن من أنفسهم، وإنما كان حليفاً لهم. فصدَّقه صلوات الله وسلامه عليه، وقَبِلَ عُذْرَه، ولكن همَّ به الفاروق، وقال كلمتُه المأثورة: دَعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق! فأجابه ﷺ: «إنه قد شَهد بدراً، وما يُدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وأنزل الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[١]. والقصَّة مبسوطة في الصَّحيحين[٢]، وفي السِّيرة والتفسير، فارجع إليها فإنَّها بليغة[٣].

تفاوت الصَّحابة في المراتب

هذا وليس ثمَّةَ خلاف في أنَّهم رضْوان الله عليهم، على منازلَ مختلفة،

---

(١) سورة المُمْتحنة: ١

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٨٣) و(٤٢٧٤) في المغازي، ومسلم (٢٤٩٤) في فضائل الصحابة.

(٣) انظر شرحها في كتاب شيخنا العلامة المحقِّق الأستاذ محمد عوامة: «من صحاح الأحاديث القدسيّة» ص٢٠٢ـ٢٠٧.

ومراتبَ متفاوتة: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[(١)]، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[(٢)].

وليس ثمَّةَ خلاف كذلك، في أنَّ ذوي المكانة فيهم وأصحاب المشاهد منهم، كأهل بدر وأحد والمُبايعين تحت الشجرة، ومن بشَّرهم النبيُّ ﷺ، أو دَعَا لهم، أو ائتمنهم على كتابة وحيِ الله، وتبليغ رسالات الله، لا خلاف أنَّ كلَّ واحد من هؤلاء أعلى منزلةً وأجلّ قدراً ممَّن بعده، كائناً من كان.

قال رجلٌ للمعافى بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية؟! فغضبَ غضباً شديداً، وقال: لا يقاس بأصحاب النبيِّ ﷺ أحدٌ؛ معاوية صاحبُه، وصهرُه، وكاتبُه، وأمينُه على وحي الله.

فضيلة خواصّ الأمة من أئمة الهدى على عوام الصحابة

وإنّما الخلافُ في عوام الصحابة، ومنْ ليس لهم من فضيلةٍ إلا المُشَاهدة. والذي نختاره أنَّ هؤلاء ـ مع عظيم فَضْلهم ـ لا يَسْتوون وخواصّ الأمة من أعلام الدين، وأئمة الهدى، والقائمين في الناس بالقسط. فإنا لا نستطيع أن نُسوِّي بعمر بن عبد العزيز مَنْ لا يملك مِنْ فَضْل السَّبق إلا صحبة يومٍ أو بعض يوم. إلى هذا يومئُ قول ابن عبد البَر، مُخالفاً الجمَّ الغفير من أهل العلم.

ومن الآثار التي تُؤيِّدنا ـ فيما ذهبنا إليه ـ ما رواه الترمذي بسندٍ حسن عن أنسٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَثَل أُمَّتي كَمَثَل المطر، لا يُدْرى أوَّلُه خيرٌ أمْ آخِرُهُ»[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٣

(٢) سورة الحديد: ١٠

(٣) رواه أحمد ٣ :١٣٠ (١٢٣٢٧)، و٣ :١٤٣(١٢٤٦١)، والترمذي (٢٨٦٩) وهو =

وما ذَنْبُ مَنْ تأخَّر به قرنُه، ولعلَّه إنْ تقدَّم كان من السَّابقين الأوَّلين؟.

إنَّه إنْ فاته أن يكون في خير القرون، فلن يفوته أن يكون باسْتباق الخيرات، والمسارعة في الطاعات: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

أما بعد، فقد صَدَق الله نبيَّه ﷺ، إذ بَعَثَه ـ كما روى البخاري ـ في خير قرون بني آدم[2]، وحَمَى صحابته وتابعيهم، والقرن الثالث الذي يليهم، أن تفشوَ فيهم ضلالةٌ، أو تكثر فيهم جهالةٌ، حتى خَلَف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصَّلاة واتَّبعوا الشَّهوات، ممنَّ لا يتَّسع المجال في هذا الجزء لشرح أوصافهم، فلنؤخِّرهم من حيث أخَّرهم الله إلى الجزء القابلِ إنْ شاء الله، راغبينَ إليه جلَّت هِبَاته، أن يُلحِقَنا بالسَّابقين الأوَّلين، ويجعلَ لنا منهم موعظةً وذكرى.

* * * * *

حديثٌ قويٌّ بطرقه وشواهده. قال الحافظ في «الفتح» ٧ :٦: وهو حديث حَسَن له طرق قد يرقى بها إلى الصحة.

(١) اقتباس من الآية ٦٩من سورة النساء.

(٢) أخرج البخاري (٣٥٥٧)، وأحمد ٢ :٤١٧(٩٣٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت في خير قرون بني آدمَ قرناً فَقَرناً، حتى كنت من القرن الذي كنتُ فيه».

خير القرون[1]

ـ ٢ ـ

ألمَمْنا في الجزء الأول ببعض فضائل الصحابة، وما امتازوا به رضيَ الله عنهم، من دَرَجات لا مَطْمَع فيها لأحدٍ بعدهم. ونلمُّ في هذا الجزء ببعض فضائل التابعين وتابعيهم، ثمَّ نأتي على أوصاف الخُلوف الذين أبْطأ بهم العمل، وأسْرَع بهم الهوى، حتى بَعُدت عليهم الشُّقَّة، فلم يقاربوا من سبقهم، وإنما كانوا مثلاً سيِّئاً لمن خلفهم.

فضائل التابعين

اقتدى التابعون بهدي الصَّحابة، كما اقْتدى الصَّحابة بهدي رسول الله ﷺ. فكان منهم الهُداة الراشدون، والحكماء الربَّانيُّون، الذين ملؤوا الدنيا هدايةً ونوراً، حتى سَارَت بذكرهم الرُّكبان، وسُجِّلت مآثرُهم في صفحات الزمان.

وكان منهم القادة المُحنَّكون، والفاتحون المظفَّرون، والمجاهدون المُخْلصون، ممَّن أعزَّ الله بهم الإسلام، وهدى بهم إلى دار السلام.

وكان منهم أئمة الورع، وملوكُ التُّقى، ممَّن ذلَّت لهم الدنيا بعلوِّهم عليها، وعزَّت بهم الآخرة لاسْتباقهم فيها، وتزلَّف إليهم الخلفاء والأمراء لمَّا استولوا على عروش القلوب، وهي أعزُّ مراماً وأجلُّ مقاماً، من عروش الخلافة ومقاعد الملك.

وكان منهم من يُقتل في سبيل الله، ولسان حاله يقول:

---

(١) مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد السابع عشر (١٣٦٥).

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً على أيِّ جنْبٍ كان في الله مَصْرعي
وذلك في ذات الإلهِ وإن يَشأْ يُبارك على أوْصَال شِلْوٍ مُمزَّعِ[1]

ظهور البدع والضلالات

ثمَّ استار أتباع التابعين بسيرةِ مَنْ قبلهم، في العلم والعمل، والورع والتُّقى، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، إلى أن ظهرت في حدود العشرين ومئتين بعد انقضاء القرن الثالث، ضروبٌ من البِدع والضلالات لم تكن من قبل[2]، فأطلقت المعتزلة ألسنتهم، ورفعت الفلاسفة رؤوسهم، وامتُحِنَ العلماءُ والأئمة بفتنة خلق القرآن، والخلاف في المتَشابه الذي استأثر الله بعلمه، والجَدَل في الأغلوطات[3] التي لا يَجْني المسلمون من ورائها إلا بلاءً وشراً!.

فإذا كانوا في نقصٍ من أمرهم، وضعفٍ من بنائهم، فما فتحوا للعدو من ثغور دَخَل عليهم منها، فلم يستطيعوا له منعاً، ولم يملكوا لعدوانه دفاعاً!.

وإذا كان صلاح آخر هذه الأمة بما صَلُحَ به أوَّلها، فلاَ مَنْجَاةَ لها من ورطتها إلا برجوعها إلى كتاب ربِّها، واقتدائها بهدي نبيِّها، واستِمْسَاكها بسيرة الراشدين من أسلافها.

---

(١) الأوصال: جمع وَصْل وهو العضو، والشِّلو: بالكسر الجَسَد، والممزَّع: المُفَرَّق، والبيتان لخبيب بن عدي رضي الله عنه، قالهما لمّا أجمع المشركون قتله في غزوة الرجيع بعد أن صلى ركعتين، فكان أول من سنَّ الصلاة عند القتل (طه).

(٢) حقَّق صاحب «الفتح» أنَّ بين البعثة وآخر الصحابة موتاً، وهو أبو الطفيل، مئة سنة ونيف، وأنَّ قرنَ التابعين بين السبعين والثمانين، وقرنَ تابعي التابعين نحو من خمسين، وأنَّ آخر من كان من أتباع التابعين ممَّن يقبل قوله مَنْ عاش في حدود العشرين بعد المئتين (طه).

(٣) الأغلوطة: ما يغلط به من المسائل.

ونحن لا نُنكر أنَّ أحداثاً حَدَثَت في عهد سلفنا الصالح، قد يكون لها آثارها إلى وقتنا هذا. ولا نستطيع أن نُغالطَ في حقائق التاريخ الناصعة، ولكنَّا نقول: إنها كانت ضيِّقةً محدودة، وإنما أَبعدَ شُقَّتها، وأوسع رقعتها أعداءُ الإسلام، والدُّخلاء فيه، ممَّن يكيدون له كيداً. فكان حقاً محتوماً على الخَلَف أن يستيقظوا لهذه الأحداث، وينتفعوا بعبرها، فلا يتورَّطوا في أمثالها، وهم ينقمون من أسلافها، ولا يتشدَّقوا بزُخرف القول وزُوره، وهم من الخير هواء.

أربعة مآثم

وأوصاف هؤلاء المغرورين كثيرةٌ، جاء منها في حديث عمران رضي الله عنه أربعة تكاد تكون جماع المآثم، وعنوان المخازي في الدنيا والآخرة.

يشهدون ولا يُستشهدون

فهم حُرّاص على الشَّهادة وترويجها بالحقِّ وبالباطل، لا يعنيهم أنَّ الشهادة لله بالقسط، ولكن يعنيهم اللّغط والضجيج، وإشاعة المثالب والعيوب في الناس، مُسْتعينين على ذلك بأيْمَانٍ مُحْرجة، تقدُم شهادتهم تارةً، وتعقبها تارةً أخرى. ولو أنَّهم اسْتأْنوا حتى يتراضى الخَصْمان، أو يزولَ الشَّنَآنُ، أو يُطلبَ إليهم أداء الشهادة، فيأتوا بها على وجهها، لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً.

وليس هؤلاء ممَّن عناهم النبيُّ ﷺ حين قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها» رواه مسلم عن زيد بن خالد الجهني[1]. فأكبر العلم أنه يريد شهداء الحِسْبَة، الذين يقيمون الحقوقَ العامة، أو يقصدون مُخلصين إلى إزالة المنكرات الشائعة، أو يشهدون متثبِّتين في حقٍّ جَهِلَهُ صاحبُه، أو كاد خصمُه يغلبه عليه، لأنه ألحن منه بحجته. وأين مَنْ يُحيي حقاً ممَّن ينصر باطلاً، ومَنْ يَدْرأُ فتنةً ممَّن يضرم ناراً؟.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٩).

يخونون ولا يؤتمنون

وهم خَوَنَةٌ مُغرقون في الخيانة وتلك عُمدة المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[١]. وقد فَضَحهم الله في الدنيا، فَنَزَع من القلوب الثقةَ بهم، ومن النفوس الاطمئنان إليهم، وكفاهم بذلك في الدنيا خِزْياً ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾[٢].

ينذرون ولا يفون

ثمَّ هم غَدَرَةٌ ناكثون، ينذرون للهِ ولا يُفون، ويقولون ما لا يفعلون. وهذه وليدة نفاقهم، وربيبةُ خيانتهم، وقد كانوا في حِلٍ من هذا النَّذر لو لم يُلْزموه أنفسَهم، ويُعاهدوا الله عليه. ومَنْ كذب على الله، فهو على الناس أكذب، ومَنْ غدر بعهد الله، فهو بعهد عباده أغدر.

يظهر فيهم السِّمَن

وهم منهومون لا يشبعون، أَهَمَّتهم بطونُهم، فَشَغَلتهم عمَّا خُلقوا له، وأَلْهَتْهُم عن مطالب الرُّوح، من معالي الخِلال وجَلائل الأعمال، إلى ما لذَّ وطاب، من ألوان الطعام والشراب، وحتى انتفخت أوداجهم، وثَقُلَت أجسامهم، فلا تخفّ لخير، ولا تنشطُ في هدى، وكيف، والبِطْنة تُذهب الفِطنة، و«ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»[٣]؟!!.

---

(١) سورة البقرة: ٩.

(٢) اقتباس من الآية ١٦ من سورة فصلت.

(٣) اقتباس من حديث أخرجه الترمذي (٢٣٨١)، وابن ماجَهْ (٣٣٤٩)، وابن حبان (٦٧٤) (٥٢٣٦)، والحاكم (٨٠١٥).

ولفظه عند الترمذي من حديث مقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «ماملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، بحسْب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبَه، فإن كان لا محالة، فثلث =

تَحرِّي الصحابة والتابعين في الرواية

وفي قول عمران رضي الله عنه: «فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة» دليلٌ على تحرِّي الصَّحابة والتابعين فيما يروون عن النبيِّ ﷺ، وحرصهم على الأمانة والحيطة، حتى ليروون اللفظة بصيغة الشك إن لم يستيقنوها؛ تبرؤاً من شبهة التحريف في كلام من لا ينطق عن الهوى. وقد جاء عن النعمان [بن بشير رضي الله عنهما] عند أحمد[(١)]، وعن عائشة عند مسلم[(٢)]، بغير شك.

أما بعد، فإذا كان لا يأتي يومٌ إلا والذي بعدَهْ شرٌّ منه، كما ثَبَتَ في الصحيح[(٣)]، فماذا ينظر المفرِّطون في جَنْب الله، أو القانطون من رحمة الله؟! ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[(٤)].

وماذا عليهم لو اهتدوا بهدي نبيِّهم، واتَّبعوا أحسنَ ما أُنزل إليهم من ربِّهم، وانتظموا في سِلْك الطائفة التي بَشَّر النَّبيُّ ﷺ بأنها لا تزال ظاهرة على الحق، ولا يضرُّهم مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمر الله[(٥)].

لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد ٤ :٢٦٧(١٨٣٤٨)، و ٤ :٢٧٦ (١٨٤٢٨)، (١٨٤٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٣٦).

(٣)رواه البخاري (٧٠٦٨)، والترمذي (٢٢٠٧) كلاهما من حديث الزبير عن أنس بن مالك، ولفظه عند البخاري من حديث الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشرٌّ منه، حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيِّكم ﷺ.

(٤) سورة محمد: ١٨.

(٥) اقتباس من حديث رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٩٢١)، وانظر شرحه في مجلة الأزهر، المجلد الأول، ص٢٦٨. وسيصدر بعون الله تعالى في المجموعة القادمة.

وإذا كان التاريخ يعيد نفسَه، كما يقول علماء الاجتماع، فلا يضيرُهم - كما لم يضرُّ مَنْ قبلهم - أن يكونوا في الناس غرباء، ما كانوا لله ولرسوله أولياء، «فقد بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»[١].

* * * * *

(١) اقتباس من حديث رواه مسلم (١٤٥).

مثل من اختلاف الصحابة *

١٠٩ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ لمَّا رجع من الأحزاب: «لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلاَّ في بني قُريظة»، فأدرك بعضَهم العصرُ في الطريق؛ فقال بعضهم: لا نُصلّي حتى نأتيَها، وقال بعضهم: بل نصلِّي، لم يُردْ منّا ذلك. فذُكر للنبيِّ ﷺ، فلم يعنِّف واحداً منهم.

رواه الشيخان[١].

غزوة بني قُرَيْظة

كان بنو قُرَيْظة أشدَّ اليهود عداوةً للرسول ﷺ، فلمَّا رجع عليه الصلاة والسلام من غزوة الأحزاب ـ أواخر سنة خمس ـ أوحى الله إليه أن يقاتلهم تأديباً لهم؛ إذ خانوا الله والرسول، ومالؤوا المشركين حين قدموا لقتال المسلمين. فما وسعه، وقد أُمر بغزوهم من فوره، إلا أن استحثَّ أصحابه، ونادى فيهم ألاَّ يصلُّوا العصر إلاّ في بني قريظة، فخفُّوا سِراعاً لامتثال أمره على ما هم فيه من جَهدٍ ومشقّة، حتى إذا أدركهم العصر في الطريق، تخوَّف ناسٌ منهم فواتَ الوقت، فصلَّوا عند غروب الشمس دون بني قريظة، وتخوَّف ناسٌ فوْتَ الأمر، فقالوا: لا نُصلّي إلاّ حيثُ أمرنا رسول الله ﷺ، فلم يصلُّوها إلاّ بعد عشاء الآخرة. فلمّا أدركهم رسول الله ﷺ ـ وكان على أَثَرهم ـ ذكروا صنيعهم له،

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الخامس عشر، (١٣٦٣).

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦) في صلاة الخوف واللفظ له، ومسلم (١٧٧٠) في الجهاد والسِّير، وروايته فيها ذكر صلاة الظهر بدلاً من صلاة العصر.

فلم يعب واحداً منهم.

ولا يعنينا هنا أن نفصِّل خبر هذه الغزوة وأسبابَها ونتائجها؛ فإن ذلك مما تكفّلت به كُتبُ السيرة والشمائل. وقد كتب فيها مدير هذه المجلة فصلاً ممتعاً، شرح فيه وجهة الإسلام في القسوة، التي لا محيد عنها عند الضرورة القصوى[1].

الاختلاف البريء المحمود

ولا يعنينا كذلك أن نرجِّح جانب الذين أخَّروا الصلاة؛ لأنَّهم كانوا جدّ حريصين على النص وحرفيَّته، فتركوا التأويل، ولم يبالوا خروج الوقت ماداموا سامعين مطيعين لوليٍّ الأمر وصاحب الشَّرع ﷺ، أو أن نُرجِّح جانب الذين صلَّوا؛ لأنهم حازوا قَصَب السَّبْق، وكانوا أسعدَ بالفضيلتين؛ إذْ بادروا إلى الصلاة في وقتها، كما بادروا إلى امتثال الأمر بالخروج[2]، وكانوا بتأويلهم أفقَه بدين الله، وأفهمَ لمراد رسول الله ﷺ، وأشدَّ محافظة على الصلاة الوسطى ـ صلاة العصر ـ تلك التي مَنْ فاتته فكأنَّما وُتر أهله وماله[3].

وسواءٌ علينا بعد هذا أكانت الصلاة عصراً كما روى البخاري، أم كانت

(١) انظر: مجلة الأزهر، المجلد الثاني عشر، ص ١٣٩ (طه).

(٢) قال الإمام الحجة البصير أبو القاسم السُّهيلي رحمه الله في «الروض الأُنُف» ٣ :٢٨٢ وهو يتكلم عن هذا الحديث: «كلُّ مجتهد وافق اجتهاده وجهاً من التأويل، وكان عنده من أدوات الاجتهاد ما يترفَّع به عن حضيض التقليد إلى هضبة النظر: فهو مصيب في اجتهاده، مصيبٌ للحكم الذي تعبَّد به، وإن تعبَّد غيره في تلك النازلة بعينها بخلاف ما تعبَّد هو به، فلا بُعْدَ في ذلك، إلا على من لا يعرف الحقائق، أو عَدَلَ به الهوى عن أوضح الطرائق».

(٣) كما روى الشيخان [البخاري (٥٥٢). مسلم (٦٢٦)] وغيرهما. والوتر: النقص والسَّلْب، فكأنه جعل وتراً بعد أن كان كثيراً (طه).

ظهراً كما روى مسلم[١].

وإنما الذي نقصد إليه من هذا الحديث وأمثاله، أن نقف وقفةَ خشوع وإكبارٍ أمام عظمة هذا الدين الحنيف، ورحابةِ صدره لمثل ذلك الاختلاف البريء المحمود، الناطق بيُسْره وسماحته، وأنه وحدَه الدين العام الخالد، الصَّالح لكلِّ زمانٍ ومكان، إلى أن تُبدَّلَ الأرض غير الأرض والسموات.

قانون عام شامل

الله أكبر! يختلف الصَّحابة رضوان الله عليهم بين يدي رسول الله ﷺ، فيؤيِّدهم ويُثني عليهم؛ لأنهم إلى الحقِّ يقصدون، وفي سبيل الحقِّ يجتهدون، لا يُفَرِّطُون ولا يُفرِطُون[٢].

«**من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر**»[٣]، قانون عامٌّ وشامل فيما يقبل الاجتهاد من مسائل الدين، يضعه مَنْ لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه لعلماء أمته المُسْتنبطين من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. وهو من خصائص هذه الشريعة

---

(١) وسبيل التوفيق بين الروايتين: أنَّ الأمر كان بعد دخول وقت الظهر، وقد صلاه بعضهم دون بعض، فقيل للذين صلّوه: لا تُصلُّوا العصر إلا في بني قريظة، وللذين لم يصلُّوه: لا تصلُّوا الظهر... إلخ، أو قيل للذين ذهبوا أولاً: لا تصلّوا الظهر، وللذين ذهبوا بعدهم: لا تصلُّوا العصر (طه).

(٢) يُفَرِّطون: من فرَّط في الشيء، أي: قصَّر فيه وضيَّعه حتى فات. قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. ويُفْرِطون: من أفرط، أي: تجاوز الحد.

(٣) اقتباس من حديث رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤) من حديث عمرو بن العاص. ورواه الترمذي (١٣٢٦)، والنسائي (٥٣٨١) من حديث أبي هريرة. ولفظه عند البخاري عن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهَد، ثم أخطأ فله أجر».

الغرَّاء التي بُعث بها خاتم الأنبياء.

سيرة السَّلف في الاختلاف

على هذا المنهج الواضح المُسْتبين سار سلفُنا الصالح رضي الله عنهم، لا يُحَجِّرون من رحمة الله واسعاً، ولا يحيدون عن الحقِّ تنطُّعاً، ولا يحملون الناس على مَسْلَكٍ واحد إذا كانت لهم مندوحةٌ عنه، في نصٍّ صريح، أو فهمٍ صحيح، أُوتيَهُ رجلٌ لا يُتَّهم في دينه، ولا يألو جهداً في فقهه وتبيينه.

ساروا على هذا المنهج حتى خَلَف من بعدهم خَلْفٌ، اتَّخذوا الجدال حِرفة ودليلاً، والتعصُّب للرأي والهوى خِطَّةً وسبيلاً! ولا تَسَلْ عمَّا كان من فتن وبلاء، وحروبٍ تسيل فيها الدماء، على قشورٍ من المسائل ليست بذوات بال!.

أثر التعصُّب للرأي والهوى

ثمَّ كان من آثار هذا الخلاف البغيض المَقيت، أن تقطَّع المسلمون أحزاباً وشيعاً، دَرَسَت بينهم معالمُ السنة، وحَمِست[1] بينهم ملاحم البدعة، حتى صار القُبح حُسْناً، والمنكر عُرفاً. ولولا طائفةٌ لا تزال على الحق ... لكانت الحالقة!.

وأثرٌ آخر له خطره ومغبَّته، وهو: الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ ولن يضلَّ من تمسَّك بهما ـ إلى التمسُّك بالآراء، والجمود على أقوال المتعصِّبين من الفقهاء[2].

ومن أجل ذلك ينادي بعض أهل العلم في فترات متقطِّعة، بحمل الكافَّة

---

(١) حَمِس: صلب واشتد.

(٢) إلا إن كانوا من أئمة العلم والهدى، فالتمسُّك بآرائهم، والتعلُّق بهم تعلُّق بالعلم والهدى، لأن آراءهم وأقوالهم مبنيَّة على أدلة الشريعة، وفهمهم للنصوص أولى من فهم الطاعنين فيهم.

على مذهبٍ واحدٍ لا مَعْدَى عنه، ولا محيصَ منه؛ لمَّاً للشَّعْث، وخيفة على البقية![1].

الخلاف ضروبٌ شتَّى

ولئن كنا نعذُر هؤلاء فيما ذهبوا إليه، لَنُنَبِّئَنَّهُم أنَّ الخلاف على ضُروبٍ شتَّى.

فما كان في أصول الدين، كالإيمان باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسلِهِ واليوم الآخر، فذلك كفرٌ ونكال[2].

وما كان في قواعده، وأحكامه، ممَّا ظهرت فيه الحُجَّة، وَوَضَحت فيه المَحَجَّة، فذلك زَيْغٌ وضلال[3]. وكلاهما تفريقٌ في الدين، وتمزيقٌ لوحدة المؤمنين.

وما كان في الفروع التي تحتمل غيرَ وجْهٍ واحد، فذلك الذي وقع في عهد الرسول ﷺ وصحابته، وخير القرون من أمته.

ولا يكاد هذا الخلاف يعدو ـ في صحيح النظر ـ دائرة الفاضل والمفضول،

---

(١) لا يقرُّ المؤلف هذه الدعوى بدليلٍ سابقِ كلامه ولاحقه، وهذه الدعوى مرفوضة مَنْبوذة، وهذا السَّعيُ في توحيد المذاهب مُخالفٌ لإرادة الله في تشريعه، ولرسوله ﷺ، وللصحابة رضي الله عنهم، وللسلف من بعدهم، ومخالف للعقل. انظر تفصيل ذلك في «أدب الإختلاف في مسائل العلم والدين» ص٢٢ـ٢٤ لشيخنا المحقق الأستاذ محمد عوامة.

(٢) وأما ما كان في فروعه، من جزئيات المغيَّبات، كرؤية النبي ﷺ للهِ عزوجل ليلة المعراج، فهذا ممَّا جرى فيه الخلاف، فأثبتها ابن عباس، وأنكرتها السيدة عائشة رضي الله عنهم. وأنكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أن الميِّت يُعذَّب ببكاء أهله عليه، وأثبته غيرها من الصحابة. وانظر كلام الشيخ الإمام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ١٢ :٤٩٢ و ٢٠ :٣٣.

(٣) كالاختلاف الذي نشأ من القدرية والخوارج والرافضة..وسائر فرق الإسلام، الذين انشقوا بخلافاتهم هذه عن منهج أهل السنة والجماعة.

والجائز والمكروه، ممَّا لا يدعو ـ عند الإنصاف ـ إلى خصام أو نزاع.

وقد أجمع سَلَفُ الأمة وخلفها على أنه لا يُعابُ من ترك المندوب إلى المباح، كما أجمعوا على أنه لا يعابُ المجتهد إذا أخطأ في الاجتهاد، فكيف تُشقُّ عصا الطاعة، وتمزّق وحدةُ الجماعة في هذه المسائل الهيِّنات؟[١].

ويذهب صاحب «الميزان»[٢] في كلام طويل إلى أنه لا خلاف في الشريعة الغرَّاء البتة، وإنما هي مراتب ترجع في جملتها إلى الرخصة والعزيمة، والتخفيف والتَّشديد، وأنَّ المُخَاطَبَ بالأُولى هم الضعفاء والعاجزون، والمُخَاطب بالثانية هم الأقوياء والقادرون؛ ولكنَّ الناس ليسوا بمنزلة سواء.

الحكمة في اختلاف الفروع

والذي يبدو لنا أنَّ مثل هذا الخلاف ـ كما قال ابن تيمية ـ كمثل الخلاف في القراءات، كلُّها جائز، وإن كان فريق من الناس يختار بعضها دون بعض، وأنه خلافٌ ينفع ولا يضر، فقد أمر رسول الله ﷺ كلاً من القرَّاء أن يقرأ كما يعلم، وحذَّرهم جميعاً أن يقعوا في هاوية الاختلاف، فيهلكوا كما هَلَكَ الذين من قبلهم[٣].

---

(١) ضربنا عن ذكر الأمثلة صفحاً؛ لأنها كثيرة معروفة في كُتُب الأئمة. وانظر «إعلام الموقعين»، و«حجّة الله البالغة»، و«رسالة ابن تيمية في اجتهاد الصحابة والتابعين» (طه).

(٢) للعلامة الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، المتوفى سنة ٩٧٣ رحمه الله تعالى في الفصول الأولى من كتابه «الميزان الكبرى» طبعة المطبعة الكستلية سنة ١٢٧٩هـ.

(٣) روى البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن عن عبد الله بن مسعود أنه سمع رجلاً يقرأ آيةً سمع النبيَّ ﷺ قرأ خلافها. قال: فأخذت بيده، فانطلقت به إلى النبيِّ ﷺ، فقال: كلاكُما محسن فاقرآ. أكبر علمي قال: فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم.

وروى الحاكم في «مستدركه» ٢: ٢٢٣ في كتاب التفسير، وصحَّحه الذهبي عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ سورة حم. ورحت إلى المسجد عشية، فجلس إليَّ رهط.

=

ومن الحُمق والخفَّة أن تُفرَّق الكلمة ويشتدَّ الخصام في جزئيَّات يسيرة جعل الله التوسعة فيها؛ يُسراً في الدين، ورحمةً للمسلمين[١].

ولو أنَّ هذه الأمة حُملت على طريقة واحدة في فروع الدين ولطائفه، لحَرِجَ صدرُها وضاق ذَرْعُها، ولذاقت عذابَ الإصْر الذي حمله الله على الأمم التي قبلها، ولو أنهم حُمِلوا ـ في أصول الدين وقواعده ـ على طرائق شتَّى لكان البلاء أعظم، والمصاب أعمّ، فسبحان مَنْ جلَّت حكمته، وَوَسِعَت كلَّ شيء رحمته!.

واجبُ العلماء والعامة

وبعد؛ فحقٌّ على العلماء أن يرجعوا بالناس إلى الفقه النبويِّ، في كنوز السلف الصالح، وأن يبيِّنوا لهم عند الحاجة مدى هذا الخلاف وحكمته، وكيف كان اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإنَّه ـ لَعَمْرُ الحق ـ خيرٌ من اتفاقنا،

فقلت لرجل من الرهط: اقرأ عليَّ، فإذا هو يقرأ حروفاً لا أقرؤها. فقلت له: مَنْ أقرأكها؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ. فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ، وإذا عنده رجل، فقلت له: اختلفنا في قراءتنا، فإذا وجه رسول الله ﷺ تغيَّر، ووجد في نفسه حين ذكرت له الاختلاف، فقال: «إنما أهلك من قبلكم الاختلاف». ثمَّ أسرَّ إلي عليٌّ. فقال عليٌّ: إنَّ رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كلُّ رجلٍ منكم كما عُلِّم، فانطلقنا وكلُّ رجلٍ منا يقرأ حروفاً لا يقرؤها صاحبه.

(١) اشتهر هذا الحديث على الألسنة: «اختلاف أمتي رحمة» ورواياته كلّها ضعيفة، والظاهر أنه صحيح المعنى في الجملة، ويُروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول: ما سرَّني لو أنَّ أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة. وعن بعض السلف آثارٌ في هذا المعنى. انظر: «كشف الخفاء» (طه).

وينظر أيضاً «المقاصد الحسنة»، و«الجامع الصغير» وشرحه، وغيرها كثير. وينظر كلام الإمام الخطابي رحمه الله تعالى في «أعلام الحديث» ١ :٢١٩_٢٢١، فهو مما يُستفاد، ولو لا طوله لنقلته، فلينظر.

وذلك خيرٌ وأجدى من حمل الناس على مذهب واحد، هيهات أن يتفقوا عليه، ثم هيهات هيهات أن يهدوا العامة إليه.

موقف الإمام مالك من تيار توحيد المذاهب وحمل الناس على اجتهادٍ واحدٍ أو اجتهادِ واحدٍ

وَرَحِمَ الله مالكاً! لقد كان أبعدَ نظراً وأسدَّ رأياً، وأكثر توفيقاً، حينما فاوضه الرشيد والمنصور؛ وعزم أبو جعفر على أن ينسخ نُسَخاً من «الموطأ»، ثم يبعث إلى كلِّ مصر من أمصار المسلمين بنسخة، فيأمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدَّونها إلى غيرها، وأن يَدَعوا ما سِوَاها، فقال له مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فإنَّ الناس قد سبَقَت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كلٌ قوم بما سبق لهم، وعملوا به، ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وأصبح ردُّهم عمَّا هم عليه شديداً، فدع الناس وما اختاروا لأنفسهم. فقال: لَعَمْري لو طاوعتني على ذلك لأمرتُ به[١].

ثم شاوره هارون الرشيد في أن يعلِّق «الموطأ» في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، فقال: يا أمير المؤمنين: إنَّ اختلاف العلماء رحمةٌ من الله تعالى على هذه الأمة، كلٌ يتَّبع ما صحَّ عنده، وكلٌ على هدى، وكلٌ يريد الله تعالى. فقال: وفّقك الله يا أبا عبد الله[٢].

ثم حقٌّ على العامة ألاّ يأخذوا دينهم إلا عمَّن يُوثَق به[٣]، ممَّن يدعو إلى

---

(١) طبقات ابن سعد ص٤٤٠ في القسم المُتمِّم، عن شيخه الواقدي ـ وهو كما قال الذهبيُّ في «السِّير» ٧ :١٤٢: «وإن كان لا نزاع في ضعفه فهو صادق اللسان، كبير القدر»ـ.

(٢) الرواة عن مالك، للخطيب البغدادي كما في «كشف الخفاء» للعجلوني ١: ٦٥ (١٥٣).

(٣) انظر أوصاف هؤلاء في «أدب الاختلاف» للعلامة المحقِّق الشيخ محمد عوامة ص٤٨ـ٥٩.

الله على بصيرة، ولْيسمعوا لهم ويطيعوا إنْ أرادوا لأنفسهم الخير والسعادة، ولْيعلموا أنَّ العلماء في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، يهتدي بهم الحَيْران في الظَّلْماء[1]، وأنَّ الحاجة إليهم أشدُّ من الحاجة إلى الطعام والشراب، وإطاعة أمرهم فريضةٌ من الله بنصِّ الكتاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2].

* * * * *

---

(١) اقتباس من حديث أخرجه أحمد في «مسنده» ٣: ١٥٧ (١٢٦٠٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» ٢ : ٧٠ عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبيُّ: «إنَّ مثَل العلماء في الأرض، كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، فإذا انْطَمَست النُّجوم، أوْشَكَ أن تضِلَّ الهُداة» والحديث إسناده ضعيف.

قال الحافظ ابن رجب في «شرح حديث أبي الدرداء» ص٣٩: «فالعلماء بما أنزل الله على رسوله هم الأدلاَّء، والذين يُهتدى بهم في ظلمات الجهل والشُّبه والضلال، فإذا فُقِدوا، ضلَّ السالك.

وقد شبَّه العلماء بالنجوم. والنجوم فيها ثلاث فوائد: يُهتدى بها في الظلمات، وهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين الذين يَسْترقون السمع منها. والعلماء في الأرض يجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة: بهم يُهتدى في الظلمات، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحقَّ بالباطل، ويدخلون في الدين ما ليس منه من أهل الأهواء.

(٢) سورة النساء: ٥٩. وأولو الأمر ـ كما قال ابن عباس ـ: أهل الفقه والدين، الذين يعلِّمون الناس معاني دينهم. أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم في «المستدرك» ١ : ٢٣.

خُصُومَةُ الأكَابِر *

ـ١ـ

١١٠ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبيِّ ﷺ إذ أقبل أبو بكرٍ آخذاً بطرَف ثوبه حتى أبدَى عن رُكبَتِه؛ فقال النبيُّ ﷺ: «أمَّا صاحبُكم فقد غامَرَ». فسلَّم وقال: يا رسولَ الله، إنه كان بيني وبين ابن الخطَّاب شيءٌ، فأسرعت إليه، ثم ندمتُ، فسألتُه أن يَغفرَ لي فأبى عليَّ! فأقبلتُ إليك. فقال: «يغفر اللهُ لك يا أبا بكر»! ثلاثاً.

ثم إنَّ عمرَ ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبيِّ ﷺ فسلَّم عليه، فجعل وَجْهُ النبيِّ ﷺ يتمَعَّرُ! حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، أنا كنت أظلمَ! مرتين.

فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ! وقال أبو بكر: صَدَقَ! وواساني بنفسه وماله؛ فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!» مرتين، فما أُوذي بعدها. رواه البخاري[1].

المفردات:

غامر: دخل في غَمْرة الخصومة، والمغامر: هو الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم، وأصل الغَمْرة: الماء الكثير.

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الخامس والعشرون (١٣٧٣ = ١٩٥٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦١) في فضائل الصحابة، و(٤٦٤٠) في التفسير.

يتمعَّر: يتغيَّر وتذهب نَضَارته من أجل الغضب، والظاهر أنه من قولهم: مكان أَمْعَر، إذا لم يكن به خِصْب؛ وفي نسخةٍ: يتمغر: أي يحمر، كأنه صبغ بالمغرة.

واساني: وفي رواية: آساني بالهمز، وهي الأصل، وعليها يقتصر بعض أهل اللغة. والحديثُ حُجَّةٌ عليه. والمواساة: المعاونة.

تاركو لي صاحبي: بحذف نون الإضافة، وفي رواية بإثباتها وهي الأصل، ولذا قال أبو البقاء: إنَّ الحذف من خطأ الرواة[1]، أفلا يبلغ رواة البخاري عنده مَبْلغ رواة النحاة؟! مع أنَّ لمثل هذا الحذف بين المضافين في العربية وَجْهاً وجيهاً وشاهداً[2].

الخصومة من طبيعة البشر

الخصومة من طبيعة البشر في هذه الحياة الدنيا، لا مَعدى لهم عنها، ولا محيص لهم منها، ما داموا يختلفون ويَتَجادلون: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[3]، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[4].

---

(١) إعراب الحديث النبوي ص٢٩١ لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكبري المتوفى سنة ٦١٦.

(٢) قال محقق «إعراب الحديث»: ذهب البصريُّون إلى أنه لا يفصل بين المضاف والمضاف إليه إلا في الشعر. وأجاز الكوفيُّون الفصل في بعض الحالات، ومنها إذا كان المضاف وصفاً، والفاصل بين المضاف والمضاف إليه ظرفه كما في هذا الحديث. ينظر: الأشموني ٢ :٣٢٧، وهمع الهوامع ٢ :٥٢.

(٣) سورة هود: ١١٨ـ ١١٩. ومعنى الآية كما في تفسيري «المرشد الوجيز» ـ يسَّر الله طباعته ـ: «ولو شاء ربُّك لسلب الناس إرادتهم الحرة، فجعلهم مجبورين، وحينئذ يجعلهم أمةً واحدة مفطورة على الهداية، وبما أن الله سبحانه جعل الناس ذوي إرادات حرة، فإنهم لا يزالون مختلفين. ومن مظاهر اختلافهم: أن يريد بعضهُم الإيمان، وبعضهم الكفر، لكن من يختار الإيمان بصدقٍ وإرادة جازمة، يشرح صدره للإسلام برحمته ومعونته له».

(٤) سورة الكهف: ٥٤.

بَيْد أنها تختلف قوَّةً وضعفاً، ورفقاً وعُنفاً، وقَصْداً وَسَرَفاً، تَبَعاً لاختلاف الطبائع والميول، والآراء والعقول، وكِبَرِ النفوس وصِغَرِها، وعُلوِّ الهمم وسِفَلِها.

موقف الإسلام من الخصومة

ولا يؤاخذ الإسلام أحداً باختلاف وخصومة في سبيل الحقِّ والجهاد فيه والعمل له، ما دام سليم القصد حَسَن الطويَّة، نزَّاعاً إلى الخير، ولو أخطأ ـ في بعض أحيانه ـ قَصْدَ السبيل، بل ربما يدعو الإسلام إلى الهجرة ـ وهي توأم الخصومة ـ إذا كانت سبيلاً إلى التربية والتأديب.

وفي هجرته ﷺ نساءه شهراً أبلغ حُجَّة وأبْيَن دليل.

كما لا يُؤاخذ الإسلام أحداً كذلك بالنزغة ينزغها الشيطان في مخاصمته لأخيه، إذا استغفره أو استغفر الله له، معترفاً بذنبه، عائذاً من الشيطان بربِّه، غير مُصِرٍّ على ما فعل، ولا مجادل في الحقِّ بعد ما تبيَّن.

على هذا النحو من النُّبل في الخصومة ـ إن لم يكن بدٌّ منها ـ كانت خصومة أصحاب رسول الله ﷺ فيما شَجَر بينهم، وعليه تكون خصومة الذين جاؤوا من بعدهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

أنبَلُ خصومة عَرَفها التاريخ

وفي هذا الحديث مَثَلٌ من أَرْوَع الأمثال في شَرَف الخصومة ونُبلها، يضربه لنا الصِّدِّيق والفاروق بين يدي الرسول الأكرم ﷺ، فنرى فيه من أعاجيب الفَضْل والنُّبل والسُّؤدد، ثمَّ من أساليب التربية والتزكية والتعليم، ثمَّ من

---

(١) سورة الحشر: ١٠.

الاعتراف بالجميل لأهله، ما يجلُّ عن وصف الواصفين.

كان بين الصَّاحِبَيْن الكريمَيْن رضوان الله عليهما محاورةٌ ومعاتبة، أسرع فيها الصديق إلى الفاروق، فأغضبه..

انصرف عمرُ غَضْبانَ أسِفاً! واتَّبعه أبو بكر نادماً معتذراً! يسأله أن يتقبَّل عذره فلم يقبل، ويتوسَّل إليه أن يغفر له فلم يفعل، بل تحرَّز بعد الفرار منه بداره، وأغلق بابه في وجهه! إنها لكبيرةٌ، وسابقةٌ جِدُّ خطيرة، ليس لها أن تُرفع، إلا إلى الشفيع المُشَفَّع صلوات الله وسلامه عليه ...

أقبل رضوان الله عليه، والرسول ﷺ ينظر إليه، وقد كشف عن ركبته، وأخذ من ثوبه بحاشيته، حتى سَلَّم وجلس، وقصَّ ما كان بينه وبين صاحبه لم يظلم منه شيئاً، وما أن فرغ من شكَاته، حتى طَمْأنه الرسول الكريم بدعوته: أن يغفر الله له، ثلاث مرار يكررها ...

شذرة من مناقب العُمَرَيْن

كان الفاروق رضي الله عنه في هذه الأثناء راجعَ نفسَه فَندم على ما كان منه لأحبِّ الناس إليه بعد رسول الله ﷺ، فَلْيُسْرِع إذاً إلى بيته ليغفر له ويتقبَّل معذرته، بل ليستغفره ويعتذر له! فلمَّا لم يجده بمنزله أسرع إلى النبيِّ ﷺ.. وَمِنْ خير المربِّين تلقَّى درساً شديداً قاسياً، غير أنه كان عظيمَ النفع، حميدَ العاقبة.

لم يكن درساً لعمر وحده، بل كان درساً للأمة كلِّها في شخص عمر، ذلك الذي أعزَّ الله به الإسلام، وفرَّق به بين الحق والباطل، وأعدَّه لأمر عظيم هو أحق به وأهله، بعد أفضل الناس وأحبِّهم إلى رسوله وأَوْلاهم به، ذلكم ثاني اثنين الله ثالثهما، ذلكم الصِّدِّيق أبو بكر رضي الله عنه.

فضل الصِّدِّيق على الفاروق

فليجلس عمر إذاً من رسول الله ﷺ مجلس التلميذ من معلِّمه، ولا بأس

إذاً بأن يُعرض عنه صلوات الله وسلامه عليه مراراً؛ لأنه كان صاحبَ حقٍّ فأضاعه، وصار مديناً، وليذكر ـ إنْ كان نسي ـ مَنْ هو أبو بكر؟! صاحب الأيادي البيضاء التي ذكرها أعرف الناس للصنيعة، وأذكرهم لها صلوات الله عليه وسلامه، فقال فيما قال من فضائله التي لم يشرك فيها أحداً غيره: «إنَّ من أمنِّ الناس في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت مُتَّخذاً خليلاً غير ربي لاتَّخذت أبا بكر خليلا؛ ولكن أخوَّة الإسلام ومودَّته، لا يبقينَّ في المسجد باب إلاَّ سُدَّ، إلاَّ بابُ أبي بكر»[1].

وقال: «ما لأحد عندنا يد إلاَّ وقد كافأناه بها ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر»[2].

درسٌ نبويٌّ عظيم

وبَيْنا النبيُّ ﷺ يؤنِّب عمر ويعتب عليه أن لم يقبل عذر أبي بكر، ولم يغفر له بعد أن استغفره، وكان الظنُّ به ألاَّ يحوجه إلى اعتذار أو استغفار. أشفق أبو بكر على عمر أن يناله من رسول الله ﷺ ما يكره، فيبرك على ركبتيه معتذراً آسفاً، ويقسم للنبيِّ ﷺ مرتين أنه كان أظلم؛ لأنه هو الذي بدأ صاحبَه بالإساءة!.

وهنا يكفُّ النبيُّ ﷺ عن تأنيب عمر وتوبيخه، ثم يذكر بعض مآثر أبي بكر ومناقبه وسَبْقه إلى التصديق برسالته، ومواساته له بنفسه وماله، ثم يختم حديثه عن أَولى الناس به من صحابته بهذه الكلمة المدوِّية الجامعة: «فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!» ويُكرِّرها مرتين أو ثلاثاً كما في بعض الروايات، تلك الكلمة التي كانت فَصْل الخطاب، في فضل مقدَّم الأصحاب، فلم ينله من الصحابة رضوان الله عليهم مكروه بعدها.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦١).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٦٢)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

درسٌ إلهيٌّ أجلُّ وأعظم

وإذا أثمرت هذه الخصومة الكريمة بين العُمَرين ذلك الدرس النبوي العظيم، فثمَّة درسٌ إلهيٌّ أجلُّ وأعظم، لا يعنينا أن كان لاحقاً أو سابقاً، ولكن يعنينا أنه تأديبٌ ربَّانيٌّ للناس كافَّة، ولأُولي الأمر منهم خاصَّة، وفي مقدَّمتهم الإمامان الخيِّران: أبو بكر وعمر.

ففي صحيح البخاري وغيره أنه لما قدم على النبيِّ ﷺ ركبٌ من بني تميم، قال له أبو بكر رضي الله عنه: أمِّر عليهم القَعْقَاع بنَ مَعْبَد؛ وقال عمر رضي الله عنه: بل أمِّر الأقْرَعَ بنَ حابس، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلاَّ خلافي، وقال عمر: ما أردتُ خلافك. فَتَمَاريَا حتى ارتفعَتْ أصواتُهما، ونزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾[١] فما كانا يكلِّمان رسول الله ﷺ بعد ذلك إلا سراراً[٢].

اختصما في الخير والمصلحة للأمة، ولكنَّهما افتاتا على رسول الله ﷺ، إذ لم يكن استشارهما، ثم عَزَب عنهما أنَّ مجلسه أجلُّ وأرفع من أن يكون فيه تنازعٌ أو صَخَبٌ، وهما الأسوة الحسنة بعد رسول الله ﷺ، فكان في هذه الآيات التأديب الإلهي الرائع، الذي يملأ النفوس إجلالاً وإكباراً للرسول الأكرم، وينقِّي المراجعة أو المجادلة ممَّا يشوبُها من كَدَر الخصومة ولجَاجها.

شعار الخيِّرَيْن بعد الدَّرسَيْن

وكذلك كان هذا الأدبُ الرفيع شعارَهما فيما يختلفان فيه بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهما يُقلِّبان وجوهَ الرأي، لا وجْهَة لهما إلا

---

(١) سورة الحجرات: ١ ـ ٣.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦٧) و(٧٣٠٢)، والترمذي (٣٢٦٦)، والنسائي في الصغرى (٦٣٨٦)، والكبرى (٥٩٣٦) و (١١٥١٤)، وأبو يعلى (٦٨١٦).

الخير والمصلحة، وسرعان ما يتَّفقان على ما هو أهدى سبيلاً.

ومن ذلك اختلافهما في قتال مانعي الزكاة، وكان رأي أبي بكر أن يأخذهم بالسيف حتى يؤدُّوها كاملة، ورأي عمر مسالمتهم وتألُّفهم خشيةَ أن يكون القتال نكبةً على الإسلام والمسلمين! ولكن عزم الصِّدِّيق وهو الرفيق اللين، غَلَب سِلْم الفاروق وهو المقْدام الصِّنديد!.

ومن ذلك اختلافهما في جمع القرآن كما أشار عمر، وتَحَرَّجَ أبو بكر أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، فلم يزل يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر للذي شرح له صدر عمر.

هذا مثلٌ من أمثال كثيرة في خُصومة أُولي الفَضْل والنُّبل، ينادينا ألاَّ تلغوا ولا تخاصموا، فإن لم يكن بدٌّ من لغو أو خصام، فَحَسْبكم أن تمرُّوا عليه مرور الكرام.

* * * * *

خصومة الأكابر *

ـ٢ـ

١١١ـ عن عروةَ بن الزُّبَير قال: «كان عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَير أحَبَّ البَشر إلى عائشة رضي الله عنها، بعد النبيِّ ﷺ وأبي بكر، وكان أبرَّ الناس بها، وكانت لا تمسك شيئاً ممَّا جاءها من رزق الله تصدَّقتْ. فقال ابن الزبير: ينبغي أن يُؤْخذ على يديها. فقالت: أَيُؤْخَذُ على يديَّ؟! عليَّ نذرٌ إنْ كلمتُه. فاستَشْفَعَ إليها برجالٍ من قريش، وبأخوال رسول الله ﷺ خاصَّةً، فامتنعت، فقال له الزُّهريُّون أخوالُ النبيِّ ﷺ ـ منهم عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يَغُوث، والمِسْوَرُ بن مَخْرمة ـ: إذا استأذنَّا فاقْتَحِمِ الحجاب، ففعل، فأرسل إليها بعشر رقابٍ، فأعتقتهم. ثم لم تزل تُعتِقُهم حتى بلغت أربعين، فقالت: وَدِدتُ لو أني جعلت ـ حين حلفت ـ عملاً أعمله فأفرغ منه». رواه البخاري(١).

خصومة من طراز آخر

سقنا حديث الجزء الماضي ـ مكتفين به ـ شاهداً عدلاً على أنبل خصومة عرفها التاريخ. ثُمَّ بدا لنا في آخر الأمر أن نسوق حديث هذا الجزء شاهداً من

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد الخامس والعشرون (١٣٧٣).

(١) رواه البخاري (٣٥٠٥) في باب مناقب قريش من أوائل كتاب المناقب، ورواه مطَّولاً برقم (٦٠٧٣)، (٦٠٧٤)، (٦٠٧٥) في باب الهجرة من أواسط كتاب الأدب، وفي الرواية المطوَّلة تفصيل لكثيرٍ ممَّا أُجْمل في هذه الرواية المختصرة، استعنَّا به في الشرح (طه).

طراز آخر، يختلف عن سابقه بأنه مسَّ رابطة الصحبة وجلالها، ويختلف هو عن سابقه بأنه أثار عاطفة الرحم ودلالها؛ ثم يختصُّ هذا بألطف الحِيَل وأشرف الوسائل إلى بلوغ المثل الأعلى في صلة الرَّحم، وتَرْضية الأم، على حين يتَّفق الشاهدان كلاهما في أصالة النُّبل والفضل، وجلالة العِبَر والذكرى!.

شَذْرةٌ من حياة الصِّدِّيق

كان أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ودوداً كريماً، وفيًّا أبيًّا، فَطِناً ذكيًّا، لا يَبلغ أحدٌ مبلغه من مكارم الأخلاق، حاشا من بُعث ليتمِّمها صلوات الله وسلامه عليه؛ وكان إلى ذلك مرهف الوجدان، رقيق الحسِّ، ومن هنا كانت تعتريه ـ إذا مسَّ أحدٌ عقيدته أو مروءته ـ حدَّة ربَّما غلبت على حزمه وعزمه، وهما من نفسه الأبيَّة في حِصْنٍ حصين؛ وقد لخَّص ترجمته ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما في كلمة جامعة فقال: «كان أبو بكر خيراً كله على حِدَّةٍ كانت فيه»[1].

وأيم الله إنها لفَوْرة الحق، وغَضْبة الإيمان والصِّدق، وإنها لفضيلةٌ من فضائله، وإنْ عابَها هو من نفسه الكريمة رضوان الله عليه، وكذلك كانت ابنته الصِّدِّيقة رضي الله عنها.

من صفات عائشة رضي الله عنها

ورثت عنه كثيراً من مكارمه، كما ورثت عنه حدَّته التي كانت تعتريه، إلى جانب ما ورثت من مكارم النبوَّة من شمائل وفضائل جعلتها بالمنزلة التي لا تُسامى عند خاتم النبيِّين[2].

---

(١) أبو بكر الصِّدِّيق، لعلي الطنطاوي، ص٢١٠.

(٢) قال الذهبي في «السير» ٢: ١٤٢: وأحبَّها حباً شديداً كان يتظاهرُ به، بحيث أن عمرو بن العاص، وهو ممَّن أسلم سنة ثمان من الهجرة، سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ الناس أحبُّ =

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه يغفر لها حدَّتها، ويحميها من أبيها إذا همَّ بها، وقد بَدَرت منها بادرة تَسْتوجب المُؤاخذة والتأنيب.

وكان من أبرز صفاتها رضي الله عنها: كَـرَمٌ وجـود، وإنفـاقٌ في سـبيل الله تعالى والرَّحِمِ لا يُبقي على شيءٍ، وحَسْبُكَ أنها ابنة الصِّدِّيق، أجْوَدُ الناس بعد زوجها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

شَذْرةٌ من حياة ابن الزبير

وكان عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما ـ أحد العبادلة، وأحد الشُّجعان من الصحابة، وأحد مَنْ وَلِيَ الخلافة ـ أحبَّ الناس قاطبة إلى خالته عائشة بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، كانت أشدَّ حباً له من أبويه، وأقرب الناس إليه، ومن آيات هذا الحب: أنه لما أُخذ من وسط القتلى يوم الجمل ـ وفيه بضع وأربعون جراحة ـ أدَّت إلى البشير الذي بشَّرها بأنه لم يمت عشرة آلاف!.

وأساس هذا الحب أنَّ عبد الله أوَّل مولود وُلدَ للمهاجرين بعد الهجرة، وكانت يهودٌ تقول: قد سحرناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد، فكبَّر الصحابة حين ولد، وفرحوا به فرحاً شديداً، ثم جاءت به أمُّه أسماء إلى رسول الله ﷺ ووضعته في حِجْره، فبرَّك عليه، وتفل في فيه، فكان أوَّل شيء دخل جوفه ريق رسول الله، ثم قال لعائشة: هو عبد الله، وأنت أم عبد الله، فما زالت تكنَّى به وما ولدت قط، ثم إنها استوهبته من أبويه، فكان في حِجْرها يدعوها أماً، هذا

إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة»، قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها». وهذا خبرٌ ثابت على رغم أنوف الروافض، وما كان عليه السـلام ليُحبَّ إلاَّ طيِّباً، وقد قال: «لو كنت مُتَّخذاً خليلاً من هذه الأمة، لاتَّخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوَّة الإسلام أفضل». فأحبَّ أفضل رجلٍ من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حبيبَيْ رسول الله ﷺ فهو حريٌّ أن يكون بغيضاً إلى الله ورسوله» انتهى.

إلى ما لها عليه من حقِّ التربية، ثم حقِّ الأمومة العامة الذي كتبه الله لأمَّهات المؤمنين على جميع المؤمنين.

غضب الأم الرؤوم

ليس عَجَباً بعد الذي قدَّمنا أن تغضب هذه الأمُّ الرؤوم على ابنها العاقِّ غَضْبَة الحق، وتعتزم قطيعته وهجرانه، فلا تكلِّمه أبداً حتى يفرق بينهما الموت! ثم تؤكِّد الهجرة ودوامها بنذرٍ عظيم لربِّها، يتَّفق - إنْ هي كلَّمته - مع فظاعة العقوق وبشاعة الجرم[1].

وأيُّ عقوق في شِرعة الأبوَّة الرحيمة، والأمومة البرَّة الكريمة، أشد من تسفيه رأيهما والحَجْر في الخير عليهما؟!.

وهل ذنبُ أمِّ عبد الله أم المؤمنين عند ابنها هذا الذي سخط عليها بيع دارها، حتى قال: «لتنتهينَّ عائشة أو لأحْجُرنَّ عليها»، إلا أنها طُبعت على إغاثة الملهوف، وصنائع المعروف، وألاَّ تدع شيئاً عندها من رزق الله إلا تصدَّقت به؟!.

إنَّ أقل عقوبة لهذه الجريمة هي الهجرة حتى الموت.. وكذلك جمعت أمرها، ووطَّنت عزمها، فلا تردُّد ولا شفاعة.

هجرة الأكابر للتأديب

ومَنْ ذا الذي يُؤاخذ أمَّ المؤمنين أو يَعيب عليها هذه الهجرة، وهي الفقيهة في دين الله، المتأدِّبة فيما تدع وتأخذ بأدب رسول الله عليه صلاة الله وسلامه؟! وأقل ما تتَّسم به مثل هذه الهجرة إباحتها، إن لم ينهض دليل على وجوبها.

---

(١) نذرها معلق بدليل «إنْ» الشرطية، واستدللنا على عظمته بأمرين: معنوي وهو إبهامه، وحسِّي وهو إعتاقها في كفارة نذرها أربعين رقبة، وظنُّها بعد ذلك أنها لم تَفِهِ كما ينبغي له (طه).

ولقد هَجَر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أمَّهات المؤمنين ـ للتأديب ـ شهراً[١]، وهَجَرَ بعضهنَّ أربعين يوماً، وهجر كعب بن مالك وصاحبيه: مُرارة بن ربيعة، وهلال بن أميَّة ـ وأمر أصحابه بهجرتهم ـ خمسين يوماً[٢]، ولولا أن تاب الله عليهم، وأنزل توبتهم بعد ما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ما كلَّموهم أبداً!![٣].

ولقد رأى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاً يضحك في جنازة، فقال له مُسَفِّهاً: تضحك مع الجنازة؟! لا أُكلِّمك أبداً.

وكان لأنس بن مالك رضي الله عنه امرأةٌ في خُلقها سوء، فكان يهجرها السنة والأشهر، وهي تتعلَّق بثوبه، وتقول: أنشدك بالله يا ابنَ مالك! أنشدك بالله يا ابن مالك! فما يكلِّمها

والنهيُ عن الهجران فوق ثلاث ليال إنَّما هو رخصةٌ لحظِّ النفس ورغبتها،

---

(١) روى البخاري (٥٢٠٢)، ومسلم (١٠٨٥) من حديث أمِّ سلمة: أن النبيَّ ﷺ حَلَفَ لا يدخل على بعض أهله شهراً، فلما مضى تسعة وعشرون يوماً غدا عليهنَّ أو راح، فقيل له: يا نبيَّ الله، حلفت أن لا تدخل عليهنَّ شهراً؟ قال: إن الشهر يكون تسعة وعشرين يوماً. وفي رواية للبخاري (١٩١٠): آلى من نسائه شهراً. وروى البخاري (٥٢٠٣) عن ابن عباس قال: أصبحنا يوماً ونساء النبي ﷺ يبكين، عند كلِّ امرأةٍ منهُنَّ أهلُها، فخرجتُ إلى المسجد، فإذا هو ملآنُ بين الناس، فجاء عمر بن الخطاب، فَصَعَدَ إلى النبيِّ ﷺ، وهو في غرفة له، فسلَّم فلم يُجبه أحد، ثم سلَّم فلم يُجبه أحد، ثم سلَّم فلم يُجبه أحدٌ، فناداه، فدخل على النبيِّ ﷺ فقال: أطلَّقت نساءك؟ فقال: «لا، ولكن آليتُ منهنَّ شهراً». فمكث تسعاً وعشرين، ثم دخل على نسائه.

(٢) تنظر قصة توبتهم العجيبة في صحيح البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

فأمَّا إذا كان لخوف مضرَّة أو أذًى في الدين أو الدنيا، فإنه لا حدَّ له.

حَسَنات الأبرار

وبعد هذا كله، فإنه يُسْتَعظم من صاحب الشَّأن في رَحِم أو قرابة أو علم ودين ما لا يُستعظم من غيره، وَرُبَّ حسنةٍ من صغير تعدُّ سيِّئةً من كبير؛ ولذلك لم يمنع النبيُّ ﷺ كلام من تخلَّف من المنافقين في غزوة تبوك كما منع كلام الثلاثة، ولم يُؤاخذهم مؤاخذتهم؛ ازدراءً للمنافقين وتحقيراً، وإعظاماً للصادقين وتقديراً.

ومن هذا القبيل كانت عقوبة أمِّ المؤمنين لأحبِّ الناس إليها وأبرِّهم بها.

ألطف الحيل في إصلاح ذات البَيْن

طالت هجرةُ أمِّ المؤمنين على عبد الله! ونقصه الله بهجرتها في أمره كلِّه، ولم يستطع على تلك الحال صبراً! فأخذ يستشفع إليها بكلِّ جدير أن يشفع، وهي تُقسم بالله لا تشفِّع فيه أحداً، ولا تحنث في نذرها أبداً، ولقد بالغت في الرد، حتى إنَّ الزُّهريين ـ أخوال النبي ﷺ وذوي قرابته ـ لم ينالوا من الشفاعة لديها مأرباً.

ازدادت قَسْوةُ الأمِّ على ابنها، واشتدَّ خوف الابن من هجرها، فلم يكن بدٌّ من إعمالِ الحيلة، وتحنيثها في يمينها بكلِّ وسيلة، رحمةً بعبد الله وشفقةً عليه، ولْيَقضِ الله أمراً كان مفعولاً.

كانت أمُّ المؤمنين لا تُدخل أحداً في بيتها إلاَّ بإذنها، ومن دَخَل فبينه وبينها حجاب، إلاَّ ذوي محارمها، ومع هذا فلا يدخلون عليها حجابها إلا بإذن.

وكانت حيلة الزُّهريين التي يبيِّتونها أن يُقبِل المِسْور وعبد الرحمن بعبد الله مُشْتَمِلَيْن عليه بأرديَتِهما، فيستأذنا على أمِّهما ويقولا: السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ فتقول: ادخلوا، فيقولا: كلنا؟ فتقول: نعم ادخلوا كلُّكم،

وهي لا تعلم أنَّ معهما ابن الزبير. وكذلك نجحت الحيلة النبيلة في مصالحة أمِّ المؤمنين ... فأنعم بها!.

دخلوا، واقتحم عبد الله الحجاب، فاعتنق أمَّه، وطفق يُناشدها ويبكي! وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلاَّ ما كلمته وقَبِلَت منه، ويقولان: إنَّ النبيَّ ﷺ نهى عمَّا قد علمتِ من الهجرة، فإنَّه لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال.

ابنٌ بار وأمٌّ حنون

فلمَّا أكثروا على أمِّ المؤمنين من التذكرة و التحريج طفقت تذكِّرهما وتبكي، وتقول: إني نذرت، والنَّذر شديد! فلم يزالا بها حتى كلَّمت ابنها، وكفَّرت عن نذرها. ولا يعلم إلاَّ الله مدى ما اشتمل عليه من فرح الأَوْبَة، وقَبول التوبة، وعَودة الابن البار إلى أُمِّه الحنون!!!.

وأرسل إليها عبدُ الله عَشْرَ رقابٍ، فأعتقتهم جميعاً، ثمَّ لم تكتفِ بهم كفارةً لنذرها؛ بل بعثت إلى اليمن بمالٍ تَبْتَاع به رقاباً، فلم تزل تعتق منهم حتى بلغ ما أعتقته في نذرها هذا أربعين رقبة مؤمنة.

خصومة الخير والبركة

وهكذا كانت خصومتُها خيراً وبركة، وفتحَ بابٍ فسيح لتحرير هؤلاء المساكين؛ وكم لآل أبي بكر من بركات وخير كثير.

ثم كانت بعد ذلك تذكُر نذرها وتبكي حتى تبلَّ دموعها خمارها، وتقول: وددت أني جعلت ـ حين حلفت ـ عملاً أعمله فأفرغ منه.. ودَّت ـ والله أعلم ـ لو حدَّدت نذرها، حتى تكون على بيِّنة من الأمر حين تكفِّر عنه إذا حنثت فيه، لكن هذا النَّذر المُبْهم المجهول لا حدَّ لكفَّارته إلاَّ أن يطمئنَّ قلبها، وهاهي ذي تعتق أربعين رقبةً كاملةً، ثم تخشى ألا تكون قد وفَّت بحقِّ نذرها، وأدَّت إلى الله ما عليها!

أجمل مصالحة بين الأبناء والآباء

وبعد ، فإذا كان في الحديث الأوَّل أنْبَلُ خصومة عرفناها بين الإخوان والأصدقاء، فإنَّ في الحديث الثاني أجمل مصالحة عرفناها بين الأبناء والآباء. فإن يُرد الله أن يُعزِّزهما بثالثٍ، فإننا نرجو بتوفيقه ومعونته، أن يكون في الإصلاح بين السَّادة الكبراء، وموعدنا الجزء التالي إن شاء الله، والله المستعان.

* * * * *

الإصلاح بين الأكابر*

١١٢ ـ عن أبي بَكْرة رضي الله عنه يقول: رأيتُ رسولَ الله ﷺ على المنبر، والحَسنُ بنُ عليٍّ إلى جَنْبه، وهو يُقْبل على الناس مرَّة وعليه أخرى، ويقول: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصْلحَ به بين فئَتَيْن عظيمتَيْن من المسلمين». رواه البخاري(١).

الإصلاح بين السادة والكبراء

في أوّل جزء من المجلد الثامن عَشر شرحنا حديث الصحيحين: «ليس الكذّاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً..» وبيَّنا هنالك فضل الإصلاح بين الناس عامة، وإلى أيٍّ مدى دعا الإسلام إليه، وأعدَّ لأهله الأجر العظيم والخير العميم(٢).. ثمَّ قلنا في خاتمة الشرح: إنَّ الإصلاح بين الناس جزءٌ من شرائع الأنبياء والمرسلين، بل إنَّه عماد دعوتهم وأساس رسالاتهم؛ وما أحوج البشر ـ وقد اصْطَخَبت بينهم المعارك، واشتعلت فيهنَّ نيرانُ الخصومة ـ إلى مَنْ ينهج في إصلاحهم منهجَ النبيين، ويَسْتارُ فيهم سيرة الصادقين المخلصين، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾(٣).

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد الخامس والعشرون (١٣٧٣ = ١٩٥٤).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) في كتاب الصلح، وفي المناقب (٣٦٢٩)، وفضائل الصحابة (٣٧٤٦)، والفتن (٧١٠٩).

(٢) انظر حديث: «الإصلاح بين الناس» ص٥٥٤.

(٣) سورة إبراهيم: ٢٠.

حاجتنا إلى هذا الإصلاح

ونريد أن نَقْصُرَ القول في هذا الحديث، على صنف خاص من هذا الإصلاح العام، نرى أنَّ أممنا الإسلامية ـ التي كانت في أَوْج مَجْدها أمَّة واحدة ـ أحوج ما تكون إليه، ونعني به الإصلاح بين سادة كل أمة وكبرائها وأُولي العلم والأمر فيها، ثم الإصلاحَ بين أكابر الأمم وساداتهم، فإنهم الذين إذا صَلَحوا صَلَحَ الناس جميعاً، وإذا فسدوا فَسَدَ الناس جميعاً.

من الذي يَضْطلع به؟

وليس هذا الإصلاح الخاص الذي نَعنيه، وندعو إلى الاضْطلاع بعبئه، ونُمهِّد له منذ زمن بعيد؛ ليس بالأمر اليسير الهين، الذي يَضْطلع به كل فاضل وخيِّر؛ ولكنَّه أمرٌ عظيم جدٌّ عظيم، لا يضْطَلع بخطره إلاّ السادة النُّجُب، وإلا من أخذ من النُّبل والفضل، والهدى والتقى، والحزم والعزم، بحظٍّ عظيم.

قلَّة قليلة مباركة

ولئن كان الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما نسيجَ وحده في السادة المصلحين، فإنَّ من بعده قلّة تنهج منهجه سَداداً ورشداً، وتدعو بدعوته حقًّا وصدقاً، حقناً للدماء، وَصَوْناً للأموال والأعراض، وحرصاً على ذات البَيْن أن تفسد؛ فإنَّ فساد ذات البَيْن هي الحالقة.

بهذه القلَّة الكريمة المباركَة يُرجَى للأُمم صلاحُها ورَشَادها، وإلى هذه القلَّة الكريمة المباركة نتوجَّه ـ أوَّل ما نتوجَّه ـ ببيان هذه المنقبة العظمى: منقبة الإصلاح بين الأكابر التي بشَّر بها النبيُّ ﷺ علماً من أعلام بيته، فانتدب لها، وكان أحقَّ بها وأهلَها، بل كان إمامَ الأئمة الذين جاؤوا من بعده من الهُداة والمصلحين.

سيادة الحَسَن رضي الله عنه

كلّ الناس يعلم مَنْ هو الحَسن؟ وكلّ الناس يعلم مكانه من رسول الله ﷺ وكثيرٌ منهم يودُّ لو يتخلَّق بخُلُق الحسن رضي الله عنه، ويقتدي به، وبِجَدِّه

صلوات الله عليه وسلامه. ولكنَّ القليل النادر الذي يقدِّر هذه الأخلاق النبويَّة قدْرها؛ وأقلّ من هذا القليلِ النادر من يحتملُها، ويصبر عليها ويوفيها حقَّها.

ومَنْ ذا الذي يستطيع أن يرفضَ الملك، والمُلكُ يسعى إليه؟! أو يعرض عن الدنيا، والدنيا مقبلةٌ عليه، إلاّ الحسن وأمثاله؟! من هذه الفئة القليلة النادرة، التي يَصْطفي اللهُ الواحدَ بعد الواحد منها، فيجدِّد به للأمَّة أمر دينها، ويجمع به شملها، ويُحييها بعد موتها، من الأُلى يَهَبون الدنيا على خَصَاصَةٍ وخبرة، ويرجون الآخرة على بيِّنة وعِبرة، ويدعون إلى الله على هدى وبصيرة.

عَلَمٌ من أعلام النبوة

وإذا آمنَّا إيماناً لا رَيْبَ فيه بما بشَّر به النبيُّ ﷺ أمَّته، من سيادة سِبطه الحسن، وتحقيق منقبة الإصلاح الكبرى على يديه، ثمَّ آمنَّا أنَّ هذه البشارة العُظمى ووقوعها عَلَمٌ من أعلام النبوَّة ـ فَلْنؤمن كذلك إيماناً لا شكَّ فيه بتحقيق بشارته صلوات الله وسلامه عليه لمعاوية رضي الله عنه ودعائه له إذ قال: «اللهمَّ اجْعَله هادياً مهديًّا واهده»[١]، «اللهمَّ علِّمه الكتاب والحساب، وَقِه العَذَابَ»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» ٤: ٢١٦ (١٧٨٩٥)، والترمذي (٣٨٤٢) كلاهما من حديث عبد الرحمن بن أبي عَميرة. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

والحديث رجاله ثقات رجال الصحيح، إلا أن سعيد بن عبد العزيز ـ أحد رجال السند ـ الذي عليه مدار الحديث، اختلط في آخر عمره فيما قاله أبو مسهر ويحيى بن معين. وغَمَزَ في هذا الحديث ابن عبد البر وابن حجر. كما في التعليق على «المسند» طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» ٤: ١٢٧ (١٧١٥٢)، من حديث العرباض بن سارية، وإسناده ضعيف لجهالة الحارث بن زياد الشامي، فقد تفرد يونس بن سيف بالرواية عنه، وقال الذهبي في «الميزان»: مجهول، وقال ابن عبد البر: مجهول، منكر الحديث. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩: ٣٥٦ وقال: «رواه البزار (٩٧٧)، وأحمد، والطبراني ١٨ =

وقد استجاب الله لنبيِّه ﷺ فحدَّثنا التاريخ المنْصف الصَّدوق أنه كان بهديه وحِلْمِهِ ورفقه وسياسته وكياسته ـ أجدرَ الناس بالخلافة والملك طول ولايته، وأرعاهم للأمَّة وأعظمهم بلاءً في دين الله، وأكبرهم شأناً وسلطاناً في أعين عدوٍّ الله، وهاهو ذا ملك الروم يزحف إلى حدود الدولة الإسلاميَّة بجند عظيم، ومعاوية في مَعْمَعَة القتال مع عليٍّ بصفِّين، فيكتب إليه معاويةُ مُنذراً فيقول: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك لأصْطَلِحنَّ أنا وابن عمِّي عليك، ولأُخْرِجنَّك من جميع بلادك، ولأُضيِّقَنَّ عليك الأرض بما رحبت. فيخافُ ملك الروم وينكف.

وإن تكن له أخطاء يُبالِغ فيها ويُجسِّمها مَنْ لا يبالي أن ينال من أصحاب رسول الله ﷺ، فالله يغفرها له بجانب ما قدَّم للإسلام والمسلمين من جهادٍ وفتح، وإعزاز وقوَّة[1].

نَبْذُ الخصومة عند الشدائد

وما لنا نؤمن ببشارة النبيِّ ﷺ للحسن بما أجرى الله على يديه من هدى وإصلاح، ولا نؤمن ببشارة النبيِّ ﷺ لمعاوية، وقد مهَّد لهذا الإصلاح نفسه وكان شريكاً للحَسَن فيه؟! فقد حدَّثنا التاريخ أنه لمَّا تهيَّأت الفئتان العظيمتان للقتال أو كادتا، أسِفَ معاوية أسفاً شديداً، وخاف على المسلمين الهلاك، وقال فيما قال: مَنْ لذراري المسلمين ونسائهم وضعفائهم؟! ثمَّ أرسل رسولَيْن

---

(٦٢٨)، وفيه الحارث بن زياد، ولم أجد مَنْ وثَّقه، ولم يرو عنه إلا يونس بن سيف، وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم اختلاف».

(١) قال الحافظ الذهبي في «السير» ٣ :٢٧٩: «أعاذنا الله من الفتن، ورضي الله عن جميع الصحابة، فترضَّ عنهم يا شيعيُّ تُفلح، ولا تدخل بينهم، فالله حكَمٌ عدلٌ، يفعلُ فيهم سابق علمه، ورحمتُهُ وسعتْ كلَّ شيء، وهو القائل: «إن رحمتي سبقت غضبي» و: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فنسأل الله أن يعفو عنا، وأن يثبِّتنا بالقول الثابت آمين».

من قريش من ذوي الشأن والرغبة في الإصلاح[١]، وفوَّض إليهما الأمر في كلِّ ما يَرَيان، وفي كلٍّ ما يطلب الحسن من مال، لتَرْضيَةِ الثائرين، وتعويض الغارمين، وتسكين فتنٍ كقِطَعِ الليل المظلم.

لقد روى المؤرِّخون أنَّ معاوية أرسل رسولَيه، ومعهما صحيفةٌ بيضاءَ مختومٌ على أسفلها، وكتب إليه: أن اكتب إليَّ في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها بما شئت فهو لك. وما ذاك إلا لشفقته على المسلمين، ورحمةً بهم، وحقناً لدمائهم، وقد تواتر أنه رضي الله عنه ما كان يضع سيفاً حيث يغني عنه سوط، وما كان يضع سوطاً حيث تغني عنه كلمة، لا جَرَم أنه لا يقاتل حتى لا يجد من القتال بداً.

حديث الصُّلح

وهاهو ذا البخاري يحدِّثنا بسنده حديثَ هذا الصَّلح، فيقول:

حدَّثنا عبد الله بن محمد، قال: حدثنا سفيان، عن أبي موسى، قال: سمعت الحسن البصري يقول: استقبل ـ والله ـ الحسنُ بن علي معاويةَ بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: والله إني لأرى كتائب لا تولِّي حتى تقتل أقرانها؛ فقال له معاوية ـ وكان والله خير الرجُلَيْن ـ: أيْ عمرو، إنْ قَتَل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء..! مَنْ لي بأمور الناس؟! مَنْ لي بنسائهم؟! مَنْ لي بضَيْعتهم؟! فبعث إليه رجلين من قريش، من بني عبد شمس: عبد الرحمن بن سَمُرة، وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز، فقال: اذهبا إلى هذا الرجل، فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه. فَأَتياه فَدَخلا عليه، فتكلَّما وقالا له، فطلبا إليه؛ فقال لهما الحسن بن علي: إنَّا ـ بني عبد المطلب ـ قد أصَبْنا من هذا المال، وإنَّ هذه الأمة قد عاثت في دمائها[٢]. قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك

---

(١) وهما: عبد الرحمن بن سَمُرة، وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز كما سيأتي.

(٢) فيحتاج إرضاؤها في دمائها إلى مال كثير، وكان رضي الله عنه جواداً لا يدَّخر =

ويسألك. قال: فَمَنْ لي بهذا؟ قالا: نحن لك به، فما سألهما شيئاً إلاَّ قالا له: نحن لك به، فصالحه. فقال الحسن البصري: ولقد سمعت أبا بكْرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر.. إلخ الحديث[1].

هذا نصُّ رواية البخاري في كتاب الصُّلح؛ ورواها في كتاب الفتن مختصرة[2] وكلتا الروايتين ـ وناهيك بهما صحةً وقوةً ووثوقاً ـ شاهدٌ على صدق رغبة الحسن ومعاوية ورسولَيْه في الإصلاح بين الطائفتين، وأنَّ اشتراكهم جميعاً في هذه المَحْمَدة التي تعاونوا عليها من أجلِّ المَحَامد التي تُدَّخَر في صَحَائف المُصْلحين، وتُسَجَّل بمِدادٍ من النُّور والشَّرف في سِجِلاَّت الخالدين.

عام الجماعة

ولما سَلَّم الحسن لمعاوية الأمر بايعه على إقامة كتاب الله تعالى، وسنَّة نبيِّه ﷺ، ودخل معاوية الكوفة، وبايعه الناس أفواجاً، وسُمِّي عام هذه البيعة عام الجماعة؛ لاجتماع المسلمين بعد الفرقة، وائتلافهم بعد النُّفرة، وسلِّ سيوفهم لحماية الدعوة الإسلامية، بعد أن عطَّلها قَتَلَةُ ذي النُّورَيْن رضي الله عنه بضعَ سنين.

وبايعَ معاويةَ كلُّ من كان معتزلاً للقتال، من أمثال عبد الله بن عمر، وسعد ابن أبي وقَّاص، ومحمد بن أبي مَسْلَمة رضي الله عنهم.

وأجاز مُعاويةُ الحسنَ بثلاث مئة ألف، وألف ثوب، وثلاثين عبداً، ومئة جَمَل.

ولمَّا تَنازل الحَسنُ لمعاوية رَجَع إلى المدينة؛ وولَّى معاويةُ الكوفةَ المغيرةَ

شيئاً، وقد راعى هذا الكرم معاوية عند الصلح (طه).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) في كتاب الصلح.

(٢) وروى الحديث مقصوراً على سيادة الحسن، وإصلاح الله به في علامات النبوة (٣٦٢٩)، وفي فضل الحسن (٣٧٤٩) والمناسبات في هذه المواضع الأربعة ظاهرة (طه).

ابن شعبة، والبصرةَ عبد الله بن عامر، وهو أحد رسوليه إلى الحَسَن، ورجع هو إلى دمشق.

ولم يُبالِ الحسن رضي الله عنه أن يَجْترِئ عليه بعض السُّفهاء من دُعاة الفتنة، فيقول له وقد تمَّ الصلح: ياعار المؤمنين! فيجيبه بجوابٍ من قبس النبوَّة: العارُ خيرٌ من النار.. [(١)].

ولئن كان لمُّ الشَّمل، وجمعُ الكلمة، عاراً عند السُّفهاء، إننا لنرحِّب بهذا العار، ونقرُّ به عَيْناً، ونطيبُ نفساً.

أمَّا بعد، فليس من شأننا في هذا المقام أن نطيلَ بذكر الأحداث التي جرت في ذلك العهد، ولا أن نرجِّح بعض الروايات المتضاربة فيها على بعض، ولا أن نفاضلَ بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما في أمر الخلافة أو المُلك، ثمَّ نقضيَ لأحدهما بأنه أجدر به من صاحبه وأحقّ؛ فَمَا إلى ذلك قَصَدْنا.. وإنَّما الشأن كلُّ الشأن أنهما اشتركا في الصُّلح بين المسلمين وتعاونا عليه، حَقْناً للدماء، وصَوْناً للحرمات، وقَصْداً إلى السَّداد والرَّشاد[(٢)].

سياسة معاوية وكياسته

وإذا كان من سيادة الحسن، وعظيم وَرَعه، ورغبته فيما عند الله عزّ وجل،

---

(١) روى الترمذي (٣٤٠٨)، والحاكم ٣ :١٧٠، والطبراني (٢٧٥٤) عن يوسف بن مازن قال: عَرَض للحسن رجلٌ فقال: يا مُسَوِّد وجوه المؤمنين! قال: لا تعذُلني، فإنَّ رسول الله ﷺ أُريَهم يَثِبُون على منبره رجلاً رجلاً. وأورد الذهبيُّ في «السير» ٣ :٢٧٢: قال: أتى مالك بنُ ضَمْرةَ الحسنَ، فقال: السلام عليك يا مُسَخِّم وجوه المؤمنين. فقال: لا تقل هذا، وذكر كلاماً يعتذر به، رضي الله عنه. وقال له آخر: يامُذلَّ المؤمنين! فقال: لا، ولكن كرهت أن أقتلكم على الملك.

(٢) من أهم مراجعنا في شرح هذا الحديث كتاب «العواصم من القواصم»، في تحقيق مواقف الصحابة، للقاضي أبي بكر بن العربي، بتحقيق السيد محب الدين الخطيب (طه).

أن يَدَعَ الأمر لصاحبه، وهو أحقُّ به منه ـ بعد أن بايعه أربعون ألفاً على الموت ـ فمن سياسة معاوية وكياسته وجدارته باضْطلاع هذا الأمر ألاَّ يُعرِّض جيشه، وهو أطْوع له من جيش الحسن، لمعركةٍ يسيل فيها دمٌ، أو تُقطع فيها رَحِم، أو يشمت بالإسلام فيها خصم. ولكلٍّ منهما مقامٌ معلومٌ، لا يُماري فيه من كان على حقٍّ.

سيِّد الحكماء وسيِّد الشهداء

ولولا كتابٌ من الله سَبَق باستشهاد الحسين رضي الله عنه، لاستمع للناصحين له بألاَّ يخرج، وعلى رأس نُصحائه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولَنَهَجَ منهج أخيه الحَسَن في الأخذ بالحيطة، وإمعان التبصُّر في العاقبة! ولكن أبى الله إلاَّ أن يكونَ الحسن في الرعيل الأول من سادة الحكماء، وأن يكون الحسين في الصف الأول من سَادة الشهداء.

دعوة السَّادة إلى زكاة السِّيادة

وفَصْل الخطاب إلى ما ندعو إليه سادتنا وكبراءَنا، وأُولي الفضل والنُّبل منا ـ وهُمْ مَنْ وصفنا بالقلَّة الكريمة المباركة ـ أن يؤدُّوا زكاة السيادة كما أدَّاها الحَسَن كاملة، بالإصلاح النقيِّ الجليِّ، وبالشفاعة الحُسْنى الخالصة، وبالدعوة الجادَّة الصادقة إليهما، ما استطاعوا إلى الجدِّ والصدق سبيلا.

* * * * *

حقوق الأكفاء *

١١٣ـ عن عبد الله بن عمر رضيَ الله عنهما قال: بعثَ النبيُّ ﷺ بَعثاً، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فَطَعن بعض الناس في إمارته، فقال النبيُّ ﷺ: «إنْ تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايمُ الله إنْ كان لخليقاً للإمارة، وإنْ كان لَمِنْ أحبِّ الناس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبِّ الناس إليَّ بعده». رواه الشيخان، واللفظ للبخاري[1].

تقدير الكفايات

إذا كان من حقوق الأمة على بنيها أن يُسخِّروا قِواهم لخيرها، وأن يُجنِّدوا أنفسهم لعزِّها ومَجْدها، فإنَّ من حقوق أقويائها الأمناء، وعلمائها الأتقياء، أن يكونوا موضعَ الثقة والعناية منها، والتَّجِلَّة والإعزاز فيها؛ كلٌّ له مقامٌ معلومٌ، ومكانٌ محفوظ، كفاء ما وَهَبَ الله له من مَوْهبة، وما مَنَحَه من فضيلة، وما آتاه من قوَّة في الحقِّ، وبَصَر في تقدير الأمور.

وبتقدير الأمم للكفايات وحدها ـ دون أن يكون للعداوة أو المحبَّة أو غيرها سلطانٌ، في تولية أو حِرمان ـ تستقيم أمورُها، وتصلح شؤونها، ويشتدُّ بنيانها؛ لأنها وقيت شرَّ التحاسد والتحاقد، والتقاطع والتباغض، إلى غير

---

* مجلة الأزهر، العدد الرابع، المجلد الرابع والعشرون (١٣٧٣ = ١٩٥٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٧٣٠) في باب فضائل الصحابة، و (٦٦٢٧) في باب قول النبي ﷺ: «وايم الله» من كتاب الأَيْمان والنذور، و (٤٢٥٠) في باب غزوة زيد بن حارثة من المغازي، و (٧١٨٧) في باب من لم يكترث بطعن من لا يعلم في الأمراء حديثاً من الأحكام، ومسلم (٢٤٢٦) في فضائل الصحابة.

أولئك من مَعَاول الهدم فيها والقضاء عليها!.

حَسْبُكَ من السياسة الرشيدة أن تُقدِّر الكفاياتِ قدرَها، وتُسند الأمورَ إلى أهلها، غير ناظرة إلاَّ إلى المصلحة الخالصة وحدها، فإذا صاحب الكفايةَ تقريرُ قاعدة من قواعد الإصلاح، أو تثبيتُ أصل من أصول التربية، أو هدمُ عاملٍ من عوامل الفساد، فذلك منتهى السُّموِّ في سياسة الشعوب، وغاية الرُّشد في قيادة الأمم.

تأمير أسامة ووالده

وفي هذا الحديث من ضروب السياسة العليا، التي يهدي بها النبيُّ ﷺ أمته إلى طريق الكمال الإنساني، مثلان:

تأميره أسامة بن زيد حِبَّه وابنَ حِبِّه[1]، على جيش عدَّته ثلاثة آلاف، فيهم سبعمئة من قريش، منهم كبار المهاجرين والأنصار، وفي طليعتهم الشيخان: أبو بكر وعمر، وأمين هذه الأمة: أبو عُبيدة بن الجراح، بَعَث به إلى مَشَارف الشام، وهي حدودها ممَّا يلي الصحراء، وكان هذا آخر جيش جهَّزه النبيُّ ﷺ في حياته، وأوَّل جيش أنْفَذَه الصِّدِّيق رضي الله عنه في خِلافته.

وتأميره أباه زيداً من قبله على جيش عدته ثلاثة آلاف كذلك، بعثه إلى مُؤْتة من مشارف الشام أيضاً، وولَّى عليه ثلاثة أمراء أوَّلهم زيد؛ عقد له النبيُّ ﷺ لواءً أبيض ودفعه إليه، وقال: «إنْ قُتل زيد فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن قتل فأميركم عبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتضِ المسلمون برجل منهم»[2]، ومن هنا سُمِّي هذا الجيش بجيش الأمراء.

---

(١) قال الذهبيُّ في «السِّيَر» ٢: ٥٠٠: «قلت: لمَّا أمَّره النبيُّ ﷺ على ذلك الجيش، كان عمره ثماني عشرة سنة».

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٠) ولفظه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أمَّر =

من أعلام النبوة

ومن أعلام نبوَّته ﷺ أن ينعيَ الأمراء الثلاث للناس قبل أن يأتيَهم خبرهم، فيقول: «أخذ الراية زيدٌ فأصيب[١]، ثم أخذ الراية جعفرُ فأصيب، ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رواحة فأصيب ـ وإنَّ عيني النبي ﷺ لتذرفان ـ ثم أخذها سيفٌ من سيوف الله خالد بن الوليد من غير إمِرة، ففتح الله تعالى له»[٢].

ولحِكَمٍ بالغة لم يولِّ خالداً أوَّل الأمر، قد يكون منها أنه حديث عهد بإسلام؛ إذ لم يكن مضى على إسلامه قبل هذه الغزوة الأولى له أكثر من ثلاثة أشهر، فَتَوْليتُه إذْ ذاك لا تصادف من الجيش موقعاً وقبولاً، وإذا اختلف الجيش فَقُلْ على النصر السلام!.

وبعد أن شرَّف الله الأمراء بالشَّهادة في سبيله، نُصر المسلمون على يد خالد نصراً عزيزاً، وهُزم عدوُّهم هزماً ذليلاً، وكانوا مئة ألف أو يزيدون.

جيش الأمراء

جهَّز النبيُّ ﷺ جيش الأمراء دفاعاً عن الإسلام، وتثبيتاً لقواعد السلام، وإرهاباً لأولئك الذين اعتدوا على حُرمات المسلمين، وقتلوا رسولَ رسولِ الله ﷺ، مع أنَّ الرسل لا تُقتل! وإشهاداً للعالم بأنَّ العزَّة للهِ ولرسوله وللمؤمنين، وبأنَّ أساس النصر ليس كثرة العدد ولا قوَّة العُدد، ولكنَّ النصر من عند الله العزيز الحكيم.

رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة». قال عبد الله: «كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ ورَمْية».

(١) قتل رضي الله عنه طعناً بالرماح، وكانت مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، وهو ابن خمس وخمسين سنة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٣) في الجهاد.

جيش أسامة

ثم جهَّز صلوات الله وسلامه عليه جيش أسامة قبيل وفاته، ونَدَبَ الناس لغزو الروم ـ وهم والفُرس أعظم دول العالم حينئذ ـ وعقد بيده الكريمة لواء أسامة، وقال له: «سر إلى موضع مقتل أبيك، وأَغِرْ صباحاً، وأسرع المسير تسبق الخير، فإن ظفَّرك الله بهم فأقِلَّ اللبث فيهم»(١).

وصيَّة نبويَّة

وبينما أسامة يتأهَّب للرحيل، اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعه، وطعن قومٌ بتأميره على الجيش، وعلى رأسهم عيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي. فردَّ عليه عمر، وأخبر النبيَّ ﷺ، فَغَضِبَ غَضَباً شديداً، ولم يمنعْه مرضه أن يخطبهم غاضباً، وأن ينكر عليهم الطعن في إمارته وإمارة أبيه من قبله، وأن يُوصي بإنفاذ الجيش إلى الجهة التي ولاَّها ... ثم انتقل صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى، فأنفذ الجيشَ أبو بكر بعد استخلافه؛ تنفيذاً للوصيَّة النبويَّة التي نكشف الغطاء عن عظمتها وجليل آثارها قريباً.

سار الجيشُ كما أمر رسول الله ﷺ، وأمضى عشرين يوماً أو تزيد، قُتل فيها قاتلُ زيد أبي أسامة، وأرهب فيها عدوَّ الله، ثم عاد بعدها سالماً غانماً معزَّزاً منصوراً.

إمارة زيد وابنه في البعوث والسَّرايا

لم تقتصر إمارة زيد وابنه على هذين الجيشين العظيمين اللَّذَيْن أشهدا العالم على عظمة الإسلام وعزَّته، وبلوغه الذِّروة في كرمه وعدالته، بل أمَّرهما النبيُّ ﷺ على غيرهما من البعوث والسرايا، وإن لم تبلغ مبلغ هذين

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى ٢ :١٨٩ وفتح الباري ٧: ٧٥٨ ـ ٧٥٩.

الجيشَيْن أُهبة ووِجهة وعديداً.

فهذه أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «ما بعث رسول الله ﷺ زيدَ بنَ حارثة في جيشٍ قطُّ إلاَّ أمَّره عليهم، ولو بقي بَعده لاستَخْلَفَه»[١].

وهذا سلمة بن الأكْوَع رضي الله عنه يقول: إنه خرج فيما يبعث النبي ﷺ من البعوث تسع غزوات، يؤمِّر عليهم مرة أبا بكر ومرَّة أسامة[٢].

كفاية زيد وابنه الحربيَّة، ومَقْدرتهما الفائقة

ولا يَعنينا هنا أن نُفَصِّل أنباء هذه البعوث والسَّرايا، فقد تكفَّلت بها كُتب السِّيَر والمغازي، وإنما يَعنينا أن نبيِّن منها كفاية زيد وابنه، وأنَّ كُلاًّ منهما أهلٌ للإمارة بحق؛ وأن نتبيَّن كذلك خبْرة النبيِّ ﷺ وثاقب نظره في الرجال وحُسْن اختيارهم. حتى إنَّ العرب على مِراسهم للحرب وبلائهم فيها لم يستطيعوا أن يطعنوا في كفايتهما الحربية، ومقدرتهما الفائقة التي جعلت

---

(١) أخرجه أحمد ٦ :٢٢٧(٢٥٨٩٨) وإسناده حسن إن صحَّ سماع البهيِّ ـ وهو عبد الله ـ من عائشة، فقد ثبَّته البخاري في «تاريخه الكبير» ٥ :٢٥٦، ودفعه الإمام أحمد. والحديث أخرجه النسائي في الكبرى (٨١٨٢) والحاكم ٣ :٢١٥ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه. كما في التعليق على «المسند» طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧٢) في المغازي: باب بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جُهينة، بلفظ: «غزوت مع النبيِّ ﷺ تسع غزوات، وغزوتُ مع ابن حارثة، استعمله علينا». قال الحافظ في شرح الحديث (٤٢٥٠): هكذا ذكر مبهماً. ورواه أبو مسلم الكجي عن أبي عامر بلفظ: «وغزوتُ مع زيد بن حارثة سبع غزوات يُؤمِّره علينا». وكذلك أخرجه الطبراني عن أبي مسلم بهذا اللفظ. وأخرجه أبو نُعيم في «المستخرج» عن أبي شعيب الحراني، عن أبي عاصم كذلك. وكذا أخرجه الإسماعيلي من طرق عن أبي عاصم. وأخرجه ابن سعد ١ :٣١ من طريق أبي عاصم النبيل عن يزيد بن أبي عبيدة، عن سلمة بن الأكوع، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات، يؤثره رسول الله علينا. وإسناده صحيح، وصحَّحه الحاكم ٣ :٢١٨ ووافقه الذهبي.

من زيد أميراً فوق الأمراء، بل رشَّحته لأنْ يكون خليفةً لخاتم الأنبياء على خير أمة أخرجت للناس. ثم جعلت من ابنه أسامة ـ وهو غلام حَدَثٌ لم يتجاوز الثامنة عشرة ـ قرناً لأبي بكر وعديلاً له، بل أميراً عليه وعلى المَشْيخة من المهاجرين والأنصار، ومنهم صاحب البلاء الحميد، في البأس الشديد.

وإذا لم يكن للطاعنين مَطْعَنٌ في كفايتهما وحُسْن بلائهما، فإنَّ مطعنَهم في أمر وراء الكفاية، سنكشف الغطاء عنه على أثر إلمامة بمكان أسامة وأبيه من العرب، ثم من النبيِّ ﷺ.

عجالة خاطفة في تاريخ الحِبِّ وابن الحِب

كان زيدٌ مع أمِّه في زيارة أخواله، فأغارت خيل في الجاهلية على أبيات لهم، فاحتملوا زيداً في صِبيةٍ معه وقدموا به إلى سوق عكاظ.

وكانت خديجة أوْصَت حكيم بن حزام بن خويلد أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً عربياً إنْ قدر، فأعجبه كَيس هذا الصبي وظُرْفه، فابْتاعه وقدم به على عمَّته، ففرحت به وأكرمته. حتى تزوَّجها رسول الله ﷺ وهو عندها، فلمَّا أعجبه ظُرْفه وأدبه، استَوْهبه منها، فوهبته له. فشبَّ عند النبيِّ ﷺ، حتى إذا خرج في إبلٍ لأبي طالب بالشام مرَّ بأرض قومه فعرفوه، ثم قدم أبوه وعمُّه وأخوه يفتدونه من النبيِّ ﷺ بما يحبُّ من الفداء، فقال لهم: «أعطيكم خيراً من ذلك؛ أُخيِّره فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء»، فقالوا: جزاك الله خيراً، فقد أحسنت وزدتَ على النَّصَف ... فلمَّا خيَّره صلواتُ الله وسلامه عليه قال: ما أنا بمختارٍ عليك أحداً، أنت مني بمنزلة الأب والعم، فلمَّا رأى أنَّه آثره على أبيه وعمِّه وأخيه خرج إلى حِجْر إسماعيل وقال: «اشهدوا عليَّ أنه حرٌّ، وأنه ابني يرثُني وأرِثُه»، فطابت أنفسهم بذلك لما رأوا من كرامته عليه[١].

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ١ :٢٤٨.

القضاء على عادة التبنِّي

ولم يزل يُدعى في الجاهلية زيد بن محمد، حتى نزلت الآية الكريمة ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾[1] فدُعي زيد بن حارثة، وشدَّد النبيُّ ﷺ النكير على دعاء أحدٍ إلى غير أبيه وهو يعلم.

وللقضاء على هذه الدعوة المنكَرَة أحلَّ الله تعالى للمتبنِّي أن يتزوَّج زوجة الدَّعي إذا طلَّقها وقَضَت عدَّتها، وأمر نبيَّه أن يتزوَّج زينب بنت عمَّته أُميمة، وكان زوَّجها زيداً، لمكانته عنده، غير أنها كانت تتعالى عليه، وتفخر بحَسَبها ونَسَبها، وكان يشكوها إلى النبيِّ ﷺ في قصة طويلة معروفة.

وراثة الفَضْل والنُّبل

وَوَرث أسامة أباه في الفَضْل والنُّبْل، والكَياسة والسياسة، والكفاية في الإمارة، وعظيم البلاء فيها. كما شارك أباه في حُبِّ النبيِّ ﷺ له، وثقته البالغة به، ثُمَّ في عدِّه من موالي قريش وعتقائهم تَبَعاً لأبيه من قبل.

هذه عُجَالة خاطفة في تاريخ الحِبِّ وابن الحبِّ تُرينا مكانهما من النبي ﷺ ومن العرب، وأنَّ ما لصق بهما من العتق والولاء إن يكن ذنباً فلا يدَ لهما فيه، ولا عَيْب عليهما به. وحَسْبهما أنَّ الله أنعم عليهما ورسوله ﷺ، فأخرجهما من ظلمةِ الشرك، ومذلَّة الرق.

القضاء على الأنفة والكِبْر والعصبيَّة

أرأيت كيف طَعَن الطاعنون في زيد وابنه، وشقَّ عليهم أن يكونوا تحت إمرة مولىً من مواليهم وعتيقٍ من عتقائهم؟! بلْه غلاماً حَدَثاً يتأمَّر عليهم، ولمَّا

---

(١) سورة الأحزاب: ٥.

يبلغ العشرين من عمره؟!.

إنها الأَنَفة والكِبْر والعصبيَّة التي جاء النبيُّ ﷺ لمحوها واجْتثاث أصولها، قولاً وعملاً وسيرةً وهدياً؛ لأنها من شِجَار الفتن[1]، ومعاقد البلايا والمحن في كلِّ أمة تُمْنى بها! ومَنْ أحقُّ بأن يحملَه شرفُ القضاء عليها من حبيبه، وأقربِ الناس إليه.

من أسرار الاختيار

يضاف إلى كفاية زيد وابنه، وما صَاحَبَهُما من بناء قاعدة المساواة بين الناس جميعاً، وهدم دعامة الفخر بالأحساب والأنساب، أنَّ زيداً أعلم بالجبهة التي انتُدِبَ إليها؛ لأنه نشأ فيها؛ ولأنَّ قومه منها؛ ثم إنَّ ابنه أولى الناس بالقصاص من قاتل أبيه؛ فاختياره أحيا لنفسه، وأبعث لهمَّته، وأجْدر ألاَّ يدَّخر منها في سبيل الله وسعاً، وكذلك كان.

رأى هذا كلَّه وأكثرَ منه كبارُ أصحاب رسول الله ﷺ، فلم يطعنوا ولم يعترضوا، وإنْ رغب بعضهم في أن يتوجَّه جيش أسامة وجهة أخرى لمحاربة المرتدين، كما رغب بعضهم أن يستبدل بأسامة مَنْ هو أكبر منه سناً، وأسبق في بلاء الحروب قدماً.

أروع أمثلة الحزم والعزم

وهنا يضرب الصِّدِّيق أروع الأمثال حزماً وعزماً، ويأبى كلَّ الإباء إلاَّ أن ينفذ جيش أسامة دون أن يغيِّر في قضاء رسول الله ﷺ شيئاً، ثم يزيد في إكبار القائد الحدَث وإجلالِه، فيستأذنه في إبقاء الفاروق بجانبه؛ ليكون له رِدْءاً وعوناً على مُهمَّات الخلافة وأعبائها، ثم يودِّع الجيش ماشياً، فيقول له أسامة:

---

(١) الشِّجار والمشاجرة والتَّشاجر: المنازعَة. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

يا خليفة رسول الله لتركبنَّ أو لأنزلن، فيقول الخليفة ـ الذي لم تزده الخلافة إلاَّ تواضعاً وإنكاراً لذاته ـ : والله لا تنزل ولا أركب، وما عليَّ أن أغبِّر قدميَّ ساعة في سبيل الله؟!.

أوَ رأيت كيف يصنع الله لنبيِّه؟! وكيف يهديه في سياسته، وكلٍّ شأن من شؤونه وشؤون أمته، للتي هي أقوم، ويجمع له في الأمر الواحد ما تفرَّق من قواعد الإصلاح، ودعائم الرشد والفلاح؟! و ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

* * * * *

(١) سورة الأنعام: ١٢٤.

الفصل العاشر

الفتن

١ ـ اتِّباع سنن السابقين.

٢ ـ أخذ الله للظالمين.

٣ ـ الفرار من الفتن.

٤ ـ سبيل المؤمنين (١ ـ ٢).

اتِّباع سَنَن السَّابقين *

١١٤ـ عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُم شِبْراً بشبْر، وذراعاً بذراع، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْر ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ». قلنا: يا رسول الله؛ اليهودُ والنَّصارى[1]؟ قال النَّبيُّ ﷺ: «فَمَن؟!» رواه الشيخان[2].

المفردات:

السَّنن: بفتح السين، السبيل والمنهاج، وقد يضم فيكون جمع سُنَّة، وهي الطريقة والسيرة.

الجُحْر: بضم الجيم، كلُّ شيء تحتفره الهوام والسِّباع لأنفسهم. ونقل شارح القاموس عن فقهاء اللغة أنه كان خاصّاً بالضَّب، ثم توسَّعوا فيه واستعملوه لغيره.

الضَّب: دُوَيْبة تشبه الحرذون، وهي أنواع؛ فمنها ما هو قدر الحرذون، ومنها أكبر منه، ومنه دون العنز، وهو أعظمها. ونقل الدَّميري في «حياة الحيوان» أن الضَّبَّ، والوَرَل، والحَرْباء، وشحمة الأرض، والوزغ، كلها متناسبة في الخَلْق.

* * * * *

---

* مجلة الأزهر، العدد الخامس، المجلد السادس عشر، سنة (١٣٦٤).

(١) بالرفع والنصب أي: أهم اليهود والنصارى؟ أو تعني اليهود والنصارى؟ وقوله: «فمن»؟ استفهام إنكار يعني ليس المراد غيرهم (طه).

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦) في كتاب الأنبياء، ومسلم (٢٦٦٩) في كتاب العلم.

من دلائل نبوّته ﷺ

من دلائل نبوّته صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر ببعض ما كان، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة؛ فإنَّ ذلك من أنباء الغيب التي يُوحيها الله تعالى إليه، ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل.

ومن هذا القبيل ـ وهو في صحيح السُنَّة غير قليل ـ أنَّ أمته ـ إلا مَنْ عَصَمَ الله ـ ستركب رؤوسَها، وتتَّبع أهواءَها، وتسيرُ سيرةَ أهل الكتاب من قبلها ـ حذو القُذَّة بالقذة[١]، والنعل بالنعل ـ لا تغادر شيئاً من معاصيها وبدعها، وزيفها وانحرافها، إلا وقعت فيه، وآثرته على تعليم دينها، وآداب شرعها.

سرُّ التمثيل بالشِّبر والذراع

وهذا هو سرُّ التمثيل بالشِّبر والذراع، وتخصيص الجُحْر بالضب؛ فهم لحرصهم على اقتفاء آثار القرون الخالية، والاقتداء بهم في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ، لَيأخُذُنَّ بأخذهم[٢]، ولَيدخلنَّ في مَداخلهم، وإن بلغت من الضِّيق والالتواء والرداءة مبلغ جُحْر الضَّب.

ابتلاء هذه الأمة بما ابتُليت به الأمم السابقة

وإذا لم يكن بُدٌّ من قضاء الله تعالى، وصدق نبيِّه ﷺ، فلا عَجَبَ أنْ تُبتلى هذه الأمة بما ابتُليت به الأُمم قبلها، من التفرُّق والتخاذل، والمَجَادلة والتحاسُد، والغلو في اتِّباع الآباء والكبراء، وحبِّ الدنيا والرياسة، إلى غير ذلك مما يُضْعف الدين ويُذهب باليقين، ويُمهِّد للشرِّ الذي يستطير بين يدي

---

(١) أي مثل ريشة السَّهم، تقدَّر على قدر صاحبها وتقطع. والعبارتان تضربان مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. وقد وَرَدَتا في روايات هذا الحديث (طه).

(٢) أخذ أخذه وبأخذه، فعل فعله واستار بسيرته. والهمزة مفتوحة. وقيل: مثلثة (طه).

الساعة. و«لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»[١].

نَبَتَ هذا كله، وأخذ ينمو ويترعرع في أعقاب القرون الثلاثة الأولى حينما اتَّسعت رقعة الفتح، ونَمَتْ الوشائج بالأمم المغلوبة، ثم فُتن العامة بالدنيا وزُخرفها، وفرَّ الخاصَّة ـ إلا قليلاً ـ بدينهم من الفتن، وعجزوا أن يقاوموا الدنيا وعُبَّادها، والأهواء وأشياعها، ورضُوا من الغنيمة بالسلامة. وليس هنا مجالٌ لمؤاخذة مُقَصِّر على تفريطه، أو متغالٍ على إفراطه.

بل لقد كاد ينبتُ هذا، والنبيُّ ﷺ بين أظهر صحابته، لولا أن اجتثَّ البذرة، وسدَّ الذريعة ببليغ حكمته.

شجرة ذات أنواط

أخرج مالك والنسائي وغيرهما عن أبي واقد الليثيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: خرَجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ـ ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سِدْرة يعكفون عندها، ويُنوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذاتُ أنواط ـ فمررنا بسِدْرة، فقلنا: يا رسولَ الله، اجْعَل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنَّها السُّنن، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٢]، لتركبنَّ سَنَن من كان قبلكم»[٣].

---

(١) اقتباسٌ من حديثٍ أخرجه مسلم (٢٩٤٩) في الفتن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»، وأخرجه مسلم أيضاً في الإمارة (١٩٢٤) من قول عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخَلْق».

(٢) سورة الأعراف: ١٣٨.

(٣) رواه بهذا اللفظ أحمد ٥ :٢١٧ الميمنيَّة (٢١٨٩٧) الرسالة، والترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢) كلهم من حديث أبي واقد الليثي، وهو حديث صحيح على شرط

=

سبب ورود الحديث

ونرى مَحْملاً قريباً أن تكون هذه القصة السببَ الأول في سياقة هذا الحديث، فيكونَ من قبيل تحذيره صلوات الله وسلامه عليه لأمته في أواخر حياته أن يقعوا فيما وقعَ فيه الأمم من قبل، كما حذَّرهم في مرضه الذي توفي فيه أن يتَّخذوا كما اتَّخَذَ اليهودُ والنَّصارى، قبورَ الأنبياء مساجد.

ما فائدة التحذير من أمر مُتحقِّق؟!

وإذا كان ركوبُ الأمَّة المحمديَّة سَنَنَ مَنْ قبلها، أمراً لا مناص منه، ولا مَعْدَى عنه، حتى عُدَّ ذلك بحقٍّ من المعجزات ودلائل النبوَّة، فما الحيلة في قضاءٍ نافذ، وأمرٍ مقدور؟! ثُمَّ ما فائدة التحذير ممَّا حَدَث ﷺ أنه كائن لا مَحَالة؟!.

جديرٌ بنا أن نقتبس الإجابة عن هذا السؤال من صاحب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفةِ أصحاب الجحيم»، فإنه لم يدع في هذا المقام لمُسْتزيد زيادة.

قال: «إنَّ الكتاب والسُّنَّة قد دَلاَّ على أنه لا يزال في هذه الأمة طائفة مُسْتمسكين بالحقِّ إلى قيام الساعة[1]، وأنَّ الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته[2]، وأنهم لا يجتمعون على ضلالة[3].

الشيخين انظر: التعليق على المسند ٣٦: ٢٢٦.

(١) روى البخاري (٣٦٤٠) (٣٦٤٢)، ومسلم (١٠٣٧) (١٩٢١) (٣٦٤١) من حديث جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين إلى يوم القيامة».

(٢) روى أحمد في المسند ٤: ٢٠٠(١٧٧٨٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» ٩: ٦١، وابن ماجه في «المقدمة» (٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٦) من حديث أبي عِنَبةَ الخولاني يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين بغرس يستعملهم في طاعته»، وهو حديث حسن. انظر: التعليق على المسند ٢٩: ٣٢٥.

(٣) روى أحمد في «المسند» ٦: ٣٩٦ (٢٧٢٢٤)، والطبراني في الكبير (٢١٧١) من

=

ففي التحذير من التقليد وركوب السَّنن تكثيرٌ لهذه الطائفة الظاهرة المنصورة، وتثبيتٌ لها، وتقويةٌ لإيمانها.

ثمَّ لو قُدِّر أنَّ أحداً لا يترك التشبُّه بهم، والدخول في أهوائهم، لكان في هذا التحذير إيمانٌ بما جاء به الصَّادق المَصْدوق صلوات الله وسلامه عليه.

ألا ترى إلى ما يرويه مسلم من قوله: «من رأى منكم منكراً فَلْيغيِّره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان»[١]. وفي لفظ: «ليس وراءَ ذلك من الإيمان حبَّة خردل»[٢]. والإيمان بما كرهه الله خيرٌ، وإن لم يقترن بالعمل.

ومن هنا كان حقّاً على العالم بالمنكر أن يُنكره، ولو تورَّط فيه وابتليَ به. على أنَّ العالم بالذنب قد يستغفر الله، ولو أصرَّ على ما فعل، أو يأتي بحَسَنات تمحوه، أو تُخَفِّفه، أو تُضْعف هَّمته في طلبه.

وكم بين العالم والجاهل من دَرَجات وفَضْل، والحمدُ لله إذ منَّ على هذه الأمة بأنها مهما اختلفت وتخاذلت، فلا يزال طائفةٌ منها ظاهرين على الحق لا يضرُّهم مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمر الله»[٣].

وفي هذا كما أشرنا أوّلَ الشرح إيماءٌ إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يَقصْد كل الأمة، وإنما يقصد سوادها الأعم الأغلب، اعتماداً على ما تواتر

حديث أبي بَصْرة الغفاري، وهو حديث صحيح لغيره. والترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. ولفظه عند الترمذي من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي أو قال: أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذ إلى النار».

(١) رواه مسلم (٤٩).

(٢) رواه مسلم (٥٠).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية ١ :١٧١_١٧٢.

عنه، من استثناء هذه الفئة النادرة. والنادر ـ كما يقولون ـ لا حكم له.

بلاءُ التقليد وسوءُ مغبَّته

وفي الحديث إشارةٌ إلى بلاء التقليد، وسوء مغبَّته، وكم جرَّ التقليد على الأمم ـ لا سيِّما المسلمين ـ من وَيْلات ونَكَبات، في أنفسهم ودينهم وقوميَّتهم، حتى كادوا ينماعون في غيرهم، كما ينماع الملح أو الحبر.

الحكمة من النهي عن التشبُّه بالغير

ولحكمة بالغة، نُهينا عن التشبُّه بغيرنا، ولو في ظاهر الأمر والمباح منه؛ لأنَّ المشاركة في الهُدى الظاهر تُورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال. وترى هذا مُشَاهَداً جليّاً فيمن يتجمَّل بلباس أهل العلم، ومن يتزيّا بزي الجند مثلاً، فإنَّ كلاً منهما ـ ولا محالة ـ واجد في نفسه ميلاً إلى مَنْ يقلِّده، لا يزال ينمو ويقوى حتى يصير طبعاً وعادة.

ومن هنا ندرك بعض ما ينطوي عليه من أسرارٍ وحكم قوله ﷺ: «من تشبَّه بقوم فهو منهم»[1]. وإذا كان هذا في السَّمْت المباح والأمر الظاهر، فكيف

---

(١) أخرجه أحمد ٢ :٥٠(٥١١٤)، (٥١١٥)، (٥٦٦٧) من حديث ابن عمر مرفوعاً: «بُعثت بالسيف بين يدي الساعة...» وهو حديث ضعيفُ الإسناد على نكارةٍ في بعض ألفاظه. ففي إسناده ابن ثوبان ـ وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثَوْبان ـ اختلفت فيه أقوال المجرِّحين والمعدِّلين، فمنهم من قوَّى أمره، ومنهم من ضعَّفه، وقد تغيَّر بأخرة، وخلاصة القول فيه: أنه حسن الحديث إذا لم ينفرد بما ينكر، فقد أشار الإمام أحمد إلى أن له أحاديث منكرة، وهذا منها. انظر التعليق على مسند أحمد ٩: ١٢٤. وأخرج قوله ﷺ: «من تشبَّه بقوم فهو منهم» فقط أبو داود (٤٠٣١) وفيه ابن ثوبان أيضاً. ويشهد لقوله: «من تشبَّه بقوم فهو منهم» حديث حذيفة عند البزار (١٤٤)، وقال: لا نعلمه مسنداً عن حذيفة إلا من هذا الوجه، وقد وقفه بعضهم على حذيفة، وأورده الهيثمي في «المجمع» ١٠ : ٢٧١ ونسبه إلى الطبراني في «الأوسط» (٨٣٢٧) فقط، وقال: فيه عليٍّ بن غراب (وهو عند البزار أيضاً)، وقد وثقه غير واحد، وضعَّفه بعضهم، وبقية رجاله ثقات.

بالتشبُّه في الفسق والضَّلال وذرائع الكفر، والعياذُ بالله عزَّ وجل؟!.

مضارُّ التقليد الأعمى وسوءاته

شهد بمضارِّ التقليد وسوءاته فلاسفة الأخلاق والاجتماع، وعلماء النفس والتربية قديماً وحديثاً، وحرصوا على ألا تتردَّى في الهاوية أممُهم، حتى لَتجد الأمة القوية العريقة مُسْتَمسكة بتقاليدها وعاداتهَا، عاضةً عليها بالنواجذ، لا تفرِّط فيها قِيدَ أنملة.

ومن سخفِ العقل، وكثافة الجهل، ما نرى من غُلوٍّ هؤلاء المقلِّدين، وحرصهم على بعض عادات وتقاليد، اطَّرحها ذووها؛ لِمَا رأوا فيها من فسادٍ لا صلاح معه.

ولو لم يكن من مَضَارِّ التقليد إلا شعور المُقلِّد بضعفه وحقارته، ثم بكمال المُقلَّد وعظمته، لكفى بذلك إثماً وعاراً.

وما أحكمَ ما يقول ابن خلدون في «مقدمته»: «إنَّ النفس ـ أبداً ـ تعتقدُ الكمالَ فيمن غَلَبها، وانقادت إليه ... ولذلك ترى المغلوبَ يتشبَّه أبداً بالغالب، في مَلْبَسِهِ، ومركبه وسلاحه، في اتِّخاذها وأشكالها، بل في سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم، كيف تجدهم مُتشبِّهين بهم دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم»[1].

التقليد البصير

على أننا لا ننكر من التقليد ما كان بصيراً، يَهدي إلى الرُّشد، ويعين على بناء الأمة، وينهضُ بها إلى مَدَارج الرِّفعة والعزَّة؛ فإن لذلك آثاره الحميدة، وغاياته المجيدة. والإسلام لا يمنع من هذا ولا يقف في طريقه. وكيف، وهو

---

(١) مقدِّمة ابن خلدون ص١٣٧ الفصل الثالث والعشرون من الباب الثاني في أن المغلوب مُولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيِّه ونِحْلته وسائر أحواله وعوائِده.

ينادي بالسَّبْق إلى كلِّ فضيلة، والعمل على تحقيق كلِّ خير ومصلحة؟!.

ولئن دَخَل العدوُّ على المسلمين من أبواب مُتفرِّقة، فإنَّ أشدَّ المداخل عليهم ما رماهم به عدوُّهم من الجمود والتعصُّب، كي يسلبَهم ما ورثوا من عزَّة وقوَّة، وينفذ إلى ما يرومُ من ذلَّة وضعف؛ على حين أنَّ هؤلاء الذين غزُوهم أحرص الناس على تقاليدهم وعاداتهم، لا يعدلون عنها فتيلاً. وإلا فما بالهم لا يقلِّدون المسلمين، ولو مُجَاملة في الأمور التافهة؟!.

فإنْ كان ولا بد من تقليد، فليكن في جدِّ الحياة دون هزلها وعبثها، وفي شريف الأمور دون خسيسها ودنيئها؛ «فإنَّ الله تعالى يحبُّ معالي الأمور وأشرافها، ويكره رُذَالها وسَفْسَافَها»[1].

* * * * *

---

(١) اقْتباس من حديثٍ رواه الطبرانيُّ (٢٨٩٤)، والقضاعي في «الشهاب» (١٠٧٦) عن الحسين بن علي عليهما السلام. قال الهيثمي في «المجمع»: «فيه خالد بن إلياس، ضعَّفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي، وبقية رجاله ثقات، وهو حديث صحيح لشواهده. قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢ :٣٥٨: «أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متّصلاً، ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كُريز مرسلاً، ورجالهما ثقات». وقال المناوي في «الفيض» ٢ :٢٩٥: «معالي الأمور، هي: الأخلاق الشرعيَّة، والخصال الدينيَّة، لا الأمور الدنيويَّة؛ فإنَّ العلوَّ فيها نزول يُكره. وسَفْسافها؛ أي: حقيرها ورديئها».

أَخْذُ اللهِ للظالمين *

١١٥ـ عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته». قال ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1]. رواه الشيخان[2].

المفردات:

الإمْلاء: الإمْداد في الزمن والإمهال والتأخير، مأخوذٌ من المَلْوة، والملاوة ـ مثلثين ـ وهي الطائفة الطويلة من الزمن. وأملى للبعير: أرخى له الزِّمام ووسَّع له في القيْد؛ ليتَّسع له المرعى. والمَلَوان: الليل والنهار.

والظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه. وفي المثل: «من استرعى الذئب فقد ظلم». وأصل الظلم: الجَوْر ومجاوزة الحد، وهو ثلاثة أقسام تأتي.

وأفلته من الورطة، وفلته: خلَّصه وأنقذه. وأفلت منها بنفسه، وأفلتها: تخلَّص، يتعدى ويلزم.

* * * * *

---

* مجلة الأزهر، العدد السادس، المجلد السادس عشر (١٣٦٤).

(١) سورة هود: ١٠٢.

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦) في كتاب التفسير، ومسلم (٢٥٨٣) في كتاب البرِّ والصلة.

معنى الظلم

لا نستطيع أن نفهم الحديث حقَّ فهمه، ولا أن نُجلِّيَه كما ينبغي له، إلا إذا أوضحنا المراد «بالظلم»، وكشفنا الغطاء عنه؛ ذلك أننا لا نكاد نفهم من «الظلم» عند إطلاقه إلا أنه انتهاك حرمات الناس، والتعدِّي على حقوقهم. وهو على هذا الوجه شائعٌ معروف في كتاب الله وسنة رسوله، وفي لغة العامة والخاصة. حتى قال الأستاذ الجزيري رحمه الله في صدر كتابته على حديث الظلم والشُّح[1]: «كلُّ الناس يعرفون معنى الظلم، ويدركون معنى العدوان على الأنفس والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة. فإذا اعتدى أحدٌ على غيره في نفسه أو ماله أو عرضه، أو سَلَبه حقاً من حقوقه فقد ظلمه، ومن يفعل ذلك فقد خسر خسراناً مبيناً، وكان عُرضةً للهلاك في الدنيا والآخرة». وهو ـ رحمه الله ـ مُنصف في حمل الحديث على هذا المعنى؛ لأنه لا يكاد يحتمل غيره، وإن كان ذلك في حقيقة الأمر نوعاً من أنواع الظلم، على ما نوضِّحه.

الظلم مخالفة أوامر الله وتعدِّي حدوده

ذلك بأننا نجد القرآن المبين ـ وقد ذمَّ الظلم وأهله مئة مرة ونيِّفاً ـ يطلق «الظلم» في أغلب الأحيان على معنى عام، هو مخالفة أمر الله وتعدِّي حدوده التي حدَّ لعباده، فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها أياً كان نوعها ومناطها.

الظلم ثلاثة أنواع

ومن هنا نقل الراغب عن بعض الحكماء أنَّ الظلم ثلاثة[2]: ظلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمهُ: الكفر والشِّرك والنفاق؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ

---

(١) في المجلد الحادي عشر من مجلة الأزهر ص ٣٩٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ص٥٣٧.

ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١]، وإيّاه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢].

وظلمٌ بينه وبين الناس، وإيَّاه قَصَدَ بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٣].

وظلم بينه وبين نفسه، وإيَّاه قَصَدَ بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[٤].

وكلُّ هذه الثلاثة في الحقيقة ظلمٌ للنفس؛ فإنَّ الإنسان أول ما يَهُمُّ بالمعصية، فقد ظلم نفسه وَعَدا عليها وعرَّضها لسخط الله عز وجل، ولذلك قال الله تعالى في غير موضع: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٥].

ولا رَيْبَ أنَّ من ظلم نفسه التي بين جَنْبيه كان لغيره أظلم، وإنْ كان يجهل أو يتجاهل أنه ظالمٌ لنفسه؛ لأنه يتجلَّى له ظلمه في صورة المنفعة، وتتمثَّل له نفسه في صورة الأخيار المُصلحين، وهكذا شأن الظالمين المجرمين.

ويؤيِّد هذا الذي نقله الراغب ما يُؤْثر عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بعض خطبه: «ألا وإنَّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يطلب.

فأمَّا الظلم الذي لا يُغفر: فالشِّرك بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٦].

---

(١) سورة لقمان: ١٣.

(٢) سورة هود: ١٨.

(٣) سورة الشورى: ٤٠.

(٤) سورة فاطر: ٣٢.

(٥) سورة البقرة: ٥٧.

(٦) سورة النساء: ٤٨.

وأما الظلم الذي يُغفر: فظلم العبد نفسِه عند بعض الهَنات[1].

وأما الظلم الذي لا يُترك: فظلم العباد بعضهم بعضاً. القصاص هناك شديد، ليس هو جرحاً بالمُدى ولا ضرباً بالسياط، ولكنه ما يُستصغر ذلك معه».

المراد بالظلم في الحديث

وواضحٌ ـ بعد أقسام الظلم التي أوضحناها ـ أنَّ المراد به في الحديث ما يشملها جميعاً: من الإفساد في الأرض والتعالي فيها، وانتهاك حُرمات الله وحُرمات عباده، ويتناول ذلك أول ما يتناول الاستهزاء بالرسل وما جاؤوا به، وذلك أقبح الظلم وأشنعه. وهو ـ ولا ريب ـ دَرَكاتٌ متفاوتة بتفاوت الظالمين في الشرِّ والإفساد.

ويُؤيِّد هذا المعنى العام الذي ذهبنا إليه، استشهاده ﷺ بالآية الكريمة في وعيد الظالمين وتهديدهم، بأنَّ عاقبتهم هي عاقبة المكذِّبين لرسلهم، من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مَدْين وقوم موسى، ومن إليهم. وقد أملى لهم الله فلم يزدهم الإملاء إلا عُتُوًّا وفساداً، وبالغت الرسل في نصحهم، فلم تزدهم النصيحة إلا بغْياً وعناداً، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾[2].

إملاء الله للظالمين

وإمْلاءُ الله للظالمين هو إرجاءُ عقوبتهم، وإمْهَالُهُم إلى أجلٍ مُسَمًّى، مع إمدادهم بالنِّعم وإمتاعهم بزهرة الدنيا وزينتها؛ مكراً بهم وكَيْداً لهم؛ ليزدادوا إثماً وبغياً، وطغياناً وكفراً.

---

(١) الأمور الحقيرة، وأراد بها الإمام صغائر الذنوب.

(٢) اقتباس من الآية ٢١ من سورة غافر.

حقَّ عليهم ذلك بما أفسدوا من فطرة الله، وكفروا بأنعم الله، واغترُّوا بحلمه تعالى، وما علموا أنَّ الله يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ثُمَّ يأخذهم بَغْتَةً وهم لا يشعرون.

حكمته سبحانه في الإملاء

ولعلَّ من حكمته تعالى في هذا الإملاء ـ وله الحُجَّة البالغة ـ أن يُعذر إلى الظالمين[١]؛ لئلاَّ تكون لهم عند الله حُجَّةٌ، ولا تنفعهم لديه معذرة. وعسى أن يكونَ في بعضهم أَثَارةٌ من خير، فيتذكَّر ما قدّمت يداه، ويندم على ما فرط في جَنْب الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢].

هذا إلى ما كتب الله للأرض من أجلٍ تبلغُ فيه عمارتَها، وتأخذُ فيه زخرفَها وزينتها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٣].

جزاء الظالمين

ومن العدل الإلهيِّ، وقد حرَّم الله الظلم على نفسه، ووكَّد تحريمه على عباده، أن يجعل عقابه أليماً، وجزاءه وخيماً.

وقد قصَّ سبحانه من أنباء الظالمين ـ أفراداً وأُمماً ـ ما فيه العبر الناجعة، والعظات البالغة، لِمَنْ كان له قلبٌ أو ألقى السمع. فصَّل أخذه للظالمين في مئين من آي الذكر، وأجمله في غير آية منه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

---

(١) يزيل عذرهم فلا يبقى لهم موضعاً للاعتذار. وفي حديث البخاري (٦٤١٩): «أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجلَه حتى بلغه ستين سنة» (طه).

(٢) سورة الشورى: ٢٥.

(٣) سورة النحل: ٦١.

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

فقدان الأمة عزتها

وليس أخذ الله للظالمين مَقْصوراً على الإهلاك الحسِّي، والتدمير المرئي، بل إنَّ من ضروب الأخذ ما هو أشدُّ أثراً في النفوس، وأفعل فتكاً في الأمم! ألا وهو فقدان عزَّتها، وذهاب قوميتها، واستعباد الأمم لها حتى يهي بناؤها وتنفصمَ عروتها، وتصبحَ مثلاً في الأذلين.

ومن الأدلة على هذا: ما نشاهده من أنَّ الأمة القوية إذا غُلبت على أمرها، فإنها تُؤْثر الفناء على الاستعباد، وتختار الهلاك في سبيل عزَّتها على البقاء في رِبْقَة الذلة والهوان.

وما أحكم أبا الطيِّب إذ يقول:

ذَلَّ من يغبطُ الذليلَ بعيشٍ ... رُبَّ عيشٍ أخف منه الحِمام

ابتلاء الله الظالمين بالظالمين

ومن ضروب الأخذ: أن يبتليَ الله ظالماً بظالم، وينتقمَ من فاسقٍ بفاسق،

---

(١) سورة النحل: ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٠.

ثمَّ ينتقم منهم جميعاً. وهاهي ذي بلاد البغي والفجور، لا تزال غارقةً في بحارٍ من الدماء، هائمةً في وديان من البؤس والشقاء، بما اقْترفوا من الشَّهوات، واجْتَرحُوا من فنون المُوبقات؛ كما اعترف بذلك أساطينهم، وأهل الرأي فيهم.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1].

وليقرأ في قصص القرآن، وفي تاريخ الممالك والدول، وفي قضاء الله تعالى في بني إسرائيل وأشباههم، من شاء أن يتبيَّن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2].

افتراق الأمة أحزاباً وشيعاً

ومن أنواع العقوبة على الظلم: أن تفترق الأمة أحزاباً وشيعاً، فيتصدَّع جَمْعُها، وتختلف كلمتها، وتَتَشعَّب أهواؤها، فيطمع العدوُّ فيها، ويهون عليه أمرها. وهذا الذي أنزله الله بالأمة المُحَمَّدِيَّة لمَّا ظلمت نفسها، وحادَتْ عن تعاليم نبيِّها.

روى البخاري عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[3] قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسر»[4].

---

(١) سورة الرعد: ٣١.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٩.

(٣) سورة الأنعام: ٦٥.

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٢٨). والشكُّ من الراوي. انظر الحديث في مجلة الأزهر =

حماية هذه الأمة من عذاب الاستئصال ببركة النبي ﷺ

وقد جمعت هذه الأمة من المنكرات ما تفرَّق في الأمم السابقة، ممَّا تستحقُّ على بعضه عذاب الاستئصال، ولكنَّ الله حماهم منه ببركة نبيِّهم ﷺ، فهل لهم في ذلك مُعْتَبَر؟.

من شؤم الظلم

ومن شُؤْم الظلم: أنَّ عقوبته تعمُّ الظالمين وغيرهم، يؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[١].

وكذلك ما رواه الشيخان عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ: أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَث»[٢].

أما بعد، فهذا بعض عقاب الله للظالمين ـ على ما مَضَت به سنته، وجرَت به عادته ـ ولا مَلْجأ لهم من بطشه وأخذه، إلا أن يَتُوبُوا إلى رُشْدهم، ويكفُّوا عن ظلمهم، ويؤدُّوا حقوق الله وحقوق عباده، قبل أن يأتيَ يومٌ لا تَجْزي نفسٌ عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها عدلٌ، ولا تنفعها شفاعة. فإن لم يفعلوا، فليصبروا على عذاب الله في الدنيا: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٣].

* * * * *

المجلد الثاني عشر، ص٢٧٣ (طه).

(١) سورة الأنفال: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) اقتباس من الآية ١٢٧ من سورة طه.

الفرار من الفتن*

١١٦ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتنٌ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي؛ من تَشَرَّفَ[1] لها تَستَشرِفْه، فمن وَجَدَ مَلْجأً أو مَعاذاً فليَعُذْ به»[2].

١١٧ـ وعن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشكُ أن يكونَ خيرَ مال المسلم غنمٌ[3] يتْبَعُ بها شَعَفَ الجبال ومواقع القَطْر؛ يفرُّ بدينه من الفتن». رواهما الشيخان[4].

المفردات:

الفتنة: للفتنة في لسان العرب معانٍ منها: المحنة، والعذاب، والفضيحة، والتفرُّق في الآراء والأهواء وما يعقب ذلك من هرج ومرج.

---

* مجلة الأزهر، العدد الثاني، المجلد الخامس عشر، صفر (١٣٦٣).

(١) في «الجمع بين الصحيحين» لعبد الحقِّ الإشبيلي ٤: ١٧٦ «يشرف»، وفي نسخة أخرى: «تشوَّف».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠١) في المناقب، ومسلم (٢٨٨٦) في الفتن وأشراط الساعة.

(٣) أشهر الروايتين برفع (غنم) على أنها الاسم. ويجوز في (يتبع) تشديد التاء وتسكينها (طه).

(٤) أخرجه البخاري (١٩). ولم يروه مسلم في صحيحه، كما في «تحفة الأشراف» ٣: ٣٧٤.

وجماع معنى الفتنة: الابتلاء، والامتحان، والاختبار؛ من الفَتْن: وهو إدخال الذهب في النار لتظهر جودتُه من رداءته.

مَنْ تشرَّف لها...: أي مَنْ تَطَلَّع إليها، وتصدَّى لها تَصَدَّت له، ومن غَالَبَها غَالَبَتْهُ، فأهلكَتْه.

والملجأ، والمعاذ، والعياذ، واحد: وهو الحِصْن، وعاذَ به يعوذ، واستعاذ به، لجأ إليه. **يوشك**: يَقْرب.

وشَعَف الجبال: رؤوسُها وأعاليها، واحدتها: شَعَفَة.

مواقع القطر: مَسَاقط المطر، والمراد: الأودية والمراعي.

* * * *

من دلائل النبوة

من أعلام نبوَّته وآيات صدقه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما قصَّ الله على أمته، ممَّا كان وممَّا هو كائن إلى يوم القيامة؛ من أحداث الزمن، وطغيان الفتن، واختلاف الأمة، وأشراط الساعة، إلى غير أولئك من أنباء الغيب التي لا مَطْمَعَ فيها، ولا سبيل إليها إلا بوحيٍ من قبل العزيز الحكيم.

قَبَسٌ من حِكمة الله في الفتن

وإذا تنزَّه حُكم الله سبحانه عن العَبَث، فقد يكون من الحِكمة فيما أصاب المسلمين من ضروب الفتن الشَّعواء، التي قطَّعتهم أحزاباً وشيعاً، وكادت تحصد الأخلاق وتحلق الدين؛ أن يُميِّز الله الخبيث من الطيِّب، ويجزي كلاًّ من الصَّادق والكاذب؛ فإنَّ الدين لغوٌ على ألسنة الناس ما درَّت عليهم الأرزاق، وسُبِغَت عليهم العافية؛ فإذا جدَّ الجد، قلَّ الدَّيانون ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن

يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١].

وحكمة أخرى، وهي العظة والاعتبار بما يصيب الدولة القوية ـ بل الضعيفة ـ إذا تقسَّمتها العصبية والأهواء، ودبّ فيها دبيبُ الفرقة والاختلاف.

وأخلَقُ بنا ـ في هذا المقام ـ أن نتأمَّلَ مليًّا في ذرائع الفتن وبذورها، من الغيبة، والنميمة، والتجسُّس، والتكالب على الدنيا، إلى أمثال هذه المنكرات التي تهيج النفوس، وتزرع فيها العَدَاوة والبغضاء؛ وأن نتأمل كذلك مليًّا في تحذيره البليغ صلوات الله وسلامه عليه من الفتن، ودعوته إلى الفرار منها، فَضْلاً عن مخالطتها والتقحُّم فيها.

أحوال الناس في الفتن

والناس في الفتن على أحوالٍ شتَّى؛ شرُّهم من ينفخ شرَرَها، ويُضْرِمُ نارها، ويوقظ نائمَها. وأهون منه مَنْ يخالطُها ويهواها، ويعين عليها. وخيرٌ من هذا، مَنْ يقعد بعيداً عنها، غير متدنِّس بدنسها ولا متلطِّخ بآثامها؛ مَثَلُه فيها:كمثل ابن اللبون، لا ظهر فيُركب، ولا ضَرْع فيُحلب؛ فإنْ خشيَ أن تهبَّ عليه عاصفتُها كان أشدَّ الناس فراراً منها، ولو أن يأويَ إلى رأس جبل، أو أن يَعضَّ بجذع شجرة؛ وَحَسْبُه من القوت ما سدَّ الجوعة، ومن اللباس ما وارى العورة!.

موقف السلف من الفتن

على أنَّ فضل الفرار من الفتن إنمَّا هو للعاجز الذي لا يملك فيها حولاً ولا قوةً؛ أما من ظنَّ بنفسه قدرةً على إخْمادها، أو تسكينها، أو التقليم من أظفارها، فليقم لما أعدَّه الله له؛ فإن الله مبتليه بذلك، وسائله عمَّا مكَّن له.

---

(١) سورة العنكبوت: ٢ ـ ٣.

ومن هنا نستطيع أن نفسِّر ـ بعض التفسير ـ موقف السَّلف من الفتن التي مُنِيَ بها المسلمون في العهد الأول، فاعتزلها قومٌ[١]، ودفعها ـ أو حاول ـ آخرون.

وإذا كنّا لا نعصمُ فريقاً منهم من الخطأ[٢]، فإنّنا لا نستبعد على الدُّخلاء في الإسلام سوءَ النيَّة[٣]؛ ولكنّا لا نظنُّ بأصحاب رسول الله ﷺ إلاَّ خيراً

---

(١) من هؤلاء محمد بن مَسْلَمة، وعبد الله بن عمر، وأبو بكرة رضي الله عنهم. ينظر: فتح الباري، كتاب الفتن، شرح الحديث (٧٠٨٢).

(٢) في كلام المؤلف نَظَر، فإنَّ الخليفةَ الحقّ بعد عثمان هو عليُّ بن أبي طالب، والذين قاتلوه في الجَمَلِ وصفِّين مخطؤون بغاة، ولهذا أجرى أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه أحكام البغاة في حقِّهم، بل إنَّ الفقهاء ما أخذوا أحكام البغاة إلا عنه رضوان الله عليه. فأمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه كان هو المحق المصيب في تلك الحروب، وممَّا يؤيِّد ذلك ماررواه مسلم في صحيحه (٢٩١٥) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لعمار، حين جعل يحفر الخندق، وجَعَل يمسح رأسه ويقول: «بؤْسَ ابنِ سُميَّة: تقتُلُك فئةٌ باغية». وماررواه مسلم ٢ :٧٤٥(١٥٠) أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «تَمْرُقُ مارقةٌ عند فرقة من المسلمين، تقتلها أولى الطائفتين بالحق».

فهذه الروايات ـ كما يقول النووي في «شرح مسلم» ٧ :١٦٨: صريحة في أن علياً رضي الله عنه كان هو المصيب المحق، والطائفة الأخرى، أصحاب معاوية كانوا بغاةً متأوِّلين. قال: وفيه التصريح بأنَّ الطائفتَيْن مؤمنون، لا يخرجون بالقتال عن الإيمان، ولا يفسّقون. وهذا مذهبنا، ومذهب موافقينا.

ومن الأدلة أيضاً ماررواه البزَّار ـ بإسناد جيد كما قال الحافظ في «الفتح» ١٣ :٩٢ ـ عن زَيْد بن وَهْب قال: كنا عند حذيفة فقال: كيف أنتم، وقد خرج أهل دينكم، يضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف؟ قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «انظروا الفرقة التي تدعو إلى أمر عليٍّ فالزموها، فإنَّها على الحق» وانظر بقية الأدلة في «الفتح» ١٣ :٩٢.

(٣) وفي مقدمة هؤلاء عبد الله بن سبأ الهمداني، المعروف بابن السوداء، كان يهودياً من أهل صنعاء، أمه سوداء، أسلم زمن عثمان رضي الله عنه، ثم تنقل في بلدان المسلمين

=

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

أي الأمرين أفضل: العزلة، أم الخِلْطَة؟

ويستدلُّ بهذين الحديثين، وما في معناهما مَنْ يُرجِّح العزلة ويدعو إليها. وترجيح العزلة على المخالطة، أو العكس، من مهمّات المسائل التي تناولتها بحوثُ العلماء قديماً وحديثاً، وأوفتها حقّها، درساً وتمحيصاً، حتى اختصَّها الإمام الغزالي رحمه الله بكتاب من «إحياء علوم الدين»[٢].

وجملةُ القول: أنَّ فريقاً من الناس يُؤْثِرونَ العُزلة؛ لأنها أسلم للدين، وأدْعى للأُنس بالله عزّ وجل. ولو لم يكن فيها إلاَّ الخَلاَص من الغيبة التي أضحت فُكاهة المجالس لكفى. ومِن هؤلاء: سفيان الثوري، والفُضيل بن عياض، وأكثر العبَّاد والزهَّاد.

وآخرون يُؤْثِرونَ الخِلْطَة، لما فيها من العلم والتعلُّم، والنفع والانتفاع، والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والتعاونِ على البرِّ والتقوى، وتحقيق المُثُل العليا لخير أُمّة أُخرِجتْ للناس، ومن هؤلاء: سعيد بن المسيِّب، والشَّعبيُّ، وابن المبارك، والشافعي، وابن حنبل، وأكثر التابعين.

وفَصْلُ الخطاب: أنَّ لكلٍّ من العزلة والاجتماع كثيراً من الآفات، وأنَّ كلاًّ منهما يختلف باختلاف أحوال الناس والأحوال والأوقات؛ وليس أجمل ولا أعدل من الاعتدال، في عامة الأحوال.

يريد ضلالتهم، وهو أول من وضع مبدأ الرَّجعة، وأول من قال بالوصية. تنظر أخباره في تاريخ الطبري ٤: ٢٤٠، والبداية والنهاية، لابن كثير ٧: ٢٣٦.

(١) سورة النور: ٦٣.

(٢) إحياء علوم الدين، كتاب العزلة، وهو الكتاب السادس من ربع العادات ٢: ٢٢٢ ـ ٢٤١.

فليأخذ المرء بحظِّه من الأمرين جميعاً؛ في رُشْد وسَدَاد، وبصيرة وجهاد، فإذا ما تموَّجت الفتن، وعمَّت الأهواء، ولم يجد ملجأً إلا الفِرار، فَلْيَسَعْه بيته، وَلْيَبْكِ على خطيئته، ولْيَعُذ بالله خَيْرَ مَعَاذ[1].

ولن يكون ذلك إلا بعد أن يذهب الصَّالحون تباعاً، وتبقى حُفالة[2] كحُفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله باله[3]. فالحقُّ الذي تهدي إليه معالمُ السُّنة أنَّ شرائط العزلة لم تكتمل كلها بعد؛ وإن عست أن تكون قريباً.

وما لم تتم شرائط العزلة كلها، فهروب المرء أو قبوعه في كَسْر بيته ـ لا سيما أهل الدعوة إلى الله تعالى ـ جُبْنٌ، أو رهبانية؛ وليس الجُبْن من صفات المتَّقين، وليست الرهبانية في شيء من هذا الدين، وإنما كانت سائغة في الأمم السابقة، بل كانت قُربةً إلى الله تعالى، ووسيلةً إلى رضوانه، أمّا هذه الأمة فرهبانيتها ـ كما روى الإمام أحمد وغيره ـ الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل[4].

---

(١) كما في قوله ﷺ لعبد الله بن عامر الجُهني لما قال له: يارسول الله: ماالنجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانَك، ولْيَسَعْك بيتك، وابْكِ على خطيئتك» أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٦) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) الحُفالة: الحُثالة، وما رقَّ من عكر الدُّهن، ورُغوة اللبن.

(٣) كما في الحديث الذي رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٤) باب ذهاب الصَّالحين من حديث مرداس الأسلمي رضي الله عنه ـ وكان من أصحاب الشجرة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يذهب الصَّالحون، الأول فالأول، ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله باله» أي: لا يرفع لهم قدراً، ولا يقيم لهم وزناً. يقال: مابالَيتُهُ، أي: لم أكترث به. كما في «النهاية» ١ :١٥٦.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» ٣: ٨٢ (١١٧٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري، ومن حديث أنس بن مالك ٣ :٢٦٦(١٣٨٠٧)، وكلا الحديثين ضعيف. انظر: «المسند» طبعة مؤسسة الرسالة.

الفتن ضروب شتَّى

وبعد، فَيُومئ الحديثان إلى ما استفاض في السنة، من أنَّ الفتن ضروبٌ شتّى؛ منها العام والخاص، ومنها الشديد العظيم، والهيِّن اليسير؛ ومنها المعيَّن والمُبَاغِت، وبين يدي الساعة تَصْطَخب وتَضْطرم، ويكسع بعضها بعضاً[١]، ويركب بعضها أعناق بعض.

والمؤمنُ الكيِّس مَنْ أعدَّ للفتن عدَّته، وبادرها بالصَّالحات قبل أن تَبْغَته، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بادروا بالأعمال؛ فتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً؛ يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا»**[٢].

* * * * *

(١) أي: يتبع بعضها بعضاً.

(٢) أخرجه مسلم (١١٨) في الإيمان، والترمذي (١٢٩٥) في الفتن وصحَّحه.

سبيل المؤمنين *

ـ ١ ـ

١١٨ ـ عن حُذيفة بن اليمان رضي الله عنهما يقول: كان الناسُ يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشرِّ مخافةَ أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنَّا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم؟» قلت: وهل بعد ذلك الشرِّ من خير؟ قال: «نعم، وفيه دَخَنٌ»، قلت: وما دَخنه؟ قال: «قومٌ يهدون بغير هَدْيي، تعرف منهم وتُنكر»، قلتُ: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاةٌ على أبواب جهنم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها!» قلت: يارسول الله صِفْهم لنا، قال: «هم من جِلدتنا، ويتكلَّمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟! قال: «فاعتزل تلك الفِرَق كلها، ولو أنْ تعضَّ بأصل شجرة، حتى يُدركك الموت، وأنت على ذلك» رواه الشيخان واللفظ للبخاري[1].

مكان حذيفة في الصحابة

أبو عبد الله حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه، من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، ومن المقدَّمين عنده علماً ونُبْلاً وفضلاً، كان صاحب سرِّه في المنافقين،

---

* مجلة الأزهر، العدد التاسع، المجلد الثامن والعشرون (١٣٧٦= ١٩٥٧).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) في المناقب، و(٧٠٨٤) في الفتن، ومسلم (١٨٤٧) في الإمارة.

لا يعلم نفاقهم غيره، وتلك مزيَّةٌ اختصَّه بها النبيُّ صلوات الله عليه وسلامه، وقد أرسله ليلة الأحزاب ـ سريَّة وحده ـ ليأتيَه بخبر القوم، فذهب إليهم وجاءه بخبرهم[١].

وكان عمر يُجلُّه ويسأله: هل تعلم فيَّ شيئاً من النفاق؟ فيقول: لا.

وأبلى في الفتح الإسلامي بلاءً حسناً، وولاَّه عمر المدائن، وقال لأصحابه: تمنوا، فتمنوا ملءَ البيت الذي هم فيه جوهراً، لينفقوه في سبيل الله، فقال عمر: أتمنَّى رجالاً مثل أبي عبيدة ومعاذ وحذيفة، وأستعملهم في طاعة الله.

أحاديث الفتن وأشراط الساعة

كان أحفظ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لأحاديث الفتن وأشراط الساعة، حتى لَيقول فيما رواه الشيخان: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، ما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلاّ حدَّث به، حفظه مَنْ حفظه، ونسيَه من نسيَه. قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيتُه فأراه فأذكره، كما يذكر الرجلُ وجْهَ الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[٢].

وروى مسلم عنه قال: أخبرني رسول الله ﷺ بما كان إلى أن تقوم الساعة[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٨) في الجهاد.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١). قال الذهبي في «السير» ٢: ٣٦٦: «قلت: قد كان ﷺ يرتِّل كلامه ويُفسِّره، فلعلَّه قال في مجلسه ذلك ما يُكتب في جزء، فذكر أكبر الكوائن، ولو ذكر أكثر ما هو كائن في الوجود، لما تهيّأ أن يقوله في سنة، بل ولا في أعوام، ففكِّر في هذا»

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩١).

وفي صحيح مسلم أيضاً عنه قال: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة كائنة فيما بيني وبين الساعة[١].

لاجَرَمَ أن الله تعالى عَلَّمَ نبيَّهُ ما لم يكن يعلم، وأوْحى إليه من أنباء الغيب كثيراً، وإنْ كانت في جَنْبِ علم الله قليلاً.. ثم اختصَّ ﷺ صاحبَ سرِّه منها بالنصيب الأوفى..

الشر والفتن والنفاق توائم

والشرُّ والفتن والنفاق توائم، بعضُها من بعض، يبرأُ منها الإيمان والمؤمن الحق؛ لأنها معاول هدم وفساد ونقْض، تهدمُ الأمة، وتفرِّقُ الكلمة، وتنقض العُروة، وتُفسد ذاتَ البيْن، وتجعل أهلها أثراً بعد عَيْن!! وأشدُّها ما التبس أمره واضْطَربت مذاهبه، كما قال رضي الله عنه ـ وقد سُئل: أيُّ الفتن أشد؟ ـ: أن يعرض عليك الخير والشرّ، فلا تدري أيُّهما تركب.

تعاقب الشَّر والخير

كان رضوان الله عليه شديد الخوف والحذر، من الفتن والنفاق والشر، وحبَّب الله إليه السؤال عنها؛ ليحذرها ويحذِّر منها، كما حبَّب الله لغيره من أصحاب نبيِّه ﷺ أن يسألوا عن وجوه الخير؛ ليعملوا بها ويبلِّغوها، وكلُّهم على هدى من الله ورحمة..

وقد سأل رسولَ الله ﷺ ـ فيما سأل ـ: عمَّا هم فيه من الخير العظيم، والفضْل العميم، والهدى والنور، والشفاء لما في الصدور، الذي بعث الله به خاتم النبيين ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، بعد أن كانوا في جهالةٍ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩١). ولفظه من حديث حذيفة أنه قال: أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة. فما منه شيءٌ إلا قد سألته، إلا أني لم أسأله: ما يُخرج أهل المدينة من المدينة؟.

جهلاء، وضلالةٍ عمياء، وظلماتٍ بعضها فوق بعض هل يكون بعد هذا الخير ـ وما أعظمه ـ شيء من شر؟.

فأجابه من لا ينطق عن الهوى عليه صلوات الله وسلامه: نعم إنَّ شيئاً من الشرِّ لكائن! ابتلاءً للأمة، واختباراً للنعمة ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

سأل حذيفة مرةً ثانية: هل من خير يجيء بعد ذلك الشرِّ فيمحوه؟ فأجابه المعصوم ﷺ: نعم، سيكون خيرٌ خالصٌ لاشِيَةَ فيه، كالنُّور مضيئاً، لا دخان به، وكالماء صافياً لا كَدَرَ معه.

قال حذيفةُ مرةً ثالثة: هل يلحق ذلك الخير من شر؟ فأجابه الصَّادق المَصْدوق ﷺ: نعم. فقال: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ فقال ﷺ: نعم، ولكنه خير يخالطه الشر، كالنور معتماً والماء مكدراً، فكذلك الناس ونفوسهم، يُرشدون بغير سنتي، ويسلكون غير سبيلي، على أنك ترى المعروف منهم حيناً فتشكره، وإن كنت ترى المنكر أحياناً فتنكره، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

دعاة الفتن

لم يقنع حذيفة رضي الله عنه بما سأل رسول الله ﷺ عن تعاقب الخير والشر، وهو يجيبه في كلِّ مرةٍ.. بل سأله مرةً خامسة عما وراء هذا الخير المدخول: هل من شرٍّ يكون بعده؟ فأجابه ﷺ: نعم، شرٌّ أشدُّ وأفظع! يطيره دعاة فتن، وأرباب سُوء، يدْعون الناس إلى الفساد، ويَصُدُّونهم عن سبيل الرَّشاد، يقولون ما لا يفعلون، ويُلبسون الحقَّ بالباطل، ويكتمون الحقَّ وهم يعلمون، مأواهم ـ ومن اتَّبعهم ـ النار، وبئس القرار!

---

(١) سورة العنكبوت: ٢ ـ ٣.

والعجب أنهم من جِلْدتنا، وأبناء عشيرتنا وملَّتنا، يتكلَّمون بهذا اللسان العربي، وربما قرؤوا كتاب الله تعالى، وتحدَّثوا بحديث رسول الله ﷺ، ولكن أفئدتهم من الخير هواء: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[1].

فَمَن أدرك منهم أحداً فلينبذه نَبْذَ النواة، ولْيَلْزم جماعة المسلمين، ويتَّبع سبيلَ المؤمنين، من السمع والطاعة، فإنَّ «من خلع يداً من طاعة، لقيَ اللهَ يوم القيامة ولا حجَّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعةٌ، مات ميتةً جاهلية»[2].

خيار الأمة وشرارهم

نعم، إنَّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه، «وما من عبدٍ يسترعيه الله رعيَّةً يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته إلاّ حرَّم الله عليه الجنةَ»[3].. هكذا توعَّد الصَّادق المصدوق ﷺ كلَّ أمير أو حاكم لم يجهد لأمته، ولم ينصح لجماعته.

وقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «اللهمَّ مَنْ وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً، فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن ولِيَ من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم، فارفُقْ به»[4].

كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «خيار أئمَّتكم: الذين تُحبُّونهم ويُحبُّونكم، وتُصَلُّون عليهم ويُصَلُّون عليكم، وشرار أئمَّتكم: الذين تُبغضونهم

---

(١) سورة آل عمران:١٦٧.

(٢) اقتباس من حديث أخرجه مسلم في صحيح (١٨٥١) في كتاب الإمارة من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً.

(٣) اقتباس من حديث أخرجه البخاري (٧١٥٠) (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢)كلاهما من حديث معقل بن يسار مرفوعاً.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

ويُبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» قالوا: يا رسول الله أفلا ننابذهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»[١].

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

وإنما حتَّم النبيُّ ﷺ على كلِّ امرىء أن يسمع ويطيع لإمامه فيما أحبَّ أو كره ـ ما لم يُؤْمر بمعصية ـ حرصاً على وحدة الأمة، وجمعاً لكلمتها، وطلباً لسلامتها من محنة الفتنة، ومغبة الفرقة، وهو الذي أُرسل رحمة للعالمين.

فإذا لم يكن إمامٌ للناس ولا جماعة، وتقطَّعوا أحزاباً وشيَعاً، كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون، فَلْيعتزل هذه الأحزاب كلَّها، وليتحمَّل من البلاء ما حُمِّل، وله إذا صَبَر واحتَسَب جزاءُ الصَّابرين.

من أعلام النبوة

ذلك، والحديثُ عَلَمٌ من أعلام النبوة، ما في ذلك رَيْب، ولكن هل يشير إلى فتن معينة، وفِرَق خاصة؟ وما هي تلك الفرق؟ هذا ما نرجو أن نكشف الغطاء عنه في الجزء التالي بمشيئة الله تعالى وتوفيقه وهو ولي التوفيق.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

سبيل المؤمنين[1]

ـ٢ـ

١١٩ ـ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ: مخافة أن يدركني؛ فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: «نعم»، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن»، قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنُّون بغير سنَّتي، ويهدون بغير هَدْيِي، تعرف منهم وتُنكر»؛ فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنَّم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»! فقلت: يارسول الله، صِفْهم لنا، قال: «نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلَّمون بـألسنتنا»، قلت: يارسول الله، فما ترى إنْ أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولاإمام؟! قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ على أصل شجرة، حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك». رواه الشيخان واللفظ لمسلم[2].

* * * * *

---

(١) مجلة الأزهر، العدد العاشر، السنة الثامنة والعشرون (١٣٧٦=١٩٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) في المناقب، و (٧٠٨٤) في الفتن، ومسلم (١٨٤٧) في الإمارة، واللفظ له.

الشُّورى في الإسلام

كان النبيُّ ﷺ ـ بمقتضى الدستور الإلهي ـ هو الحاكم المُقَدَّم، والرئيس الأعظم، لخير أمة أُخرجت للناس، وكان ـ مع تلك الولاية العظمى ـ مأموراً بمشاورة أمته فيما لم ينزل فيه وحيٌ من الله عزَّ وجل.

فلمَّا لحق صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى، كان شأن المشورة بين أمته أعظم، وكانت ـ لما لم يرد فيه نصٌّ من الأحكام ـ ألزم..

وعلى أساس هذه الشورى مَضَوْا رضوان الله عليهم في تولية الخلفاء الراشدين أئمةً لهم.

مبادرة الفاروق

ولئن بادر الفاروق بمبايعة الصِّدِّيق رضي الله عنه ـ ولمَّا تنضج الشُّورى في المبايعة ـ فلقد كان مترجماً لما في نفس رسول الله ﷺ ونفوس أصحابه، من أنَّ أحبَّ الناس إليه، وخليفته في حياته، أوْلى الناس قاطبةً بأن يكون خليفته من بعد وفاته.. ذلك أنه رضي الله عنه بادر؛ إذ أوْجَس في نفسه خيفة من أن ينحدر الاختلاف في الشورى ـ والاختلاف فيها لا بدَّ منه ـ إلى عاقبة لا يعلم إلا الله مداها، وهذه الدنيا مِنْ حولهم تريدُ أن تَتَخَطَّفهم، وتتربَّص بهم الدوائر!.

عهد الصِّدِّيق

ولئن عَهِدَ أبو بكر بالخلافة إلى صاحبه، فلقد كان عهداً شُورياً، ما أجلَّ خيره، وأعظم ثمَرهُ وبرَّه؛ لأنه وليد الشورى الصِّديقيَّة العبقريَّة، التي تمخَّضَتْ عن استِنْباء الأجلاَّء من أصحاب رسول الله ﷺ، واستطلاع آرائهم فيمن يلي أمرَهم مِن بعده، فكان إجماعهم رائعاً على أنَّ من اختاره الصِّدِّيق لهم، هو خيرهم وأفضلهم، وأقواهم على احتمال هذا العبء غير مُدافَعٍ.

منشأ الفرق والطوائف

ثمَّ كانت الشورى في خلافة ذي النُّورَيْن، وأبي الحَسَنَيْن ـ رضوان الله عليهما ـ سافرةً نيِّرةً.

ولئن حدثت في عهدَيْهما أحداثٌ كانت مَنْشأ فِرَقٍ وطوائف، ثم نِحَلٍ ومذاهب، فرَّقت المسلمين فِرَقاً، وقطَّعتهم أحزاباً وشِيَعاً، مُنيَ بها المسلمون إلى يومنا هذا. إنه البلاء المبين الذي يبتلي الله به عباده حيناً بعد حين؛ ليجمعهم على إمام سيِّد، عبقريٍّ مُجَدِّد، كما جمعهم على الحسن بن علي رضي الله عنهما، لمّا تركَ الأمر لمعاوية، وهو أحقُّ به منه، بعد أن بايعه على هذا الحقِّ أربعون ألفاً على الموت.

بشارة نبويَّة

وبهذا الإصلاح العَبْقري العظيم، حقَّق الله بشارة جدِّ الحسن ﷺ، إذ بشَّر أمته، وهو على المنبر، والحسن إلى جَنْبه، وهو ﷺ يقبل على الناس مرةً، وعليه أخرى، ويقول: «إنَّ ابني هذا سيد، ولعلَّ الله أن يُصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين»[١].

لن يُفلح قومٌ ولَّوْا أمرهم امرأة

وقد اشتركت في هذه الأحداث أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لمَّا وَليت أمر المطالبة بدم عثمان رضوان الله عليه، فقضى الله أن تزداد شقَّة الخلاف والفتن من حيث تبتغي هي ومَنْ معها إحقاق الحق[٢]؛ ليرينا الله ـ رأيَ

---

(١) البخاري (٢٧٠٤) في كتاب الصُّلح. وانظر شرح هذا الحديث في: الإصلاح بين الأكابر ص٨٩١.

(٢) انظر «مختصر التحفة الاثني عشرية» للسيد محمود شكري الآلوسي، بتحقيق السيد محب الدين الخطيب (طه).

العين ـ أنه «لن يُفْلحَ قومٌ ولَّوْا أمرهم امرأة»[1]، ولو بلغت مرتبة الصِّدِّيقين، وكانت من أُمَّهات المؤمنين[2].

حقوق الصُّحبة

وهنا نُذكِّر القرَّاء بأنَّ لأصحاب رسول الله ﷺ حقوقاً وذِمَماً، هي من حقوق رسول الله ﷺ على سائر أمته، منها: أن نقبلَ من مُحسنهم، ونتجاوزَ عن مُسيئهم، فإن لم نتدارس الحسناتِ، فلا أقلَّ من أن نتغاضى عن الهفوات؛ فإنها ليست شيئاً مذكوراً بجانب ما قدَّموا لله ورسوله ﷺ. ولنعلم أنَّ صحبتهم لرسول الله ﷺ، لا يعدلها إلا رضْوان الله عزَّ وجل.

عام الجماعة

ولمَّا سَلَّم الحسن لمعاوية مقاليدَ الأمر، اجتمعت عليه القلوب بعد الفرقة، وائْتَلَفت بعد النُّفرة، ودخل الناس في بيعته أفواجاً حتى سُمِّيَ هذا العام بحقٍّ عام الجماعة.

أحداثٌ وفتن

ثمَّ كانت أحداثٌ وفتنٌ، هَبَّت في ثناياها عواصف هُوج، وتكاثرت في خلالها طوائف وَشِيَع، وتزاحمت فيها منكراتٌ وبدعٌ، لا يزال المسلمون منها إلى اليوم في شقاءٍ وبلاء!!

---

(١) اقتباس من حديث رواه البخاري (٤٤٢٥) في الفتن، و (٧٠٩٩) في المغازي، والترمذي (٢٢٦٣) في الفتن، والنسائي (٥٣٨٨) في القضاة من حديث أبي بكْرة رضي الله عنه.

(٢) قال الحافظ الذهبيُّ في «سير أعلام النبلاء» ٢ :١٧٧: «ولا ريب أنَّ عائشة ندمت ندامةً كليَّةً على مسيرها إلى البصرة، وحضورها يومَ الجمل، وما ظنَّت أنَّ الأمر يبلغ ما بلغ. فعن عُمارة بن عُمير، عمَّن سمع عائشة: إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] بكت حتى تَبُلَّ خمارها».

نعمتان كبيرتان

ولولا أنْ مَنَّ اللهُ على المسلمين بنعمتين من نعمِهِ الكبرى، لكان الإسلام منذ قرون أثراً بعد عَيْن:

حفظُ كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعداً عليه حقاً، إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١].

وتأييد هذا الدين ـ الذي أظهره على الدين كلِّه ـ بِمَنْ شاء من عباده، حتى إنه ليؤيِّده بأقوامٍ لا خَلاقَ لهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، في قصَّة القاتل نفسه بعد أن أبلى في الجهاد بلاءً حسناً: «إنَّ الله ليؤيِّد هذا الدّين بالرجل الفاجر»[٢].

الخروج على أئمة الجَوْر

وفي مثل هذا الحديث دليلٌ ساطع على أنه لا يجوز لأحد ـ كائناً من كان ـ أن يخرج على أئمة الجور: «إلا أن تَرَوْا كفراً بَواحاً عندكم فيه من الله برهان»[٣]، بل فيه دليلٌ على الدعاء لهم، ومُضيِّ الجهاد معهم؛ اتِّقاء الفتنة، وابتغاء سلامة الأمة، واجتماع الكلمة.

متى يكون الفرار؟

فإذا عَظُم الصَّدْع، وتَشَتَّتَ الجَمْعُ، وتفرّقت الأمة ـ وعياذاً بالله ـ أيدي سبأ، ولم يكن لهم إمامٌ يجمعهم، ولا رادع يردعهم، فقد حقَّت عليهم كلمة

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

(٣) اقتباس من حديث أخرجه البخاري (٧٠٥٥) (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

العذاب، وحُقَّ لمن يرجو النجاة أن يفرَّ بدينه من الفتن، ولو أن يأوي إلى أصل شجرةٍ وحيداً فريداً يلاقي من آلام الوحدة ما يلاقي حتى الموت، فإنَّ وحدتَهُ حينئذٍ خيرٌ من مجتمع كله شرٌّ لا أمل للخير فيه، وضلالٌ لا رجاء للهدى معه!!.

لا يأس من رَوْح الله

أما بعد؛ فعلى الرغم ممَّا نرى في زماننا هذا من مَوْجات يأسٍ مُتَتَابعة، وظلمات دَنَسٍ متلاحقة، ورؤوس رجْسٍ مُتسابقة، لم يحن وقت الفرار بعد، ولن يحلَّ لمؤمن أن ييئسَ من رَوح الله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

* * * * *

(١) سورة يوسف: ٨٧.

تَتِمَّتَان

التتمة الأولى : حول عبارة : " المزية لا تقتضي الأفضليَّة "

تقدَّم قول المؤلف رحمه الله تعالى في شأن الصيام واختصاصه من بين العبادات بالإضافة إليه سبحانه ص٣١٤: "المزيَّة لا تَقْتضي الأفضليَّة"، وكذلك قوله في حديث "تخيُّر العاملين" في اختياره ﷺ عمرو بن العاص وتأميره على السابقين من أصحابه ص٦١٦: "ومن القضايا الثابته: أنَّ المزيَّة لا تقتضي الأفضلية" ويرى بعض أهل العلم عدم صحة هذه العبارة.

قال شيخنا العلامة المحدِّث المفسِّر الأصولي عبد الله بن الصدِّيق الغماري رحمه الله تعالى في كتابه "خواطر دينية" ص ٦٦: "ممَّا شاعَ بين كثير من أهل العلم، عبارة: المزيَّة لا تقتضي التفضيل ". فإذا قلتَ لأحدهم: كيف يكون الخضر ـ وهو وليٌّ ـ أعلم من موسى وهو نبيٌّ يُوحى إليه ؟ أجابك بأنه مزيَّة، والمزيَّة لا تَقْتضي التفضيل. وهي عبارةٌ ـ كما ترى ـ قُصِدَ بها الاسترواح، وليس عليها دليلٌ، بل الدليل ضدُّها.

ذلك أنَّ التفضيل ينبني على المزيَّة، فبِقَدْر مزايا الشخص يكون تفضيلهُ، وكلُّ نبيٍّ فُضِّل بمزية اختُصَّ بها، كاختصاص إبراهيم بالخُلَّة، وموسى بالكلام، ومحمد عليه الصَّلاة والسلام بالرؤية، وهكذا. وفُضِّل نبيُّنا لكثرة مزاياه التي اختُصَّ بها، وهي التي تُسمَّى خصائص، ومناقب، وفضائل، والأولياء والعلماء يتفاضلون بالمزايا التي عند كلٍّ واحد منهم، وكذلك الشهور والأيام والساعات والأذكار، تتفاضل بالمزايا التي وضعها الله فيها، فقد تبيَّن بطلان تلك العبارة من أساسها " انتهى كلام شيخنا.

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ قولهم "المزيَّة لا تَقْتضي الأفضليَّة" قولٌ صحيح، لكن مع إضافة كلمة واحدة، بأن نقول: لا تقتضي الأفضلية العامة، فمزيَّة عليٍّ في القضاء ـ مثلاً ـ لا تقتضي تفضيلُه على الشيخين في غير القضاء، رضي الله عنهم جميعاً. وهذا القَيْد أو التفسير مُلاحظٌ في أذهان قائليه.

وإذا قرأنا كلام شيخنا رحمه الله تعالى مع الأمثلة التي ذكرها، ولاحظنا فيها هذا القيد لم نر إشكالاً.

فمزيَّة الخضر ـ وهو نبيٌّ كما هو رأيُ الشيخ وجمهور العلماء ـ لا تقتضي مطلق تفضيله على سيدنا موسى عليهما الصلاة السلام، ومزيَّةٍ إبراهيم في الخلَّة، وموسى في التكليم، ومحمد ﷺ في الرؤية، لا تقتضي كلٍّ واحدة منها تفضيله المطلق على غيره.

وأما قوله رحمه الله تعالى: " وفُضِّل نبينا ﷺ لكثرة مزاياه التي اختُصَّ بها..." فهذا سليمٌ جداً، فقد جاء التفضيل العام للمزايا العامة. والله تعالى أعلم.

* * * * *

التتمة الثانية : موسى لم يدرك شعيباً عليهما السلام.

تقدم قول المؤلف رحمه الله تعالى ص٦١٢ في أن الشيخ الكبير الذي لقيه موسى في "مدين" وتزوج ابنته أنه شعيب عليه السلام، كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسِّرين. والصحيح أن موسى لم يدرك شعيباً عليهما السلام.

قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" ٦ : ٢٦٥٣:" وقد اختلف المفسِّرون في هذا الرجل: مَنْ هو ؟ على أقوالٍ أحدها: أنه شعيب النبيُّ ـ عليه السلام ـ الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقد قاله الحسن البصري، وغير واحد.

وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجلٌ مؤمن من قوم شعيب.

وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى ـ عليه السلام ـ بمده طويلة لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [1]، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ـ عليه السلام ـ بنصِّ القرآن، و عُلِمَ إنه كان بين موسى والخليل ـ عليهما السلام ـ مُدة طويلة، تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد.

ثم من المقوِّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إيَّاه، لأوشك أن يُنصَّ على اسمه في القرآن هاهنا.

وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى، لم يصح إسناده.

ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه "يثرون"، والله أعلم" انتهى.

---

(١) سورة هود: ٨٩.

وقال شيخنا العلامة المحدِّث المفسِّر الأصولي الشيخ عبد الله بن الصدِّيق رحمه الله تعالى في كتابه "خواطر دينية" ص ٣٨ ـ ٣٩: "قال كثيرٌ من المفسِّرين في المرأتين اللتين سألهما موسى عليه السلام حين وَرَد ماء مدين: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[٢]: إنهما ابنتا شعيب عليه السلام. لكن ليس في القصَّة ما يُومئ إلى ذلك سوى ذكر "مَدْين"، وهذا ليس بدليل.

ومن المستبعد ألا تشير المرأتان إلى نبوَّة أبيهما، كما لم تُشر إليه الآية إطلاقاً. وليس في إخفائهما حكمة، فقد ذكر الله لوطاً مع إبراهيم، ويعقوب مع إسحاق، وهارون مع موسى، ويوسف مع يعقوب، ويحيى مع عيسى عليهم السلام، فلمَ أخفى شعيباً ؟.

ثم إني تأمَّلتُ سورة الأعراف، فوجدتُها ذَكَرت نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً على هذا الترتيب. وقالت بعد ذلك: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [٣]. فأفادت الآية أنَّ موسى بعد شعيب عليهما السلام. فلا أدري كيف غفل عنها المفسرون ؟.

وفي سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [٤].

وبهذا الترتيب ذكروا أيضاً في سورة هود[٥]، فلهذا أرجِّح أنَّ الشيخ الكبير والد المرأتين ليس شعيباً عليه السلام، وما يذكر في ذلك من الحديث ليس بصحيح، والله أعلم " انتهى.

---

(٢) سورة القصص: ٢٣.

(٣) سورة الأعراف: ١٠٣.

(٤) سورة الحج: ٤٤.

(٥) بدءاً من الآية ٢٥ إلى الآية ٩٦.

وقال شيخنا العلاَّمة المفكِّر المفسِّر عبد الرحمن حبنكة الميداني حفظه الله تعالى في تفسيره النفيس "معارج التفكر ودقائق التدبر" ٩ : ٣٨١ :

" **من هو الشيخ أبو المرأتين من أهل مدين ؟**

جاء عند جمهور المفسِّرين أنَّه شُعيب الرسول عليه السلام، وليس لهذا القول سَنَدٌ يرفَعُهُ إلى الرسول ﷺ.

وقيل: اسمه شعيب على اسم الرسول شعيب عليه السلام.

وقيل: هو ابنُ أخي شُعيب عليه السلام. وقيل: هو ابن عَمِّهَ. وقيل: هو رجل مؤمِنٌ من قوم شعيب.

أقول: جاء في الإصحاح (٢) من سفر الخروج عند أهل الكتاب أن اسمه "رعُوئيل" فقرة (١٨).

وجاء في الإصحاح (٣) من سفر الخروج أن اسمهُ "يَثْرُون"، وأنه كان كاهن مَديان. فقرة (١).

وجاء في كتاب "قاموس الكتاب المقدَّس": أن "يَثرُونَ" معناه: فضْل، وأن "رَعوئيل" معناه: صدِّيق، أو خليل الله. قالوا: ويظهر أنَّ هذا الاسم كان اسمه الشخصي، وأن "يَثرُون" لقبُ شرفٍ أُطلق عليه.

والذي أراه أن لا داعي لاعتماد قولٍ بعينه، وعلى الرُّغم ممَّا عند أهل الكتاب من أغاليط كثيرة، فلا مانع عقلاً من أن يكون هذا الرجل "رَعُوئيل"، وأنَّ لفظ "يَثْرون" لقب شرف أُطلق عليه، وأنه كان كاهن "مَدْيَان" أي: كان ذا رياسةٍ في قومه، وعلى ملَّة الرسول شعيب عليه السلام " انتهى.

فالراجح أنه ليس شعيباً عليه السلام، لأنَّ شعيباً كان قبل موسى بمدَّة زمنية طويلة.

ومما يرجِّح ذلك أيضاً أنَّ قوم لوط وقوم مدين كانا مُتقاربَيْن من حيث الزمان ومن حيث المكان، وكان دمار قوم لوط قبل دمار مَدْين بفترة قريبة،

وذكَّرهم شعيب عليه السلام بما حلَّ بقوم لوط فقال لهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [٦] كما تقدم نقله عن ابن كثير.

وبما أنَّ هلاك قوم لوط كان زمن إبراهيم عليه السلام، فقد كان هلاك قوم مدين قريباً من عهد إبراهيم. وبين إبراهيم وموسى فترة زمنية طويلة، تمتدُّ لعدة قرون، فبينهما كلٌّ من إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وبين يوسف وموسى مدة طويلة.

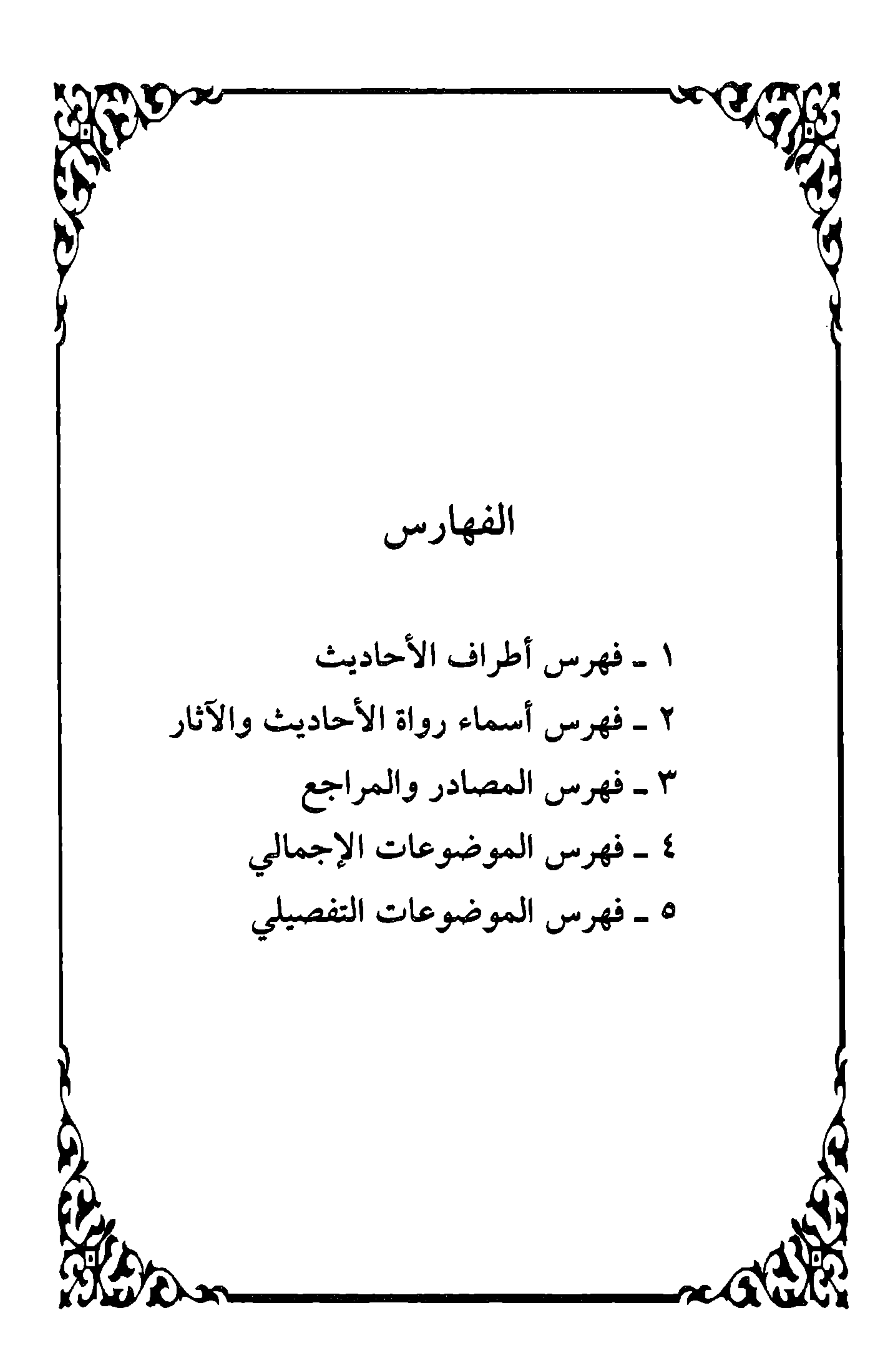
وإلى هذا القول ذهب أيضاً الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى، ورجَّح أنه ليس بشعيب، وإنما هو شيخ آخر من مَدْين، فقال "في ظلال القرآن" ٥: ٢٦٨٧: " والذي يَحملِ على هذا الترجيح: أنَّ هذا الرجل شيخٌ كبير، وشعيبٌ شَهِدَ مَهْلك قومه المكذِّبين به، ولم يَبْقَ معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو النبيُّ شعيب بين بقية قومه المؤمنين، ما سَقَوْا قبل بنتي نبيِّهم الشيخ الكبير... فليس هذا سلوك قومٍ مؤمنين ولا معاملتهم لنبيِّهم وبناته من أول جيل !

ويُضاف إلى هذا أنَّ القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيباً النبيَّ لسمعنا صوت النبوَّة في شيء من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشر سنوات ". انتهى.

* * * * *

---

(٦) سورة هود: ٨٩.



الفهارس

فهرس أطراف الأحاديث

(ق)

(ك)

(ن)

* * * * *

فهرس أسماء رواة الأحاديث والآثار

(أ)

(ب)

(ت)

* * * * *

فهرس أسماء النساء

* * * * *

فهرس المصادر والمراجع

١ـ **أبو بكر الصديق**. لعلي الطنطاوي ـ ت١٤٢٠ ـ، ط٤، دار المنارة، جدة ١٤١٥.

٢ـ **أبو هريرة راوية الإسلام وسيد الحفاظ الأثبات**. لعبد الستار الشيخ، ط١، دار القلم، دمشق ١٤٢٤.

٣ـ **إتحاف الخِيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**. للبوُصيري، أحمد بن أبي بكر الكناني ـ ت ٨٤٠ ـ تصحيح عادل سعيد، وسيد محمود إسماعيل، ط١، مكتبة الرشد، الرياض ١٤١٩.

٤ـ **الأجوبة المرضيَّة فيما سُئلت عنه من الأحاديث النبوية**. للسخاوي، محمد بن عبد الرحمن ـ ت ٩٠٢ ـ، تحقيق محمد إسحاق إبراهيم، ط١. دار الراية، الرياض ١٤١٨.

٥ـ **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**. للأمير ابن بلْبان الفارسي ـ ت ٧٣٩ ـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٨.

٦ـ **إحياء علوم الدين**. للغزالي، محمد بن محمد ـ ت ٥٠٥ ـ، مصوَّرة دار المعرفة في بيروت عن طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٤٦.

٧ـ **أخبار عمر**. لعلي الطنطاوي ـ ت ١٤٢٠ ـ ط١١، دار المنارة، جدة ١٤١٩.

٨ـ **أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين**. لمحمد عوَّامة، ط٢، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤١٨.

٩ـ **أدب الدنيا والدين**. للماوردي، علي بن محمد ـ ت٤٥٠ ـ، طبعة مصطفى عطا، ط٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٨.

١٠ـ **الأدب المفرد**. للبخاري، محمد بن إسماعيل ـ ت ٢٥٦ ـ، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩.

١١ـ **الأذكار النووية**. للنووي، يحيى بن شرف ـ ت ٦٧٦ ـ، تحقيق سبيع حاكمي، ط١، دار القبلة الإسلامية، جدة ١٤١٢.

١٢ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**. لابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ـ ت٨٥٢ ـ تحقيق مجموعة من الأساتذة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥.

١٣ـ **إظهار الحق**. لمحمد رحمة الله بن خليل العثماني الكيرانوي الهندي ـ ت ١٣٠٨ ـ، تحقيق عمر الدسوقي، ط١، الشؤون الدينية بدولة قطر ١٤٠٠.

١٤ـ **إعراب الحديث النبوي**. للعكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين ـ ت ٦١٦ ـ تحقيق حسن موسى الشاعر، ط٢، دار المنارة، جدة ١٤٠٨.

١٥ـ **الأعلام**. للزركلي، خير الدين ـ ت ١٣٩٦ ـ ط٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.

١٦ـ **أعلام الحديث شرح صحيح البخاري**. للخطابي، حمد بن محمد ـ ت ٣٨٨ ـ، تحقيق محمد بن سعود بن عبد الرحمن، ط١، مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٩.

١٧ـ **الأعلام الشرقيَّة في المائة الرابعة عشرة الهجرية**. لزكي محمد مجاهد، ـ ت١٤٠٠ ـ ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٤.

١٨ـ **أعلام العراق**. لمحمد بهجة الأثري ـ ت ١٤١٦ ـ، ط١، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٥.

١٩ـ **أقوال الحافظ الذهبي النقدية في علوم الحديث من كتابه سير أعلام النبلاء**. لمجد مكي، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، ١٤١٠.

٢٠ـ **إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم**. للقاضي عياض بن موسى اليحصبي ـ ت ٥٤٤ ـ، تحقيق الدكتور يحيى إسماعيل، ط١، دار الوفاء، المنصورة ١٤١٩.

٢١ـ **الأنوار في شمائل النبيِّ المختار**. للبغوي، الحسين بن مسعود ـ ت ٥١٦ ـ، تحقيق إبراهيم اليعقوبي، ط٢، دار المكتبي، دمشق ١٩٩٩.

٢٢ـ **اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**. لابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، ـ ت٧٢٨ ـ، تحقيق ناصر العقل، ط٧، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية ١٤١٩.

٢٣ـ **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**. لابن كثير. شرح أحمد محمد شاكر ـ ت ١٣٧٧ ـ ط١، مكتبة المعارف، الرياض ١٤١٦.

٢٤ـ **البداية والنهاية**. لابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر ـ ت ٧٧٤ ـ مصوَّرة مكتبة المعارف، بيروت، دون تاريخ.

٢٥ـ **بصائر للمسلم المعاصر**. لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ط٣، دار القلم، دمشق ١٤٢٠.

٢٦ـ **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث**. للهيثمي، علي بن أبي بكر ـ ت ٨٠٧ ـ، تحقيق حسين أحمد صالح الباكري، ط١، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالمدينة المنورة ١٤١٣.

٢٧ـ **البلاغة العربية**. لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤١٦.

٢٨ـ **البلدانيات**. للسخاوي، محمد بن عبد الرحمن ـ ت ٩٠٢ ـ تحقيق حسام محمد قطان،

ط١، دار العطاء، الرياض ١٤٢٢.

٢٩ـ **بهجة النفوس وتحلِّيها بمعرفة مالها وما عليها**. لابن أبي جمْرة الأندلسي ـ ت ٦٩٥ ـ المطبعة الخيرية ١٣٤٨.

٣٠ـ **البيان والتبيُّن**. للجاحظ، عمرو بن بحر ـ ت٢٥٥ ـ تحقيق عبد السلام هارون، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهر ١٤٠٥.

٣١ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**. للزَّبيدي، محمد مرتضى ـ ت ١٢٠٥ ـ مكتبة دار الحياة، بيروت.

٣٢ـ **تاريخ بغداد**. للخطيب البغدادي، أحمد بن علي ـ ٤٦٣ ـ، مصوَّرة دار الكتاب في بيروت لطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩.

٣٣ـ **تجريد أسماء الصحابة**. للذهبي، محمد بن أحمد ـ ت٧٤٨ ـ، دار المعرفة، بيروت.

٣٤ـ **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين**. للعراقي، عبد الرحيم بن الحسين، ـ ت ٨٠٦ ـ، مطبوع في حاشية "الإحياء" مصوَّرة دار المعرفة، بيروت.

٣٥ـ **تذكرة الحفَّاظ**. للذهبي، محمد بن أحمد ـ ت ٧٤٨ ـ، مصورة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٦ـ **الترغيب والترهيب**. للمنذري، عبد العظيم عبد القوي ـ ت ٦٥٦ ـ، ط١، دار ابن حزم ١٤٢٢.

٣٧ـ **تفسير الطبري**. لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ ت ٣١٠ ـ تحقيق محمود شاكر، ط٢، دار المعارف، القاهرة. ورجعت في مواطن قليلة إلى طبعة دار هجر.

٣٨ـ **تفسير القرآن العظيم**. لابن كثير، إسماعيل بن عمر ـ ت ٧٧٤ ـ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، ط١، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٩.

٣٩ـ **تفسير القرآن**. للصنعاني، عبد الرزاق بن همام ـ ت ٢١١ ـ تحقيق مصطفى مسلم. ط١، مكتبة الرشد، الرياض ١٤١٠.

* ـ **تفسير القرطبي** = الجامع لأحكام القرآن.

٤٠ـ **تفسير المنار**. لمحمد رشيد رضا ـ ت١٣٥٤ ـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢.

٤١ـ **تقريب التهذيب**. لابن حجر العَسْقَلاني، أحمد بن علي ـ ت ٨٥٢ ـ، ومعه حاشيتا البصري والميرغني، تحقيق، محمد عوامة، ط١، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٠.

٤٢ـ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**. لابن عرَّاق، علي بن محمد الكناني، ـ ت ٩٦٣ ـ، مصوَّرة دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١.

٤٣ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**. للمزِّي، يوسف بن عبد الرحمن ـ ت ٧٤٢ ـ، تحقيق بشار معروف، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠.

٤٤ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**. لابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد، ـ ت ٦٠٦ ـ، ط١، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دمشق ١٣٨٩.

٤٥ـ **الجامع بين الصحيحين**. للإمامين البخاري ومسلم، لصالح أحمد الشامي، ط١، دار القلم، دمشق ١٤٢٢.

٤٦ـ **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**. لابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد ـ ت ٧٩٥ ـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١١.

٤٧- **الجامع الصغير**. للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ـ ت ٩١١ ـ، بشرح "فيض القدير" للمناوي، تصوير دار المعرفة، بيروت ١٣٩١.

٤٨- **الجامع لأحكام القرآن**. للقرطبي، محمد بن أحمد ـ ت ٦٧١ ـ، مصورة طبعة دار الكتب المصرية، ط٣، دار الكتاب العربي ١٣٨٧.

٤٩- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**. للخطيب البغدادي، أحمد بن علي ـ ت٤٦٣ ـ، تحقيق محمود الطحان، ط١، مكتبة المعارف، الرياض١٤٠٣.

٥٠- **جِلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**. لابن قيِّم الجوزيَّة، محمد بن أبي بكر ـ ٧٥١ ـ، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٢.

٥١- **الجمع بين الصحيحين**. للإشبيلي، عبد الحق بن عبد الرحمن ـ ت ٥٨٢ ـ تحقيق حمد الغماس، ط١، دار المحقق ١٤١٩.

٥٢- **الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية**. للقرشي، عبد القادر بن محمد ـ ت ٧٥٧ ـ تحقيق عبد الفتاح الحلو، ط٢، دار هجر، القاهرة ١٤١٣.

٥٣- **جياد المسلسلات**. للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ـ ت ٩١١ ـ، تحقيق مجد مكي، ط١، دار نور المكتبات، جدة ١٤٢٣.

٥٤- **حجة الله البالغة**. للدِّهلوي، أحمد بن عبد الرحيم المعروف بشاه ولي الله الدِّهلوي ـ ت ١١٧٦ ـ، تحقيق عثمان ضميرية، ط١، مكتبة الكوثر، الرياض ١٤٢٠.

٥٥- **حُسْن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**. للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ـ ت٩١١ ـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٩.

٥٦- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**. لأبي نُعَيم الأصبَهاني، أحمد بن عبد الله ـ ت ٤٣٠ ـ مصوَّرة دار الكتب العلمية ببيروت، عن مطبعة السعادة ١٣٥١.

٥٧- **خواطر دينية**. لعبد الله بن الصديق الغماري ـ ت ١٤١٣ ـ ط١، مكتبة القاهرة ١٣٨٨.

٥٨- **درجات الناس عند الملوك**. لطه محمد الساكت ـ ت ١٤٠٣ ـ ط ١ ؛ مطبعة أمين عبد الرحمن، القاهرة، المحرم ١٣٧٠.

٥٩ـ **درجات الناس**. لطه محمد الساكت ـ ت ١٤٠٣ ـ ط ٢ و ٣ ؛ مطبعة أمين عبد الرحمن، القاهرة، رجب ورمضان ١٣٧٠.

٦٠ـ **الدُّر المنثور في التفسير المأثور**. للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ـ ت ٩١١ ـ، مصورة دار المعرفة للطبعة الميمنية ١٣١٤.

٦١ـ **الدعاء**. للطبراني، سليمان بن أحمد ـ ٣٦٠ ـ تحقيق محمد سعيد البخاري، ط١ ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٧.

٦٢ـ **دفاع عن أبي هريرة**. لعبد المنعم صالح العلي العزِّي، دار القلم ببيروت، ومكتبة النهضة ببغداد.

٦٣ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**. للبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين ـ ت ٤٥٨ ـ، تحقيق عبد المعطي قلعه جي، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥.

٦٤ـ **دلائل النبوة**. لأبي نُعَيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله ـ ت ٤٣٠ ـ تحقيق محمد رواس قلعه جي، ط١ ، المكتبة العربية، حلب ١٣٩٠.

٦٥ـ **ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل**. للذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد ـ ت ٧٤٨ ـ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٤ ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤١٠.

٦٦ـ **الرفع والتكميل في الجرح والتعديل**. للكنوي، محمد عبد الحي ـ ت١٣٠٤ ـ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٣، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤٠٧.

٦٧ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع**. للآلوسي، محمود بن عبد الله ـ ت ١٢٧٠ ـ، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥.

٦٨ـ **الروح**. لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر ـ ت٧٥١ ـ تحقيق يوسف بديوي، ط٣، دار ابن كثير، دمشق ١٤١٩.

٦٩ـ **الروض الأنف**. للسهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله ـ ت٥٨١ ـ، طبعة طه عبد الرؤوف، مصورة دار المعرفة، بيروت ١٣٩٨.

٧٠ـ **رياض الصالحين**. للنووي، يحيى بن شرف ـ ت٦٧٦ ـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١ ، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥.

٧١ـ **زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم**. للشنقيطي، محمد حبيب الله بن عبد الله الجكني ـ ت١٣٦٣ ـ، مصورة دار إحياء التراث العربي.

٧٢ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**. لابن قيِّم الجوزيَّة، محمد بن أبي بكر ـ ت٧٥١ ـ تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، ط١٥، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧.

٧٣ـ **زوائد تاريخ بغداد على الكتب والستة**. لخلدون الأحدب، ط١، دار القلم، دمشق ١٤١٧.

٧٤ـ **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**. للصَّالحي، محمد بن يوسف الشامي ـ ت ٩٤٢ ـ تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٤.

٧٥ـ **سَداد الدِّين وسِدادُ الدَّين في إثبات النجاة والدرجات للأبوين**. للبرزنجي، محمد بن رسول الشافعي ـ ت ١١٠٣ ـ، تحقيق عباس صقر وحسين شكري، ط١، دار المدينة المنورة ١٤١٨.

٧٦ـ **السعادة العظمى**. لمحمد الخضر حسين ـ ت ١٣٧٦ ـ، الشركة التونسية ١٤٠٥.

٧٧ـ **سلاح المؤمن في الذكر والدعاء**. لابن الإمام، محمد بن محمد بن علي ـ ت ٧٤٥ ـ، تحقيق محيي الدين مستو، ط١، دار ابن كثير، دمشق ١٤١٤.

٧٨ـ **سلوة الكئيب بوفاة الحبيب**. لابن ناصر الدين الدمشقي، محمد بن عبد الله ـ ت٨٤٢ ـ، تحقيق صالح معتوق، ط١، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي.

٧٩ـ **السُّنَّة النبوية وبيان مدلولها الشرعي**. لعبد الفتاح أبو غدة ـ ت ١٤١٧ ـ، ط١، مكتب المطبوعات الإسلامية، بحلب ١٤١٢.

٨٠ـ **السنة ومكانتها في التشريع**. لمصطفى السباعي ـ ت١٣٨٤ ـ، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٥.

٨١ـ **سنن أبي داود**. لسليمان بن الأشعث السِّجستاني ـ ت ٢٧٥ ـ، تحقيق محمد عوامة، ط١، دار القبلة الإسلامية بجدة، ومؤسسة الريان، بيروت ١٤١٩.

٨٢ـ **سنن ابن ماجه**. لمحمد بن يزيد القزْويني ـ ت٢٧٥ ـ طبعة محمد فؤاد عبد

الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧٢.

٨٣- **سنن الترمذي "الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل "**. لمحمد بن عيسى بن سورة ـ ت ٢٧٩ ـ، الطبعة التي ابتدأ تحقيقها أحمد محمد شاكر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٤- **سنن الدارمي**. لعبد الله بن عبد الرحمن ـ ت٢٥٥ ـ، تحقيق وشرح نبيل هاشم الغمري، ط١، الدار المكية ودار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤١٦.

٨٥- **سنن النسائي (المُجْتبى)**. لأحمد بن شعيب ـ ت ٣٠٣ ـ، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٦.

٨٦- **السنن الكبرى**. للنسائي، أحمد بن شعيب ـ ت ٣٠٣ ـ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢٢.

٨٧- **السنن الكبرى**. للبيهقي، أحمد بن الحسين ـ ت ٤٥٨ ـ، مصورة دار الفكر ببيروت لطبعة حيدر آباد الدكن.

٨٨- **سير أعلام النبلاء**. للذهبي، محمد بن أحمد ـ ت٧٤٨ ـ، تحقيق جماعة من الأساتذة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١.

٨٩- **السيرة النبوية**. لابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام ـ ت٢١٨ ـ، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، مصورة مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

٩٠- **شرح السنة**. للبغوي، الحسين بن مسعود ـ ت ٥١٦ ـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣.

٩١- **شرح حديث أبي الدرداء**. لابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد ـ ت ٧٩٥ ـ، تحقيق أشرف عبد المقصود، ط١، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة ١٤٠٧.

٩٢- **شرح صحيح مسلم (منهاج المحدثين وسبل طالبيه المحققين)**. للنووي، يحيى ابن شرف ـ ت ٦٧٦ ـ المطبعة المصرية، القاهرة.

٩٣- **شرح المواهب اللدنية**. للزرقاني، محمد عبد الباقي ـ ت ١١٢٢ ـ، مصورة دار المعرفة بيروت لطبعة المكتبة الأزهرية ١٣٢٩.

٩٤ـ **شُعَب الإيمان**. للبيهقي، أحمد بن الحسين ـ ت ٤٥٨ ـ تحقيق عبد العلي حامد، ط١، الدار السلفية، الهند ١٤٠٦، ونشره محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠.

٩٥ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**. للقاضي عياض بن موسى السبتي ـ ت ٥٤٤ ـ تحقيق علي البجاوي، مصورة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٤.

٩٦ـ **الشمائل المحمدية**. للترمذي، محمد بن عيسى بن سورة ـ ت ٢٧٩ ـ تحقيق ماهر ياسين فحل، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٢٠.

٩٧ـ **الصحاح**. للجوهري، إسماعيل بن حماد ـ ت٣٩٣ ـ،تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، ط٢، القاهرة ١٤٠٢.

٩٨ـ **صحيح أسباب النزول**. لإبراهيم محمد العلي، ط١، دار القلم، دمشق ١٤٢٤.

* ـ **صحيح ابن حبان (المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها)** = الإحسان.

٩٩ـ **صحيح ابن خزيمة (المسند الصحيح المتصل بنقل العدل عن العدل من غير قطع في السند ولا جرح في النقله)**. لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ ت٣١١ ـ تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، ط٢، شركة الطباعة السعودية، الرياض ١٤٠١.

١٠٠ـ **صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)**. لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ـ ت٢٥٦ ـ مصورة عن الطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٣، اعتنى به محمد زهير ناصر، ط١، دار طوق النجاة، بيروت ١٤٢٢.

١٠١ـ **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن رسول الله ﷺ)**. لأبي الحسين مسلم بن الحجَّاج النيسابوري ـ ت ٢٦١ ـ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، مصورة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٢ـ **صفحات من صبر العلماء**. لعبد الفتاح أبو غدة ـ ت ١٤١٧ ـ، ط٥، مكتب المطبوعات الإسلامية ١٤١٨.

١٠٣ـ **الطبقات الكبرى**. لابن سعد البصري ـ ت٢٣٠ ـ تحقيق إحسان عباس، دار

صادر، بيروت ١٤٠٥.

١٠٤ـ **ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ**. لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ط١، دار القلم، دمشق ١٤١٤.

١٠٥ـ **العقد الفريد**. لابن عبد ربه أحمد بن محمد ـ ت٣٢٧ ـ تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الإبياري، مصورة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٣.

١٠٦ـ **العقيدة الإسلامية**. للمكِّي بن عزُّوز ـ ت ١٣٣٤ ـ شرح وتحقيق مجد أحمد مكي، ط١، دار نور المكتبات، جدة ١٤٢١.

١٠٧ـ **عمل اليوم والليلة**. للنسائي، أحمد بن شعيب ـ ت ٣٠٣ ـ، تحقيق فاروق حمادة، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٦.

١٠٨ـ **عوارف المعارف**. للسهروردي، عمر بن محمد ـ ت٦٣٢ ـ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد المصطفى، ط١، المكتبة المكية، مكة المكرمة ١٤٢٢.

١٠٩ـ **غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف**. لأحمد بن محمد بن الصدِّيق الغماري ـ ت١٣٨٠ ـ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد المصطفى، ط١، المكتبة المكية ١٤٢٢.

* ـ **فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية** = مجموع الفتاوى

١١٠ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. لابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ـ ت ٨٥٢ ـ، مصورة دار الفكر، بيروت عن الطبعة السلفية بمصر.

١١١ـ **الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية**. لابن علاَّن، محمد بن علان الشافعي ـ ١٠٥٧ ـ، مصورة دار إحياء التراث العربي ببيروت، دون تاريخ.

١١٢ـ **في ظلال القرآن**. لسيد قطب ـ ت ١٣٨٧ ـ ط١٧، دار الشروق، بيروت ١٤١٢.

١١٣ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**. للمُنَاوي، محمد بن عبد الرؤوف ـ ت ١٠٧١ ـ ط٢، مصورة دار المعرفة ببيروت لطبعة مصطفى محمد.

١١٤ـ **القاضي عبد الوهاب البغدادي في آثار القدماء والمُحْدَثين**. لعبد الحكيم الأنيس، ط١، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ١٤٢٤.

١١٥ـ **القاموس المحيط**. للفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب ـ ت٨١٧ ـ

ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٧.

١١٦ـ **قصص الأنبياء**. لعبد الوهاب النجار ـ ت ١٣٦٠ ـ، ط٣، دار ابن كثير، دمشق ١٤٠٨.

١١٧ـ **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة**. للذهبي، محمد بن أحمد ـ ت ٧٤٨ ـ، تحقيق محمد عوامة، ط١، دار القبلة، جدة ١٤١٢.

١١٨ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**. لابن عَدِي، عبدالله بن عدي ـ ت٣٦٥ ـ ط١، دار الفكر، بيروت ١٤٠٤.

١١٩ـ **الكشّاف**. للزّمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ـ ت٥٣٨ ـ دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

١٢٠ـ **كشف الاستار عن زوائد البزار**. للهيثمي، علي بن أبي بكر ـ ت٨٠٧ ـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩.

١٢١ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**. للعجلوني، إسماعيل بن محمد ـ ت ١١٦٢ ـ، ط٣، مصورة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢٢ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**. للمتقي الهندي، علي المتقي بن حسام ـ ت٩٧٥ ـ ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥.

١٢٣ـ **لسان الميزان**. لابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ـ ت٨٥٢ ـ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط١، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤٢٣.

١٢٤ـ **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**. لابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد ـ ت٧٩٥ ـ تحقيق ياسين السواس، ط١، دار ابن كثير، دمشق ١٤١٣.

١٢٥ـ **لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث**. لعبد الفتاح أبو غدة ـ ت ١٤١٧ ـ ط٤، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤١٧.

١٢٦ـ **مجلة الأزهر**.

١٢٧ـ **مجلة لواء الإسلام**.

١٢٨ـ **مجلس في فضل يوم عرفة**. لابن ناصر الدين الدمشقي، ـ ت٨٤٢ ـ تحقيق

محمد عوامة، ط١، دار القبلة ١٤١٣.
١٢٩ـ **مجمع الأمثال**. للميداني، أحمد بن محمد النيسابوري ـ ت٥١٨ ـ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط٢، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٧٩.
١٣٠ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**. للهيثمي، علي بن أبي بكر ـ ت ٨٠٧ ـ مصورة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٢ عن طبعة مكتبة القدسي ١٣٥٢.
١٣١ـ **المجموع شرح المهذب**. للنووي، يحيى بن شرف ـ ت٦٧٦ ـ، مصورة دار الفكر، بيروت.
١٣٢ـ **مجموع الفتاوى**. لابن تيمية، أحمد عبد الحليم ـ ت٧٢٨ ـ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض ١٣٩٨.
١٣٣ـ **مختار الصحاح**. للرازي، محمد بن أبي بكر ـ ت٦٦٦ ـ، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩.
١٣٤ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. لابن قيم الجوزية، محمد ابن أبي بكر ـ ت٧٥١ ـ، طبعة محمد حامد الفقي، تصوير دار الفكر العربي، القاهرة.
١٣٥ـ **المداوي لعلل الجامع الصغير وشَرحي المناوي**. لأحمد بن الصِّدِّيق الغماري ـ ت١٣٨٠ ـ، ط١، دار الكتبي، القاهرة ١٩٩٦.
١٣٦ـ **مذكرات خطيِّة**. للأستاذ طه محمد الساكت ـ ت ١٤٠٣ ـ.
١٣٧ـ **المستدرك على الصحيحين**. للحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله ـ ت٤٠٥ ـ طبعة عبد السلام علوش، ط١، دار المعرفة بيروت ١٤١٨.
١٣٨ـ **مسند أبي يعلى الموصلي**. أحمد بن علي ـ ت٣٠٧ ـ، تحقيق حسين سليم أسد، ط١، دار المأمون، دمشق ١٤٠٤.
١٣٩ـ **المسند**. لأحمد بن حنبل ـ ت٢٤١ ـ، تحقيق مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١.
١٤٠ـ **مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز**. للباغندي، محمد بن محمد ـ ت٣١٢ ـ، تحقيق محمد عوامة، ط٢، مؤسسة علوم القرآن، دمشق ١٤٠٤.

١٤١ـ **مسند الشهاب**. للقضاعي، محمد بن سلامة ـ ت٤٥١ ـ، تعليق حمدي عبد المجيد، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥.

١٤٢ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**. للفيومي، أحمد بن محمد ـ ت٧٧٠ ـ، المكتبة العلمية، بيروت.

١٤٣ـ **المصنَّف**. للصنعاني، عبد الرزاق بن همَّام ـ ت٢١١ ـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣.

١٤٤ـ **المصنَّف**. لابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد ـ ت٢٣٥ ـ، تحقيق محمد عوامة، يصدر قريباً بعون الله تعالى عن دار القبلة، بجدة

١٤٥ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**. لابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ـ ت٨٥٢ ـ، تحقيق مجموعة من الباحثين، ط١، دار العاصمة، الرياض ١٤٢٠.

١٤٦ـ **معارج التفكر ودقائق التدبُّر**. للميداني، عبد الرحمن حبنكة، ط١، دار القلم، دمشق ١٤٢٢.

١٤٧ـ **معالم السنن**. للخطابي، حمد بن محمد ـ ت٣٨٨ ـ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.

١٤٨ـ **معجم الأخطاء الشائعة**. لمحمد العدناني ـ ت١٤٠١ ـ، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٣.

١٤٩ـ **المعجم الكبير**. للطبراني، سليمان بن أحمد ـ ت٣٦٠ ـ، طبعة حمدي عبد المجيد، ط١، الدار العربية للطباعة، بغداد ١٤٠٠.

١٥٠ـ **المعجم الوسيط**. مجمع اللغة العربية في القاهرة، تصوير دار الفكر، بيروت.

١٥١ـ **المعجم الأوسط**. للطبراني، سليمان بن أحمد ـ ت٣٦٠ ـ، تحقيق طارق عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، ط١، دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥.

١٥٢ـ **معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه**. للحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله ـ ت ٤٠٥ ـ، تحقيق أحمد فارس السلُّوم، ط١، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٤.

١٥٣ـ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**. لابن قيِّم الجوزية، محمد بن أبي بكر ـ ت٧٥١ ـ ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩.

١٥٤ـ **مفردات ألفاظ القرآن**. للراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد ـ ت٤٢٥ تقريباً ـ، تحقيق صفوان داودي، ط٢، دار القلم، دمشق ١٤١٨.

١٥٥ـ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**. للسخاوي، محمد بن عبد الرحمن ـ ت٩٠٢ ـ، تحقيق عبد الله بن الصديق الغماري، مصورة دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩.

١٥٦ـ **مقدمة ابن خلدون**. لابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ٨٠٨، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٣.

١٥٧ـ **من صحاح الأحاديث القدسية**. لمحمد عوامة، ط١، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة ١٤١٣.

١٥٨ـ **المنتقى من مكارم الأخلاق**. للخرائطي، محمد بن جعفر ـ ت٣٢٧ ـ، انتقاء أبي طاهر السِّلفي، تحقيق محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير، ط١، دار الفكر، دمشق ١٤٠٦.

١٥٩ـ **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**. للقسطلاني، أحمد بن محمد ـ ت ٣٢٣ ـ، مع شرحه للزرقاني، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩.

١٦٠ـ **الموطأ**. لمالك بن أنس ـ ت١٧٩ ـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مصورة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦١ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**. للذهبي، محمد بن أحمد ـ ت٧٤٧ ـ، نشرة علي محمد البجاوي، مصورة دار المعرفة، بيروت، عن طبعة مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٢.

١٦٢ـ **الميزان الكبرى**. للشعراني، عبد الوهاب بن أحمد ـ ت ٩٧٣ ـ، المطبعة الكستلية ١٢٧٩.

١٦٣ـ **نصب الراية لأحاديث الهداية**. للزيلعي، عبد الله بن يوسف ـ ت٧٦٢ ـ، تقديم وتصحيح محمد عوامة، مصورة دار القبلة بجدة ١٤١٨، لطبعة دار المأمون بمصر ١٣٥٧.

١٦٤ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**. لابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد ـ ت٦٠٦ ـ، تحقيق محمود الطناجي، ط١، عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣.

١٦٥ـ **نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول**. للحكيم الترمذي، محمد بن علي ـ ت٣٢٠ ـ مصورة دار صادر بيروت، دون تاريخ.

١٦٦ـ **الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب**. لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر ـ ت٧٥١ ـ، تحقيق حسن إسبر، ط١، دار بن حزم، بيروت ١٤٢٤.

١٦٧ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. لابن خلِّكان، أحمد بن محمد ـ ت٦٨١ ـ، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت.

* * * * *

الفهرس الإجمالي

* * * * *

فهرس الموضوعات التفصيلي

* * * * *